

مذكرات زوجة دستوفسكي

آنا جريجوريفنا دستوفسكايا



ترجمة أنور إبراهيم

مذكرات زوجة دستوفسكي

تأليف

آنّا جريجوريفنا دستوفسكايا

ترجمة

أنور إبراهيم



Воспоминания А.Г.Достоевской

مذكرات زوجة دستوفسكي

Анна Григорьевна Достоевская

آنّا جريجوريفنا دستوفسكايا

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٣٨ ٠

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٩٢٥.

صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٥.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أنور إبراهيم.

المحتويات

٧	إهداء
٩	مقدمة
١١	المقال الافتتاحي
٤٧	مدخل
٤٩	المذكرات
٥١	١- الطفولة والشباب
٦١	٢- التعرف على دستويفسكي والزواج منه
١٣٣	٣- الأيام الأولى في حياتنا الزوجية
١٧١	٤- الإقامة في الخارج
٢٤٧	٥- في روسيا من جديد
٢٨٧	٦- العمان ١٨٧٢-١٨٧٣ م
٣١٧	٧- العمان ١٨٧٤-١٨٧٥ م
٣٥٧	٨- العمان ١٨٧٦-١٨٧٧ م
٣٩١	٩- العمان ١٨٧٨-١٨٧٩ م
٤٢٥	١٠- العام الأخير
٤٥٧	١١- الوفاة. الدفن
٤٨٣	١٢- ما بعد موت فيودور ميخايلوفيتش

مذكرات زوجة دستوفسكي

٥٠٣

خاتمة مذكراتي

٥٠٥

التعليقات

٥٠٩

المصادر والاختصارات

إهداء

إلى ذكرى الراحل العظيم المثقف
والمترجم الدكتور سامي الدروبي.

المترجم

مقدمة

اعتدتُ منذ أيامي الأولى في البعثة إلى الاتحاد السوفييتي للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة موسكو الحكومية؛ أن أزور المكتبات لجمع ما تيسّر من الكتب في تخصّصي؛ «تاريخ الأدب الروسي» (أي الأدب الروسي الكلاسيكي قبيل ثورة ١٩١٧م). كانت رذّات الجامعة أيضًا مكانًا مميّزًا للحصول على كافة إصدارات دُور النشر السوفييتية، فضلًا عن الإصدارات الجامعية وإصدارات أكاديميات العلوم في كافة التخصّصات، وقد لفت انتباهي وفرة الكتب التي تتناول دراسة مصر والمنطقة العربية في مجالات التاريخ والفنون والسياسة والأدب، وهنا لم يكن أمامي سوى أن أتخيّر من بينها ما رأيْتُ أنه على درجةٍ من الأهمية للباحثين والمُؤرّخين وطلاب العلم. وقد بدأتُ فورَ عودتي في ترجمةٍ عدٍ من المقالات في المجلات والدوريات، جمعتها لاحقًا في كتاب، ثم شرعت في ترجمةٍ كتبٍ في التاريخ والسياسة، وهي كتب تضم بين صفحاتها وثائقٌ مجهولةٌ بالنسبة لنا نظرًا لثراء الأرشيف الروسي بهذه المخطوطات. الآن أقدمُ عبر «مؤسسة هندراوي» المحترمة حصيلةً ما أنجزته خلال سنواتٍ طويلةٍ من العمل في ترجماتٍ صدرت عن دُورٍ نشرٍ مرموقة، وجَدتُ جميعها صدًى جيدًا لدى القراء والباحثين وأساتذة الجامعات المهتمين.

أنور إبراهيم
القاهرة. ٢٠٢١م

المقال الافتتاحي

آنا جريجوريفنا ومذكراتها

يصف الممثل الروسي الشهير ل. م. ليونيدوف انطباعه عن لقائه بآنا جريجوريفنا بدستوفسكايا قائلاً: لقد رأيت واستمعت إلى «شيء ما»، شيء لا شبيه له، ولقد شعرت من خلال هذا «الشيء ما»، خلال هذا اللقاء الذي استغرق عشر دقائق، بدستوفسكي من خلال أرملته. إن مائة كتاب عن دستوفسكي لم تكن لتعطيني ما أعطاه لي هذا اللقاء. لقد أحسست بأنفاسه قريبة مني. وإنني لعلّ يقين أن هذا الجو موجود دائماً لديه مع زوجه...^١ إن كلمات ليونيدوف هذه يمكن تطبيقها تماماً على مذكرات آنا جريجوريفنا؛ تلك المذكرات التي تشغل مكانة خاصة في أدب المذكرات الهائل والمتناقض الخاص بدستوفسكي. إن هذه المذكرات هي أكثرها صدقاً، وهي تعتمد على حقائق اختيرت وحُققت بدقة، إنها حديثٌ حي عن دستوفسكي في أكثر فترات إبداعه خصوصية (١٨٦٦-١٨٨١م)، تلك الفترة التي وضع الكاتب فيها الروايات — المآسي — من «الجريمة والعقاب» وحتى «الإخوة كارامازوف».

وُلِدَتْ آنا جريجوريفنا في الثلاثين من أغسطس عام ١٨٤٦م في أسرة الموظف البسيط من بطرسبورج جريجوري إيفانوفيتش سنيتكين. كان أبوها ودوداً ذا طبيعة محبة

^١ ل. م. ليونيدوف، مذكرات ومقالات ومناقشات ومراسلات ومقالات وذكريات عن ل. م. ليونيدوف، دار نشر إيسكوستفو (الفن)، موسكو، ١٩٦٠م، الصفحات ١٢٦-١٢٧.

للحياة، وكان في شبابه مولعًا بالمسرح والأدب إلى جانب أنه كان من أشدَّ المعجبين بأعمال دستوفسكي. وقد استمعتُ أنا جريجوريفنا إلى هذا الاسم للمرة الأولى في حياتها منه. وفي السادسة عشرة من عمرها أدت امتحانا في قصة «نيتوتشكا نيزفانوفا» (كانت الأسرة تطلق عليها آنذاك اسم «نيتوتشكا») وكم من الدموع الساخنة ذرفتُها أنا إبان قراءتها لمذكرات من البيت الميت.^٢ وهكذا أصبح دستوفسكي هو كاتبها المفضل منذ الطفولة.

أنا نيكولايفنا ميلتوبيوس والدة أنا جريجوريفنا من أصل سويدي فنلندي، امرأة تختلف تمامًا عن زوجها المتحمس غير العملي، فهي حيوية، مسيطرة، كانت هي ربة البيت الفعلية. لقد أضفت طبيعة الأب المرح والصريحة إلى جانب الأم المتحفظة الدقيقة جواً من الهدوء والسعادة النادرة على أسرة سنيكين حتى إن أنا عاشت صباها دونما كدر يُذكر. لم تكن أنا تفكر في المستقبل إلا قليلاً، ولم تكن تحمل الاختزال، الذي كانت تتلقى دروسه على يد أستاذها الشهير آنذاك البروفيسور أولخين، محمل الجد، غير أن حماس الشباب كان مقدراً له أن يلعب دوراً حاسماً في حياة أنا جريجوريفنا. في عام ١٨٦٦م توفي أبوها وتغيرت على أثر ذلك أحوال الأسرة. هنا أصبح لزاماً على أنا جريجوريفنا، التي لم تكن ترغب في أن تظل في وضع التبعية المادية لوالدتها، أن تضع ما اكتسبته من معرفة بالاختزال موضعاً عملياً. آنذاك أوصى أحدهم دستوفسكي بأن تعمل لديه هذه المختزلة المبتدئة. وفي الرابع من أكتوبر ١٨٦٦م تمَّ التعارف بينهما. وعن هذا اللقاء يحكي دستوفسكي في أحد خطاباتة قائلاً: «أرسل إلي أولخين، أستاذ الاختزال، أفضل تلميذاته. كانت أنا جريجوريفنا سنيكين فتاة في ريعان الصبا، تبلغ من العمر عشرين عاماً، جميلة، من أسرة طيبة، أنهت المدرسة الثانوية بتفوق. تتمتع بشخصية واضحة وديعة للغاية. وقد سار عملنا معاً على نحو رائع.»

دفع العمل المستقل والمتوتر الميء بالمتعة والطرافة، بالحماس الشديد لهذه الفتاة الشابة. وكان لاعتراف دستوفسكي عن حياته الصعبة المأساوية أثره في خلق شعور الإعجاب بالطبيعة الشاعرية للكاتب ووُلد إحساساً عميقاً لديها بالعطف على هذا الإنسان الوحيد سيئ الحظ الذي عانى الكثير. وشيئاً فشيئاً أصبح دستوفسكي مسيطراً على

^٢ «مذكرات من البيت الميت» هو اسم الرواية التي نشرها دستوفسكي كاملة عام (١٨٦١م)، وتعرف في العربية باسم «ذكريات من منزل الأموات» والمقصود بالبيت الميت هو سيبيريا، التي نُفي إليها الكاتب بعد اتهامه بالاشتراك في مؤامرة ضد القيصر. (المترجم)

أفكارها جمعاء. يذكر دستوفسكي تلك الظروف غير العادية التي صاحبت زواجه قائلاً: «عندما أخذت الرواية تقترب من نهايتها لاحظتُ أن المُختلّة تحبني بإخلاص، بالرغم من أنها لم تذكر لي كلمة واحدة عن هذا الأمر. أما أنا فقد كان إعجابي بها يزداد يوماً بعد الآخر، ومنذ مات أخي وجدّتي أشعر بوحشة رهيبة وأصبحت حياتي صعبة، عندئذٍ بادرتُها بطلب الزواج ... إن الفارق بيننا في العمر شاسع (عشرون، وأربع وأربعون) ولكن قناعتي تزداد أكثر فأكثر أنها سوف تكون سعيدة. إن لديها قلباً وإنها لقادرة على الحب.»^٢ لم يكن طلب دستوفسكي لها أمراً غير متوقع؛ فقد كانت منذ فترة بعيدة مستعدة نفسياً لهذا الأمر، ودون تردّدٍ أعطت ردها بإيجابٍ كله إصرار؛ الأمر الذي لم يبعث بالسرور في نفوس أقاربها (نفس ما حدث مع أقارب دستوفسكي). لقد قرر الجميع أن هذه الرابطة غير متكافئة ولا مفهومة وطائشة، على أن أنا جريجوريفنا لم نُول اهتماماً للنصائح «الحكيمة» التي أسداها إليها أصدقاؤها وأقاربها، رافضة إياها بكلّ الحزم والشجاعة التي تميّز بها جيل الشباب في تلك السنوات. فيما بعدُ أجابت على سؤالٍ حول قرارها الزواج من رجل عمره ضعف عمرها، رجل سبق اعتقاله، أرمل يحمل عبء أقارب كثيرين وديوناً ثقيلة بقولها «ألم أكن إحدى فتيات الستينيات؟! بالطبع فإن أنا جريجوريفنا لم تكن من فتيات «الستينيات» بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، فقد كان تدبُّنها ووجهات نظرها المختلفة واضحة تماماً. على أن جوّ الستينيات المنعش، سنوات الآمال المفتحة، كانا قد تركا آثارهما على أنا جريجوريفنا. إن قرار دراسة الاختزال والشجاعة التي اتخذت روح العصر في الموافقة على الزواج من دستوفسكي والجدل الحاد معه بشأن «العدميين» ورسالة المرأة، وأخيراً حياتها الماثرة مع هذا الزوج، والنشاط الذي لم ينقطع بعد وفاته، كلها أمور تضرب بجذورها إلى الستينيات، إلى خلق «مفكر البروليتاريا» وإلى طباع ذلك الشباب الذي رفض، بجرأة لا مثيل لها، أن يخضع للمعتقدات الاستبدادية البالية.

كانت الشهور الأولى بعد الزفاف المتواضع الهادئ هي على ما يبدو أصعب الأوقات التي مرت بآنا جريجوريفنا: كان من العسير التعود والتأقلم مع شخصية غير عادية على الإطلاق؛ شخصية «مريضة» تُعاني من داء الصرع الذي لا براء منه. إلى جانب هذا فقد كانت علاقة أنا بأسرة الكاتب قد تكوّنت على نحوٍ بالغ التعقيد. كان لنمط الحياة العصبي

^٢ فيودور دستوفسكي، الخطابات، الجزء الثاني، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٠م، ص ٣.

القلق الفوضوي لدى آل دستوفسكي، والذي يختلف تمام الاختلاف عن ذلك النمط المشبع بالروح الأبوية لدى آل سنيتكين، وكذلك ما أصاب أنا جريجوريفنا من صغائر الأذى الظالم على يدي ابن زوجها الأثاني الشرير، فضلاً عن زوج بعيد غريب الأطوار في أمور كثيرة؛ كان لهذا كله، باختصار، أثره في بث مشاعر الخوف والاضطهاد في نفس هذه المرأة الشابة حتى بدا لها أن الانفصال أمرٌ لا مندوحة عنه.

عن شكوكها ومعاناتها في تلك الفترة، كتبت أنا جريجوريفنا بصراحة تقول: «كان حُبي عقلياً خالصاً، مثالياً، كان على الأصح عبادة، انحناءً أمام إنسانٍ موهوب إلى أبعد حد، إنسان يمتلك هذه الخصال النفسية الرفيعة. كانت روحي تتملّكها الشفقة نحو هذا الرجل الذي عانى الكثير ولم يعرف السعادة والسرور قط (...) على أن هذا كله لم يكن سوى المشاعر السامية والأحلام التي كان باستطاعة الواقع القاسي أن يُحطمها. لقد حلّ بي، شيئاً فشيئاً، زمن الشك وسوء الفهم بفضل تلك الظروف التي أحاطت بي. لقد أحببته حقاً بحرارة، على أن كبريائي لم تكن لتسمح أن أبقى معه لو تأكد لي أنه لم يعد يُحبني. بل لقد تصوّرت أيضاً أن عليّ أن أضحي من أجله، أن أتركه ما دامت حياتنا معاً، كما يبدو، صعبة عليه.»

على أنه لا الانفصال ولا الكارثة قد وقّع، وهو أمرٌ يرجع بالدرجة الأولى لما تمتعت به أنا جريجوريفنا من حُزمٍ وطاقّة (ناهيك عن أنه من العجيب أنها، كما اعترفت هي نفسها فيما بعد، كانت آنذاك مجرد طفلة). وسرعان ما بذلت أنا كل ما في وسعها لتغيير الوضع من أجل السفر للخارج، بعيداً عن الاضطرابات المنزلية وفوضى الحياة في بطرسبورج. الحقيقة أن أنا جريجوريفنا في معرض تفسيرها للأسباب التي كانت وراء السفر إلى الخارج — كما ذكرت هي نفسها فيما بعد، وإن بصورة ذاتية من جانب واحد — كانت، الرغبة فقط في إنقاذ الأسرة.

في خطابه لمايكوف يصف دستوفسكي نفسه هذه الرحلة بأنها كانت ضرورة مُلحة وإن اعتبرها خطوة صعبة. يقول دستوفسكي لصديقه: «هناك سببان رئيسيان، الأول: إنقاذ صحتي فضلاً عن حياتي ذاتها ... والثاني ما يحيط بي من ظروف: لم يعد الدائنون يُطيعون صبراً.»^٤ لم تذكر أنا جريجوريفنا أي شيء هنا عن حالة الاضطراب والاكتئاب

^٤ فيودور دستوفسكي، الخطابات، الجزء الثاني، ص ٢٥.

التي كان عليها دستوفسكي هذه المرة لدى مُغادرته روسيا. كانت الهواجس تُمزّق الكاتب مزقًا. كان الرعب يتملّكه بتأثير وسواس المقامرة ثمّ الخوف من العجز عن الكتابة بعيدًا عن الوطن والقلق على أنّا جريجوريفنا التي تمرّ بتجربة السفر إلى الخارج للمرة الأولى. «سافرت، ولكن هذه المرة كان الموت يُخيّم على قلبي: لم أكن أومن بالخارج؛ بمعنى أنني كنت أومن أن الأثر المعنوي للخارج سيكون غاية في السوء عليّ، وحيّدًا مع مخلوق في ريعان الشباب، يسعى جاهدًا بفرحٍ ساذج أن يُقاسمني حياة غريبة الأطوار؛ وإذا بي أنظر فلا أرى في هذا الفرح الساذج سوى قدرٍ كبير من افتقاد التجربة والاضطراب، الأمر الذي كدّر من صفوي وزاد في تعذّبي ... إنني شخص مريض، وقد أدركتُ سلفًا أنها سوف تُعاني الكثير معي (ملحوظة هامة: في الحقيقة لقد اتضح أن أنّا جريجوريفنا أقوى وأعمق مما كنت أعرفه عنها ...)»^٥ على هذا النحو يصف دستوفسكي لصديقه مايكوف هواجسه الثقيلة.

في الوقت نفسه فقد قام التقارب الحقيقي بين دستوفسكي وزوجه هنا في ربوع درزندن وبادن وجينيف وفلورنسا، بعيدًا عن الحياة الرتيبة في بطرسبورج، وتحولت مشاعر المودة الهشة «العقلية»، التي كانت تُنذر من كل الجهات بوقوع كارثة أكيدة، إلى عاطفةٍ جادة. استطاعت أنّا جريجوريفنا، بعد أن رسخ إيمانها إلى الأبد بحُب دستوفسكي المُخلص لها، أن تتحمّل بشجاعة فائقة ورباطة جأش نادرة كل المصائب التي اختصّها بها القدر وعلى نحوٍ سخي. أشرك دستوفسكي أنّا في كل مُتّعهِ وعذاباته: إن كونها زوجًا له كان يعني الاستمتاع بالسعادة والعيش في كنف عبقرية؛ فضلًا عن تحمّلها المسؤولية بصفتها ربة البيت والأم والصدر الرعوم و«السكرتيرة». كان دستوفسكي بحاجة إلى من يُحيطه باهتمام وعناية شديدين. كتب م. ألكسندروف، الذي كان يعمل في تنسيق الصحف والذي كان يتردّد كثيرًا على أسرة دستوفسكي يقول:

«استطاعت أنّا جريجوريفنا على وجه العموم أن تُحيط صحة زوجها المُتعلّلة بالرعاية التامة وأن تُضَعّه، حسب تعبيره، على أكفّ الراحة كما لو كان طفلًا، كما أظهرت كثيرًا من اللين والتساهل في معاملتها إيّاه ممزوجًا باللباقة المهذبة، وأستطيع أن أقول بكل ثقة

^٥ المرجع السابق.

إن فيودور ميخايلوفيتش وأسرته، وعلى نفس الدرجة أيضًا كثيرًا من المُعجبين به، مدينون جميعًا بعددٍ من سنوات عمرهم لها.^٦

كتبت أنا جريجوريفنا بتقديرٍ وتحفُّظٍ عن مرض دستوفسكي، ورغم هذا فإننا نشعر أكثر بالألم المكبوت والخوف المستمر على حياة زوجها. عبّرت أنا في حديث لها مع أ. إسماعيلوف عن أشياء كان مجرد التفكير فيها، لا كتابتها، أمرًا لا يُحتمل. تقول أنا: «إنني أتذكر حياتنا الأسرية بوصفها أيامًا من السعادة العظيمة التي لا نستحقها. على أنني كثيرًا ما كنتُ أكفّر عن هذه السعادة بالألم العظيم. كان مرض دستوفسكي الرهيب يُهدّد بتدمير هئائنا في أي لحظة، الأمر الذي كان يعكر، بداهة، صفو سعادتي بالقرب منه ... كان وقف هذا المرض والشفاء منه، كما تعلم، أمرًا مستحيلًا. كل ما كان باستطاعتي أن أفعله هو أن أفك أضرار ياقته وأن أضمّ رأسه بين يدي. أما أن ترى وجه محبوبك وقد أخذ في الزُّرقة والتشوّه، وقد احتقنت عروقه، أن تعي أنه يتألم وأنت عاجز عن أن تقدم له أي قدر من العون، فقد كان ذلك صنفًا من صنوف العذاب، الذي كان عليّ، بداهة، أن أدفعه كفارة سعادتي بالقرب منه. لقد تمتع دستوفسكي في الفترة التي عاشها معي بصحة أفضل نسبيًا. كانت النوبات التي تعتريه قبل ذلك أكثر بكثير. كان فيودور ميخايلوفيتش يبدو خلالها وكأنه يُفارق الحياة.»^٧

إنّ فترة التعارف الأولى كان دستوفسكي يملي على مختزلته الشابة رواية «المقامر» التي انعكست على صفحاتها ملامح من السيرة الذاتية للكاتب: الهوى العنيف الجامح بالمقامرة، وهو هوّى بدا ألا سبيل إلى مقاومته حتى نهاية العمر ثم الحب والكراهية نحو أبولوناري سوسلوف «الجهنمية».^٨ لم يكن محض صدفة أن دستوفسكي قد أولى اهتمامًا لرأي سنيتكين^٩ بشأن بطل الرواية. أدانت أنا جريجوريفنا، بكل ما في الشباب من حزم، ألكسي إيفانوفيتش (بطل المقامر) لضعف شخصيته. لكن سرعان ما تحوّل الموقف الأدبي

^٦ دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الثاني، خوجستفينا ليتيراتورا، موسكو، ١٩٦٤م، ص ٢٤٦.

^٧ أ. إسماعيلوف، في ضيافة أنا دستوفسكايا (في ذكرى خمسة وثلاثين عامًا على وفاة فيودور دستوفسكي). صحيفة «بيرجيفي فيدوموستي»، ٢٨ يناير ١٩١٦م. العدد ١٥٣٥٠.

^٨ أبولوناري سوسلوف: صديقة الكاتب، سافرت معه إلى الخارج. (المترجم)

^٩ اسم عائلة أنا قبل الزواج. (المترجم)

إلى واقع؛ ومرة أخرى تجد أننا جريجوريفنا، الزوجة الشابة وقد وضعت الحياة نفسها في طريقها نفس المشكلة.

كان سوء الأحوال المادية المستمر، إلى جانب الديون والدائنين، يُعذب أننا جريجوريفنا. لكن الأمر الأكثر مرارة كان إدراكها مدى القسوة التي كانت المقامرة تستحوذ بها على دستوفسكي. تقول أنا: «على أنني سرعان ما أدركت أن الأمر ليس مجرد مسألة «ضعف إرادة» بسيطة، وإنما شهوة فرضت كامل سيطرتها على إنسان، قوة طبيعية تعجز حتى أقوى الشخصيات عن التصدي لها ومقاومتها، يجب التسليم بذلك واعتبار الأمر ... مرضاً لا تملك حيالهُ حولاً أو قوة.»

غير أن ما اعتبرته أنا جريجوريفنا وسواساً ومرضاً كان دستوفسكي يعي أنه احتياج مُلح ينبع من خاصية طبيعته؛ لقد انعكس عدم الاتزان والطبع الحاد للفنان، بطريقته، في هذا الواقع الطويل الياثس بالمقامرة، ويمكن أن نلمس هذه الحمية وهذا الجموح في رواياته. أما أنا جريجوريفنا فقد كُفّت هي نفسها منذ زمنٍ بعيدٍ عن تصديق القَسَم والوعود التي قطعها زوجها على نفسه أن يهجر اللعب، كما لم تُصدّق خطاب التوبة الذي وصلها من فيسبادن والمؤرّخ ٢٨ أبريل ١٨٧١م والواقع أن هذا الخطاب كان وداعاً «للوهم».

إن دستوفسكي يدين بخلاصه من سلطان المقامرة، أولاً وقبل كل شيء لأننا جريجوريفنا، ولما تحلّت به من صبرٍ جميل وشجاعة ونبل. كتب لها دستوفسكي قائلاً: «سأظلُّ ما حييتُ أذكر لك هذا وفي كل مرة سوف أدعو لك يا ملاكي بالتوفيق. كلاً، أنا الآن لك كلية، لك تماماً. أما قبل ذلك فقد كان نصفي ملكاً لهذا الوهم الملعون.»^{١٠} لقد اكتملت عملية «الالتئام» هذه فقط بعد تلك الخطوة الحاسمة، وسوف يُكرّر دستوفسكي في خطابات السنوات اللاحقة أنه يشعر «بالتصاقه» بالأسرة وأنه لم يعد يستطيع تحمّل الفراق ولو كان قصيراً.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإن العديد من خطابات دستوفسكي لأننا جريجوريفنا تؤكد مدى الإخلاص العميق في مذكراتها؛ فضلاً عن أنها ترسم صورةً لزوجة الكاتب بوصفها شخصيةً إنسانية غير عادية وطراراً خاصاً للمرأة الروسية المتنوّرة في النصف الثاني من القرن الماضي. إن جوّ الحبّ المُشرق والاحترام المتبادل والحنان، هي المشاعر

^{١٠} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، الجزء الثاني، ص ٣٤٩.

السائدة هنا سواء في الخطابات أو المذكرات. بعيداً عن آناً جريجوريفنا يشعر دستوفسكي «بالكآبة المؤلة». «وها أنا مُقتنع يا أنيا أنني بعد اثني عشر عاماً لا أحبك فقط وإنما أنا مُتيم بك وأنت سيدتي الوحيدة.» (من خطابات عام ١٨٧٩م). إن خطابات دستوفسكي التي أرسلها لآناً جريجوريفنا على امتداد حياتهما الزوجية التي دامت أربعة عشر عاماً تمتلئ جميعها دون استثناء بمشاعر المؤدة الفتية الجياشة.

هذا الاستمرار وامتلاء المشاعر يُفسره أيضاً أن آناً جريجوريفنا لم تكن بالنسبة لدستوفسكي مجرد زوجة محبوبة، امرأة جذابة، وإنما شخصية إنسانية واضحة، متفردة، تبعث على الاحترام، «شخصية ضرورية»، «لا غنى عنها» كان دستوفسكي يُقدّر «طبيعتها القوية الحساسة»، «كمالها ووضوحها». إن آناً جريجوريفنا هي «مساعدتي المُخلصة وهي سلواي». كم من مرة كثر دستوفسكي هذه الكلمات في خطاباتهِ وعلى مسامع أصدقائه. وقد كتب دستوفسكي لزوجته بكل ما يملك من إعجاب قائلاً: «لو أنك ملكة ولديك مملكة بأسرها، أقسم لك لتحكيمينها كما لا يستطيع أحد سواك، يا لكائك وحكمتك ويا لله من قلبٍ وحسن تدبير لديك.»^{١١} لقد راقى لدستوفسكي هذه الهبة الطبيعية لدى آناً جريجوريفنا، معرفتها باللغات، ما تملكه من ذوقٍ نحو الرحلات وحُب للمعرفة والقدرة على «النظر والتعلم»، وأخيراً تخصصها في الاختزال؛ هذا «الفن الرفيع»^{١٢} من وجهة نظر الكاتب والذي جعل منها «رفيقة» فن بكل معنى الكلمة، أهدى دستوفسكي روايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف»، اعترافه، بالتحديد لهذه المرأة؛ لهذا المُساعد الذي لا يكل، للإنسان الذي ضحى بأن قاسمه حُزنه وفشله، همومه ومخاوفه، كما شاركه أيام السرور والسعادة. وإن إهداء واحدة من أعظم روائع الأدب العالمي لآناً جريجوريفنا لا يمثل علامة حب دستوفسكي المخلص واحترامه العميق فقط، إنما هو اعتراف بفضلها الذي لا يُنكر على الأدب الروسي. من يدري لعل هذه العناية الدءوبة والحب الفعال لهذه الزوجة قد وهبا الكاتب تلك السنوات من العمر والتي كانت ضرورية له ليُنجز هذه الرواية العظيمة. لقد عادت آناً جريجوريفنا بعد رحلة السنوات الأربع خارج روسيا شخصاً مختلفاً تماماً، فلم تعد تلك الشابة الساذجة العديمة الحيلة التي كانت من قبل، وإنما امرأة صاحبة

^{١١} ف. م. دستوفسكي، خطابات إلي زوجته، موسكو، ١٩٢٦م، ص ٢٠٨.

^{١٢} «إن الاختزال لَفَنٌ رفيع.» ... هذا ما كتبهُ دستوفسكي إلي صوفيا إيفانوفنا (ابنة أخته)، مُوصياً إيّاها بامتلاك ناصية هذا التخصص.

إرادة قوية لا تسمح بتدخل الغرباء ولا بنصائحهم الطفيلية لمن هي ربة المنزل، امرأة خبرت الحزن المُضَّ (كانت وفاة ابنتها البكر سونيا مُصيبة قاربت بين الزوجين بشدة)، كما عاشت السعادة الكبرى في الحياة في كنف فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكي. تلخص أنا جريجوريفنا مُحصلة سنوات الهجرة وهي تتذكر بكل العرفان بالجميل هذا الزمن القاسي والرائع بقولها «بارك الله هذه السنوات الرائعة التي قُيِّض لي أن أقضيها في الخارج وحيدة تقريباً إلا من هذا الإنسان الرائع بما يحمله من خصال نفسية رفيعة!» لقد أصبحت أنا جريجوريفنا الآن مُعدةً إعداداً جيداً للحياة في بطرسبورج كما أصبحت تفرض حمايتها بصورة مُنظمة وحازمة على زوجها من كل ما يُنغصه، سواء من هموم الحياة اليومية المرهقة أو ادعاءات أقاربه التي لا تنتهي.

لم يقف أمر رعاية الأطفال أو الاستقرار المادي حائلاً بين أنا جريجوريفنا وأهم ما في حياتها ألا وهو العمل الأدبي لدستويفسكي. كانت أنا تعمل بحماس بالغ ناسيةً نومها وراحتها، قامت بكتابة روايات زوجها اختزالاً وكانت القارئة والناقدة الأولى لها ثم أعادت كتابة المسودات بخط يدها بشكل واضح، كما كانت تقرأ النصوص بعد تصحيحها وتقوم على تنظيم تنسيق الكتب ثم تسويقها. وفي أوقات الفراغ، التي نادراً ما كانت تسنح لها، كانت أنا تعيد قراءة، أو على الأصح، كانت تقرأ للمرة الأولى، كما يجب، نفس هذه المؤلفات التي قامت باختزالها وتصحيحها منذ أمٍ غير بعيد: «كنت دائماً ما أصطحب في رحلاتي مجلداً أو اثنين من مؤلفات زوجي ثم أشرع في قراءتها، لا بصفتي مُصححاً (كما حدث وقرأتها إبان إصدارها) يتحري دقة النص، وإنما كأني قارئ عادي بسيط. كم من المتعة وجدت عند قراءتي التي لم تُعد تشوبها العجلة! كم من جديد مفاجئ تكشف لي في رواياته. وكلما سارت بي الحياة قدماً للأمام، تسنّت لي معاناة السرور والحزن في طريقي وأصبحت أعمال زوجي خالد الذكر بالنسبة لي أكثر عمقاً عن ذي قبل».^{١٣}

لقد ملأ الفخار قلب أنا جريجوريفنا بعد أن تعاضمت في السنوات الأخيرة من حياة دستويفسكي شعبيته ككاتب وروائي ودان المجد لمؤلف «الإخوة كارامازوف» و«خطاب عن بوشكين». لقد رأت أنا في نجاح زوجها واعتراف جمهور القراء بموهبته، جزءاً ولو يسيراً مما بذلته من جهد. لكن للمجد وجهه الآخر: إصابة الحياة بالاضطراب، المعجبين والمعجبات

^{١٣} أ. ج. دستويفسكايا، المذكرات، مكتبة الدولة بالاتحاد السوفيتي باسم لينين ف ٩٣، المجلد الثالث.

الذين حاصروا الكاتب، الزيارات التي لا تنقطع والدعوات لقراءة أعماله في الأمسيات الأدبية. أمور اقتطعت جزءًا كبيرًا من وقت دستوفسكي وجذبت أنا جريجوريفنا عنوة نحو دائرة الأمسيات التي تؤمها الصفوة، ثم التعارف بهذا وذاك، أشياء كانت أنا تشعر فيها بالغربة وكانت تفضل عليها أي نقاش بصحبة زوجها في جو عائلي هادئ سوي. لقد كان مقدرًا على أنا جريجوريفنا أن تنوء بهذا الجمل البغيض؛ كونها زوجًا لرجل ذائع الصيت وخاصة إبان تلك الأيام المريرة، أيام وفاة ودفن دستوفسكي، وكانت قد ظننت أنها لن تُعاني في يوم من الأيام مرارة فقده. ودّت أنا آنذاك لو أُخِل بينها وبين حزنها، ودّت لو عاشت تلك اللحظات بين أحبائها والقريبين من نفسها، لقد عذبتُها الاجتماعات التي لا تنتهي وأرهقتها الخطب القاسية المُكرّرة التي تُذكّرها «بالرجل الذي فقدته روسيا».

ظَلَّت أنا جريجوريفنا فترةً طويلة مُحجّمة عن كتابة مذكراتها كما ظَلَّت أيضًا راغبةً عن نشر خطابات دستوفسكي التي كتبها إليها. تقول أنا في حديث لها إلى الصحفي ك.ي. أتينجر: «لست أدبية، ناهيك عن إحساسي بالخوف أن يُعَدَّ الناس هذا العمل نوعًا من الزهو والغرور؛ فضلًا عن ذلك فأنا أرى أنه من المستحيل أن أقوم بنشر خطابات فيودور ميخايلوفيتش لي قبل وفاتي. ليس لدي أيُّ قدر من الغرور. إن الناس يولونني قدرًا كبيرًا من مشاعر الحب والتقدير بصفتي أرملة دستوفسكي، الأمر الذي يجعل من الرغبة في تحقيق مجدٍ شخصي أمرًا غريبًا عني تمامًا».^{١٤}

قليلون هم أولئك الذين تسنى لهم، من بين معاصري الكاتب، أن يفتنوا إلى المكنون داخل دستوفسكي الإنسان. إن معظم المذكرات الشيقة الموهوبة التي كُتبت عن دستوفسكي (ن. سترخوف، أ. سوسلوف، فسيفولد سولوفيوف، م. ألكسندروف، أ. بوتشينكوفسكايا) تُدهشنا بما تحويه من اختلافاتٍ عجيبة وبما تضمه بين ثناياها من أحكام متناقضة مما يجعلنا نخرج بعد قراءتها بانطباعات تشي — شئنا أم أبينا — بالازدواجية في شخصية دستوفسكي واستحالة الإحاطة بكل جوانبها. إن الرجل العبقري عندما يُغادر الحياة يترك أهم ما لديه — أعماله التي تُسجل حكمته وعاطفته وسمو روحه — ولكنه يظلُّ في جانب منه دائمًا لغزًا. لقد كان دستوفسكي مُحققًا

^{١٤} ك. أتينجر، في ضيافة أرملة دستوفسكي، صحيفة «بيرجيفي فيدوموستي»، ٣٠ يناير ١٩٠٦م، العدد ٩١٧٨.

تماماً عندما قال عن بوشكين إن على مُعاصريه ومن يَجِيئون من بعده أن يكشفوا لغزهِ. على أي الأحوال فإننا ندرك بوشكين ونفهمه على نحو أكمل وأوضح مما ندرُكُه ونفهمه عن دستوفسكي، بل إننا نملك القدرة على فهم ورسم صورة أوضح لعملاق آخر هو ليف تولستوي، وإن كانت خطوطها خشنة، إلا أنها تُبَيِّن لنا ملامحه أكثر حدةً وجلاءً. مثل هذا الأمر لا ينطبق على دستوفسكي مُطلقاً؛ فعندما يبدو لنا أننا وضَعْنَا أَيْدِيَنَا على جانب بارز هنا من جوانب شخصية أو ملمح ما جوهريٍّ فيها، نعثر هناك على ما يحجب ما قد وجدناه. وما يُقال بشأنه من أساطير، تدحضه على الجانب الآخر تماماً تفسيرات مُختلفة اختلافَ اللَّيْلِ والنهار. إن دستوفسكي في ضوء ما كتب مُعاصروه مُتقلِّبُ الأهواء، مُتعدِّدُ الأوجه، يُعَدُّ أحياناً شخصاً منفراً يثير الشعور بالكراهية الشديدة، وفي الوقت نفسه نجد صورةَ المثالي الرومانسي التَّقِيّ تفيضُ ألقاً على صفحات مذكراتٍ أخرى.

من هو دستوفسكي الحقيقي؟ ما هي طبيعته المتفردة، التي انتقلت مباشرة إلى إبداعه بعدما انصهرت في خلق خيالٍ عظيم؟ ما مدى ارتباط شخصية دستوفسكي بمأثرة الفنان؟ إن كلَّ مَنْ تناول عالم دستوفسكي الفني وحياته الشخصية لا يُمكِنه إلا أن يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة، مثلما طرَحَها على نفسها زوجة الكاتب.

على أنَّ ظهور مذكرات مُعاصري الكاتب — التي كثيراً ما شوَّهت بفضاظة شخصية الكاتب واعتبارها شخصية قدرية، ثنائية مريضة، عابسة، متجهمّة، مُعذِّبة — يُعَدُّ أهمَّ الأسباب التي دفعت أنا جريجوريفنا لإعادة الحقيقة والحديث عن دستوفسكي الحقيقي. إنَّ النجاح الكامل فوق وُسْع أي كاتب مذكرات. مِنَ المعروف أن دستوفسكي في نوبة من نوبات الصراحة القاسية قال: «إنَّ أسوأ ما في الأمر أنَّ طبيعتي سافلة وشهوانية للغاية، إنني اندفع إلى أقصى حدٍّ في كل شيء، لقد قضيتُ عمري كله منطلقاً وراء الشيطان».^{١٥} عن دستوفسكي «الذي تجاوز الحدود «وراء الشيطان» لم تذكر لنا أنا جريجوريفنا كلمةً واحدة تقريباً». لم تجسر أنا (ولم يكن يَنْبَغُها) أن تنغمس في أعماق الحياة الروحية والإبداعية المعقدة للكاتب. إنَّ دستوفسكي المفكر والفنان — الذي عبَّر من خلال روحه وقلبه ووعيه عن الألم والأمل والشك واليأس عند راسكولنيكوف وإيفان كارامازوف وستافروجين والأمير ميشكين — ظلَّ دائماً خارج حدود المذكرات. إن مذكرات

^{١٥} ف. دستوفسكي، الخطابات، الجزء الثاني، موسكو، ليننجراد. ١٩٣٠م ص ٢٩.

أنا جريجوريفنا ليست سوى جزء من حقيقة فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي ولكن المهم هو الحقيقة.

تقول أنا جريجوريفنا للكاتب والناقد أ. إسماعيلوف: «إن هذه الخطابات ومذكراتي ضرورتان ليرى الناس في النهاية هذا الشخص على نحو حقيقي. إن المذكرات التي كُتبت عنه قد شوّهت مراراً صورته تماماً.»^{١٦}

أحياناً تقوم زوجة دستوفسكي بالإشارة إلى ما تُثبّر مذكراتها من جدل بقولها: «كثيراً ما أشعر بالحيرة من أين جاءت هذه الأسطورة التي تتحدّث عنه على أنه شخص عبّوس كئيب؛ هذه الأسطورة التي تسنّى لي أن أقرأ عنها وأن أسمع بها من معارفي.»

وضعت أنا جريجوريفنا مذكراتها في الفترة من عام ١٩١١م وحتى عام ١٩١٦م وتطلّبت منها جهداً فائقاً. وقد وفرت أنا لمذكراتها كل ما يستلزمه هذا النوع من دقة متناهية. يُمكننا أن نشكر سعيَ الكاتبة — في شروحاتها وتناولها لكل الحقائق المتنوعة من حياة دستوفسكي — للدقة والموضوعية، وهذا فقط ما يمكن أن يُفسّر اعتمادها ولجوءها مراراً للخطابات ومسودّات دستوفسكي وإلى خطابات أصدقائه وأقوال معاصريه.

تتسم مذكرات زوجة دستوفسكي بالعمق والمحاكاة والبساطة والطبيعية، مستهدفةً بذلك، بالدرجة الأولى، أن تُقدّم لقراء دستوفسكي كاتبهم بكلّ جوانبه المضيئة وأخطائه على نحو ما كانت عليه تماماً «في حياته العائلية والشخصية».

في قصة «قلب ضعيف» يقترح دستوفسكي على القارئ — في معرض شرحه أسلوب القصة «الفانتازي» الذي اختاره هنا — أن يتخيّل كيف يقوم رجل بتسجيل التيار المضطرب لأفكار زوج امرأة مُنتحرة يُشرف على الجنون من جرّاء المصيبة التي حلّت به، وذلك بطريقة الاختزال. لا شكّ في أن هذه المقارنة تحتوي في جزءٍ منها على ملاحظات الكاتب الشخصية المباشرة، فقد عاشت في كنف دستوفسكي وعلى مدى أربعة عشر عاماً مُحترّلة العائلة التي سجّلت أشياء عنه، والتي كانت لها انطباعاتها وآراؤها عما رأتته وسمِعته في رفقتها له. كان دستوفسكي يمعن النظر بكل فضول في هذه الرسوم المُلفزة التي تُشبّه صنابير الصيد، وقد تملّكته الرغبة في النفاذ إلى المغزى الكامن في هذه الكتابات المسماة التي

^{١٦} أ. إسماعيلوف، في ضيافة أ. ج. دستوفسكايا (بمناسبة ٣٥ سنة على وفاة ف. م. دستوفسكي) صحيفة بيرجيفي فيدوموستي، ٢٨ يناير ١٩١٦م، العدد ١٥٣٥٠.

كانت ذات صلة مباشرة به: «كان زوجي مُهتَمًّا بِيُومِيَّاتي وكثيرًا ما قال لي: «أدفع أغلى ما عندي لأعرف يا أنيتشكا ما الذي تعنيه بصنانيرك هذه التي تَخْطِئُنها: لعلك تشتميني؟» تُمثل اليوميات «الغامضة» وأحاديث أنا مع زوجها، وكلاهما كَتَبَ بالاختزال، أساس هذه المذكرات. كتبت أنا في مقدمة مذكراتها إن جهودها أساسًا كانت (منصبةً) على «الترجمة» من لغة الاختزال إلى لغة «قريبة المنال». على أن هذا العمل لم يكن مجرد تغيير ميكانيكي يؤدي في النهاية إلى إعادة تنظيم المادة المُسجَلة بالاختزال بشكلها المشوش ثم تصحيحها أسلوبياً. كانت أنا جريجوريفنا تأخذ من اليوميات الجانب الواقعي الخالص، ومن هذه الانطباعات الغابرة — التي تُمثل في رأيها أهمية كبرى فقط — كانت تقوم من جديد بإعادة تصوّر كُلِّ شيء. مقارنة انطباعات وعواطف الشباب مع معرفة وخبرة الحاضر. مع الزمن راحت الذكريات المريرة الثقيلة تضطرب في الذاكرة لتتهبط إلى القاع وتعلوها الذكريات السارة البهيجة. لقد بدت المشاعر الخاصة وشتّى أنواع المعاناة لصاحبة الذكريات، أمورًا طفولية ساذجة لا يستحق إلا القليل منها أن يُذكر.

إن مقارنة «يوميات» عام ١٨٦٧م التي حُلَّتْ شفرتها والصفحات المقابلة لها عن نفس الفترة من الذكريات، تسمح لنا أن نحكم على أيِّ نحو كانت أنا جريجوريفنا تُعيد صياغة التسجيل المباشر دون إبطاء. إن يوميات فتاة في العشرينيات من عمرها هي يوميات مشوشة تشوبها المباشرة الطفولية، إنها تسجيل لأحداث وأفكار ذاتية وثيقة، شديدة الخصوصية والعاطفية، حيث يضع المرء كلَّ شيء تقريباً دون ترتيب ودون رقابة من العقل. ولكن لعلَّ هذا بالضبط هو الذي يجعل «اليوميات»، في جانبٍ من جوانبها، أكثر وثائق الذكريات صدقاً لما تحويه من صورة التوتر الدرامي في حياة آل دستويفسكي في عامهما الأول بعد الزواج وقد رُسِمَت بحدة خاصة. وعلى العكس من ذلك نجد أن المذكرات هي حصيلة الخبرة الواعية لحياة طويلة صعبة عاشتها امرأة تُدرك تماماً واجبتها تجاه ذكرى زوجها ثم مسئوليتها أمام جمهور القراء.

في المذكرات نجد اقتراباً مُسهباً من يوميات ١٨٦٧م. في الوقت نفسه أُسْقِطَتْ كثيرٌ من المقاطع والتفاصيل، إمّا لأنها غير ذات علاقة مباشرة بدستويفسكي، وإمّا لأنها تتكرّر بعضها مع بعض، الأمر الذي نتج عنه أن القصص اكتسب (بعد أن تجنّب كثيراً من الأجزاء المُكررة في اليوميات والأشياء ذات الصلة الحميمية التي تخصُّ أنا جريجوريفنا وحدها) عدداً من الصفحات، لكن أنا اكتفت فقط بإزاحة «الأمر التافه» وذات الحميمية القصوى من المذكرات، ولم تُخَفِ العديد من المشاهد الدرامية في حياتها مع زوجها خارج روسيا

وإنما راحت دون مُواربة «تُخَفَّف» من وطأتها ومن اليأس والهزات العصبية، التي شابت هذه الحياة المضطربة الجنونية في بادن بادن. وهكذا لم تنفُل أنا جريجوريفنا ما امتلأ به دفتر يومياتها من أحداثٍ إلى مذكراتها إلا القليل. لم تأتِ أنا جريجوريفنا إطلاقاً على ذكر أبوليناريا سوسلوفنا، التي عاشت مع دستوفسكي قصةً غرامية عاصفةً قُبيل لقائه بآنا. وفي مذكراتها رسمت لفيودور ميخايلوفيتش صورةً أكثر نعومةً «ومثاليةً» (خلافًا لصورة «فيديتشكا»^{١٧} المضطرب، الذي كان يُفاجئها دومًا بتصرفاته غير المتوقعة، كما وردت قبل ذلك في دفتر «يومياتها»).

لقد توصلت أنا جريجوريفنا للنبرة الموضوعية لقصّتها «التسجيلي» دون أن تسقط إطلاقاً في التزييف. لقد حافظت صاحبة المذكرات بلا حدودٍ على مشاعرها الذاتية من حبٍّ وكرامية (وإن لم تنجح دائمًا في إخفاء الأخير، فعلى سبيل المثال: لم تستطع أن تُخفي نفورها الحادّ الذي انفجر تجاه ابن زوجة دستوفسكي الأولى، والذي كان يستحقّه كثيرًا في الحقيقة)؛ كما لم تُحاول أن تُخفي حبّها الذي لا حدودَ له تجاه دستوفسكي، على أنها كثيرًا ما كانت، مع ذلك، تفقد إحساسها بهذه الحدود لتصل إلى فرط الحماس والتضرع؛ فها هي تتحدّث إلى ليف تولستوي وهي على حالٍ من العصبية والحماس الزائد قائلة: «قال زوجي إنّه يشعُر بالفرح لأنّه المثل الأعلى للإنسان! إن كلّ الخصال الأخلاقية والروحية التي تُضفي على الإنسان جمالاً وبهاءً قد تمثّلت فيه في أعلى درجاتها. كان طيباً، وخيراً، ورءوفاً، وعادلاً، وكراماً، ورقيقاً، ودمثاً وشفوقاً، لا مثيل له!» على أن كل هذا «التشويش» إنما يمثّل حالات نادرة للغاية، يُمكن تفسيرها على الأكثر بتضارب الجدلية الداخلية للمذكرات. وقد جاء في شهادة أحد المعاصرين أنّ أنا جريجوريفنا «كانت تُولي جُلَّ اهتمامها لمراجعة كلّ ما كُتِبَ عن دستوفسكي وأنها كانت تشعر بالحزن العميق إذا ما صادفت نقداً لاذعاً له كإنسان!»^{١٨}

فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي هو الموضوع الرئيسي لهذه المذكرات، أما قصة دستوفسكي، رب الأسرة والزوج الذي يهيم عشقاً برفيقة عمره والأب الرعوم، فهي محور

^{١٧} فيديتشكا: اسم التدليل لفيودور. (المترجم)

^{١٨} ن. سلونيمسكي، زوجة دستوفسكي، صحيفة «نوفي فيدوموستي»، المسائية براج، ١٩١٨م، الثالث من أغسطس، العدد ١٢٧.

هذا الكتاب؛ «إنه الشخصية الرئيسية والأهم تقريباً فيها». بينما تأتي أنا جريجوريفنا نفسها في المرتبة الثانية؛ إذ تبقى في الظل، حيث تقوم هناك بدور الزوجة المتواضعة كاتبة السيرة، مهمتها إبراز السمات الشخصية الفريدة لزوجها، وحتى وهي تقصّ ذكرى الأيام الحزينة من صيف عام ١٨٦٨م، المُجلّلة بموت الابنة البكر سونيا، تتحدّث أنا جريجوريفنا عن مشاعر الأمومة وعن مُعاناتها آنذاك بتحفُّظ تام. وسوف نعرف فيما بعد من ابنتها الأخرى لوبوف فيودوروفنا مدى اللوعة التي كانت عليها أمُّها، وكيف كانت تترك بيتها في فيفي^{١٩} لتزور قبر طفلتها الراحلة في جبانة جنيف. وبالإضافة إلى ذلك تكتب أنا في مذكراتها عن أحزان زوجها، أكثر مما تكتب عن معاناتها هي، كما تُسجل «خوفها» عليه في تلك الفترة العصيبة. كانت أنا على اقتناع تامّ «أن المرء لا يظهر معدنه، مثلاً يظهر في حياته العادية وبين أفراد عائلته». وقد سعت أنا جهد استطاعتها أن تصف هذه الحياة تفصيلاً، وألا تترك شاردةً أو واردةً إلا أحصتها، وأن تُبرز السمات المميزة لدستوفسكي، وأن تحكي عن عادات وميول وغرائب وولع هذا «الإنسان الخاص». ومن جديد تُعيد أنا جريجوريفنا «بناء» نمط وظروف الحياة والنظام اليومي الذي كان يحياه الكاتب.

يقول أبوللون مايكوف،^{٢٠} أحد أقرب الأصدقاء إلى قلب دستوفسكي، في الكلمة التي ألقاها في الوداع الأخير للكاتب، إن أحدًا ليس باستطاعته أن يُجيب عن سؤال: من هو دستوفسكي؟ إلا أصدقاؤه وأقاربه. يقول مايكوف: اسألوا أنا جريجوريفنا عن فيودور دستوفسكي، ستقول لكم: «أوه، كم كان زوجاً رائعاً! كم أحبّني، وكم أحبّته!» وماذا سيقول عنه أصدقاؤه؛ ستتناول إجاباتهم، ربما، كثيراً من التفاصيل، وكثيراً من المواقف المتناثرة، وأيضاً كثيراً من النوادر والطرائف، لكنها لن تُجيب بأي حال على الأسئلة المُلحّة. باختصار، لن تُشفي غليلنا ... لا يُهمني أن أعرف عن عظماء الناس وعن كبار الكتّاب، بصفة خاصة، أي بيوت سكنوا، أو أي ملابس ارتدّوا، لا يُهمني أن أرى الأشياء التي كانوا يملكونها قديماً، غلب النشوق القيّمة، القبعات، المحابر وريش الكتابة وهلم جراً. إن كل

^{١٩} فيفي Vevey: مدينة في سويسرا، تقع على بحيرة ليمان. (المترجم)

^{٢٠} مايكوف، أبوللون نيكولايفيتش (١٨٢١-١٨٩٧م): شاعر، تعرف عليه دستوفسكي عام ١٨٤٦م في بيت الناقد الروسي الكبير فيساريون بيلينسكي، وامتدّت صداقتهما طوال العمر، كان مايكوف محط ثقة دستوفسكي، عمل في صحيفتي الأخوين دستوفسكي «الزمن» و«العصر». (المترجم)

هذه الأشياء الصغيرة التي كانت لديهم إبان حياتهم، ليست سوى ألوان، ولمسات، وتفاصيل تافهة.^{٢١}

كانت أنا جريجوريفنا تعرف جيدًا، على الأرجح، هذه المقولة المليئة بالتشكيك في المذكرات، التي ترسم صورةً للبيئة التي يعيش فيها المبرزون من الناس وحياتهم في محيط أسرهم، إنها، رغم ذلك، أقدمت في شجاعةٍ على كتابة مذكرات في مُخطِّط متواضع «شخصي». على أن «الألوان واللمسات والتفاصيل التافهة»، التي تحدّث عنها مايكوف باستهانة واضحة قد أضفت على قصة أنا جريجوريفنا مغزًى وجاذبيّة لا ينقطع أثرهما. لا تُولي أنا جريجوريفنا أهمية فائقة للأسماء (الهامة في حدّ ذاتها) بقدر ما توليها للكتابة عن المثل الجمالية ولذاتقة دستوفسكي الفنية ونقلها، بحرص بالغ، لتقديرات الكاتب ومُعاناته. إن القصة التي أوردتها صاحبة المذكرات بشأن الصدمة التي أصابت دستوفسكي في بازل لدى مشاهدته للمرة الأولى للوحة الأصلية الشهيرة للرسم هانز هولباين الابن^{٢٢} والمعروفة باسم «المسيح الميت»، لا يمكن إلا أن تجذب اهتمام القارئ بشدة. ومن المعروف أن لوحة هولباين اكتسبت مغزًى رمزيًا فريدًا في رواية «الأبله»، كما أنها مثلت أهمية فائقة في فهم الفكرة الرئيسية للرواية.

انتقلت كاتبة المذكرات من وصف الحياة العاصفة في العاصمة بطرسبورج، الهادئة في ريف ستاريا روسا، إلى وصف الصور الأخاذة لأوروبا الغربية عشية اندلاع كلٍّ من الحرب الفرنسية البروسية وأحداث كومونة باريس. هنا تظهر أمام القارئ مشاهد من الحياة السياسية في ألمانيا والمجر النمساوية وسويسرا وإيطاليا. وربما كانت المشاهد الخاصة بحياتهما في «المهجر» من أكثر أجزاء المذكرات أهمية، حيث حكّت أنا إلى أي درجة كان دستوفسكي مُولعًا بفنون أوروبا القديمة العظيمة وبفنانيتها وموسيقيتها ومعمارياتها.

ربما لم يلتفت أحد من الباحثين، الذين درسوا إبداع دستوفسكي، إلى بعض الصفحات القليلة من المذكرات، وإن كانت على قدر كبير من الأهمية؛ حيث يدور الحديث

^{٢١} السيرة الذاتية، خطابات، ملاحظات من مفكرة دستوفسكي، سان بطرسبورج ١٨٨٣، ٥٥م، (الملحق).

^{٢٢} هانز هولباين الابن، أو هانز هولباين الصغير (بالألمانية Hanz Holbein der Jüngere) (١٤٩٧م أو ١٤٩٨-١٥٤٣م)، فنان ألماني من عصر النهضة. ويعتبر من أكبر رسامي البورتريهات في عصره. والده هو الرسام هانز هولباين الكبير. استقر في إنجلترا تمامًا منذ عام ١٥٣٢م، وكان قد نال حظوة كبيرة عند ملوك إنجلترا وأصبح رسام البلاط. (المترجم)

عن علاقة الكاتب بمُعاصريه من الكُتَّاب والصحفيين والعلماء والشخصيات العامة؛ تلك العلاقة التي شابها التعقيد تارة، والالتباس والتناقض تارة أخرى، مثل نكراسوف وتورجينييف وأوجاريف ومايكوف وستراخوف وجونتشاروف وسولوفيوف وكاتكوف وبوبيدونوستسيف وغيرهم.

إن الشهادات المقتضبة والشحيحة التي أوردتها أَنَا جريجوريفنا عن لقاءات دستويفسكي ونكراسوف تمثل أهمية فائقة لمؤرخي الأدب فضلاً عن أنها تمثل أيضاً أهمية من وجهة نظر سيكولوجية العلاقات الإنسانية. وعلى حدِّ قول كاتبة المذكرات، فإن مبدع «الفقراء» كان «سعيداً للغاية بتجديد علاقات الود والصداقة مع نكراسوف، صاحب الموهبة الفذة، التي كان دستويفسكي يقدرها تقديرًا رفيعاً.» «كان دستويفسكي يعود أحياناً ليطمئن على صحته، وقد طلب ذات مرة ألا يوقظوا المريض، وأن يبلغوه تحياته القلبية فقط.»

نكراسوف يترك «أغنياته الأخيرة» أمانة لدى الرجل الذي كان خصمه الفكري منذ زمن غير بعيد، ودستويفسكي، وقد صدمته وفاة نكراسوف،^{٢٣} يروح يقرأ بصوت مرتفع طوال الليل قصائد «شاعر الانتقام والحزن»، «دُرر الشعر الروسي الحقيقية»، كما وصفها هو نفسه. وأخيراً، دستويفسكي يمضي إلى قبر صديق شبابه ليُلقي خطابه الحماسي عند قبره، كما يُلقي خطباً أخرى على الملاء مستشهداً بأشعار من نكراسوف؛ تلك الأشعار التي لاقت نجاحاً كبيراً لدى الشباب الروسي. كل هذه التفاصيل المهمة لا تكتمل بدونها لا سيرة دستويفسكي ولا تصوُّرنا للعصر الذي عاش فيه.

في مذكرات أَنَا جريجوريفنا يرد ذكر اللقاءات القصيرة، التي جرت في جينيف عام ١٨٦٧م بين دستويفسكي وأوجاريف: «كثير من قصائد هذا الشاعر المخلص — كما جاء في المذكرات — كانت تُلقي من الكاتب تقديرًا رفيعاً.» ولكن ها هي التفاصيل المعبرة والبارزة تُصوِّر لنا مرة أخرى المعايير الأخلاقية لحياة المثقفين الإبداعية في روسيا. ها هو شاعر

^{٢٣} نكراسوف، نيكولاي ألكسيفيتش (١٨٢١-١٨٧٧م): شاعر، نشر عدداً من الدواوين وأصدر تقاويم أدبية منها «منتخب بطرسبورج» (١٨٤٦م). أصدر مجلتي «سوفريمينيك» (المعاصر) (١٨٤٧-١٨٦٦م)، «أوتيتشيسستفني زابيسكي» (حوليات الوطن) (١٨٦٦-١٨٧٧م) والأخيرة نشرت رواية دستويفسكي الأولى «الفقراء». (المترجم)

مريض بلغ من العمر أرذله، يقضي سنوات عمره الأخيرة بعيداً عن الوطن، يحاول جاهداً أن يجعل من وجود دستوفسكي في جينيف أمراً ساراً، فيروح يُعيّره الكتب والمجلات، بل ويصل الأمر به في بعض الأحيان أن يُقرضه بعض المبالغ المالية البسيطة.

إن القصة التي ترويها صاحبة المذكرات عن اللقاء، الذي ظلّ مرتقباً ومأمولاً بين تولستوي ودستوفسكي، وكذلك وصف الأمسيات الثقافية التي شارك فيها الكاتب، ثم قصة الانفصال بين دستوفسكي وميشيرسكي، رئيس تحرير مجلة «جرايدانين» (المواطن)،^{٢٤} التي عمل فيها صاحب «مذكرة الكاتب» (دستوفسكي - المترجم) بهمة وحماس، بالإضافة إلى «التفاصيل الصغيرة» التي تُبرز سمات حياة وإبداع واحدٍ من أكثر فنّاني العالم عبقرية وإبداعاً، تكتسب أيضاً أهمية بالغة. ولعلّ من أكثر الأمور أهميةً بشكلٍ خاص ما أوردته أنا جريجوريفنا في مذكراتها بشأن الأفكار الأولية لدستوفسكي التي لم تخرج إلى النور، وكذلك المشروعات الجديدة وإعادة صياغة المؤلفات اعتماداً على المسودّات التي دُمّرت أو فُقدت. وللأسف فإن «المذكرات» لا تترك شكوكاً حول قيام دستوفسكي بإحراق مسودّات روايات «الأبله» و«الزوج الأبدي» و«الشياطين».

كتبت أنا جريجوريفنا في مقدمة لها لواحدٍ من الأعمال الكاملة لدستوفسكي تقول: «كثيراً ما كنتُ أقابل، وأنا أعيد قراءة أعمال زوجي الخالد الذكر، ملامح من حياته الشخصية، وعاداته — وقد وُصفت من خلال أبطال الرواية الظروف التي وقعت له ولأسرته، وهو الأمر الرئيسي هنا — وآراءه الشخصية عن أمور كثيرة تم التعبير عنها بنفس العبارات التي تسنّى لي سماعها منه. وقد بدا لي أنه قد يكون من الضروري أن أُشير إلى تلك الصفحات التي انعكست فيها صورة فيودور ميخايلوفيتش».^{٢٥}

هذه النية من جانب زوجة دستوفسكي، والتي كانت تعني في هذه الحالة كتابة عملٍ آخر،^{٢٦} تحققت بدرجةٍ معلومة في مذكراتها.

^{٢٤} جرايدانين (١٨٧٢-١٩١٤م): صحيفة ومجلة سياسية وأدبية ذات اتجاه ملكي محافظ. أصدرها في بطرسبورج ف. ميشيرسكي. عمل دستوفسكي رئيساً لتحريرها بعد عودته من الخارج. (المترجم)

^{٢٥} ل. ب. جروسمان، سمینارات حول دستوفسكي، مواد، بيليوجرافيا وتعليقات. براج، ١٩٢٢م. ص ٥٤.

^{٢٦} سعت أنا جريجوريفنا أن تضع نظاماً لبعض الأفكار والملاحظات التي من شأنها أن تساعد على رؤية الحقائق المعيشية والواقعية في أعمال دستوفسكي، وعلى رأسها تلك الحقائق التي انعكست من خلالها شخصية الكاتب (المصدر السابق).

وفي معرض حديثها عن شجرة عائلتها، وعن شجرة عائلة زوجها، وعن اضطراب وكدر دستوفسكي (وهي الأمور التي تحدّثت عنها أنا جريجوريفنا بكل عطف نبيل في مذكراتها) لم تلبث أن لفتت الانتباه إلى أنها كانت تُقدّم أحداث حياتها العائلية الحميمة، ولو بين سطور الهوامش. تلك الأحداث التي انعكست فيما بعد في رواية «الشياطين» (في وصف زوجة شاتوف، وهو من أفضل المشاهد الدرامية في الرواية) وفي تذكراها لوفاة ابنهما أليوشا وعن حزنها الذي لم يخمد أواره. وسوف تُقدم لنا أنا جريجوريفنا، عن عمد، ملاحظتها حول أن «شكوكها وأفكارها وما قالتها» كان لها صداها في فصل «النساء المؤمنات» («الإخوة كارامازوف»). مثل هذه الملاحظات السريعة، العابرة اكتسبت قيمة كبيرة في فهم طبيعة الأسلوب الإبداعي لدستوفسكي من حيث «اللمسات والألوان والتفاصيل» وقد قدمت المذكرات العديد منها. إن مذكرات أنا جريجوريفنا تنفي، ببساطة، نزعة الشك لدى مايكوف، بل إنها، على العكس من ذلك، تُعدّ تأكيداً مُعبراً عن أفكار دستوفسكي الذي كان يذكر دائماً، في سياق وضعه تصوراً عن الإنسان، أنه لا ينبغي، بأي حال من الأحوال، إهمال التفاصيل الصغيرة؛ إذ إنها تأتي من خلال رؤية ثاقبة، وأنها تساعد في فهم جوهر الشخصية وروح الإنسان وفي اكتشاف صورته الحقيقية. إن «التفاصيل الصغيرة» المُعبرة، التي اكتشفناها بحسّ رفيف زوجة دستوفسكي، تكشف، أفضل من أية أحكام مُسهبّة أخرى، عن سمات شخصيته، سواء باعتبارها إنساناً أو باعتبارها فناناً.

على أنه من الضروري أن نلاحظ هنا أمراً آخر، ألا وهو أننا مهما ذكرنا من هذه التفاصيل أو غيرها، ومن وقائع من حياة دستوفسكي وردت على لسان أنا جريجوريفنا في مذكراتها، فإن أيّاً منها، إذا ما أُخذ بمفرده، لا يُمثل أمراً مثيراً، أو يكشف، من ناحية المبدأ، عن شيء جديد لم يكن معروفاً من قبل بفضل خطابات أو مذكرات مُعاصرين آخرين وأصدقاء ومقربين.

وفي واحدٍ من خطابه المبكرة إبان الزمن الصعب (١٨٦٧م) كتب دستوفسكي إلى زوجته يقول: «عادة ما تُشاهدني، يا أنيا، عبوساً، كئيباً ونزقاً؛ ليس هذا سوى أمرٍ ظاهري؛ ولعلّي دائماً ما كنتُ أبدو على هذا النحو، خائر العزم، سيئ الحظ، أما باطني فشيء آخر، صدّيقيني، صدّيقيني»^{٢٧} إن هذا «الشيء الآخر»، «الباطني»، «الحقيقي»، هو ما

^{٢٧} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المجلد الثاني، ص ٧.

كانت آنّا جريجوريفنا تُقدّره وتُحبه على نحوٍ خاص في دستوفسكي، وهو ما أحسّت به منذ لقاءاتهما الأولى، وهو ما تسنّى أيضًا لأنّا وحدها أن ندركه، وقد عرضت آنّا «معرفتها» بكل هذا عبر مذكراتها كلها. إن مذكرات آنّا جريجوريفنا تمثل في مجملها شيئًا متميزًا وثنمينًا، فقد صحّحت هذه المذكرات رؤيتنا للكاتب وفتحت الباب أمامنا للمرة الأولى لندلف إلى داخل بيت دستوفسكي، وأخذت بيد القارئ إليه، بعد أن قدّمت له رجلًا آخر لم يعرفه أحد سواها. وعلى هذا النحو سوف تُقدم لنا آنّا، على سبيل المثال، دستوفسكي في لحظة من لحظات اعترافه. أو وهو يرتجل أمام زوجة المستقبل موضوع الرواية التي هو بصدد كتابتها، فيصِف لها الحبكة التي سينسج من خلالها «الحالة النفسية لفتاة شابة». إنه يؤلف الرواية ويحكي، في الوقت نفسه، سيرته الذاتية دون أن يُزيل الحدَّ الفاصل بين الفن والحياة، وإنما يُفسّر، بشكلٍ واضح، كيف يمكن عبور هذا الحد. لم يكن دستوفسكي ينتظر من مُستمعيه أن تفهم ما يقول بدقة ورهافة، وأن تُبدي رأيًا فيه فحسب، وإنما كان يتلهّف على أن تتخذ قرارها الحيوي الحاسم (على الرغم من أنه كان يعلم منذ زمن بعيد الشعور الذي تولّد لدى آنّا جريجوريفنا). لقد كان رفضها يمثل لدستوفسكي هزيمة وكارثة. إن كتابات آنّا جريجوريفنا بكل ما فيها من سلامة الطوية تنقل لنا بشكل رائع ما اعتمل في نفس دستوفسكي من مشاعر غريبة اختلطت فيها عزة النفس بالكبرياء والشك وافتقاد الثقة. إنها في واقع الأمر حالة درامية مؤلمة.

في هذه المذكرات تتكشف أمامنا، بصورة تلقائية ودون أي ضغط، بطبيعة الحال، السمات الرفيعة للصورة الأخلاقية لدستوفسكي: بساطة الأمير ميشكين^{٢٨} وكماله، عبقرية مميزة مع ابتعاد عن الوجهة، وكلها سمات تجمعها ببوشكين وليف تولستوي. تأكيدًا لهذا المعنى يُعبّر ذلك «المشهد من مشاهد الحياة» والذي تحكيه آنّا جريجوريفنا عن مبدع «الجريمة والعقاب» و«الأبله» تعبيرًا عميقًا عن الكاتب المجيد، الفيلسوف والمفكر، صاحب الشخصيات التراجيدية في «الإخوة كارامازوف» وقد راح يمشي على غير هدًى في ستاريا روسا وقد أخذ به القلق والاضطراب كل مأخذ بحثًا عن، يعلم الله، أين اختفت الأبقار «المستأجرة»؛ خوفًا من أن يبقى الأطفال بلا حليب ... ولم يكن هناك سوى دستوفسكي

^{٢٨} الأمير ميشكين: بطل رواية «الأبله». (المترجم)

الذي استطاع أن يكتب إلى زوجته أيام الاحتفال ببوشكين^{٢٩} (الذي تحول أيضًا إلى انتصار لمؤلف «الإخوة كارامازوف») وخطاب عن بوشكين أنه في حالة من الإحباط الهائل؛ إذ إن غرفته الباهظة السعر في الفندق يتم سداد إيجارها من خزينة المدينة، وهو على استعداد للهروب منها، بسبب شعوره بالحرج البالغ من جراء ذلك.

أمامنا الآن دستوفسكي في نهاية الستينيات، في أسوأ أيام هزائمه وفاقته وبؤسه، وإن لم يفقد فيها أناقته أو شعوره بكرامته الشخصية، هذا هو دستوفسكي، الرجل صاحب الذوق الرفيع في تقدير الأشياء الجميلة، يملؤه الشعور بالمتعة إذا ما أُتيحت له أدنى فرصة لإسعاد المقربين منه، أمامنا إنسان اختصه القدر بحياة مفعمة بالتقلبات المأسوية، إنسان تأرجح أكثر من مرة على الهاوية، ومع ذلك راح يحتفي بالحياة على نحو أشد قوة. وها هو، باعتباره رب الأسرة، يمرح في سعادة بكل خلجات قلبه مثل طفل، حول شجرة عيد الميلاد. يرقص الفالس بنكران للذات، ثم ها هو يسهر الليل بطوله مسهدًا إلى جوار ابنه النزق بسبب إطفاء أنوار شجرة عيد الميلاد منذ فترة طويلة.

عندما يُطالع المرء المذكرات يدرك على الفور أنه لم يكن بمقدور أحد سوى دستوفسكي أن يكتب إلى أصدقائه مُتحدثًا عن الأطفال على هذا النحو: «إنني أدرسهم، وهو ما كنتُ أفعله وأُحبه للغاية طوال حياتي»؛ «... إلى أي حدٍّ يُضفون على الوجود طابعًا إنسانيًا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ ... هؤلاء تصبح الحياة بدونهم بلا غاية،^{٣٠} ذلكم دستوفسكي وحده القادر على وصف جنازة إيليوشيتشكا^{٣١} بمثل هذه القدرة الدرامية الهائلة، أو أن يحكي بمثل هذا الحنان الأبوي الذي يمسُّ شغاف القلب عن أطفال مارميلادوف^{٣٢} التعساء ...» إن كل ما خطّه يراع أنّا جريجوريفنا عن حُب دستوفسكي لأطفالهما، هو «تعليق» له قيمته الكبرى للعديد من مؤلفات الكاتب، التي غالبًا ما نجد فيها البطل الصغير، مع إحساس عميق بالأسى والتعاطف من جانب المؤلف المبدع.

^{٢٩} الاحتفال ببوشكين: بدأ بإزاحة الستار عن تمثاله في موسكو في السادس من يونيو ١٨٨٠م وانتهى في الثامن من نفس الشهر بخطاب دستوفسكي الشهير عن بوشكين وقراءته لبعض من أشعاره ثم وضعه لإكليل من الزهور عند تمثاله. (المترجم)

^{٣٠} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المجلد الرابع، ص ٧، ٦٧.

^{٣١} للاطلاع على هذا الوصف، انظر أعمال دستوفسكي الأدبية، المجلد ١٨، الإخوة كارامازوف، الجزء ٣، ص ٥٦٣، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ترجمة سامي الدروبي. (المترجم)

^{٣٢} انظر: المرجع السابق، المجلد ٨، الجريمة والعقاب، الجزء ١، الفصل ١. (المترجم)

لقد جانبَ أنا جريجوريفنا التوفيق في عددٍ من التعميمات والاستنتاجات التي وردت في مذكراتها، حيث فضّلت الانحياز إلى آراء غيرها من أصحاب المذكرات الأخرى بعد أن غلبَها شعور بعدم الرضا عن ملاحظاتها الشخصية أو، ببساطة، نتيجة لفقدان الثقة في ذاتها. ففي معرض تلميحها لمحصلة السنوات التي قضياها خارج روسيا تستشهد أنا جريجوريفنا بما كتبه ن. ن. ستراخوف^{٣٢} حيث يقول: «أصبح دستوفسكي ينحو بالحديث دون توقف نحو موضوعات ذات صبغة دينية، زد على ذلك أن طريقته في التعامل مع الآخرين قد طرأ عليها تغيير، فاكتسبت قدرًا من الرقة والدماعة، بل وصلت في بعض الأحيان إلى الوداعة الشديدة.» «وحتى ملامح وجهه حملت أثرًا من هذا المزاج، وظهرت على شفّته ابتسامة حنونة ... لقد استقرت بداخله، بداهة، أفضل المشاعر المسيحية؛ تلك المشاعر التي راحت تُعبر عن نفسها أكثر فأكثر وعلى نحوٍ أشدَّ وضوحًا في مؤلفاته. وعلى هذا النحو عاد من الخارج.» لقد رأت أنا جريجوريفنا أن الوصف الذي قدّمه ستراخوف تميّز بالعمق والإخلاص (دون أن ينتابها شكٌ في الضربة التي ستحقيق بها لاحقًا من هذا الصديق المخلص العليم بكل شيء) والذي زعموا أنه رسم صورةً حقيقيةً للتحوّل الروحي لدستوفسكي في الخارج ولصورته المسيحية الجديدة. لحسن الحظ أن كلمات ستراخوف ظلّت غريبةً وخارج سياق المذكرات؛ إن ما حكّته أنا جريجوريفنا نفسها لا يُقدم ما يعزز هذه الآراء والاستنتاجات التي قدّمها الناقد (ستراخوف)، والتي كثيرًا ما نفتّها أنا نفسها، بل إنها رسمت دستوفسكي في صورة المتمرّد أكثر منه في صورة المسالم.

بطبيعة الحال فإن آراء أنا جريجوريفنا المحافظة في معظمها كان لها أكبر الأثر في تعاطفها وتقديراتها، يكشف عن هذا، ربما، وعلى نحوٍ مقنع، وصفها المُفعم بالحماس تجاه شخصية بوبيدونوستسيف، ثم حديثها المُستفيض عن علاقات دستوفسكي «الرفيعة»، كما كانت تفخر بما تُبديه الشخصيات البارزة في البلاط القيصري من تقديرٍ لدستوفسكي وأسرته، وكثيرًا ما كان تعاطفهما مع البلاط يصل إلى حدٍّ كبير من المغالاة التي تتنافى

^{٣٢} ستراخوف، نيكولاي نيكولايفيتش (١٨٢٨-١٨٩٦م): كاتب ناقد، فيلسوف، مؤلف «مذكرات عن فيودور دستوفسكي». عمل في مجلتي الأخوين دستوفسكي «الزمن» و«العصر». تميزت علاقته بدستوفسكي بالصفاء تارةً وبالجفاء تارةً أخرى. (المترجم)

وخصال دستوفسكي. فبينما كان دستوفسكي، على الرغم من إدانته لفيرا زاسوليتش،^{٣٤} يؤيد العفو عنها، أبدت أنا جريجوريفنا، تبعاً لما ورد في مذكرات م. ن. ستويونينا،^{٣٥} استياءها لما أظهره فسيفولد سولوفيوف من تعاطف مع قتلة القيصر ألكسندر الثاني. وهكذا يظهر دستوفسكي، على ضوء ما ذكرته أنا جريجوريفنا، ملكياً راسخ العقيدة، ومحافظاً شديداً، عميق الإخلاص والتفاني للقيصر وللמذهب الأرثوذكسي. على أن كل هذه التصنيفات المباشرة القاطعة من شأنها أن تؤدي إلى تناقض لا حل له مع الأمر الأكثر أهميةً ونعني به الإبداع الفني لدستوفسكي.

من السخف، بطبيعة الحال، أن ننفي الموضوعات ذات الصبغة الرجعية في إبداع دستوفسكي، وتعاون الكاتب مع صحيفة «جرندانين» (المواطن)، التي كان يُصدرها ميشيرسكي، وعلاقة الصداقة التي كانت تربط دستوفسكي وبوبيدونوستسيف «مراسله الفاضل المحترم». إذا لم تكن هذه الأمور مجرد مظاهر «عقوية» عابرة في سيرة دستوفسكي، هي صفحات تزخر بالتحيز، وخاصة إبان عمله في كتابة رواية «الشياطين». إن الصفحات المليئة بالهجاء في روايات دستوفسكي، وفي مقالاته بشأن المسألة الشرقية،^{٣٦} وجميعها تتحدث عن النزعات الملكية والسلافية الأصلية بل والراسخة في إبداع الكاتب. كل هذا لا يُمثل سوى جانب واحد. وليس الجانب الرئيسي من نشاط دستوفسكي. سواء الروائي، أو الكاتب الاجتماعي. إن الموضوعات التي حملت سمة التمرد في روايات دستوفسكي في السنوات الأخيرة من حياته لم تفقد أوارها وإنما، على العكس من ذلك، قد اكتسبت قوة كونية حقيقية. كذلك لم تختف على الإطلاق الأفكار الاجتماعية في قصة «حلم رجل مضحك» على سبيل المثال، هنا تظهر كل المثل العظيمة للطوباويين الاجتماعيين الأفاضل: فورييه، لامينييه وكونسيديران، الذين آمن بهم دستوفسكي في مستقبل حياته.

^{٣٤} فيرا إيفانوفنا زاسوليتش (١٨٤٩-١٩١٩م): عضو في حركة روسيا الثورية. عضو في حركة الشعب. قامت باغتيال عمدة مدينة بطرسبورج، ف. ترييوف. عملت بصحيفتي «إيسكرا» و«زاريا» انضمت لحركة المناشفة منذ عام ١٩٠٣م. (المترجم)

^{٣٥} ماريا نيكولايفنا ستويونينا (١٨٤٦-١٩٤٠م): معلمة، صديقة زوجة دستوفسكي في المدرسة الثانوية، صاحبة «مذكرات عن دستوفسكي» التي نُشرت في دور النشر المهاجرة، تحدثت فيها عن الحياة اليومية لأسرة دستوفسكي، التي زارتها مرات عديدة. (المترجم)

^{٣٦} المقصود بالهجاء هنا هو هجوم دستوفسكي على الاشتراكية في هذه الأعمال. (المترجم)

لم يستطع دستوفسكي أن يدرك أن حلم الجمع بين «القيصر المحرر» والشعب هو حلمٌ هُشٌّ للغاية في جوهر الأمر وشديد الطوباوية، وهو ما تعكسه على وجه الخصوص الكلمات التالية الواردة في مذكرة دستوفسكي: «إنني، شأني في ذلك شأن بوشكين، خادم للقيصر، فشعبه هم أبنائه الذين لا يترددون في أن يكونوا خدماً له. وسوف أكون أكثر من ذلك خادماً له، عندما يؤمن هو حقاً أن شعبه هم أبنائه، وإن ظلّ طويلاً لا يؤمن بذلك».^{٣٧} أما كراهية دستوفسكي لبورجوازية الحضارة «الغربية» فقد راحت تزداد أواراً كلما ازدادت «نجاحاتها» في روسيا.

وقد قادت النزعة الإنسانية «المتعطشة» لدى دستوفسكي والساعية إلى تحقيق مُثل الحرية والمساواة والأخوة الحقيقية في روسيا؛ قادت دستوفسكي، دون هواده، إلى نزاعات، وإلى حالات من «سوء الفهم» مع «رفاق فكره» و«أصدقائه» و«حلفائه». وقد تركز حلمه الأخير في أصحاب «المعاطف الرمادية» وهم وفدٌ أُقيم على غرار الجمعية الوطنية، كان من المفترض أن يُقدّم حلاً لكل المشكلات المُلحة والمتركمة، في الوقت الذي كان فيه كاتكوف^{٣٨} وميشيرسكي^{٣٩} وليونتيف^{٤٠} وبوبيدونوستسيف يتطلعون إلى أمر آخر مختلف تماماً. فهؤلاء كانوا يسعون لكبح جماح حركة التحرير، التي بدأت في أعقاب إلغاء قانون القنانة والطبقات (١٨٦١م)، والتي كانت تهدد بتغييرات غير مسبوقة، وحماية مصالح طبقة النبلاء من تطاولات «أصحاب المعاطف» و«السترات»، كما كانوا يريدون أن يجعلوا من كافة الإصلاحات «الليبرالية» المستقبلية أمراً مستحيلًا، مهاجمين المؤسسات الديمقراطية الجديدة، مثل المحكمة العلنية والمجلس المحلي المنتخب في الريف (الزيمستفو). لم تذكر أنا جريجوريفنا كلمة واحدة تقريباً عن البلبلية الفكرية التي عاناها الكاتب، ولا عن تقلباته بين الإيمان تارةً والكفر تارةً أخرى، وعن الشكوك التي ما فتئت تنتابُه، الأمر

^{٣٧} سيرة حياة دستوفسكي، خطابات وملاحظات من دفاتر مذكراته. سان بطرسبورج ١٨٨٣م، ص ٣٦٦.

^{٣٨} كاتكوف، ميخائيل نيكيفوروف (١٨١٨-١٨٨٧م): ناشر رجعي، مترجم، صحفي، صاحب ورئيس تحرير مجلة «روسكي فيستنيك» (البشير الروسي) وصحيفة «موسكوفسكي فيدوموستي» (الوقائع الموسكوفية).

^{٣٩} ميشيرسكي، فلاديمير بتروفيتش (الأمير) (١٨٣٩-١٩١٤م): ناشر وكاتب رجعي، أصدر في عام ١٨٧٢م مجلة جرجدانين (المواطن).

^{٤٠} ليونتيف يفتيخي إيفانوفيتش: ضابط برتبة لواء، كان ينزل بالبيت الصيفي الذي عاش فيه دستوفسكي في قرية ستاريا روسا في الفترة من ١٨٧٤م إلى ١٨٧٥م.

الذي بدا ملموسًا على نحوٍ واضحٍ وجليٍّ في رواياته ومقالاته. وقد وصف ليف تولستوي دستوفسكي بأنه «كتلة من الصراع» وأنه «مات وهو في قمة صراعه الداخلي بين الخير والشر».^{٤١} لعل هذه الكلمات هي أكثر الكلمات التي قيلت عن الكاتب دقة وعدلاً. إن القارئ الذي يطَّلِع على مذكرات زوجة الكاتب سوف يتعرف قليلاً على هذا «الصراع الداخلي المُشتعل» فقد دأبت أنا جريجوريفنا على تخفيف صورة هذا التناقض بدقة، وحرصت على تجنب التعقيدات وتقديم الطريق الصعب والمتشعب الذي قطعه الفنان دون اعوجاج. وقد كانت أنا جريجوريفنا على معرفة جيدة بكافة أعمال دستوفسكي المنشورة؛ فضلاً عن دفاتر مذكرات الكاتب، وكلاهما عكس التناقض بين مشاعره ورؤاه ونظراته السياسية بكل إخلاص وقوة ودون اعتبار للرقابة والقارئ. إن مذكرات أنا جريجوريفنا في هذا الصدد ترسم دستوفسكي على نحوٍ رتيب و«ساذج» مقارنة بمذكرات مُعاصرين آخرين للكاتب، ل. سيمونوفا، أ. س. سوفورين،^{٤٢} أ. بوتشينكوفسكايا.

لا شك أن أنا جريجوريفنا قد تناولت أيضاً طابع العلاقات الشخصية مع بوييدونوستسيف ومايكوف وستراخوف بقدرٍ كبيرٍ من التبسيط. فمن المُستبعد أن تكون المحاورات بين دستوفسكي وبوييدونوستسيف قد جرت على هذا النحو من الشاعرية والسلاسة، فالأخير، كما يتضح من خطابه كان يتابع بمزيد من القلق الأجزاء التي كانت تُنشر تباعاً من «الإخوة كارامازوف» في مجلة «البشير الروسي»، وقد حاول أن يدفع بالفنان نحو الطريق القويم، بعد أن عبر عن غضبه من «قصيدة» إيفان كارامازوف المُسمَّاة «أسطورة المفتش الأعظم»، ومن المعروف جيداً كراهية الكاتب لميشيرسكي (رئيس تحرير المواطن - المترجم). ها هو يسجل في دفتر مذكراته، إبَّان إعدادهِ لإصدار العدد الدوري من «مذكرة الكاتب»، كلماته الغاضبة والعادلة حول مفاهيم ق. ليونتييف «المحافظة». ومن المعروف أيضاً أن «أصدقاء المحافظين»، مايكوف وستراخوف، عبَّروا كذلك عن سخطهم البالغ بسبب نشر رواية «المراهق» في مجلة «حوليات الوطن»، مُعتبرين أن هذا «العمل الاستعراضي» يُمثل خيانة للمصالح «المشتركة» وغدراً بالحزب السلافي.

^{٤١} ليف نيكولايفيتش تولستوي، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٣، ص ١٤٢.

^{٤٢} سوفورين، ألكسي سيرجيفيتش (١٨٣٤-١٩١٢م): صحفي وناشر كُتب، أُصدر في عام ١٨٧٥م مجلة «نوفوي فريميا» (العصر الحديث)، تعرف عليه دستوفسكي في عام ١٨٧٥م ومن يومها توطدت بينهما أواصر الصداقة. (المترجم)

من الواضح أن أنا جريجوريفنا قد أضفت على المحيطين بدستوفسكي والمقربين منه قدرًا غير قليل من المثالية، ومن ثم يُصبح من المستحيل ألا نلفت الانتباه هنا إلى تلك الحقيقة الساطعة المتمثلة في الاختلاف الهائل بين صورة سترخوف في المتن الأساسي للمذكرات وما ورد في الرد الملحق الخاص بها.

تفتقد أنا جريجوريفنا الثقة الذاتية، عندما تحكي عن الأحداث السياسية والأدبية. إنها تتحدث هنا على لسان آخرين، بينما يخفت صوتها هي وتفتقد قوة التعبير. وما إن تعود لتحكي عن أمور الحياة اليومية، التي تعرفها على نحو جيد، حتى يكتسب أسلوب كاتبة المذكرات حيويته من جديد.

لم تكن أنا جريجوريفنا أديبةً محترفة. ولعل الحديث عن موهبتها الأدبية يُمكن أن يدخل في إطار المبالغة الصارخة. لكنَّ سنوات العمر مع دستوفسكي ومشاركتها إيَّاه في أعماله ومناخ الفن الرفيع نفسه قد ترك أثره في تشكيل العالم الروحي لآنا. فإذا كانت الشكوك قد ساورت دستوفسكي^{٤٣} في بادئ الأمر حول قدرة زوجته على فهم وتقدير هذا العمل أو ذاك («لديّ قارئ واحد هو أنا جريجوريفنا، وهي شديدة الإعجاب بأعمالي، لكنها لا تملك القدرة على الحكم عليها»)، فقد راح الكاتب، فيما بعد، يُشيد بحساسيتها الفنية في أكثر من مناسبة وكذلك عبَّر عن اعتزازه الكامل بأراء قارئته الأولى.^{٤٤}

لقد كتبت أنا جريجوريفنا مذكراتها بشكلٍ شديد الجاذبية. لا جدال أنها امرأة تمتلك المقومات الفنية الفريدة لدى الحكَّاء، وهو ما يذكره لها العديد من مُعاصريها. تقول عنها ماريا ستويونينا:^{٤٥} «إن لديها موهبة تُمكنها من تصوير كل ما رآته ولاحظته من الحياة

^{٤٣} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المجلد ٢، ص ٢٦.

^{٤٤} تكتب أنا في مذكراتها قائلة: «لاحظت أن لدى مُحذئي من الأدياء عادةً شكٌ في أنني، لسببٍ ما، لا أفهم حقيقة أعمال زوجي وأنني لا أدرك عمق موهبته بشكلٍ كافٍ، ومن ثم فقد راحوا يحاولون أن يُفسروها وأن بشرحوها وأن يرفعوا من شأنها في عيني، وفي رأيي أنهم كانوا يُضيعون جهدهم سدى، لأنه لم يكن هناك أحد على وجه الأرض تقريباً بقادرٍ على تقدير موهبته مثلما كنت أقدرها». أ. ج. دستوفسكايا، المذكرات، مكتبة الدولة باسم لينين، الملف ٩٣، الجزء الثالث، ص ٧٠٧.

^{٤٥} ستويونينا، ماريا نيكولايفنا (١٨٤٦-١٩٤٠م): معلمة، صديقة أنا جريجوريفنا في المدرسة الثانوية. مؤلفة كتاب «ذكريات عن دستوفسكي» الذي نُشر في المهجر. (المترجم)

حولها وكأنها ترسم لوحة. ما إن تخرج إلى الشارع، أو تذهب إلى السوق لقضاء حاجة من حوائجها اليومية، حتى يسترعي انتباهها كل شيء بدءاً من الأحداث الكبيرة والمشاهد المثيرة، وانتهاءً بالتفاصيل الصغيرة والدقائق المميزة، وما إن تعود إلى بيتها حتى تشرع في تسجيل كل ما رآته وكأنها ترسم لوحة أو تصور مشهداً بكل ما فيه من وجوه. إن في أعماقها، لا شك في ذلك، جذوة لفنانة كامنة...» معاصرة أخرى هي ز. س. كوفريجينا تُعيد على مسامعنا نفس القول بشأن موهبة أنا جريجوريفنا فتقول: «... كانت تحكي عن الحقائق والأحداث البسيطة بهذا القدر من الوضوح والحيوية بحيث يتصور المستمع أن بإمكانه رؤية هذه الأحداث رؤية العين».^{٤٦} إن المهارة الفنية وموهبة الحكي تظهر بكل اكتمالها في هذه المذكرات. إن اللقاء الأول بالكاتب، وتقدم دستوفسكي لخطبتها وموت الابنة سونيتشكا وجنازة الزوج، مشاهد تقف جميعها في مصاف أفضل نماذج أدب المذكرات الروسي وهي، بطبيعة الحال، الأقرب إلى المذكرات النسائية لكل من صوفيا تولستايا، ن. أ. توتشكوف أو جارييفا، ت. ب. باسيك.

وقد أضفت الدعابة الرقيقة والدافئة رونقاً خاصاً على مذكرات أنا جريجوريفنا لا يمكن للقارئ إلا أن يفرّغ ثغره عن ابتسامة وهو يُطالع كيف أحسّ دستوفسكي بالغيرة على زوجته من جريجوروفيتش وكيف نجحت هي في أن تُحذر «المذنب» الذي أثار غيرة زوجها: فقط هذه الكلمات المهينة: «انظروا، هذه الفرنسية، تتصرف مثل شيطان صغير»، جعلتني أدرك أن العجوز جريجوروفيتش «...» (وهو المقصود بهذه الدعابة البسيطة). هكذا تحكي أنا جريجوريفنا عن حالة النسيان وتشتت الفكر عند زوجها.

إن أحداث الحياة العائلية وما تحكيه أنا عن دستوفسكي هو أفضل أجزاء المذكرات، أما الفصول الأولى التي تسبق لقاء أنا جريجوريفنا بالكاتب ثم الفصول الأخيرة التي تلت جنازة الكاتب فيشوبها بعض الضعف؛ فباختفاء بطل المذكرات تخمد دينامية السرد لتتحول إلى عدد من المقالات المتنوعة. ولعل أكثر المواضع أهمية هنا هو ما حكته أنا جريجوريفنا عن زيارتها لليف تولستوي وردّها على سترخوف.

إن خطاب سترخوف المؤرخ ٢٨ يناير ١٨٨٣ م والمنشور عام ١٩١٣ م، والذي «فضح» فيه المثل الأخلاقية والجمالية عند دستوفسكي، مثل لانا جريجوريفنا ضربة قاصمة

^{٤٦} م. فولوتسكوي، شجرة عائلة دستوفسكي، موسكو، ١٩٣٣ م، ص ٢٢، أ، ٢٤٢.

ومفاجئة. تقول أنا لليونيد جروسمان:^{٤٧} «لقد أظلمت الدنيا في وجهي من الفظاعة والاستياء»، «يا له من افتراء لا مثيل له! وممن؟ من أفضل أصدقائنا، من ضيفنا الدائم، الذي كان شاهداً على زواجنا من نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف، الذي طلب مني فور وفاة فيودور ميخايلوفيتش أن أفوضه في كتابة سيرة حياة دستوفسكي ضمن طبعة الأعمال الكاملة التي ستصدر بعد الوفاة.»^{٤٨}

لقد كان لدى أنا جريجوريفنا من رباطة الجأش ما جعلها تمسك عن نشر ردّها على ستراخوف إبان حياتها فضمنته نص مذكراتها. اختارت أنا جريجوريفنا أن تُفند بصراحة اتهامات ستراخوف على نحو يتّسم بالواقعية والمنطق، وسعت لأن يبلغ ردّها عليه أقصى درجات الإقناع والإحكام. لم تكن زوجة دستوفسكي على علم بخطاب تولستوي الذي رفض فيه، بلطفٍ وسخرية، «البحوث النفسية» التي طرحها ستراخوف. لقد قام الناقد، كما هو معروف، في معرض إثباته لوجهة نظره، بدعم اتهامه لدستوفسكي بالضعف الأخلاقي بواسطة خلق توازيات مع إبداع الكاتب. يقول ستراخوف «إن أكثر الشخصيات شبهاً به (دستوفسكي) هو بطل «مذكرات من العالم السفلي»، سفيدريجايلوف في «الجريمة والعقاب» وستافروجين في «الشياطين»».^{٤٩} وفي خطاب آخر يسوق ستراخوف نفس الفكرة وعلى نحوٍ أشدّ حدةً حيث يقول: «بينما كان دستوفسكي يبدع شخوصه على شاكلته وصورته، كان يصور في الوقت نفسه العديد من المرضى وأشباه المجانين وكان على يقين تام أنه يأتي بهم من الواقع، وأن هذه هي روح الإنسان بالضبط.»^{٥٠}

وقد اعترض تولستوي على ستراخوف ملاحظاً «أنه حتى في هذه الشخصيات الاستثنائية فإننا، معارفه؛ فضلاً عن الأجانب، يمكن أن نتعرّف منهم على روحنا».^{٥١} بعبارة أخرى، فقد رأى ستراخوف، فجأة، في موهبة دستوفسكي الفذة ودستوفسكي الكاتب في إعادة تجسيد الإنسان وفي التعاطف معه والنفاز إلى عمق نفسيته، عيباً جوهرياً،

^{٤٧} جروسمان، ليونيد بتروفيتش (١٨٨٨-١٩٦٥م): عالم في الدراسات الأدبية السوفيتية، كاتب، له عدد من المؤلفات عن حياة دستوفسكي وبوشكين وليسكوف. (المترجم)

^{٤٨} أ. ج. دستوفسكايا، المذكرات، المحرر ل. ب. جروسمان، موسكو، ١٩٢٥م، ص ١٥.

^{٤٩} مُراسلات ليف تولستوي مع نيكولاي ستراخوف، المجلد الثاني، سان بطرسبورج، ١٩١٤م، ص ٣٠٨.

^{٥٠} ليف نيكولايفيتش تولستوي، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٦، موسكو، ١٩٥٣م، ص ٢٥٤، ٢٥٣.

^{٥١} المرجع السابق.

بينما بدت هذه الموهبة بالنسبة لتولستوي شرطاً أساسياً لإبداع فنّ أصيل. وفي هذا السياق أعلن تولستوي للكاتب المتميز مباشرة أنه «كلما توغلّ الفنان أعمق، أصبح أكثر قرباً ووضوحاً للجميع»^{٥٢} وكان يعني هنا دستويفسكي ونفسه، بل وكل الفنانين الحقيقيين على وجه العموم. إن قضية «فضح» دستويفسكي، الكاتب والإنسان، قد انقلبت على سترخوف نفسه، في الوقت نفسه راح تولستوي يدافع عن دستويفسكي؛ فقد كذّب وأدان «اكتشافات» سترخوف، غير أن عدالة القدر تمثّلت في أن هذا الأمر جعل من ليف تولستوي تحديداً الوحيد في العالم، في رأي سترخوف، الذي استطاع أن يحكم بكل عدالة ونزاهة على جدله الأخير مع الراحل دستويفسكي.^{٥٣}

إن الاعتراضات التي أبدتها آنّا جريجوريفنا هي، خلافاً للتعميمات الفلسفية والجمالية التي أبدتها تولستوي، اعتراضات مُحددة وعاطفية للغاية، إنها بالدرجة الأولى، شهادة لزوجته كاتب غاضبة من إطلاق فرية في حقّه، ولكنها لم تكن بحاجة إلى إعداد ردّ مُتخصص؛ إذ إن شخصية دستويفسكي وصورته ككاتب تظهر في مذكرات آنّا جريجوريفنا في حد ذاتها على نحو يناقض تماماً افتراءات سترخوف.

ظلت آنّا جريجوريفنا زمناً طويلاً ترفض التسليم بموت دستويفسكي. وقد أرسلها أصدقائها وأقاربها إلى القرم بصحبة أطفالها على أمل أن يُخفف تغيير الوضع والركون إلى الوحدة التي كانت تبغيتها ولو قدراً قليلاً من أحزانها، ولكن الذكريات أثبت أن تفارقها هناك أيضاً، وإنما راحت تملأ قلبها على نحو لا يصلح معه العزاء. تقول آنّا جريجوريفنا في خطابها إلى صوفيا أفيركييفا: «كل شيء يبدو جيداً وهادئاً فوق ما يتمنّى المرء، ولا يبقى ربما سوى أن تنزل بي السكينة، وإلا سقطتُ في هوّة الكآبة. لقد بلغ بي الحزن مُنتهاه حتى وصلتُ إلى درجة اليأس. أعود بذكرياتي إلى السنوات السعيدة التي مضت، ولا أستطيع أن أُصدّق أنها لن تعود ثانية، لا أستطيع أن أُسلم بفكرة أنني لن أراه ولن

^{٥٢} ل. ن. تولستوي، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٦، ١٩٥٣م، ص ٢٥٤.

^{٥٣} انظر في هذا السياق مقال بوريس بورسوف «عند قبر دستويفسكي» (مراسلات ل. تولستوي ون. سترخوف) مجلة «حوليات علماء معهد ليننجراد التربوي باسم أ. إ. جيرتسين». المجلد ٣٢٠، مشكلة النوع الأدبي في تاريخ الأدب الروسي، ليننجراد، ١٩٦٩م، ص ٢٥٤-٢٧٣.

أستمع إلى صوته مرةً أخرى. لقد أتيتُ إلى هنا يَحْدُونِي الأمل في الخلود إلى الوحدة التامة، وكنتُ على يقين أنها ربما ستجلب لي بعض الفائدة. ماذا أقول؟ لقد ساعدتني الوحدة: فضلاً عن أنها وفّرت لي مكاناً للذكريات الثقيلة والحزينة، للأسى واليأس، لا أعرف كيف أتصرف!«^{٥٤}

كان يوم جنازة دستوفسكي هو اليوم الذي بذلت فيه أنا جريجوريفنا وعدّها بأن تُكرّس «ما بقي لها» من عمر في سبيل نشر أعماله. راحت أنا تواصل العيش في الماضي بصحبة ذكريات السنين المنصرمة. تقول أنا: «إنني لا أحيّا الآن في القرن العشرين، أنا باقية هناك في سبعينيات القرن التاسع عشر. والذين يُحيطون بي هم رفاق فيودور ميخايلوفيتش وأصدقائه، هم حلقة المُقربين من دستوفسكي الذين رحلوا عن عالمنا، إنني أعيش معهم. إن كلّ من يعمل في دراسة حياة ومؤلفات دستوفسكي هو بالنسبة لي شخص عزيز.»^{٥٥} يذكر الكاتب والناقد ن. سلونيمسكي، الذي كان على معرفة جيدة بأننا جريجوريفنا أنها كانت تعتزُّ بشخصيتها، حيث إنها كانت تعكس شخصية زوجها، ولكونها «زوجة دستوفسكي».^{٥٦}

كان الجهد الذي بذلته أنا جريجوريفنا، زوجة الكاتب، بعد وفاة دستوفسكي، جهداً عظيماً متنوعاً، فقد أصدرت سبع طبعات من أعماله الكاملة، صدرت الطبعة الأخيرة منها في عام ١٩٠٦م؛ ويدين بالفضل الكبير لها كل من أوريست ميللر^{٥٧} ون. ن. سترخوف، اللذان أعدا للمرة الأولى «المواد الخاصة بسيرة حياة دستوفسكي». وفي عام ١٩٠٦م ظهر العمل الفريد لأننا جريجوريفنا وهو «الدليل البليوجرافي للأعمال والمؤلفات الفنية التي أبدعها دستوفسكي إبان حياته. وطوال هذه السنوات كانت أنا جريجوريفنا تعمل على فك شفرة «مذكرة الكاتب» لعام ١٨٦٧م، وكذلك على إعداد ونشر كتاب خاص يضمُّ خطابات دستوفسكي إليها، ناهيك عن كتابة مذكراتها. وإلى جانب هذه الأعمال الأدبية

^{٥٤} مكتبة الدولة العامة باسم سالتيكوف، شيدرين، ملف ٦، أرشيف ٣٣.

^{٥٥} أ. ج. دستوفسكايا، المذكرات، تحرير ل. ب. جروسمان، موسكو، ١٩٢٥م، ص ١٤.

^{٥٦} ن. سلونيمسكي، زوجة دستوفسكي، صحيفة «نوفوي فيدوموستي» المسائية، براج، ١٩١٨م، العدد ١٢٧.

^{٥٧} ميللر، أوريست فيدوروفيتش (١٨٣٣-١٨٩٩م): مُتخصص في علم الفولكلور، مؤرخ للأدب وناقد ذو نزعة سلافية، أستاذ بجامعة بطرسبورج منذ عام ١٨٥٨م، صديق لدستوفسكي. (المترجم)

الكبرى أُسست آنًا في ستاريا روسا مدرسة للحِرَف الشعبية، إلى جانب تأسيس شقة - متحف ف. م. دستوفسكي وإنشاء غرفة خاصة بدستوفسكي ملحقة بمتحف التاريخ، والتي تعتبر نواة لشقة - متحف دستوفسكي في موسكو.

شاركت آنًا جريجوريفنا في الأمسيات الأدبية والمعارض، وكتبت عددًا كبيرًا من المراسلات مع جمهور كبير من المُعجبين بموهبة دستوفسكي، وكان من بين من راسلوها م. ن. يرمولوف، أ. ف. كوني، ف. إ. نيميروفيتش - دانتشينكو، ف. س. سولوفيوف، أوريست ميللر، ي. ف. تارلي، ك. إ. تشوكوفسكي. يذكر أن آنًا جريجوريفنا ألقت كلمة تقديرٍ وجَّهتها لكل أعضاء فرقة المسرح الفني بعد انتهاء عرض مسرحية «الإخوة كارامازوف» جاء فيها «كان حلمي دائمًا أن أرى عملاً من أعمال زوجي العزيز على خشبة المسرح. وللأسف فإن تحويل رواياته إلى مسرحيات كان يُصيبني بالحزن أكثر مما كان يجلب لي السعادة، فلم تكن المسرحيات تعكس قيمة أعمال دستوفسكي، كما لم تكن تجسّد الشخصيات التي أبدعها وإنما كانت تُزيّفها. وقد جاء أداء هذه الأعمال على المسرح أداءً عاديًا، باستثناء عددٍ قليل منها، وقد كنت دائمًا ما أفكر أن مسألة شرح دستوفسكي للجمهور أمر لا يمكن أن يتحمّل مسرح موسكو الفني مسؤوليته وحده؛ هذا المسرح الذي قدم الكثير من أجل رفعة الفن الروسي ...»^{٥٨} ومع كل ما بذلته آنًا جريجوريفنا من جهد، لم تتمكن من أن تُحقّق الكثير مما كانت تفكر في عمله، فقد حال الموت بينها وبين عملها في إنجاز المجلد الثاني من سيرة الكاتب، وبقي جزءٌ من الدفاتر التي تحتوي على تسجيلاتٍ كُتبت بطريقة الاختزال تضمُّ أحاديثها مع دستوفسكي دون أن تفك شفرتها. تذكر آنًا جريجوريفنا في حديثها مع أ. إسماعيلوف: «للأسف لم أتمكن مطلقًا طوال عملي المُكرس مرة أخرى لقضية زوجي، من الوصول إلى استعادة النص المختزل، كذلك فلم يكن فك شفرتي بالأمر الهين، وشأن أي مختزل ذي خبرة، فقد استخدمت اختصاراتي الخاصة، وهي اختصارات لا يمكن لأحد غيري فهمها!»^{٥٩} آنذاك لم تكن آنًا قد انتهت أيضًا من كتابة مذكراتها. وقُبيل وفاتها بفترةٍ قصيرة تحدثت آنًا جريجوريفنا إلى ل. جروسمان بقولها «أبلغ من العمر الآن

^{٥٨} خطاب أرملة ف. م. دستوفسكي أ. ج. دستوفسكايا، صحيفة «ريتش»، سان بطرسبورج، ١٩١٠م، ١٢-٢٥ أكتوبر، العدد ٢٨٠.

^{٥٩} أ. أ. إسماعيلوف، في ضيافة أ. ج. دستوفسكايا (بمناسبة مرور ٣٥ عامًا على وفاة ف. م. دستوفسكي) صحيفة «بيرجيفي فيدوموستي»، ١٩١٦م، ٢٨ يناير، العدد ١٥٣٥٠.

اثنين وسبعين عاماً، ولكنني لا أريد أن أموت، وأحياناً ما يملؤني الأمل في أن يمتدَّ بي العمر كما امتدَّ بالمرحومة أُمِّي التي عاشت تسعين عاماً. أمامي الكثير من العمل، مسائل لم تنتهِ بعد، أمامي عمل عمري كله.»^{٦٠}

في عام ١٩١٧م تُصاب أنا جريجوريفنا أثناء وجودها في الجنوب بنوعٍ حادٍّ من الملاريا، ولم تنجح محاولة عودتها إلى بتروجراد، الأمر الذي كان له أثر بالغ في تدهور حالتها الصحية، فضلاً عن الفاقة التي عاشتها. وقد تحمَّلت أنا هذه المعاناة بشجاعةٍ فائقة. كتبت الطبيبة ز. س. كوفريجينا في معرض ذكرياتها عن أنا جريجوريفنا أنها كانت في هذه الفترة، في تلك الأشهر الأخيرة من حياتها مثلاً، للدeshة بما امتلكته من خصالٍ روحية فريدة، ولم تكن تُثير الاهتمام والغربة باعتبارها زوجة لدستوفسكي، وإنما لشخصها، بِطاقَتِها التي لا تنفد، بعقلها الراجح المُستدير، وفوق ذلك باهتمامها الدؤوب بكل ما حولها. كانت تُضفي على ما حولها من الحماس والحمية ما لا يتناسب وعمرها. وأحياناً لم يكن من الممكن أن تُصدق أنك أمام امرأة عجوز ... امرأة ذات طبيعة نادرة في كمالها، امرأة ظلَّت حتى النهاية قادرة على أن تُحب وأن تُكره ...»^{٦١}

توفيت أنا جريجوريفنا في التاسع من يونيو ١٩١٨م في يالطا ودُفنت في جبانة أوتسكي بعيداً عن بطرسبورج، عن أحبابها، عن قبر دستوفسكي. طلبت أنا في «دفتر وصيّتها» ألا تُدفن إلى جوار زوجها في كنيسة ألكسندر نيفسكي، وألا يُقام لها نصب خاص، وأن يكتبوا بضعة سطور فقط على قبرها إن أرادوا. وبسبب عددٍ من الظروف تم تنفيذ إرادتها الأخيرة فقط في عام ١٩٦٨م، وذلك بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاتها، ويرجع الفضل في ذلك إلى إصرار حفيدها وحده، أندريه فيودوروفيتش، الذي ورثه عن جدِّته، بعد أن نشر عددًا من المقالات والدراسات عن أنا جريجوريفنا دستوفسكايا. ومن بين مُعاصريها الذين ودَّعوها بكلمات تفيض بكثيرٍ من مشاعر الإجلال والتقدير: ي. أ. شتا كينشنايدر، أوريست ميللر، ز. س. كوفريجينا وغيرهم. وقد خصَّها الشاعر ف. كورنيل برسالةٍ شعرية مليئة بالتبجيل والاحترام لم ييخل عليها فيها بأوصافٍ من قبيل («الملاك»، «الهادئة»، «الشمعة المضيئة أمام الأيقونة»)، على أنه لا ينبغي علينا أن نستسلم أمام هذا الإغراء، فنرى في أنا

٦٠. أ. ج. دستوفسكايا، المذكرات، تحرير ل. ب. جروسمان، موسكو ١٩٢٥م، ص ١٤.

٦١ «دستوفسكي»، مقالات ومواد، تحرير أ. س. دولينينا، المجلد الثاني، ليننجراد، ص ٥٨٧.

جريجوريفنا تجسيداََ لدمائة الخلق والرصانة والصحة، خلافاً لطباع زوجها دستوفسكي المضطرب، الشديد الانفعال والعصبية. لم تكن أنا جريجوريفنا «ملاكاً» ولا «يمامة» وديعة، ولا «شمعة مضيئة أمام الأيقونة». ذات يوم كتب دستوفسكي مُتَعَجِّباً إلى صديقه مايكوف يقول: «أتعرف؟! إنها امرأة متكبرة، متعجرفة».^{٦٢} وتتجاوب شهادات بنات دستوفسكي أيضاً مع رأي الزوج. تقول لوبوف فيودوروفنا: «كان لديها دائماً قُدر كبير من عزة النفس يصل إلى حدِّ المرض، فكانت تغضب لأتفه الأسباب ...» وتصف الابنة ما تتميز به أمُّها من سرعة التأذي والحساسية المفرطة بقولها: «كانت مُعتلة الصحة دائماً، شاحبة الوجه، عصبية، ينتابها القلق ...»^{٦٣}

ليس ما أوردناه هنا من أقوال أقرباء أنا جريجوريفنا هو من قبيل اللوم، فإنما لفت الأنظار إليها سماتها الأرضية، لا السمات الملائكية والرقّة. وهذه السمات هي الكبرياء وعزة النفس والإحساس بالكرامة، وقد جعلت من هذه المرأة الهشة ذات الجسد الضعيف، التي تحمل على كاهلها أعباءً ثقيلة، امرأةً أكثر قوة على نحوٍ ما. لقد أضفت هذه الخصال عليها لباقةً داخلية كبيرة، ورباطة جأش واستقلالية، وهي الخصال التي كان دستوفسكي يُقدِّرها في زوجته. وفي خطاباتهِ إلى أصدقائه أشار دستوفسكي مراتٍ عديدة إلى الاختلاف القائم في الطباع بينه وبين أنا جريجوريفنا: «... هناك اختلافات عديدة في طباعنا»،^{٦٤} هذا ما كتبه في خطاب له إلى أبوللون مايكوف في عام ١٨٦٧م، لكن هذا التباين في الطباع بينهما تحول إلى وحدة نادرة للأضداد. تقول أنا جريجوريفنا في ختام مذكراتها: «إن لديه بناءً مختلفاً في شخصيته، وطبعاً مختلفاً وآراءً مختلفة، لكنَّ كلّاً منّا «ظلٌّ على طباعه»، فلم يكن أحداً إطلاقاً ليكون صدّي للآخر، أو يُزيّف من صورته، أو يدسّ أنفه في شئونه. فلا هو تلصّص على ما نفسي ولا أنا فعلتُ ذلك تجاهه. وعلى هذا النحو شعر كل منّا أن روحه طليقة، وهكذا كان يُفكر كثيراً وحيداً حول القضايا العميقة للنفس الإنسانية، أغلب الظنّ أنه كان يُقدر عدم تدخُّلي في حياته الروحية والفكرية، ولهذا فقد كان كثيراً ما يقول لي: «أنت المرأة الوحيدة التي تفهمني!»

^{٦٢} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المجلد، ص ٢٦٥.

^{٦٣} لوبوف دستوفسكايا، دستوفسكي كما وصفته بناته، ترجمة عن الألمانية ل. ي. كروكوفسكايا، مقدمة وتحرير ج. جوسيفيلد، موسكو - براج، ١٩٢٢م، ص ٤٩-٥٠.

^{٦٤} ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المجلد ٢، ص ٦٣.

نُرى هل كان هذا هو التناقض الوحيد بين أنا جريجوريفنا ودستوفسكي؟ لقد كان هناك شيء ما مشترك في رؤيتهما للعالم، شيء قَرَّبَ بينهما. تقول ماريا ستويونينا، أقرب صديقات أنا، في مذكراتها: إن «أنا جريجوريفنا كان لديها أمور مأسوية كثيرة، وهو ما كان من الممكن الإحساس به حتى في أكثر لحظات الحياة عادية.»^{٦٥} «كان هناك ثمة شيء خفي في وجه أنا جريجوريفنا لا يمكن الإمساك به، الأمر الذي كان يُثير في ذاكرة المعاصرين صورة دستوفسكي. وعندما شاهد ليف تولستوي أنا جريجوريفنا للمرة الأولى رآها تُشبه زوجها على نحوٍ مدهش. لعلَّ كلمات المُجاملة التي صدرت عنه عن قصدٍ بلباقةٍ عالية القوم لم تكن لتصدر إلا عن رجلٍ دقيق الملاحظة، وهو ما أدركته أنا جريجوريفنا جيداً على الفور.»^{٦٦} على أنه ليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تولستوي بدا لأننا جريجوريفنا في لحظةٍ ما شبيهاً على هذا النحو أو ذاك بدستوفسكي. وعندما حانت ساعة الانصراف قال تولستوي: «لعل كثيراً من الكتاب الروس كانوا سيشعرون أن حياتهم كان من الممكن أن تصبح أفضل، لو أن زوجاتهم كنَّ مثل زوجة دستوفسكي.»

في أثناء حياة أنا جريجوريفنا وبعد وفاتها خاصة ظهرت في صحف العاصمة مقالات وإشارات دأب صحفيو بطرسبورج فيها على لفت الانتباه إلى الحسِّ العملي لدى أنا جريجوريفنا ويتهمونها فيها «بالتقدير والخل». وهنا علينا ألا ننسى، دون أن ننفي أو نتجاهل هذه السمة، التي كانت معروفة في طبع زوجة دستوفسكي، أنها بفضل هذا الحسِّ العملي وبفضل «بخلها» استطاعت أن تُوفر في الأزمان العصيبة التي مرت بها شيئاً من الرخاء واليسر المادي لأسرتها، كما أنها نجحت في أن تُجنب دستوفسكي، الشديد السذاجة والقليل الحيلة في أمور الحياة العملية، الكثير من الدناءات الكريهة التي أحاطت به من كل جانب. لم تكن أنا جريجوريفنا بحاجة إلا لما هو ضروري، لقد بذلت جُلَّ اهتمامها لتُوفر لأطفالها وأحفادها الهدوء والسكينة، كما واصلت حياتها بعد وفاة الكاتب بنفس البساطة التي كانت تحيا بها من قبل، فاستأجرت لنفسها غرفةً صغيرة ولم تُغير عاداتها،

^{٦٥} م. فولوتسكوي، شجرة عائلة دستوفسكي، موسكو، ١٩٣٣م، ص ١٢٢.

^{٦٦} قال لي تولستوي: «لقد تخيلته هو أيضاً»، وكان يقصد أنه وجد أيضاً تشابهاً بيني وبين المرحوم زوجي، وذلك حتى يُدخل السرور إلى نفسي». أ. أ. إسماعيلوف، في ضيافة أ. ج. دستوفسكايا (بمناسبة مرور ٣٥ عاماً على وفاة ف. م. دستوفسكي). «بيرجيفي فيدوموستي»، ١٩١٦م، ٢٨ يناير، العدد ١٥٣٥٠.

وحافظت على ذكريات الماضي العزيزة مع زوجها، وأبقت على نفس المناخ. أخيرًا فإننا مدينون لزوجة دستوفسكي صاحبة «الحس العملي» بالحفاظ على جزء كبير من تراثه الأدبي وخطاباته ومخطوطاته ودفاتر مذكراته. أما القارئ فلا يمكنه أن يقف غير مكترثٍ لكاتبة هذه المذكرات الرائعة، التي سجلت فيها، على حدِّ قول أحد الباحثين السوفيت، «أكثر السمات الإنسانية» لكاتبٍ عبقرٍ.

س. ف. بيلوف

ف. أ. تونيمانوف

مدخل

(إلى «المذكرات»)

لم تردّ بخاطري من قبلُ مطلقاً فكرة كتابة مذكراتي، ولما كنت أدرك افتقاري التام للموهبة الأدبية، فقد ظللتُ طوال حياتي مشغولةً بشدة بإصدار مؤلفات زوجي خالد الذكر، ومن ثم لم يكن لديّ وقت يكفي للاهتمام بأي شيء آخر يتعلق من قريبٍ أو بعيدٍ بذكراه. وفي عام ١٩١٠م، ونظراً لسوء حالتي الصحية وتدهور قواي، فقد أصبح لزاماً عليّ أن أضع أمانة إصدار مؤلفات زوجي، الشديدة الأهمية بالنسبة لي، في أيدي آخرين. وعندما اضطررتُ، بسبب إصرار الأطباء، على العيش بعيداً عن العاصمة، شعرت بفراغٍ كبيرٍ في حياتي كان من الضروري أن أملأه بعملٍ ما يكون شيقاً بالنسبة لي. بعبارة أخرى، فقد شعرت أن هذا العمل لن يستغرق وقتاً طويلاً.

كنت أعيش في وحدة تامة، لا أشارك، اللهم إلا في القليل، من الأحداث الجارية. وشيئاً فشيئاً رحّت أستغرق بروحي وفكري في الماضي الذي كان سعيداً، وهو ما ساعدني على نسيان الفراغ وافتقار حياتي التي أعيشها إلى غاية أصبو إليها.

عندما رحّت أعيد قراءة دفاتر مذكرات زوجي وكذلك دفاتري الشخصية وجدتُ فيهما من التفاصيل المهمة ما جعلني، دون إرادةٍ مني، أرغب في إعادة كتابتها من جديد؛ لا اختزالاً، على النحو الذي كانت عليه، وإنما بلغة يفهمها الجميع، وخاصة أنني كنتُ على يقين أن أبنائي وأحفادي سوف يُقبلون على قراءتها باهتمام بالغ، وربما اهتمّ بها أيضاً مُحبو موهبة زوجي الخالد الذكر، وكذلك من لديهم الرغبة في أن يتعرفوا على حياة فيودور ميخايلوفيتش العائلية.

ومن هذه المذكرات التي دَوَّنْتُها في أوقات متفرقة على مدى فصول الشتاء الخمسة الأخيرة (١٩١١-١٩١٦م) تجمّع لديّ عددٌ من الدفاتر التي سعيْتُ جاهدة أن أضعها مُرتَّبة قدر الإمكان.

لا أتعهّد لأحدٍ أن تكون مذكراتي شيقة، ولكنني أستطيع أن أضمن صحتها وحيادها الكاملين؛ من حيث وصف مواقف بعض الشخصيات، فهذه المذكرات بُنِيَتْ أساسًا على مُدوّنات مؤيدة بخطابات ومقالات من الصحف والمجلات.

وأعترف صراحةً أن مذكراتي تحتوي على أخطاء أدبية كالإطالة في السرد، والتباين في حجم الفصول، والأسلوب القديم وهلم جرًّا. على أنّ المرء، وقد بلغ السبعين من العمر، يصعبُ عليه أن يتعلم أشياء جديدة، وإنما يغفر لي هذه الزلّات إخلاصي ورغبتي القلبية في أن أقدم للقارئ، فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي بكلّ ما له وما عليه، وأن أضع أمامه الصورة التي كان عليها في حياته الشخصية والعائلية.

المذكرات

الجزء الأول

الطفولة والشباب

١

مجيئي إلى الدنيا

كثير من ذكرياتي الهامة مُرتبط أشد الارتباط بدير ألكسندر نيفسكي في بطرسبورج؛ ففي الأبرشية الوحيدة، الموجودة بالقرب من بوابة الدخول الرئيسية (أصبحت الآن ديرًا) جرى تعميد أبويّ. أما أنا فقد وُلدت في الثلاثين من أغسطس، يوم الاحتفال بموكب القديس ألكسندر نيفسكي، في بيتٍ ترجع ملكيته للدير، وقد أقام الصلاة وعمّدني راهب الدير. وقد دُفن زوجي خالد الذكر في جبانة تيخيفينسكي بدير ألكسندر نيفسكي. وإذا شاء القدر، فلعلّي أجد راحتي الأبدية في جواره، وكأن الظروف جميعها تضافرت لتجعل من دير ألكسندر نيفسكي الموضع الأعزّ إلى نفسي في هذا العالم بأسره.

وُلدتُ في الثلاثين من أغسطس عام ١٨٤٦م، في يوم من أيام الربيع الرائعة، التي اشتهرت باسم أيام «بابي ليتا»^١. وحتى عيد القديس ألكسندر نيفسكي يُعتبر العيد الرئيسي للعاصمة، وفي هذا اليوم يُقام موكب ديني مسيحي تُرفع فيه الأيقونات والصلبان يبدأ من كنيسة كازان وحتى الدير، ثم العودة. ويرافق الموكب جمهور عريض يحصل على إجازة من العمل في هذا اليوم. على أنّ الناس كانوا في الماضي، في الزمن البعيد، يحتفلون بالثلاثين من أغسطس بشكلٍ أكثر حيوية؛ ففي منتصف شارع نيفسكي، وعلى امتداد ما

^١ «بابي ليتا»: فترة يكون الجوُّ بها دافئًا مُشمسًا وجافًا، تُعرّف في أوروبا وشمال أمريكا بالصيف الهندي، وتستمر لمدة من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، شهري سبتمبر وأكتوبر. (الترجم)

يزيد على ثلاثة فراسخ^٢ كانوا يُقيمون منصة خشبية عريضة مرتفعة، تفصل بين الجمهور والموكب الذي يسير ببطء وقد تلالأت فوقه الصلبان الذهبية والرايات، ومن خلفها رتل من رجال الدين وقد ارتدوا ملابس الرهبان الموشاة بالذهب، كما سار على القوم والعسكريون في أوشحتهم ونياشينهم، ومن خلفهم جميعاً انطلقت بضع عربات استعراضية مذهبة تجرها الخيول. تُقلُّ على متنها أعضاء الأسرة الملكية. يُمثل الموكب الديني كله لوحة نادرة؛ حيث تجتمع المدينة كلها في هذا اليوم لمشاهدة هذا الموكب.

كان والدَي يعيشان في الطابق الثاني من بيت ما تزال ملكيته تُتول حتى الآن إلى الدير. كانت الشقة رحبة (إحدى عشرة غرفة)، وكانت نوافذه تُطلُّ على الشارع المُسمَّى الآن شليسيلبورجسكي، وعلى جزءٍ من الميدان الواقع أمام الدير.^٣

كانت عائلتنا كبيرة العدد، جدتي لأمي وأربعة أبناء، اثنان منهم كانا مُتزوجين ولديهما أبناء. عشنا جميعنا مُتحابين، مُحافظين على تقاليد الحفاوة، حتى إن أفراد الأسرة كلها، البعيدين والقريبين، كانوا يجتمعون في بيت جدتي في أعياد ميلاد أفراد الأسرة وفي عيد الميلاد المجيد وأعياد القديسين، لنقضي وقتنا منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل في جوٍّ يسوده المرح والبهجة. لكن العدد الأكبر من الضيوف كان كثيراً ما يلتئم شمله وخاصة يوم الثلاثين من أغسطس؛ إذ كان اعتدال الجو وروعته يسمحان لنا بفتح النوافذ ومشاهدة الموكب في يسر، وكان الجميع يشعرون أنهم في جوٍّ من المرح والتألف. وقد جرى الأمر على هذا النحو تمامًا يوم ٣٠ أغسطس ١٨٤٦ م. كانت أُمي ومعها باقي أفراد العائلة تستقبل ضيوفها بكلِّ الترحاب وقد بدت مليئةً بالصحة والمرح. وإذا بها تختفي عن الأنظار، بينما كان الجميع على ثقة أن ربة البيت الشابة تقوم على تدبير أمور ضيوفها في الغُرف الداخلية للبيت، وفي الوقت نفسه لم تكن أُمي تتوقع أن يقع لها هذا «الحدث» بهذه السرعة، والأرجح أنه أتى نتيجة ما بذلته من جهدٍ وما انتابها من قلق؛ الأمر أنها شعرت فجأةً بوعكة فاعزلت في فراشها، بعد أن أرسلت في طلب المرأة الضرورية في مثل هذه الحالات. كانت أُمي تتمتع دائماً بصحة جيدة، وقد مرّت بتجربة الولادة من قبل، ومن ثم فقد مرَّ الأمر دون أن يُحدث جلبّةً أو اضطراباً في البيت.

^٢ الفرسخ يُساوي ١٠٦٠ مترًا. (المترجم)

^٣ لا يزال هذا البيت قائماً على هيئته حتى الآن (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

وفي حوالي الساعة الثانية ظهرًا انتهى الغداء الاحتفالي في الكنيسة، وراحت أجراس الدَّير تُقرَع، وأثناء الموكب الديني القادم من البوابة الرئيسية للدَّير انطلقت أصوات الموسيقى النحاسية العسكرية الموجودة في الميدان. راح الجالسون عند النوافذ يُنادون باقي الضيوف صائحين: «يتحرك، يتحرك، لقد بدأ الموكب يتحرك»، وفي خضمِّ هذه الصيحات، وعلى صوت الأجراس ودويِّ الموسيقى، التي كانت تصل إلى مسامع أُمِّي، بدأت أنا أيضًا في التحركُ نحو طريق الحياة الطويل.^٤

انتهى الموكب الاحتفالي، وراح الضيوف يتجمَّعون داخل البيت تحدُّوهم الرغبة في الاعتذار لربة البيت التي، كما قيل لهم، ذهبت للرقاد قليلًا طلبًا للراحة. وفي حوالي الساعة الثالثة، دخل أُمِّي مُتوجِّهًا نحو الصالة التي اجتمع فيها الضيوف، مُتأبطًا ذراع جدتي. وبعد أن توقَّف في وسط الحجرة أعلن في فرح يشوبُّه الانفعال من أثر الحدث الذي وقع قائلاً: «أقاربنا وضيوفنا الأعزاء، هنُّوني بالسعادة الكبيرة، لقد أهداني الله ابنتي أنا». كان أُمِّي رجلًا ذا شخصيةٍ مرحةٍ للغاية، يميل إلى المزاح وإلقاء النكات حتى إنهم كانوا يُسمُّونه «روح الصحبة». لم يُصدِّق أحد من الحضور خبر ولادتي، ظنًّا منهم أنها دُعابة من دعابات العيد، وهنا تعالت الصيحات «مُستحيل! جريجوري إيفانوفيتش، أنت تمزح! كيف يُمكن أن يحدث هذا؟ لقد كانت أنا نيكولايفنا معنا طول الوقت»، وما إلى ذلك من تعليقات. وهنا توجَّهت جدتي بنفسها إلى الضيوف بقولها: «لا، جريشا^٥ على حق: منذ ساعة مضت جاءت إلى الدُّنيا حفيدتي نيوتوتشكا!»

هنا انهالت التهاني، ومن أحد الأبواب جاءت فتاة تحمل كئوسًا مليئةً بالشمبانيا. شربَ الجميع نخب المولودة الجديدة ونخب والديها وجدتها. وهُرعت السيدات يهنئنَ الوالدة (لم يكن هذا الزمن يعرف تحذيرات الأطباء) ويُقبَلن «الصغيرة»، وانتَهز الرجال فرصة غياب السيدات فأجهزوا على ما تبقى من زجاجات الشمبانيا، رافعين الأنخاب على شرف «المولودة الجديدة». على هذا النحو جاء الاحتفال بمجيئي إلى الدنيا، كما قال

^٤ عن هذه المواقف التي صاحبتُ مجيئي إلى الحياة، استمعتُ فيما بعدُ من أعمامي وخالاتي، الذين كانوا في ضيافتنا في هذا اليوم، الكثير من الحكايات بطرُقٍ وتعليقاتٍ مختلفة (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستويفسكايا).

^٥ جريشا: اسم التذليل لجيورجي. (المترجم)

الجميع، تَيْمَنًا بفألٍ حسنٍ مُسْتَقْبَلِي. وقد تحققت النبوءة لاحقًا؛ وعلى الرغم من أنه قد قُدِّر لي أن أتحمَّل الكثير من المصاعب المادية والعذابات المعنوية، فإنني أحسب أن حياتي كانت سعيدة للغاية، وأنني لم أكن لأعتني أن يتغيَّر شيءٌ في هذه الحياة كما عشتُها. كان جدِّي الأكبر يحمل اسم سيني٦تكو، وبعد أن باع جدِّي ضيعته في محافظة بولتافسكايا،^٦ وكان اسمه قد أصبح سيني٦تين، أرسل أبي ليتعلَّم في مدرسة الجيزويت في بطرسبورج، لكنه لم يُصبح من الجيزويت؛ ظل طوال حياته يتميَّز بالطيبة ونقاء السريرة.^٧ كان أبي يعمل في أحد المجالس البلدية أو الإدارات. أما أمي فتعود أصولها إلى إحدى العائلات السويدية الكريمة وتُدعى عائلة ميلتوبيوس، وكان أحد أجدادها يدين بمذهب لوثر، أما أعمامي فكانوا من العلماء، وهو ما تؤكدُه إضافة النهاية «يوس» والتي كانت تخصُّ العلماء، كنوع من التكريم، مثل المقطع دي أو فون. عاش أجدادي الكبار في «أبو»^٨ ودُفِنوا داخل أسوار

^٦ مالاراسيا (روسيا الصغرى): اسم أوكرانيا (منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي) في الوثائق الرسمية لروسيا القيصرية وفي الكتابات التاريخية الإقطاعية والبورجوازية. (المترجم)

^٧ يحكي أبي هذا المشهد من طفولته، فعندما كان عمره عشر سنوات، كان يسير ذات يوم من أيام الشتاء في الصباح الباكر (في حوالي الساعة السابعة) مُتَجَهًّا إلى مدرسته مُتَخَذًا طريق كورنيس فونتانكا. وبالقرب من قصر أنيتشكوف اقترب منه سيِّدٌ ما طويل القامة يرتدي ملابس قشبية، وإلى جواره وقفت امرأة رُتَّة الثياب. أوقف السيد الطفل وقال له: «ألا ترغب في عمل خير، تعالَ معي لتُصبحِ إشبينًا لابني، وهذه المرأة ستكون إشبينته.» أضاف الرجل مُشيرًا إلى العجوز. كان أبي طفلًا شجاعًا، ودون أن يتردَّد لحظة واحدة راح يتبع السيد والعجوز. وصل الجميع إلى أحد البيوت الفاخرة حيث كان بانتظارهم قس، وعلى الفور بدأت مراسم تعميد الطفل، وبعد أن تمَّ تعميده قدَّموا للإشبين والإشبينة الشاي والحلوى، ثم أعطوا لكلٍّ منهما عشرة روبلات؛ وحيث إن أبي قد تأخَّر عن المدرسة فقد عاد إلى البيت وقصَّ ما حدث له. وفي البيت شرحوا له أنَّ هناك اعتقادًا بأن الأسرة التي يموت أطفالها ينبغي أن تُعمد المولود من قبل أول من يُقابلهم الأبُّ في طريقه، حتى تُكتب لهذا المولود الحياة. وهكذا تصادف أن يكون إشبين هذا المولود هو أبي وأن تكون العجوز هي إشبينته. فيما بعد تلقَّى أبي هديةً من ابنه في العمداء في عيد الميلاد المجيد، ومرةً أخرى تمَّت دعوته ليُبارك الابن، الذي كان يُعاني من المرض بشدة. وهناك اعتقاد آخر أيضًا أنَّ دعاء وبركة الإشبين والإشبينة قادران على إنقاذ المولود من الموت. وقد شُفي الابن بالفعل. فيما بعدُ فرَّقَت الأيام بين أبي وابن العمداء، وكان قد ذكَّر لي اسمه ولكنَّه ضاع من ذاكرتي (ملاحظة لأنَّا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٨ أبو Abo: الاسم السويدي لمدينة توركو Turko الفنلندية. (المترجم)

كاتدرائيتها الشهيرة. وبعدما زرت «أبو» حاولت، وأنا في طريقي إلى السويد، أن أجد قبر جدي في الكاتدرائية ولكنني لم أستطع أن أحصل على أي معلومات من الحارس؛ إذ لم أكن أعرف شيئاً من اللغتين الفنلندية أو السويدية.

كان والد أُمي، نيكولاي ميلتوبيوس، مالِكاً لقطعة أرض تقع في محافظة سان ميخيلسكي، وكانت الأسرة كلها تعيش في ضيعته ما عدا الابن رومان نيكولايفيتش، الذي كان يدرُس في معهد موسكو للمساحة، وعندما أنهى دراسته حصل على وظيفة في بطرسبورج. وما إن توفّي والدُه حتى باع الضيعة وانتقل هو والأسرة إلى بطرسبورج، وسرعان ما توفّيت هناك جدّتي أنا؛ ماريا ميلتوبيوس، وبقيت أُمي وابنتاها ليعشن في كنف أخيهما. كانت أُمي رائعة الجمال، طويلة، نحيلة، ممشوقة القوام، ذات وجه واضح القسمات، كما كانت تتمتع بصوت حسن من طبقة السوبرانو، ظلّت تحتفظ به نقيّاً تقريباً حتى تقدّم بها العمر. وُلدت أُمي عام ١٨١٢م، وعندما بلغت من العمر اثني عشر عاماً تمّت خطبتها إلى أحد الضباط، لكن القدر لم يُمهلهما حتى الزفاف، إذ ذهب للمشاركة في الحملة المجرية حيث لقي حتفه. كان حزن أُمي عليه عظيماً حتى إنها قرّرت ألا تتزوَّج من بعده. لكن الأعوام ما لبثت أن توالى عامّاً بعد الآخر وراحت صدمة المُصيبة تتلاشى شيئاً فشيئاً. وفي هذا المجتمع الروسي الذي نشأت فيه أُمي، كان هناك من يهويّن العمل كخاطبات (كان عملاً يدخل في نطاق العُرف المقبول آنذاك) وها هنّ يدعون ذات يوم شابين يرغبان في الزواج لحضور أحد اللقاءات العائلية، وقد أعجبا بأُمي كثيراً، لكنها أجابت بالرفض عندما سألوها إذا ما كان أحد الخاطبين قد حظي بإعجابها قائلة: «كلّا، إنما أعجبني أكثر هذا «العجوز» الذي يتحدث كثيراً ويبتسم طوال الوقت». كانت تتحدّث عن أبي، وقديماً كانوا يَعتبرون الرجل الذي بلغ من العمر أربعين عاماً «عجوزاً»، وكان والدي يبلغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عاماً (وُلد في عام ١٧٩٩م). وكان أبي يقضي شبابه في مرح وبهجة، لكنه، وبتأثير أُم صارمة، كان مُتحفظاً في سلوكه، ولهذا كان يبدو، وهو في الثانية والأربعين من عمره، مُتمتّعاً بكامل الصحة، قوياً، مُتورّد الوجه. كانت له عينان زرقاوان جميلتان وأسنان سليمة، وإن كان خفيف شعر الرأس مع انتظام فيه، وإلى أن وافت المنيّة أُمّه لم يفكر في أن تكون له عائلة، ولهذا كان يتردّد على المجتمعات باعتباره جازاً مُحبباً، لا باعتباره خاطباً على الإطلاق. وقد قدّموه إلى أُمي أيضاً فأعجب بها، ولكن

ولأنَّ أُمِّي كانت تتحدث الروسية بصعوبة، وكان هو يتحدث الفرنسية على نحو سيئ، فلم يكن الحديث بينهما يطول كثيراً. وعندما أبلغوه بما قالته أُمِّي بشأنه، راقه ما أبدته هذه الأنسة الجميلة نحوه من اهتمام، وراح يُكثر من زيارته لهذا البيت؛ حيث يمكن أن يلتقي بها. وانتهى الأمر بأن وقع كل منهما في هوى الآخر. ولكن بقيت أمامهما عقبة كئود تمثلت في أن أُمِّي كانت تدين بالمذهب اللوثيري، بينما، ووفقاً لمفاهيم أسرة أبي الأرثوذكسية، ينبغي أن تكون الزوجة على مذهب زوجها. وقد وصل الأمر بأبي أَنَّهُ قرَّر الوقوف في وجه أسرته. وعندما علَّمت أُمِّي بذلك خشيت أن تكون سبباً في بذر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة المتحابَّة، وظلَّت طويلاً في حرج بالغ: هل تتحوَّل إلى الأرثوذكسية أم ترفض الرجل الذي أحَبَّته. شيء واحد ترك أثره على قرارها. ففي وقتٍ من الليلة، التي كان عليها في اليوم التالي أن تُبلغ قرارها الحاسم إلى أبي، راحت تُصلي طويلاً راکعةً أمام الصليب ترجو من الله أن يُساعدها، فجأةً وبعد أن رفعت رأسها، إذا بها ترى هالَّة ساطعة فوق الصليب غمرت الغرفة كلها بالضوء، ثم ما لبثت أن اختفت. وقد تكرَّرت هذه الظاهرة مرَّتين. وقد فهَّمت أُمِّي ما حدث باعتباره بشارَةً سماوية لحلِّ مسألة أبي الصعبة. وفي هذه الليلة ذاتها رأت أُمِّي في منامها أنها تدخل كنيسة أرثوذكسية وأنها راحت تُصلي عند الحاجب. وقد عدَّت هذا الحلم أيضاً بشارَةً من السماء. يُمكن أن تتصوَّر مدى الدهشة التي أصابتها عندما ذهبت بعد مرور أسبوعين إلى كنيسة (سيميونوفسكايا، في شارع سوخوفايا) لعمل طقس المسح بالزيت، فإذا بها ترى أنها قد وقفت عند الحاجب وأن المشهد المحيط بها هو نفس المشهد الذي رآته في منامها، وقد هدأ هذا من خاطرها. وبعد تحوُّلها للأرثوذكسية دأبت أُمِّي على الصلاة في الكنيسة وأداء الصوم والمشاركة في العشاء الرباني، ولكنها كانت تجد صعوبةً في إقامة الصلوات باللغة السلافية؛ ومن ثَمَّ كانت تؤدِّيها من كتاب الصلوات باللغة السويدية، ولم تندم إطلاقاً على أنها غيرت دينها «وإلا لشعرتُ، كما قالت، أنني بعيدة عن زوجي وأطفالي، وهو أمر مُشين يشقُّ عليَّ».

عاش والداي معاً في وفاق حوالي خمسة وعشرين عاماً، فقد كانت طباعهما متألَّفة. كانت أُمِّي رأس البيت، امرأة ذات إرادة قوية، وقد رضخ أبي لهذه الإرادة عن طيب خاطر واكتفى بشيء واحد، هو التنقيب والبحث وشراء الأشياء النادرة والتَّحف من سوق أبراكسين وغيره من الأسواق (كانت العاديات آنذاك تملأ الأسواق)، وكان مُهتماً على وجه الخصوص بالخزف الثمين وكان على درايةٍ كبيرة في هذا المضمار.

قضى والداي سنوات زواجهما الأولى في كنف جدّتي وكذلك عدد كبير آخر من أفراد العائلة، وعندما ماتت جدّتي بعد خمس سنوات وتفرّق شمل الأسرة، أقنعت أُمّي أبي بأن يشتري البيت الواقع بالقرب من مُستشفى نيكولايفسكي سوخوبوتني، وهو بيت مُلحق به حديقة كبيرة (تبلُغ مساحتها هكتارين)، مكانها الآن شارعاً ياروسلافسكايا وكوسترومسكايا، وكان يطل على شارع مالايا بولوتنايا وحتى مصنع شتيجليتز.

من الأحداث الأولى التي تفتّحت عليها ذاكرتي، هذه الحادثة التي وقعت في شهر أبريل ١٨٤٩م، أي عندما كنت أبلغ من العمر عامين وثمانية أشهر، كانت هناك سقيفة قديمة في فناء بيتنا، قرّرت أُمّي أن تُزيلها وأن تبني سقيفةً جديدة. اجتمع العمّال وأقاموا البناء المطلوب، ولم يتبقّ سوى تسوية السقيفة القديمة بالأرض. خرجت أُمّي إلى الشرفة لكي تُشاهد من بعيد كيف سيتم الأمر، وقد سارت من خلفها مُربّيتي الفضولية وقد حملتني على يديها. ولسوء الحظّ تباطأ الحوزية، الذين كانوا يعيشون في عمق الفناء، عن الخروج، فصاح بهم الحضور أن يسرعوا في مغادرة المكان، فراحوا يخرجون في طابور طويل. بدا أنهم جميعاً قد غادروا المكان، ولكن ما إن بدأ العمّال في جمع قواهم لهدم السقيفة حتى ظهر أحد الحوزية كان قد تأخّر هناك. أدرك الجميع أنه إذا لم يُسارع بالخروج فإن السقيفة المنهارة سوف تقتله هو وحصانه. وهنا دوى صوتُ فرقةٍ شديدةٍ ناتج عن انهيار السقيفة صاحبه صراخ رعبٍ من الموجودين وتصاعدت أعمدة الغبار، وفي بادئ الأمر كان من المُستحيل تبيّن الأمور؛ هل وقعت المصيبة يا ترى؟ لحسن الحظ خرج الجميع سالمين، لكن صرخات أُمّي ومُربّيتي المتناغلتين، تركت أثراً كبيراً عليّ، فرحتُ أصبح بأعلى صوتي. وعندما استفسرتُ فيما بعدُ متى حدث ذلك، أكد لي أبي، بعد أن راجع دفاتر الحسابات، أن بناء السقيفة الجديدة تم في ربيع عام ١٨٤٩م.

الذكرى الثانية التي ما زلت أعيها تعود إلى مرض أُمّي عندما كنتُ في الثالثة من عمري. لا أعرف اسم هذا المرض، لكن الطبيب أمر بوضع عددٍ من الديدان على صدري. أتذكّر جيداً كم كانت هذه الديدان الماصة مُقززة، وكيف أحسستُ بالخوف منها، وكيف حاولتُ أن أنزعها عن صدري، أتذكّر بوضوح أيضاً كيف اصطحبتني أُمّي للعشاء الرباني والصلاة أمام الأيقونة العجيبة التي تُصوّر أم الإله الملهوفة (في شارع شباليرنايا). وعندما رأيتُ أُمّي والمربية تُصليان وتبكيان رسمتُ علامة الصليب وذرفتُ دمعاً سخياً. وفي اليوم التالي للصلاة التي تلت الأزمة، أخذتُ في التعافي سريعاً. عموماً فإن الأطفال في عائلتنا نادراً

ما يمرضون. كانوا بطبيعة الحال يتعرّضون للسعال ونزلات البرد، لكنَّ كلَّ أمراضهم كان يتمُّ علاجها بالوسائل المنزلية، وكان كثيرٌ من هذه الوبكات يمرُّ سريعاً بسلام.

أتذكّر طفولتي كلها وشبابي بمشاعر الرضا والسعادة الغامرة، كان والداي يُغدقان علينا من حُبهما ولم يُعاقبانا إطلاقاً هبأً. كانت الحياة داخل الأسرة تمضي في جوٍّ من الطمأنينة والسكينة والاتزان، دون مشاجرات أو تقلبات أو كوارث. كنا يُشبعاننا ويأخذاننا للترفيه والنزهة يومياً، كنا نجلس في الحديقة صيفاً من الصباح إلى المساء؛ وفي الشتاء كنا ننزلُج على الجليد في أطباق كبيرة في أماكن أُعدت لذلك. لم يدُللونا باللُّعب، ولهذا كنا نُقدر قيمتها ونحافظ عليها. لم يكن لدينا كتب للأطفال على الإطلاق، فلم يُفكر أحد في «تطويرنا» كان الجميع يحكون لنا الحكايات وبخاصة أبي؛ فبعد أن يعودَ من العمل ويتناول غداءه، يرقُد على الأريكة ثُمَّ يُنادي إليه الأطفال ويأخذ في إطلاق الحكايات. كانت لديه حكاية وحيدة، حكاية إيفان العبيط، لكن تنويعاته على هذه الحكاية كانت بلا حدود، وكُنَّا أنا وأخي، دائماً ما نُعبّر عن دهشتنا، ولماذا يُسمُّون إيفان بالعبيط ما دام قادراً على التخلص من كل هذه المصائب بهذا القدر من الذكاء. كانت مُتَعَنَّا قليلاً: شجرة عيد الميلاد التي كانت تُضاء كل مساء، استبدال الملابس المنزلية، دعوتنا للذهاب إلى السراقات وركوب «الحرزونية» يوم عيد الصوم الكبير، زهابنا إلى المسرح، وبخاصة الأوبرا أو الباليه مرَّتين في العام قُبيل عيد الميلاد وعيد القديسين، ولكنَّنا كُنَّا نُنَمِّن كل هذه المُتَعِّ الغاية، وكُنَّا نَظَلُّ شهوراً طويلة مُستمتِّعين بمسرحية شاهداها.

٢

التعليم

سأحدِّثكم عن تعليمي في إيجاز. من التاسعة إلى الثانية عشرة ذهبت إلى مدرسة القديسة آنَّا (في شارع كيروتشنايا). كان تدريس كافة المواد (عدا الكتاب المقدس) يتم باللغة الألمانية، وقد ساعدتني معرفة هذه اللغة فيما بعد، عندما اضطررنا لقضاء بضع سنواتٍ في الخارج أنا وزوجي. في عام ١٨٥٨م افتتحت في العاصمة أول ثانوية للبنات (ثانوية مارينسكايا)، وفي الخريف التحقْتُ بالصف الثاني بها. كانت الدراسة بالنسبة لي يسيرة، وعندما انتقلتُ إلى الصف الثالث ثُمَّ الرابع كانت الجائزة عدداً من الكتب، وعند انتهائي من الدراسة في عام ١٨٦٤م حصلت على ميدالية فضية كبيرة. قبل عام من ذلك افتتحت مدرسة المعلمين على يد

ن. أ. فيشنجرادسكي،^٩ التي كان يلتحق بها الراغبون في مواصلة التعليم. وقد التحقتُ بها في خريف عام ١٨٦٤م. في هذا الزمن ساد المجتمعُ الولعُ بالعلوم الطبيعية، وقد سرتُ مع التيار. كانت الفيزياء والكيمياء وعلم الحيوان تُمثِّلُ لي «إلهاماً»، فالتحقتُ بقسم الفيزياء والرياضيات، على أنني سرعان ما اقتنعتُ أنني اخترتُ القسم الذي لا يتلاءم وميولي، وأنَّ ما استمعتُ إليه فيه من محاضرات ذهبتُ سُدًى، فعند إجراء تجارب بلورة الأملاح، على سبيل المثال، كنتُ أنشغل بقراءة الروايات أكثر من مراقبة الدوارق والأنابيب وهي تُعاني بشدة، وفي أثناء إلقاء محاضرات علم الحيوان، كنتُ أبدي اهتماماً بها، ولكن ما إنْ تنتقل إلى المحاضرات العملية، ويُصبح عليَّ أن أقوم بتحنيط قطعة مَيِّنة، حتى أصاب بالإغماء من فرط ارتباكِي واشمئزازِي. لا أذكر من هذا العام الدراسي سوى محاضرات الأدب الروسي، التي كان يُلقِيها البروفيسر ف. ف. نيكولسكي، والتي كان يحضرها طلاب القسمين. في صيف عام ١٨٦٥م اكتشفتُ أمرًا جَلَلًا، وهو أن مرض والدي غير قابلٍ للشفاء، وأنَّ ما تبقيَ له في الحياة قليل. عندئذٍ آليتُ على نفسي ألا أترك هذا المريض العزيز على نفسي لحظة واحدة، فقررتُ أن أترك الدراسة إلى حين. ولمَّا كان أبي يُعاني من الأرق فقد رحتُ أقرأ عليه، على مدى ساعاتٍ بأكملها، روايات ديكنز، وكنتُ أشعر بالرضا إذا ما أخذتهُ سنة من النوم من أثر قراءتي الرتيبة.

وفي مطلع عام ١٨٦٦م ظهر إعلان عن فصول في الاختزال سوف يُلقِيها ب. م. أولخين^{١٠} في مبنى ثانوية البنين السادسة. ولمَّا عرفتُ أن المحاضرات ليلية (وكان أبي الغالي قد أُحيل إلى التقاعد) فقد قررتُ الالتحاق بهذه الفصول، وخاصة أنَّ أبي كان مُصرًّا على هذا الأمر بوجهٍ خاص؛ إذ كانَ أسفًا على تركي فصول التربية بسببِ مرضه. في البداية لم أُحقِّق تقدُّمًا ملموسًا في الاختزال، وبعد المحاضرة الخامسة أو السادسة وصلتُ إلى اقتناعٍ أنَّ الأمر بالنسبة لي هو رطانة لن يكون بمقدوري التمكن منها. وعندما أخبرتُ أبي بذلك استاء بشدةٍ وعاتبني على نفاذ صبري وقلة مُثابرتي وأخذ عليَّ عهدًا أنني سأواصل

^٩ فيشنجرادسكي، نيكولاي ألكسيفيتش (١٨٢١-١٨٧٢م): تربوي روسي، مناصر للتعليم النسائي الثانوي العام. وضع أول منهج تربوي روسي. أسَّس صحيفة «البشير التربوي الروسي» (١٨٥٧-١٨٦١م). (المترجم)

^{١٠} أولخين، بافل ماتفييفيتش (١٨٣٠-١٩١٥م): مدرس الاختزال، مؤلِّف كتاب «الدليل إلى الاختزال الروسي» (١٨٦٦م) وكان ضمن المؤلفات الموجودة بمكتبة دستوفسكي. (المترجم)

الدراسة، مُعبرًا عن ثقته أنني سوف أصبح مُختزلة رائعة، وتنبأ لي أبي الطيب نبوءةً صدقت صحتها تمامًا؛ وهي أنني سأجد سعادتي بفضل الاختزال.

في الثامن والعشرين من أبريل من عام ١٨٦٦م توفي والدي. وكان هذا هو أول حدث سيئٍ أمرُّ به في حياتي. وقد عبرت عن حزني بانفعالٍ شديد، فقد بكيت كثيرًا، وقضيت أيامًا بطولها عند قبر أبي في بولشايا أوكhta، ولم أستطع أن أتصالح مع هذه الخسارة الفادحة. كانت أمي شديدة القلق على حالتي الصحية، ورجّنتني أن أنشغل بعملٍ ما. وللأسف فقد كانت دروس الاختزال قد توقفت، لكنّ مدرّسنا الطيب ب. م. أولخين، عندما سمع بمُصابي وانقطاعي عن كثيرٍ من الدروس، اقترح عليّ أن أُعوّض ما فاتني من دروس الاختزال عن طريق المراسلة. كان عليّ أن أرسل إليه مرتين في الأسبوع صفحتين أو ثلاثًا من كتاب يُحدّده، أرسلها إليه مكتوبةً اختزالًا. وكان أولخين يُعيد إليّ النصوص بعد أن يُصحّح ما بها من أخطاء، بالإضافة إلى ملاحظاته. وبفضل هذه المراسلات، التي استمرّت طوال أشهر الصيف الثلاثة، نجحتُ في الاختزال وبخاصة أن أخي، الذي حضر إلينا في الإجازة الصيفية، راح يُلمي عليّ يوميًا لمدة ساعةٍ أو أكثر. وهكذا رحّتُ شيئًا فشيئًا أمتلك ناصية الاختزال كتابةً؛ فضلًا عن تقدّمي في السرعة كذلك. هذا هو السبب الذي حدا بألّوخين أن يعهدَ إليّ، عند افتتاح الدراسة في سبتمبر عام ١٨٦٦م، بالعمل الأدبي، بعد أن أصبحت التلميذة الوحيدة لديه التي أولاها ثقته فأوصى بها لتقوم بهذا العمل ...

الجزء الثاني

التعرّف على دستوفسكي والزواج منه

١

في الثالث من أكتوبر عام ١٨٦٦م وفي حوالي الساعة السابعة مساءً وصلتُ، كعادتي، إلى ثانوية البنين السادسة، حيث يُلقى ب. م. أولخين، مُدرس الاختزال، محاضراته. لم تكن المحاضرة قد بدأت بعد؛ كُنَّا ننتظر الذين تأخروا. جلسْتُ في مكاني المعتاد، وما إن هممتُ بترتيب كُرّاساتي حتى اقترب مِنِّي أولخين، وبعد أن جلس إلى جوارِي على المقعد بادَرَنِي قائلاً:

أنا جريجوريفنا، ألا ترغبين في القيام بالعمل بالاختزال؟ لقد عُهد إليّ بالبحث عمّن يقوم بهذا العمل، وقد فكرتُ أنه ربما تُوافقين على أن تأخُذي على عاتقك هذا الأمر. أجبْتُ قائلة: أرغب بشدة، إنني أحلم منذ زمن بأن تُتاح لي فرصة العمل. على أن لديّ شكًا في كوني أعرف الاختزال بدرجة كافية تؤهِّلني لتحمل هذه المسؤولية. هداً أولخين من روعي. وكانت وجهة نظره أن العمل المعروض لن يتطلب سرعة كبيرة في الكتابة تتجاوز السرعة التي أمتلكها.

سألتُ وقد أخذ بيّ الفضول: لدى مَنْ سأقوم بالاختزال؟

لدى الكاتب دستوفسكي. إنه مشغول الآن برواية جديدة،^١ وينوي كتابتها بمساعدة مُختزل. ويعتقد دستوفسكي أن روايته ستصل في حجمها إلى ما يقرب من سبع ملازم من القطع الكبير، ويعرض مقابل العمل كلّ خمسين روبلاً.

^١ المقصود هنا رواية «المقامر».

أسرعتُ بالموافقة. كان اسم دستوفسكي معروفًا لي منذُ طفولتي: كان الكاتب المفضل لأبي. وأنا نفسي كنتُ مُعجبةً بأعماله، وكثيرًا ما ذرفتُ الدموع وأنا أقرأ «مذكرات من البيت الميت». لم يكن الأمر مجرد التعرفُ على كاتبٍ موهوب، وإنما مُساعدته في عمله هو ما أثارني للغاية؛ فضلًا عن أنه غمرني بالسُرور.

أعطاني أولخين ورقةً صغيرةً مطويةً كُتِبَ فيها: «حارة ستولياري، ناصية شارع مالايا ميشانسكايا، منزل ألونكين، شقة رقم ١٣، السؤال عن دستوفسكي»، ثم أضاف قائلاً:

أرجوك الوصول إلى دستوفسكي غدًا، في الحادية عشرة والنصف، «لا قبل ذلك ولا بعده»، كما حدّد لي هو نفسه هذا الموعد اليوم. وفي سياق حديثه عبّر لي أولخين عن رأيه في دستوفسكي وهو ما سأحدث عنه لاحقًا.

ألقي أولخين ببصره إلى ساعته ثم صعد إلى منصّة الدرس. يجب أن أعترف أنّ المحاضرة في هذا اليوم قد ذهبت بالنسبة إليّ سُدًى، كنتُ مضطربةً أشدّ الاضطراب، كما كنت مغمورة بكاملي بإحساسٍ لا يوصف بالسعادة. لقد تحقّق حلمي المكنون، لقد حصلتُ على عمل! وإذا كان أولخين المتعنّت الصارم رأى أنني أعرف الاختزال بدرجة كافية وأنني سأكتب بسرعةٍ مُرضية، فإن هذا يعني في الحقيقة أنه لولا ذلك لما قدّم لي هذا العمل. لقد أسعدني ذلك بشكلٍ كبير ورفع من قيمتي أمام نفسي. لقد شعرتُ أنني قد بدأتُ طريقًا جديدًا، أستطيع أن أحصل على النقود بجهدٍ وأن أصبح مُستقلة. كانت فكرة الاستقلال، بالنسبة لي، ابنة الستينيات، هي أغلى وأعز فكرة لدي. ولكن الأكثر بهجةً وأهميةً كان تلك الوظيفة التي قدّمت لي، والتي أتاحت لي العمل لدى دستوفسكي والتعرّف بهذا الكاتب شخصيًا.

بعدما عدتُ إلى البيت أخبرتُ أُمي بكلّ ما حدث تفصيلًا. وقد أسعدها هذا التوفيق الذي حالفني. لقد قضيتُ الليلَ كلّهُ تقريبًا مُسَهّدة من جراء سعادتي واضطرابي، وبِتُّ لا أتخيّل سوى دستوفسكي. ولمّا كنتُ أعتبر أبي معاصرًا لدستوفسكي، فقد رحّتُ أفترض أنه رجل عجوز جدًّا، لقد رحّتُ أتصوّره تارةً عجوزًا بدينًا أصلع، وتارةً طويلًا نحيفًا، ولكنه حتمًا قاسٍ عبوس كما رآه أولخين. أكثر ما كان يُثير فيّ الاضطراب هو على أيّ نحو سأحدثه. كان دستوفسكي يبدو لي عالمًا، شديد الذكاء، الأمر الذي كان يُثير فيّ الخوف عند كل كلمةٍ أنطق بها. ولعلّ من الأمور التي كانت تُثير كدري أنني لم أكن أنذكر بدقة أسماء أبطال رواياته وآبائهم، وكنتُ على يقينٍ أنه حتمًا سيأتي على ذكركم. وحيث إنني

لم ألتق في حياتي مُطلقًا، من بين مَنْ أحاطوني، بأدباء بارزين، لذا كنتُ أتصوِّرهم كائناتٍ من نوع مختلفٍ، على المرء أن يتحدث إليهم، إذا لزم الأمر، بأسلوبٍ خاص. عندما أتذكر تلك الأوقات أرى كم كنتُ طفلةً صغيرة آنذاك، على الرغم من سنواتٍ عمري العشرين.

٢

الرابع من أكتوبر، في اليوم المشهود للقاء الأول مع زوج المُستقبل، استيقظتُ نشطةً يُخامرني اضطرابٌ لذيق من جراء فكرة أن اليوم سوف يتحقَّق حلمي الذي ظللتُ طويلًا أداعبه: أن أحوِّل من تلميذةٍ ثم طالبة إلى العمل الذي اخترته.

غادرتُ البيت مبكرًا قبل الموعد، حتى أتمكَّن من المرور أولاً على محلٍّ جوستيني دفور^٢ لأتزوَّد هناك بكمية إضافية من أقلام الرصاص، ولأشتري كذلك حقيبةً صغيرة كنتُ أرى أنها يمكن أن تُضفي على هيئتي الشابةً مظهرًا عمليًا أكثر. أنهيتُ مشترواتي في نحو الحادية عشرة، وحتى أصل إلى دستوفسكي «لا قبل ولا بعد»^٣ الموعد المحدد، رحت أسير بخطى مُتمهلة عبر شارع بولشايا ميشانسكايا وحارة ستولياري دون أن أتوقَّف عن النظر إلى ساعتي. وفي تمام الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة اقتربتُ من منزل ألونكين وسألتُ البواب أين تقع الشقة رقم ١٣. أشار إلى اليمين حيث البوابة المؤدية إلى مدخل السُّلم. كان بيتًا كبيرًا به العديد من الشقق الصغيرة يسكنها تجار وحرفيون. ذكّرني على الفور بالبيت الذي ورد ذكره في رواية «الجريمة والعقاب»، والذي عاش فيه راسكولنيكوف بطل الرواية.

كانت الشقة رقم ١٣ تقع في الدور الثاني. قرعتُ الجرس وعلى الفور فتحت لي الباب خادمة عجوز تضع على كتفيها شالًا أخضر ذا تربيعات. كنتُ قد أتممتُ منذ فترة غير بعيدة قراءة «الجريمة» الأمر الذي دفعني دون إرادةٍ منِّي لأن أفكر: أليس هذا الشال هو أصل الشال الجوخ، الذي لعب هذا الدور الكبير في عائلة مارميلادوف.

^٢ جوستيني دفور: في المدن الروسية القديمة، مُجمَّع معماري تجاري مُربَّع الشكل تُحيطه بواك، ذات أعمدة ومحال ومخازن تُطلُّ عليها. وفي مدينة سان بطرسبورج يَقعُ في شارع نيفسكي الشهير، وما يزال قائمًا حتى الآن بنفس الاسم. (المترجم)

^٣ «لا قبل ولا بعد» هذا هو التعبير المعتاد لفيودور ميخايلوفيتش، كان يُضيفُه بعد أن يُحدِّد موعدًا مُحددًا للقاء شخصٍ ما، أملًا ألا يضيع وقته في انتظاره (ملحوظة لأنَّا جريجوريفنا).

وعلى سؤال الخادمة عَمَّنْ أودَّ مقابلته أجبتُ بأنني قادمة من طرف أولخين، وأن سَيِّدَهَا على علمٍ بزيارتي. وقبل أن أتمكن من خلع قلنسوتي، إذا بباب الدخول يَفْتَحُ وإذا بشابٍّ شديد سواد الشعر أشعثُه، يقفُ مكشوف الصدر مُرتدياً خفًّا، ومن ورائه غرفة ساطعة الإضاءة. وبعد أن شاهد أمامه وجهًا غريبًا أرسلَ صيحةً وما لبثَ أن اختفى في لمح البصر عبر بابٍ جانبي.^٤

دعنتي الخادمة إلى غرفة تبَيَّن أنها غرفة الطعام. كانت مُجهزة على نحوٍ مُتواضعٍ للغاية: وإلى الحائط كان هناك صندوقان مُغطَّيان بالسجاجيد. وإلى جانب النافذة وُضِعَ صوان صغير عليه مِفْرش أبيض مُطرَّز. وإلى جانب الحائط الآخر أريكة عُلِّقت فوقها ساعة حائط. لاحظتُ بسرور أنها تُشير في هذه اللحظة إلى الحادية عشرة والنصف تمامًا. دعنتي الخادمة للجلوس بعد أن أخبرتني بأن السيد قادم الآن. وبعد دقيقتين بالفعل ظهر فيودور ميخايلوفيتش، الذي دعاني للدخول إلى غرفة المكتب، ثم غادرها، وكما عرفتُ فيما بعد، ليأمرُ بتقديم الشاي لنا.

غرفة مكتب دستوفسكي هي غرفة كبيرة ذات نافذتين، بدت في هذا اليوم المُشمس وقد شملها ضوء ساطع، ولكنها في الأوقات الأخرى تترك في النفس انطباعًا ثقيلًا، فهي مُعتمةٌ يُخيم عليها الصمت، يشعر المرء فيها بالانقباض من جرّاء عتمتها وصمتها. وفي الركن البعيد من الغرفة توجَد أريكة وثيرة مُغطاة بقماش بُني قديم وُضعت أمامها منضدة مستديرة عليها مِفْرش من الجوخ الأحمر. وعلى المنضدة أباجورة وألبومان أو ثلاثة؛ وحولها صُنِّت بعض الكراسي وفوتيه. وفوق الأريكة عُلقت صورة لامرأة نحيفة للغاية، في إطارٍ من خشب الجوز، ترتدي ثوبًا أسود وعلى رأسها قلنسوة نسائية خفيفة من نفس اللون، خَمْنَتْ أنها «ربما تكون زوجة دستوفسكي» ولم أكن أعلم آنذاك أيَّ شيء عن وضعه العائلي.

بين النافذتين عُلقت مرآة كبيرة ذات إطارٍ أسود. ولما كانت المسافة بين النافذتين أكبر بشكلٍ ملحوظ من المرآة، فقد وُضعت أقرب إلى النافذة اليمني لتظهر بشكلٍ ملائم، ولكنها كانت تبدو قبيحة للغاية. كانت النوافذ مُزينة بأنيتين صينيتين كبيرتين للزهور رائعتيّ الشكل. وبامتداد الحائط وُضعت أريكة كبيرة من جلد الماعز باللون الأخضر، وبالقرب

^٤ يدور الحديث هنا عن ربيب دستوفسكي، ابن زوجته الأولى ماريا ديمترييفنا إيسايفا.

منها منضدة للكتابة، كنتُ فيما بعد أجلس إليها عندما كان فيودور ميخايلوفيتش يُلمي عليَّ روايته. كان أثاث غرفة المكتب متواضعًا للغاية يُشبه الأثاث الذي كنتُ أراه في بيوت العائلات الرقيقة الحال.

جلستُ وقد أرهفتُ السمع. بدا لي أنني سوف أستمع الآن إلى صياح أطفال، أو ضجيج طبلٍ يقرَع عليه طفل، أو سينفتح الباب لتدخُل إلى غرفة المكتب هذه المرأة النحيلة صاحبة الصورة التي رأيْتُها.

وأخيرًا دخل فيودور ميخايلوفيتش وسألني، بعد أن اعتذر عن تأخُّره، قائلاً: هل تعمَلين بالاختزال منذ فترة طويلة؟

– منذ نصف عامٍ لا أكثر.

– وهل لدى مُعلمك كثيرٌ من التلاميذ؟

– في البداية بلغ عددُ الراغبين في الدراسة ما يزيدُ على مائة وخمسين شخصًا، والآن تبقى منهم حوالي خمسة وعشرين.

– ولماذا أصبح العدد قليلًا إلى هذا الحد؟

– يعتقد الكثيرون أن الاختزال عملٌ سهل التعلُّم، وعندما يرون أنهم بعد بضعة أيامٍ لا يتحصَّلون على شيء، يتركون الدراسة.

– هذا ما يحدثُ عندنا في كل أمر جديد، قال فيودور ميخايلوفيتش، يبدؤون بكل حماس، ثم ما يلبث حماسهم أن يفتر بضعة أيام فيتركون الأمر برمَّته. ينتظرون فإذا بالعمل يتطلَّب منهم جهدًا، ومَن يرغب الآن في بذل الجهد؟!

للوهلة الأولى بدا لي دستوفسكي رجلًا تقدَّم به العمر كثيرًا، ولكن ما إن بدأ في الحديث. حتى أصبح أصغر عمرًا، ورأيتُ أنه من المرجَّح أن يكون قد تجاوز الخامسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين. كان متوسط الطول، مُنتصب القامة للغاية، شعره كستنائي فاتح، حتى إنه يميل قليلًا للحمرة، مدهون بدهان عطري وقد صُفِّف بعناية. لكن ما أدهشني فيه هو عيناه؛ كانتا مُختلفتين فأحدهما بُنية اللون، والأخرى مُتسعة الحدقة بحيث لا تكاد القزحية أن تُرى.^٥

^٥ في نوبة من نوبات الصرَع سقط فيودور ميخايلوفيتش على حافة جسمٍ حادٍّ فأصيبت عينُه اليمنى بجرحٍ شديد، وقد ذهب للعلاج لدى البروفيسور يونج، الذي وصف له استخدام قطرة الأتروبين، الأمر الذي نتج عنه اتساعٌ شديد في حدقة العين (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

أضفت هذه الازدواجية على نظرة دستوفسكي شيئاً من الغموض في التعبير، بدا لي وجهُ دستوفسكي الشاحب المريض مألوفاً للغاية، ولعلّ مرجع ذلك أنني شاهدتُ صوراً له من قبل. كان يرتدي معطفاً قديماً للغاية من الجوخ الأزرق، ولكن قميصه كان ناصع البياض (الياقة والأساور).

دخلت الخادمة بعد خمس دقائق حاملةً كوبين من الشاي الثقيل إلى درجة أن لونه كان أسود تقريباً. وعلى الصينية وُضعت قطعتان من الخبز. تناولتُ كوباً، لم أكن أرغب في احتساء الشاي؛ بالإضافة إلى أن الجو كان حاراً في الغرفة، ولكني بدأتُ في تناوله حتى لا أبدو مُتكلفة، جلستُ ناحية الحائط المواجه للمنضدة الصغيرة، بينما راح دستوفسكي يجلس تارةً إلى مكتبه، ثم ما يلبث أن يقوم ليذرع الغرفة وهو يُدخن، وكثيراً ما كان يُطفئ سيجارته ليشعر في إشعال أخرى، وقد عرض عليّ التدخين فرفضتُ فقال لي: لعلك ترفضين تأديباً؟

عندئذٍ سارعت بالتأكيد على أنني لا أُدخن؛ فضلاً عن أنني لا أحب رؤية السيدات وهنَّ يدخن.

اتسم حديثنا بالصراحة، زد على ذلك أن دستوفسكي انتقل بالحديث إلى موضوع جديد. كان يبدو مُنكسراً. افتتح حديثه بعبارة أعلن فيها أنه مريض بالصرع، وأنه أُصيب بنوبة منذ عدة أيام. وقد أدهشتني هذه الصراحة، ثم تحدث دستوفسكي عن عملنا المُنتظر على نحوٍ مُبهم قائلاً: سنرى ماذا سنفعل في هذا الشأن، سنُجرب، سنرى، هل يمكن ذلك؟

بدأت أتصور أن عملنا معاً على الأرجح لن تقوم له قائمة. حتى إنه قد جال بخاطري أن دستوفسكي يُساوره الشك في إمكانية وملاءمة هذه الطريقة لعمله، وربما بات مُستعداً للتخلي عن العمل برمته. ولكي أُسهّل عليه أمر اتخاذ هذا القرار قلتُ له: حسناً، لنجرب، ولكن، إذا رأيت أن مُساعدتي لن تساعد على سير العمل على نحوٍ مُلائم لك فأخبرني على الفور، وكُنْ على يقينٍ أنني لن أتمدّر إذا لم أقم بالعمل.

أراد دستوفسكي أن يُلمي عليّ نصّاً من صحيفة «البشير الروسي» وطلب مني أن أكتب ما اختزلته بالطريقة المعتادة. بدأ في الإملاء بسرعة كبيرة ولكنني استوقفتُه. وطلبتُ منه أن يقرأ بالسرعة التي نستخدمها في الحديث العادي.

أخذتُ بعد ذلك في ترجمة ما دونته اختزالاً إلى اللغة العادية وقد فعلتُ ذلك بسرعة فائقة. ولكن دستوفسكي تعجّلني وانزعج من إعادة الكتابة ببطء شديد.

هذأت من روعه قائلة: سوف أُعيد كتابة ما أُمليته عليَّ لا هنا وإنما في البيت. أليس أمر الوقت الذي أستغرقه في ذلك سيَّان بالنسبة لك؟
عندما قام دستوفسكي بمراجعة ما كتبتُ وجد أنني أسقطتُ نقطةً هنا، وأُنني وضعتُ علامةً تفخيم هناك بشكلٍ غير واضح. وقد أبدى هذه الملاحظات بشكلٍ جاد. كان واضحًا أنه مُضطرب وغير قادر على جمع شتات أفكاره، فتارةً كان يسألني عن اسمي. ثم ينساه على الفور، ثم تارةً يَروح يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا لمدةٍ طويلة وكأنه قد نسيَ وجودي كلية. وكنتُ عندئذٍ أجلس دونما حراك خشية أن يقطع عليه ذلك استغراقه في التفكير.

وأخيرًا أخبرني دستوفسكي أن حالته لا تسمح إطلاقًا بأن يُملي عليَّ شيئًا، وسألني إن كان بإمكانني الحضور إليه اليوم في الساعة الثامنة وعندئذٍ سيبدأ في إملائي الرواية. لم يكن الحضور ثانيةً يُناسبني بالمرة، ولكنني وافقتُ حتى لا يتأجل العمل.
قال لي دستوفسكي وهو يودّعني: لقد أسعدني أن أولخين اقترح عليَّ إرسال آنسة مُختزلة وليس رجلًا، أتعرفين لماذا؟

— لماذا؟

- لأن الرجال، في الأغلب، يُسرفون في الشراب، وأنت آمل ألا تكوني ممَّن يشربون.
- كان الأمر مُضحكًا بالنسبة لي، ولكنني كتمتُ ضحكتي فأجبتُ بجدية.
- أنا يقينًا ممَّن لا يشربون. كن على ثقة من ذلك.

٣

غادرتُ بيت دستوفسكي في حالةٍ من الحزن. لم يُعجبني، وترك لديَّ انطباعًا ثقيلًا. فكرتُ أنني على الأرجح لن أنجح في العمل معه، وشعرتُ أنَّ أحلامي في الاستقلال مُهددة بأن تذهب أدراج الرياح ... وكان أكثر ما أَلَمني هو تلك السعادة التي غمرتُ أُمِّي ليلة أمس عندما علِمَتْ بحصولي على أول عملٍ في حياتي.

كانت الساعة حوالي الثانية، عندما تركتُ دستوفسكي. كان بيته بعيدًا، فقد كنتُ أسكن بالقرب من سمولني في شارع كوسترومسكايا، في بيت أُمِّي أنا نيكولايفنا سنيتكينا. قررتُ الذهاب إلى بعض أقاربي، الذين يعيشون في حارة فونارني فأتناول معهم طعام الغداء ثم أعود إلى دستوفسكي.

أبدى أقاربي اهتمامًا كبيرًا بمعارفي الجُد، وراحوا يسألون عن كل كبيرة وصغيرة تخصُ دستوفسكي. مرَّ الوقت سريعًا في الحديث، وما إن اقتربت الساعة الثامنة حتى كانت خطاي تقودُني إلى منزل آلونكين، وعندما فتحتُ لي الخادمة الباب سألتها عن الاسم الأول لسيدها، وكنتُ قد عرفتُ من توقيعه على رواياته أن اسمه فيودور، ولكن لم أعرف اسم والده. مرة أخرى طلبتُ مني فيدوسيا (وهذا هو اسم الخادمة) الانتظار في غرفة الطعام ثم ذهبت لتبلغَ عن وصولي، وعندما عادت دعّنتي للدخول إلى غرفة المكتب. تبادلُ التحية مع فيودور ميخيلوفيتش وجلستُ في المكان السابق بالقرب من المنضدة الصغيرة، لكنَّ ذلك لم يرقُ لدستوفسكي ودعاني للانتقال للجلوس إلى مكتبه مؤكدًا أنه سيكون أكثر راحةً لي للكتابة. وأعترف أنني شعرتُ بإغراءٍ لا حدود له لدعوتي للعمل على المكتب الذي كتبَ عليه تَوًّا عملًا رائعًا مثل رواية «الجريمة والعقاب».

انتقلتُ للجلوس، بينما شغل فيودور ميخيلوفيتش مكاني بالقرب من المنضدة الصغيرة. ومرةً أخرى راح يستفسر عن اسمي وكُنيتي ثم سألني إن كنتُ أمتُ بصلية قرابة لهذا الكاتب الشاب الموهوب سنيتكين الذي وافقته المنية منذُ زمنٍ قريب، فذكرتُ له أن الأمر لا يعدو كونه تشابهاً في الأسماء، فراح يسألني عن أفراد أسرتي وأين تعلمتُ وما الذي دفعني للعمل بالاختزال وهلمَّ جرًّا.

أجبت على كل أسئلته بوضوح وجدية وبخشونة أحيانًا، كما أكد لي ذلك فيودور ميخيلوفيتش فيما بعد. كنتُ قد قررتُ أنه في حالة ما إذا اضطررتُ للعمل بالاختزال في بيوت خاصة، أن أُحدّد علاقتي منذ الدقيقة الأولى بيني وبين من لا أعرفهم جيدًا على نحو عملي، مع تجنب رفع الكلفة حتى لا تدفع الرغبة أحدًا من الناس أن يوجّه إليَّ كلمة زائدة أو وقحة، حتى إنني لا أذكرُ أنني ابتسمتُ مرةً واحدة وأنا أتحدّث مع فيودور ميخيلوفيتش، وقد أعجبته جدّيتي للغاية. وقد اعترف لي فيما بعد أنه كان يشعر بالسرور إلى حدّ الدهشة من قدرتي على التماسك، ولمّا كنتُ أتمتّع به من رزانة. كان دستوفسكي مُعتادًا على مقابلة العدميين في المجتمع ورؤية سلوكهم الذي كان يبعث بالاستياء في نفسه، وفي الوقت نفسه كان سعيدًا أن يجد في شخصيتي تناقضًا تامًا مع النموذج السائد للفتيات الشابات آنذاك.

أثناء ذلك كانت فيدوسيا تُعدُّ الشاي في غرفة المائدة ثم أحضرتُ لنا كوبين وكعكيتين وليمونًا. مرة أخرى دعاني فيودور ميخيلوفيتش للتدخين ثم قدّم لي ثمار الكمثرى.

بعد تناول الشاي اكتسب حديثنا منحي أكثر صراحة وودًا، وقد خُيل لي فجأة أنني أعرف دستوفسكي منذُ زمنٍ بعيد؛ مما جعلني أشعر بالارتياح والسكينة. ولسبب ما انحرف بنا الحديث إلى قضية جماعة بتراشيفسكي^٦ وإلى الحكم بالإعدام. وقد تحمَّس فيودور ميخايلوفيتش للحديث عن ذكرياته فقال:

أذكر كيف وقفتُ في ساحة سميونوفسكي وسط رفاقي من المُتهمين، وعندما رأيتُ الاستعدادات، عرفتُ أنه لم يتبقَّ لي في هذه الحياة سوى خمس دقائق، ولكن هذه الدقائق كانت تُساوي عندي سنين، بل عشرات السنين، هكذا خُيل لي أنها تُمثلُ زمنًا طويلًا: ألبسونا قمصان الإعدام ثم قسَّمونا ثلاثة، كنتُ الثامن في الصف الثالث.^٧ قيَّدوا الثلاثة الأول إلى الأعمدة. وبعد دقيقتين أو ثلاثٍ أُطلق الرصاص على كلا الصفين، كان من المنتظر أن يحلَّ دورنا. كم كنتُ أرغب في الحياة، يا إلهي! كم بدت الحياة عزيزة، كم من الأشياء الطيبة والجميلة كان من الممكن صنعها! تذكَّرت ماضيَّ كله الذي لم أستغلَّه على الوجه الأمثل تمامًا، وكم كانت لديَّ الرغبة أن أعيشه وأن أستمتع به مرة أخرى، طويلًا، طويلًا ... وفجأة سمعتُ نفير نوبة الرجوع فانتعشتُ روحي، لقد فكُّوا وثاق رفاقي من الأعمدة ثم أعادونا وقرءوا علينا حكمًا جديدًا، فحكَّم عليَّ بأربع سنواتٍ أعمالًا شاقة. لا أذكر يومًا آخر أكثر سعادةً من هذا اليوم! رُحت أسير في زنزانتي في سجن الكسييفسكي وأنا أغني،

^٦ بتراشيفسكي (بوتاشيفيتش بتراشيفسكي) ميخائيل فاسيليفيتش (١٨٢١-١٨٦٦م) اشتراكي طوباوي. وُلِد في أسرة جراحٍ شهير كان يُعالج مشاهير الشخصيات في روسيا. كان له عديدٌ من الأصدقاء والمعارف من شتَّى طبقات المجتمع. بدايةً من عام ١٨٤٥م راح يُنظِّم اجتماعات «الجمعة» في بيته وكان يحضرها طُلابٌ ومُدَرِّسون وضباطٌ وأدباء وموظَّفون وفنانون وغيرهم. تعرَّف عليه دستوفسكي عام ١٨٤٦م وقرأ في حلقاته أجزاءً من رواياته وكذلك خطاب بيلينسكي إلى جوجول، الذي كان السبب المباشر في توجيه الاتهام له. في عام ١٨٤٩م تمَّ القبض على ٤٠ شخصًا من هذه الحلقة، حُكِّم على ٢١ منهم بالإعدام، وبناءً على مسرحية أعدَّها القيصر تمَّ تعديل عقوبة الإعدام قبل تنفيذها بدقائق إلى الأشغال الشاقة. وقد صوِّر دستوفسكي بتراشيفسكي في رواية «الشياطين» في شخصية بيتر فيرخوفينسكي. (المترجم)

^٧ جرَّت ثلاثة أحكام الإعدام على جماعة بتراشيفسكي يوم ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩م في ساحة سميونوفسكي في بتروجراد. كان ف. م. دستوفسكي موجودًا في لحظة نُطق الإعدام في الصف الأول — كما جاء في خطابه لأخيه — هو وس. ف. دوروف وأ. ن. بيلشيف في الصف الثاني (راجع الخطابات، المجلد الأول، ص ١٢٨). الصف الأول كان يضم م. ف. بتراشيفسكي، ن. أ. مومبيلي، ن. ب. جريجورييف (انظر كتاب د. أخشاروموف، مذكرات جماعة بتراشيفسكي، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٠م).

كنتُ أغني بصوتٍ مرتفع، هكذا كنتُ سعيدًا بالحياة التي وهبت لي، ثم سمحوا لأخي بأن يُودّعني قبل الفراق، ثم أرسلوني إلى الطريق الطويل عشية الاحتفال بعيد ميلاد المسيح. ما زلتُ أحتفظ بالخطاب الذي أرسلته للمرحوم أخي^٨ يوم تلاوة الحكم، وقد أعاد لي ابن أخي الخطاب منذ فترة قريبة.^٩

لقد تركت حكاية ميخائيل ميخايلوفيتش انطباعًا شديدًا في نفسي، لقد اقشعرَ بدني، لكن ما أدهشني بقوة هو هذه الصراحة التي تحدّث بها معي أنا الفتاة التي يراها للمرة الأولى في حياته. هذا الرجل الذي يشي مظهره بالكتمان والقسوة يقصُّ عليّ ماضي حياته بكلّ هذه التفاصيل، وعلى هذا النحو من الصراحة والإخلاص، فالأمر جعلني دون إرادة مني في حالة من الذهول. فقط فيما بعد، تعرّفتُ على وضعه الأسري، وعندها أدركتُ السبب في هذه الثقة التي أولاها لي والصراحة التي تحدّث بها، في هذه الآونة من حياته، كان فيودور ميخايلوفيتش وحيدًا تمامًا، مُحاطًا بشخصيات تُكُنُّ له العداء.^{١٠}

كان يشعر أنه في أمس الحاجة إلى أناس يُشاركونه أفكاره، أناس يفترض فيهم الطبية والاهتمام. لقد أعجبتني الصراحة التي أبداها نحوي في اليوم الأول لمعرفتي به وتركتُ لديّ انطباعًا رائعًا.

كان الحديث ينتقل بنا من موضوعٍ لآخر، ونحن لم نبدأ العمل بعد، وقد أثار هذا الأمر القلق في نفسي، تأخّر الوقت، وعليّ أن أقطع مسافةً طويلةً للعودة. كنتُ قد وعدتُ أمي أن أعود إلى البيت مباشرةً من عند دستوفسكي. والآن أحسستُ بالخوف لكونها ستشعر بالقلق نحوي. تصورتُ أنه قد يكون من غير المناسب أن أذكّر فيودور ميخايلوفيتش بالهدف الذي جئتُ من أجله، وكم كنتُ سعيدة عندما تذكّر هو نفسه ذلك واقترح عليّ أن نبدأ الإملاء. تأهبتُ للعمل، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش يذرع الغرفة

^٨ ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي (١٨٢٠-١٨٦٤م) الأخ الأكبر لفيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي، مُترجم وكاتب ومؤلف مسرحي أصدر مجلتي «الزمن» و«العصر».

^٩ الخطاب مؤرخ في الثاني والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٩م (الخطابات، المجلد الأول، ص ١٢٨-١٣١) أعاده ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي الصغير، ابن ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي.

^{١٠} بعد وفاة كلٍّ من ماريا ديمتريفنا إيسايفا وميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي، كان دستوفسكي بالفعل وحيدًا تمامًا، مُحاطًا بدايني مجلتي «الزمن» و«العصر» (سيأتي الحديث عن ذلك لاحقًا).

بخطواتٍ سريعة جدًّا، بشكلٍ عَرَضِيٍّ من الباب إلى المدفأة! بالإضافة إلى ذلك فإنَّه ما أن يَصِلَ إلى المدفأة حتى يَدُقَّ عليها مرَّتين، وكان أثناء ذلك يُدخن، مستبدلاً سيجارةً جديدةً بسيجارته التي لم يَكْمَلْ تدخينها، بعد أن يضعها في المِطْفأة التي كانت موضوعةً على طرف مكتبه.

وبعد فترةٍ قليلةٍ من الإملاء، طلب فيودور ميخايلوفيتش مِنِّي أن أقرأ عليه ما كتبته، وعندما قرأتُ عليه الكلمات الأولى استوقَفَنِي قائلاً: كيف «عادت من روليتنبورج»؟^{١١} وهل تحدثتُ عن روليتنبورج؟^{١٢}

– نعم، فيودور ميخايلوفيتش، لقد أُمليتَ عليَّ هذه الكلمة.

– مُستحيل.

– عفوًا، وهل هناك مدينة في روايتك بهذا الاسم؟

– نعم، الحدث يدور في مدينة للقمار أُسميتها روليتنبورج.

إذا كانت الكلمة موجودة فإنك لا شكَّ أُمليتَها عليَّ؛ إذ من أين لي أن آتي بها؟

هنا تدارك فيودور ميخايلوفيتش الأمر قائلاً: أنتِ على حق، لقد اختلط الأمر علي.

كنتُ في غاية السرور أنَّ سوء الفهم قد زال. أظنُّ أن فيودور ميخايلوفيتش كان غارقاً بشدةٍ في أفكاره، وأن هذا الخطأ قد وقع، ربما، نتيجةً لإرهاقه الشديد لاستمراره في العمل على مدى يومٍ كامل. بالإضافة إلى ذلك فقد أحسَّ هو نفسه بذلك، ولهذا أسرع يقول إنه ليس بإمكانه أن يواصل الإملاء أكثر من ذلك، وطلب مِنِّي أن أُحضر ما أملاه غدًا في الثانية عشرة، وقد وعدته أن ألبِّي طلبه.

دَقَّتِ الحادية عشرة، وعندها تأهبْتُ للذهاب، ولمَّا علم فيودور ميخايلوفيتش أنَّني أَعِيشُ في بيسكي قال إنه لم يتسنَّ له الذهاب مرةً واحدةً إلى هذا الجزء من المدينة، وأنه لا يَعْلَمُ أين يقع هذا الحي. فإذا كان بعيدًا فهو على استعدادٍ أن يُرسلَ خادمه لتوصيلي، وقد رفضتُ بالطبع فأوصلني فيودور ميخايلوفيتش إلى الباب ودعا فيدوسيا لتُضيء لي السُّلم.

^{١١} فيما بعدُ جرى تعديل البداية بحيثُ جاءت على النحو التالي: «أخيرًا، ها أنا قد عدتُ من هذا الغياب الذي استمرَّ أسبوعين. وقضينا ثلاثة أيامٍ منها في روليتنبورج» (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

^{١٢} كانت رواية «المقامر» تُسمَّى في البداية «روليتنبورج».

عندما عدتُ إلى المنزل أخبرْتُ أُمِّي وقد غمرتني السعادة كيف كان دستوفسكي صريحًا معي وفي غاية الطيبة، ولكنني، وحتى لا أُسبِّب لها أي إحساسٍ بالحزن، أخفيتُ عنها هذا الإحساس الثقيل بالهمِّ والذي لم أشعر به في حياتي من قبل، والذي ترك أثره في نفسي من جرّاء كل هذه الأمور التي مرّت بي اليوم. لقد كان الانطباع الذي ترسّخ لدي، انطباعًا مؤلمًا تمامًا. فللمرة الأولى في حياتي أرى إنسانًا ذكيًا، دميًا، ولكنه تعيس، إنسانًا هجره الجميع، ومن ثمّ تولّد في قلبي هذا الإحساس بالتعاطف العميق والأسى البالغ ... كنتُ مرهقةً للغاية فأسرعتُ على الفور إلى فراشي وطلبتُ أن يتمَّ إيقاظي مُبكّرًا حتى أتمكّن من إعادة كلّ ما أُملي عليّ وتسليمه لفيودور ميخايلوفيتش في الموعد المحدّد.

٤

استيقظتُ مبكرًا في اليوم التالي وعلى الفور جلستُ أعمل. كان ما لديّ من إملاءٍ قليلًا نسبيًا، ولكنني أردتُ أن أُعيد كتابته بوضوح وجمال أكثر، وقد استغرق مني هذا وقتًا أطول، وعلى الرغم من أنني أسرعتُ بعد ذلك في الذهاب، فقد تأخّرتُ عن مواعيدي نصف ساعة كاملة.

وجدتُ فيودور ميخايلوفيتش في حالةٍ من الاضطراب الشديد. قال لي مُرحّبًا: لقد بدأتُ أفكر في أنّ العمل لديّ قد بدا لكِ صعبًا، وأنك لن تأتي بعد ذلك مُطلقًا. وفي الوقت نفسه فأنا لم أسجّل عنوانك وخشيتُ أن أفقد ما أُمليته عليك أمس.

أعربتُ عن اعتذاري بقولي: أنا في غاية الخجل لأنني تأخّرتُ على هذا النحو، ولكنني أؤكد لك أنه لو اضطررتُ لرفض العمل لكنتُ قد أحطتُك علمًا، بطبيعة الحال، ولكنك قد أعدتُ لك أصل ما أُمليتنِي.

وهنا راح فيودور ميخايلوفيتش يشرح لي الأمر قائلاً: إن ما أثار قلقي هو أنّ عليّ أن أنتهي من كتابة هذه الرواية الجديدة. ما أعرفه وحسب، أنها يجب ألا تقلّ عن سبع ملازم لتقديمها لدار نشر ستيلوفسكي.^{١٣}

^{١٣} ستيلوفسكي، فيودور تيموفيفيتش (١٨٧٥-١٩٠٥م): ناشر وبائع كُتب من بطرسبورج. (المترجم)

رحت أستفسر منه عن كل شيءٍ تفصيلًا، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش يشرح لي بكلِّ صراحة كيف ساقوه إلى هذه الورطة الفظيعة.

بوفاة أخيه الأكبر ميخائيل، أخذ فيودور ميخايلوفيتش على عاتقه سداد كافة ديون مجلة «الزمن»،^{١٤} التي كان يُصدرها أخوه. كانت الديون على صورة كمبيالات، وقد راح الدائنون يُطاردون دستوفسكي بقسوة مُهدِّدين إيَّاه بالحجز على مُمتلكاته وبحبسه هو شخصيًا في قسم الديون. كان ذلك مُمكنًا في هذا الزمن.

بلغت الديون العاجلة ثلاثة آلاف روبل، أخذ دستوفسكي في البحث عن أموالٍ هنا وهناك دون أن يصل إلى نتيجة مُرضية. وعندما باءت كل محاولات إقناع الدائنين بالتريث بالفشل، ووقع فيودور ميخايلوفيتش في براثن اليأس، ظهر له فجأة فيودور ستيلوفسكي ومعه اقتراح بشراء حقِّ نشر أعماله الكاملة في ثلاثة مجلدات مقابل ثلاثة آلاف روبل؛ فضلًا عن ذلك، كان فيودور ميخايلوفيتش مُلزمًا أن يكتب روايةً جديدة أيضًا في إطار هذا المبلغ.

كان موقف فيودور ميخايلوفيتش بالغ الحرج، ومن ثم وافق على كافة شروط العقد، حتى يتجنَّب، فحسب، تهديده بالسجن.

تمَّ التعاقد في عام ١٨٦٥م (صيفًا) وقد سلَّم ستيلوفسكي المبلغ المُتفق عليه لمُوثق العقود، الذي سلَّمه بدوره للدائنين في اليوم التالي مباشرة، وهكذا عاد فيودور ميخايلوفيتش صفر اليدين. ولعلَّ ما زاد من إحساس دستوفسكي بالضيم أن هذه الأموال قد عادت إلى ستيلوفسكي مرةً أخرى، فقد تبَيَّن أنه اشترى كمبيالات فيودور ميخايلوفيتش بثمنٍ بخسٍ من خلال شخصين صوريَّين، ثم استعاد منهما نقوده. كان ستيلوفسكي يستغلُّ أدياءنا وموسيقينا بمكرٍ ودهاء (بيسيمسكي، كريستوفسكي، جليнка).^{١٥} كان باستطاعته التربُّص بالناس في لحظات مصائبهم ثم يلقي عليهم شباكه.

^{١٤} كانت الديون على مجلة «العصر» (لا «الزمن»). وظلَّت قائمةً بعد إغلاق المجلة التي كانت تصدر في الفترة من ١٨٦٤م إلى ١٨٦٥م بدلًا من مجلة «الزمن» التي تم فرض الحظر عليها (في أبريل ١٨٦٣م) بعد وفاة ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي (في يوليو ١٨٦٤م)، وقد أخذ ف. م. دستوفسكي على عاتقه إدارة «العصر». ويذكر دستوفسكي في خطابه إلى فرانجيل والمُؤرِّخ ٣١ مارس ١٨٦٥م أن ديون المجلة بلغت ثلاثة آلاف روبل (انظر، الخطابات، المجلد الأول، ٣٩٦-٤٠٣).

^{١٥} تقصد أنا جريجوريفنا دستوفسكايا هنا قيام ف. ن ستيلوفسكي بنشر أعمال كلِّ من أ. ف. بيسيمسكي وف. ف. كريستوفسكي بشروطٍ مُجحفة لهم، وكذلك قيامه بشراء مؤلفات جليнка الموسيقية

إن مبلغ ثلاثة آلاف روبل مقابل حق النشر هو مبلغ تافه للغاية إذا ما نظرنا إلى النجاح الذي حققته روايات دستوفسكي، لكن الشرط الأكثر قسوةً تمثل في الالتزام بتسليم رواية جديدة قبيل الأول من نوفمبر ١٨٦٦م. كان على فيودور ميخايلوفيتش أن يدفع غرامةً باهظة، إذا لم يُسلم الرواية في الموعد المحدد فإذا تأخر عن الأول من ديسمبر من نفس العام، يسقط حقه في مؤلفاته لتُصبح ملكاً لستيلوفسكي إلى الأبد. وبطبيعة الحال فقد كان هذا هو ما يرمي إليه هذا الوحش.

في عام ١٨٦٦م كان فيودور ميخايلوفيتش غارقاً في العمل في رواية «الجريمة والعقاب»، وكانت لديه الرغبة في إنهاؤها بحيث تخرج في صورة فنية رائعة. تُرى من أين لهذا الرجل المريض القدرة على كتابة عددٍ آخر من الملزم لرواية جديدة؟

بعد أن عاد فيودور ميخايلوفيتش في الخريف قادماً من موسكو، إذا به يسقط فريسةً لليأس لعدم استطاعته، على مدى شهرين ونصف، إنجاز الاتفاق الذي عقده مع ستيلوفسكي، وهنا اقترح أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش؛ أ. ن. مايكوف، أ. ب. ميليوكوف، إ. ج. دولجوموستيف^{١٦} وغيرهم، اقترحوا عليه، في محاولة منهم لإنقاذه من مُصيبته، أن يبدأ في وضع خطة لروايته، وكان كل منهم يودُّ لو أخذ على عاتقه كتابة جزءٍ من الرواية، فلو أن ثلاثة منهم أو الأربعة جميعهم عملوا معاً فربما نجحوا في إنهاء العمل في موعده؛ ولا يتبقى أمام فيودور ميخايلوفيتش سوى أن يُملّي الرواية ثم يقوم بعد ذلك بتهذيبها

من أخته ل. إ. شيستاكوفا في عام ١٨٦١م مقابل ٢٥ روبلاً. وفي عام ١٨٦٦م بدأت المحكمة في نظر قضية تنفيذ العقد بين ستيلوفسكي وشيستاكوفا (تقارير المحكمة نُشرت في صحيفة «جولاس» (الصوت) عام ١٨٦٧م، العدد ١٣٦؛ وفي صحيفة «بيتربورجسكي فيدموستي» (الوقائع البطرسبورجية) عام ١٨٦٧م، العدد ١٠٨، ١٣٦). وفي هذا الصدد كتب دستوفسكي إلى أ. ن. مايكوف حول ستيلوفسكي في خطابه المؤرخ ١٩ مارس (الأول من أبريل) ١٨٧١م يقول «لديه من الأموال ما يستطيع بها شراء الأدب الروسي كله إذا أراد. ألم يكن لدى هذا الرجل ما يكفي من مال حتى يشتري كل مؤلفات جليнка مقابل ٢٥ روبلاً؟» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٣٨).

^{١٦} عن أ. ن. مايكوف، أ. ب. ميليوكوف، إ. ج. دولجوموستيف، انظر التعليقات: [الجزء الثالث، الأيام الأولى في حياتنا الزوجية، تعليق رقم ١: الجزء الثالث، الأيام الأولى في حياتنا الزوجية، تعليق رقم ٦: الجزء السابع، العامان ١٨٧٤/١٨٧٥م، تعليق رقم ٥٥].

ويُخْلِصُها من أي اعوجاج. وقد رفض فيودور ميخايلوفيتش هذا الاقتراح مُفضلاً أن يدفع الغرامة أو يفقد حقوقه الأدبية عن أن يضع اسمه على مؤلَّف ليس له.^{١٧} عندئذ راح أصدقاؤه ينصحونه بطلب العون من مُختزل. وقد تذكَّر أ. ب. ميليوكوف أنَّ من بين معارفه مدرس للاختزال اسمه ب. م. أولخين، ذهب إليه ميليوكوف وطلب منه مقابلة فيودور ميخايلوفيتش الذي على الرغم من الشكوك التي ساورته بشأن نجاح هذه الطريقة في العمل معه، فقد قرَّر اللجوء إلى مساعدة مُختزل نظراً لاقتراب الموعد. وعلى الرغم من قلة خبرتي آنذاك بالناس، فإن سلوك ستيلوفسكي قد أثار حفيظتي بشدة.

قدِّموا لنا الشاي، وشرع فيودور ميخايلوفيتش في الإملاء. كان من الواضح أن من الصعب عليه الاندماج في العمل، كان كثيراً ما يتوقف، ويتأمل، ثم يطلب أن أقرأ عليه ما أملاه، وبعد ساعة من العمل أعلن أنه مُتعب وأنه يرغب في أن ينال قدراً من الراحة. بدأنا في تبادل الحديث، كما فعلنا بالأمس. كان فيودور ميخايلوفيتش قلقاً وراح ينتقل من موضوع إلى آخر، ثم سألتني من جديد عن اسمي لينساه بعد دقيقة. مرةً مرَّتَيْن عاد ليدعوني للتدخين على الرغم من أنه سمعني أقول له إنني لا أدخن. رحلت أسأله عن كُتَّابنا فانتعش وراح يُجيب على أسئلتني وبدا كأنه ابتعد عن الأفكار التي كانت تُلحُّ عليه بشدة. أخذ يتحدث في هدوء بل وبلهجة يشوبها المرح. وإليك بعض ما تذكرته من هذا الحديث.

^{١٧} عن هذا الأمر يتحدث أ. ب. ميليوكوف في مُذكراته في صحيفة «إيستوريتشيسكي فيستنيك» (البشير التاريخي)، ٨٨١م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا). * الملاحظة السابقة غير صحيحة، فمذكرات أ. ب. ميليوكوف نُشرت في البداية في «البشير التاريخي» ثم في «روسكايا ستارينا» (الماضي الروسي)، ٨٨١م، الأعداد ٥، ٣، ثم ظهرت في كتاب ميليوكوف «لقاءات وصداقات أدبية»، سان بطرسبورج ١٨٩٠م، ص ١٦٧-٢٤٩. وفي هذه المذكرات يُورد ميليوكوف هذا الحوار الذي دار بينه وبين دستوفسكي:

ألا تودُّ أن نقوم بعملٍ ما؟ اجمع الآن عدداً من رفاقنا؛ قصَّ علينا موضوع الرواية، ثم سنقوم نحن بتقسيمها، نُقسِّمها إلى فصول، ثم نكتبها معاً. أنا على ثقة أن أحداً منا لن يعترض. بعد ذلك تقوم أنت بمراجعتها وتهذيبها أو إزاحة ما يبدو مُتناقضاً، يُمكننا بالتعاون معاً أن ننجح في إتمام العمل في موعده. سوف تُسلم الرواية لستيلوفسكي وتنجو من الحبس. فإذا كنت تُشفق على قصَّتِكَ من هذه التضحية، فلنُفكر في شيءٍ آخر جديد.

كان دستوفسكي يعتبر نكراسوف^{١٨} صديق شبابه، وكان يُقدر موهبته الشعرية تقديرًا رفيعًا، كما أحب مايكوف، لا باعتباره شاعرًا موهوبًا فحسب، ولكن باعتباره من أكثر الناس ذكاءً وروعة. وعن تورجينيف تحدث فيودور ميخايلوفيتش باعتباره كاتبًا موهوبًا من الطراز الأول، ولكنه أعرب عن أسفه فقط لأن تورجينيف كان يقضي وقتًا طويلًا خارج روسيا، ومن ثم أصبحت معرفته بروسيا وبالشعب الروسي أقل.^{١٩} عدنا للعمل بعد استراحة قصيرة وعاد دستوفسكي من جديد لقلقه واضطرابه. كان من الواضح أن العمل لا يسير معه سيرًا حسنًا. لعلّي أفسر ذلك بعدم تعوّده على إملاء عمله على شخص لا يعرفه بعد معرفة جيدة.

في حوالي الساعة الرابعة عزمْتُ على الذهاب بعد أن وعدتُ بالحضور غدًا في الثانية عشرة بصحبة ما تملّيته. ولدى مُغادرتي سلّمني فيودور ميخايلوفيتش رزمة من ورق البريد السميك، سطره تظهر بالكاد، كان هذا هو الورق الذي يستخِره فيودور ميخايلوفيتش عادة في الكتابة. وقد أشار إلى الأماكن التي ينبغي أن أُحدّد عندها الهوامش.

٥

على هذا النحو بدأ واستمر عملنا. كنت أحضر إلى فيودور ميخايلوفيتش في حوالي الثانية عشرة لأعمل حتى الرابعة. وفي خلال هذه الفترة من الزمن كان يُملي عليّ ثلاث مرات، تصل المرة إلى ما يزيد قليلاً عن نصف الساعة، وبين الإملاء والآخر كنا نتناول الشاي وتبادل الحديث. أصبحتُ ألاحظ بسرور أن فيودور ميخايلوفيتش بدأ في الاعتياد على الطريقة الجديدة في العمل، وفي كل مرة كنتُ أحضر فيها كان يزداد هدوءًا. أصبح ذلك ملحوظًا على وجه الخصوص منذُ أصبح باستطاعتي أن أُحدّد بدقة عدد الصفحات التي أكتبها من الإملاء في مقابل عدد الصفحات في طبعة ستيلوفسكي. كانت كمية الصفحات

^{١٨} نكراسوف، إيفان سيرجيفيتش (١٨١٨-١٨٨٣م): كاتب، مؤلف «مذكرات صياد»، «مياه الربيع»، «آسيا»، «الحب الأول»، «رودين»، «عش النبلاء»، «آباء وأبناء»، «الدخان» وغيرها. (تُرجمت جميعها للعربية). (المترجم)

^{١٩} بخصوص العلاقة بين تورجينيف ودستوفسكي انظر الهامش رقم ٦٩.

التي تُضاف إلى العمل تجد استحساناً كبيراً من جانب فيودور ميخايلوفيتش وتبعث في نفسه السرور. كان كثيراً ما يسألني: كم صفحة كتبنا بالأمس؟ وكم عدد الصفحات التي كتبناها إجمالاً؟ ما رأيك؟ هل سننجح في الانتهاء في الموعد المحدد؟»

في سياق حديثه الودّي معي، كان، فيودور ميخايلوفيتش يكشف أمامي صورةً حزينةً ما من صور حياته. كان الأسى الشديد يتسرّب إلى قلبي دون إرادة منّي، عندما كان يقصُّ عليّ ظروفه الصعبة والتي لم يستطع، كما يبدو، الخلاص منها مطلقاً.

في البداية بدا لي أمراً غريباً ألا أرى أحداً من أهل بيته. لم أكن أعرفِ ممّن تتكوّن عائلته وأين تُوجَد الآن. فرد واحد من العائلة قابلته، ربما، في اليوم الرابع من وصولي. فبعد أن أنهيتُ عملي غادرت البيت، وإذا بفتى في مُقْتَبَل العمر يستوقفني، رأيت فيه نفس الفتى الذي قابلته في بهو الشقة عند زيارتي الأولى لفيودور ميخايلوفيتش. عندما أمعنتُ النظر إليه عن كثب وجدتهُ أقلَّ وسامةً مما بدا عليه عن بُعد. كان أسمر اللون، يميل وجهه للشحوب. عيناه سوداوان، بياضهما أصفر، كما أنّ أسنانه كانت صفراء من أثر التدخين.

سألني برعونةٍ دون تكلّف: ألا تعرفينني؟ لقد رأيتك عند بابا. لم أشأ الدخول أثناء عملك، يدفعني الفضول أن أعرف حكاية الاختزال هذه، وبخاصة أنني سأبدأ في تعلّمه بعد أيام. اسمحي لي.

أخذ من يدي الحقيبة بوقاحةٍ وفتحها وراح يتفحّص ما بها من نصوص في الشارع مباشرة. ارتبكتُ بسبب هذه الوقاحة، حتى إنني لم أتمكن من الاعتراض.

شيءٌ مضحك، مدّ يده بإهمال وهو يعيد الحقيبة. قلتُ في نفسي «هل يمكن لإنسانٍ عطوف، دمث الخلق، مثل فيودور ميخايلوفيتش، أن يكون لديه مثل هذا الابن السيئ الخلق؟»

يوماً بعد الآخر راح دستوفسكي يُعاملني بلطفٍ ومودةٍ أكثر فأكثر. وكان كثيراً ما يُسمّيني بـ «اليمامة» (أحبُّ أسماء التذليل إليه)، «أنا جريجوريفنا الطيبة»، «عزيزتي»، أما أنا فكنْتُ أُرْجِع هذه الكلمات لروح التسامح التي كان يُبديها تجاهي باعتباري عذراء في ميعة الصبا. وكان أكثر ما يُسعدني هو أنني أخفّف من الجهد الذي يبذله، وكنْتُ أرى كيف أن تأكيداتِي أنّ العمل يسير بنجاح وأن باستطاعته إنهاء الرواية في موعدها تُدخِل على قلبه السرور وترفع من روحه المعنوية. كنْتُ فخورة للغاية، بيني وبين نفسي، أنني لا

أساعد كاتبتي المفضل فحسب، وإنما أُؤثّر إيجاباً على مزاجه. كل ذلك رفع من قدرتي أمام نفسي.

لم أعد أخشى «الكاتب الشهير» ورحتُ أتحَدِّثُ معه بحرية وصداقة وكأنني أتحدث مع أحدٍ من أعمامي أو مع صديقٍ قديم. استفسرتُ منه عن أحداثٍ مختلفة وقَعَتْ له في حياته، وكان يُرضي فضولي عن طيب خاطر. حدَّثني تفصيلاً عن الشهور الثمانية التي قضاها سجيناً في قلعة بتروبالوفسك،^{٢٠} وكيف كان يتبادل الحديث مع المساجين الآخرين من خلال الدقِّ على الحائط.^{٢١} حدَّثني عن حياته في المنفى، عن المجرمين الذين كان يَقْضي معهم عقوبة الحبس. تذكَّر الأيام التي قضاها في الخارج، عن رحلاته ولقاءاته؛ عن أقاربه الأعزاء في موسكو الذين أَحَبَّهُمْ بشدة.^{٢٢} أَخْبَرَنِي بطريقَةٍ ما أنه كان مُتَزَوِّجاً، وأن زوجته تُوفِّيت منذ سنوات ثلاث، ثم أطلعني على صورتها،^{٢٣} لم تُعْجِبني صورتها، وقد أَخْبَرَنِي فيودور ميخايلوفيتش أنه قد جرى تصوير الراحلة وهي في أشد حالات المرض قبل وفاتها بعامٍ واحد. كان وجهها رهيباً وكأنه وجه ميت تقريباً. في أثناء ذلك علمتُ أن الفتى الوقح الذي لم يُعْجِبني ليس ابناً لفيودور ميخايلوفيتش، وإنما هو ربيبه، ابن زوجته من زوجها الأول، ألكسندر إيفانوفيتش إيسايف، وقد سَرَّني ذلك للغاية، كثيراً ما كان دستوفسكي يتشكَّى من الديون ومن نقص المال ومن وضعه المادي الصعب،

^{٢٠} قلعة بتروبالوفسك: تقع في بطرسبورج في جزيرة زاباتشي، أسَّسها بطرس الأول عام ١٧٠٣م، وتتكوَّن من ستة حصون. أُضيف إليها بعد ذلك كنيسة بتروبالوفسك (بطرس وبولص) مُلْحَق بها مدفن للقيصرة الروس وحصن تروبيتسكوي وحدائق للزهور وسجون للسياسيين ذات نظام صارم. اعتُقل فيها أشهر زعماء الحركات الثورية في تاريخ روسيا. (المترجم)

^{٢١} تمَّ القبض على دستوفسكي في الثالث والعشرين من أبريل عام ١٨٤٩م في قضية بتراشيفسكي وسُجِن في قلعة بتروبالوفسك، وظلَّ بها حتى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٩م، ثم نُفِيَ إلى سيبيريا.

^{٢٢} المقصود هنا عائلة فيرا ميخايلوفنا إيفانوفا، شقيقة الكاتب الأثيرة لديه. كتب لها دستوفسكي ولزوجها أ. ب. إيفانوف في الأول من يناير عام ١٨٦٦م يقول: «ومن أعز وأغلى عندي (وعند أنا جريجوريفنا) سواك وسوى أسرتك؟» عن عائلة ف. م. إيفانوفا انظر كتاب فولوتسكي، ص ١٨٧-٢٤٧.

^{٢٣} يدور الحديث هنا عن ماريا ديمتريفنا إيسايفا. للمزيد عنها انظر: ج. بروخوروف، روايات دستوفسكي في كتاب «المنتخب الأدبي الفني»، دار نشر «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٨م، يوليو، ص ٥٦-٦٤؛ م. ل. سلونيم. ثلاث قصص غرامية في حياة دستوفسكي نيويورك، ١٩٥٣م، ن. إ. ياكوشين، دستوفسكي في سيبيريا، كيميرفو، ١٩٦٠م؛ ل. ب. جروسمان، دستوفسكي، موسكو ١٩٦٢م.

وقد تسنَّى لي فيما بعد أن أكون شاهدةً على المصاعب المالية التي عانى بشدةٍ من وطأتها.^{٢٤}

كانت كل حكايات فيودور ميخايلوفيتش مطبوعة بطابع الحزن، حتى إنني لم أنمالك نفسي ذات مرة وسألته: فيودور ميخايلوفيتش، لماذا لا تتذكر سوى الأحداث التعيسة؟ الأفضل أن تحكي لي عن الأوقات التي كنتَ فيها سعيداً.

– سعيد؟! أنا لم أدقُ طعم السعادة في يوم من الأيام، على الأقل فإنني لم أستشعر تلك السعادة التي حلمتُ بها، والتي ما زلتُ أنتظرها. منذ أيام كتبتُ لصديقي البارون فرانجيل^{٢٥} أخبره أنني على الرغم من كل الأحران التي نزلتُ بي ما زلتُ أحلم أن أبدأ حياةً جديدة سعيدة.^{٢٦} كم كان قاسياً على نفسي أن أستمع إلى ذلك الحديث! بدا لي أمراً

^{٢٤} ذات يوم وكنت قد حضرت للعمل، لاحظتُ اختفاء واحدةٍ من أنيتي الزهور الصينيتين اللتين كان فيودور ميخايلوفيتش قد تلقأهما هديةً من أصدقائه السيبيريين. سألتُه: «معقول أن يكون أحدهم قد حطم الآنية؟» أجابني فيودور ميخايلوفيتش «لا، لم يُحطمها أحد، وإنما ذهبوا بها لحل الرهونات. لقد كنتُ في حاجةٍ ماسةٍ إلى خمسة وعشرين روبلاً فاضطرت لرهنها.» ومرةً أخرى وبعد أن أنهيت الاختزال وفي أثناء مروري بحجرة المائدة، لاحظتُ وجود ملعقةٍ خشبيةٍ على المائدة المُعدة لطعام الغداء. قلتُ لفيودور ميخايلوفيتش وهو يقودني للباب وأنا أبتسم: «أعلم أنك اليوم ستتناول عصيدة الحنطة السوداء.» سألتني «ما الذي دفعتُ إلى هذا الاستنتاج؟» «رأيت الملعقة. يُقال إن تناول عصيدة الحنطة السمراء بملعقة خشبية يجعلها أشهى.» قال: «إذن فقد خانك التوفيق، لقد كنّا بحاجةٍ إلي النقود فأرسلت الملاحق الفضية لرهنها، وقد تبين أنهم يُعطون مالاً أقل بكثيرٍ مُقابل القطع المفردة، فأعطيتهم الطقم بأكمله.» كان فيودور ميخايلوفيتش يتعامل دائماً مع متاعبه المالية برضاً كامل (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٥} فرانجيل، ألكسندر يجوروفيتش (١٨٣٨م-؟): محام، دبلوماسي وعالم آثار، صديق دستوفسكي، مؤلف كتاب «مذكرات عن دستوفسكي في سيبيريا ١٨٥٤-١٨٥٦م» (سان بطرسبورج، ١٩١٢م).

^{٢٦} الخطاب الموجّه إلى أ. ي. فرانجيل ورد في «السيرة الذاتية» ص ٢٨٨ (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).*

* الأرجح أن أنا جريجوريفنا تقصد خطاب دستوفسكي إلى فرانجيل المؤرَّخ ١٨ فبراير ١٨٦٦م، إذ إن الخطاب المؤرَّخ نهاية ١٨٦٦م غير معروف، أما الخطاب المؤرَّخ ١٨ فبراير ١٨٦٦م فقد ورد في «السيرة الذاتية» صفحة ٢٨٨. يقول دستوفسكي فيه لفرانجيل: «أنت، على الأقل، سعيد في حياتك العائلية، أما أنا فقد حرمني القدر من السعادة الإنسانية الوحيدة...» (الخطابات، المجلد الأول، ص ٣٤٢).

غريباً أن رجلاً موهوباً، طيباً، لا يجد، وقد تقدم به العمر، السعادة التي ينشدها، والتي ما يزال يحلم بها لا أكثر.

ذات مرة قصَّ عليَّ فيودور ميخايلوفيتش تفصيلاً كيف تقدَّم لخطبة أنا فاسيليفنا كورفين كروكوفسكايا،^{٢٧} وكيف كانت سعادته عندما تلقَّى موافقة هذه الفتاة الذكية الموهوبة، اللطيفة، ثم كيف أحزنه أن يتراجع عن هذه الخطبة مُضطراً بعد أن أدرك أن سعادتهما المشتركة أمر مُستحيل بسبب التناقض بين أفكارهما.^{٢٨}

ذات مرة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يمر بحالة نفسية سيئة، إذا به يُطلعني أنه قد بات عليه الآن أن يسافر إلى الخارج، وأن أمامه ثلاث طرق: إما أن يتَّجه شرقاً، إلى القسطنطينية والقدس، وربما بقي هناك إلى الأبد؛ أو يذهب للخارج لينغمس في لعب القمار، الذي يُمكن أن يستولي على مشاعره كلية؛ وأخيراً، أن يتزوج ثانية وأن يبحث عن السعادة والسرور والأسرة. كان التوصل لقرار في هذه القضايا، التي يجب أن تُغير حياته الفاشلة رأساً على عقب، هو الشغل الشاغل لفيودور ميخايلوفيتش، وعندما وجدني مُهتمةً بأمره على نحوٍ ودي طلب مني أن أقدم له النصيح.

^{٢٧} أنا فاسيليفنا كورفين كروكوفسكايا (١٨٤٣-١٨٨٧م): كاتبة، كانت تُرسل بأعمالها القصصية إلى مجلة «العصر» ومن هنا جاءت معرفة دستوفسكي بها.

^{٢٨} عن قصة حُب دستوفسكي لأنا فاسيليفنا كورفين كروكوفسكايا تحكي أختها صوفيا كوفاليفسكايا في «مذكرات الطفولة» (انظر ت. ف. كوفاليفسكايا، مذكرات، خطابات، دار نشر أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو، ١٩٦١م). على أنه لا يتَّضح لنا من خلال هذه المذكرات (في هذا الشأن وفي صفحات تالية) أن أنا فاسيليفنا، كما كتبت أنا جريجوريفنا، كانت مخطوبة لدستوفسكي ولو لفترة قصيرة، وأن دستوفسكي، لاعتبارات فكرية، «فسخ هذه الخطوبة». واستناداً إلى شهادة صوفيا كوفاليفسكايا، فإن أنا فاسيليفنا قالت لأختها بعد تقدُّم دستوفسكي لخطبتها مباشرة: إنه ليس بحاجة لامرأة مثلي تُكرس حياتها من أجله ولا تُفكر في شيء سواه، وهو ما لا أستطيع القيام به، أنا نفسي أريد أن أعيش! (صوفيا كوفاليفسكايا، مذكرات وخطابات، موسكو، ١٩٦١م، ص ١٢٠). وقد انعكست علاقة دستوفسكي بأنا فاسيليفنا كورفين كروكوفسكايا في إبداعه الفني. ويمكن أن نتعرَّف على عددٍ من الملامح النفسية والخصال الأخلاقية لها في شخصية أجلايا في رواية «الأبله» (انظر في هذا الشأن كتاب إدوارد هالت كار «دستوفسكي»، لندن، ١٩٣١م)، وفي شخصية أخماتوفا في رواية «المراهق»، وفي شخصية كاترينا إيفانوفنا في رواية «الإخوة كارامازوف» وحول علاقات دستوفسكي بأنا فاسيليفنا كورفين كروكوفسكايا، انظر مقال إ. شبا داروك «كورفين-كروكوفسكايا» مجلة «نيمان»، ١٩٦٦م، العدد ١١، ص ١٤٣-١٥٠.

أعترف أن هذه الثقة التي أولاها لشخصي قد صَعَبَت الأمر علي، لأن رغبته في الذهاب إلى الشرق،^{٢٩} ثم رغبته أن يُصبح مقامراً بدت لي غامضةً وخيالية؛ ولعرفتي أنه من بين معارفي وأقاربي هناك زيجات سعيدة، فقد نصحتُه أن يتزوَّج ثانيةً وأن يغتنم السعادة في جو الأسرة.

وهنا سألني فيودور ميخايلوفيتش:

هل تظنّين أن بإمكانني الزواج ثانية؟ وأن هناك من تقبل الزواج مِنِّي؟ وأي زوجة عليّ أن أختار: الذكية أم الطيبة؟
الذكية بالطبع.

أبدأ، إذا كان عليّ أن أختار، فسأختار الطيبة التي تحنو عليّ وتُحِبُّني.
وفي سياق حديثه عن زواجه المُفترَض، سألني فيودور ميخايلوفيتش لماذا لم أتزوج؟
أجبتُه بأن هناك اثنين قد تقدّما لخطبتي، وأن كليهما رائعان، وأنني أُكِنُّ لهما كل مشاعر الاحترام، ولكنني لا أشعر بعاطفة الحبِّ نحو أيٍّ منهما، وأنني أودُّ أن أتزوج عن حب.
حتماً عن حُب، أيديني فيودور ميخايلوفيتش بحماس قائلاً:
الاحترام وحده لا يصنع زواجاً سعيداً.

٦

ذات يومٍ في منتصف شهر أكتوبر، وأثناء عملنا عند مدخل باب غرفة المكتب، إذا بأبولون مايكوف يظهر فجأة. كنتُ قد رأيتُ صورَه من قبل، ولهذا عرفته على الفور. دأب فيودور ميخايلوفيتش بقوله: إذن فأنت تعيش وفقاً للتقاليد القديمة. باب الشقة مفتوح على السُّلم، والخدم لا أثر لهم وكأنهم غادروا البيت!

كان من الواضح أن فيودور ميخايلوفيتش قد سُرَّ لحضور مايكوف فسارع لتعريف كلٍّ مِنَّا بالآخر، مُقدِّماً إيَّاي له باعتباري «مساعدته الغيورة»، مما أدخل السعادة على قلبي. وما إن سمع أبولون نيكولايفيتش باسم عائلتي حتى استفسر مِنِّي إن كنتُ أمتُّ

^{٢٩} هناك ما يدلُّ حقيقةً عليّ أن فيودور ميخايلوفيتش كانت لديه نية جادة للسفر إلى الشرق، وهو خطاب التوصية الذي تمَّ العثور عليه بين أوراقه والموجَّه إلى أ. س. إنجلجاردت (مندوب البعثة الروسية لدى القسطنطينية) والذي سلَّمه ي. ب. كوفاليفسكي، رئيس الصندوق الأدبي آنذاك، والخطاب مؤرَّخ ٣ يونيو ١٨٦٣ م (الملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

بصلة قرابة بالكاتب سنيتكين، الذي تُوفي منذ أمدٍ قريب (وهو السؤال الذي اعتدتُ سماعه كلما قابلتُ أحدًا من الكتّاب). سرعان ما عبّر مايكوف عن رغبته في الرحيل مشيرًا إلى أنه لا يريد أن يتسبب في تعطيل عملنا. اقترحتُ أن نأخذ قسطًا من الراحة، وعندئذٍ قاده فيودور ميخايلوفيتش إلى حجرة جانبية وراحا يتبادلان الحديث حوالي عشرين دقيقة، بينما رحتُ أعيد كتابة ما أُملى عليّ.

عاد مايكوف إلى غرفة المكتب ليودعني ثم طلب من فيودور ميخايلوفيتش أن يُملّي عليّ شيئًا. فأجابه إلى طلبه وقام بإملائي نصف صفحة من الرواية، وبعدها مباشرة قمتُ بقراءة ما كتبته جهراً! راح مايكوف يتفحص باهتمام النصّ المُختزل مُكرّراً: لا أكاد أفهم شيئاً هنا بالمرّة!

أعجبني أبوللون نيكولايفيتش كثيراً، وكنتُ قد أحببته قبل ذلك بصفته شاعراً، أما مديح فيودور ميخايلوفيتش ووصفه له دائماً بالإنسان الطيب الرائع فقد أكّد على انطباعي الجيد عنه.

كلما مرّ الوقت، اندمج دستوفسكي في العمل، لم يعد يُملّي عليّ شفاهة وهو يؤلف مباشرة، وإنما راح يعمل ليلاً ثم يُملّي عليّ من مخطوطته. كان كثيراً ما ينجح في كتابة العديد من الصفحات، إلى حدٍّ أنني كنتُ أضطر للجلوس إلى أن يتجاوز الوقت منتصف الليل في إعادة كتابة ما أملاه، ثم أعلن عليه في اليوم التالي بنبرة الانتصار عدد الأوراق التي أُضيفت! كم كانت سعادتي عندما كنتُ أرى ابتسامة السرور على وجه فيودور ميخايلوفيتش استجابةً لتأكيداتي أن العمل يمضي بنجاح وأنه سينتهي، بلا أدنى شك، في الموعد المحدد.

اندمجنا كلانا في حياة أبطال الرواية الجديدة، وأصبح لي، مثلما أصبح لفيودور ميخايلوفيتش، أصدقاء منهم وأعداء. حازت الجدة، التي خسرت ثروتها على إعجابي، كما حاز عليه أيضاً مستر أستلي. أما احتقاري فكان من نصيب بالينا وبطل الرواية نفسه والذي لم أستطع العفو عنه لقلّة عزمته وولعه الفائق بالمقامرة.

كان فيودور ميخايلوفيتش في صف «المقامر» كلية، وكان يقول لي إنه هو نفسه قد عانى كثيراً من نفس هذه المشاعر والانطباعات.^{٣٠} وأكد لي أن المرء يمكن أن يكون صاحب

^{٣٠} تُعد رواية «المقامر» في معظمها سيرة ذاتية ينعكس فيها ولع دستوفسكي الطويل بالمقامر في أثناء وجوده بالخارج في الفترة من ١٨٦٢م إلى ١٨٦٣م وفي عام ١٨٦٥م، كما يصف فيها حُبّه لأبوليناريا

شخصية قوية وأن يثبت ذلك بحياته، وفي الوقت نفسه لا يمتلك القوة على أن يُخمد في نفسه الولع بالقمار.

أحياناً ما كنت أعجب لنفسي على جرأتي في التعبير عن وجهات نظري في الرواية، لكن أكثر ما كان يُدهشني هو هذا القدر الكبير من التسامح الذي كان يستمع به كاتبٌ موهوب إلى ملاحظاتي وأرائي الطفولية تقريباً. بعد هذه الأسابيع الثلاثة من العمل المشترك تراجعَت اهتماماتي القديمة كلها لتُصبح اهتماماتٍ ثانوية. لم أعد أتردد على محاضرات الاختزال، وكان ذلك بموافقة أولخين، ولم أعد أذهب لزيارة أو رؤية معارفي إلا نادراً، وانصبَّ جلُّ اهتمامي على العمل وعلى تلك المناقشات الرفيعة في أعلى صورها، والتي كانت تدور أثناء أوقات الراحة التي كانت تتخلَّل الإملاء. رحتُ دون إرادةٍ مني أعقد المقارنة بين فيودور ميخايلوفيتش وغيره من الشباب الذين تصادف أن التقيتُ بهم في المحيط الذي أعيش فيه. وكم بدتُ لي أحاديثهم عندئذٍ فارغة وتافهة مقارنة بتلك الأحاديث الجديدة والآراء الأصلية لكاتبتي المُفضَّل.

كنتُ أتركه وقد طبعت أفكاره الجديدة أثرها عليّ، كان وجودي في البيت يبعث في نفسي الملل، كنتُ أجلس به في انتظار لقائي في الغد بفيودور ميخايلوفيتش، وكانت مشاعر الحزن تنتابني كلما اقترب العمل من نهايته، واكتنفتني شعور بأن صداقتنا قد آن لها أن تنتهي. وكم أدهشني وأسعدني في الوقت نفسه أن فيودور ميخايلوفيتش قد عبَّر لي عن الفكرة التي جاش بها صدري وكانت وراء قلقي.

– أتعلمين يا أنا جريجوريفنا^{٣١} فيم أفكر؟ ها قد جمعتُ الأقدار بيننا وأصبحنا نلتقي كلَّ يوم في وئامٍ ومودة، وها قد تعودنا أن نتبادل الحديث في حماسٍ وحيوية؛ ترى هل سينتهي كل ذلك بانتهاء الرواية؟ في الحقيقة إنه أمر مؤسف! لسوف أفتقدك كثيراً. أخبريني كيف يمكن أن أراك؟

سوسلوف (انظر كتاب أ. ب. سوسلوف، سنوات بالقرب من دستوفسكي، موسكو، ١٩٢٨م؛ أ. س. دولينين؛ دستوفسكي وسوسلوف في كتاب «دستوفسكي»، المجلد الثاني، ص ١٥٣-٢٨٤؛ أ. ل. بيم «المقامر» لدستوفسكي («في ضوء معلومات ببليوجرافية جديدة»). مجلة «سوفريمي زابيسكي»، باريس ١٩٢٥م، الكتاب الرابع والعشرين، ص ٣٧٢-٣٩٢.

^{٣١} بعد مرور شهر بدأ فيودور ميخايلوفيتش يتذكَّر اسمي، وكان في السابق يُعيد سؤالي عنه كلما نسيه (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكيا).

أجبتُه وأنا في حالةٍ من الإحباط: حسنًا، فيودور ميخايلوفيتش «مصير الحي يتلاقى». على أية حال فليس من الصعب أن يلتقي الناس بعضهم ببعض. - ولكن أين؟

- في أي مكان، في مجتمع، في مسرح، في حفل ...
- تعرفين أنني لا أرتاد المجتمعات أو المسارح إلا نادرًا. ثم ما جدوى هذه اللقاءات إذا لم يستطع المرء أن يقول أحيانًا ما يريد. لماذا لا تدعينني لزيارة أُسرتك.
- تفضل، سوف يسرُّنا حضورك، لكنِّي أخشي أن نكون أنا وأمِّي صحبة غير مُسلِّية لك.

- متى أستطيع الحضور؟
- سوف نتَّفَق على ذلك عندما نُنهي العمل، الأمر الأساسي بالنسبة لنا الآن هو إنهاء روايتك.

اقترب الأول من نوفمبر، موعد تسليم الرواية لستيلوفسكي، وهنا ظهر الخوف من أن يُفكر هذا الرجل في خدعةٍ يستخدمها لرفض تسلُّم المخطوطة ليحصل على الغرامة. هذأتُ من روع فيودور ميخايلوفيتش قدر استطاعتي ووعدته أن أَسْتَعْلَم عما يجب عليه أن يصنعه في حالة إذا ما تحقَّقت شكوكه.
وفي مساء نفس اليوم طلبتُ من أمِّي أن تذهب إلى أحدِ معارفنا الذي يعمل بالمحامة. وقد نصَّحنا المحامي أن نُسَلِّم المخطوطة إما إلى مُوثَّق العقود، وإما إلى قسم شرطة المنطقة التي يقطن فيها ستيلوفسكي، على أن يتم ذلك، بطبيعة الحال، مصحوبًا بتوقيع شخصية ذات صفة رسمية. نفس النصيحة قدَّمها له القاضي العالمي فريمان (شقيق رفيقه في المدرسة) الذي كان فيودور ميخايلوفيتش قد توجَّه إليه لاستشارته.

٧

كان التاسع والعشرون من أكتوبر موعدًا لآخرٍ إملأٍ لنا. كانت رواية «المقامر» قد اكتملت. ستة وعشرون يومًا من الرابع إلى التاسع والعشرين من أكتوبر كُتِبَتْ خلالها هذه الرواية. كتبها فيودور ميخايلوفيتش في سبع ملازم على عمودين من القطع الكبير، أي ما يُعادل عشر ملازم من القطع العادي. كان فيودور ميخايلوفيتش سعيدًا للغاية بذلك وأخبرني أنه وبعد أن يُسَلِّم المخطوطة بسلام، ينوي أن يُقيم مأدبة غداء لأصدقائه (مايكوف، وميلبوكوف، وغيرهم) وأنه يدعوني مقدمًا للمشاركة في هذه المأدبة.

– هل ذهبت إلى أحد المطاعم من قبل؟

– لا، مطلقاً.

– حسناً، فستأتين إذن إلى غدائي! أودُّ أن أشرب نخب صحة مُساعدتي العزيزة!

فبدون دعمك لم أكن لأنهي الرواية في موعدها. إذن ستأتين؟

أجبتُه بأنني سأستشير أُمِّي، وكنت قد قررتُ بيني وبين نفسي ألا أذهب. كنتُ أعلم

أنه إذا تغلَّب عليَّ الحياء فسوف يبدو وجهي كئيِّباً وقد أفسدَ عندئذٍ على الجمع بهجته.

في اليوم التالي، الثلاثين من أكتوبر، أحضرتُ لفيودور ميخايلوفيتش ما كتبناه بالأمس

بعد صياغته. قابلني بترحاب خاص، حتى إن حُمرَةً ما اندفعت في وجهه عندما دخلت.

قرأنا معاً كالمعتاد الأوراق المكتوبة وفرحنا أنها بدتْ أكثرَ عددًا مما توقَّعناه. أخبرني

فيودور ميخايلوفيتش أنه سيُعيد اليوم قراءة الرواية فيُصلح بها ما ينبغي إصلاحه ثم

يذهب بها غداً إلى ستيلوفسكي. وهنا تحديداً أعطاني الخمسين روبلاً وهو الأجر الذي تم

تحديده. شدَّ على يدي بقوة وشكرني بحرارة على تعاوني.

كنتُ أعلم أن الثلاثين من أكتوبر هو عيد ميلاد فيودور ميخايلوفيتش، ولهذا

قررتُ أن أستبدل بثوبي الجوخ الأسود المعتاد ثوباً من الحرير البنفسجي. كان فيودور

ميخايلوفيتش، الذي طالماً رأيته في ملابس الحداد، مسروراً لما أبديته من اهتمام، وقد أثنى

على ثوبي ووجد أن اللون البنفسجي ملائم تماماً لي، وأني أبدو أطول وأكثر رشاقة في

هذا الثوب الطويل. راقني أن أسمع ثناءه، ولكن وصول أرملة أخي فيودور ميخايلوفيتش،

إيميليا فيدوروفنا، التي جاءت لتهنئته، أفسدَ مُتعتي. قام فيودور ميخايلوفيتش بتعريف

كلِّ منَّا بالآخر وشرح لزوجة أخيه أنه بفضل مُساعدتي فقد تمكَّن من إنهاء الرواية

في موعدها، وهو ما جنبه المُصيبة التي كانت تُهدِّده. وعلى الرغم من هذه الكلمات فقد

عاملتني بجفاءٍ وتعالٍ، الأمر الذي أدهشني وحزَّ في نفسي. لم يرتح فيودور ميخايلوفيتش

لهذا الجفاء الذي أبدته زوجته أخيه، ومن ثم راح يُعاملني بودٍّ وترحاب زائدين. وبعد أن

عرض عليها أوراقاً ما، دخل أبوللون نيكولايفيتش مايكوف. انحنى مُسلاً ولكنه، كما

يبدو، لم يتعرَّف عليَّ. وبعد أن توجهَ إلى فيودور ميخايلوفيتش سأله كيف تسير الأمور

مع الرواية. لم يُجبهُ فيودور ميخايلوفيتش، الذي لم يسمعه على الأرجح، إذ كان منشغلاً

بالحديث مع زوجة أخيه. عندئذٍ قررتُ أن أجيب نيابة عن فيودور ميخايلوفيتش فأخبرته

أن الرواية اكتملت بالأمس، وأنني أحضرتُ لتوّي الفصل الأخير بعد إعادة كتابته. اقترب مايكوف ناحيتي على عجلٍ ماداً يده إليّ معتذراً لأنه لم يعرفني للوهلة الأولى، وعزا ذلك إلى قصر نظره ولأنني كنتُ أبداً أقصر قامة في ثوبي الأسود.

راح يستفسر عن الرواية وسألني عن رأيي فيها. رحّت أدلي بآرائي بفرحٍ عن العمل الجديد الذي أصبح عزيزاً عليّ، وأخبرته أنها تضمُّ بين ثناياها عدداً من الشخصيات الناجحة، المليئة بالحياة (الجدة، مستر أستلي، والجنرال العاشق). ذهبنا نثرثر حوالي عشرين دقيقة وكنتُ أتحذّر على سجيّتي مع هذا الإنسان الرقيق الودود. كانت إميليّا فيدوروفنا مندهشةً بل مصدومة بعض الشيء من اهتمام مايكوف بي، ولكنها لم تُغيّر من لهجتها الجافة معتبرة، على الأرجح، أنه من غير الجدير بها أن تُبدي بعض الودّ تجاه ... مُختزلة.

سرعان ما غادَرنا مايكوف، فحذوت حذوه، رافضةً تحمّل الصلف الذي تُعاملني به إميليّا فيدوروفنا، وقد حاول فيودور ميخايلوفيتش بشدة أن يُقنعني بالبقاء محاولاً بكلّ الطرق أن يُخفّف من فظاظة زوجة أخيه. أوصلني حتى المدخل ودكرني بوعدٍ بدعوته لزيارتنا، فأكدتُ له الدعوة.

- متى أستطيع الحضور؟ غداً؟
- لا، لن أكون بالبيت غداً، أنا مدعوة لزيارة صديقة في الثانوية.
- بعد غدٍ؟
- بعد غدٍ لديّ محاضرة في الاختزال.
- إذن، الثاني من نوفمبر؟
- يوم الأربعاء سأذهب، على الأرجح، إلى المسرح.
- يا إلهي! كل أيامك مشغولة! أتدريين يا أنا جريجوريفنا، يُخيّل لي أنك تتعمّدين ذلك. الأمر ببساطة أنك لا ترغبين في زيارتي. أخبريني بالحقيقة!
- إطلاقاً، أؤكد لك! سوف تُسعدنا رؤيتك عندنا. تعالَ في الثالث من نوفمبر، الخميس مساءً، الساعة السابعة.

- الخميس فقط؟ يا له من زمن طويل! سوف أفتقدك بشدة!
بالطبع لم أخذ هذه الكلمات على محمل الجد.

وهكذا ذهبت سريعاً أيام الصفاء، وجاءت أيام الشقاء. كنتُ قد اعتدتُ طوال هذا الشهر أن أسرع الخطوَ بمرحٍ وسعادة لنبدأ العمل، مسرورةً بلقاء فيودور ميخايلوفيتش، أشعر بالحيوية والحماس في الحديث معه، حتى أصبح هذا الأمر حاجةً مُلحة بالنسبة لي. كل مشاغلي واهتماماتي العادية السابقة فقدتُ معناها وبدأت لي أموراً فارغة لا حاجة لي بها. حتى زيارة فيودور ميخايلوفيتش المُرتقبة لم تُعد تُسعدني؛ بل إنها أصبحت مصدرًا لتعاستي. كنتُ أدرك أنه لا أنا ولا أُمي الطيبة يُمكن أن نكون جليسين مؤنسين لهذا الإنسان الذكي الموهوب. وإذا كانت الأحاديث التي دارت بيني وبين فيودور ميخايلوفيتش أحاديثٌ مُمتعة (هكذا كنتُ أفكر) فمرُّ ذلك فقط لأنها كانت تتناول موضوعاً مهماً لكلينا. أما الآن فسيأتي فيودور ميخايلوفيتش إلى بيتنا باعتباره ضيفاً، علينا أن «نُسلِّيه». رحتُ أفكر في الموضوعات التي يمكن أن تكون محوراً لحديثنا، وعدَّبتني فكرة الانطباع الذي ستركه الرحلة الطويلة الشاقة إلى البقعة النائية التي نسكن فيها، وعن الأُمسية المُلمَّة التي سيقضيها والتي سوف تمحو لدى فيودور ميخايلوفيتش، باعتباره إنساناً مُرهف الشعور، ذكريات لِقائنا السابقة، وسوف يأسف على قبوله الدعوة إلى هذه الصحبة المُلمَّة.

وباعتباري إنساناً مُحبباً للحياة، حاولتُ أن أُسلي نفسي وأن أزيل حَزَني، أو خوفي، إن شئنا الدقة. ذهبتُ لزيارة صديقة لي، وفي اليوم التالي ذهبتُ لمحاضرة الاختزال. قابلني أولخين مهنئاً بانتهاء عملي بنجاح. كان فيودور ميخايلوفيتش قد كتب إليه يُخبره بذلك ويشكره على التوصية بمختزل، استطاع بفضلِه الوصول بروايته إلى نهايةٍ موفقة. وأضاف فيودور ميخايلوفيتش أن الطريقة الجديدة في العمل بدت له مناسبة، وأنه قد عقد العزم على استخدامها في المستقبل.

وفي يوم الخميس، الثالث من نوفمبر، بدأتُ منذ الصباح في الإعداد لاستقبال فيودور ميخايلوفيتش. خرجتُ لشراء كمثرى من النوع الذي يُحبه وبعض الهدايا الصغيرة مثل تلك التي كان أحياناً ما يُقدِّمها لي. كنتُ أشعر طوال اليوم بالقلق، وبحلول السابعة مساءً كان قلقي قد بلغ ذروته. دقَّت السابعة والنصف، ثم الثامنة، ولم يصل. عندئذٍ قررتُ أنه قد عدل عن رأيه في الحضور، أو ربما نسي وعده. وأخيراً دق جرس الباب بعد طول انتظار وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. أسرعَت للقاء فيودور ميخايلوفيتش وسألته: كيف استطعت العثور علي، فيودور ميخايلوفيتش؟

أجاب بلطف: حسنًا، نبرُك في الحديث تشي بأنك غير سعيدة لعثوري عليك. أما أنا فأبحث عنك منذ السابعة، وقد طُفْتُ بالحي كُلِّه وسألتُ كُلَّ من قابلت. الجميع يعرف أن شارع كوسترومسكايا موجود هنا. ولكنهم لا يعرفون كيف يدلُّونك عليه.^{٣٢} شكرًا لله أن قيَّض لي رجلًا طيبًا سعد إلى جوار الحوذي وأرشدني إلى الطريق.

دخلت أُمِّي فأسرعتُ بتقديمها إلى فيودور ميخايلوفيتش فقبلَ يدها بظرفٍ وقال إنه مدين لي بالمساعدة في العمل. شرعت أُمِّي تصبُّ الشاي، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش يحكي لي أثناء ذلك قدرَ الخوف الذي عاناه حتى سلَّم المخطوطة إلى ستيلوفسكي، وكما تنبَّأنا فقد لجأ ستيلوفسكي إلى أسلوب التحايل والمُخاتلة. سافر إلى الريف وأعلنت خادمته أنها لا تعلم متى سيعود. عندئذٍ توجهَ فيودور ميخايلوفيتش إلى مكتب دار نشر ستيلوفسكي وحاول تسليم المخطوطة لرئيس المكتب، لكن هذا رفض قبولها رفضًا باتًا قائلاً إنه غير مُفَوَّض بذلك من قبل ربِّ العمل. تأخَّر فيودور ميخايلوفيتش في الوصول إلى مُوتَقِّ العقود، في الوقت نفسه لم يكن هناك أحد من رئاسة إدارة الحي موجودًا نهارًا فطلبوا منه المرور مساء. قضى فيودور ميخايلوفيتش النهار بأكمله في خوف عظيم، وفي العاشرة مساء فقط نجح في تسليم المخطوطة في مكتب شرطة حي (ن ... سكي) وتسلمَ إيصالًا من المشرف.

جلسنا نتناول الشاي وتبادل الحديث دون كلفةٍ وفي جوٍّ تسوده البهجة والمرح. كما كنَّا دائمًا. واضطرتُّ لتنحية الموضوعات التي كنتُ أفكر في طرحها جانبًا؛ إذ ظهرت هناك موضوعات جديدة مشوّقة. سلب فيودور ميخايلوفيتش لبَّ أُمِّي، وهي التي كانت مضطربة بعض الشيء لزيارة كاتب «كبير» لبيتنا. كانت لفيودور ميخايلوفيتش جاذبية أسرة، وكثيرًا ما تسنَّى لي فيما بعد أن ألاحظ كيف أن بعضًا من الناس، الذين كانت لديهم آراء مُسبقة ضده، سرعان ما ينبهرون به.

أخبرني فيودور ميخايلوفيتش، عرضًا، أنه يريد أن يستريح أسبوعًا ثم يبدأ في العمل في الجزء الأخير من «الجريمة والعقاب».

^{٣٢} يقع شارع كوسترومسكايا خلف مستشفى نيكولايفسكي، ويمكن اختصار المسافة بالمرور عبر بوابة المستشفى. ولمَّا كانت هذه البوابة تُغلق في المساء. عندئذٍ يمكن الوصول إلى هذا الشارع، إما عن طريق شارع سلونوفايا (حاليًا شارع سوفروفسكي)، وإما عن طريق شارع مالايا بولوتنايا (ملاحظة لأنَّا جريجوريفنا دستوفسكايا).

– أودُّ يا آنَّا جريجوريفنا الطيبة أن تُساعديني. لقد كان العمل معك يمضي في يُسر، وأودُّ في المستقبل أن أقوم بالإملاء وأمل ألا ترفضني أن تكوني زميلتي في العمل. أجبْتُ بقولي: أودُّ بكل سرور أن أساعدك، ولكني لا أعرف رأي أولخين في ذلك. ربما يُعَيِّن لهذا العمل الجديد أحدَ تلاميذه أو إحدى تلميذاته.

– لقد اعتدْتُ على طريقة العمل معك وأنا راضٍ عنها تمام الرِّضا. ربما كان الأمر سيُصبح غريبًا، لو أن أولخين أوصى بمختزلٍ آخر، كان من الممكن ألا يسير عملنا على نحوٍ حسن. بالمناسبة، ربما لا تكونين أنتِ نفسك راغبةً في العمل معي أكثر من ذلك؟ في هذه الحال، لن أكون لحوحًا بالطبع.

كان واضحًا أن كدرا قد أصابه، حاولتُ أن أُحَفِّف عنه فقلتُ له إن الأرجح أن أولخين لن تكون لديه أسباب للاعتراض على العمل الجديد، وإن عليَّ، على أية حال، أن أراجعه في ذلك.

في حوالي الحادية عشرة مساءً اعتزم فيودور ميخايلوفيتش الرحيل، ولدى مُغادرته البيت، أخذ عليَّ عهدًا أن أتفاوض مع أولخين عند لقائني به في أول محاضرة وأن أكتبُ له. افترقنا على نحوٍ وديٍّ خالص؛ وسارعتُ بالعودة إلى غرفة المائدة وقد شملتني السعادة من أثر حديثنا الحماسي. وقبل أن تمضي عشر دقائق إذا بالخادمة تدخل لتقصَّ علينا كيفَ أن شخصًا ما قد سرق في الظلام، من الحوذي الذي أحضر فيودور ميخايلوفيتش، المخذة التي يضعها على مقعد العربة. كان الحوذي يائسًا ولم يُهدئ من روعه سوى الوعد الذي بذله فيودور ميخايلوفيتش له، بأن يُجزل له العطاء تعويضًا عن الخسارة التي حاقت به.

كنتُ ما أزال فتاةً غضةً، وقد أصابني هذا الموقف بالجزع الشديد، وتصوَّرتُ أن مثل هذا الحدث سوف يؤثر على علاقة فيودور ميخايلوفيتش بنا، وأنه سوف يكفُّ عن زيارتنا في هذه البقعة النائية الموحشة، حيث يمكن أن يسطو عليه لصٌ كما سطا على الحوذي. شعرت بالأسى حتى انهمرت الدموع من عيني من جراء إحساسي بأن هذا الحادث المؤسف قد أفسد الانطباع الذي تركته هذه الأمسية الرائعة التي قضيناها.

في اليوم التالي لزيارة فيودور ميخايلوفيتش ذهبتُ إلى أختي ماريا جريجوريفنا سفاتكوفسكايا وقضيتُ اليوم بطوله عندها، وهناك حكيتُ لها ولزوجها بافل

جريجوريفيتش عن عملي لدى دستوفسكي. ولما كنتُ أعملُ نهارًا لدى فيودور ميخايلوفيتش، ثم أقوم على إعادة كتابة ما تلميَّته مساءً، فقد كانت زيارتي لأختي ماشا^{٣٢} زياراتٍ خاطفة، ومن ثم فقد تجمَّعتُ لديَّ حكايات كثيرة. كانت أختي تستمع إليَّ باهتمامٍ بالغٍ، وكانت تُقاطِعني دائمًا لتستفسرَ عن كافة التفاصيل، ولما رأت حماسي الشديد قالت: لا جدوى، نيتوتشكا، أنت «مغرمة» بدستوفسكي، لكن أحلامك لا يمكن أن تتحقَّق، وأحمد الله أنها لن تتحقَّق ما دام هذا الإنسان مريضًا إلى هذا الحد؛ فضلًا عن أعبائه الأسرية وديونه!

اعترضتُ بشدة وقلتُ إنني لست «معجبة» على الإطلاق بدستوفسكي، وإنني لا «أحلم» بشيء، كل ما في الأمر أنني كنتُ سعيدة بتبادل الحديث مع شخص ذكي وموهوب، وإنني مدينة له لما أبداه نحوي من اهتمام ومودة دائمة.

على أنَّ كلمات أختي قد كدَّرت صفوي، وما إن عدتُ إلى المنزل حتى رحْتُ أسأل نفسي: هل ماشا أختي على حق؟ وهل أنا «مغرمة» فعلاً بفيدودور ميخايلوفيتش؟ أليست هذه فعلاً بداية الحب الذي لم أجربْه بعد؟ يا له من حلم مجنون من جانبي! وهل هذا مُمكن؟ وإذا كانت هذه بداية الحب، فما الذي عليَّ أن أفعله؟ أليس من الأفضل أن أرفض اقتراحه بالعمل بعُذرٍ لائق، وأن أنقِطع عن التفكير فيه، وأن أحاول نسيانه شيئًا فشيئًا، وأن أعود إلى سكينتي السابقة التي كنتُ أنعم بها وأقدِّرها دائمًا بعد أن انشغل عنه بعملٍ ما؟ ولكن، أليس من الجائز أن تكون ماشا مخطئة، وأن لا خوف هناك من أي تهديد لعواطفِي؟ لماذا أفقد، في ظروف مثل ظروفِي، عملي بالاختزال؛ هذا العمل الذي كنتُ أحلم به، وأفقد معه هذه الأحاديث الودودة الشائعة التي كانت تُصاحب هذا العمل؟

بالإضافة إلى ذلك، فمن المؤسف بشدة أن أترك فيودور ميخايلوفيتش دون عونٍ من مُختزل، إذ إنه تأقلم على هذا الأسلوب في العمل، وبخاصة أنني لا أعرف أحدًا، من بين تلاميذ أولخين أو تلميذاته (باستثناء اثنين يعملان بالفعل بانتظام) أستطيع أن أعهد إليه كليةً بالعمل بدلاً منِّي، سواء من ناحية سرعة الكتابة، أو الدقة في تسليم ما أملي عليه. طافت كل هذه الأفكار برأسي وانتابني همٌّ شديد.

^{٣٢} ماشا: اسم التذييل لماريا. (المترجم)

جاء يوم الأحد، السادس من نوفمبر؛ في هذا اليوم كنتُ قد عقدتُ العزم على الذهاب لتهنئة إشبينتي بعيد ملادها، لم أكن على صلةٍ حميمة بها، وإنما كنتُ أزورها في أيام الأعياد فحسب. من المتوقع أن يكون لديها اليوم ضيوف كثيرون. وكنتُ أتطلعُ إلى إزالة هذا الشعور المُضني، الذي لم يُفارقني طيلة الأيام الماضية. كانت هذه السيدة تعيش بعيداً، بالقرب من جسر الأرتشين، وكنتُ قد قررتُ زيارتها في ضوء النهار. جلستُ أعزف على البيانو، ريثما يرسلون أحداً في طلب حوذي. وبسبب صوت الموسيقى، لم أنتبه لجرس الباب، وإذا بوقع أقدام رجل، حانت مني التفاتة، ولدهشتي وسروري، إذا بي أرى فيودور ميخايلوفيتش مقبلاً ناحيتي.

صافحني فيودور ميخايلوفيتش ضاغطاً على يدي في قوة وهو يقول: انظري يا أنا جريجوريفنا ماذا صنعت؟ لقد كنتُ أشعر بالوحشة طوال الأيام الماضية، ثم رحتُ أفكر اليوم منذ الصباح، هل أتى إليك أم لا؟ وهل سيكون هذا لائقاً؟ ألن تبدو لك ولوالدتك زيارة مُتعبة، إذ كنتُ هنا لتوّي يوم الخميس فإذا بي أظهر ثانيةً يوم الأحد! عندئذٍ قررتُ ألاّ أتى مهما كلّفني الأمر، ثم ها أنا أملك كما ترين!

– ما الذي تقول، فيودور ميخايلوفيتش! إنه لمن دواعي سرورنا أن نراك بيننا! وعلى الرغم من تأكيدي على الترحيب به، فإننا لم نتمكن من مباشرة الحديث على النحو الذي تعودناه. لم يكن بمقدوري التغلّب على اضطرابي فاكتفيتُ بالإجابة على أسئلة فيودور ميخايلوفيتش، حتى إنني لم أتوجّه تقريباً بأي سؤالٍ له. كان هناك أيضاً سبب آخر ظاهري راح يؤرّقني، فلم نكن قد أعددنا العدة لتدفئة صالتنا الرحبة حيث كنّا نجلس، ومن ثم كانت البرودة تسودها، وهو ما لاحظته فيودور ميخايلوفيتش فقال: المكان لديكم بارد، وأنت نفسك باردة! وعندما لاحظ أنني أرثدي ثوباً رمادياً فاتحاً سألني إن كنتُ أعترم الخروج.

عندما عرف أن عليّ الذهاب الآن إلى إشبينتي، أعلن فيودور ميخايلوفيتش أنه لا يرغب في تعطيني واقتراح توصيلي بعربته حيث إنه سيسلك نفس الطريق. وافقتُ وانطلقنا، وعند أحد المنعطفات الحادة أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يُمسكني من خصري، ولكنني، باعتباري فتاة من فتيات الستينيات، كان لديّ تحذير من أي نوع من أنواع إبداء الاهتمام من قبيل تقبيل اليد وإمسك السيدات من خصورهن وهلمّ جرّاً. قلتُ له: من فضلك، لا تقلق، لن أسقط!

بدا أن فيودور ميخايلوفيتش قد أغضبته كلماتي فقال: كم أود الآن لو أنك سقطت خارج العربة!

انفجرت ضاحكة وسرعان ما ساد السلام بيننا، ورحنا نثرثر في مرح ما تبقى من الطريق، وإذا بالهموم التي أثقلت روحي تنقشع بعيدًا. عند فراقنا شدَّ فيودور ميخايلوفيتش على يدي وأخذ مني عهدًا أن أزوره بعد يومٍ للاتفاق على العمل في رواية «الجريمة والعقاب».

١٠

الثامن من نوفمبر من عام ١٨٦٦م أحد أهم الأيام في حياتي. في هذا اليوم أخبرني فيودور ميخايلوفيتش أنه يحبني وطلب مني أن أكون زوجته. نصف قرن مرَّ على هذا اليوم وما تزال تفاصيله واضحة في ذاكرتي وكأنها حدثت منذ شهر مضى.

كان يومًا صافيًا قارس البرودة. ذهبْتُ إلى فيودور ميخايلوفيتش سيرًا على الأقدام، ولهذا تأخرتُ نصف ساعة عن الموعد المحدد. كان من الواضح أن فيودور ميخايلوفيتش كان ينتظرني منذ فترة طويلة، وما إن سمع وقع خطواتي حتى خرج مسرعًا إلى غرفة الاستقبال وقال بفرح وهو يساعدي على خلع غطاء رأسي ومعطفي: أخيرًا جئت!

دخلنا معًا إلى غرفة المكتب. كانت الغرفة في هذه المرة مضاءة أكثر من المعتاد. وقد لاحظتُ بدهشة أن فيودور ميخايلوفيتش كان مضطربًا لأمر ما. كان هناك تعبير على وجهه يشي بالتوتر والحماس، مما جعله يبدو أكثر شبابًا.

بدا فيودور ميخايلوفيتش حديته بقوله: كم أنا سعيد أنكِ جئت! كنتُ خائفًا أن تنسي موعدا.

- ولماذا ظننت ذلك؟ عندما أعد فإنني دائمًا ما أوفي بوعدتي.
- سامحيني، أعلم أنك إذا عاهدتِ أوفيت. كم أنا سعيد لرؤيتك من جديد!
- وأنا أيضًا سعيدة لرؤيتك، فيودور ميخايلوفيتش، وبخاصة وأنت على هذه الحال من البهجة والسرور. لعل أمرًا مفرحًا قد حدث لك.
- نعم، حدث! لقد رأيت الليلة حلمًا رائعًا.
- ضحكت قائلة: لهذا السبب فقط!
- من فضلك لا تضحكي. إن للأحلام أهمية كبرى لدي. عندما أرى أخي المرحوم ميشا، وعندما أحلم بأبي على الأخص، أعلم أن مصيبةً تتهددني.

- إذن اقصص رؤياك علي!
- هل ترين هذا الصندوق الكبير المصنوع من خشب الورد؟ إنه هدية من صديقي
السيبيري تشوكان فالياخانوف،^{٣٤} وهذا الصندوق عزيز على نفسي، فأنا أحفظ فيه
مخطوطاتي، أشياءي التي لها ذكريات غالية عندي. هكذا رأيت فيما يرى النائم أنني
أجلس أمام هذا الصندوق أفتحّص ما به من أوراق، وفجأة إذا بشيء ما يتلأأ بينها،
أنظر فإذا هو نجم صغير يظهر ثم يختفي. شدّني الأمر فرحت أعيدُ تقليب الأوراق حتى
عثرت على قطعة صغيرة من الماس ولكنها كانت تلمع بشدة.
- وماذا فعلت بها؟
- ما يُحزنني أنني لا أكاد أتذكّر! لقد راحت الأحلام تترى، ولم أعد أتذكّر ماذا حدث
لها. لكنه كان حلمًا رائعًا!
- يبدو لي أن الأحلام عادةً ما تفسّر على العكس. أبديتُ ملاحظتي وندمتُ على ما
قلت، وسرعان ما تبدّل وجه فيودور ميخايلوفيتش واعتراه الشحوب.
هنا علّق فيودور ميخايلوفيتش على كلامي بنبرة حزينة قائلاً: إذن أنت تعتقدين أن
السعادة لن تطرُق بابي؟ وإن هو إلا أمل كاذب؟ أجبت: لا أستطيع أن أفسّر الأحلام، كما
أنني لا أومن بها إطلاقًا.
أسفّت للغاية لضياح المزاج المرح لدى فيودور ميخايلوفيتش، حاولتُ أن أعيد إليه
مرحّه فأجبتُ على سؤاله عن أحلامي، كيف أراها، بأسلوب ساخر.
- أكثر ما أراه في أحلامي هو مديرة المدرسة الثانوية، وهي امرأة بدينة، تعقص
شعرها على قوْديها على الطريقة القديمة، وكانت دائماً ما تُعاقبني على أتفه الأمور. حلمتُ
أيضاً أنني أرى قطاً أشقر، قفز فوقي فجأة ذات مرة من خلف سياج حديقتنا ليُثير في
قلبي الرعب.

^{٣٤} تعرّف دستوفسكي على التنويري الكازاخي وعالم الأثنوجرافيا والرحالة تشوكان تشينجيزوفيتش
فالياخانوف في مدينة أومسك في فبراير عام ١٨٥٤م، حيث كان تشوكان فالياخانوف يدرس في المدرسة
العسكرية. تحوّلت معرفة دستوفسكي به إلى صداقة متينة. وفي خطابه المؤرّخ الرابع عشر من ديسمبر
عام ١٨٥٦م كتب دستوفسكي له قائلاً: «لم أشعر بهذا الانجذاب نحو إنسانٍ إطلاقاً، حتى أخي، بمثل
ما شعرتُ به نحو.» (الخطابات، المجلد الأول، ص ٢٠٠). حول علاقة دستوفسكي وفالياخانوف انظر:
ف. مانويلوف، تشوخان فالياخانوف صديق ف. م. دستوفسكي. «أعمال معهد ليننجراد للمكتبات»،
١٩٥٩م، المجلد الخامس، ص ٣٤٣-٣٦٩.

- يا لك من طفلة، طفلة! راح فيودور ميخايلوفيتش يُكرر هذه الكلمة مُبتسماً وهو ينظر إليَّ في حنان، ويا لها من أحلام! ثم سألني: حسناً، وما الذي أسعدك في عيد ميلاد إشبينتك؟

- قَصِينَا وقتاً طيباً للغاية. بعد الغداء راح الكبار يلعبون الورق، أما نحن، الشباب، فقد اجتمعنا في غرفة مكتب ربِّ البيت ورُحْنَا نثرثر جميعاً بحماس. وكان هناك طالبان لطيفان مرحان.

من جديد اكفهرَّ وجه فيودور ميخايلوفيتش. أصابتنِي الدهشة هذه المرة لسرعة تَغْيَر مزاج فيودور ميخايلوفيتش. فكرت، ولم أكن على علمٍ بخصائص الصرَع، ترى هل تُنبئ هذه التَغْيَرَات في المزاج بَقَرَب وقوع النوبة، عند ذلك شعرت بالرعب ... اعتدْنَا منذ زمنٍ بعيد، أن يحكي لي فيودور ميخايلوفيتش، عندما أحضر إليه للاختزال، عما فعله خلال الساعات التي لم نتقابل فيها. أسرعْتُ عندئذٍ فسألته كيف قضى أيامَه السابقة، فأجاب: كنت أفكر في روايتي الجديدة.

- حقاً؟ وهل هي رواية شيقة؟

- شيقة للغاية بالنسبة لي! لكنني لا أستطيع أن أصل إلى نهايةٍ لها. هنا تبدو نفسية الفتاة الشابة مشوّشة. لو كنتُ في موسكو لسألتُ ابنة أختي سونيتشكا،^{٣٥} حسناً، أما هنا فسوف ألجأ لمساعدتك.

رحتُ بفخرٍ أستعدُّ لمساعدة الكاتب الموهوب.

- ومن هو بطل روايتك؟

- فنان، تجاوز مرحلة الشباب، حسناً، باختصار، في مثل عمري.

- احكِ، احكِ، تفضل. سألته وقد ازداد اهتمامي بالرواية الجديدة.

واستجابةً لطلبِي بدأ الارتجال الرائع في الانسياب، لم أسمع من فيودور ميخايلوفيتش على الإطلاق، لا من قبل ولا من بعد، هذا القصُّ المُفعم بالإلهام، مثلما سمعته في هذه المرة.

^{٣٥} صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفنا (١٨٤٦-١٩٠٧م) (صوفيا خميروفا بعد الزواج): ابنة أخت دستوفسكي (تُنسَب إلى زوجها إيفانوف)، يحمل لها دستوفسكي إعزازاً خاصاً. وكان يُقدرها لرجاحة عقلها وطهارة قلبها، وكان يأتُمْنها في خطاباتهِ على أسرارهِ الإبداعية، وخصَّها بالعديد من الحقائق عن حياته الخاصة. وقد أهدى دستوفسكي لها رواية «الأبله» وأطلق على ابنتهِ اسمها تكريمًا لها. عن صوفيا إيفانوفنا انظر كتاب فولوتسكي (شجرة عائلة دستوفسكي، مرجع سابق) ص ١٩٤-١٩٩.

وكلما استمرَّ في حديثه، كلُّما بدا لي على نحوٍ أوضح أن فيودور ميخايلوفيتش إنما يحكي حياته الشخصية، مُغيِّراً، الشخصيات والظروف فحسب. كل ما حكاه هنا هو نفس ما حكاه لي من قبلُ على نحوٍ عابر، أو مُختصر. الآن فإن ما يقوله على نحوٍ مُتصل ومُفصَّل، إنما يُفسِّر لي الكثير من علاقته بزوجه الراحلة وبأقاربه.

احتوت الرواية الجديدة أيضاً على طفولةٍ قاسية، فقد المِكر للأب، الظروف القهرية (المرض الشديد)، التي أقصت الفنان عشر سنواتٍ عن الحياة وعن فنِّه المُفضَّل. العودة إلى الحياة (شفاء الفنان)، اللقاء بالمرأة التي أحبَّها، الشقاء الذي أورثه هذا الحُب للفنان، وفاة الزوجة والأقارب الأعزاء (الأخت الحبيبة)، الفقر، الديون ...

الحالة النفسية للبطل، الإحساس بالوحدة، خيبة الأمل في ذوي القُرْبى، تعطُّشه لحياةٍ جديدة، حاجته للحُب، رغبته الملحة في العثور على السعادة، ثم تصويرها على هذا النحو من الحيوية والموهبة، حتى بات واضحاً أنها أمور تعكس في مُجمِلها معاناة المؤلف ذاته، وأنها ليست ثمرةً من ثمرات خياله الفني فحسب.

عندما رأيتُ فيودور ميخايلوفيتش مُتجسِّداً أمامي في بطله، لم أستطع أن أتمالك مشاعري حتى لا أقاطعه بكلماتي: ولكن فيودور ميخايلوفيتش، لماذا تُهين بطلك على هذا النحو؟

– أرى أنه ليس شخصاً لطيفاً بالنسبة لك؟

– بالعكس، إنه لطيف للغاية، إن لديه قلباً رائعاً، انظر، كم من التعاسة خصَّه القَدَر بها، وكيف أنه احتملها راضياً! ولو أن أحداً غيره عانى في حياته قدَّر هذا الحزن لقسَّتُ مشاعره على الأقل، أما بطلُك فما يزال يحبُّ الناس ويساعدهم. أبداً، لقد صممتُ على ظلمه.

– نعم، موافق، لديه بالفعل قلب طيب مُحب، وكم أنا سعيد أنك فهمته!

واصل فيودور ميخايلوفيتش قصَّه قائلاً: وهكذا، وفي هذه الفترة المصيرية الحاسمة من حياته، يلتقي الفنان في طريقه فتاةً شابةً في مثل سنِّك أو أكبر بعامٍ أو عامين، سنُسميها أنيا، بدلاً من أن نُسميها البطلة، هذا الاسم أفضل ...

أكدت هذه الكلمات الاعتقاد لديّ أنه يعني بهذه البطلة أنا فاسيليفنا كورفين-كروكوفسكايا، خطيبته السابقة، وفي هذه اللحظة نسيْتُ تماماً أن اسمي أنا، آنذاك لم أفكر لحظةً واحدة، أن هذه القصة يُمكن أن تمت لي بأي صلة. فلعلَّ موضوع الرواية

الجديدة (هذا ما تصورتُه) قد ظهر بتأثير الخطاب الذي تلقاه فيودور ميخايلوفيتش من أنا فاسيليفنا من الخارج والذي حدّثني عنه منذ عدة أيام مضت.^{٣٦}

لقد رُسِمت صورة البطلة هنا بحيث تختلف في صفاتها عن سمات البطل، فعلى حدّ قول الكاتب، كانت أنا ودبّعة، ذكية، طيبة، مُحبة للحياة، وكانت تمتلك القدرة على التعامل بلباقة مع الناس. ولما كنتُ أولي الجمال الأنثوي في تلك السنوات قدراً كبيراً من الأهمية، فإنني لم أتمالك نفسي وسألته: وهل كانت بطلتك على درجة كبيرة من الجمال؟ - لم تكن بالطبع رائعة الجمال، ولكنها لم تكن قبيحة، وأنا أحب وجهها.

تصورتُ أن فيودور ميخايلوفيتش قد باح بسرٍّ من أسرارهِ، فانقبض قلبي. شعور بغيض راودني تجاه كورفين-كروكوفسكايا فقلت: على أية حال، فيودور ميخايلوفيتش، لقد جعلت من صاحبك أنا هذه نموذجاً مثالياً للغاية. هل هي فعلاً كذلك؟

- هي بالضبط كذلك! لقد خبرتها جيداً!

ثم واصل فيودور ميخايلوفيتش قصته قائلاً: كان الفنان يلتقي بآنيا في الحلقات الفنية، وكلما زادت رؤيته لها، ازداد إعجاباً بها، وقوي إيمانه بأنه يمكن أن يجد سعادته بالقرب منها. على أنّ حلمه بدا له مستحيلاً. في الواقع ما الذي يستطيع أن يُقدمه رجل كهل مثله، مريض، مُثقل بالديون، لهذه الفتاة التي تفيض بالعافية والشباب وحب الحياة؟ ألا يُعَدُّ حبها للفنان تضحيةً فظيعةً من جانب فتاة شابة، ألن تعضّ إصبع الندم بعد ذلك إن هي ربطت مصيرها به؟ هل من الممكن، عموماً، أن تكون هناك فتاة شابة، مُختلفة من حيث شخصيتها، فتاة في مثل عمرها، أن تُحب الفنان الذي أبدعته قريحتي، أليس في ذلك خطأ نفسي؟ هذا ما أردتُ أن أعرف رأيك بشأنه أنا جريجوريفنا.

- وما الذي يجعله مستحيلاً؟ إذا كانت آنيا التي أبدعتها كما تقول، ليست لعباً فارغة، وإنما تمتلك قلباً طيباً عطوفاً، فلماذا لا تُحبُّ فنانك؟ أما كونه مريضاً وفقيراً، فهل يمكن أن يُجبَّ المرء لمجرد المظهر والثروة؟ ثم أين هي التضحية من جانبها، إذا كانت تُحبّه، فسوف تكون هي أيضاً سعيدة، ولن تندم أبداً!

كنتُ أحدث بحماس وحمية، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش ينظر إليّ بقلق.

^{٣٦} خطاب أ. ف. كورفين-كروكوفسكايا المؤرَّخ أوائل نوفمبر ١٨٦٦م، والذي أعرّبت فيه لدستوفسكي عن مُعاناتها الشخصية، وأبلغته بخططها الأدبية، كما عبرت له عن مشاعر الصداقة والود التي تحمّلها تجاهه (انظر المنتخب الأدبي الفني «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٩م، مايو، ص ٤٠-٤١).

- وهل تؤمنين بحق أن نُحبه بإخلاص طول العمر؟
ثم صمت برهة وكأنه مُتردد، ثم نطق بصوتٍ متهدج: ضعي نفسك دقيقة مكانها،
تصوّري أنني أنا هو هذا الفنان، وأنني اعترفتُ لك بحبي، وسألتك أن تكوني زوجتي.
أخبريني بماذا كنتِ تُجيبين؟

علا وجه فيودور ميخايلوفيتش تعبيرٌ يشي بالقلق وعذاب القلب، فأدركتُ أخيراً أن
حديثنا ليس بالحديث المتعلّق بالأدب، وأنني سوف أهوي بضربة قاصمة تُصيبه في عزة
نفسه وكبريائه، إذا ما جاءت إجابتي مراوغة. تأملتُ وجه فيودور ميخايلوفيتش العزيز
إلى نفسي وقد غشيهُ الاضطراب ثم قلتُ له: كنتُ سأجيبك أنني أُحبك وسوف أُحبك مدى
الحياة!

لن أنقل لكم هذه الكلمات الرقيقة المليئة بالحب، التي قالها لي فيودور ميخايلوفيتش
في هذه اللحظات التي لا تُنسى، كانت هذه الكلمات بالنسبة لي كلمات مقدسة ...
كنتُ مذهولة، واقعة تحت ضغط سعادتي الهائلة، ولفترة طويلة لم يكن باستطاعتي
أن أُصدّقها. أذكر أن فيودور ميخايلوفيتش، بعد مرور ساعة، راح يُخبرني بخطط
مستقبلنا ثم يطلب رأيي فيها، وقد أجبتُه: وهل باستطاعتي الآن أن أناقش أمراً من
الأمر؟! إنني الآن في غاية السعادة!

وحيث إننا لم نكن نعرف على أي نحو سوف تسير أمورنا، ومتى يمكن أن
نعقد قراننا، فقد قرّرنا ألا نُخبر أحداً مؤقتاً، بهذا الأمر، باستثناء أمي. وعدني فيودور
ميخايلوفيتش بالحضور لمنزلنا غداً لقضاء السهرة معنا، وأخبرني أنه سينتظر لقاءنا على
أحرّ من الجمر.

صحبني فيودور ميخايلوفيتش حتى المدخل، ثم ألبسني غطاء الرأس بعناية. كنتُ
قد تهيأتُ للخروج، عندما استوقفني بقوله: أنا جريجوريفنا، أعرف الآن لمن ذهبت الماسة.
- أما زلتِ تتذكّر الحلم؟

- كلاً، أنا لا أتذكّر الحلم. ولكنني وجدته في النهاية، وقد عقدتُ النية على الاحتفاظ
به طول العمر.

ابتسمتُ قائلة: أنت مخطئ، فيودور ميخايلوفيتش! أنت لم تعثر على ماسة، وإنما
على حصاة عادية.

- لا، أنا على يقين، أنني لم أخطئ هذه المرة. أجابني فيودور ميخايلوفيتش بكل
جدية وهو يُودّعني.

كان الفرح يملأ روحي، عندما عدتُ من عند فيودور ميخايلوفيتش، أذكر أنني كنتُ أهتف، تقريباً بصوت مرتفع، طوال الطريق، غير عابئةً بالمارة: يا إلهي، يا لها من سعادة! هل هي حقيقة؟ هل هو حلم؟ معقول أنه سيُصبح زوجي؟!

لم يُعدني إلى صوابي سوى ضجيج المارة في الطريق، وتذكرتُ أنني كنتُ مدعوة على الغداء عند أقاربي، الذين كانوا يحتفلون بعيد ميلاد ابن عمي ميخائيل نيكولايفيتش سنيتكين. عرّجت على محلّ الخبز (كانت محال الحلوى قليلة آنذاك) لشراء كعكة للمُحتفَى به. كنت سعيدة للغاية، كلُّ الناس بدوا لي طيبين، ودودين، كنتُ أودُّ لو قلتُ لهم شيئاً ما ساراً. لم أتمالك نفسي فأبديتُ ملاحظة للسيد الألماني، الذي باعني الكعكة: يبدو لون بشرتك رائعاً، وكذلك تسريحة شعرك!

وجدت ضيوفاً كثيرين لدى أقاربي، ولم تكن أُمِّي بينهم، على الرغم من أنها وعدت بحضور الغداء. وقد أحزنني عدمُ حضورها، كنتُ أودُّ بشدة أن أخبرها على وجه السرعة بفرحتي.

كان الغداء يُحيطه جوٌّ من المرح، ولكنني كنتُ أتصرّف بشيءٍ من الغرابة، كنتُ أبتسم للجميع، تارة أستغرق في التفكير فلا أسمع شيئاً مما يُقال لي، وتارة أُجيب كيفما اتفق، بل إنني ناديتُ أحدهم باسم فيودور ميخايلوفيتش. راح الجميع يسخرون مني، فتعلّلتُ بأنني مُصابة بصداق نصفِي.

وأخيراً وصلت أُمِّي الرءوم. انطلقتُ مُسرعةً نحوها عند المدخل، احتضنتُها وهمستُ في أذنها: هنئيني، أنا عروس!

لم أتمكن من أن أضيف شيئاً، حيث أسرع أهل البيت في استقبالها. أذكر أن أُمِّي ظلت طوال الأمسية تتطّلع إلى في فضول، دون أن تعلّم، على الأرجح، أيّ من الحضور المُعجبين بي سوف يكون زوجي. عندما رجعنا للمنزل فقط، استطعتُ أن أشرح لها أنني سأتزوج من دستوفسكي. لا أدري، هل كانت أُمِّي سعيدة بذلك، لا أظن. وكأنسانٍ خَبَرَ الحياة، عاش طويلاً في هذه الدنيا، لم يكن من الممكن لأُمِّي إلا أن تتنبأ بأنني بسبب هذه الزيجة، سوف يكون عليّ تحمّل العديد من أشكال العذاب والحزن، سواء بسبب المرض اللعين الذي يُعاني منه زوج المستقبل، أو بسبب نقص الموارد المالية. ولكنها لم تحاول أن تثنييني عن عزمي (وهو ما فعله كثيرون فيما بعد) وإنني لمدينة لها بذلك. ومن هو

الذي كان بإمكانه أن يُقنعني برفض هذه السعادة الكبرى التي تنتظرني، والتي بدت لي، فيما بعد، سعادة حقيقيةً واقعية، على الرغم من العديد من الصعوبات التي واجهناها في حياتنا المشتركة (مرض زوجي وديونه).

اليوم التالي، التاسع من نوفمبر، كان يومًا طويلًا أصابني بالضجر لم أستطع أن أشغل نفسي بشيءٍ ورحت أتذكر كافة تفاصيل حديث الأمس، بل إنني قمتُ بتسجيله في دفتر اختزالي.

وصل فيودور ميخايلوفيتش في الساعة السادسة والنصف، بادر بالاعتذار لوصوله قبل الموعد المحدد بنصف ساعة.

– لكنني لم أطق صبرًا، لقد أردتُ أن ألتقي بكم بأسرع ما يمكن!

أجبت ضاحكة: Nous sommes logées à la meme enseigne.^{٣٧}

– لم أفعل شيئًا طوال اليوم، ظللتُ أفكر فيك وكم أنا سعيدة لحضورك!

سرعان ما استرعى انتباه فيودور ميخايلوفيتش أنني أرtdي ثوبًا فاتح اللون.

– كنتُ أفكر طوال الطريق، إذا ما كنتِ قد خلعتِ ثوب الحداد^{٣٨} أم أنكِ ما زلتِ

ترتدين الثوب الأسود، وها أنتِ في ملابس وردية!

– وهل يُمكن أن يكون الأمر على نحوٍ آخر وفي قلبي كل هذه السعادة! بطبيعة الحال

سوف أظلُّ أرtdي ملابس الحداد في المجتمع، إلى أن نُعلن قراننا، أما في البيت فسأرتدي لك الملابس الزاهية.

قال فيودور ميخايلوفيتش: إن اللون الوردي مُناسب لك تمامًا، إنك تبدين فيه أكثر شبابًا كما لو كنتِ صبيةً صغيرة.

كان من الواضح أن ملامح الشباب تُثير قلق فيودور ميخايلوفيتش. رحتُ أضحك مؤكدةً له أنني سرعان ما أصبح عجوزًا. وعلى الرغم من أن هذا الوعد كان على سبيل المزاح، إلا أنه سرعان ما تحقَّق في حياتي على نحوٍ كبير من السرعة، بفضل ظروف كثيرة؛ أي أنني، إن شئنا الدقة، لم أهرم، وإنما انعكست الأحداث على مظهري، وصارت أحاديثي تتسم بالوقار الشديد، إلى حد أن الفارق بيني وبين زوجي بدا غير ملحوظ تقريبًا.

^{٣٧} كلُّنا في الهمَّ شريك (بالفرنسية).

^{٣٨} كانت أنا جريجوريفنا ترتدي ملابس الحداد على أبيها.

دخلت أُمِّي، فقَبَّلَ فيودور ميخايلوفيتش يَدَهَا قائلاً: تعلمين، بطبيعة الحال، أنني طلبت يد ابنتك. وقد وافقَت أن تكون زوجة لي، وأنا سعيدٌ للغاية بذلك. ولكنني أودُّ لو أنك باركت هذا الاختيار. لقد حَدَّثْتَنِي أَنَّ جريجوريفنا عنك كثيرًا، حتى إنني تعودت على احترامك. أعدك أنني سأفعل الممكن والمستحيل لكي تكوني سعيدة. وسوف أكون أكثر الناس لك إخلاصًا ومحبة.

وإحافًا للحق فعلى مدى أربعة عشر عامًا، هي عمر زواجنا، كان فيودور ميخايلوفيتش على عهده ودودًا محترمًا في علاقته بأُمِّي، أحبها بإخلاص وتقدير. ألقى فيودور ميخايلوفيتش خطابَه القصير بحماسٍ ولكن على نحو متقطع قليلًا، وهو ما تحدث عنه فيما بعد. كانت أُمِّي في غاية التأثر، عانقته وطلبت منه أن يُحَبِّني وأن يشملني برعايته، حتى إنها انخرطت في البكاء.

سارعْتُ بوقف هذا المشهد، الذي ربما كان مُربكًا لفيودور ميخايلوفيتش قائلة: ماما الحبيبة، هيا أسرعِي بتقديم الشاي! إن فيودور ميخايلوفيتش يكادُ يتجمَّد من البرد! جيء لنا بالشاي، أخذنا مجلسنا على المقاعد اللَّيِّنَة القديمة، وقد أمسكنا بالأكواب ورحنا نتحدَّث بكلِّ حماس وحيوية.

مرَّت حوالي ساعة، وإذا بجرس الباب يدقُّ وتُبلغنا الخادمة بوصول اثنين من الشباب، اعتادا زيارتنا. وفي هذه المرة أزعجتني بشدة هذه الزيارة، التي جاءت دون موعدٍ مُسبق، فطلبتُ من أُمِّي: من فضلك، اخرجي إليهم وأخبريهم، أنني أعذر عن استقبالهم حيث أشكو من الصداغ.

قاطعني فيودور ميخايلوفيتش قائلاً: من فضلك، أنا نيكولايفنا، لا ترفض حضورهم، ثم توجَّه بالحديث إليَّ بصوتٍ منخفض: أودُّ أن أراك وسط صحبةٍ من الشباب. إذ أنني لم أرك حتى الآن إلَّا بصحبتنا، بصحة الكبار.

ابتسمت وطلبت دعوة الضيوف، قدَّمَتهم إلى فيودور ميخايلوفيتش وذكرت له أسماءهم. أحسَّ الشابان بشيءٍ من الحرج لهذا التعارف المفاجئ مع الروائي الشهير، ولكي أشرح لهما سبب الاحتفال الذي وجداه لدينا، قلتُ للضيفين إنهما جاءا في مناسبة الاحتفال بانتهاء عملنا المشترك في الرواية الجديدة. كنتُ أودُّ لو لم أشارك في الحديث المُشترك، وأن أدفع إليه فيودور ميخايلوفيتش.

انتهزتُ فرصة السؤال الذي وجَّهه لي أحد الشَّابَّين، بشأن ما إذا كان الصداق النصفِي الذي انتابني بالأمس قد زال فقلت له: أنت المذنب في هذا الصداق، لقد كنتَ تُدخِّن بشراهة، أليس صحيحًا، فيودور ميخايلوفيتش، أنه لا ينبغي التماذي في التدخين؟

– إن شهادتي مجروحة، فأنا نفسي أدخن كثيرًا.

– لكن هذا أمرٌ ضار بالصحة، أليس كذلك؟

– بالطبع، ضار، لكنه عادة يصعب التخلُّص منها.

كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي قالها فيودور ميخايلوفيتش، لم أستطع بعدها أن أدفعه للمشاركة في الحديث الذي دار بعد ذلك. راح يدخِّن وينظر إلي وإلى الضيوف بفضول. كان الشَّابَّان مُحَرَجَيْن، بداهة فإن اسم دستوفسكي كان له أثرٌ شديد عليهما. قالا إن الجميع قد اتفقوا، بعد مُغادرتي لأقاربي بالأمس، على الذهاب لمشاهدة أوبرا «يوديف» لسيروف،^{٣٩} وقد فوَّضوهما لسؤالي عن اليوم المناسب لي للذهاب، حتى يَقوما بحجز شرفةٍ بالمرح.

شرحتُ لهما بلطف، ولكن بصورة حاسمة، أنني لن أذهب إلى الأوبرا، إذ إنني سوف أبدأ على الفور في مذاكرة الاختزال، حتى الحق برفاقي.

– حسنًا، وهل ستذهبان إلى الحفل الذي سيُقام في الخامس عشر من نوفمبر؟

– لن أذهب أيضًا إلى الحفل ولنفس السبب.

– لكنك كنتِ سعيدة للغاية في هذا الحفل في العام الماضي، قال الشابان.

– لقد حدث ذلك في العام الماضي! ومنذ ذلك الحين جرَّت في النهر مياه كثيرة، قلتُ

ذلك وكأني ألقي موعظة.

أحسَّ الشَّابَّان أنهما ضيفان غير مرغوبٍ فيهما فنهضا للانصراف، فلم أعرض عليهما البقاء.

سألتُ فيودور ميخايلوفيتش بعد زهاب الضيوف.

– حسنًا، هل أنت راضٍ عني؟

– كنتِ تُزقِّقين كالعصفور. المؤسف فقط، أنك أسأتِ إلى شعور مُعجَبيك برفضك

القاطع لكلِّ ما كان محلًّا لاهتمامك من قبل.

^{٣٩} سيروف، ألكسندر نيكولايفيتش (١٨٢٠-١٨٧١م) مؤلف وناقد موسيقي كان صديقًا لدستوفسكي.

- ليكن! لست بحاجة لأحد منهم الآن! أنا بحاجة لشخص واحد فقط، الرائع، الحبيب، العزيز لدي، فيودور ميخايلوفيتش!
- إذن فأنا الحبيب والعزيز عليك؟ قالها فيودور ميخايلوفيتش، ومن جديد بدأ حديثنا الودّي الصريح، الذي استمرّ طوال المساء.
كان زمنًا سعيدًا وعن هذا الزمن سوف أحكي ذكرياتي بامتنانٍ عميقٍ لمشيةِ القدر.

١٢

لم يستمر قرار كتمان نبأ خطبتنا عن أقاربنا ومعارفنا أكثر من أسبوع. فقد انكشف سرُّنا على نحو مفاجئ تمامًا.

كان فيودور ميخايلوفيتش قد استأجر حُوزيًا بالساعة، من السابعة إلى العاشرة. ولمّا كان يُحب البسطاء، فقد راح يتحدّث مع الحُوزي بشكلٍ عادي إبان الطريق الطويل إلينا والعودة. ولشعوره بالحاجة إلى مَنْ يُشاركه سعادته، فقد أخبره عن زواجه المُرتقّب. إلّا أنه، وبعد عودته من عندنا إلى بيته، اكتشف أنه لا يحمل نقودًا في جيبه، فأخبر الحُوزي أنه سيُرسل له النقود مع الخادمة. عندما خرجت الخادمة، وجدت ثلاثةً من الحُوزية يقفون لدى الباب، فلم تعرّف لمن منهم عليها أن تدفع الأجرة، فسألت مَنْ منهم أحضر الآن «السيد الكبير»؟

- العريس؟ أنا أحضرته.
- أي عريس؟! السيد الذي عندنا ليس عريسًا.
- لا، بل عريس! هو نفسه أخبرني أنه عريس. وقد رأيتُ عروسه، عندما فتحوا له الباب. خرجت لتودّعه وهي فتاةٌ مرحة، كانت تبتسم طوال الوقت!
- وأنت من أين أحضرتَ السيد؟
- أحضرته من سمولني.

كانت فيدوسيا تعرف عنواني، ومن ثم حزرت مَنْ هي عروس سيدها، فأسرعت بالخبر إلى بافل ألكسندروفيتش.

قصّ عليّ فيودور ميخايلوفيتش هذا المشهد بأكمله في اليوم التالي (وكان قد استوضح الأمر بحذافيره من فيدوسيا) وقد ظلّ هذا المشهد باقياً في ذاكرتي بتفاصيله إلى الأبد. وعندما سألتُه عن الانطباع الذي تركه خبر خطبتنا على ربيبه، اكفهر وجهه، وبدأ أنه يُريد

أن يتجنَّب أسئلتي. صممتُ على معرفة التفاصيل، وهنا ضحك فيودور ميخايلوفيتش وقصَّ عليَّ أن «باشا»^{٤٠} دخل إلى حجرة مكتبه صباح اليوم، مُرتدياً أبهى ملابسِه وقد وضع على عينيَّه نظارة زرقاء، وهو لا يرتدي هذه الأشياء إلا في المناسبات الخاصة. أخبره أنه عرف بشأن زواجه المُقبل؟ وأنه مذهول، ومندهش ومستاء لأنه لم يُفكر في أخذ نصيحة وموافقة «ابنه» عند اتخاذ هذا القرار الذي يَمَسُّه مباشرة.

وطلب من «أبيه» أن يتذكَّر أنه قد أصبح «عجوزاً»، وأن لا سِنَّه ولا صحته يَسْمَحان له بأن يبدأ حياة جديدة؛ وذكَّره أن عليه التزاماتٍ أخرى وهلمَّ جراً.

كان بافل ألكسندروفيتش يتحدث، على حدِّ قول فيودور ميخايلوفيتش «مزهواً بنفسه، بتعالٍ وبلهجة الواعظ». وقد أثار هذا الأسلوب حفيظة فيودور ميخايلوفيتش فصاح فيه وطرَّده من غرفة المكتب.

عندما ذهبْتُ إلى فيودور ميخايلوفيتش بعد يومين (وكنْتُ قد علمتُ أنه أُصيب بنوبة من نوبات الصرع)، لم يأتِ ربيُّه إلينا. كان ينقل شيئاً ما إلى غرفة الطعام مُحدثاً جلبه عالية، صارخاً بغضب في الخادمة، حتى يُشعِرني بوجوده في البيت. وفي الزيارة التالية لي (بعد أسبوع) دخل بافل ألكسندروفيتش إلى غرفة المكتب فهنَّأني بجفاءٍ وبطريقة رسمية، نتيجة لعقاب زوج أمِّه له على الأرجح، ثم جلس صامتاً ما يقرب من عشر دقائق، وكانت الإهانة والغضب واضحَيْن على وجهه. لكن فيودور ميخايلوفيتش كان يبدو في هذا اليوم في حالة نفسية رائعة، وكنْتُ أنا أيضاً مسرورة؛ كِلانا كان سعيداً لأننا لم نُعطِ أيَّ اهتمامٍ لأسلوب بافل ألكسندروفيتش اللفظ المُتَحَفِظ. وعندما لاحظ، فيما بعد، أن مظهره القاسي لا أثر له علينا، وإنما يثير عليه غضب فيودور ميخايلوفيتش، تحوَّل سخطه إلى رقةٍ، وراح يتحدَّث معي بأدبٍ ولطف، متحييناً الفرصة، مع ذلك، ليوجه إليَّ قولاً ما لاندعاً.

١٣

سرعان ما ولَّت أيام خطبتنا السعيدة. ظاهرياً، فقد مرَّت هذه الأيام وكأنما يُشبه بعضها بعضاً، فبسبب العمل المُجهَد بالاختزال، لم أعد أزور أحداً، ولم أعد أدعو أحداً لزيارتي.

^{٤٠} باشا: اسم التذليل لبافل. (المترجم)

توقفتُ عن التردد على حفلات الموسيقى أو الذهاب إلى المسرح، باستثناء السهرة التي قضيتها في مشاهدة مسرحية «موت إيفان الرهيب» التي كتبها الأمير ألكسي تولستوي.^{٤١} كان فيودور ميخايلوفيتش يُقدّر المسرحية تقديرًا رفيعًا،^{٤٢} وقد أراد أن يشاهدها معي. حجز لنا شرفة في المسرح ودعاني أنا وإميليا فيدوروفنا وابنتها وأبنائها، وكذلك دعا بافل ألكسندروفيتش. كان الأمر سيُصبح أكثر إمتاعًا لو أنني تبادلتُ مع فيودور ميخايلوفيتش انطباعاتنا عن المسرحية، لكن المزاج العدائي الموجه ناحيتي من جانب هؤلاء الناس قد أصابني بالكدر. كانت إميليا فيدوروفنا تبدي نفورها مني صراحة، حتى أصبتُ في النهاية بحالة من الحزن الشديد، الأمر الذي لاحظته، على الفور، فيودور ميخايلوفيتش، الذي راح يسألني عما بي فتعلتُ بالصداق.

وعلى الرغم من هذه الأمسية غير الموفقة فإنها لم تفسد سعادتي. كان إحساس بالهجة يملأ روحي. في السابق كان هناك دائمًا ما يشغلني، والآن ليس لديّ ما أفعله. أيام بطولها لا أفكر في شيء سوى فيودور ميخايلوفيتش، أتذكر أحاديثنا معًا وأظلم أنتظر على أحرّ من الجمر مجيئه اليوم. كان يأتي عادةً في الساعة السابعة، وأحيانًا في السادسة والنصف. ولدى حضوره يكون السماور^{٤٣} مُعدًا بالماء المغلي. وعندما حل الشتاء، كنتُ أخشى أن يتعرض لنزلة برد أثناء رحلته الطويلة إلينا. وما إن يدخل إلى الغرفة، حتى أُسرِع إليه بكوب من الشاي الساخن.

كنت أرى أن حرصه على زيارتي يوميًا، فيه تضحية كبيرة. وإشفاقًا عليه، حاولت، على عكس رغبته، أن يأتي يومًا بعد يوم. لكن فيودور ميخايلوفيتش أكّد لي أن حضوره

^{٤١} ألكسي قنسطنطينوفيتش تولستوي (١٨١٧-١٨٧٥م): أمير، شاعر، كاتب، مؤلف مسرحي.

^{٤٢} لم يتم العثور على آراء دستوفسكي نفسه حول مسرحية ألكسي تولستوي «موت إيفان الرهيب». المعروف فقط هو ما كتبته في هذا الشأن أنّا جريجوريفنا في نهاية مذكراتها، كيف أن دستوفسكي كان ينوي في مطلع شهر فبراير ١٨٨١م أن يؤدي دور الراهب في هذه المسرحية، في العرض الذي كان من المفترض أن يُقام في بيت صوفيا تولستايا. تقول ابنة الكاتب في مذكراتها، «إن دستوفسكي راح ذات مرة يقرأ علينا قصائد لبوشكين وألكسي تولستوي، باعتبارهما أفضل الشعراء عنده» (ل. ف. دستوفسكايا، ص ٨٩).

^{٤٣} السماور: إناء من المعدن لإعداد الماء الساخن له صنبور، بداخله ماسورة يُوضَع بها الفحم، الأنواع الحديثة منه تستخدم الكهرباء. (المترجم)

إليَّ هو متعة كبيرة بالنسبة له، وأنه يشعر بالحيوية والسكينة النفسية عندما يكون بصُحْبتي، ولكنه سوف يمتنع عن الحضور يومياً إذا ما طلبتُ منه ذلك، ما دامت الزيارات تُضجِرني. كان يقول ذلك من قبيل المزاح؛ إذ كان يعلم كم كانت تُسعدني دائماً. كنا نجلس بعد احتساء الشاي في مقاعدنا القديمة، وعلى المائدة الصغيرة التي كانت تفصل بيننا أنواع مختلفة من الحلوى. كان فيودور ميخايلوفيتش يأتي كل مساءً بالحلوى من Ballet (محل الحلوى المُفضَّل لديه). ولما كنت على علم بظروفه المادية، فقد حاولتُ إقناعه بالأحضر معه أي حلوى، ولكنه كان يرى أن هدايا الخطيب إلى خطيبته هي عادة قديمة حسنة ينبغي الحفاظ عليها.

وبدوري كنتُ أحرص على توفير الأصناف التي كان فيودور ميخايلوفيتش يُحبها مثل الكمثرى والزبيب والتمر والمشمش المُجفَّف والباستلا، وجميعها بكمياتٍ قليلة، ولكنها دائماً طازجة وشهية. كنتُ أذهب بنفسني إلى المحلات بحثاً عن شيءٍ أُدخل به السرور على قلب فيودور ميخايلوفيتش، فكان يُعبّر عن دهشته ويؤكد أن أحداً لا يُمكنه أن يعثر على مثل هذه الأشياء اللذيذة، إلا هذه الفتاة النهمه. وكنتُ أذكر أنه هو الشَّهره، وهكذا لم نستطع أن نجزم من فينا في هذا الشأن يتغلَّب على الآخر.

عندما اقتربت الساعة من العاشرة بدأتُ أبحثُ فيودور ميخايلوفيتش على العودة إلى منزله. كانت البقعة التي يُوجد بها بيت أمي موحشة، وكنتُ أخشى أن يقع له مكروه. في الأيام الأولى كنتُ أقترح على فيودور ميخايلوفيتش أن يقوم الباب بتوصيله، ولكنه كان يرفض الاستماع إلى ذلك، فكنتُ أمر الباب أن يتبعه سراً على مسافة خمس عشرة أو عشرين خطوة، حتى يصل إلى المنعطف المؤدي إلى شارع سلونوفايا، حيث يزدحم بالحركة.

في بعض الأحيان، لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يتمكّن من الحضور إليّ، إما لأنه يُشارك بالحديث في الأمسيات الأدبية، أو يكون مدعوّاً على الغداء. وفي مثل هذه الحالات كنّا نتفق ليلتها على أن أقوم أنا بزيارته في حوالي الساعة الواحدة وحتى الخامسة. أتذكّر بكلّ حنان كيف كان يسعى لإقناعي بالبقاء «عشر دقائق أخرى، ربع ساعة» ثم يقول مُتشكِّياً: فَكَّرِي يا آنيا، سوف يمرُّ يومٌ وليلة لن أراك فيها!

أحياناً ما كان يأتي إلينا في التاسعة أو التاسعة والنصف من مساء نفس اليوم، بعد أن ينسلّ من بين الضيوف، أو بعد أن يقرأ محاضرتَه، ثم يقول لنا بفرح عارم: هربت،

كما يهرب التلميذ! لنجلس معًا ولو نصف ساعة! بالطبع كنتُ أشعر بسعادةٍ طاغية لرؤيته مرةً أخرى في نفس اليوم.

كان دستوفسكي يأتي لزيارتنا بشوشًا، سعيدًا ومرحًا. وكثيرًا ما كنتُ أشعر بالحيرة تجاه هذه الأسطورة التي شاعت حول كونه عبوسًا كئيبيًا. وقد تسنّى لي أن أقرأ وأن أستمع إلى هذه الأسطورة من معارفي.^{٤٤} وبالمناسبة أتذكّر الحادثة التالية: ذات مرة قال لي فيودور ميخايلوفيتش في معرض سؤاله عن ب. م. أولخين مدرس الاختزال: يا له من رجل عبوس!

فابتسمتُ قائلة: حسنًا، تصوّر ماذا قال لي بافل ماتتيفيتش (أولخين) عنك؟ «أعرض عليك العمل لدى الكاتب دستوفسكي، لكنّي لا أعرف كيف ستتعاملين معه، لقد بدا لي رجلًا كئيبيًا عبوسًا!» وها أنت الآن تقول عنه نفس ما قاله عنك! والحقيقة أن كليكما بعيدٌ كلّ البعد عن الكآبة والعبوس، وإن بدوّكما فقط على هذا النحو.

– وبماذا أجبت على أولخين آنذاك؟ سألني فيودور ميخايلوفيتش بفضولٍ شديد.
– قلت له: ولماذا ينبغي عليّ التعامل مع دستوفسكي؟ سوف أسعى جاهدة أن أقوم بالعمل الذي كلّفني به على خير وجه، أما دستوفسكي نفسه فإنني أكنُّ له احترامًا كبيرًا، بل إنني أخافه!

– إذن، وعلى الرغم من تحذير أولخين، فقد سارت أمورنا على أفضل وجه، وإلى أبد الدهر، أليس كذلك يا عزيزتي أنيتشكا؟ سألني فيودور ميخايلوفيتش وهو يُربّت عليّ برقة.

وإذا كان فيودور ميخايلوفيتش يأتي إلينا بنفس راضية، فقد كنتُ أستقبله بكثيرٍ من المرح والعبث والثرثرة. كان صوتي يصلصل كالجرس، أنفجر بالضحك لأبسط دُعاة،

^{٤٤} عن ذلك كتب كل من د. ف. جريجورفيتش، ف. ف. تيموفييفا (أ. بوتشينكوفسكايا) (انظر: دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، المجلد الأول، ص ١٢٧، المجلد الثاني، ص ١٢٦)، ن. ن. سترخوف (انظر، السيرة الذاتية، ص ٣١٧). بالإضافة إلى ذلك يتذكّر المطران م. أ. ألكسندروف، الذي كان كثيرًا ما يلتقي بدستوفسكي بقوله: «يشبه الانطباع الأول الذي تركه عليّ فيودور ميخايلوفيتش تلك الانطباعات التي تركها على معظم الناس الذين تعاملَ معهم للمرة الأولى، وخاصة تلك الانطباعات التي تبقتُ لدي هؤلاء، الذين لم يتسنَّ لهم اختبار التجاوب مع فيودور ميخايلوفيتش (دستوفسكي في مذكرات معاصريه، المجلد الثاني، ص ٢١٨).

وعندئذٍ كان فيودور ميخايلوفيتش يضرب كَفِّيه ثم يصيح متعجبًا بطريقة ساخرة: حسنًا، كيف سأتصرَّف مع هذا الطفل، أخبريني من فضلك؟ وأين ذهبت أنا جريجوريفنا الرزينة، الصارمة أحيانًا، حتى تكاد أن تكون قاسية، أنا التي كانت تأتي إليَّ لنقوم بالاختزال؟ أكاد أجزم أنهم استبدلوها خلسة!

عندئذٍ اتَّخذتُ على الفور مظهر الأهمية، وبدأتُ أتحدث معه بلهجة شديدة الجدية. وسرعان ما انتهى الأمر بأن انفجرنا معًا بالضحك.

وبالمناسبة، فأنا لم أكن دائمًا مرحلة. كان السخط الشديد ينتابني، عندما يقوم فيودور ميخايلوفيتش بدور «العجوز المُتصابي». كان باستطاعته أن يتحدَّث ساعات طويلة بلسان وأفكار بطله، الأمير العجوز من قصة «حلم العم». كان يُصرح بأفكار مبتكرة ومفاجئة للغاية، يتحدث بمرح وعبقرية، لكن هذه القصص، بلهجة المُتصابي، والتي لا تليق إطلاقًا بعجوز، صدمتني، فَرُحْتُ أُنقل بالحديث إلى موضوع آخر.

ما الذي لم نتحدث فيه في هذه الشهور السعيدة! لقد رحت أسأله تفصيلًا عن طفولته، عن شبابه، عن كلية الهندسة، عن نشاطه السياسي، عن النفى في سيبيريا، وعن عودته من هناك ...

قلت له: أودُّ أن أعرف كل شيء عنك، أن أرى ماضيك بوضوح، أن أدرك روحك بأسرها!

راح فيودور ميخايلوفيتش بكل رضا يستعيد ذكريات طفولته الهادئة السعيدة، وتحدَّث بحماس عن أمّه.^{٤٥} كان يُحب أخاه الأكبر ميشا حبًّا جمًّا، وكذلك أخته الكبرى

^{٤٥} لم تكن طفولة دستوفسكي «طفولة هادئة سعيدة» كما كتبتُ أنا جريجوريفنا، وذلك يعود إلى والده العيوس، الحادّ الطباع. يقول أ. ي. فرانجيل في خطابه إلى دستوفسكي، المؤرَّخ ٩ مارس ١٨٥٧م. «إن أكثر ما يُقلقني عليك يا صديقي، هو علاقتك بوالدك. أعلم، أعلم جيدًا (استنادًا إلى خبرتي) أن مثل هذه الأمور المزعجة تكون غير مُحتملة ... إن أمثال والدك هم خليط من الشك المكيت، والحساسية المفرطة إلى حدّ المرض، وطيبة القلب. إنني لا أعرفه شخصيًا، وإنما أطرح رأيي عنه؛ إذ عرفتُ في حياتي مرّتين، مثل هذه العلاقات القائمة بينك وبينه.» (الخطابات، المجلد الأول، ص ٢١٥) يصف أندريه ميخايلوفيتش، الأخ الأصغر للكاتب، في «مذكراته» (ليننجراد، ١٩٣٠م) أمَّهُم، ماريا فيدوروفنا «باعتبارها امرأة نادرة الطيبة، مُرهفة، حنونًا، لديها موهبة أدبية وموسيقية. ومن الجائز أن تكون أم أليوشا في «الإخوة كارامازوف» مُستوحاة من ذكرياته عن ماريا فيدوروفنا.

فارينكا.^{٤٦} أما إخوته وأخواته الصغار فلم يتركوا لديه انطباعات قوية. سألتُه عن الأشياء التي كان مولعاً بها، وقد بدا لي أمراً غريباً، بناءً على ذكرياته، أنه لم يَمُرَّ في شبابه بتجربة عاطفية جادة تجاه امرأة ما. ولعلِّي أفسّر ذلك أنه بدأ حياته الفكرية مبكراً للغاية. لقد ملك الإبداع حواسّه جميعاً، ومن ثم جاءت حياته الخاصة في المرتبة التالية. وبعد ذلك اندمج بكل أفكاره في التاريخ السياسي، الذي كلفه ثمناً باهظاً.^{٤٧}

جربت أن أستفسر منه عن زوجته الراحلة، لكنه كان يُفضل ألا يتحدث عنها. ومن المُثير للفضول أنه على مدى سنوات زواجنا التالية، لم يتحدث إطلاقاً عن ماريا دميتريفنا، باستثناء مرة واحدة تحدّث فيها عن واقعة حدثت في جنيف سأتى على ذكرها لاحقاً.^{٤٨} أما ذكرياته عن خطيبته آنّا فاسيليفنا كورفين-كروكوفسكايا فقد تحدّث عنها برضاً أكثر نسيئاً. وعن سؤالٍ حول سبب فسخ خطبتهما، أجاب: آنّا فاسيليفنا واحدة من أفضل النساء اللاتي قابلتهنّ في حياتي. كانت شديدة الذكاء، ناضجة، تمتلك ثقافة أدبية واسعة، وكان لديها قلب طيب ورائع. كانت فتاة تمتلك خصلاً خلقية رفيعة؛ على أن أفكارنا كانت على طرفيّ نقيض، وكان من المستحيل أن تتراجع عن أفكارها، بل كانت مُتمسكة بها بشدة. ولهذا كان من الأرجح ألا ينجح زواجنا. أحللتها من وعدها، وتمنيتُ لها، مُخلصاً، أن تقابل الرجل الذي يُشاركها أفكارها وأن تجد سعادتها معه!

ظلّ فيودور ميخايلوفيتش طوال عمره على علاقة طيبة بآنّا فاسيليفنا، وكان يُعتبرها صديقاً مُخلصاً. وعندما تعرّفتُ على آنّا فاسيليفنا، بعد مرور ستة أعوامٍ من زواجي، انعقدتُ أوامر الصداقة بيننا وأصبح كلُّ منّا يُكنُّ مشاعر الحب والمودة للآخر. وقد تبين لي أن ما قاله فيودور ميخايلوفيتش عن عقلها النابه وقلبها الطيب وخصالها الأخلاقية الرفيعة صحيح تماماً. وقد كان مُحققاً أيضاً، وبنفس القدر، فيما يتعلق باستحالة أن يعيشا معاً في وئام. كانت آنّا فاسيليفنا تفتقر إلى السماحة اللازمة لاستمرار الحياة

^{٤٦} فارينكا: اسم التدليل لفارفار. (المترجم)

^{٤٧} تقصد آنّا جريجوريفنا اشتراك دستوفسكي في حلقة بتراشيفسكي، التي حُكم عليه بسببها بالإعدام، الذي حُفّ بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات، ثم الخدمة العسكرية لمدة خمس سنوات في كتيبة حدودية في سيبيريا.

^{٤٨} هذا المقطع غير موجود في «المذكرات».

الزوجية الهادئة. وبخاصة إذا ما قُدر لها أن تتزوَّج من رجل مريض، سريع الغضب، على النحو الذي يكون عليه أحياناً فيودور ميخايلوفيتش نتيجة لمرضه. بالإضافة إلى ذلك كانت آنّا فاسيليفنا منشغلة تماماً آنذاك بصراع الأحزاب السياسية، بحيث لا يتبقّى لديها وقت كبير لرعاية الأسرة. وقد تغيّرت بمرور الزمن. وأذكرُ أنّني رأيتها زوجة رائعة وأمّاً رءوفاً.

كان مصير آنّا فاسيليفنا كورفين-كروكوفسكايا (أخت صوفيا فاسيليفنا كوفاليفسكايا الشهيرة)^{٤٩} مصيراً محزناً. فبعد انفصالها عن فيودور ميخايلوفيتش سافرت للخارج والتقت بشابٍّ فرنسي يُدعى السيد جاكلار، مؤمن بنفس أفكارها السياسية. وقد أحبّته وتزوَّجا. وفي أثناء كومونة باريس كان جاكلار من أنصار الكومونة المُتحمّسين، أُدرج اسمه في قائمة المحكوم عليهم بالإعدام. وقد تم القبض عليه وسجنه في أحد القلاع بالقرب من الحدود الألمانية. وهنا قام والد آنّا فاسيليفنا بدفع رشوةٍ قيمتها عشرون ألف فرنك للشخص المُكلّف برقابته، فهيّا له الفرصة للهرب إلى ألمانيا.^{٥٠}

بعد ذلك قام جاكلار-كورفين (بعد أن أضاف اسم عائلة زوجته إلى اسمه وفقاً للتقاليد الأجنبية) بالسفر مع أسرته إلى بطرسبورج، حيث عمل بتدريس الأدب الفرنسي في ثانويات البنات. عاش جاكلار في ودٍّ ووثام مع زوجته، لكنه شعر بالحنين إلى وطنه وهو ما أثار الخوف في نفس آنّا فاسيليفنا. وسرعان ما تدهورت أحوالهما المادية، وقد أنفق مبلغاً كبيراً من الدوطة التي دفعتها آنّا فاسيليفنا على عملية إجهاض، ولسوء الحظ، لم يبقَ لهما بعد مرور بضع سنوات سوى بيتٍ في جزيرة فاسيليفسكي مرهون مقابل مبلغٍ كبير من المال. كان للإفلاس الذي حاق بهما أثره الشديد على آنّا فاسيليفنا حتى إنها، وهي المُعتلة الصّحة، راحت تذبذب بشدة. وهنا عاد بها زوجها، الذي كان ما يزال يمتلك

^{٤٩} صوفيا فاسيليفنا كوفاليفسكايا (قبل الزواج كورفين-كروكوفسكايا) (١٨٥٠-١٨٩١م): عالمة رياضيات، دكتوراه في الفلسفة، ماجستير في الفنون الجميلة.

^{٥٠} الإشارة إلى هروب ش. ف. جاكلار إلى ألمانيا من القلعة الواقعة قُرب الحدود إشارة خاطئة. في الحقيقة فإن جاكلار كان مُعتقلاً في سجن شانتية في فرساي حيث هرب منه إلى جينيف في السابع من أكتوبر ١٨٧١م. لمزيد من التفاصيل عن هروبه واشترك والد آنّا فاسيليفنا، الجنرال ف. ف. كورفين-كروكوفسكي، انظر كتاب: إ. س. كنيجنك-فيتروف: الناشطات الروسيات في الإنترنتاسيونال الأول وكومونة باريس، ليننجراد، ١٩٦٤م، ص ٢٠٣-١٩٠.

الحق في العودة للوطن، إلى باريس وكانا يعودان من حينٍ لآخر إلى بطرسبورج لقضاء بعض الأعمال، وأثناء مرضها الأخير نجحتُ، ومن خلال قنصلين بوييدونوستسيف، أن أقدم خدمةً لأنّا فاسيليفنا تمثّلت في تقديم التماسٍ لزوجها، الذي أبعد عن العاصمة لمدة يومين للاشتباه السياسي، بحيث تُتاح له بضعة أسابيع يتمكن خلالها من تدبير أموره ومصاحبة زوجته المريضة وطفلهما للسفر للخارج.^{٥١} توفيت أنا فاسيليفنا في باريس عام ١٨٨٧م.

١٤

في واحد من أحاديث المساء سألني فيودور ميخايلوفيتش: آنيا، أخبريني، هل تتذكّرين هذا اليوم، عندما أدركتُ للمرة الأولى أنك تُحبّنيني؟
أجبت بقولي: هل تعلم يا عزيزي أنني أعرف اسم دستوفسكي منذ طفولتي، لقد أحببتك، وإن شئت الدقة، أحببتُ أحد أبطالك منذ أن كان عمري خمسة عشر عامًا.
ابتسم فيودور ميخايلوفيتش دون أن يأخذ كلماتي على محمل الجد.
واصلت حديثي قائلة: بجد، أنا أتحدّث بجد! كان أبي عاشقًا للقراءة، وعندما كان الحديث يدور عن الأدب الحديث كان يقول دائمًا: «حسنًا، وماذا عن الكُتّاب اليوم؟ في زمانى كان هناك بوشكين^{٥٢} وجوجل^{٥٣} وچوكوفسكي!^{٥٤} ومن الشباب كان هناك الروائي

^{٥١} في الثاني والعشرين من مارس ١٨٨٧م تلقى جاكلر إنذارًا من وزير الداخلية يقضي بمُغادرته روسيا في خلال ثلاثة أيام. وفي الثاني من أبريل ١٨٨٧م كتبت أنا جريجوريفنا دستوفسكايا خطابًا إلى ي. أ. بوييدونوستسيف، زوجة قنصلين بوييدونوستسيف تطلب فيه أن يُقدّم خدمةً لأنّا فاسيليفنا بحيث يسمح لزوجها، الذي أبعد عن العاصمة لمدة يومين للاشتباه السياسي، بفرصة البقاء لبضعة أسابيع لتدبير أموره، ومرافقة زوجته المريضة وطفلهما الصغير للسفر للخارج. وبعد بقاء جاكلر في روسيا، نهّبت أنا جريجوريفنا بوييدونوستسيف للاستفسار عن موضوع جاكلر. وفي الرابع من أبريل ١٨٨٧م أبلغ رئيس قسم الشرطة إ. دورنوفو بوييدونوستسيف أنه قد أصدر أمرًا بتأجيل مغادرة جاكلر بطرسبورج إلى عشرة أيام (انظر: قنصلين بوييدونوستسيف ومُراسلاته، المجلد الأول، الكتاب الثاني، موسكو، براج، ١٩٢٣م، ص ٦٨٠-٦٨٢).

^{٥٢} بوشكين، ألكسندر سيرجيفيتش (١٧٩٩-١٨٣٧م): كاتب، مسرحي، مؤلّف: «روسلان ولودميلا»، «أسير القوقاز»، «الفارس البرونزي»، «يفجينى أونيجن»، «بوريس جودونوف» وغيرها. دخل بوشكين

دستوفسكي، مؤلف «الفقراء»، وكان موهبة حقيقية. لكنه انزلق، للأسف، في السياسة فوقع في سيبيريا. والآن لا حسَّ ولا خبر!

أذكر أننا ذهبنا في صيف ١٨٦١م إلى بيترهوف.^{٥٥} وفي كل مرة كانت أُمِّي تذهب فيها إلى المدينة للتسوق، كنَّا نستعطفها أنا وأختي أن تعرج على مكتبة تشيركيسوف^{٥٦} لشراء العدد الجديد من مجلة «فريميا» (الزمن). كانت تركيبة أسرتنا على النسق الأبوي، ومن ثم تُصبح المجلة في حوزة أبي أولاً. ولما كانت صحة أبي المسكين ضعيفةً آنذاك، وكثيراً ما كان يغلبه النعاس وهو جالس يقرأ على كرسيه بعد الغداء، كتاباً أو صحيفة، فقد كنت أتسلَّل إليه ثم أخُذ منه الكتاب بهدوء، وأهرع إلى الحديقة لأجلس تحت شجرة ما حتى استمتع بقراءة روايتك دون ازعاج. ولكن، هيهات، لم يكن دهائي ينجح! كانت أختي ماشا تأتي إلي، وبحكم أنها الأكبر سنّاً، كانت تأخذ مِنِّي الكتاب الجديد، مهما كانت توسُّلاتي بالسماح لي بأن أستكمل قراءة فصل من «المذلون». واصلت حديثي قائلة: إذن كنتُ حاملة مثالية، وكان أبطال الرواية بالنسبة لي شخصاً حياً. كنت أكره الأمير فالكوفسكي، وأحتقر أليوشا لضعف إرادته، وأواسي العجوز إِيخمينيف، كما كنتُ أشفق على نيللي و... لم أحب ناتاشا ... انظر، حتى أسماء أبطالك ما تزال صحيحة في ذاكرتي!

حياة دستوفسكي في فترة مُبكرة من حياته وظلَّ تأثيره عليه حتى نهاية حياته. تردَّد اسم بوشكين كثيراً في أعمال دستوفسكي الفنية، وفي مقالاته وخطاباته ومذكراته. (المترجم)

^{٥٣} جوجول، نيكولاي فاسيلييفيتش (١٨٠٩-١٨٥٢م): كاتب، مؤلف: «أمسيات قرب قرية ديكانكا»، «الأنفس الميتة»، «الأنف»، «المعطف»، «المفتش العام». حمل دستوفسكي له تقديراً رفيعاً منذ شبابه. وفي رواية دستوفسكي الأولى، «الفقراء» يظهر جوجول وإبداعه في قلب اهتمام الكاتب وأبطاله. وفي خطابه إلى بيلينسكي بعد ظهور «الفقراء» كتب نكراسوف يقول: «لقد ظهر لدينا جوجول جديد ...» وحتى نهاية حياته ظل دستوفسكي يُردِّد أن جوجول هو واحد من مؤسسي الأدب الروسي. (المترجم)

^{٥٤} جوكوفسكي، فاسيلي أندرييفيتش (١٧٨٣-١٨٥٢م): شاعر، بدأ سنتمينتاليا («المقبرة الريفية»)، ثم أصبح واحداً من مؤسسي الرومانتيكية الروسية. ترجم «الأوديسا» لهوميروس، كما ترجم أعمال شيللر وبايرون. (المترجم)

^{٥٥} بيترهوف (بترودفوريتس حتى عام ١٩٤٤م): مجموعة من الحداثق والقصور والنوافير في بطرسبورج، تقع على الخليج الفنلندي، أسَّسها بطرس الأكبر عام ١٧٠٩م. كانت مقراً لإقامة القياصرة في ضاحية العاصمة. (المترجم)

^{٥٦} تشيركيسوف، ألكسندر ألكسندروفيتش (١٨٣٩-١٩٠٨م): شخصية اجتماعية بارزة. صاحب مجموعة من المكتبات العامة ومحال لبيع الكتب في بطرسبورج وموسكو. (المترجم)

قال فيودور ميخايلوفيتش ملاحظاً: لم أعد أتذكرهم، وعموماً فإنني أتذكر موضوع الرواية بشكل غير واضح.

أجبت بذهول: هل حقاً نسيتهم؟! يا له من أمرٍ مؤسف! لقد كنت مُتيمّة بإيفان بتروفيتش، الذي كانت أحداث القصة تدور على لسانه. ورفضت أن أفهم، كيف استطاعت ناتاشا أن تُفضل أليوشا التافه على ذلك الرجل الرائع، وكنت أقول في نفسي وأنا أقرأ «إنها تستحق ما هي فيه من تعاسة، لأنها رفضت حب إيفان بتروفيتش، الذي كنتُ أتعاطف معه، مع مؤلف الرواية. كنتُ أتصوّر أنه هو نفسه دستوفسكي، الذي يحكي القصة الحزينة لحبه الفاشل ... إذا كنت قد نسيت، فإن عليك حتماً أن تُعيد قراءة هذه الرواية الرائعة. ثم واصلت القول: بالمناسبة، أتذكر أنك سألتني، ذات مرة، في بداية تعارفنا: هل وقعت في الحب؟ فأجبتك: «لم أحب شخصاً بعينه، ولكنني أحببتُ أحد أبطال روايتك وكان عمري خمسة عشر عاماً. فسألتني: «أية رواية؟» وهنا أسرعت بتغيير دفة الحديث: أحسستُ أنه من غير اللائق أن أُسمي بطل روايتك. بإمكانك أن تأخذ ذلك باعتباره نوعاً من دلال الآنسات اللائي يرغبن في الظهور بمظهر العليمات بالأدب. كنتُ أودُّ أن أكون مُستقلة تماماً.

كم من الدموع ذرفتُ وأنا أقرأ «مذكرات من البيت الميت»! كان قلبي مليئاً بالتعاطف والأسف على دستوفسكي، الذي تحمّل هذه الحياة القاسية في المعتقل. لقد جنّت للعمل معك بدافع هذه الأحاسيس التي ذكرتها لك. كنتُ أودُّ بشدة أن أقدم لك يد العون ولو بشيءٍ ما يخفف عن إنسان متاعبه، إنسان أعجبتُ بأعماله إعجاباً كبيراً وقد حمدت الله أن أولخين اختارني للعمل معك ولم يختَر أحداً آخر.

عندما لاحظتُ أن تعليقاتي بشأن رواية «مذكرات من البيت الميت» قد أثارت الشجون لدى فيودور ميخايلوفيتش، أسرعتُ بتغيير دفة الحديث وقلتُ له مازحة: أتعرف، لقد اختارني القدر لأكون زوجة لك، فعندما كان عمري ستة عشر عاماً، كانوا يُنادونني نيتوتشكا نيزفانوفا.^{٥٧} فأنأ، وهو اسمي، هو نيتوتشكا تدليلاً، ولما كنت أذهب كثيراً لزيارة

^{٥٧} إشارة إلي رواية دستوفسكي، التي تحمل اسم بطلتها نيتوتشكا نيزفانوفا، وهو عمل بدأه دستوفسكي في عام ١٨٤٦م، ولم يكتمل بسبب اعتقال الكاتب. والاسم نيزفانوفا مُشتق من الصفة نيزفاني، وتعني بالروسية «الضيف القادم بدون دعوة». (المترجم)

أقاربي دون دعوة، فقد رأوا أن يُسمُّوني نيتوتشكا نيزفانوفًا تمييزًا لي عن أي نيتوتشكا أخرى ولمعرفتهم بولعي بروايات دستوفسكي. وأنت فلتُسمَّني نيتوتشكا. توجَّهْتُ بهذا الطلب إلى فيودور ميخايلوفيتش فأجاب: لا! إن نيتوتشكا بطلَّة روايتي قد عانت كثيرًا من الأحزان في حياتها، وأنا أريدك أن تكوني سعيدة. الأفضل أن أُسمِّيك أنيا، وهو الاسم الذي يروقني!

في مساء اليوم التالي، طرحت على فيودور ميخايلوفيتش بدوري، السؤال الذي كان يشغلني منذ فترة طويلة، والذي كنتُ أخجل من طرحه: متى أحسَّ أنه يُحبُّني، ومتى قرَّر أن يخطبني؟

راح فيودور ميخايلوفيتش يستعيد ذكرياته، وقد أثار حزني أنه اعترف لي، أنه لم يلاحظ إطلاقًا ملامح وجهي في الأسبوع الأول لتعارفنا.

تعجبت قائلة: كيف لم تلاحظ؟ ما معنى هذا؟

– إذا قام أحدهم بتعريفك بشخص جديد، فقلتُ له بضع عبارات تقليدية، فهل من المعقول أن تتذكَّري وجهه؟ كلاً بالطبع! وأنا بطبعي دائم النسيان. وهو ما حدث أيضًا في هذه المرة: تحدَّثْتُ معك، رأيتُ وجهك، وما إن خرجتُ حتى نسيته، ولم أكن لأتذكر إذا ما سألني سائل إن كنتُ شقراء أو سمراء. ولم أنتبه إلى جمال عينيَّك الرماديتين وابتسامتك الطيبة الصافية إلا في نهاية شهر أكتوبر. ثم رحْتُ بعد ذلك أُعجِبُ بوجهك كله، وكلما مرَّ الوقت، ازدادتُ بك إعجابًا! أما الآن فلا أرى في الدنيا وجهًا أجمل من وجهك! ثم أضاف بسذاجة: جميلة في عيون الجميع. استمرَّ فيودور ميخايلوفيتش في ذكرياته قائلاً: أذهلتني، عند زيارتك الأولى، مدى اللباقة التي تتمتَّعُ بها، وكذلك تعاملُك الجاد، والذي يصلُ إلى حد الخشونة تقريبًا. قلتُ لنفسِي: يا له من نموذجٍ لفتاة رزينة وعملية! وكم كانت سعادتي أنَّ لدينا في مجتمعنا هذا النموذج. أذكر أنني ذات مرة قلتُ لفظًا أحرَق دون قصد، فنظرتُ إليَّ نظرةً أصبحتُ بعدها أزن كلامي خوفًا من أن أغضبك، بعد ذلك أدهشني وشدَّ انتباهي سلامة النية التي تتدخَّلُ بها في شئوني الخاصة، وهذا التعاطف الذي تُبدينه تجاه المصائب التي تتهدَّدني. كنتُ أظن أن أقاربي وأصدقائي يُحبُّونني، وأنهم مُتحمِّسون، يشتهلون غيظًا، لأنني يمكن أن أفقد حقوقي الأدبية، كانوا ساخطين على ستيلوفسكي، مُستائين، يُلومونني لأنني وقَّعتُ على هذا العقد (كما لو كان بإمكانني

ألا أُوَقِّع عليه!) ينهالون عليّ بالنصائح، يُواسونني. أما أنا فكنت أشعر أن كلّ ذلك ما هو إلا «كلام، كلام، كلام» وأن لا أحد منهم أعطى الأمر أذنًا صاغية، وأني إذا فقدت حقوقي، فإنني أفقد بذلك آخر ما أملك ... وهذه الفتاة الغريبة، التي عرفتها للتو، راحت، منذ اللحظة الأولى التي اطلّعت فيها على أوضاعي، تُساعدني بالعمل لا بالكلام، دون أن تتنهد أسفًا، أو تصرخ، أو تبدي أساها. وعندما استقرّ عملنا بعد عدة أيام. انتعشت الآمال في روحي، التي كانت مسكونةً باليأس التامّ تقريبًا، وقلتُ لنفسي «لعلني أستطيع أن أسلمّ العمل في موعده، إذا ما استمرّ العمل على هذا النحو!» كانت تأكيداتك، أننا حتمًا سننجح (تذكرين، كيف كنّا نحسب معًا عدد الأوراق التي كتبتها)، مؤكدة هذا الأمل، واهبةً لي القوة على مواصلة العمل. وكثيرًا ما كنتُ أحدث نفسي، مُتحدثًا معك: «يا له من قلب طيب لدى هذه الفتاة! إنها لا تكتفي بالحديث، وإنما تشعر فعلاً بالأسى تجاهي، وتودُّ أن تُخرجني من الكرب الذي أنا فيه.» كنتُ أشعر بوحدةٍ موحشة، حتى إنني ما إن وجدتُ إنسانًا يتعاطف معي بإخلاص حتى شعرتُ بالسعادة الكبرى.

ثم واصل فيودور ميخايلوفيتش حديثه قائلاً: أظنُّ أن حُبِّي لك بدأ منذ هذه اللحظة، بعد ذلك أعجبني وجهك الحبيب. أحيانًا كنتُ أضبطني مُتلبسًا بالتفكير فيك؛ ولكن عندما انتهينا فقط من «المقامر»، وتنبّهتُ إلى أننا لن نلتقي يوميًا، وأدركتُ أنني لا أستطيع العيش بدونك. عندئذٍ قررتُ أن أتقدّم لخطبتك.

سألته باهتمام: ولكن لماذا لم تتقدّم لخطبتي ببساطة كما يفعل الآخرون، وإنما اخترعتَ هذه الرواية المثيرة؟

أجاب فيودور ميخايلوفيتش وقد أخذه التأثر: تعلمين يا يمامتي أنيا، أنني عندما أدركتُ مكانتك عندي، انتابني إحساسٌ عميق باليأس، وبدأ لي نَيْتِي الزواج منك جنونًا مُطبقًا! انظري كم نحن مختلفان! يكفي الفارق في العمر! فأنا في الواقع لستُ سوى عجوز، وأنت لستِ سوى طفلة. أنا مريض ومرضي لا براء منه، عبوس وعصبي؛ وأنت مليئةٌ بالصحة والعافية، نشيطة ومُحبة للحياة. أنا عشتُ زمني تقريبًا، عانيتُ في حياتي الكثير من الحزن. وأنت عشتِ دائمًا حياةً رغدة، وما يزال المستقبل أمامك. وأخيرًا، فأنا فقير ومُثقل بالديون. ما الذي تنتظرينه من جراء عدم التكافؤ هذا؟ إما أن نكون تعساء، أو ننفصل بعد أن نُمضي معًا بضع سنوات من العذاب، أو نتألف ما تبقى لنا من العمر ونُصبح سعداء.

كنتُ أشعر بالألم وأنا أستمع إلى فيودور ميخايلوفيتش وهو يحطُّ من قدر نفسه، فانبريتُ مُعترضةً بحدة: يا عزيزي، إنك تهوُّل الأمور! إن عدم التكافؤ الذي تفترضه بيننا غير موجود. إذا أحب كلُّ منَّا الآخر بقوة، فسنصبح أصدقاء وسوف نكون سعداء أبد الدهر. إن ما يُخيفني شيء آخر، حسنًا، كيف لمن هو مثلك، موهوب، ذكي، مُثقف، أن يتَّخذ لنفسه فتاةً بلهاء رفيقًا في الحياة، فتاة تملك قدرًا مُتواضعًا من العلم مقارنة بك، على الرغم من أنني حصلتُ في الثانوية على الميدالية الفضية الكبرى (كنتُ أفخر كثيرًا بهذه الميدالية آنذاك)، وعلى أيِّ حال فأنا لم أبلغ هذا القدر من الثقافة، الذي يؤهلني أن أقف إلى جانبك على قدم المساواة. أخشى ما أخشاه أن تكتشف سريعًا ما بي من نقص، فتشعر بالملل ثم تأسف على أنني غير قادرة على فهم أفكارك. هذا هو عدم التكافؤ، الذي هو أسوأ من كل تعاسة!

أسرع فيودور ميخايلوفيتش في تهدئة خاطري. ظلَّ يمدحني كثيرًا. ثم عُذنا إلى الحديث المفضل لدي، الحديث عن الخطوبة.

قال فيودور ميخايلوفيتش: ترددتُ كثيرًا كيف أخبرك. عجوز يفقد الوسامة يتقدَّم لخطبة فتاةٍ شابةٍ فلا يجد قبولًا. أمر يمكن أن يُثير الضحك، ولم أكن أرغب في أن أكون مُضحكًا في نظرك. قد تقولين لي فجأةً إنك مُغرمة بشخصٍ آخر، فيخلق رفضك فتورًا بيننا، وإذا بعلاقة الودِّ السابقة تصبح أمرًا لا يُحتمل، وعندئذٍ أفقدك كصديق، ويضيع منِّي الشخص الوحيد الذي عاملني بإخلاص طوال العامين الآخرين. أقول لك مرةً أخرى إنني كنتُ أشعر بوحدة مُوحشة، ولو أنني فقدتُ صداقتك ومساعدتك، لأصبح الأمر قاسيًا على نفسي. ومن ثم فكرتُ أن أعرف مشاعرك، بعد أن أقصَّ عليك خطة رواية جديدة. كان من الأسهل عليَّ أن أتحمل رفضك؛ إذ كنتُ سأعتبر أن الحديث يدور هنا حول أبطال الرواية وليس عنا.

وبدوري، رحّتُ أحكي له كم عانيتُ كثيرًا أثناء هذه الخطوبة الأدبية، بسبب عدم فهمي، وغيرتي، وحسدي لأننا فاسيليفنا وهلمَّ جرًّا.

أخذتُ الدهشة فيودور ميخايلوفيتش الذي قال: إذن فقد أخذتُك بغتةً وحصلتُ على موافقتك قسرًا! بالمناسبة، في رأيي أن الرواية التي قصصتها عليك آنذاك، هي من أفضل القصص التي كتبتها على الإطلاق، إذ حققت على الفور نجاحًا كبيرًا وحققت التأثير المطلوب!

في نشوة انطباعتنا السعيدة الجديدة نسينا، أنا وفيودور ميخايلوفيتش، العمل على إنهاء «الجريمة والعقاب»، في الوقت الذي كان قد تبقى كتابة الجزء الثالث من الرواية بأكمله. تذكر فيودور ميخايلوفيتش هذا الأمر في نهاية نوفمبر، عندما طلبت هيئة تحرير مجلة «البشير الروسي» تكملة الرواية. ولحسن الحظ، فإن المجلدات في تلك السنوات كانت نادراً ما تصدر في موعدها، بل إن «البشير الروسي» ذاتها كانت مشهورة بتأخرها في الصدور، فعدد نوفمبر يصدر في نهاية ديسمبر، وعدد ديسمبر يصدر في مطلع فبراير وهلم جرأً، ولهذا كان أماننا مُتسع من الوقت.

أحضر إليّ فيودور ميخايلوفيتش خطاب هيئة التحرير وطلب منّي النصيحة. اقترحت عليه أن يخلق عليه باباً أمام الضيوف، وأن يعمل نهائياً من الثانية وحتى الخامسة، وبعدها يقوم بإملائي من مخطوطته عندما يحضر إلينا.

هكذا قمنا بتنظيم عملنا، فبعد أن نتحدث حوالي ساعة في شتى المواضيع، أجلس إلى المكتب، بينما يجلس فيودور ميخايلوفيتش إلى جوارى ويبدأ في الإملاء، الذي يقطعه أحياناً بعض الحديث وإطلاق النكات والضحك. سار عملنا على أكمل وجه، وتمت كتابة الجزء الثالث من «الجريمة والعقاب» والمكوّن من سبع ملازم في خلال أربعة أسابيع. وقد أكّد لي فيودور ميخايلوفيتش أنه لم يحدث له إطلاقاً أن عمل على هذا النحو من السهولة، وعزا هذا النجاح إلى مساعدته.

انعكس المزاج النشيط والمرح لفيودور ميخايلوفيتش في تلك الفترة إيجابياً أيضاً على صحته. فقُبيل زفافنا بثلاثة أشهر لم تُهاجمه نوبات الصرع سوى ثلاث أو أربع مرات. وقد أسعدني هذا الأمر كثيراً وبثّ في روحي الأمل في أنه كلما كانت الحياة أكثر هدوءاً وسعادة، خفت حدة المرض، راحت النوبات الأسبوعية تقلّ عامّاً بعد الآخر مع انخفاض حدّتها. بالطبع فإنّ الشفاء التامّ من الصرع كان أمراً مُستبعداً، وبخاصة أن فيودور ميخايلوفيتش لم يسع للعلاج؛ مُعتبراً أن مرضه لا براء منه. ولكننا اعتبرنا أن تراجع عدد النوبات وانخفاض حدتها هو هبة إلهية، فقد جنّبه ذلك في الحقيقة المزاج الرديء والاكتئاب، اللذين كانا يستمران أحياناً أسبوعاً كاملاً كنتيجة حتمية للنوبة؛ فضلاً عن الدموع والمعاناة التي كنتُ أعيشها في أثناء وجودي عند ظهور نوبات هذا المرض الفظيع. كانت أُمسياتنا تمضي دائماً في سكينّة ومرح، لكن إحداها مرّت بنا، فجأة، على نحو عاصف.

حدث ذلك في نهاية شهر نوفمبر. جاء فيودور ميخايلوفيتش، كعادته، في الساعة السابعة، وفي هذه المرة كان يرتجف بشدة من البرد. وبعد أن تناول كوبًا من الشاي الساخن، سألتني إن كان لدينا كونياك أجبتُ بالنفي، ولكنني أخبرته بوجود خمر الشيري الجيد. وعلى الفور قمتُ بإحضاره فعبَّ منه ثلاث أو أربع كئوس كبيرة دفعةً واحدة، شرب بعدها كوبًا من الشاي الساخن، وعندئذٍ فقط سرى في جسده الدفء. تعجبتُ كيف نال البرد القارس من فيودور ميخايلوفيتش على هذا النحو، ولم أعرف تفسيرًا لذلك. على أنني سرعان ما أدركتُ السبب. فعند مروري بمدخل البيت لقضاء أمر ما، لاحظتُ أن فيودور ميخايلوفيتش يضع على المشجَب بالطو خريفًا من القطن، بدلًا من البالطو الشتوي ذي الفراء، الذي اعتاد أن يرتديه. عدتُ أدراجي على الفور إلى غرفة الاستقبال وسألته: ألم تكن ترتدي البالطو الفراء عند مجيئك اليوم؟

— لا ... بالطو الخريف. أجب فيودور ميخايلوفيتش محاولًا التهوين من الأمر.
— الآن فهمتُ لماذا كنتَ ترتجف من البرد. سأرسل سيميون الآن بهذا البالطو ليحضر لك الفراء.

— لا داعي! من فضلك، لا داعي! سارع فيودور ميخايلوفيتش بالإجابة.
— كيف لا داعي عزيزي؟ سوف تُصاب بنزلة بردٍ في طريق العودة، سوف يكون الجوُّ أكثر برودةً بحلول الليل.

صمت فيودور ميخايلوفيتش، بينما واصلتُ الإصرار، وفي النهاية اعترف قائلًا: ليس لدي بالطو فرو ...

— كيف؟ هل سُرقت؟

— لا، لم يسرقني أحد، ولكن اضطررتُ لرهنه.

اندهشت، ومن ثمَّ رحْتُ أتحرى منه الحقيقة بشدة، حتى راح فيودور ميخايلوفيتش يحكي لي، كُرْهاً، ربما، أن إميليا فيدوروفنا حضرت إليه هذا الصباح وطلبتُ منه أن يُنقذها من المصيبة، بأن يدفع عنها دينًا عاجلاً مقداره خمسين روبلاً. وكذلك طلب ربيبه مبلغًا من المال يحتاجه أخوه نيكولاي ميخايلوفيتش، الذي أرسل خطابًا له بهذا الشأن. لم يكن لدى فيودور ميخايلوفيتش نقود، فقرَّروا أن يرهنوا البالطو الفرو عند أقرب محلٍّ رهونات مؤكَّدين لفيودور ميخايلوفيتش أن ذوبان الثلوج مستمرٌّ وأن الجو دافئ وأنه يستطيع أن يقضي بضعة أيامٍ مُرتديًا بالطو الخريف حتى يحصل على نقود من مجلة «البشير الروسي».

كنت في حالة شديدة من الإحباط والاستياء من جراء قسوة المشاعر لدى أقارب فيودور ميخايلوفيتش. قلتُ له إنني أقدر رغبته في مساعدة أقاربه، ولكنني أرى أن من المستحيل أن يُضحوا بصحته وربما بحياته أيضًا.

بدأتُ حديثي بهدوء، لكن غضبي وحزني راحا يتصاعدان مع كل كلمة من كلامي؛ فقدتُ السيطرة على مشاعري ورحتُ أتحدثُ كمن فقد عقله، دون أن أتخير تعبيراتي، رحْتُ أؤكد له أن عليه التزامات نحوي، فأنا عروسه، وأنني لن أتحمّل صدمة موته، أجهشتُ بالبكاء، وأخذتني حالة هستيرية من النحيب والصراخ. كان فيودور ميخايلوفيتش حزينًا للغاية، عانقني وقبّل يديّ ورجاني أن أهدأ. سمعتُ أمي بكائي. شعرتُ بالخجل فاعتذرتُ لفيودور ميخايلوفيتش. وفي معرض شرحه لما حدث، أخبرني أنه اضطرّ في الشتاء الماضي لرهن البالطو الفرو خمسَ أو ستَ مرات. وكان يسير مُرتديًا بالطو الخريف.

أكد لي فيودور ميخايلوفيتش وهو في حالة شديدة من الخجل والارتباك قائلاً: لقد تعودتُ على مثل هذه الرهونات، ولهذا لم أولِ أيَّ أهمية لهذا الأمر هذه المرة أيضًا. لو كنتُ أعلم أنك ستأخذين هذا الأمر على نحوٍ مأسوي، لما كنتُ قد سمحت لباشا، مهما حدث، أن يأخذ البالطو لرهنه.

انتهزتُ فرصة ندم فيودور ميخايلوفيتش وأخذتُ عهدًا عليه ألا يتكرّر هذا الأمر مرةً أخرى. وهنا عرضتُ عليه ثمانين روبلاً لاستعادة البالطو، ولكنه رفض رفضًا باتًا. عندئذٍ رحْتُ أتوسّل إليه أن يبقى في البيت وألا يغادره إلى أن تصل النقود من موسكو. وافق فيودور ميخايلوفيتش على «الحبس المنزلي» بعد أن أخذ عهدًا عليّ أن أزوره كلّ يومٍ في الواحدة وأبقى لديه حتى موعد الغداء.

لدى وداعي لفيودور ميخايلوفيتش، طلبتُ منه مُجددًا أن يصفح عني على هذا «المشهد المسرحي» الذي قمتُ به أمامه اليوم.

أجاب فيودور ميخايلوفيتش قائلاً: ربّ ضارة نافعة! الآن تأكد لي إلى أي حدّ تحببيني، لم يكن باستطاعتك البكاء على هذا النحو، لو لم أكن عزيزًا عليك! أحطتُ رقبة فيودور ميخايلوفيتش بشالي الأبيض وأرغمته أن يُطلقه على كتفيه. قضيتُ بقية المساء تُعذّبني فكرة أن فيودور ميخايلوفيتش قد يهجرنِي، إذا ما عرف أنني قادرة على أداء مثل هذه «المشاهد» أو أفزع من أن يُصاب بنزلة بردٍ في الطريق، أو يُصاب بمرضٍ خطير، لم أنم تقريبًا، استيقظتُ مبكرًا وفي الساعة العاشرة هاتفَتُ منزل فيودور ميخايلوفيتش تليفونيًا. طمأننتني الخادمة وأخبرتني أن السيد قد استيقظ من نومه وأنه لم يشتك من أي مرضٍ بالليل.

أستطيع القول إن هذه الأمسية، كانت الوحيدة «العاصفة» قبيل زفافنا بثلاثة أشهر. استمر «الحبس المنزلي» لفيودور ميخايلوفيتش أسبوعاً، وكنتُ أذهب لمقابلته وكتابة ما يُمليه عليّ من «الجريمة». وفي إحدى تلك الزيارات أدهشني تصرُّفه للغاية، ففي غمرة عملنا ارتفعت أصوات قادمة من أرغن الشارع اليدوي، كان يصدر بموسيقى أغنية La donna est mobile من أوبرا «ريجوليتو». توقف فيودور ميخايلوفيتش عن الإملاء وراح يصيح السمع وإذا به فجأة يأخذ في ترديد هذه الأغنية مستبدلاً اسمي بالكلمات الإيطالية. «أنا جريجوريفنا! ... كان يُعني بصوتٍ حسنٍ من طبقة التينور خافِتٍ بعض الشيء. بعد أن انتهت الأغنية، اقترب فيودور ميخايلوفيتش من كوة النافذة وقذف بعملة من خلالها، وسرعان ما اختفى عازف الأرغن. أجاب فيودور ميخايلوفيتش على استفساري بقوله إن عازف الأرغن لاحظ، بداهة، بعد أي أغنية تحديداً يُلقون عليه بالنقود، وها هو يأتي كل يوم ليقف أسفل النافذة ليعزف فقط هذه الأغنية من «ريجوليتو». ثم أردف قائلاً: أما أنا فأسير دائماً وأنا أترنم باسمك العزيز على موسيقى هذه الأغنية!

ضحكتُ وتظاهرتُ بالغضب لأن فيودور ميخايلوفيتش وضع اسمي مكان الكلمات الساذجة، ولكنني رحْتُ أؤكد أن الاستقرار والثبات من طباعي، فإذا ما أحببت، فإنني أحبُّ إلى الأبد. ضحك فيودور ميخايلوفيتش وقال: سنرى، سنرى!

استمعتُ إلى هذه الأغنية من الأرغن ومن فيودور ميخايلوفيتش في اليومين التاليين، واندھشتُ لدقة التطابق بين غنائه وبين اللحن. بداهة فقد كانت لديه أذن موسيقية جيدة. بقدر تنوع مضمون أحاديثنا اليومية طوال هذه الفترة، فإنها لم تتطرق أبداً إلى موضوعاتٍ فاحشة أو بذيئة. ولعلَّه كان من الصعب على أي شخص أن يتعامل مع تواضعي العذري وخجلي، على نحو أكثر تحفظاً ورقة، على النحو الذي تعامل به معي خطيبي. ويمكن وصف تعامله معي من خلال الكلمات التي وردت في خطابه الذي كتبه إليَّ بعد زفافنا.^{٥٨}

«لقد وهبك الله إياي، حتى لا يضيع سُدى شيء من فطرتك وثراء روحك وقلبك، وإنما على العكس من ذلك، ليزداد ثراءً وبهاءً؛ وهبني إياك لكي أظْهَر بك من خطاياي

^{٥٨} الخطاب المؤرَّخ ١٧ مايو ١٨٦٧م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثاني، ص ٥-٦.

العظيمة، بعد أن أقدمك إلى الله وقد أصبحت ناضجة، تعرفين طريقك، طاهرة مُصانة من كل دناءة من شأنها أن تُميت الروح.»

وفي جميع الأحوال فقد وضع فيودور ميخايلوفيتش نصب عينيه أن يحميني من كل الانطباعات المسيئة. أذكر ذات مرة، وكنتُ في إحدى زياراتي له أنني رحّت أتصفح رواية باللغة الفرنسية، كانت موضوعة على مكتبه. اقترب منّي وسحب الرواية بهدوءٍ من بين يديّ. قلت له: إنني أفهم اللغة الفرنسية. دع لي هذه الرواية لأقرأها.

فأجاب: ليست هذه الرواية! ما الداعي لتلويث مخيلتك؟!

وحتى بعد زفافنا، كان فيودور ميخايلوفيتش يتخَيّر لي بنفسه الكتب، ولم يكن يسمح مُطلقاً أن أقرأ الروايات العابثة، تحدوه الرغبة أن يأخذ بيدي في طريق تطويري أدبياً. كان هذا التحكم يُغضبني أحياناً، وكنتُ أحتجُّ عليه بقولي: ولماذا تقرؤها أنت نفسك؟ ولماذا تلوّث مخيلتك؟ فكان يجيب: أنا رجل لديّ مناعة. هذه الكتب ضرورية لي باعتبارها مادة لعمل. على الكاتب أن يعرف كل شيء وأن يفحص كل شيء. ولكنني أؤكد لك أنني لا أتلذذ بالمشاهد الماجنة، بل إنها كثيراً ما تُثير في نفسي النفور.

لم تكن هذه عبارات إنشائية يقولها، وإنما كانت الحقيقة.

بهذا الشعور بالنفور كان فيودور ميخايلوفيتش ينظرُ إلى الأوبرات التي كانت سائدة في هذا العصر. لم يكن يذهب إلى المسرحيات الهزلية، ولم يكن يسمح لي بمشاهدتها. كان يقول لي: إذا الظروف سمحت لنا أن نذهب إلى المسرح، فينبغي علينا أن نتخَيّر المسرحية، التي يمكن أن تترك لدى المشاهد انطباعاً راقياً نبيلًا، وإلا فإنها ستلوث روحه بالثفاهات!

وخلال حياتي معه والتي امتدت أربعة عشر عاماً، ترسّخ لديّ إيمان عميق أنه كان واحداً من أكثر الناس حكمة. وكم أحزنني أن أقرأ أن إيفان تورجينيف، الكاتب الذي أحبه، قد رأى في فيودور ميخايلوفيتش شخصاً ماجناً، وسمح لنفسه أن يُسمّيه «الماركيز دي ساد الروسي».^{٥٩}

^{٥٩} في خطابه إلى م. ي. سالتيكوف شيردين المؤرّخ ٢٤ سبتمبر (٦ أكتوبر حسب التقويم القديم) ١٨٨٢م، كتب تورجينيف يقول: «قرأت أنا أيضاً مقالة ميخايلوفسكي («موهبة قاسية») وقد انتبه هو أيضاً بشكلٍ مؤكد للخاصية الأساسية في إبداعه، وقد استطاع (ميخايلوفسكي) أن يتذكر أن هناك ظاهرة مماثلة له

كان الموضوع الرئيسي والأعز علينا، أنا وفيودور ميخايلوفيتش، بطبيعة الحال، هو مُستقبل حياتنا الزوجية.

أصبحت فكرة أنني لن أفترق عن زوجي، وأنني سوف أشاركه عمله، وأن تُتاح لي الفرصة للعناية بصحَّته، وأن أتمكَّن من حمايته من أولئك المُتطفِّلين الذين يُثيرون قلقه واضطرابه، صارت بالنسبة إليَّ هي الفكرة المسيطرة، إلى حد أنني كنتُ مستعدةً أحياناً أن أنخرط في البكاء لو تبَّين لي أن هذه الفكرة لن تتحقَّق على وجه السرعة. كان زواجنا مُتوقَّفاً بصورة رئيسية على ما إذا كان موضوعنا مع «البشير الروسي» سينجح أم لا. وقد قرَّر فيودور ميخايلوفيتش أن يُسافر مع أعياد الميلاد إلى موسكو وأن يعرض على كاتكوف روايته الجديدة. لم يكن لديه شكُّ في أن هيئة تحرير «البشير الروسي» لديها الرغبة في أن يُصبح من العاملين بها، إذ إن رواية «الجريمة والعقاب» التي نُشرت بها عام ١٨٦٦م، قد تركت انطباعاً كبيراً في الحياة الأدبية وجذبت إلى المجلة العديد من المشتركين الجدد.^{٦٠} كان السؤال المطروح هو: هل سيتوفَّر لدى المجلة أموال فائضة لإقراضنا مبلغاً

(دستوفسكي) في الأدب الفرنسي وهي، تحديداً، الماركيز دي ساد السيئ السمعة» (إ. س. تورجينيف، الأعمال الكاملة والخطابات، المجلد ١٣، الكتاب الثاني، موسكو، ليننجراد، ١٩٦٨م، ص ٤٩). وقد عبَّر تورجينيف عن نفس الفكرة أيضاً في خطابه إلى ب. ف. أنينكوف المؤرَّخ ٢٥ سبتمبر (٧ أكتوبر حسب التقويم القديم) ١٨٨٢م. عن علاقة تورجينيف بدستوفسكي. اقرأ [الجزء الرابع، الإقامة في الخارج، التعليق رقم ٤٤].

^{٦٠} عن الانطباع الكبير الذي تركته رواية «الجريمة والعقاب» على المعاصرين، انظر مذكرات ن. ن. ستراخوف في كتاب: السيرة الذاتية، ص ٢٨٩-٢٩٠ وأ. ف. كوني في كتاب: أ. ف. كوني، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو، ١٩٦٨م، ص ٤٣٠-٤٣١، وكذلك كتاب: زاموتين، ص ٨٣-١١٥، حيث تم جمع الآراء المنشورة في الصحف والمجلات الدورية الروسية حول نشر رواية «الجريمة والعقاب». يتذكَّر أ. ف. كوني لقاءه بمايكوف فور صدور الرواية قائلاً: «قابِلني مايكوف وكان واقعاً تحت تأثير قراءته للجزء الأول من «الجريمة والعقاب»، الذي كان قد صدر لتوّه في مجلة «البشير الروسي». قال لي «استمع إلى ما سأقْرؤه عليك. إنه شيء مذهل!» وبعد أن أغلق باب مكتبه علينا، حتى لا يُزعجنا أحد، قرأ عليَّ المقطع الشهير لحديث مارميلادوف في الخُمارة، ثم أعارني العدد نفسه لعدة أيام. وما تزال تنتعش بداخلي حتى اليوم، وبعد مرور بضع سنوات، هذه المشاعر التي مررتُ بها آنذاك بكلِّ تفاصيلها، والانفعال الذي داهمَنِي من جرَّاء تعرُّفي على هذا العمل البالغ التأثير.»

في حدود بضعة آلاف، فإذا لم نتسلّم هذا القرض فسيُصبح تدبير أمورنا المالية المستجدةً أمراً مستحيلاً. وقد افترض فيودور ميخايلوفيتش أنه في حالة ما إذا فشلنا مع «البشير الروسي» فإن عليه، بمجرد إنهائه لـ «الجريمة والعقاب»، الشروع في كتابة رواية جديدة، وأنه سيكون لزاماً عليه، بعد أن ينتهي من الجزء الأكبر منها، أن يعرضها على مجلة أخرى. كان الفشل في موسكو يُهددنا بتأجيل زواجنا لمدة طويلة قد تصل إلى عامٍ بأكمله. وقد تملّكني حزنٌ عميق عندما باغتتني هذه الفكرة.

كان فيودور ميخايلوفيتش يُشاركني دائماً همومه. ولم يكن يرغب في أن يُخفي عني أي شيء، حتى لا تُفاجئني بشدة صروف الحياة القاسية، التي تنتظر كلينا في المستقبل. كنتُ مُمتنة له لصراحته، ورحتُ أفكر في كافة الوسائل، من أجل تخفيف الديون التي كانت تُعذّبه. وسرعان ما أدركتُ أن سداد الديون على الوضع الذي نحن فيه الآن أمرٌ مُستحيل تماماً. وعلى الرغم من قلة خبرتي بالحياة العملية، وأنني كنتُ أعيش في أسرة ميسورة، استطعتُ أن ألاحظ على مدى الشهور الثلاثة التي سبقت زواجنا أمراً كدّرني للغاية. لقد لاحظتُ أنه ما إن تظهر لدى فيودور ميخايلوفيتش نقود، حتى تظهر في الوقت نفسه لدى جميع أقاربه، أخيه، زوجة أخيه، ربيبه، أبناء أشقائه، احتياجات، ليست مفاجئة فحسب، وإنما عاجلة أيضاً. وهكذا لم يتبقّ من الثلاثة آلاف وأربعمائة روبل، التي تسلّمها من موسكو مقابل «الجريمة والعقاب»، سوى ما لا يزيد عن ثلاثين، أربعين روبلاً؛ فضلاً عن أنه لم يُسدّد كمبيالةً واحدة من ديونه، وإنما سدّد فوائدها فقط. ومن جديد تبدأ هموم فيودور ميخايلوفيتش. من أين يحصل على نقود لتسديد فوائد الديون، ومن أين له أن يعيش وأن يسدّد مطالب أقاربه العديدين. هذا الوضع راح يُعذّبني عذاباً حقيقياً. كنتُ أهدئ نفسي بفكرة أنني بعد الزواج سوف أتسلّم مقادير إدارة البيت في يدي، وأنني سوف أنظّم مسألة إعطاء الأقارب النقود، بعد أن أُحدّد لكلّ منهم مبلغاً محدداً سنوياً. كان لدى إميليّا فيدوروفنا أبناء بالغون كان بإمكانهم مساعدتها.^{٦١} أما

^{٦١} أبناء ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي وإميليّا فيدوروفنا دستوفسكي هم: ميخائيل ميخايلوفيتش الصغير وفيودور ميخايلوفيتش الصغير. للمزيد عنهم انظر كتاب فولوتسكي «شجرة عائلة دستوفسكي» ص ١٠٤-١٠٨.

نيكولاي ميخايلوفيتش،^{٦٢} الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوفيتش، فكان معمارياً موهوباً، وكان باستطاعته، إن أراد، أن يعمل. وكان ربيبه يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، وقد حان الوقت أن يتَّخذ لنفسه عملاً جاداً بدلاً من اعتماده الكامل على زوج أمه المريض والمُثَقِّل بالديون.

كنتُ أفكر، في غضبٍ، في هؤلاء العاطلين، إذ أرى أن هموم فيودور ميخايلوفيتش الدائمة بشأن النقود كانت تُفسد مزاجه الطيب وتؤثر تأثيراً ضاراً في صحته. كانت أعصابه تتوتّر بشدة من جرّاء الضغوط المستمرة؛ ومن ثم كانت نوبات الصرع تزداد. كان ذلك قبل ظهوري في حياته، بعدها تغيّر الأمر بعض الوقت. لكنني كنتُ أحلم أن يتعافي تماماً عندما نعيش حياتنا معاً في المستقبل، وأن يظلّ مُحْتَفِظاً بنشاطٍ ومزاج حسن.

بالإضافة إلى كل ذلك، كان فيودور ميخايلوفيتش، المُكَبَّل بالديون، مضطراً لعرض عمله بنفسه على المجالات، وبطبيعة الحال، كان يتقاضى مقابل أعماله مبالغ أقلّ بكثير مما كان يتقاضاه كتابٌ آخرون يعيشون في رغد، مثل تورجينيف وجونتشاروف.^{٦٣} فبينما كانوا يدفعون لفيودور ميخايلوفيتش مائة وخمسين روبلاً مقابل المزمّة الواحدة في رواية «الجريمة والعقاب»، كان تورجينيف يتقاضى من مجلة «البشير الروسي» ذاتها خمسمائة روبل على المزمّة لروايته.^{٦٤}

أما أكثر ما كان يُشعر فيودور ميخايلوفيتش بالضيم فكان اضطرابه، بسبب الديون التي لا تنتهي، للإسراع في عمله. لم يكن لديه الوقت أو القدرة على تنقيح أعماله، وكان ذلك يُصيبه بحزنٍ عظيم. كثيراً ما كان النقاد الغلاظ يُوجّهون له سهام انتقاداتهم للقصور الشديد في شكل رواياته، ولأن الرواية الواحدة تضمّ بين ثناياها عدة روايات،

^{٦٢} دستوفسكي، نيكولاي ميخايلوفيتش (١٨٣١-١٨٨٣م): الأخ الأصغر للكاتب؛ مهندس مدني. أنهى في عام ١٨٥٤م كلية الهندسة والبناء. كان معمارياً موهوباً واعداً ولكنه اضطرّ لترك الخدمة بسبب إدمانه للكحول وعاش في فقر مدقع حتى وفاته.

^{٦٣} جونتشاروف، إيفان ألكسندروفيتش (١٨١٢-١٨٩١م): كاتب، مؤلف روايات «أبولوموف» و«الجرف». تعرف عليه دستوفسكي في منزل أبولون مايكوف عام ١٨٤٦م، لكنهما لم يُصبِحَا أصدقاء، وقد شغل جونتشاروف، بعد ذلك مناصب عليا في لجنة الرقابة مما زاد من حدة الخصومة بينهما. (المترجم)

^{٦٤} تقاضي دستوفسكي من هيئة تحرير «البشير الروسي» ١٥٠ روبلاً للمزمّة على نشر روايات «الجريمة والعقاب»، «الأبله»، «الشياطين». ومن هيئة تحرير «حوليات الوطن» ٢٥٠ روبلاً للمزمّة على نشر رواية

وأن الكثير من هذه الأحداث غير مُكتمل.^{٦٥} الأرجح أن النقاد لم يكونوا يعرفون، الظروف التي كان فيودور ميخايلوفيتش مضطراً للعمل تحت وطأتها. كان يحدث أن يتم طبع الفصول الثلاثة من الرواية، ويجري العمل في جمع الفصل الرابع، وننتهي من كتابة الفصل الخامس، بينما تكون باقي الفصول في طور التفكير. كم مرة رأيتُ فيها فيودور ميخايلوفيتش قد سقط فريسةً لليأس، عندما أدرك، فجأةً أنه «أفسد الفكرة التي كان يعتزُّ بها كثيراً، وأنَّ إصلاح الخطأ قد بات مُستحيلاً».^{٦٦}

«المراهق». ومن هيئة تحرير «البشير الروسي» ٣٠٠ روبل للملزمة فقط عند نشره لروايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف» (انظر ل. ك. إيلينسكي، رواتب دستوفسكي، «اللازم البليوجرافية للجمعية الروسية للمكتبات»، ١٩٢٢م، العدد، العدد الثالث، ص ٤-٩). على رواية «أبناء وبنون» تقاضى إ. س. تورجينيف من «البشير الروسي» ٤٠٠ روبل على الملزمة، واقترحت عليه المجلة نفس المبلغ على الملزمة في رواية «الدخان» (انظر خطاب تورجينيف إلى كاشوكوف المؤرخ ٢٣ مارس (٤ أبريل حسب التقويم القديم) ١٨٦٢م و٣ (١٥) أغسطس ١٨٦٦م في كتاب إ. س. تورجينيف، الأعمال الكاملة والخطابات، الخطابات، المجلد الرابع، موسكو ليننجراد، ١٩٦٢م، ص ٣٦٥، المجلد السادس، موسكو ليننجراد، ١٩٦٣م، ص ٩٣).^{٦٥} في الواقع إن معظم النقاد لم يُدركوا الشكل الخاص بأعمال دستوفسكي، على سبيل المثال، كان رأي مجلة «ديلو» (القضية) قد أثنى على الكاتب لمشاعره الإنسانية، التي ألهمته عند إبداعه «الإخوة كارامازوف» لكن الرواية نفسها اعتُبرت غير مُرضية من الناحية الفنية (ديلو، ١٨٨١م، الأعداد ٢-٤)، أما الناقد الشهير ف. ف. تشويكو فقد كتب عن «الإخوة كارامازوف»: «الرواية في بعض صفحاتها تتلأل بموهبة مذهلة، ولكنها في معظمها تتكوّن من أشياء سخيقة غير مُناسقة ... وبعد ذلك فإنها مُملّة للغاية بسبب طولها وما بها من تكرار.» («نوفستي» (الأبناء)، ١٨٨٠م، العدد ٣٤٧). وحتى دستوفسكي نفسه كان يُدرك أنه لا يستطيع ولا يريد أن يكتب بطريقةٍ أخرى. يقول دستوفسكي في خطابه لستراخوف: «لقد أشرتَ بدقة مُتناهية إلى العيب الرئيسي لدي. حقاً، لقد عانيتُ وما زلتُ (ولم أتعلم) من هذا العيب؛ لم أعرف مُطلقاً حتى الآن أن أتمكك أدواتي.» العديد من الروايات والقصص تتداخل مع بعضها البعض في رواية واحدة، وهنا تضيق المعايير ويختفي الانسجام ... ولكن هناك أيضاً ما هو أسوأ، فعندما أسيء استخدام أدواتي، وأندفع وراء الهوس الإبداعي، لا يصبح بمقدوري عندئذٍ التعبير عن الفكرة فنيّاً» (ف. م. دستوفسكي قد أكد في الوقت نفسه أنه «لا يعرف شيئاً أكثر واقعيةً من هذه ...»، أي الوسائل الأكثر حدة، «الملعونة» (المصدر السابق، المجلد الرابع، ص ٥٧).

^{٦٦} قبيل لقائه بأنّا جريجوريفنا، كتب دستوفسكي في السابع عشر من يونيو ١٨٦٦م خطاباً إلى أ. ف. كورفين كروكوفسكايا يقول فيه: «إنني على يقين أنه ليس هناك من بين أدبائنا السابقين أو الأحياء من كتب في مثل هذه الظروف، التي أكتبُ فيها دائماً. لعل تورجينيف يشعر بالغيرة من أفكارى. ولكنك تعلمين كم هو صعب على المرء أن يُفسد الفكرة التي وُلدت بداخله، والتي تأخذه إلى الحماس. عندما

كنت أشعر بالأسف على الوضع المالي الصعب الذي يُعاني منه خطيبي، فرحتُ أطمئن نفسي بفكرة أنني في المستقبل القريب، بعد عام، سوف يُصبح بإمكانني مُساعدته بشكل جذري، وذلك بعد أن أتسلم يوم بلوغي سنَّ الرشد، البيت الذي تركه لي والدي حسب وصيَّته.

كان والداي يَمْتَلِكُان، منذ نهاية الأربعينيات، قطعتي أرض كبيرتين. (حوالي هكتارين)، يقعان في شارعِي ياروسلافسكايا وكوسترومسكايا، يُوجد في قطعةٍ منهما بيتان من الحجر، كل منهما من طابقين، نُقيم فيهما، وثلاثة بيوت خشبية مُلحقة بهما. وفي قطعة الأرض الأخرى بيتان من الخشب، أحدهما أُعطيَ لأختي ضمن جهاز زفافها، والآخر خُصَّص لي. يمكن بعد بيعه أن نحصل على ما يزيد على عشرة آلاف روبل، كنتُ أريد أن أُسدّد منها جزءاً من ديون فيودور ميخيلوفيتش، لكن للأسف الشديد، لم يكن بإمكانني أن أفعل ذلك قُبيل بلوغي سنَّ الرشد. حاولتُ أُمي إقناع فيودور ميخيلوفيتش أن يُصبح وصياً علي، ولكنه رفض ذلك الأمر بإصرار قائلاً: هذا البيت بيت أنا، لتأخذه في الخريف عندما تبلغ الحادي والعشرين من العمر. لا أريد أن أتدخل في شئوننا المالية.

كان خطيبي فيودور ميخيلوفيتش يرفض دائماً مساعداتي المالية، وكنتُ أقول له إننا ما دُمنا نُحب بعضنا البعض، فإنَّ كلَّ شيء ينبغي أن يكون مُشتركاً بيننا فكان يُجيب: بالطبع، هذا ما سيكون عندما نتزوج، أما الآن فأنا لا أريد أنا أخذ منك روبلاً واحداً.

أعتقد أن فيودور ميخيلوفيتش كان يدرك جيداً زيف مطالب أقاربه في بعض الأحيان، ولكنه، على الرغم من أنه لم يكن قادراً على رفض طلباتهم، لم يكن يوافق إطلاقاً على تلبية هذه المطالب من مالي الخاص. وحتى الألفا روبل اللذان خُصَّصهما والداي لتجهيزي رفض المساس بها وأقنعني بشراء كل ما أرغب في شرائه لبيت المستقبل. أتذكر بكل الحنين كيف راح فيودور ميخيلوفيتش ينظر إلى السكاكين والملاعق الفضية التي

تعرفين أنت نفسك أنها فكرة جيدة، ثم تُضطرين لإفسادها عن وعي (الخطابات، المجلد الأول، ص ٤٣٨). انظر أيضاً خطابات دستوفسكي بشأن رواية «الأبله» إلى صوفيا إيفانوفنا المؤرخة العاشر من أبريل والثلاثين من مارس عام ١٨٦٨م، وإلى أبوللون مايكوف المؤرخة السابع من نوفمبر والسادس والعشرين من أكتوبر ١٨٦٨م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١١١، ١٣٩، ١٤١).

اشتريتها لتؤي ثم راح يرصّها في علّيتها، ودائمًا ما كان يُثني على اختياري. كان يعلم أن مديحه يجعلني أتهلّل وأنتشي من السعادة.

كان يحب النظر إلى ثيابي الجديدة بصفة خاصة، وعندما كانوا يحضرونها من عند الخياطة كان يرغمني على قياسها وأن أستعرضها أمامه. وكان يُعجب ببعض الفساتين (على سبيل المثال ذات اللون الأحمر الداكن) إلى حدّ أنه كان يطلب منّي أن أظللّ بها طوال السهرة.

كان فيودور ميخايلوفيتش يصر أيضًا على أن أجرب ارتداء قبعاتي، وكان يرى أنها تُلائمني تمامًا. كان يحاول دائمًا أن يقول كلامًا طيبًا ودودًا وكان ذلك يبعث في نفسي السرور. كم كان قلبه المحب مفعّمًا بالحنان والإخلاص!

١٧

سرعان ما دارت الأيام واقتربت أعياد الميلاد. كان فيودور ميخايلوفيتش في الأعوام الأخيرة يقضي الأعياد دائمًا وسط أسرة أخته الحبيبة فارفارا ميخايلوفنا إيفانوفا، وفي هذا العام أيضًا قرّر السفر إلى موسكو. كان الهدف الرئيسي من السفر، بطبيعة الحال، نيّة أن يعرض على كاتكوف روايته الجديدة وأن يأخذ النقود اللازمة لزفافنا.

كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالحزن الشديد قبيل سفره، كان يحبني وكان فراقه عني أمرًا صعبًا. وأنا أيضًا كنت حزينة للغاية، ولا أعرف لماذا تصورت أنني لن أراه بعد ذلك. حاولت أن أبدو مُبتهجة وأن أخفي حزني، حتى لا أزيد من قلقه. كان حزينًا بوجه خاص في محطة القطارات عندما وصلت لتوديعه. نظر إلي بحنان بالغ وشدّ على يدي وهو يُصافحني وراح يكرر القول: سأسافر إلى موسكو ومعني آمال كبيرة، وسوف نلتقي ثانية على أي حال يا عزيزتي آنيتشكا، سنلتقي على أي حال!

وقد ازدادت حالته النفسية سوءًا بسبب التصرفات الصبانية السخيفة لبافل ألكسندروفيتش، الذي جاء إلى المحطة أيضًا بصحبة أبناء شقيق فيودور ميخايلوفيتش. صعدنا جميعًا إلى عربة القطار لنرى كيف سيجلس فيودور ميخايلوفيتش، وإذا ببافل ألكسندروفيتش يُعبّر عن «اهتمامه» نحو أبيه على غير انتظارٍ ليقول بأعلى صوته: بابا، لا تفكر في النوم في السرير العلوي، حتى لا تسقط على الأرض إذا ما هاجمك النوبة، فعندئذٍ لن نستطيع أن نلمّم عظامك!

لَكُمْ أَنْ تَتَخِيلُوا أثر هذه الكلمات على فيودور ميخايلوفيتش وعلينا، وعلى جميع الحضور. عندئذٍ طَلَبْتُ إحدى المسافرات، يبدو أنها شديدة العصبية، من أحد الحمَّالين، الذي كان يَمُرُّ داخل العربة، أَنْ ينقل أمتعتها إلى غرفة السيدات بدعوى أَنهم «على ما يبدو سوف يُدخِّنون هنا» (كانت العربة مُخصَّصة لغير المدخنين).

لقد كَدَّرَت هذه الحادثة من صفو فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يكره الحديث عن مرضه الفظيع وسط الناس. ونحن أيضًا، الذين ذهبنا لتوديعه كُنَّا في حالةٍ شديدةٍ من الحرج والاضطراب، عاجزين عن الحديث، وقد سُرَرْنَا عندما دقَّ الجرس الثاني مُؤَذِّنًا بضرورة مغادرة العربة. لم أتمالك نفسي من جرَّاء التصرُّف الصبباني لبافل ألكسندروفيتش وقد شعرتُ بالاستياء فقلت له: لماذا أغضبت فيودور ميخايلوفيتش المسكين؟ فأجاب: لا يُهمُّني إطلاقًا، إن كان قد غضب أم لا، إنني أهتمُّ بصحته، وعليه أَنْ يَشْكُرني لذلك!

على هذا النحو دائمًا كان «اهتمام» بافل ألكسندروفيتش، وبطبيعة الحال، لم يكن هذا الاهتمام إلا ليثير اضطراب زوج أمه.

من موسكو أرسل إليَّ فيودور ميخايلوفيتش خطابين أسعداني للغاية.^{٦٧} قرأتُهما عشرات المرات ورُحْتُ أُنْتَظِرُه على أحرَّ من الجمر.

قضى فيودور ميخايلوفيتش اثني عشر يومًا في موسكو نجح خلالها في إنهاء مُباحثاته مع هيئة تحرير «البشير الروسي». وعندما علِم كاتكوف بنية فيودور ميخايلوفيتش في الزواج، هناك بحرارة وتمنَّى له السعادة ووعدَه بارسال ألفي روبل التي طَلَبَهَا كدفعَةٍ مقدِّمًا على دفعَتَيْن أو ثلاثٍ خلال شهر يناير القادم. وهكذا جاءتنا الفرصة لإتمام زواجنا قُبيل الصوم الكبير.

سرعان ما تمَّ توزيع السبعمئة روبل التي أرسلت من موسكو على الأقارب والدائنين. كان فيودور ميخايلوفيتش يتحدث كل مساءً بأسى عن أَنْ النقود التي يحصل عليها «تذوب» على الفور. وقد بدأ هذا الأمر يُثير القلق في نفسي، وعندما تسلَّم السبعمئة روبل الثانية رجوتُه أَنْ يستبقني شيئًا منها لنفقات زواجنا.

^{٦٧} الخطابان مؤرَّخان التاسع والعشرين من ديسمبر ١٨٦٦م، والثاني من يناير ١٨٦٧م (انظر، الخطابات، المجلد الأول، ص ٤٥٠-٤٥٤).

أمسك فيودور ميخايلوفيتش في يده بقلم رصاص وراح يحسب مصروفات الكنيسة وإعداد الحفل الذي يلي الإكليل (وقد رفض رفضاً باتاً أن تتحمل أمي أي نفقات) كان الأمر يتطلب حوالي أربعمئة روبل أو خمسمئة. ولكن كيف لنا أن نحافظ على هذا المبلغ، في الوقت الذي تظهر فيه كل يوم طلبات جديدة لدى أقاربه الذين لا حصر لهم؟

آنيا، هلاً احتفظت به لديك، قال لي فيودور ميخايلوفيتش، وقد سرّه أن وجد هذا العذر المناسب أمام أقاربه، عندما يبدأون في طلب النقود، وفي اليوم الثاني أحضر لي خمسمئة روبل. قال لي بلهجة ساخرة منتصرة: حسناً، آنيا، حافظي عليها بقوة، فعليها يتوقف زواجنا!

كُنّا مُتَعَجِّلِينَ في عقد قراننا، ولكننا لم نستطع أن ننجح في ذلك قُبيل نصف فبراير. كان علينا أن نعثر على شقة جديدة، إذ إن العُرف الأربيع القديمة لم تُعد تكفيها. وقد تنازل فيودور ميخايلوفيتش عن شقته السابقة لإميليا فيدوروفنا وأسرته، والتزم أن يدفع عنها إيجارها البالغ خمسين روبلاً. كان من مميزات هذه الشقة أن صاحب البيت، التاجر الثري ألونكين، الذي كان يُقدّر فيودور ميخايلوفيتش تقديراً رقيقاً باعتباره «محباً عظيماً للعمل»، وهو ما كان يذكره عنه،^{٦٨} ولم يحدث إطلاقاً أن أزعجه بتذكيره بموعد سداد الإيجار، فقد كان يعرف أنه بمجرد توافر المال لدى فيودور ميخايلوفيتش فسوف يُحضره بنفسه. وكان فيودور ميخايلوفيتش يُحب الحديث مع هذا العجوز المحترم.^{٦٩}

وجد لنا فيودور ميخايلوفيتش شقة في شارع فوزنيسينسكي في بيت توليا (حالياً المنزل رقم ٢٧)، ويقع أمام كنيسة الصعود. كان المدخل داخل الفناء، وكانت النوافذ تطلّ على حارة فوزنيسينسكي. كانت الشقة تقع في الطابق الثاني وتتكوّن من خمس غرف: غرفة الاستقبال، وغرفة المكتب، وغرفَتين للطعام والنوم، وغرفة لبافل ألكسندروفيتش. كان علينا الانتظار حتى يتمّ تشطيب الشقة، ثم نقل أشياء فيودور ميخايلوفيتش إليها وكذلك جهازي وهلمّ جرّاً. عندما أصبح كلُّ شيء مُعدّاً، حدّدنا موعد الزفاف يوم الأربعاء قُبيل أحد الرماد، الخامس عشر من فبراير، وقُمنّا بتوزيع الدعوات على الأصدقاء والمعارف.

^{٦٨} يقول ألونكين: «عندما أذهب لصلاة الصبح، أجد غرفته مضاعة، وهذا يعني أنه يعمل» (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستوفسكيا).

^{٦٩} في رأيي أن فيودور ميخايلوفيتش قد صوّر التاجر سمسونوف، راعي جروشكا في «الإخوة كارامازوف» على هيئة التاجر ألونكين (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستوفسكيا).

عشية الزفاف ذهبت إلى فيودور ميخايلوفيتش ظهرًا لأراه ولأخبره أن أختي ماريا جيورجيفنا سفاتكوفسكايا ستحضر إليه في السابعة مساءً لكي تضع أشياءي في أماكنها، وهي موضوعة في صناديق وأدراج وكراتين، وتُنظم كل الأشياء المنزلية من أجل استقبال الضيوف غداً. قصّت عليّ أختي بعد ذلك كيف استقبلها فيودور ميخايلوفيتش بترحاب بالغ، كيف ساعدها في فتح الصناديق وترتيب الأشياء، وقام بواجب الضيافة وأدخل على قلبها السرور، وقد أخبرتني أنها تتفق معي في الرأي أن زوج المستقبل إنسان شديد الرقة واللفظ.

كنتُ قد عزمْتُ على قضاء المساء كله على انفرادٍ مع أُمِّي. كنتُ مشفقةً من كل قلبي على هذه الأم المسكينة، التي عاشت طوال حياتها مُحاطةً بالأسرة، والآن تُوفيّ أبي، وسافر أخي إلى موسكو وأنا أيضًا سوف أترك البيت، وكنتُ أدرك مدى الحزن الذي سينتابها من جراء بقائها وحيدة.

رُحنا طوال المساء نتذكّر كم كانت حياتنا معًا سعيدة. وطلبتُ منها وأنا معها الآن وحدي، أن تبارك حياتي الجديدة. فقد لاحظتُ من تجارب صديقاتي أنّ مباركة العرائس قُبيل الذهاب إلى الكنيسة، أمام الشهود وفي ضجيج حفل الزفاف تكون رسميةً إلى حدٍّ كبير أكثر منها قلبية. باركتني أُمِّي ورُحنا معًا في بكاءٍ طويل. على أننا تعاهدنا ألا نبكي غداً عندما تحين لحظة الفراق، إذ لا حاجة بي أن أذهب إلى الكنيسة بوجهٍ مُنتفخٍ من الدموع وعيونٍ احمرّت بسببه.

في الخامس عشر من فبراير استيقظتُ عند أول ضوءٍ وتوجّهتُ إلى كنيسة سمولني لألحق بأول صلاة، وبمجرد انتهائها مررتُ على رجل الدين، القمص الأب فيليب سبيرانسكي، الذي يعرفني منذ طفولتي، فباركني وتمنّى لي السعادة. بعدها ذهبتُ للصلاة عند قبر والدي في مقبرة بولشوي أُوختينسكي.

مرّ اليوم سريعًا، وعندما اقتربت الساعة من الخامسة كنتُ قد أتممتُ تصفيفَ شعري وارتديتُ ثوب الزفاف المصنوع من الحرير الأبيض وله ذيل طويل. كان الفستان وتصفيقة الشعر مُلائمين لوجهي، وكنتُ أشعر بالرّضا التامّ عنهما.

كان موعد الزفاف في السابعة، وكان على ابن شقيق فيودور ميخايلوفيتش — فيودور ميخايلوفيتش الصغير، الذي اختاره عريسي وكيلًا عنه — أن يمرّ عليّ في السادسة.

في السادسة تجمّع أقاربي، كان الجمع مُستعدّاً، لكنّ الوكيل لم يصل، كما لم يحضر أيضاً ابن ب. م. أولخين، الذي عليه أن يحمل أمامي الأيقونة. بدأتُ أشعر بالقلق بشدة، تصوّرتُ أن فيودور ميخايلوفيتش قد تعرّض لوعكةٍ صحية، وشعرتُ بالأسف أنّي لم أبعث بأحدٍ إليه نهاراً لأطمئنّ عليه.

وأخيراً، وفي السابعة وصل فيودور ميخايلوفيتش الصغير، دخل إلى الغرفة مُسرّعاً وتعلّجني بقوله: أنا جريجوريفنا، مستعدة، هيا بنا! أرجوك أسرع! عمّي في الكنيسة قلقٌ للغاية على حضورك. لقد استغرق حضورنا إليك ما يزيد عن ساعة، وسوف نحتاجُ لا أقل من ذلك في العودة. تصوّري كم من العذاب سيُعاني فيودور ميخايلوفيتش على مدى هاتين الساعتين. قلت له: لكنهم لم يُحضروا الصبيّ بعد.

— لنذهب بدونه، لنُسرع لطمأنة فيودور ميخايلوفيتش فحسب.
باركني الجمع، تعانقنا أنا وأمي، وضعوا على كتفي بالطو الفراء. وفي الدقيقة الأخيرة وصل الطفل الرائع كوستيا، مُرتدياً الملابس الروسية.

خرجنا، على السُلم تجمّع العديد من الناس. كلهم من سكان البيوت حولنا جاءوا ليودّعوني. بعضهم قبّلني، والبعض الآخر صافحني، وجميعهم تمنّى لي السعادة، ومن أعلى راح أحدهم ينثر عليّ حشيشة الدينار تيمناً «بحياة ثرية» لي. كنتُ متأثرةً للغاية من هذه المشاعر القلبية الفياضة. جلسنا في العربة وانطلقنا مُسرعين. وبعد عدة دقائق فقط لاحظنا أنا وأختي، أنّ الصبيّ كوستيا يجلس دون بالطو فرو ودون غطاء رأس. خفنا أن يُصاب الصبيّ بالبرد. فغطّيته بسُترتي الواسعة، وبعد فترةٍ قصيرة استغرق في نوم عميق.

عندما أصبَحنا على مقربةٍ من كنيسة إسماعيلوفسكي، لفّ وكيل العريس كوستيا النائم بمعطفه الثقيل وحمله صاعداً به السُلم المؤدي إلى الكنيسة. نزلتُ من العربة بمساعدة الخادم بعد أن غطيْتُ صورة الأيقونة بطرحة الزفاف ودخلتُ إلى الكنيسة. ما إن رآني فيودور ميخايلوفيتش حتى اقترب منّي مُسرّعاً وأمسك بيدي بقوة وقال لي: أخيراً، وجدتكُ بعد طول انتظار! من الآن فصاعداً لن أتركك تذهبين بعيداً عني!

أردتُ أن أُجيبه بأنني لم أكن لأتركه، ولكنني أحسستُ بالخوف عندما نظرتُ إلى وجهه وقد كساه الشحوب. لم يترك لي فرصة الحديث وأسرع يقودني إلى المنصة، حيث بدأتُ مراسم عقد القران.

كانت الكنيسة مضاءة على نحوٍ مُبهر، وراحت الجوقة الرائعة تترنَّم بأغانٍ صدّاحة، اجتمع عدد كبير من الضيوف في أبهى حلة، كل هذا عرفته بعد ذلك من الحكايات التي قصّوها علي؛ إذ كنتُ أسبح وقتها وحتى انقضاء النصف الأول من الطقوس في ضبابٍ ما، رسمتُ علامة الصليب بشكلٍ آلي، وكنتُ أجيب عن أسئلة القس وأنا أسمعها بالكاد، وبعد تناول القُرْبان فقط بدأت أعي ما حولي فَرَحْتُ أُصَلِّي بحرارة. بعد الإكليل وصلاة الشكر بدأت التهاني وأخذني زوجي لنوَّع في دفتِر ما.

وفي هذه المرة ألبس «الطفل حامل الأيقونة» جيّدًا وانطلقنا إلى شَقَّتِنَا الجديدة. لم يَنَمْ كوستيا طوال الطريق، ولكنّه حكى فيما بعدُ في غضبٍ أن «عَمِّي وعمّتي كانا يتبادلان القُبلات طوال الطريق».

عندما وصلنا كان الضيوف كلهم مُجتمعين. بارَكْنِي أُمِّي هي وأبي الروحي بفرحٍ عظيم. وهنا بدأت التهاني بكثوس الشمبانيا، وقد تعجَّب كل الذين حضروا الزفاف، وحتى الذين لا يعرفونني، عندما رأوا فتاةً شابةً متوردة الوجه مقلبةً على الحياة تفيض بالسعادة، بدلًا من تلك الفتاة الصارمة الشاحبة التي رأوها لتوَّهم في الكنيسة، وكذلك كان فيودور ميخايلوفيتش يتهلَّل فرحًا وقد راح يقدِّم لي أصدقاءه وعرفني بهم قائلاً: انظروا كم هي رائعة! إنها بالنسبة لي كائن بديع! إن لديها قلبًا من ذهب! وراح يكيّل لي ألوانًا من الشاء الذي أربكني بشدة، ثم قدم إليَّ السيدات، وكان في غاية الرضا عندما كنتُ أقول لكلّ منهن بضع كلماتٍ لطيفة، الأمر الذي أعجَبَ به.

رحتُ بدوري أقدم زوجي إلى أصدقائي وأقاربي وكنتُ سعيدة وأنا ألاحظ الانتباه الأخّاذ الذي تركه زوجي عليهم.

كان فيودور ميخايلوفيتش يُحب أن يُظهر كرم الضيافة، ولهذا كانت الشمبانيا والحلوى والفاكهة متوافرة بشكل كبير.

في الثانية عشرة فقط تفرَّق الضيوف وجلسنا معًا نتذكَّر كل تفاصيل هذا اليوم الرائع في حياتنا.

الجزء الثالث

الأيام الأولى في حياتنا الزوجية

١

عام ١٨٦٧م

بعد مرور أسبوعين على زواجنا أخبرنا أحد معارفنا أن مقالاً عن فيودور ميخايلوفيتش ظهر في صحيفة «صين أوتشيسستا» («ابن الوطن») العدد ٣٤، فبراير ١٨٦٧م بعنوان «زواج روائي». حصلنا على هذا العدد من الصحيفة وقرأنا ما جاء فيه على النحو التالي: «يقول مراسل صحيفة Nord البطرسبورجية: «يتردد الحديث بكثرة عن زواج جرى في عالمنا الأدبي على نحو غريب تماماً. واحد من أشهر روائيينا، شارل الفكر بعض الشيء، يتميز بعدم الدقة في الوفاء بالتزاماته المعقودة بينه وبين ناشري أعماله، تذكر في نهاية نوفمبر أن عليه أن ينتهي من كتابة رواية، تقع في مائتي صفحة، على الأقل، بحلول الأول من ديسمبر، وإلا تعرض، إذا خالف ذلك، لدفع غرامة كبيرة، فما الذي عليه أن يفعل؟ صحيح أنه عثر على الموضوع، واختمرت في رأسه المشاهد الرئيسية، ولكنه على الرغم من ذلك لم يخطّ سطرًا واحدًا فيها، وها قد تبقى على الموعد المُحتمَّ أسبوع واحد فقط، وبناء على نصيحة من أحد أصدقائه، دعا كاتبنا مختزلاً حتى يُسهّل عليه عمله، وراح يُملّي عليه روايته وهو يذرع غرفته جيئةً وذهاباً، وقد أخذ يُسوّي شعره الطويل دون توقّف، كما لو كان يأمل أن يلهمه هذا الشعر أفكاراً جديدة. نسيّت أن أخبركم أن المختزل الذي دعاه المؤلف للعمل معه كان فتاة شابة تشبّعت بالأفكار المعاصرة، على الرغم من كونها ليست عدمية، وكانت كذلك قادرة على أن تُوفّر لنفسها وضعا مستقلاً استناداً إلى عملها. وفي غمرة مُعاناته من أجل الحصول على أفكار جديدة، لم يلحظ السيد X (ونعني بهذا

الحرف اسم الروائي)، أن مُساعدته كانت فتاةً رائعة الجمال في ريعان الشباب. كان العمل في الأيام الأولى يسير على أفضل نحو، على أنه كلما اقتربت الرواية من نهايتها، ظهرت بعض الصعوبات. كان بطل الرواية أرمِل، تعدَّى مرحلة الشباب، يفتقر إلى الوسامة، وها هو يقع في حُب امرأةٍ شابة جميلة.

كان من الضروري إنهاء الرواية نهايةً طبيعيةً على نحوٍ ما، دون انتحارٍ أو مشاهد مبتذلة. الكاتب لم تُسغفه الأفكار، وراح شعره الطويل يُعاني من ذلك، زد على ذلك أنه قد تبقى يومان فقط على إنهاء الرواية. هنا اقتنع الروائي أن من الأفضل أن يدفع الغرامة وفجأة إذا بالمختزلة، التي كانت تؤدي عملها طوال الوقت في صمت، تُقرّر أن تنصح الروائي أن يجعل بطلته تصل إلى درجة الوعي بأنها تُشارك البطل مشاعره.

لكن المؤلف صاح: لكن هذا أمر غير طبيعي! تذكّري فقط أن البطل عجوز أعزب، يُشبّهني، بينما البطلة في قمة الجمال والشباب ... مثلك، على سبيل المثال.

اعترضت المختزلة على ذلك قائلة إن الرجل يأسر المرأة لا بمظهره، وإنما بعقله وموهبته وهلمَّ جرًّا. وفي النهاية قبل اقتراحها بشأن النهاية، وتم إنجاز الرواية في موعدها. وفي اليوم الأخير للعمل طلب السيد X، بصوت مضطرب، من المختزلة الرائعة السماح له بالحضور إلى بيتها ليُعبّر لها عن شكره. وقد وافقت.

قال السيد X: إذن سوف آتي إليكم غدًا؟

فأجابت: كلاً، لو أمكن، تعال بعد غد. جاء الروائي في الموعد المُحدّد وبعد أن احتسي الفنجان الثاني من القهوة جازف بالتعبير عن حُبه. وقد لقيَ تعبيره قبولاً واستحساناً. وهنا سأل السيد X، ولماذا لم ترغب في استقبالي أمس؟ لو حدث لكنتِ أسعدتني يومًا قبل ذلك.

أجابت المختزلة في خجل: لأنني كنتُ على موعد مع صديقة بالأمس، وهي تفوقني جمالاً فخشيتُ أن تُؤثّر في قرارك. شعر الروائي بفرحةٍ عارمة لهذا الاعتراف الساذج، الذي يؤكد أنها تُحبه بالفعل.

لاتظنوا، بالمناسبة، أن هذه الرواية انتهت على هذا النحو الذي يُسمّونه في روسيا بالزواج المدني. على العكس، فقد عُقد قران هذا الزوج خلال أيام في كنيسة الحي..»

ضحكنا أنا وزوجي بشدة على هذا المقال الصغير، وعبر فيودور ميخايلوفيتش عن فكرة مفادها أنه، بناء على تفاهة أسلوب الحكاية بأن الأمر لن يخرج عن كونه من تدبير

ميليوكوف، الذي كان على علم جيد بعادات زوجي^١ (الواقع كان فيودور ميخايلوفيتش يُحب أن يتجول في الغرفة وهو يُملئ روايته وعندما تتعقد الأمور يأخذ في شدّ شعره الطويل).

٢

سرعان ما مرت الأيام التي سبقت الصوم الكبير في مرح صاحب: قُمنَا «بزيارات الزفاف» سواء إلى أقاربي، أو إلى أقارب ومعارف فيودور ميخايلوفيتش. دعانا أقاربنا على الغداء والأمسيات، وفي كلِّ مكانٍ ذهبنا إليه قدم الجميع الشمبانيا تعبيرًا عن تهانيمهم للأزواج «الشبان». على هذا النحو كانت التقاليد في تلك الأيام. يُخيل لي أنني لم أحتس في حياتي بعد ذلك هذا القدر من كئوس الشمبانيا، مثلما احتسيتُ من كئوس في هذه الأيام العشرة. كان لهذه التهانى عواقب مُحزنة، فقد كانت سببًا لأول مُصيبة ثقيلة أواجهها في حياتي الزوجية. الأمر تحديدًا أن فيودور ميخايلوفيتش أُصيب بنوبتَيْن من نوبات الصرع، والمُهم أنهما لم تقعا أثناء نومه، كما كان يحدث دائمًا تقريبًا، وإنما وقَعتا نهارًا وهو مُستيقظ. وإليكم ما حدث.

في اليوم الأخير من أيام أعياد الصوم الكبير تناولنا طعام الغداء عند أقاربنا، وفي المساء توجَّهنا لقضاء السهرة عند أختي. تناولنا عشاءنا في جوٍّ يسوده المرح (صاحب العشاء بعض كئوس الشمبانيا أيضًا، كما حدث في الفترة الأخيرة)، ثم انصرف الضيوف

^١ انعقدت أواصر الصداقة بين دستوفسكي وميليوكوف، الكاتب والمُعلم منذ الأربعينيات؛ ولم تنقطع هذه الصلة بعد عودة دستوفسكي من المنفى (انظر خطابات دستوفسكي إلى ميليوكوف المؤرَّخة العاشر من نوفمبر ١٨٦٠م ويوليو ١٨٦٦م، الثالث عشر من نوفمبر ١٨٦٦م. الخطابات، المجلد الأول، ص ٢٩٩، ٤٥٦، ٤٤٢). على أن العلاقة بينهما كانت تخلو من المودة، وهو ما تدلُّ عليه كلمات دستوفسكي التي نقلتها أنا جريجوريفنا: «لم تسر أمورنا معًا بسبب وقاحة أسلوبه؛ فضلًا عن آراء دستوفسكي السلبية عنه، إِبَّان وجوده في الخارج، في الفترة من ١٨٦٧-١٨٧١م والتي انعكست في خطابه إلى إمليبا فيدوروفنا دستوفسكايا، ونيكولاي سترخوف وأنا جريجوريفنا دستوفسكايا. على أنه لا تُوجد معلومات دقيقة أن ميليوكوف تحديدًا هو صاحب المقال المنشور في صحيفة «صن أوتشيسستا» («ابن الوطن»). وفي عام ١٨٩٠م ظهر كتاب ألكسندروفيتش ميليوكوف «لقاءات ومعارف أدبية»، خُصَّص فيه فصلًا كاملاً لمعرفته وصداقته بفيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي.

وبقينا جالسين. كان فيودور ميخايلوفيتش مُمتلئاً حماساً وهو يقص على أختي أمراً ما شيقاً، وفجأة أرتج عليه القول، واعتراه الشحوب وقام من مقعده نصف قيام، ثم راح يميل باتجاهي. نظرتُ إلى وجهه في ذهولٍ وقد تغيّرت ملامحه. وفجأة دوّت صرخة مُربعة وكأنها غير صادرة عن بشر، هي على الأرجح عواء، وأخذ فيودور ميخايلوفيتش يميل إلى الأمام. وفي نفس الوقت صرختُ أختي عاليًا، وكانت تجلس إلى جوار زوجي. قفزت من مقعدها وفرت من الغرفة وقد انتابها بكاءٌ هستيري، واندفع وراءها صهري.

فيما بعدُ تسنّى لي عشرات المرات أن أستمع إلى هذا العواء «غير البشري» المعتاد لدى مرضى الصرع في بداية النوبة، ودائمًا ما كنتُ أرتجف من الخوف عند سماعه. غير أنني لم أشعر في هذه اللحظة آنذاك، ولدهشتي، بالخوف إطلاقًا، على الرغم من أنها كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها نوبة الصرع. أمسكت فيودور ميخايلوفيتش من كتفه وأجلسته بقوة على الأريكة، وكم شعرت بالرعب، عندما رأيت أن جسد زوجي الذي فقد القدرة على الإحساس، قد بدأ ينزلق من الأريكة، ولم تكن بي القدرة على إيقافه. سمحت لفيودور ميخايلوفيتش بالهبوط إلى الأرض، بعد أن أبعدت الكرسي وعليه مصباح مضيء، ورحت أميوط معه بدوري. وطوال الوقت كان التشنُّج يهزُّ رأسه فوق ركبتي. لم يأت أحد لمساعدتي: كانت أختي تُعاني من حالة هستيرية، بينما صهري والخادمة مُنشغلان بالقرب مني.

شيئًا فشيئًا أخذ التشنُّج في التوقّف وبدأ فيودور ميخايلوفيتش في استعادة وعيه؛ ولكنّه لم يكن يُدرك بادئ الأمر أين يُوجد، كما أنه فقد كذلك القدرة على النطق. كان يجِدُّ في أن يقول شيئًا ما، ولكنه كان ينطق بكلمة بدلًا من أخرى، وكان من المُستحيل أن نتبيّن ما يقول. ربما بعد نصف ساعة فقط نجحنا في إنهاء فيودور ميخايلوفيتش ووضعته على الأريكة. قرّرنا أن ندعّه يستريح قبل أن نعود إلى البيت. ولكن للأسف الشديد عاودته نوبة أخرى بعد ساعة، وكانت في هذه المرة من القوة بحيث إنه ظلَّ يصرخ من الألم ما يزيد على ساعتين بعد أن استردَّ وعيه. كان شيئًا فظيئًا! فيما بعدُ، كانت النوبات المزدوجة تُصيبه بشكلٍ نادر نسبيًا. وفي هذه المرة شرح لنا الأطباء سبب هذا التوتّر الشديد بأنه جاء نتيجة احتساء فيودور ميخايلوفيتش للشمبانيا أثناء زيارات الزفاف وولائم الغداء والأمسيات التي أقيمت لتكريم الزوجين «الشابّين». كانت الخمر تؤثر تأثيرًا بالغ السوء على فيودور ميخايلوفيتش ولهذا لم يكن يتناولها إطلاقًا.

اضطّررنا للمبيت عند أختي، إذ إن فيودور ميخايلوفيتش كان خائر القوى، كما أننا خشيًا من وقوع نوبة جديدة. ويا لها من ليلة فظيعة قضيناها آنذاك! لقد رأيتُ هنا وللمرة الأولى أيَّ مرضٍ مُروع يعاني منه فيودور ميخايلوفيتش. كنتُ مقتنعة تمامًا — وأنا أستمع إلى صياحه وأنيبه الذي لا ينقطع على مدى ساعات طويلة، وأرى وجهه وقد شوَّهه الألم بحيث يُصبح غير الوجه الذي أعرفه، وأعجز عن فهم كلامه غير المترابط — أن زوجي العزيز فيودور ميخايلوفيتش سوف يُصاب بالجنون، وكانت هذه الفكرة كفيفةً بأن تبثَّ الرعب في أوصالي!

ولكن، حمدًا لله، ها هو فيودور ميخايلوفيتش وقد تعافى بعد أن نام بضع ساعات، بحيث استطعنا أن نعود إلى منزلنا. على أنَّ حالةً من الغمِّ والاكتئاب كانت تنتابه بعد النوبة لتستمرَّ معه ما يزيد عن أسبوع. وكان فيودور ميخايلوفيتش يصف حالته بعد النوبة دائمًا بقوله: «كأنني فقدتُ أعزَّ إنسان لدي في هذا العالم، كما لو كنتُ قد واريته الثرى. على هذا النحو تكون حالتي.» ظلَّت هذه النوبة المزوجة ذكرى مؤلمةً إلى الأبد بالنسبة إلي. وعلى مدى هذا الأسبوع الحزين بدأ أيضًا سوء الفهم والمنغصات التي عكَّرت صفو الأسابيع الأولى من زواجنا ودفعتنني لأتذكَّر بكل الحزن والأسى «شهر العسل» الذي انقضى.

ولكي يكون الأمر أكثر وضوحًا سوف أصف نظام حياتي الجديدة: لم يكن باستطاعة فيودور ميخايلوفيتش، الذي اعتاد العمل والقراءة ليلاً، أن ينام مُبكراً، ومن ثمَّ كان يستيقظ في ساعة مُتأخرة. أما أنا فأكون مُستعدة للذهاب في التاسعة إلى ميدان سينايا^٢ بصحبة الطاهية لشراء ما يلزم البيت.

هناك حقيقة ينبغي ذكرها، فعندما تزوجتُ كنتُ ربة بيتٍ بالغة السوء، ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى أنني قضيتُ سبع سنوات في الثانوية ثمَّ في التعليم العالي، ثم في دروس الاختزال. من أين لي إذن أن أتعلَّم شئون البيت؟ ولكنني بمجرد أن أصبحتُ زوجة لفيودور ميخايلوفيتش، ولعلمي بأحواله المادية، عاهدته ونفسي على أن أتعلَّم الشئون

^٢ ميدان سينايا هو ميدان العلف، ورد ذكره كثيرًا في روايات دستوفسكي وخاصة رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

المنزلية، وأكدت لزوجي، وأنا أضحك، أنني سوف أُعِدُّ له بنفسي الفطائر التي يُحبها. بل إنني أقنعتَه باستئجار طاهية «باهظة» الأجر، بأسعار ذلك الزمان، تتقاضى اثني عشر روبلاً مقابل أن تُعلمني فن الطهي.

كنتُ أعود من السوق في الحادية عشرة تقريباً، ودائماً ما كنتُ أجد كاتيا دستوفسكايا، ابنة شقيق فيودور ميخايلوفيتش عندنا. كانت فتاةً رائعةً تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، ذات عَيْنَيْن سوداوين جميلتين وضميرَتَيْن شقراوَيْن طويلَتَيْن تنسدلان على ظهرها. كانت أمها إميليّا فيدوروفنا قد حدثتني عدة مراتٍ أن كاتيا تُحبني وأعربت عن رغبتها في أن يكون لي تأثير عليها.

واستجابةً لهذا الإطراء وافقتُ على دعوتها للحضور إلينا كلما أمكنها ذلك. ولما كانت كاتيا غير مرتبطة بأي نوعٍ من الدراسة وكانت تملُّ البقاء في البيت فقد كانت تأتي إلينا مباشرةً بعد انتهائها من نزهتها الصباحية: كان هذا مُناسباً لها؛ فقد كانت تعيش مع أسرتهَا على مسافة خمس دقائق. وفي الثانية عشرة يأتي إليّ بافل ألكسندروفيتش ميشا دستوفسكي، ابن شقيق فيودور ميخايلوفيتش، وهو شابٌ يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، كان يدرس آنذاك العزف على الكمان وكان يمرُّ علينا في طريق عودته من الكونسرفتوار إلى بيته. وبالطبع كنتُ أستبقيه ليتناول طعام الإفطار. وكذلك كان يمرُّ بنا فيودور ميخايلوفيتش الصغير، عازف البيانو الماهر. ثم يبدأ توافدُ أصدقاء ومعارف فيودور ميخايلوفيتش. كانوا يرون أن من الممكن أن يزوروه أكثر. وكثيراً ما كانت إميليّا فيدوروفنا تحضر للغداء ومعها أخو زوجي، نيكولاي ميخايلوفيتش وأخته ألكسندرا ميخايلوفنا جولينو فسكايا^٢ وزوجها الطبيب نيكولاي إيفانوفيتش. وبعد أن يتناول الجميع طعام الغداء يَبْقَوْنَ لدينا طوال المساء حتى العاشرة والحادية عشرة. على هذا النحو انتظم الأمر يوماً بعد الآخر. لا ينقطع سيل الغرباء والأقارب.

لقد نشأتُ أنا نفسي وترعرت في أسرة أبوية مضيافة، لكن الضيوف كانوا يأتون إلينا أيامَ الآحاد وفي الأعياد، لكنَّ حضور الضيوف بهذه «الكثافة» بحيث أصبح مُضطرة «للضيافة» و«التسلية» منذ الصباح وحتى المساء، فكان أمراً شاقاً، وخاصة

^٢ دستوفسكايا (جولينوفسكايا بعد الزواج الأول)، ألكسندرا ميخايلوفنا (١٨٣٥-١٨٩٨م): الأخت الصغرى لفيودور ميخايلوفيتش.

أَنَّ آل دستوفسكي الشباب وربيبه لم يكونوا يُقاربونني سناً،^٤ كما لم يكن لديهم آنذاك ما لديّ من طموحات. وعلى العكس من ذلك، كان أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش ومعارفه من الأدباء: مايكوف، أفيركييف،^٥ ستراخوف، ميليوكوف، دولجوموستيف^٦ وغيرهم كانوا أكثر إمتاعاً وتشويقاً بالنسبة إليّ. لم أكن على درايةٍ بعالم الأدب حتى الآن، وكنت متشوقة بشدة لولوج هذا العالم، كنتُ أودُّ أن أتحدث مع هؤلاء الأدباء، أن أجادلهم؛ ولعل الأهم بالنسبة لي كان في أن أظللُ أستمع وأستمع إليهم ... وللأسف لم أستطع الحصول على هذه المتعة إلا نادراً. وعندما كان فيودور ميخايلوفيتش ينظر فيرى الوجوه الملوثة لشبابنا، كان يهمس لي قائلاً: «يمامتي، أنيتشكا، لعلك ترين كم يشعر هؤلاء بالملل، خُذهم، اشغلهم بشيء ما»، وكنتُ أجد ذريعةً لكي أقودهم خارج الغرفة وأبدأ في تسليتهم على مضض. كان أكثر ما يثير اضطرابي أيضاً، هو أنه، بفضل الوجود المستمر للضيوف، لم أجد أملك الوقت للانشغال بالأعمال التي أحبها، وكان هذا الأمر يُمثل خسارةً فادحةً بالنسبة لي؛ كنتُ أتذكّر بأسى أنني على مدى شهرٍ بأكمله لم أتمكن من قراءة كتاب واحد، ولم أستذكر دروس الاختزال الذي كنت أرغب في إجادة كل تفاصيله الدقيقة.

لكن أكثر ما كان يُكدّرني هو أنني؛ وبسبب الضيوف الدائمين، لم أكن أجد وقتاً إطلاقاً لكي أنفرد بزوجي العزيز، فإذا ما سنحت الفرصة لي أثناء النهار لكي أقتطع دقيقةً للدخول عليه في غرفة المكتب والجلوس معه، إذا بشخصٍ ما يدخل عليه، أو يدعوني في شأن من شئون المنزل. كان علينا أن ننسى أحاديث المساء الغالية، إذ إننا

^٤ في اليوم الأخير من أيام أعياد الصوم الكبير تناولنا طعام الغداء عند أقاربنا، وهي معلومة غير دقيقة. فقد أشارت أنا جريجوريفنا نفسها إلى أن بافل ألكسندروفيتش إيسايف، ربيب دستوفسكي، كان يصغرها بعدة شهور فقط.

^٥ أفيركييف، ديمتري فاسيليفيتش (١٨٣٦-١٩٠٥م): كاتب مسرحي، قصّاص وناقد، عمل بمجلتي «الزمن» و«العصر»، أصدر عامي ١٨٨٥-١٨٨٦م «مذكرة الكاتب» ليواصل أفكار دستوفسكي.

^٦ دولجوموستيف، إيفان جريجوريفيتش (?-١٨٦٧م): مترجم وصحفي، عمل بمجلتي دستوفسكي «الزمن» و«العصر»؛ واحد من أكثر أنصار نزعة «العودة إلى الأرض» المتحمسين إلى حدّ التطرف، واستناداً إلى مذكرات ستراخوف، فقد أصابه مرض التسلُّط الفكري بسبب الجدال الحادّ المرهق الذي امتدّ لسنوات طويلة، والتفكير المضني في «العودة إلى الأرض» (انظر: السيرة الذاتية، ص ٢٠٥، ٢٠٦). عن ستراخوف انظر: الجزء الثاني عشر من هذا الكتاب (الفصل الثاني، الرد على ستراخوف) وكذلك [الجزء الثاني عشر، ما بعد موت فيودور ميخايلوفيتش، التعليق رقم ٣٨].

بحلول الليل، وبسبب أحداث اليوم بما فيها من ارتباك وزيارات عديدة وأحاديث شارك فيها فيودور ميخايلوفيتش، يكون التعب قد أصابنا أنا وهو، فأُخلد إلى النوم، بينما يلجأ هو إلى كتاب شيق يجد راحته بين دفتيه.

٣

أعداء في البيت

كان من الممكن أن أتصالح، بمرور الوقت، مع نظام حياتنا، لو أنني نجحت في الحصول على بعض الحرية وبعض الوقت لممارسة هواياتي المفضلة، لو لم تتكاثف المنغصات من جانب أقارب فيودور ميخايلوفيتش. كانت زوجة أخيه، إميلييا فيدوروفنا دستوفسكايا امرأة طيبة، لكنها ضيقة الأفق. عندما رأت أن فيودور ميخايلوفيتش يشملها برعايته بعد وفاة زوجها، اعتبرت أن هذه الرعاية هي التزام عليه أن يؤدبه نحوها، وقد بهتت بشدة بعدما عرفت أن فيودور ميخايلوفيتش يرغب في الزواج. من هنا كان أسلوبها العدائي تجاهي عندما أصبحت خطيبته. لكن إميلييا فيدوروفنا استسلمت للواقع بعد زواجنا وأصبحت مُعاملتها لي لطيفة، وخاصة عندما لاحظت أنني أولي أطفالها اهتمامًا كبيرًا. كانت تأتي لزيارتنا كل يوم. وكانت تعتبر نفسها ربة بيت متميزة، ومن ثم راحت تكيل لي النصائح في الشئون المنزلية. كان يمكن أن يحدث ذلك بنية حسنة وبدافع الرغبة في إفادتي، على أن توجيهاتها دائمًا كانت في حضور زوجي، وهو أمر لم يكن يسرني بالمرّة؛ إذ كان يجعلني أبدو أمام زوجي مُبذرة لا تُحسن إدارة البيت. لكن الأمر الأكثر إزعاجًا بالنسبة لي، فضلًا عن كل ذلك، أنها راحت تضعني في كل موقفٍ في مقارنة مع زوجة فيودور ميخايلوفيتش الأولى، وهو ما كان يفتقد تمامًا إلى اللياقة من جانبها.

على أنه إذا كانت التوجيهات المستمرة، وبعض الشيء من أسلوب فرض الوصاية، أشياءً سخيفة من جانب إميلييا فيدوروفنا، فقد كانت الوقاحة والفظاظة اللتان تجرأ بافل ألكسندروفيتش أن يُعاملني بهما أمورًا لا تُحتمل.

كنت أعلم، بطبيعة الحال، عندما تزوجتُ، أن ربيب فيودور ميخايلوفيتش سوف يعيش معنا. فبالإضافة إلى أن موارده المالية لم تكن تسمح بتوفير مسكن مستقلٍّ له، كان فيودور ميخايلوفيتش يود أن يجعله تحت رعايته، إلى أن تتشكّل شخصيته. ونتيجة لصغر سني، لم أتصور أن يكون وجود شخص غريب تمامًا بالنسبة لي في حياتي العائلية

الجديدة مُزعجاً إلى هذا الحد. فضلاً عن أنني كنتُ أظنُّ أن فيودور ميخايلوفيتش يُحبُّ ربيبهُ وأنه اعتاد على وجوده معه وأنه سيكون من الصعب عليه أن يفترق عنه؛ ولهذا لم أشأ أن أُصرَّ على أن يكون لي مسكن مُستقل. بل بدا لي، على العكس من ذلك، أن وجود شخص يُقاربني في السن^٧ سوف يبعث بالحيوية في البيت، وأنه سوف يُعرِّفني بعادات فيودور ميخايلوفيتش (وكنْتُ على علم بالكثير منها)، وهكذا سوف لا أُضطرُّ أن أُخلَّ بحياته المعتادة إلا قليلاً.

لن أتحدث هنا عن أن بافل ألكسندروفيتش إيسايف كان غيباً أو شريراً. فمُصيبتُهُ الكبرى تتلخَّص في أنه لم يستطع أن يدرك مطلقاً مكانته. فبعد أن اعتاد منذ طفولته أن يُعامله كلُّ أقارب وأصدقاء فيودور ميخايلوفيتش بطيبة ولطف، إذا به يرى ذلك باعتباره أمراً لازماً، ولم يفهم مطلقاً أن هذه المعاملة الودية تجاهه ليست من أجل سواد عينيه بقدر ما هي مجاملة لفيودور ميخايلوفيتش. وبدلاً من أن يُقدَّر ذلك ويكون جديراً بحُبِّ من يُطهرون عطفهم تجاهه راح يتصرَّف على نحوٍ آخرق، ويتعامل مع الجميع بإهمال وصلافة، الأمر الذي لم ينتج عنه سوى أنه أغضب هؤلاء الناس وأثار حفيظتهم.^٨ وقد

^٧ كان بافل ألكسندروفيتش يصغرني ببضعة أشهر (ملاحظة لآنا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٨ سأورد هنا حدثاً مميزاً لبافل ألكسندروفيتش؛ فعندما عدنا من خارج البلاد، راح يطلب من فيودور ميخايلوفيتش أن يُوظِّفه في فولجسكو-كامنسكي. وقد طلب فيودور ميخايلوفيتش ذلك من يفجيني إيفانوفيتش لامانسكي، وقد تسلَّم بافل ألكسندروفيتش وظيفةً في بطرسبورج أولاً، ثم موسكو بعد ذلك. وهنا راح يُشيع بين الكثيرين في البنك أن «والده» دستوفسكي صديق لامانسكي وأنه عمومًا لديه علاقات كبيرة. وذات يوم كان لامانسكي في زيارة لموسكو فقرَّر المرور على فولجسكو كامنسكي بنك، وباعتباره مديرًا لبنك الدولة. كان للامانسكي نفوذ مالي كبير، ولذلك قُوِّلَ بترحابٍ شديد في البنك. وعندما علم ألكسندروفيتش بمجيئه ذهب لمقابلته في الصالة، حيث تجمع المديرون. اقترب من لامانسكي ومدَّ إليه يده قائلاً: «مرحباً يفجيني إيفانوفيتش. كيف حالك؟ يُخَيِّلُ لي أنك لم تعرفني؟ أنا ابن دستوفسكي. لقد قابلتني عند بابا.» أجاب لامانسكي «عفوًا، لم أعرفك، لقد تغيَّرت كثيراً.» فضحك بافل ألكسندروفيتش قائلاً: «الأمر يرجع إلى الشيخوخة، أما أنت يا والدي فقد تغيَّرت بشكلٍ لا بأس به!» وعندئذٍ بشكلٍ بالغ اللطف ربَّتْ على كَيْفِ لامانسكي. تعوج لامانسكي، ولكنه، باعتباره رجلاً مهذباً، سأله عن صحة فيودور ميخايلوفيتش، فأجاب بافل ألكسندروفيتش «لا بأس، إن العجوز يعيش بالكاد.» هنا لم يتمالك لامانسكي نفسه واستدار مُغادراً المكان. يمكن أن تتخيل كيف ترك التصرُّف الوقح من جانب بافل ألكسندروفيتش أثره على رأي رؤسائه.

تحمل أبوللون نيكولايفيتش مايكوف الكثير من الأذى من جانب بافل ألكسندروفيتش، بعد أن حاول أن يوجّه أفكاره وتصرفاته نحو الاتجاه الصحيح، ولكن للأسف، دون جدوى.

وبنفس القدر من الإهمال والتعالي كان بافل ألكسندروفيتش يتعامل مع زوج أمه، على الرغم من أنه كان يُناديه دائماً «بالأب» ويُسمّي نفسه «ابن» دستوفسكي. ولكن بافل لم يكن باستطاعته أن يكون ابناً لفيودور ميخايلوفيتش؛ إذ إنه وُلد عام ١٨٤٥ م.^٩ في أسترخان، بينما لم يُغادر فيودور ميخايلوفيتش بطرسبورج حتى عام ١٨٤٩ م.^{١٠} منذ أن بلغ بافل ألكسندروفيتش من العمر اثني عشر عاماً وهو يعيش في كنف فيودور ميخايلوفيتش، وقد ظلّ مقتنعاً أشد الاقتناع أن «والده» ينبغي أن يعيش من أجله فقط، وأن يعمل ويحصل على النقود لصالحه هو، بينما لم يُساعد إطلاً في أمر من الأمور، وإنما على العكس من ذلك، راح يُعذّبه بأفعاله الطائشة وتصرفاته الحمقاء، بل كان يدفعه، كما ذكر المقرّبون، إلى نوبة الصرع؛ فضلاً عن ذلك فقد كان بافل ألكسندروفيتش يرى أن فيودور ميخايلوفيتش إن هو إلا «عجوز عفا عليه الزمن». وبدأت له رغبته في السعادة الشخصية «سخافة»، وهو ما فتى يردّده صراحة على مسامع أقاربه. لقد تكوّنت لدى بافل ألكسندروفيتش رؤية عنّي باعتباري المرأة المُغتصبة التي دخلت عنوةً إلى أسرهم، بعد أن كان هو صاحب الأمر والنهي، حيث إن فيودور ميخايلوفيتش بات مشغولاً بعمله الأدبي، ومن ثمّ فهو لا يستطيع، بطبيعة الحال، أن يدير شئون البيت. يمكن إذن فهم كراهيته لي انطلاقاً من هذه النظرة. ولمّا لم ينجح في إفشال زواجنا فقد قرّر أن يجعله بالنسبة إليّ أمراً لا يُطاق. وربما كان يُعوّل، عن طريق الأذى الدائم والمشاجرات ووشايته بي عند فيودور ميخايلوفيتش، أن يجعلنا نتشاجر ليدفعنا للطلاق. لم تكن أعماله الدنيئة كبيرةً في حدّ ذاتها، ولكنها كانت كثيرةً للغاية. ولمّا كنت أعلم أنه كان يقصد بها دفعي للغضب وإهانتي فإنني لم أكن أستطيع، بطبيعة الحال، أن أتجاوز عنها وكنتُ أشعر بالغیظ والحنق. على سبيل المثال، اعتاد بافل ألكسندروفيتش أن يُرسل بالخادمة كلّ صباحٍ إلى مكانٍ ما، تارة لشراء السجائر، وتارةً أخرى لتسليم

^٩ ولد بافل ألكسندروفيتش إيسايف عام ١٨٤٦ م.

^{١٠} في يوليو ١٨٤٢ م وفي صيف ١٨٤٦ م سافر دستوفسكي إلى ريفيل ليلتقي بأخيه ميخائيل ميخايلوفيتش دستوفسكي.

خطابٍ إلى صديق له وانتظار الرد منه، وثالثة إلى الخياط وهلم جراً. ولسببٍ ما، كان يحدث أن يُرسل بها إلى مكانٍ بعيد تماماً عن شقتنا، حتى إن فيدوسيا المسكينة^{١١} كانت، على الرغم من نشاطها، تتأخر في إيقاظ فيودور ميخايلوفيتش وفي القيام بترتيب غرفته. كان فيودور ميخايلوفيتش عاشقاً للنظافة والنظام، فكان يغضب بشدة إذا ما وجد غرفته على حالةٍ من الفوضى. لم يكن أمامي عندئذٍ سوى أن أُمسك بالمكنسة وأقوم بنفسي بتنظيفها. ذات يوم وجدني فيودور ميخايلوفيتش وأنا في هذا الوضع فوبّخني قائلاً: إن هذا ليس شأنِي وإنما هو عمل ينبغي أن تقوم به فيدوسيا. وعندما رفضت فيدوسيا أن تذهب إلى أي مكانٍ بعيد في شأنٍ من شئون بافل ألكسندروفيتش، قائلة له إن عليها أن تُنظف الغرف وإلا «عاتبني السيدة»، قال لها دون حياء وهو يعلم أنني أجلس في الغرفة المجاورة: فيدوسيا! من السيد هنا: أنا أم أنا جريجوريفنا؟ أفهمين؟ حسناً، اذهبي إلى حيث يُرسلونك!

كان لدى بافل ألكسندروفيتش ألعاب شيطانية صغيرة لا تنفذ، فتارة يشرب اللبن عن آخره قبل خروج فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة الطعام، فنُضطر لشراء غيره على عجلٍ من المحل، وبالطبع لا يكون جيداً، بينما يجلس فيودور ميخايلوفيتش في انتظار قهوته، وتارة قُبيل الغداء مباشرة يأكل ثمار العليق، وبدلاً من أن يترك ثلاث ثمرات، يترك

^{١١} كانت فيدوسيا امرأة يسهل ترويعها. كانت أرملةً لكاتبٍ بسيطٍ في إحدى الدوائر، كان يشرب الخمر حتى الهذيان، ثم يروح يضربها دون رحمة. وبعد موته عاشت وحيدةً مع ثلاثة أطفال في فقر مُدقع. وقد قصَّ أحد الأقارب حكايتها على فيودور ميخايلوفيتش الذي أخذها لتعمل لديه ومعها أطفالها الثلاثة، كان الابن الأكبر يبلغ من العمر أحد عشر عاماً، والابنة سبع سنوات، والأصغر خمس سنوات. كانت فيدوسيا تحكي لي وقد امتلأت عينها بالدموع، وكنت ما أزال مخطوبة، عن طيبة فيودور ميخايلوفيتش. كان إذا سمع، على حدِّ قولها، أحداً من أطفالها يبكي أو يسعل، أثناء عمله في الليل، فإنه يأتي ليُعطي الطفل بالملاء ويهدده، فإذا لم يستجب، فإنه يذهب إليها ليوقظها. وقد رأيتُ هذا الاهتمام عندما تزوّجنا. وعندما رأت فيدوسيا فيودور ميخايلوفيتش وقد سقط عدة مرات فريسةً لنوبة الصرع، فقد انتابها الخوف من الصرع بل ومن فيودور ميخايلوفيتش نفسه. واقع الأمر أنها كانت تخاف من الجميع بمن فيهم بافل ألكسندروفيتش، الذي كان يصرخ فيها، بل إنها كانت تخاف حتى منِّي، أنا التي لم يكن أحد يخشاها على الإطلاق. كانت فيدوسيا تضع شالاً من الصوف الخفيف عندما تخرج إلى الشارع، وهو نفس الشال الذي ورد ذكره في رواية «الجريمة والعقاب» باعتباره الشال الذي يرتديه آل مارميلادوف (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

ثمرتين وهما لا تكفيان. ومرة أخرى يختفي الثقاب من كافة أنحاء البيت، على الرغم من أنه كانت هناك بالأمس عدة غُلب منه. كانت كل هذه الصغائر كفيلاً بأن تُثير غضب فيودور ميخايلوفيتش فيروح يصرخ في فيدوسيا، أما بافل ألكسندروفيتش الذي تسبَّب في كل هذه الفوضى، فيهزُّ كتفيه ويقول: «حسنًا، بابا، عندما كنتُ أنا الذي يُدير شئون البيت، لم تكن هناك هذه الفوضى!»

وهكذا يبدو الأمر وكأنني أنا المسئولة عن تلك الفوضى، أو، بتعبير أكثر دقة، أن المسؤولية تقع على عدم صلاحيتي لإدارة البيت.

كان لبافل ألكسندروفيتش تكتيكه، ففي وجود فيودور ميخايلوفيتش كان يتصرَّف على نحوٍ شديد المجاملة ناحيتي، يُناولني الأطباق، يُهرع لنداء الخادمة، يلتقط مفرش المائدة إذا سقط مني، وهلمَّ جراً. وحتى إن فيودور ميخايلوفيتش قد لاحظ أكثر من مرة أو مرتين، أن وجود عنصر نسائي، وخاصة في وجودي (مع آل دستوفسكي: كاتيا وإميليا فيودوروفنا كان يُعاملني معاملة الند للند) يؤثر إيجاباً على بافل ألكسندروفيتش، ويأخذ أسلوبه في الاعتدال شيئاً فشيئاً. ولكن ما إن يخرج فيودور ميخايلوفيتش حتى تتغيَّر معاملة بافل ألكسندروفيتش تجاهي، فتارةً يبدأ في عمل ملاحظات وقحة بشأن إدارتي للبيت، ويأخذ في التأكيد أن الأمر كان أفضل في السابق، وتارةً يقول إنني أنفق كثيراً من النقود، وكأن النقود «مشتركة» بيننا، وتارةً يُصور نفسه على أنه ضحية الاستبداد العائلي. كان يبدأ حديثه بالوضع الصعب «لليتم» الذي كان يعيش سعيداً في الأسرة وكانوا يُعتبرونه الشخصية الرئيسية، فإذا بشخص غريب (يَعْنيني أنا الزوجة) يدخل إلى البيت، ويُخطِّط للحصول على التأثير واحتلال المكانة الأولى في الأسرة. لقد بدأت ربّة البيت الجديدة تتعقَّب «الابن»، وتُسبِّب له المشاكل، وتُضيِّق عليه حياته، حتى إنه لا يتمكن من تناول غدائه بهدوء؛ إذ إنه يعلم أن وراء كل لقمة يأكلها تُتابعه نظرة ربّة البيت الشكاكة الساخطة، وأنه يتذكَّر الأعوام السعيدة الماضية ويأمل أن تعود، وأنه لن يتخلَّى عن تأثيره على «والده» وهلمَّ جراً. لم يستطع آل دستوفسكي الشباب الدفاع عني، أمَّا الكبار منهم فقد علَّت ضحكاتهم، واقتصر دفاعهم عني على هذا الضحك.

وحَتَّى لا يتخلَّى عن تأثيره على «والده» ضدي، كان بافل ألكسندروفيتش يدخل كل صباح تقريباً إلى غرفة مكتب فيودور ميخايلوفيتش عندما يشرع في قراءة صحيفة. كان يحدث أحياناً أن يسمع على الفور صياح فيودور ميخايلوفيتش، فيخرج بافل ألكسندروفيتش من الغرفة، مُرتبكا قليلاً قائلاً إن «الوالد» مشغول وإنه لا يريد أن

يُضايقه أحد. وفي أحيان أخرى كان يجلس لديه طويلاً، ثم يعود بوجه منتصر؛ وعندئذٍ يبدأ على الفور في إلقاء أوامر ما على فيدوسيا التي ملأها الرعب. وبعد هذه المناقشات كان فيودور ميخايلوفيتش يقول لي: «كفاك شجاراً مع باشا، لا تُغضبيه، إنه شاب طيب!» وعندما سألته كيف أغضبت «باشا»؟ ومم كان يشكو؟ أجاب فيودور ميخايلوفيتش قائلاً: «إنها تلك التفاهات التي إذا استمع المرء لها أحس بالخجل»، وإنه يرجوني أن أتسامح مع «باشا».

أحياناً ما كان البعض يسألني: هل صحيح أنني أستمتع كل يوم إلى سفالات ووقاحات بافل ألكسندروفيتش، وأرى معاملته الفظة تجاهي، وأعلم أنه يكيل لي الافتراءات والوشايات عند فيودور ميخايلوفيتش، ومع ذلك فإنني ألتزم الصمت تماماً، ولا أستطيع أن أوقفه عند حدّه؟ نعم، كنتُ أصمت ولا أستطيع فعل شيء! يجب ألا ننسى أنني كنتُ قد تخطّيت آنذاك أعوامي العشرين بقليل. ولكنني كنتُ طفلة تماماً، قياساً بخبرتي بالحياة. كنتُ قد قضيتُ سنواتي القليلة من العمر في أسرةٍ طيبة متحابّة، لم تكن تُعاني من أية مشكلات، وليس بين أفرادها أي صراعٍ من أي نوع. ولهذا كانت تصرفات بافل ألكسندروفيتش المنحرفة تُصيبني بالدهشة، كانت تُغضبني وتُحزنني، ولكنني، في البداية، لم أكن أستطيع أن أفعل أي شيءٍ لتلافئها، وكنتُ أظنُّ أنه سوف يملُّ من مُضايقتي، وأنه سوف يدرك سوء معاملته لي، وإذا لم يفهم بنفسه فسوف يُنبّهه إلى ذلك أقارب فيودور ميخايلوفيتش.

وهكذا مرت الأسابيع الأولى من زواجنا في هذه الظروف السيئة التي تمثلت في وقاحة بافل ألكسندروفيتش وسفاليته، وفي تعليمات إميليّا فيدوروفنا، والوجود الدائم المُمل لأناسٍ يفتقرون إلى الكياسة، كانوا يحُولون بيني وبين زوجي؛ بالإضافة إلى القلق الدائم بسبب أحوالنا المضطربة، ناهيك عن هذا الشعور بالاغتراب، كما بدا لي، بيني وبين فيودور ميخايلوفيتش، بسبب ظروف حياتنا. كل ذلك كان يرهقني ويُعذبني بشدة، وكنتُ أسأل نفسي: متى ينتهي كل ذلك؟ عندما أتذكّر طبيعتي آنذاك، أرى أن الأمر كان من الممكن أن ينتهي بكارثة. الحقيقة أنني كنتُ أحب فيودور ميخايلوفيتش حباً لا حدود له، ولكنه لم يكن حباً جسدياً، لم يكن شهوة، مثل تلك التي يمكن أن تُوجد لدى هؤلاء الناس الذين هم في مثل سنّي. كان حُبّي عقلياً خالصاً، مثاليّاً، كان على الأصح عبادة، انحناءً أمام إنسان موهوب إلى أبعد حد، إنسان يمتلك هذه الخصال النفسية الرفيعة، كانت روحي تتملّكها الشفقة نحو هذا الرجل الذي عانى الكثير ولم يعرف السعادة والسرور قط،

الرجل الذي أهملته أقرباؤه، الذين كانوا مُلزمين أن يؤلوه حُبهم ورعايتهم لقاء ما قدّمه لهم طوال حياته. لقد استولى على خيالي حُلم أن أكون رفيقة حياته، أن أشاركه أعماله، أن أخفف من وطأة الحياة عليه وأن أهبه السعادة. لقد أصبح فيودور ميخايلوفيتش هو إلهي ومعبودي، وقد كنتُ على استعداد أن أجتو على رُكبتَي أمامه طوال العمر. لكن كل ذلك لم يكن سوى مشاعر سامية وأحلام كان من الممكن أن يُحطمها الواقع القاسي الذي حلّ بنا. لقد حلّ بي شيئاً فشيئاً زمن الشك وسوء الفهم بفضل تلك الظروف التي أحاطت بي. لقد أحببته حقاً بحرارة، على أن كبريائي لم تكن لتسمح أن أبقى معه لو تأكد لي أنه لم يعد يُحبني، بل لقد تصورتُ أيضاً أن عليّ أن أضحي من أجله، أن أتركه ما دامت حياتنا معاً، كما يبدو، صعبة عليه.»

تارة كنتُ أعرب بحزنٍ مفعم بالإخلاص عن سخطي على فيودور ميخايلوفيتش، فلماذا، وهو «الخبير العظيم بالقلوب» لا يرى مدى العذاب الذي أعانيه؟ ولماذا لا يُحاول أن يُخفف من هذا العذاب، بدلاً من أن يفرض عليّ أقاربه المُملين ويُدافع عن بافل ألكسندروفيتش الذي يتعامل معي بكراهية سافرة؟

وتارة كنتُ أشعر بالحزن على هذه الأمسيات الرائعة الفاتنة التي قضيناها معاً قُبيل زواجنا، ولأن هذه الحياة السعيدة التي حلمنا بها لم تتحقق، ويبدو أنها لن تتحقق.

أحياناً كنتُ أشعر بالندم على أيامي الخوالي المليئة بالسكينة في بيت أُسرتي، عندما لم يكن هناك أَسَى يُعكر صفو حياتي، ولم يتسنَّ لي أن أعرف الحزن أو القلق. خلاصة القول، آنذاك لم يكن يَهزُّني سوى العديد من مشاعر الخوف الطفولي والأحزان الساذجة والشكوك التي لا تفسر لها، والتي كانت تُراود عقلي البكر. لم تكن لديّ آراء صحيحة عن الحياة، ولم تكن شخصيتي قد استقامت بعد، وكان هذا يُنذر بوقوع كارثة. كان من الممكن ألا أتحمل تلك السخافات المنزلية، أن أغضب وأن أثور على فيودور ميخايلوفيتش مُستندةً إلى حجج وشكوكٍ واهية، وأن أثّر غضبه. كان من الممكن أن يقع بيننا نزاعٌ حقيقيٌّ أتركه بعده حفاظاً على كرامتي. جدير بالذكر أنني كنتُ أنتمي لجيل الستينيات، وكنتُ مثلي مثل جميع النساء آنذاك أضع الاستقلال فوق كل شيء. ولم أكن لأقْدِر على الأرجح على اتخاذ خطوةٍ للتصالح، على الرغم من كل حُبِّي لفيودور ميخايلوفيتش. كنتُ ما أزال معجبةً بنفسي على نحوٍ طفولي، ولم أكن أُحبُّ أن أتحملَ سخرية بافل ألكسندروفيتش على خطأ ارتكبته. ولعل فيودور ميخايلوفيتش لم يكن يُحب أن يتخذ

الخطوة الأولى في مُصالحتي، لكنه كان يُحبني آنذاك بنفس القوة التي ظلَّ يُحبني بها بعد ذلك. لعلَّ كبرياءه الجريئة وعزة نفسه؛ فضلًا عن افتراءات بافل ألكسندروفيتش كان من المُمكن أن يَمنعاه عن المصالحة. كان من الممكن، بطبيعة الحال، أن يتصاعد سوء الفهم بيننا، وأن يُصبح الصلح أمرًا مُستحيلًا. وعندما أعود بذاكرتي إلى هذه الحقبة من الزمن، أفكر والخوف يُخيم على قلبي؛ ترى ما الذي كان يمكن أن يحدث آنذاك، ففيدور ميخايلوفيتش لم يكن باستطاعته أن يُطلقني، فالطلاق في هذا الزمن كان من شأنه أن يُكلِّفه أموالًا باهظة. ولو حدث لما استطاع أن يَبيِّن مُستقبله، ولا أن تكون لديه أسرة وأطفال كما كان يحلم طوال حياته، ولأصبحت حياتي أنا أيضًا تعيسة. كل آمالي في السعادة كانت معقودة على الاتحاد بفيدور ميخايلوفيتش، وكم من المرات كنت سأُجرعها لو أنَّ هذا الحلم الذهبي لم يتحقق؟!

٤

الخلاص

لم يشأَ القدر أن يَحرمني أنا وفيدور ميخايلوفيتش هذه السعادة الكبيرة على مدى الأربعة عشر عامًا التالية. ما زلتُ أذكر هذا اليوم، الثلاثاء، من الأسبوع الخامس من أيام الصوم الكبير، عندما وقع هذا التحوُّل الكبير بالنسبة لي على غير انتظارٍ ليأخذ حياتي في اتجاهٍ آخرٍ مبشِّرٍ بالخير. بدأ هذا اليوم بالمنغصات المعتادة، فقد تم اكتشاف خللٍ ما في أسلوب إدارتي للبيت، جرى الترتيب لحدوثة بخبثٍ بالغٍ على يد بافل ألكسندروفيتش (اختفت الأقلام الرصاص وعلب الثقاب تمامًا من كافة أنحاء البيت) فأثار ذلك غضب فيودور ميخايلوفيتش الذي راح يصرخ في فيدوسيا المسكينة. وفي اليوم نفسه حضر إلينا الضيوف الثقلاء وكان لزامًا عليَّ أن «أُضيفهم» و«أُسلِّيهم»؛ وكالمعتاد وجَّه إليَّ بافل ألكسندروفيتش بعضًا من صغائره، بينما كان فيودور ميخايلوفيتش غارقًا في التفكير مكتئبًا ولم يُبادلني الحديث إطلاقًا مما أحزَّنني بشدة.

وفي مساء ذات اليوم دعانا مايكوف لقضاء السهرة في بيته. ولما عرف الضيوف بذلك سارعوا بمغادرة البيت بعد الغداء مباشرة. على أنني وبسبب ما لحق بي من أذى، ظللتُ طوال اليوم أعاني من صداعٍ شديد، وكانت أعصابي متوترة إلى حدٍّ أنني خشيتُ أن أنفجر في البكاء إذا ما تطرَّق الحديث في بيت مايكوف إلى حياتنا العائلية، ومن ثم فقد قررتُ أن

أبقى في البيت. حاول فيودور ميخايلوفيتش إقناعي بالذهاب، ويبدو أنه لم يكن راضياً بسبب رفضي. وما إن غادر فيودور ميخايلوفيتش البيت حتى انشقت الأرض عن بافل ألكسندروفيتش الذي راح يلقي باللوم عليّ معتبراً أنني أثير اضطراب «والده» بأفعالي الطائشة، وأنه لا يُصدق أنني أعاني من الصداق، وإنما فعلت ذلك بهدف إثارة غضب فيودور ميخايلوفيتش، وقال إن «والده» قد ارتكب «حماقة هائلة» عندما تزوّجني، وإنني «ربة بيت» سيئة، وإنني أسرف في إنفاق «أموالنا المشتركة». وفي الختام أعلن أنه لاحظ أن نوبات الصرع قد زادت عند فيودور ميخايلوفيتش على مدى زواجنا وأني المسؤولة عن ذلك، ثم راح يكيل لي الافتراءات، ثم اندفع بعدها مباشرة مغادراً البيت.

كانت الوقاحة في هذه المرة هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لم يسبق له إطلاقاً أن أهانني على هذا النحو من القسوة بعد أن ألصق بي حتى تهمة اشتداد وطأة المرض على زوجي، وقد أشعرني ذلك بالإهانة والحزن إلى أقصى درجة. ازدادت آلام رأسي فارتميت على فراشي ورحت في بكاءٍ مرير. مرّت، ربما، حوالي ساعة ونصف، وإذا بفيدودور ميخايلوفيتش يعود إلى البيت. يبدو أنه، بعد أن أمضى بعض الوقت لدى مايكوف شعر بالقلق تجاهي فعاد مُسرّعاً. وعندما لاحظ أن البيت مُعتم سأل فيدوسيا عني. فأخبرته سراً أنني في فراشي أبكي!

انزعج فيودور ميخايلوفيتش وسألني ما بي؟ أردتُ أن أخفي عليه ما حدث، لكنه راح يستعطفني ويتحدّث معي بودٍّ شديدٍ حتى لان قلبي فرحتُ أقصُّ عليه ما حدث وأنا أبكي وأنتحب، حدّثته عن صعوبة الحياة وكيف يُهينونني هنا في بيته، قلتُ له إنني أشعر أنه لم يعد يُحِبني، وأنه لم يعد يُشاورني في أموره كما كان يفعل من قبل، ووصفتُ له شعوري بالحزن والمعاناة من كل ذلك وهلمَّ جرّاً. نادراً ما بكيْتُ على هذا النحو، وكلّما هدأ فيودور ميخايلوفيتش من روعي، كلما انهمرتُ دموعي على نحوٍ أشد. أفضتُ له في الحديث عن كلّ ما أثقل قلبي وأعربت له عن شكوكي وحيرتي بكل صراحة. راح زوجي المسكين يستمع إليّ وهو ينظر إليّ بذهولٍ بالغ، وعندما رأى الوقاحة المتناهية لبافل ألكسندروفيتش تجاهي، لم يَنْتَبِهْ أيُّ شكٍّ في إمكانية قيامه بإهانتني على هذا النحو. لآمني فيودور ميخايلوفيتش بشكلٍ ودّيٍّ لأنني لم أكن صريحةً معه ولم أشتك له ربيبه، ولأنني لم أأخذ موقفاً حازماً تجاهه حتى لا يجرؤ على توجيه أي إهانةٍ لي بعد ذلك. أكد لي حبّه الشديد، وتعبّج كيف تسنّى لي أن أفكر أنه كفّ عن حُبي. وأخيراً اعترف لي بدوره أن حياتنا المضطربة الآن شديدة الصعوبة. وأن أقاربه الشباب كانوا نادراً ما يزورونه إذ

إنهم كانوا يشعرون لديه بالكآبة؛ أما الآن فإنه يُفسَّر زياراتهم المُتكررة بحُسن معاملتي لهم، وأنهم يشعرون لدينا بالفرح والسرور، وأنه كان يظنُّ أن مجتمع الشباب بأحاديثهم المرحّة وجدلهم سوف يكون أمرًا شيقًا بالنسبة لي. وقال لي فيودور ميخايلوفيتش أنه مُتَشَوِّق هو أيضًا إلى أحاديثنا السابقة وأنه آسف لأننا لم نعدْ نَعقد هذه الأحاديث بسبب الضيوف الدائمين.

وقال لي أيضًا إنه كان مشغولًا في الأيام الأخيرة بفكرة السفر إلى موسكو، والآن، وبعد حديثنا هذا، قرَّر تنفيذهما بشكلٍ نهائي. وعقبَ قائلًا: «سنذهب معًا بطبيعة الحال، أودُّ أن أعرفك على أقاربي في موسكو. فيروتشكا (أختي) وسونيا (ابنة أختي) الذين يعرفونك من حديثي لهم عنك، كما أودُّ أن تعرفيهم وأن تبادلِهم حبًّا بحب. بالإضافة إلى ذلك فقد خطرت لي فكرة أن أطلب من كاتكوف قرضًا يُمكِّننا من السفر معًا إلى الخارج. هل تذكرين. كان هذا ما حلمنا به معًا! والآن، تُرى هل سيتحقَّق هذا الحلم؟ وبالإضافة إلى ذلك فقد أردتُ أن أتحدَّث مع كاتكوف بشأن روايتي الجديدة. من الصعب أن نتباحث من خلال الرسائل حول هذا الموضوع، الأفضل أن أطرَّحه عليه عند لقائي به شخصيًا. أما إذا لم ننجح في السفر للخارج، فسوف يكون من السهل علينا على أية حال، أن نضع نظامًا جديدًا لحياتنا بعد عودتنا من موسكو، بحيث لا يسمح بوجود ما يُعكر صفوَّنا. إذن، إلى موسكو! موافقة يا عزيزتي أنتيتشكا؟

لم تكن هناك حاجة للسؤال عن موافقتي. كان فيودور ميخايلوفيتش رقيقًا، طيبًا، ودودًا كعهده أيام الخطوبة، وتبدَّدت كل مخاوفي وشكوكي في حُبه كما يتبدَّد الدخان. والآن تسنَّى لنا أن نقضي المساء بطوله وحدنا في حديثٍ ودِّي حميمي كما لو كنَّا نلتقي للمرة الأولى بعد زواجنا. وقرَّرنا ألا نوجِّل سفرنا وأن نرحل غدًا على الفور.

وفي اليوم التالي قُوبِل خبر سفرنا بكثيرٍ من الامتعاض من جانب الأقارب، وخاصةً بافل ألكسندروفيتش. ولكن، لمَّا كانوا يعرفون أن نقود فيودور ميخايلوفيتش أوشكت على النفاق، فقد افترضوا أنه ذاهب إلى هناك من أجل المال، ومن ثم لم يُحاولوا أن يثنونا عن عزمنا. عندما حانت لحظة الوداع لم ييخل على بافل ألكسندروفيتش ببعض كلماته اللاذعة مُعلنًا أنه «سوف يتولى بنفسه شئون البيت المُهملة، وأنه سوف يُديرها على أفضل ما يكون.» لم أغضب ولم أعترض، كنتُ في غاية السعادة أن أُتيحت لي الفرصة ولو مؤقتًا أن أتخلَّص من مُلاحقاته.

شهر العسل

٥

السفر إلى موسكو

وصلنا إلى موسكو في الصباح الباكر من يوم الخميس من الأسبوع الخامس من أيام الصيام الكبير، ونزلنا في فندق ديوسو، الفندق المفضل لفيودور ميخايلوفيتش. وحيث إننا كنّا مُرهقين من السفر فقد قرّرنا ألا نقوم بأي عمل وأن نكتفي بالذهاب لزيارة آل إيفانوف. كانت هذه الزيارة تبعث في نفسي الخوف؛ إذ كان فيودور ميخايلوفيتش يُكنّ لأخته فيرا ميخايلوفنا إيفانوفنا ولأسرتها حبًّا خاصًّا من بين أقاربه جميعًا. وقد أخبرني ونحن ما نزال في بطرسبورج أنه سوف يكون سعيدًا إذا ما أُعجب بي آل إيفانوف وانعقدت بيني وبينهم أواصر الصداقة. كان ذلك تمامًا ما كنتُ أودُّ أن يحدث، ولكنني كنتُ أتوجّس خيفةً ألا يكون الانطباع الأول من جانهم لصالح. سعيتُ أن أرثدي أزهي ملابسٍ فاخترتُ ثوبًا أنيقًا بلون البنفسج الفاتح. كان فيودور ميخايلوفيتش مُعجبًا بزيّنتي وأكّد لي أنني اليوم أبدو رائعة الجمال. كان ثناءً مُبالغًا فيه بالطبع، لكنّه أعجبني وأثار في نفسي الحماس.

كان آل إيفانوف يعيشون في معهد تخطيط الأراضي، وحتى نصل إليهم كان علينا أن نقطع المدينة من طرفها إلى طرفها الآخر، بدايةً بشارع مياسنيتسكايا ثم بوكروفكا، مارين بالقرب من كنيسة العذراء (في بوكروفكا) وهنا قال فيودور ميخايلوفيتش إننا في المرة القادمة، سوف نُغادر العربّة ونقف غير بعيدٍ عنها لنتملّأها كاملة. كان فيودور ميخايلوفيتش يُقدّر عمارة هذه الكنيسة تقديرًا رفيقًا. وعندما يأتي إلى موسكو كان يأتي حتمًا لزيارتها. وبعد يومين تقريبًا، وكنا مارّين بالقرب منها، ذهبنا لرؤيتها من الخارج ودخلنا لنشاهدها أيضًا من الداخل.

كلما اقتربنا من بيت آل إيفانوف، ازداد شعوري بالقلق. كنتُ أسأل نفسي وقد تملّكني الخوف: «ماذا لو أنني تركتُ لديهم انطباعًا سيئًا، ألن يُثير ذلك حزن فيودور ميخايلوفيتش!»

أخبرتنا الخادمة، بعد أن فتحت لنا الباب، أن ألكسندر بافلوفيتش (زوج الأخت) وصوفيا ألكسندروفنا (ابنة الأخت) ليسا بالمنزل، وسوف تُخبر فيرا ميخايلوفنا بحضورنا.

دخلنا إلى صالةٍ فسيحة مفروشة بأثاثٍ عتيق من خشب الماهوجني. تناول فيودور ميخايلوفيتش صحيفة «وقائع موسكو» من على الطاولة، بينما رُحِت أُتصَفَّحُ البومًا وُضِعَ على نفس الطاولة يضمُّ صورًا. انتظرنا خروج فيرا ميخايلوفنا طويلًا. لعلَّها رأت أن من غير المناسب الخروج لمقابلة قريبة لا تعرفها بملابس البيت؛ ومن ثم راحت تستبدل ملابسها، الأمر الذي استغرق وقتًا طويلًا. مرَّت حوالي نصف ساعة إلى أن فُتِحَ الباب المؤدي إلى الصالة فجأةً بصوتٍ مرتفع، واندفع عبر الغرفة طفلٌ يبلغ من العمر حوالي عشر سنوات مُحدِّثًا جلبه.

صاح فيودور ميخايلوفيتش: فيتيا، فيتيا!، لكن الطفل لم يتوقَّف وإنما هُرع إلى الغرفة الثانية صائحًا: شابه، مهندمة لا تضع نظارات!

ارتفعت بعض الهمهمة ثم صمت الصبي. وعلى الفور أدرك فيودور ميخايلوفيتش، الذي يعرف عادات الأسرة، ما وراء ذلك. فابتسم قائلاً: لم يُطيقوا صبرًا! أرسلوا فيتيا لينظر ويُخبرهم كيف تبدو زوجته.

وأخيرًا خرجت إلينا فيرا ميخايلوفنا وقد تعاملت معي بكثيرٍ من الود. وبعد أن عانقتني وقبَّلتنِي رجتنِي أن أحبَّ أختها وأن أحيطه بالرعاية والاهتمام. ثم ما لبث أن خرج إلينا زوجها وابنتها الكبرى سونيتشكا. هنأنا ألكسندر بافلوفيتش بعبارة رسمية مُتمنياً لنا السعادة. مدَّت سونيتشكا يدها إليَّ، ابتسمت ابتسامة لطيفة ولكنها التزمت الصمت وراحت تتأمَّلني بشدة.

فتح ألكسندر بافلوفيتش باب الغرفة المجاورة وقال: تعالوا يا أطفال لتُهنئوا عمَّكم وتتعرفوا على عمَّتكم الجديدة. بدأ آل إيفانوف من الشباب يدخلون الواحد وراء الآخر. كانوا سبعة: سونيتشكا (٢٠ عامًا)، ماشينكا (١٩)، ساشا (١٧)، يولينكا (١٥)، فيتيا وأطفالاً آخرين. توجَّهوا جميعًا بالتحية الحارة إلى فيودور ميخايلوفيتش، ولكنهم عاملوني بجفاء. انحنوا مُسلمين، جلسوا، ثم راحو ينظرون إليَّ بكلِّ اهتمام. وعلى الفور أدركتُ بغريزتي أنَّ الشباب يتخذ موقفًا مُعاديًا مِنِّي. لم يخب ظنِّي كما تبَّين لي بعد ذلك. لقد شكَّلوا ضدي حلفًا. كان آل إيفانوف يُحبُّون عمَّتهم لأبيهم. يلينا بافلوفنا، حبًّا شديدًا، ولمَّا كان زوجها مريضًا لسنواتٍ طويلة دون أملٍ في الشفاء، فقد قررت الأسرة أن تتزوَّج يلينا بافلوفنا من فيودور ميخايلوفيتش فور وفاة زوجها وأن يعيشا معًا للأبد في موسكو. لم يكن من العجيب إذن أنَّ هؤلاء الشباب قد نفروا مِنِّي باعتبار أنني أنا التي أفسدتُ عليهم حلمهم المكنون. وكذلك لم يسرَّهم إسرافه في مديحي عندما كان في زيارتهم في موسكو

إِبَّانَ أعياد الميلاد. وعندما علموا أنني أعمل بالاختزال، قرَّروا أنني بلا شك عجوز، عدمية ذات شعرٍ قصيرٍ وأضع نظارات. وما إن علموا بوصولنا حتى اتفقوا على السخرية منِّي وأن يُحاصروني، وبذلك يثبتون استقلاليتهم. وعندما لم يَرَوْا أمامهم عجوزًا، أو مُختزلةً عالمة «عدمية»، وإنما رأوا بدلاً من ذلك امرأةً شابة، بل صبيةً تقريبًا، مُعتدَّةً بنفسها، اندهشوا ولم يخفضوا بصرهم عني. وقد أربكني هذا الاهتمام الفائق. وبعد أن كنتُ قد اعتدتُ التحدُّث ببساطة دون تنميق، أصبحتُ الآن أحدثُ بلغةٍ فصحي، مُستخدمة عبارات جميلة، ومن ثم افتقر حديثي إلى اللغة العادية المألوفة، حاولتُ أن أشارك قريباتي حديثهن، لكنهنَّ كنَّ يُجبَنَ باقتضاب، وكان واضحًا أنهن لا يردنَ مواصلة الحديث.

في الساعة الخامسة جلسنا لتناول الغداء. قدموا لنا الشمبانيا وراحوا يهنتوننا. عمَّ المكان الضجيج، لكنني لم أكن أشعر بالبهجة، على الرغم من أنني حاولتُ أن أكون مُنتعشة، وكنتُ أُلقي بالدعابات وأضحك. أما بعد الغداء فقد سارت أموري على نحوٍ أكثر سوءًا. فقد حضر إلى منزل آل إيفانوف عددٌ من الرفاق والصديقات. معظمهم كان يُحب فيودور ميخايلوفيتش الذي قضى الصيف الماضي في ضاحية ليوبلينا بالقرب من موسكو، في المنزل الصيفي الذي يمتلكه آل إيفانوف،^{١٢،١٣} حيث عاش هؤلاء الشباب من أصدقاء آل إيفانوف في ضيافتهم. وجميعهم كانوا يؤدُّون رؤية زوجة فيودور ميخايلوفيتش. نظموا Petits-Juex،^{١٤} شديدة التعقيد، تحتاج إلى ذكاءٍ وقوة ملاحظة. كانت ماريا سيرجييفنا إيفانتشينا-بيسارييفا، صديقة بنات فيرا ميخايلوفنا، تتميزُّ بذكاءٍ شديد في هذا المجال، كانت فتاة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، لا تتميزُّ بالجمال، وإنما بالذكاء والحيوية، لمَّاحة، على استعدادٍ دائمًا لدفع الناس إلى الضحك (وصف فيودور

^{١٢} عن وصول دستوفسكي في صيف ١٨٦٦م إلى داتشا آل إيفانوف في ضاحية ليوبلينا (قرب موسكو) انظر مذكرات ن. ن. فون-فوخت «مدخل إلى سيرة دستوفسكي» مجلة «البشير التاريخي» ١٩٠١م، العدد ١٢، ص ١٠٢٣-١٠٢٣. يصف ن. ن. فون-فوخت وصول دستوفسكي إلى ليوبلينا أنه أسعد أيام الكاتب، عندما استطاع أن يستجمَّ من خلال اللعب والمرح مع الشباب من العمل المضني الذي بذله في كتابة رواية «الجريمة والعقاب».

^{١٣} عن هذه الفترة تفصيلًا انظر ترجمتنا لمقال إيجور فولجين «اختفاء دستوفسكي»، المنشور بمجلة «ضاد» التي يُصدرها اتحاد كتاب مصر، العدد الرابع، السنة الأولى، يوليو ٢٠٠٦م، ص ٦٣-٧٠. (المترجم)

^{١٤} Petits-Juex ألعاب صغيرة (بالفرنسية).

مخايلوفيتش عائلة إيفانوف في رواية «الزوج الأبدي»، تحت اسم «آل زاخليبين». وتظهر ماريا سبرجيفنا إيفانتشينا بشكلٍ بارز في شخصية الصديقة الذكية «ماريا نيكيتشينا». وقد فوضها الشباب مهمة إخراجي عن وقاري ووضعي في موقف مُثير للضحك أمام زوجي. بدعوا اللعب. كان على كل لاعبٍ أن يشكل (بالكلمات بطبيعة الحال) باقة تصف مواقف مختلفة من مواقف الحياة: العجوز— في عيد ميلاده الثمانين — الأنسة — في أول حفل لها. كان عليّ أن أُشكل باقةً من كلمات عن أزهار الحقول، لم أذكر سوى زهرة الخشخاش والعنبر وسن الأسد وغيرها، ولهذا رفض الجميع بالإجماع، وهم على حق، باقتي.

اقترحوا عليّ أن أُكوّن باقة أخرى، ولكنّي شعرتُ أنّ التوفيق لن يُحالفني فرفضت بقولي: لا داعي، اسمحوا لي بالانسحاب! ابتسمتُ وأضفت: أرى أنه ليست لديّ أي مهارة. ليس لدينا شك في ذلك، هكذا أجابت ماريا سبرجيفنا، لقد أثبتّ ذلك بشكلٍ رائع منذ زمنٍ طويل!

وفي أثناء ذلك نظرت نظرةً ذات مغزى إلى الجهة التي كان يجلس فيها إلى جوارِي فيودور مخايلوفيتش، الذي كان يستمع إلى الألعاب الصغيرة. قالت هذه الكلمات بطريقة لاذعة وفي الوقت نفسه بذكاء شديد، الأمر الذي جعل الجميع دون استثناء، بما فيهم أنا وفيودور مخايلوفيتش، ينفجرون في الضحك. أذاب الضحك العام جليد النفور وانتهت السهرة في جوٍّ من السرور أفضل مما بدأت عليه.

في طريق عودتنا للبيت، سألني فيودور مخايلوفيتش عن انطباعاتي. قلت له إن فيرا مخايلوفنا وسونيتشكا أعجبانِي للغاية، أما باقي أفراد العائلة فإنني لم أتعرف عليهم بعد. وعندما رأى فيودور مخايلوفيتش الحزن مرتسمًا على وجهي قال لي مُواسيًا: عزيزتي أنيا، لقد مرّ قوك إربًا يا مسكينة! لكنك أنت المُذنبة، كان عليك أن تدري عني ضرباتهم، عندئذ كانوا سيلجمون ألسنتهم عنك! يجب أن تكوني أكثر شجاعةً يا صديقتي! لقد أعجبت بك أختي وكذلك سونيتشكا، كما كنتِ متألقة طوال اليوم حتى إنني لم أستطع إلا أن أظل أحملق فيك!

هدأت هذه الكلمات من روعي كثيرًا، على أنني على أية حال لم أستطع الخلود إلى النوم في تلك الليلة، فتارة رحتُ ألوم نفسي لعدم قدرتي على التواءم مع الحياة، وتارة كنت أفكر لماذا عاملني هؤلاء الشباب والشابات على لطفهم ورفقتهم بمثل هذا العداء. بخصوص خيبة أملهم في الجمع بين عمّهم المحبوب وعمّتهم المحبوبة بسببي فقد عرفت بذلك فيما بعد.

اعتاد آل إيفانوف دعوتنا لزيارتهم لقضاء اليوم بطوله، لكننا قررنا زيارتهم في اليوم التالي، الجمعة، في المساء فقط. توجه فيودور ميخايلوفيتش ظهرًا إلى كاتكوف، ولكنه لم يجده في البيت. تناولنا طعام الغداء معًا في الفندق ثم توجَّهنا إلى آل إيفانوف. كان الجمعة هو اليوم المُحدَّد لاستقبال الضيوف، ومن ثم كان المنزل يغصُّ بهم. انقسم الحضور إلى جماعات، فالكبار احتلوا غرفة الاستقبال والمكتب وجلسوا يلعبون الورق، بينما بقي الشباب، وكنت بينهم. في الصالة، حيث راحوا يلعبون لعبةً مثيرة من ألعاب الورق الحديثة. جلس إلى جوارى أحد الرفاق من الشباب هو ساشا إيفانوف. وعندما وجدتُ أنه لا يشارك الآخرين تحاملهم عليّ رحت أثرثر معه وأنا أضحك، وخاصة أنه بدا شابًا ذكيًا مرحًا.

أثناء لعب الورق وقع حادثٌ مضحك. في الستينيات لم تكن العملات الفضية منتشرة، وإنما كان التعامل يتم أكثر بالعملات النحاسية. أرسل آل إيفانوف من يستبدل عشرة أو اثني عشر روبلاً، وقد حصلوا في المقابل على كمية ثقيلة من العملات من فئة الخمسة كوبيكات. من بين اللاعبين كانت هناك سيدة شابة تبلغ من العمر أربعين عامًا، ترتدي ثوبًا من قماش رقيق بلون وردي فاتح ذي عقد على الرأس والأكتاف والصدر. بعد عددٍ من الأدوار بدأت تشتكى من الخسائر. كما اشتكى أيضًا آخرون، أما نحن فقد بقينا طويلًا عاجزين عن أن نخمن من منّا الذي كسب. وفي الساعة الحادية عشرة دعونا لتناول طعام العشاء. قُمنا من مقاعدنا وفجأة إذا بنا نسمع صوت رنين العملات وهي تتساقط على الأرض، ثم صراخ صاحبة الثوب الوردي؛ بداهة فإن جيبها لم يتحمّل ثقل النقود. اندفعنا نلتقط النقود التي راحت تتناثر على الأرض هنا وهناك، وهنا انحنى السيد الشاب على الأرض، بعد أن ضمت ثوبها الواسع على ما كسبته ثم صرخت: لا، لا، لا، تمسّوها! أنا سأجمعها بنفسى!

كان مظهرها مضحكًا للغاية، رُعبها من أن نأخذ لأنفسنا هذه العملات، كان أمرًا سخيفًا حتى إننا رحنا نضحك من قلوبنا، وكنت أنا، على ما أظن، أكثرهم ضحكا.

كان فيودور ميخايلوفيتش يلعب الورق في غرفة المكتب، وكان يخرج بين الحين والآخر ليُلقي بنظرة علينا، وقد خُيِّل لي أنه أصبح أكثر جديةً وحزنًا، وقد عزوت ذلك للإرهاق. تناولت عشاءً وقد جلس إلى جوارى شريكي في لعب الورق، بينما جلس فيودور ميخايلوفيتش قبالتنا وظلَّ ينظر إليّ دون أن يُحول بصره عنيّ وكان يُحاول أن ينصت لحديثنا. كنت في حالة من المرح والسرور البالغ. تبادلت الحديث عدة مرات مع زوجي مُحاولًا إشراكه في حديثنا لكنني لم أنجح في ذلك.

غادرنا المكان بعد العشاء مباشرة إلى بيتنا. التزم فيودور ميخايلوفيتش الصمت طوال الطريق الطويل ولم يُجب على أسئلتني. وبعد أن وصلنا إلى شقتنا، راح يذرغ الغرفة ذهابًا وحيثُ وكان من الواضح أنَّ شيئًا ما يُقلقه بشدة. أزعجني الأمر فاقتربتُ منه ورحتُ الألفه وأسري عنه. أعرض فيودور ميخايلوفيتش بجانبه وأشاح يدي عنه ونظر إليَّ نظرةً تخلو من الطيبة وتمتليء بالقسوة والغضب، هذه النظرة التي جمّدت الدّم في عروقي.

سألته في وجل: فيديا، هل أنت غاضب مني؟ ما الذي أغضبك؟ عندما ألقىت عليه هذا السؤال، ثارت ثورته وأغلظ لي في القول. ومن بين ما قاله أنني كنتُ لعوبًا لا إحساس لديها، وأنني قضيتُ المساء كله أتصرّف بدلالٍ مع جاري بهدف تعذيب زوجي. رحّتُ أخلق الأعداء وأسوق المبررات، لكن هذا كان كمن يصبُّ الزيت على النار. اشتاط فيودور ميخايلوفيتش غضبًا وراح يصيح بأعلى صوته، وقد نسي تمامًا أننا في فندق. أحسستُ بالإهانة لما تعرضتُ له من ظلم فادح، لمعرفتي بأن هذه الاتهامات محض افتراءات طائشة لا أساس لها. أخافني صراخه والتعابير التي ارتسمت على وجهه، وخيل إليَّ أن فيودور ميخايلوفيتش سوف يُصاب الآن بنوبةٍ من نوبات الصرع، أو أنه سيقفلني. فجأةً يثوب فيودور ميخايلوفيتش إلى رُشده ويروح يُهدئ من روعي ويطلب مني العفو. أخذ يُقبل يديّ ويبكي وهو يسبُّ نفسه على المشهد الذي حدث، ثم قال: لقد عانيتُ بشدة طوال الليل، وأنا أراك مُبتهجة بالحديث مع هذا الشاب. خُيل إليَّ أنك قد وقعت في حبه، وقد شعرتُ بالغيرة تحثّم في نفسي تجاهه وكنتُ على استعدادٍ أن أوجّه له أقذع الشتائم، والآن أرى كم كنتُ ظالمًا!

كان فيودور ميخايلوفيتش مخلصًا في ندمه ورجاني أن أنسى إساءاته ووعدني ألا يقع في براثن الغيرة بعد ذلك إطلاقًا. كان الألم الشديد يكسو وجهه. أصبحتُ أشعر بالأسى العميق تجاه زوجي المسكين، فقضيتُ ما تبقى من الليل جالسةً إلى جواره أواسيه وأهدئ خاطره. وضع صليل أجراس الكنيسة، مُعلنًا الساعة الأولى من الصباح، حدًا لنقاشنا. خلدنا للنوم، ولكننا لم نستطع النوم قبل مرور وقتٍ طويل.

استيقظت في الساعة الواحدة ظهر اليوم التالي. كان فيودور ميخايلوفيتش قد استيقظ قبلي وظل جالسًا ساعتين دون أن تصدر عنه أي جلبة مخافة أن يُوقظني. اشتكى بطريقةٍ ساخرة أنني أوشكتُ أن أُميته جوعًا، فقد كان خائفًا أن يُوقظني ومن ثم لم يرن الجرس ولم يطلب لنفسه قهوة. كان شديد الرقة آنذاك في معاملته لي.

لقد ترك هذا المشهد الليلي انطباعاً عميقاً في نفسي إلى الأبد، مما دفعني أن أطيل التفكير في النحو الذي ينبغي أن تكون عليه علاقتنا في المستقبل. لقد أدركت مدى الألم العميق الذي تتركه الغيرة على فيودور ميخايلوفيتش. ومن يومها أخذت عهداً على نفسي أن أحافظ على زوجي وأن أجنبه مثل هذه المؤثرات الثقيلة.

٦

زيارة إلى أخي

ما زلت أذكر جيداً، إبّان وجودنا الطويل في موسكو، تلك الزيارة التي قمتُ بها إلى منطقة بتروفسكويه رازوموفسكويه، حيث يُقيم أخي إيفان جريجوريفيتش^{١٥} الطالب بأكاديمية بتروفسكايا الزراعية. كان أخي قد تجاوز السابعة عشرة من عمره بقليل، وسيماً، متورداً الوجه، ذا شعر أشقر متجعد، شديد الحياء مثل فتاةٍ عذراء، طيباً، ميلاً إلى المرح. كان يُعدُّ أصغر طالبٍ في الأكاديمية وكان محبوباً من الجميع.

ما إن وصلتُ إلى موسكو حتى كتبتُ إليه أطلبُ منه زيارتنا في أي يوم يراه، على أن يكون مبكراً في الحادية عشرة صباحاً، فإذا لم يجدنا فإنَّ عليه انتظارنا في قاعة المطالعة بالفندق. تلقى أخي الخطاب يوم الجمعة وفي الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي حضر إلينا. ولما عرف من عامل الفندق أننا لم نستيقظ بعد، ذهب ليعود مريضاً من أصدقائه، وإذ طالت زيارته له فقد عاد ليجدنا قد غادرنا المكان. ظنَّ أخي أننا سرعان ما نعود فأخذ ينتظرنا حتى الغروب في الفندق، وعند مغادرته ترك لنا خطاباً يُخبرنا فيه أنه سيعود إلينا يوم الاثنين. كنا قد قرّرنا أنا وزوجي أن نساfer إلى بطرسبورج مساء الأحد إذا لم تنجح مساعيها لدى كاتكوف، وبهذا أكون قد خاطرتُ بآلا أرى أخي. رحت أرجو فيودور ميخايلوفيتش أن يسمح لي أن أقوم بنفسي بزيارة أخي. ومن ثمَّ فقد استأجر لي حوزياً ليوصلني إلى أكاديمية بتروفسكايا وكتب له رقم المبنى. غادرتُ الفندق قرب الواحدة ظهراً بعد أن وعدته أن أعود حوالي الرابعة ومعني أخي.

^{١٥} سنيتكين، إيفان جريجوريفيتش (١٨٤٩-١٨٨٧م): الأخ الأصغر لأنثى جريجوريفنا دستوفسكايا، أنهى أكاديمية بتروفسكايا الزراعية في موسكو. (المترجم)

كنتُ في حالة نفسية رائعة: كان فيودور ميخايلوفيتش طوال الصباح رقيقًا ودودًا معي للغاية؛ كان من الواضح أن خلافنا السابق قد مرَّ دون أن يترك في أعماقه أي انطباع كرهه. كان الجو بديعًا رائعًا، وكان الطريق رائعًا وكنتُ أشعر بالسعادة لأنني سألتقي بأخي الحبيب.

كان يوم أحد، ولم يكن بالأكاديمية سوى قليل من الطلاب نسيبًا، هم في الأغلب الطلاب الذين يقيمون بها بصفة دائمة. دلفت عبر مدخلٍ رحب وسألت أول طالب قابلني إن كان باستطاعتي أن أرى أخي، الطالب سينتكين. كان جميع من يعيشون في الأكاديمية يعرفون أن أخت سينتكين قد تزوجت قريبًا، ففي يوم زفافي، شارك أخي للمرة الأولى في حياته في حفلٍ تبادل الجميع فيه الأنخاب، وظلَّ يحتسي الخمر حتى سَكِر، وراح يبكي طوال السهرة بينما راح أصدقاؤه يهدُّونه وهو يقول: انتهى كل شيء بالطبع! لن تكون لي أخت بعد الآن. لقد ماتت بالنسبة لي!

على الفور قام الطالب بتوصيلي إلى غرفة أخي. استقبلني فانيا^{١٦} بفرح غامر حتى إنه بكى وهو يحتضنني. جلسنا نتحدث وما هي إلا خمس دقائق حتى جاء عامل الدور يحمل سماور وصينية وبراد الشاي وكوبين وفطائر فرنسية. وفي نفس اللحظة إذا بعاملٍ آخر يحضر سماور آخر ومعه براد للقهوة ولبن وسكر. على هذا النحو تصرَّف رفاق أخي لاعتقادهم أن ضيفته الغالية لا شك وأنها ترتعد من البرد. كلُّ أرسل إلى غرفة فانيا شيئًا مما لديه على مائدته.

شيئًا فشيئًا بدأ زملاء فانيا يتوافدون إليه (ومن بينهم بعض المُعجبين بزوجي) على أمل أن يروا زوجة كاتبهم المفضل دستوفسكي. تجمع في الغرفة ما يقرب من تسعة أشخاص، منهم من جلس على كرسي ومنهم من جلس على السرير أو على حافة النافذة. قدمت لهم الشاي. وهنا سارع خادم الدور في إحضار سماور ثالث؛ لعلَّه شعر أن السماور الأول قد فترت مياهه. هذا العدد من السماورات على مائدتنا أثار ضحك الجميع وأتاح الفرصة أمام الطلاب لتبادل الحديث والدعابة بعد أن كانوا يشعرون بالخجل في وجودي.

تطرق الحديث إلى الأدب، وهنا انقسم الطلاب إلى فريقين: مُحبي فيودور ميخايلوفيتش وخصومه. أحد الخصوم راح يُثبت بحماس أن دستوفسكي باختياره

^{١٦} فانيا: اسم التدليل لإيفان. (المترجم)

راسكولنيكوف بطلاً «للجريمة والعقاب» فقد ألقى بافتراءاته على جيل الشباب، وإذا بالجدل بين الشباب يحدث، عندما لم يُوافق أحدٌ على ما قاله هذا الطالب وراح كلٌّ من الحضور يُدلي برأيه في هذه المسألة. وفي سَورة النقاش لم ينتبه أحدٌ منّا لمرور الوقت، وبدلاً من أن أقضي ساعةً واحدة في ضيافة أخي قضيتُ ما يزيد على ساعتين. تعجلت العودة وعلى الفور قام الشباب من الفريقين لتوصيلي حتى مدخل البناية. هيهات، لقد اختفي الحُودي الذي أحضرني حتى دون أن أدفع له أجره. اندفع الطلاب كلٌّ في اتجاهٍ بحثاً عنه ثم عادوا ليخبروني أن السائق انتظرني ما يزيد على ساعة ثم ذهب بأحد الأساتذة إلى المدينة.

ما العمل؟ أحد الطلاب أخذ على عاتقه السير بنا عبر أقصر الطرق باتجاه بوتيركا حيث يمكن دائماً العثور على حُودي. سرنا جماعة، لكن تبين، كما يحدث دائماً، أن أقصر الطرق هو أطولها. اضطررنا للسير عبر ركام من الثلج ساخت أقدامنا فيه. راح الجميع يضحكون، بينما كان قلبي يقرصني كلما خطر ببالي القلق الذي لا بد أن يكون عليه الآن زوجي المسكين.

وصلنا أخيراً بعد ساعة تقريباً إلى بوتيركا لنبحث طويلاً عن حُودي. ثم ها نحن نصل، أنا وأخي، إلى فندق ديسو في السادسة والنصف. كان الظلام قد حل. أسرعنا نحو المدخل وسألت البواب إن كان السيد في الداخل؟ فأجاب: إنهم يقفون عند تقاطع الطرق منذ ثلاث ساعات بأكملها، وقد تردّدوا أكثر من مرة على الفندق يسألون إن كنتِ قد عدتِ أم لا.

خرجتُ إلى الطريق وشاهدت فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان بالفعل يقف عند زاوية الشارع يحملق في المارة. انتابني الخوف وقد رأيت كم كان شاحباً، قلقاً. يا عزيزي فيديا، لقد عدت، هيا إلى البيت. نطقْتُ بهذه الكلمات وأنا أقرب منه. فرح فيودور ميخايلوفيتش بشدة وأمسك بيدي وقد بدت على وجهه علامات من كان يائساً أن يراني ثانية. أخذتهُ نحو مدخل الفندق وقدمتُ له أخي. أعترف أنني كنتُ خائفة للغاية من أن يَصُبَّ فيودور ميخايلوفيتش جام غضبه على فانيا الذي لا ذنب له وأن ينهار حلمي أن يُحب أخي. ولحسن الحظ لم يحدث ذلك، لقد عامله زوجي بمودة شديدة.

تناولنا غداءنا في جوٍّ من البهجة. قصَّ عليَّ فيودور ميخايلوفيتش كلَّ ما حدث له، أما أنا فوصفت له ضاحكةً مغامراتي. ونظرًا لتأخر الوقت فقد انصرف أخي بعد الغداء

مباشرة لنقضي أنا وزوجي معاً أمسية رائعة ذكرتني بأمسياتنا المدهشة التي قضيناها قبل الزواج. سألتُه وقد خلت نفوسنا من كل كدر: حسناً، قل لي بصراحة، هل راودتُك الظنون أنني قد أكون قد هربتُ اليوم مع شخص ما؟

- إذن هذه واحدة من اختراعاتك! أجاب فيودور ميخايلوفيتش، لكن عيناه نظرتا إليَّ مُعَبَّرَتَيْنِ عن إحساسٍ بالذنب، فأدركتُ عندئذٍ أن حدسي كان صحيحاً بعض الشيء.

٧

انطباعات موسكوفية

ما زلت أتذكر، بكل سرور وغبطة، ما تبقى لنا من أيام في موسكو. كنا نذهب كل صباح لمشاهدة ما في المدينة من آثار: كنائس الكرملين، قاعة الأسلحة، بيت نبلاء آل رومانوف. وذات صباح صافٍ أخذني إلى جبانة لازاريفسكي، حيث دُفنت أمُّه ماريا فيدوروفنا دستويفسكايا،^{١٧} التي كان يحتفظ لها في ذاكرته دائماً بمشاعر ودودة طيبة. كنا في غاية السرور أن وجدنا هناك أحد قساوسة الكنيسة استطاع أن يُقيم لها قداساً عند قبرها. وقد ذهبنا أيضاً إلى فورويوفي جوري. كان فيودور ميخايلوفيتش، المولود في مدينة موسكو، دليلاً رائعاً راح يشرح لي العديد من الأشياء المُسلية عن خصائص مدينة القيصرية الأوائل. كان التعب والجوع قد بلغا بنا أشدهما، وكنا قد اعتدنا الذهاب، بعد جولاتنا، إلى مطعم تيستوفو. كان زوجي يُحب المطبخ الروسي فاختر لي خاصة، ابنة بطرسبورج، الأطباق المحلية مثل السوليانكا^{١٨} على طريقة أهل موسكو والفتائر المحشوة والكعك. وقد أبدى دهشته، على نحو متصنع، من شهيتي الهائلة الشابة للطعام. عُدنا بعد ذلك إلى الفندق فاسترحنا قليلاً ثم ذهبنا إلى آل إيفانوف لتناول طعام الغداء. وهناك حرصتُ على ألاَّ أبتعد عن فيودور ميخايلوفيتش خطوةً واحدة تجنباً لوقوعه ثانية في نوبةٍ من نوبات الغيرة، وبمساعده نجحتُ في عقد أواصر الصداقة والمودة مع فيرا مخيلوفنا وسونيا وبقية الشباب. كما نجحت في عقدها مع ماريا سيرجييفنا الماكرة. وقد قصَّ عليَّ الجميع،

^{١٧} م. ف. دستويفسكايا (نيتشايفا قبل الزواج) (١٨٠٠-١٨٣٧م): والدته ف. م. دستويفسكي، ابنة تاجر من موسكو يدعى فيودور تيموفيفيتش نيتشايف.

^{١٨} السوليانكا: حساء كثيف من السمك أو اللحم تُضاف إليه توابل حارة. (المترجم)

بكثيرٍ من التفاصيل، كيفية وظروف كراهِيتهم لي غيابياً والوسائل التي أرادوا من خلالها إثارة غضبي وحفيظني باعتباري قريبةً جديدةً لهم غير مرغوب فيها. عُدنا قرب الحادية عشرة إلى الفندق ولم نخلد إلى النوم إلا في الثانية بعد منتصف الليل، بعد أن أخذنا نتبادل باستمتاعٍ انطباعاتنا عن اليوم الرائع الذي قضيناه. وفي موسكو اختفى من داخلي تماماً هذا الإحساس بالغربة في علاقاتي بزوجي والذي شعرتُ به على مدى الأسابيع الأخيرة الماضية من حياتي في بطرسبورج، وهكذا أصبحتُ إنساناً عطوفاً مُحبباً للحياة على النحو الذي كنتُ عليه وأنا مخطوبة. وقد أَكَّد لي فيودور ميخايلوفيتش أنه وجد هنا «أنيا التي أحبُّها» والتي كاد أن يفقدها في بطرسبورج، وقال لي إن «شهر العسل» قد بدأ لتوّه بالنسبة له. في هذه اللحظة أدركتُ تماماً مدى السعادة التي يمكن أن تكتنِف حياتنا الزوجية، لو أن هذه المنغصات التي تحول بيني وبين زوجي والتي يُثيرها ضدي أقاربه قد زالت. لقد ظلَّت ذكرياتي السعيدة عن رحلتي إلى موسكو راسخة في أعماقي إلى الأبد، وعندما كنتُ أعود لزيارتها بعد ذلك كنتُ أشعر أنني أكثر سعادة وسكينة ورضاً فيها عنها في أي مكانٍ آخر.

أخيراً وافقت مجلة «البشير الروسي» على تقديم قرضٍ جديد مُقدِّماً إلى فيودور ميخايلوفيتش قدره ألف روبل. وقد عَلِمنا بالأمر يوم الجمعة، وفي اليوم التالي مباشرة سافرنا إلى بطرسبورج. أذكر أن قطارنا قد توقَّف لسببٍ ما لمدة ساعةٍ في محطة كلين. كانت الساعة حوالي السابعة مساءً وكانت صلاة الليل تقام بمناسبة سبت السعف في القاعة العامة. كان الجميع يقفون وقد أمسكوا بالشموع المُضاءة وبأغصان الصفصاف. انضمَّنا إلى المُصلِّين، وما زلت أذكر كيف رُحْتُ أُصَلِّي بحرارةٍ وأنا أقف إلى جوار زوجي العزيز، وكيف توجَّهْتُ إلى الله بالشكر الخالص للسعادة التي وهبها إياي! كانت لحظاتٍ من العمر لا تُنسى!

٨

السفر إلى الخارج

عُدنا إلى بطرسبورج، ومن جديدٍ عادت الحياة المُملَّة مسيرتها الأولى. على مائدة الإفطار ظهر ضيوفنا المُعتادون، تلاهم تجمُّع باقي الأقارب. الذين بلغهم نبأ وصولنا يوم الأحد عن طريق ربيب زوجي. كان من نصيبي مرةً أخرى واجب «رعاية» و«ضيافة» الأقارب.

وقد فعلت ذلك بكل رضا واقتناع، على أمل أن كل شيء سوف يتغير قريباً. كان فيودور ميخايلوفيتش قد غادر البيت لأمر ما، أما أنا فقد حزمْتُ أمري على ألا أتحدث لأحد بشأن سفرنا المُحتمل إلى الخارج تجنباً لأيّة مشاحنات. لم يأت ذكر السفر إلّا ونحن جلوس نتحدث على الغداء، الذي تجمّع حوله جميع الأقارب بمن فيهم أُمي. تحدث الجمع عن الطقس الربيعي الرائع الذي استمر طوال الأسبوع، وهنا اقترحت إميليّا فيدوروفنا فكرة أنه ربما أصبح من الضروري استغلال صفاء الجو للبحث عن «داتشا» (بيت صيفي) وإلا فإن البيوت الجيدة سوف يتم شراؤها، وأضافت قائلةً إنها تعرف بيتاً ذا حديقة واسعة، وهو كبير بحيث يُمكن أن يضم، بخلافنا، آل دستوفسكي جميعهم.

– لا حاجة بنا لداتشا، سوف نسافر أنا وأنا للخارج.

استقبل الأقارب كلهم هذه الكلمات باعتبارها نكتة، ولكنهم بدءوا يؤمنون أنها حقيقة عندما بدأ زوجي يطرح عليهم خطة السفر بالتفصيل. بدهاء كانوا ساخطين وفجأة التزموا الصمت على نحوٍ ما. حاولت أن أثبت الحيوية في الحديث، فأخذت أتحدث عن آل إيفانوف وعن جولاتنا في موسكو، لكن أحداً لم يُعرنى اهتماماً.

قدمت القهوة بعدما قام فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة مكتبه غاضباً من هذا الاحتجاج الصامت. تبعته بعد برهة إميليّا فيدوروفنا، أما باقي الأقارب فقد انتقلوا إلى غرفة الاستقبال ولم يبقَ في غرفة الطعام سواي وبافل ألكسندروفيتش الذي بادأني بالقول، وقد احتدم غضبه: أرى جيداً أن هذا الأمر من الأعيك، أنا جريجوريفنا!

– أية ألعيب؟

– أحقاً لا تفهمين؟! هذه الرحلة السخيفة إلى الخارج! لكن، فلتعلمي أن حساباتك خاطئة تماماً. إذا كنتِ قد «سمحت» لكما بالسفر إلى موسكو، فقد كان ذلك فقط لأن بابا سافر ليتسلّم نقوداً. لكنّ السفر إلى الخارج إنما هو نزوة من نزواتك، أنا جريجوريفنا، ولن أسمح بها بأي حالٍ من الأحوال.

شعرت بالغضب الشديد من لهجته، لكنني لم أرغب في الدخول معه في شجارٍ فقلت له ساخرة: ربما تشعر بالشفقة نحونا؟

– لا تعتمد على ذلك. إن هذه النزوة باهظة التكاليف، ولست وحدك التي تحتاجين إلى نقود، وإنما الأسرة كلها؛ النقود هنا ملك الجميع.

هذا الكلام يصدر عن شخصٍ مدين بكل شيء لزوج أمّه الطيب. شخص لا يعرف كيف يكسب قرشاً واحداً! وعلى الفور غادرت المكان حتى لا أوبّخه على وقاحته.

مضت نصف ساعة، خرجت بعدها إميلييا فيدوروفنا من غرفة المكتب غاضبة، أمرت بناتها بالتأهب للعودة إلى البيت، ثم غادرت البيت بعد أن ودَّعْنِي بجفاء. بعدها دخل نيكولاي ميخايلوفيتش، الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوفيتش، ثم بدأ باقي الأقارب في المغادرة. وبعد أن غادر الجميع، جاء دور بافل ألكسندروفيتش في الدخول. وكعادته بدأ يتحدث بانفعالٍ حادٍّ وبأسلوبٍ وعظي، عندئذٍ لم يتمالك فيودور ميخايلوفيتش نفسه وطرده من غرفة المكتب، وعلى الفور خرج مُتجهًا إلى مكان ما.

بعد أن انصرف الجميع دخلتُ إلى المكتب لأجد زوجي وقد اشتدَّ به الغضب والاستياء. قال إن جميع الأقارب يُعارضون السفر للخارج، وفي حالة إذا ما تمَّ فإنهم «يطلبون» أن يترك لهم مالاً يكفيهم لعدة أشهر مقدماً. سألته: ما مقدار هذا المبلغ؟

– لقد وعدت إميلييا فيدوروفنا أن تتحدث مع الأولاد وأن تردَّ عليَّ غداً؛ أجاب فيودور ميخايلوفيتش.

بعثتُ كلماته الرعب في قلبي. كان فيودور ميخايلوفيتش ينوي أن يُعطي إميلييا فيدوروفنا مائتي روبل من مجموع ألف روبل تقاضاها من «البشير الروسي»، ثم مائة لباشا لمصروفه الشخصي، ومائة لنيكولاي ميخايلوفيتش ومائة لمعاشنا حتى موعد السفر. وهكذا يتبقَّى لنا للسفر خمسمائة روبل. كنا نضع في حسابنا أن يشرع في كتابة «مقالة بيلينسكي»^{١٩} بعد أن يستجمَّ لمدة شهرٍ في الخارج. كان من المُفترض أن تتكوَّن هذه المقالة من ثلاث أو أربع ملازم، وعندئذٍ يُصبح من الممكن أن يتقاضي فيودور ميخايلوفيتش مُقابلها حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة روبل خلال فترةٍ قصيرة، وقد خصَّص هذا المبلغ لاحتياجات أقرابه إبَّان أشهر الصيف. كنَّا قد أعددنا العدة أن نعود إلى بطرسبورج في مطلع أغسطس.

وها هي هواجسي الكثيبة تتحقَّق. في صباح اليوم التالي حضرت إميلييا فيدوروفنا وأعلنت أنها بحاجة إلى خمسمائة روبل لأُسرتها ومائتين لمعاش ربيبه إبَّان غيابنا، حاول فيودور ميخايلوفيتش أن يُقنعها بأن توافق على قبول ثلاثمائة روبل (لأُسرتها ولربيبه)،

^{١٩} بيلينسكي، فيساريون جريجوريفيتش (١٨١١-١٨٤٨م): ناقد، تعرف عليه دستوفسكي في مطلع صيف عام ١٨٤٥م، وكان يحظى آنذاك بشهرةٍ كبيرةٍ باعتباره أكبر ناقد في روسيا. أعطاه الشاعر نكراسوف مخطوطة رواية «الفقراء» ليقراها. وقد رسم دستوفسكي شخصية بيلينسكي في رواية «مُذلون مُهانون» تحت اسم الناقد الشهير «ب». (المترجم)

أما باقي المبلغ فوعد أن يُعطيها إِيَّاهُ بعد شهرين، لكن إميليا فيدوروفنا رفضت هذا العرض، ولم يكن فيودور ميخايلوفيتش يمتلك القوة على الرفض: لقد اعتاد على تحقيق كلِّ مطالب أُسْرته منذ وفاة أخيه.

وخلال النهار كان على فيودور ميخايلوفيتش أن يتعرض لِمحنةٍ جديدة، فقد حضر إليه دون سابق موعد، شابٌّ، وهو ابن السيدة رايسمان.^{٢٠} كانت تحتفظ لديها بعددٍ من وثائق تنفيذ أحكامٍ ضدَّ فيودور ميخايلوفيتش، تبْلُغ قيمتها حوالي ألفي روبل، ولكن ولأن زوجي اعتاد أن يدفع لها فوائدَ كبيرة فلم تكن تُزعجه. والآن جاء ابنها ليُعلنه أن أمّه تطلّب منه أن يُسدّد خمسمائة روبل مقابل كل وثيقة، وفي حالة رفضه فهي تعتزم اللجوء إلى مُحضِر المحكمة ليحجز على منقولاتنا.

كان فيودور ميخايلوفيتش مذهولاً من هذا الطلب الذي جاء على غير موعد، ولكنّه وعد، أمام إلحاح رايسمان، أن يدفع لها غداً ثلاثمائة روبل.

في نفس اليوم تسلّمنا خطابات من الأقارب اتضح من خلالها أن على فيودور ميخايلوفيتش أن يدفع لهم ألفاً ومائة روبل، إلى جانب الثلاثمائة التي سيدفعها إلى رايسمان، بينما كان كل ما في أيدينا هو ألف روبل!

بصراحة، فقد بدا لي أن هذا الطلب المُفاجئ فيه شيء من شبهة التواطؤ بين الدائنين، لكنني لم أفصح عن فكرتي لزوجي.

في وقتٍ متأخر من المساء قال لي فيودور ميخايلوفيتش، بعد أن أحصى نفقاتنا المُنتظرة: إن القدر يُعانِدنا يا عزيزتي أنيتشكا، ها أنت تَرين بنفسك: إذا سافرنا للخارج الآن، في الربيع، فلسوف نحتاج إلى ألفي روبل، وليس لدينا حتى ألف واحدة. وإذا ما بقينا في روسيا فإننا نستطيع العيش بما لدينا في هدوءٍ شهرين كاملين، وربما استأجرنا الداتشا التي اقترحَتها إميليا فيدوروفنا. وهناك سوف أشرع في العمل، وعندئذٍ يُصبح من المُمكن أن نحصل في الخريف على قدرٍ من المال، وعندها نسافر إلى الخارج لمدة شهرين. لو تعلمين يا يَمامتي الغالية مقدار أسفي لأن هذا الأمر لن يتحقّق الآن! كم حلمتُ بهذه الرحلة، وكم هي ضرورية لِكَلِينا!

^{٢٠} رايسمان (رايسلر) أنا إيفانوفنا (١٨١٤-١٨٨٢م): مُرابية من بطرسبورج، يُعتَقَد أن دستويفسكي استلهم شخصيتها في رسم نموذج المُرابية أليونا إيفانوفنا في رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

حاولتُ أن أخفي حُزني عن زوجي وأنا أرى مقدار الإحباط الذي أصابه فقلت له بحماس: حسنًا يا عزيزي، فلتطبّ نفسك. سننتظر حتى الخريف! لعل وعسى أن يكون لنا نصيب من السعادة!

تعللت بالصداع وأسرعْتُ في مغادرة غرفة المكتب خشية أن انفجر في البكاء فأزيد من حُزن زوجي. كان الألم يعتصر قلبي. راودتني الأفكار الكئيبة وراحت الشكوك والهواجس تُنشِب مَخالبها في صدري، كنتُ قد تخلصْتُ من كل ذلك أثناء رحلتنا إلى موسكو، والآن ها أنا أسقط في مهاوي اليأس وأنا أشاهد الحلم الذي أخذ ينأى عن أن يصير واقعًا.

رحتُ أفكر في أن هذه العلاقة الروحية الدائمة مع زوجي، والتي أدركتُ قيمتها في أسابيع الصفاء التي سبقت زواجنا، والتي أضفتَ الجمال على حياتنا في موسكو، هي وحدها التي بإمكانها أن تبني الأسرة القوية المُتحابَّة التي حلمتُ بها أنا وفيودور ميخايلوفيتش، وأنا إذا كنَّا نرغب في إنقاذ حُبنا، فإن من الضروري لنا أن نخلو لأنفسنا ولو لمدة شهرين أو ثلاثة، وأن أَسْتَشِعِر الهدوء والسكينة، بعيدًا عن الاضطراب والأذى الذي عانيته. كنتُ على يقينٍ لا يتزعزع أننا عندئذٍ سوف نتألف أنا وزوجي إلى الأبد، وأن أحدًا، أيًّا كان، لن يكون بإمكانه أن يفصم ما بيننا من عُرَى. رحْتُ أفكر: من أين لنا المال الضروري الذي نحتاجه لرحلتنا هذه؟ وبغثةٍ خطرت ببالي فكرة: «ولماذا لا أضحي بجهاز العروس الذي أملكه من أجل هذه الرحلة، وبهذا أكون قد أنقذتُ سعادتي؟» راحت هذه الفكرة شيئًا فشيئًا تستحوذ على مشاعري، على الرغم من أن تنفيذها كانت تكتنفه صعوبات كثيرة، وعلى رأسها أنني أنا نفسي لم أكن لأجسر على الإقدام على تقديم هذه التضحية بمثل هذه السهولة. وقد ذكرتُ من قبل أنني، على الرغم من سنتاتي العشرين، فقد كنتُ طفلةً في جوانب كثيرة من شخصيتي، وفي مرحلة الشباب تكون أشياء، مثل الأثاث والملابس، ذات قيمة كبيرة. كنتُ مُعجبةً أشدَّ الإعجاب بالبيانو الذي أملكه وبالمائدة والمناضد الصغيرة والدواليب ذات الأرفف؛ بالإضافة إلى الأدوات واللوازم الأخرى التي اشتريتها. كان من المؤسف أن أفقد كل هذا وأن أخطر بالآأ أسترجعه أبدًا مرةً أخرى وقد اشترتُ أُمِّي جزءًا كبيرًا من جهاز العروس من مالها. أخذتُ أفكر: «ماذا لو أن أُمِّي اهتمت زوجي بتحيزه الزائد لأقاربه وبدأت تشكُّ في مدى حُبِّه لي؟ كم من العذاب ستُقاسي، وهي التي كانت كثيرًا ما تضع دومًا سعادة أطفالها فوق سعادتها الشخصية؟!»

على هذه الحال من التردُّد والشك قضيتُ ليلتي مسهدة. وفي الساعة الخامسة صباحًا دقَّتِ الأجراس معلنةً عن قداس الصباح، فقررت الذهاب للصلاة في كنيسة الصعود

القائمة قبالة بيتنا. كانت الصلاة دائماً ما تؤثر فيَّ بقوة: رحت أصلي لله وأبكي بكل خشوع وحمية، ثم غادرت الكنيسة وقد ترسّخ في نفسي القرار. لم أرجع من الكنيسة إلى البيت، وإنما توجّهت مباشرةً إلى أمي. انزعجتُ أمي المسكينة لهذه الزيارة في هذه الساعة المبكرة، ناهيك عن أثر البكاء في عيوني. كانت الوحيدة من بين كلِّ القريبين مني التي كانت تعرف أن حياتي العائلية تفتقر إلى التوفيق. كانت كثيراً ما تزجُرني لعدم قدرتي على إجبار بافل ألكسندروفيتش على احترامي وتغيير المناخ المحيط بي. وأعربتُ أمي أيضاً عن استيائها من أنني أقضي أياماً بطولها لا أفعل شيئاً ذا قيمة، سوى ضيافة أناسٍ مُملّين بينما كنت في الماضي مشغولةً دائماً، أبحث في العمل عن مُنتعتي الروحية. كانت أمي امرأة سويدية، تنظر إلى الحياة بنظرةٍ غربية أكثر ثقافة، وكانت تخشى من تبدل العادات الطيبة التي غرستها في نفسي بسبب حياتي على الطريقة الروسية وما فيها من كرم الضيافة الفوضوي. ولأنها كانت تُدرك أنني لا أملك الشكيمة ولا الذكاء الاجتماعي لكي أضع كلَّ شيءٍ في نصابه، فقد كانت تُعوّل بشدة على سفرنا إلى الخارج. رأتُ أمي أن تقترح على فيودور ميخايلوفيتش أن يأتي ليسكن في بيتها، بعد عودتنا، وسوف نُعطيه شقةً جيدة بلا مُقابل، وعندئذٍ لن يعود بإمكان أقاربنا أن يأتوا لزيارتنا كلَّ يوم بسبب بُعد المسافة. كما أن بافل ألكسندروفيتش لن تراوده الرغبة في السكن في «الأدغال» كما كان يُسمي منطقتنا باحتقار، وسوف يُفضل بالطبع البقاء لدى إميليّا فيدوروفنا. وعلى هذا النحو فإن الانفصال عن بافل ألكسندروفيتش لن يبدو نوعاً من الخصام العائلي، بقدر ما سيقع بناءً على رغبته الشخصية.

بعد أن عرفتُ أمي أن رحلتنا إلى الخارج قد آلت إلى الفشل، وأنه سيتحتم عليّ قضاء الصيف في داتشا تضمُّ آل دستوفسكي جميعهم أصابها الذعر. كانت تعلم طبيعتي المُستقلة وصلابة الطبع التي تميّز الشباب، وكان أكثر ما تخشاه أن تنفّلت أعصابي فتقع الكارثة.

كانت خُطتي تتمثّل في أن أرهن كلَّ شيءائي، وكم كانت سعادتي عظيمةً عندما استحسنتُ أمي هذه الخطة! وعندما سألتها إن كانت آسفةً على ما اشترته من أثاثٍ وأشياء أخرى أجابت: بالطبع آسفة، ولكن ما العمل، أليست سعادتك في خطر؟ أنت وفيودور ميخايلوفيتش شخصان مُختلفان إلى حدٍّ كبير، فإذا لم تتألفا، الأمر الذي ينبغي حدوثه الآن، فإنكما، بطبيعة الحال، لن تتألفا أبداً. عليكما أن تسافرا، وبأقصى سرعة،

قبل الأعياد، وقبل أن تظهر مُشكلات جديدة. سألتها: ولكن، هل سيكون باستطاعتنا أن نرهن أشياءنا ونحصل على النقود قبل الأعياد؟

لُحسُنَ الحظ كانت أُمِّي تعرف أحد مديري شركة «المنقولات الكبرى» ووعدتني بسرعة الذهاب لمُقابلته لكي يُرسل إلينا بالثُمْن غداً. كان موعد إيجار شقتنا يحين في الأول من مايو، وكان من الممكن نقل الأثاث إلى المخازن بعد العيد. سعت أُمِّي جاهدةً أن تُعطي أقارب فيودور ميخايلوفيتش المبالغ التي حدّدها لكل شخص منهم. أما فيما يتعلق بالأشياء الذهبية والفضية وأوراق اليانصيب والبلاطي الفرو، فكان من الممكن رهنها قُبيل سفرنا.

كنْتُ سعيدةً أن وصلتُ إلى البيت قبل أن يستيقظ فيودور ميخايلوفيتش من نومه. كان بافل ألكسندروفيتش مهتماً بشدة أن يعرف أين كنْتُ طوال الصباح. جاء مُسرّعاً إلى غرفة الطعام، حيث كنْتُ أقوم بإعداد القهوة لزوجي، وكعادته راح في إلقاء التلميحات اللازمة. بدأ بقوله: يُسعدني أن أُقرّر أنك، أنا جريجوريفنا، امرأة مُتدينة، إلى حدّ أنك تحرصين ليس فقط على أداء قداس الصباح، كما علمت بذلك من فيدوسيا، بل وعلى قدّاس الظهر أيضاً.

– نعم كنْتُ في الكنيسة، أجبته باقتضاب.

– ولكن، لماذا أنت شاردة اليوم؟! اسمحي لي أن أعرف إلى أي أجواء بعيدة يُخلّق بك خيالك؟

– بعيداً، ما دُمنّا، كما تعلم، لن نسافر إلى الخارج.

– أَلَمْ أَقُلْ لك؟ لديك من الخبرة الآن، أن تعرفي أن باستطاعتي ذلك، وأنني لن أسمح بالسفر إلى الخارج!

– حسناً، حقاً، أعرف، أعرف أنك قُلْتَ ذلك! أجبته رغبةً عن الدخول في جدلٍ معه، على الرغم من أنني كنْتُ في حالة شديدة من الاستياء لوقاحتِهِ.

لم تبقَ سوى مهمة واحدة كبيرة. أن أقنع فيودور ميخايلوفيتش بالمُوافقة على الخطة التي وضعتها. كان الحديث معه حول هذا الأمر في البيت مُستحيلاً؛ كان من المُمكن أن يُقاطعنا أحدٌ ما في كل دقيقة، وقد تشبّث بافل ألكسندروفيتش بالبقاء في البيت منتظراً وصول آل دستوفسكي الشباب، ضيوفنا الصباحيين المعتادين. ولُحسُنَ الحظ، كان على زوجي الخروج لشأنٍ ما. دعوته لأن أذهب برفقته إلى أقرب صيدلية. ما إن خرجنا من البيت حتى اقترحتُ عليه أن نذهب إلى كنيسة الصعود. صلينا معاً أمام أيقونة العذراء،

ثم مشينا معاً عبر شارع فوزنيسينسكايا ثم عبر كورنيش مويكا. كنتُ في أشدِّ حالات الاضطراب ولم أكن أعرف كيف أبدأ الحديث. ساعدني فيودور ميخايلوفيتش على الكلام، عندما لاحظ ما أنا عليه من نشاطٍ قائلاً: كم أنا سعيد يا أنيا أنكِ قبلتِ، بصدرٍ رحبٍ، قرار إلغاء السفر للخارج الذي حلمنا به!

– يُمكننا أن نُسافر إذا وافقتِ على خطتي، التي سأقترحها عليك. أجبتهُ ثم رحْتُ على الفور أعرضها عليه. وكما توقعتُ رفض زوجي خطتي على الفور، لأنه لم يكن يرغب في أن أضحيَّ بأشياءٍ. رحنا نتجادل ودون أن نلاحظ الطريق تجاوزنا (عبر كورنيش مويكا) طريقنا لنجد أنفسنا في مكان غير مأهول وغير معلوم لي من المدينة. للمرة الثانية على مدى حياتنا الزوجية أعتزف لزوجي بمعاناتي وأتوسَّل إليه أن يُعطيني ولو شهرين أو ثلاثة أشهر أعيشها معه في سعادةٍ وهدوء. أكدتُ له أننا، في ظروف مثل التي نعيشها الآن، لن نكون أصدقاء، كما حلمنا من قبل، بل وربما ننفضِل إلى الأبد. توسَّلْتُ إلى زوجي أن يُنقِذَ حُبنا، سعادتنا، وهنا لم أتمالك نفسي من البكاء؛ مما جعل فيودور ميخايلوفيتش يتأثر بشدَّةٍ ولم يكن يعرف كيف يتصرَّف. أسرع بالموافقة. فشعرتُ بالفرح كما لم أشعر من قبلُ حتى إنني اندفعتُ أقبلُه دون أن أُعيرَ المارَّةَ اهتماماً (كان المكان هنا يتميز بقلَّة المشاة). وتجنباً لضياح الوقت، اقترحتُ على زوجي التوجُّه إلى مكتب الحاكم العام لمعرفة متى يمكن تسلُّم جواز السفر. كان زوجي يتعرَّض لمشكلات كثيرة بسبب هذا الجواز فباعثاره مجرماً سياسياً سابقاً، كان فيودور ميخايلوفيتش تحت رقابة الشرطة،^{٢١} وكان عليه، إلى جانب الإجراءات الرسمية الأخرى، أن يحصل على تصريح، مُقدِّماً، من الحاكم العام العسكري. وفي المكتب، اقترح عليه الموظف المسئول، والذي كان يُكنُّ تقديرًا كبيرًا لموهبة فيودور ميخايلوفيتش، أن يكتُب طلباً على الفور، ووعده بأن يُقدِّمه غداً لرئاسته، كما وعده أن يكون جواز السفر جاهزاً يوم الجمعة.

أذكر مدى السعادة التي غمرتني في هذا اليوم! وحتى مُضايقات بافل ألكسندروفيتش السخيفة لم تُغضبني: كنتُ أعلم أن نهايتها قد اقتربت. في هذا اليوم لم نُخبر أحداً عن

^{٢١} عن رقابة الشرطة لدستوفسكي انظر مقالة ي. ج. أوكسمان «التعليمات السرية الخاصة بدستوفسكي» في كتاب: «إبداع دستوفسكي» أوديسا، ١٩٢١م، ص ٣٦-٣٨، وكذلك في الفصل السابع من هذا الكتاب وفي مقالنا المترجم المنشور بمجلة «ضاد» والمشار إليه سابقاً.

سفرنا، باستثناء أُمِّي التي حضرت إلينا في المساء وأحضرت معها الأشياء الذهبية والفضية وأوراق اليانصيب لُترسل بها في الغد لرهنها.

في اليوم التالي، الأربعاء، حضر إلينا مُثَمَّن الشركة وحدد المبلغ الذي نستطيع أن نتقاضاه مُقابل الأثاث. وفي نفس اليوم، بعد الظهر، عندما اجتمعنا على الغداء، كان جميع الأقارب موجودين، عندما أعلن فيودور ميخايلوفيتش أننا سنُسافر إلى الخارج بعد غد. هنا قاطعه بافل ألكسندروفيتش الذي كان يحتدم غيظاً بقوله: اسمح لي بابا أن أبدي لك ملاحظة.

— لا ملاحظات! صاح فيودور ميخايلوفيتش غضباً، كلُّ منكم سيأخذ ما حددناه، لا قرش واحداً زيادة.

— لكن هذا غير معقول! لقد نسيْتُ أن أخبرك أن معطفي الصيفي لم يُعد على المودة من فترةٍ طويلة، ويلزمني معطف جديد، إلى جانب مصروفاتي الأخرى ... هكذا بدأ بافل ألكسندروفيتش حديثه.

— زيادة على ما تحدّد، لن تأخذ شيئاً. سنسافر إلى الخارج بنقود أنا جريجوريفنا، وهي نقود لا أملك التصرّف فيها.

حاول بافل ألكسندروفيتش أن يُقدّم طلباتٍ أخرى مرةً واثنين وثلاثاً، لكن فيودور ميخايلوفيتش لم يُعره اهتماماً.

بعد الغداء راح الأقارب يدلفون إلى غرفة مكتب زوجي واحداً بعد الآخر. وهناك أخذ فيودور ميخايلوفيتش يُعطي كلَّ واحدٍ منهم جزءاً من المال. واستبقى الإيصالات المؤجلة إلى الأول من مايو التي ستدفع أُمِّي قيمتها من النقود التي تسلّمناها مقابل الأشياء المرهونة.

حاولت إقناع فيودور ميخايلوفيتش أن يُعطي بافل ألكسندروفيتش نقوداً ليشترى بها معطفاً صيفياً حتى لا يُسبّب لنا مشاكل. لكن هذه التضحية لم تُلن قلب باشا، الذي قال لي عند الوداع: إن هذه الفعلة الخبيثة (يقصد سفرنا إلى الخارج) لن تمرّ مرور الكرام، وإنه عندما يحلُّ الخريف «سوف نتصارع، ومن يدري، لمن تكون الغلبة».

كنتُ سعيدة، حتى إنني لم ألقِ انتباهاً لكلماته اللاذعة التي كان ينهال بها عليّ من كل جانب.

رَبُّنا أمتعتنا على عجل، ولما كنا نظن أننا لن نبقى في الخارج سوى فترةٍ قصيرة، فإننا لم نأخذ معنا سوى الأشياء الضرورية بعد أن تركنا رهن أثاثنا لدى أُمِّي، كما تركنا

الأيام الأولى في حياتنا الزوجية

بأقي أدواتنا لآحتفظ بها عندها. وشب بأفل ألكسندروفيتش ناحيتَها لئيساعدها، ولكنة، أعاق عملَها بدلاً من أن يُخفّف عنها. جزء كبير من محتويات غرفة فيودور ميخايلوفيتش ومكتبته نقلَها بأفل ألكسندروفيتش إلى غرفته بدعوى أنه يُريد أن يُطالع الكتب ليزيد من تعليمه.

سافرنا إلى الخارج لمدة ثلاثة شهور، لكننا عُدنا إلى روسيا بعد أربعة أعوامٍ وبضعة شهور. خلال هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة سارة في حياتنا، وسوف أظلُّ أتوجّه بالشكر لله الذي أمدَّنِي بالقوة في اتخاذ قرار السفر إلى الخارج. هناك بدأت حياتنا الجديدة والسعيدة معاً، وازدادت صداقتنا وحُبنا قوة، هذه الصداقة وهذا الحُب اللذان استمرّا حتى اليوم الأخير من حياة زوجي.

الجزء الرابع

الإقامة في الخارج^١

١

الخلاف الزوجي الأول (نقلًا عن دفتر الاختزال)

«مطر خفيف تساقط اليوم (١٨ أبريل)، ولكن، يبدو أنه سيستمر طوال النهار. أهالي برلين نوافذهم مُشَرَّعة؛ أسفل نافذتنا شجرة زيزفون، ما يزال المطر يهطل، لكننا قرَّرنا الخروج لكي نشاهد المدينة. خرجنا باتجاه Unter den Linden شاهدنا، Schloß Bauakademie, Zeughaus, Opernhaus،^٢ الجامعة وLudvigskirche.^٣ نبهني فيديا الغالي إلى أنني أرتدي ملابس شتوية (قبعة بيضاء ذات وبر) وأن قفازاتي قبيحة. غضبتُ من قوله وأجبتُه بأنه إذا كان يظنُّ أنني أرتدي ملابس قبيحة فالأفضل ألا نسير معًا. وما إن أتممتُ عبارتي حتى سارعتُ متجهةً إلى الجانب الآخر للطريق. ناداني فيديا عدة مرات ثم أراد أن يلحق بي. لكنه راجع نفسه وعاد للسير في طريقه السابق. كنت غاضبةً بشدة وقد اعتقدتُ أن ملاحظة فيودور ميخايلوفيتش خالية من الرقة بدرجةٍ فظيعة. عبرت بسرعة عدة شوارع وإذا بي أجد نفسي عند Brandenburger Thor. كان المطر ما يزال ينهمر؛ وكان الألمان ينظرون إليَّ بدهشة. فتاة تسير تحت المطر دون مظلةٍ ودون

^١ لمزيد من التفاصيل عن حياة ف. م. دستوفسكي وأ. ج. دستوفسكايا في الخارج في عام ١٨٦٧ م انظر مذكرة الكاتب.

^٢ القصر، أكاديمية العمارة، دار الأسلحة، مسرح الأوبرا (بالألمانية).

^٣ كنيسة لودفيك (بالألمانية).

أن تُولي أدنى اهتمامٍ لأي شيءٍ حولها. شيئاً فشيئاً استعدتُ رباطة جأشي وأدركت أن فيودور ميخايلوفيتش لم يقصد بملاحظته إغصابي بأي شكلٍ من الأشكال وأنني قد فقدتُ أعصابي بلا أي مُبرر. هيَّج هذا الخلاف بيني وبين فيديا مشاعري وأثار قلقي بشدة، وراحت الأفكار، يعلم الله على أي نحو، تتلاعب في رأسي. قررتُ العودة على وجه السرعة إلى الفندق معتقدةً أن فيديا قد سبقني إلى العودة وأن بإمكانني التصالح معه. ولكن كم كان حُزني عندما علمتُ بعد وصولي أن فيديا قد مر سريماً ليبقى بضع دقائق في الغرفة ثم يُغادر المكان مرةً أخرى. يا إلهي، كم من المشاعر والأحاسيس راحت تضطرم في نفسي! تصورتُ أنه هجرني، وبعد أن اقتنع تماماً أنني امرأة سيئة مُتقلبة الأطوار، وجد نفسه تعيشاً للغاية فألقى بنفسه في نهر شبيريه. ثم تصورت بعد ذلك أنه توجه إلى سفارتنا لكي يُطلقني وأن يستخرج لي جواز سفر مستقلاً ليُعيدني إلى روسيا. وقد أخذت هذه الفكرة تشنُّ داخلي عندما لاحظتُ أن فيديا فتح إحدى الحقائب (التي بدت في غير المكان الذي كانت فيه وكان حزامها مفكوكة). بداهةً فقد حصل فيديا على وثائقنا لكي يذهب بها إلى السفارة. راحت كل هذه الأفكار البائسة تُعذِّبني حتى إنني بدأت أبكي بكاءً مريئاً وألوم نفسي على نزواتي وتهوُّري. عاهدتُ نفسي ألا أعود إلى روسيا بأي حالٍ إذا ما هجرني فيودور ميخايلوفيتش، وأن أختبئ في مكانٍ ما في إحدى القرى البعيدة خارج البلاد لأظللُ أُنذب حظي إلى الأبد على خسارتي الفادحة. مرَّت ساعتان وأنا على هذه الحال. كنتُ أقفز كل دقيقة من مكاني وأقترِب من النافذة لأنظر إن كان فيديا قد أتى أم لم يأت بعد؟ وعندما قارب صبري على النفاد، شاهدت فيودور ميخايلوفيتش، وأنا أنظر من النافذة، وهو يسير في الطريق مُنطلقاً وقد وضع يديه في جيوبه. فرحتُ بشدة، وعندما دخل إلى الغرفة اندفعتُ إليه أعانقه من رقبتِه وأنا أبكي وقد فاضت الدموع من عيني. أُصيب بالفزع وقد رأى عينيَّ مخضلةً بالدموع، فسألني عما حدث لي. عندما حكيتُ له عن مخاوفي راح يضحك بشدة وقال لي «إن من يُلقي بنفسه ليغرق في نَهْرٍ تافهٍ مثل شبيريه لا بد أن يكون امراً شديداً التواضع.» وقد زاد ضحكه عندما أخبرته عن فكرة الطلاق التي راودتني قائلاً «إنني لا أعرف بعد مقدار عشقه لزوجته الحبيبة.» أخبرني أنه رجع إلى هنا وفتح الحقيقة لكي يحصل على بعض النقود لشراء بالطو لي. اتضح كل شيءٍ أمامي وتصلحنا وكنتُ في أشدِّ حالات السعادة.

غادرنا برلين إلى درزدن بعد أن قضينا فيها يومين. وقد قرّرنا أن نعيش فيها شهرًا بعد المجهود الشاق الذي بذلّه زوجي في عمله الأدبي. كان فيودور ميخايلوفيتش يُحب مدينة درزدن أساسًا، لوجود متحف الفنون الجميلة الشهير بها ولحداثتها الرائعة وضواحيها الخلابة، وكان دائمًا ما يمر بها إبّان رحلاته إلى هنا، إذ إن هذه المدينة كانت تمتلك عددًا كبيرًا من المتاحف والكنوز. وحيث إن فيودور ميخايلوفيتش كان يعلم مدى ما لديّ من حُب استطلاع فقد أحسّ أنني سوف أستمتع بالمكان ولن أشعر بالوحشة تجاه روسيا، الأمر الذي كان يخشاه في الأيام الأولى لوصولنا.

توقفنا في Neumarkt، في واحد من أفضل فنادقها Stadt Berlin، وبعد أن استبدلنا ملابسنا، توجّهنا على الفور إلى متحف الفنون الجميلة، حيث كان زوجي يودُّ أن يُعرّفني أولًا على كنوز المدينة. أكّد لي فيودور ميخايلوفيتش أنه يذكر جيدًا طريقًا مختصرًا يؤدّي إلى متحف تسفينجر، ولكننا سرعان ما ضلّلنا الطريق في الشوارع الضيقة، وهنا وقعت لنا هذه الحادثة الطريفة التي سيوردها زوجي في أحد خطاباته إلّيّ كمثالٍ على ميل التفكير الألماني إلى الإتقان والتعقيد بعض الشيء. توجّه فيودور ميخايلوفيتش بسؤال إلى سيدٍ يبدو أنه مثقف قائلًا:٤

- Bitte, gnädiger Herr, wo ist Gemälde-Gallerie?
- Gemälde-Gallerie?
- Ja, Gemälde-Gallerie.
- Königliche Gemälde-Gallerie.
- Ja, Königliche Gemälde-Gallerie.
- Ich weiß nicht.°

٤ الخطاب مؤرّخ ... (ملاحظة أ. ج. دستوفسكايا). *

* في متن «المذكرات» لم تأتِ أنّا جريجوريفنا على ذكر أي خطابٍ من خطابات دستوفسكي إليها تقصد. الأرجح أن هذا الخطاب قد فُقد، إذ إن هذا المقطع لم يرد ذكره في «الخطابات» التي تم إصدارها في أربعة مجلدات. وعن نفس المقطع تحكي أنّا جريجوريفنا في «مذكرة دستوفسكايا» (ص ١٠٥) مشيرة إلى أنه مؤرّخ السادس والعشرين من مايو (٧ يونيو) عام ١٨٦٧م.

° – من فضلك، سيدي العزيز، أين يقع متحف الفنون الجميلة؟

– متحف الفنون الجميلة؟

تعجّبنا من استجوابه لنا ما دام لا يعرف أين يقع المتحف. على أية حال فقد وصلنا إلى المتحف سريعاً، وعلى الرغم من أنه قد بقيت ساعة واحدة على موعد إغلاقه، فقد قرّرنا الدخول. عبّر زوجي كل القاعات وهو يقودني إلى المادونا السيستينية، وهي اللوحة التي كان يعتبرها الظهور الأسمى للعبقريّة الإنسانية. رأيتُ بعد ذلك أنّ باستطاعة زوجي الوقوف أمام جمال هذه اللوحة الفاتنة ساعاتٍ طويلة متأثراً حتى تكاد الدموع تطفّر من عينيه.^٦ أودُّ أن أذكر هنا أن المادونا السيستينية قد تركت في نفسي انطباعاً هائلاً لدى رؤيتي لها للمرة الأولى: خُيل لي أن العذراء وهي تحمّل وليدها على يديها كما لو كانت تُحلق في الفضاء قادمة لاستقبالنا. وقد عشت هذا الانطباع مرةً أخرى فيما بعد، عندما ذهبتُ لأداء صلاة الليل يوم الأول من أكتوبر. دخلت إلى الكنيسة وقد راحت تمّوج بالضوء (كنيسة القديس فلاديمير في كييف)، وهناك رأيت العمل العبقري للفنان فاسنيتسوف.^٧ نفس تأثير العذراء وقد اكتسى وجهها الرباني بابتسامةٍ رءوم قادمة لاستقبالي لتَهزّ وجداني هزّاً من الأعماق.

في نفس اليوم استأجرنا شقة في Johannis-Straße. كانت مكونة من ثلاث غرف: استقبال ومكتب ونوم، كانت تؤجرها سيدة فرنسية ترمّلت منذ فترةٍ غير بعيدة. في اليوم التالي ذهبنا لشراء بالطو مطر لي، بدلاً من البالطو البطرسبورجي الذي كنتُ أرتديه، وقد أصّر زوجي على قيامي بتجربة عددٍ من القُبعات بلغ عددها عشرًا، حتى استقرّ أخيراً على

-
- نعم، متحف الفنون الجميلة الملكي.
 - متحف الفنون الجميلة الملكي؟
 - نعم، متحف الفنون الجميلة الملكي.
 - لا أعرف (بالألمانية).

^٦ في مذكرة الكاتب عن يوم ١٨ أبريل ١٨٦٧م يُوجَد التسجيل الآتي: «وأخيراً قادني فيودور ميخايلوفيتش إلى لوحة السيستينية. لا تُوجَد هناك حتى الآن لوحة تركت لديّ هذا الأثر مثلما تركته هذه اللوحة. أي جمال هذا. أية براءة وأي حزن في هذا الوجه الرباني. كم من تواضع! كم من معاناة في هاتين العينين! كان فيديا يرى الألم في ابتسامة المادونا.» (ص ١٥) وقد ورد ذكر المادونا عدة مرات في أعمال دستوفسكي. في «الجريمة والعقاب» يتحدثُ سفيدريجايلوف عن خطيبته الشابة بقوله: «كان وجهها يُشبه مادونا رفايل. إن للمادونا السيستينية وجه رائع، وجه بريء ينبض بالألم» (دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، الجزء الخامس، ص ٥٠٢).

^٧ تقصد أنا جريجوريفنا أعمال الرسام فاسنيتسوف التي رسمها في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات على حوائط كنيسة فلاديمير في كييف مُستوحياً فيها موضوعات من الكتاب المقدس.

إحداها رأى أنها، على حدّ تعبيره، «تُلائمني بشكلٍ رائع». ما زلت أذكرها حتى الآن: كانت مصنوعة من القش الإيطالي، مُزدانة بزهور وشرائط طويلة من المخمل الأسود تنسدل على كتفي، تُسمّى حسب الموضة *Suives-moi*.

رُحنا نطوف بعد ذلك يومين أو ثلاثة لشراء ملابس صيفية لي. وكنتُ مندهشةً كيف أن فيودور ميخايلوفيتش لم يشعر بالسأم من اختيار وفحص الأشياء التي كنتُ بصدد شرائها، من ناحية جودتها ورسومها وطرزها. كانت كلُّ الأشياء التي اختارها لي ذات جودة عالية، بسيطة وجميلة، بعد ذلك اعتدتُ أن أضع ثقتي كاملةً في ذوقه.

ما إن استقرّت أمورنا حتى هبّت علينا رياح السعادة الآمنة: لم تكن لدينا أعباء مالية (لم تظهر هذه الأعباء إلّا مع قدوم الخريف)، لم يكن هناك من يحُول بيني وبين زوجي. كانت الفرصة مُهيأةً تمامًا أمامي لأستمتع بصحبته. إن ذكرياتي عن هذا الزمن، على الرغم من مرور عشر سنوات، ما تزال حيةً في أعماقي.

كان فيودور ميخايلوفيتش يُحب النظام في كلِّ شيء، بما في ذلك تقسيمه لوقته، ولهذا فسرعان ما انتظمت حياتنا بحيث بات في استطاعتنا أن نستغلّ وقتنا كما نشاء دون أن يتعرض أيُّ منّا للمضايقة. وحيث إن زوجي كان يعمل ليلاً، فلم يكن يستيقظ قبل الحادية عشرة صباحاً. كنتُ أتناول معه طعام الإفطار ثم أتوجّه على الفور لمشاهدة *Sammlung* ما،^٨ وفي هذه الحالة كنتُ أصِل بفضل ما لديّ من حُب استطلاع شابٍّ إلى حالة من الرضا والسرور. أتذكّر أنني لم أكن أترك مجموعة واحدة من المجموعات التي لا حصر لها: *botanische mineralgische, geologische*^٩ وغيرها، إلا شاهدتها بدقّة متناهية. بحلول الساعة الثانية ظهرًا كان عليّ أن أوجد حتمًا في قاعة اللوحات (وهي موجودة في متحف تسفينجر ذاته إلى جانب المجموعات العلمية). كنتُ أعرف أنه بحلول هذا الوقت يصل زوجي إلى المتحف فنبدأ معًا في مشاهدة اللوحات التي يُحبها أيضًا.

فيودور ميخايلوفيتش يضع أعمال رفايل على قمة فن التصوير، وكان يرى أن المادونا السيستينية هي رائعة أعماله. كما كان يُقدّر موهبة تيتسيان تقديرًا رفيعًا وخاصة لوحته الشهيرة *Der Zinsgroschen*، «المسيح والقطعة النقدية»، وكان يقف طويلًا دون

^٨ مجموعة (بالألمانية).

^٩ المعدنية، الجيولوجية، النباتية (بالألمانية).

أن يُحوّل بصره عن هذا التصوير العبقري للمُخلّص.^{١٠} ومن بين الأعمال الفنية الأخرى التي كان فيودور ميخايلوفيتش يجد فيها متعةً رفيعة عند مشاهدتها، والتي كان حريصاً على رؤيتها حتماً في كل زيارة يأتي فيها إلى هنا، مُتخطياً الكنوز الأخرى: Maria mit den Kind (العذراء والطفل) لموريلو، Die heilige Nacht (الليلة المقدسة) لكوريدجو، «المسيح» لأنيبالي كاراتشي، die büßende magdlena (ماجدلينا التائبه) لباتوني، Die Jagd (الصيد) لرويسدال، Küstenlandschaft Morgen und Abend (منظر طبيعي، الصباح والمساء) لكلود لوران (وقد أطلق زوجي على هذه الأعمال اسم «العصر الذهبي» وكتب عنها في «مذكرة الكاتب»)،^{١١} Rembrandt und seine Frau (رامبرانت وزوجته) لرامبرانت فان راين، Köning Karl I von England (الملك كارل الأول، ملك إنجلترا) لأنطون فان ديك؛ ومن بين الأعمال المرسومة بالألوان والباستيل كان يُقدّر تقديرًا عظيمًا Das Schokoladenmädchen (فتاة الشيكولاتة) لجان ليوتار.

في الساعة الثالثة ظهرًا أغلقت قاعة الصور الفنية، ذهبنا بعدها للغداء في أقرب مطعم وكان يُسمى Italinesh es Dörfchen (القرية الإيطالية). المطعم عبارة عن قاعة مسقوفة تقع فوق النهر مباشرة. كانت للمطعم نوافذ كبيرة تُطل على نهر إبا من الجانبين، وعندما يكون الجو صافياً يطيب تناول الغداء فيه ومراقبة ما يحدث على صفحة النهر. كان الطعام هنا رخيصاً نسبياً ولكنه كان جيداً. كان فيودور ميخايلوفيتش يواظب يومياً

^{١٠} في يوميات أنا دستوفسكايا نجد تعليقاً مؤرخاً في العشرين من أبريل حول لوحة تيتسيان «المسيح والقطعة النقدية» جاء فيه: «هذه اللوحة الرائعة، على حدّ تعبير فيديا، يمكن أن تُوضّع على قَدَم المساواة مع مادونا رفايل. هنا يُعبّر وجه المسيح عن التواضع الجَم، والسمو والألم» (ص ١٩).

^{١١} لوحتا الفنان الفرنسي كلود لوران «الصباح» و«المساء» غير موجودتين في قاعة درزدن، وإنما في متحف الإرميتاج في بطرسبورج. وتُعرف الأولى «الصباح» أيضاً باسم «لقاء يعقوب وراشيل»، أما اللوحة الثانية لكلود لوران «أسيس وجالاتيا» فهي التي أطلق عليها دستوفسكي اسم «العصر الذهبي»، وهي موجودة في قاعة درزدن للفنون وموضوع لوحة «أسيس وجالاتيا» مأخوذ من كتاب «التحولات» لأوفيد والمنشور في القرن الثالث عشر الميلادي، ويحكي قصة غرام الفتاة جالاتيا بالشاب أسيس، وقد استعان دستوفسكي بهذه اللوحة ثلاث مرات في رواياته: «الشياطين» («اعتراف ستافروجين») وفي «المراهق» (حكاية فيرسيلوف عن الأيام الأولى للإنسانية الأوروبية) وفي «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧م («حلم رجل مضحك»).

على طلب طبق من Blaus Aal («سمك الثعبان الأزرق») وكان يُحبه للغاية، وكان يعرف أن هذا المطعم يُقدِّمه بعد اصطياد السمك مباشرة. كان زوجي يُحب أيضاً أن يحتسي نبيذ الراين، وكان ثمن نصف زجاجة منه آنذاك زهيداً للغاية. وفي المطعم كانت هناك صُحف عديدة، كان يقرأ من بينها الصحف الفرنسية.

بعد أن استرحنا بالفندق ذهبنا للنزهة في الحديقة الكبيرة Grossen Garden، كان فيودور ميخايلوفيتش مولعاً بهذه الحديقة، وبخاصةً بهذا المرج الرائع على الطراز الإنجليزي، وبهذه النباتات والزهور الفاخرة. تبلغ المسافة بين الفندق والحديقة، ذهاباً وإياباً، أقل من ستة/سبعة فراسخ، وكان زوجي يُحب السير على قدميه، ويقدر هذه النزهة تقديرًا كبيراً ويحرص على القيام بها حتى في الجوَّ المطر ويقول عنها إنها تترك لدينا أثراً طيباً.

في ذلك الزمن كان هناك مطعم في هذه الحديقة يُسمَّى Zum grossen Wirtschaft، كانت تُعزف فيه الموسيقى، تارة إحدى الفرق النحاسية العسكرية، وتارة فرقة موسيقية للآلات المختلفة. أحياناً ما يكون البرنامج معتبراً. وكان زوجي، ولم يكن آنذاك قد أصبح عليمًا بالموسيقى، يُحب مؤلفات موتسارت وFidelio وبيتهوفن وHochzeitsmarsch («مارش الزفاف») وAir du Stabat Noter لروسيني، وكان يشعر بالسعادة الحقيقية وهو يستمع إلى الأشياء المحببة لنفسه، ولم يكن فيودور ميخايلوفيتش يُحب ريتشارد فاغنر.^{١٢}

^{١٢} تأكدت العلاقة المشوبة بالشك تجاه موسيقى فاجنر في خطاب دستوفسكي لأنَّ جريجوريفنا من مدينة إمس، والمؤرَّخ السابع من أغسطس (التاسع عشر بالتقويم القديم) من عام ١٨٧٩م حيث يقول: «وعلى الرغم من أن الموسيقى هنا جيدة، ولكن بيتهوفن، موتسارت، فاجنر كله (المكر الألماني الممل، على الرغم من شهرته) وباقي الأشياء الرديئة» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٠). يمكن تفسير الكراهية لفاجنر كما يبدو بأن دستوفسكي تربَّى على الموسيقى الكلاسيكية والرومانسية لجلينكا وبيتهوفن وموتسارت. ينبغي أن نضع في الاعتبار أيضاً أن دستوفسكي قد استمع إلى فاجنر في قوالب الكونشرتو فقط، في الوقت الذي لاقى فيه أوبرات فاجنر النجاح الأكبر عند تجسيدها مسرحياً. وفي نفس الوقت كتب دستوفسكي في عام ١٨٧٣م ردّاً من هيئة تحرير مجلة «المواطن» على خطاب أحد القراء من ألمانيا يقول: «وهذه الظواهر، مثل انتشار أفكار شوبنهاور المشبعة بالمهام العميقة، فإن موسيقى فاجنر، تُرنا، على الأقل، أن الفكر الألماني العميق والإبداع الفني ما يزالان أحياء، وأنهما مُشبعان بالطموحات الرفيعة الكبرى (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الثالث عشر، ٤٥٦).

كان زوجي كثيرًا ما يجد في هذه النزعات راحته من عناء التفكير في الأدب وغيره من الأمور، فخلالها يكون دائمًا في أفضل حالاته النفسية، فيروح يضحك ويلقي بالنكات. أذكر أن برنامج الحفلات كان يضم تنويعات وألحانًا خليطة pot – pourry من أوبرا Dichter und Bauer («الشاعر والفلاحة») لفرانتس فون زوبي.^{١٣} أحب فيودور ميخايلوفيتش هذه المنوعات بفضل حادثة وقعت لنا: فأثناء إحدى نزعاتنا في Grossen Garten اختلفنا في الرأي، وقد عبّرتُ عن رأيي بشكلٍ حاد. أنهى فيودور ميخايلوفيتش الحديث وسرنا بعده صامتَيْن حتى بلغنا المطعم. كنت أشعر بالكدر وأتساءل لماذا أفسدتُ المزاج الطيب الذي كان عليه زوجي. ولكي أُعيد إليه هذا المزاج قلتُ له، عندما بدءوا في أداء اللحن الخليط من أوبرا زوبي، إن هذه الأوبرا قد كتبت خاصة لنا، وأنه يُمثل Dichter، بينما أمثل أنا Bauer، وهكذا رحّتُ شيئًا فشيئًا أغني دور Bauer، وقد أُعجب فيودور ميخايلوفيتش بأدائي وراح بدوره يُغني آرياً^{١٤} Dichter، وهكذا أصلح زوبي بيننا. ومنذ ذلك الحين أصبح من عادتنا أن نُصاحب الموسيقى بصوتٍ خافت ونحن نُؤدي دور الثنائي: فزوجي يؤدي دور Dichter وأنا أؤدي دور Bauer. لم يكن أحد ليلحظ غناءنا، إذ كنا دائمًا نُغني ونحن جلوس إلى «شجرة البلوط» الخاصة بنا. كنّا ننعم بقدر كبير من الضحك والمرح، وأكد لي زوجي أنه قد عاد، بفضل وجوده معي، عدة سنوات إلى الورا تُعادل الفارق في العمر بيننا. كانت هناك مواقف طريفة أيضًا وقعت لنا.

ف ذات مرة سقط غصين من «شجرة البلوط» عليه خنفساء في كوب البيرة الكبير الخاص بفيودور ميخايلوفيتش، عَفَّتْ نفسه عن أن يشرب منه، وكان سريع الشعور بالاشمئزاز، فأعطاه للنادل وأمره أن يُحضر كوبًا آخر من البيرة. انصرف النادل ولكن زوجي ندم أنه لم تخطر بباله وقتها أن يطلب منه أولًا كوبًا جديدًا، الآن ربما يكتفي النادل بإخراج الخنفساء فقط من الكوب ويحضره هو نفسه مرةً أخرى. عندما عاد النادل سأله فيودور ميخايلوفيتش: «هل أفرغت ما في الكوب؟» «كيف أفرغته، لقد شربته!» هكذا أجاب النادل وقد بدت على وجهه علامات الرضا، حتى إننا تأكدنا أنه لم يكن ليُضيع الفرصة لأن يشرب كوبًا زائدًا من البيرة.

^{١٣} زوبي (Suppe) فرانتس (١٨٢٠-١٨٩٥م): مؤلف موسيقي نمسوي.

^{١٤} أغنية أوبرالية منفردة. (المترجم)

أعادت إلينا هذه النزعات اليومية ذكرى أمسيات خطوبتنا الرائعة وعوّضتنا عنها. كانت نزعات مليئة بالمرح والصراحة وصفاء النفس.

عُدنا في التاسعة والنصف. شربنا شايًا ثم جلسنا: شرع فيودور ميخايلوفيتش في قراءة أعمال جيرتسين^{١٥} التي اشتراها، بينما رحت أسجل يومياتي. ظلتُ أكتب هذه اليوميات على مدى عام ونصف/عامين من الأعوام الأولى لزوجنا بطريقة الاختزال مع بعض فترات التوقّف أثناء مرّضي.

فكرتُ في كتابة يومياتي لأسبابٍ عديدة: فمع كثرة الانطباعات الجديدة خشيتُ أن أنسى التفاصيل. وبالإضافة إلى ذلك كانت الممارسة اليومية للاختزال هي الوسيلة المضمونة لكي لا أنسى هذا الفن، بل ولأبلغ فيه مبلغ الإجادة. لكن السبب الرئيسي في الحقيقة كان

^{١٥} كان دستوفسكي يداوم كثيرًا على قراءة جيرتسين (ألكسندر جيرتسين ١٨١٢-١٨٧٠م). كان جيرتسين يُشكل بالنسبة له أحد أهم الكتاب والمُفكرين عمقًا ونفاذًا. من الضروري أن نشير هنا إلى أن إبداع ألكسندر جيرتسين قد ترك أثرًا كبيرًا على دستوفسكي، رغم أن هذا التأثير لم يُدرَس بعد دراسة كافية. وقد تحدث دستوفسكي عن جيرتسين للمرة الأولى في خطابه إلى أخيه ميخائيل في يناير ١٨٤٦م يتابع بدأب كل أعمال جيرتسين دون استثناء: «من المذنب؟»، «الدكتور كروبوف» التي أصبحت في مصاف روائع الأدب الروسي والعالمي المُفضل عند دستوفسكي. وكان دستوفسكي يُقدّر تقديرًا رفيعًا مقالات جيرتسين، وأبحاثه عن أوروبا. التي كانت قريبةً منه بروحها المعادية للبورجوازية ونفاذها بعمق إلى جوهر المشكلات الاجتماعية والفلسفية وإلى الانقلابات الحادة الحادثة في الغرب. وقد أثنى دستوفسكي ثناءً رفيعًا أيضًا على «رسائل في دراسة الطبيعة» لجيرتسين ووجد فيها «الفلسفة الأفضل في روسيا بل وفي أوروبا بأسرها» (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الثاني، ص ١٢٨). وفي عام ١٨٦٢م عُقد لقاء بين دستوفسكي وجيرتسين في لندن. كان له أثره الإيجابي على كليهما. فيما بعد عندما أصاب التغيير كثيرًا من توجّهات دستوفسكي السياسية وأصبح من البدهي أن يقع الانفصال في وجهات نظرهما الأيديولوجية، أبدى دستوفسكي في مقاله «عن الناس القدامى» نظرة ذاتية، ولكنها بعيدة كل البعد عن العداوة في وصفه لشخصية جيرتسين حيث كتب يقول: «كان فنانًا، مُفكرًا وكاتبًا رائعًا، إنسانًا واسع الإطلاع، وكان عظيمًا». (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ٧). وفي عام ١٨٧٦م عندما صُدِم دستوفسكي بنبأ انتحار ابنة جيرتسين، كتب عن أبيها باعتباره مفكرًا وشاعرًا: «انظروا هذه ابنة جيرتسين، الرجل صاحب الموهبة الرفيعة، المفكر والشاعر. صحيح أن حياته كانت مُرتبكة للغاية، مليئةً بالمتناقضات والظواهر النفسية الغريبة. لقد كان واحدًا من المنشقّين الروس ذوي النزعة الغربية، ولكنه مع ذلك. كان واحدًا من الذين اتّسمت شخصيتهم بالاتساع والندرة والروح والمزاج الروسيين» (مكتبة الدولة بليمنجراد، ملف ٩٣، ص ١٠، ١٠، ٢). عن علاقة دستوفسكي-جرتسين انظر مقالة أ.س. دولينين «دستوفسكي وجرتسين» في كتابه «روايات دستوفسكي الأخيرة»، موسكو، ليننجراد، ١٩٦٣م.

أمرًا آخر: لقد بدا لي زوجي شخصًا مثيرًا للاهتمام، شخصًا غامضًا للغاية، وقد تصوّرت أنه سيكون من الأسهل بالنسبة لي، لكي أعرفه وأكشف مكنونه، أن أبدأ في تسجيل أفكاره وما يُبديه من ملاحظات. وبالإضافة إلى ذلك فقد كنت أشعر بأنني وحيدة تمامًا في الخارج، ليس هناك من أحدٍ أشاركه آرائي، وأحيانًا ما تتتابني الشكوك والهواجس، فلا أجد صديقًا أستأمنه على أفكارِي وآمالي ومخاوفي كلها سوى يوميّاتي.

أثارت يوميّاتي اهتمام زوجي وكثيرًا ما قال لي: «أدفع أغلى ما عندي لأعرف يا أنيتشكا ما الذي تعنيّه بصنانيرك هذه التي تخطّينها؛ لعلك تشتمينني!»

– الأمر يتوقف عليك: إما مدح، وإما ذم، هكذا كنت أجيب، ستأخذ ما تستحقّه. وعلى أية حال، كيف لي أن أذمّك؟ وهل من كانت له نفس مثل نفسك يمكن أن تلحق به أيّ مذمّة؟ بمثل هذا السؤال الممازح كنتُ أنهي حديثي، وكان عندئذٍ يرجوني ألا أعاتبه.

كان من أسباب خلافاتنا الفكرية ما كان يعرف «بقضية المرأة»، ولما كنتُ معاصرة للسبّتينيات، فقد كنتُ منافحةً عن حقوق واستقلال النساء، وكنتُ أغضب من زوجي لموقفه غير العادل تجاههن. بل كنت أرى في مثل هذا الموقف إهانةً شخصية لي، وأحيانًا ما كنتُ أعبر عن ذلك لزوجي. أذكر بالمناسبة أنه سألني وقد رأني غاضبة: أنيتشكا، ماذا دهاك؟ إنني لم أوجّه إليك أيّ إهانة؟

– بل فعلت، لقد كنا نتحدّث منذ قليل عن العدميات، وقد رحّت تشتمهن بقسوة.

– صحيح، بيد أنك لستِ عدمية، فما الذي أغضبك؟

– لست عدمية حقًا، ولكنني امرأة، ويؤسفني أن أراك تشتم امرأة!

– أي امرأة أنت إذن؟ قال زوجي.

– كيف أي امرأة؟ قلت غاضبة.

– أنت أنيتشكا الرائعة المدهشة، التي لا مثيل لها في العالم، والتي لا تُشبه أي امرأة! ونظرًا لأنني كنتُ ما أزال في سنوات الشباب فقد كنتُ أرفض أحيانًا ثناءه اللطيف عليّ وأغضب لأنه لا يَعتبرني امرأةً على النحو الذي كنتُ أتصوّره عن نفسي آنذاك.

بالمناسبة، لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يُحب عدميات ذلك الزمن. كان رفضهن لكافة مظاهر الأنوثة وميلهن للإهمال والقذارة، والخشونة المتعمدة في السلوك تُثير انزعاجه. وكان يُقدّر فيّ تحديدًا صفاتي المخالفة. لكن موقف فيودور ميخايلوفيتش اختلف بعد ذلك في السبعينيات عندما خرج من بينهن نساء ذكيّات مُتعلّقات، ينظرن

للحياة نظرة جادة. عندئذٍ كتب زوجي في «مذكرة الكاتب» أنه يتوقع الكثير من المرأة الروسية.^{١٦}

العام ١٨٦٧م الجدل يتواصل

كان أكثر ما يثير غضبي من زوجي أنه كان في جدله معي، يُنكر امتلاك النساء من قبلي الهمة والسعي الدؤوب نحو تحقيق الهدف المنشود. على سبيل المثال، قال لي ذات مرة: إليك هذا الأمر البسيط، حسنًا، أيها أختار؟ لنقل جمع طوابع البريد (كنّا بالصدفة نمرُّ أمام نافذة أحد المحال الذي كان يعرض مجموعة كبيرة منها في مكان بارز). إن الرجل إذا اتخذ من هذا الأمر هوايةً له بشكلٍ منظم فسوف يجمع ويحفظ، فإذا لم يجد لهذه الهواية وقتًا كبيرًا كافيًا، وإذا ما فترت رغبته في الجمع، فإنه على أية حال لن يلقي بها وإنما سيحتفظ بما جمعه زمنًا طويلًا، ربما إلى نهاية حياته باعتبارها ذكريات ولع الشباب. أما المرأة! فإنها تشتعل أولاً بالرغبة في جمع الطوابع؛ فتشتري ألبومًا فاخرًا وتروح تضجر أقاربها ومعارفها بطلب الطوابع، كما أنها تُنفق على شرائها أموالًا كثيرًا، ثم إذا بهذه الرغبة تذوي ويتمزق الألبوم الفاخر وتتفرق صفحاته فوق الأرفف هنا وهناك، وفي النهاية يتم الإلقاء به باعتباره شيئًا مُملًا لا نفع من ورائه. وهكذا يتكرر الشيء نفسه مع أمورٍ أخرى بعضها تافه والآخر جاد. في كل الأحوال لن تجدي سوى

^{١٦} «مذكرة الكاتب» (مجلة «جرايدانين» («المواطن»)، ١٨٧٣م، العدد ٣٥) (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا). *

* تقصد أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا الفصل الخامس عشر — «شيء ما عن الكذب» — «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣م والذي أنهاه دستويفسكي على النحو التالي: «بدأنا نلاحظ في نساءنا أكثر فأكثر الإخلاص والمثابرة والجدية والشرف والبحث عن الحقيقة والتضحية في سبيل ذلك ... إن المرأة تُظهر اليوم إصرارًا أكثر في العمل؛ إنها أكثر جدية من الرجل؛ فهي تسعى للعمل من أجل العمل لا من أجل التظاهر. ألسنا في الواقع ننتظر منها دعمًا كبيرًا؟» (دستويفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ١٢٩). إن أنّا جريجوريفنا لم يُحالفها الصواب تقريبًا بقولها إن علاقة الكاتب الإيجابية بحركة تحرير المرأة ظهرت مؤخرًا، في السبعينيات. لقد كان دستويفسكي في الأغلب يرفض العدمية الشكلية «البلهاء». وقد كتب في هذا الصدد إلى صوفيا إيفانوفنا قبل ذلك في عام ١٨٦٨م يقول «إن قضية المرأة، والمرأة الروسية على وجه الخصوص، سوف تحقق خلال فترة زمنية قصيرة حتى من حياتك خطوات عظيمة ورائعة. إنني لا أتحدث هنا عن نساءنا غير الناضجات ...» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٧٣).

عزيمة واهنة، حماس مُلتهب في البداية لكنه لا يجد إطلاقاً القوة والجهد القادرين على استمراره والإصرار على تحقيق نتائج ملموسة للهدف المرجو.

لا أعرف لماذا أثار هذا الجدل حِمِيَّتِي فأعلنتُ زوجي أنني سأثبت له، ضاربةً المثل بنفسِي، أنَّ المرأةَ تستطيع أن تحافظ لأعوامٍ طويلة على الفكرة التي جذبت اهتمامها. قلت له: «وحيث إنني في اللحظة الراهنة لا أراني مشغولةً بأي مهام، فسوف أبدأ ولو بهواية تافهة، هي نفسها التي أشرتَ أنت إليها لتوك، ومنذ اليوم سأبدأ في جمع طوابع البريد.»

أسرعتُ بتحويل القول إلى فعلٍ فاصطحبتُ فيودور ميخايلوفيتش على الفور إلى أول محلٍّ صادفنا للأدوات المكتبية، حيث اشترت (من مالي الخاص) ألبوماً رخيصاً لألصق فيه الطوابع. وعندما عدنا رحنَّ على الفور ألصق فيه الطوابع الموجودة على الخطابات التي تسلَّمناها من روسيا؛ وبذلك وضعتُ اللبنة الأولى لمجموعتي. وعندما علَّمتُ صاحبة المنزل بِنِيَّتِي راحت تُفتش في خطاباتٍ قديمة لديها وأعطيني عدداً منها لم يُستدلَّ على عنوان أصحابها وعلى بعض طوابع مملكة سكسونيا. هكذا بدأتُ في جمع مجموعة الطوابع الخاصة بي، وقد استمرَّ الأمرُ معي زهاء تسعةٍ وأربعين عاماً. بالطبع لم أبذل على الإطلاق أي جهد لترتيبها في مجموعات، وإنما كنت أراكمها فقط، وفي الوقت الحالي فإنني أمتلك منها^{١٧} ... من بينها أعداد تمثل مجموعةً نادرة. وأؤكد هنا أنني لم أشتري واحداً منها، فهي إما كانت على خطابات تسلَّمتها، وإما أُهديت إليَّ، وقد أدرك المُقربون مِنِّي هذا الضعف، فكانت ابنتي، على سبيل المثال، تُرسل إليَّ خطابات عليها طوابع من فئاتٍ مالية مختلفة. ومن حينٍ لآخر كنت أتباهي أمام زوجي بكمية الطوابع التي تجمَّعت لديَّ. فكان يضحك أحياناً من ضعفي.

وخلال وجودنا في درزدن إبان تلك الأسابيع وقعت حادثة ذكَّرتني بسمَةِ لم تكن تروقني في شخصية فيودور ميخايلوفيتش، وهي بالتحديد غيرته التي كانت تشتعل على نحوٍ لا مُبرَّر له. المسألة أن الأستاذ أولخين، أستاذ الاختزال، عندما علم بِنِيَّتِنَا البقاء بعض الوقت في درزدن، أرسل معي خطاباً لأسلِّمه إلى البروفيسور تساييج Zeibig، نائب رئيس حلقة أتباع مدرسة هابلسبرجر للاختزال، التي تتبنى نفس نظام الاختزال الذي تعلمتُ

^{١٧} فقرة مفقودة في المخطوطة.

على أساسه.^{١٨} وقد أكد لي أولخين أن تساييج شخص ممتاز يمكننا الاعتماد عليه في رؤية المتاحف وغيرها. عند وصولنا لم أذهب مباشرة لتساييج، وبعد مرور فترة طويلة من الوقت رأيت أنه من غير اللائق ألا أُسلمه الخطاب فقررت، أخيراً، أن أذهب إليه. لم يكن تساييج في منزله فتركته له الخطاب؛ وفي اليوم التالي أرسل بطاقته، وحيث إن كلينا كنا بالبيت فقد اقترح علينا أن نحضر الاجتماع التالي لحلقته.

وافقنا، لكن زوجي قرّر مؤخراً أن أذهب وحدي مع تساييج بعد أن أحس أنه سوف يكون أمراً مملاً له أن يحضر اجتماعاً متخصصاً.

على هذا النحو سار الأمر. كانت حلقة المختزلين تعقد اجتماعاتها في Hotel ...^{١٩} في Wildrüfer straÙe. بدأ الاجتماع وراح أحد الأساتذة القدامى في قراءة أحد التقارير. ومع أن تساييج دعاني للجلوس بالقرب منه، إلا أنني فضلتُ الجلوس بعيداً، نصف ساعة مرّت في ضجر شديد، وحين حلّ موعد الاستراحة قادني الأستاذ نحو الرئيس وأعلن للجميع أنني حضرتُ من روسيا بخطابٍ من شخصيةٍ مُتخصصة في الاختزال هناك. حيّاني رئيس الجلسة وقد شعرتُ بالارتباك في بادئ الأمر حتى إنني لم أنتبه لردّ تحيته وإنما اكتفيتُ بالانحناء. انتهت قراءة التقارير والتفّ جميع أعضاء الحلقة حول طاولة طويلة، راحوا يشربون البيرة ويتحدثون. وقد جاء الأعضاء ليتعرفوا عليّ ويُعرفوني بأنفسهم واحداً وراء الآخر. تمالكْتُ نفسي بل ورحتُ أثّرثر على سجيتي. كنتُ أتحدث بالألمانية مع بعض الأخطاء وبشيءٍ من الحماس. وسرعان «ما استمَلْتُ بحديثي المُعجبين» من أعضاء الحلقة كبارهم وشبابهم (وهو ما عاتبني عليه زوجي فيما بعد). رفع الجميع نخب صحتي،

^{١٨} يعد ف.ك. هابلسبرجر هو مؤسس علم الاختزال في ألمانيا ومُخترع نظامها الجديد، وقد وصل إلى فكرة أنَّ العلاقات المرئية التي تنقل أصوات اللغة يجب أن تتكيّف مع آلية الحديث البشري. وقد أسس تلاميذ هابلسبرجر بعد وفاته «جمعية هابلسبرجر الرئيسية للاختزال»، وقد قاموا بإعداد وإعادة طبع أهم مؤلفات هابلسبرجر Lehrgebäude der Stenographie München (١٨٥٠م) وكان ب. م. أولخين، مُدرس أنا جريجوريفنا دستوفيسكايا، أحد أوائل مدرسي الاختزال في روسيا، وهو مؤلف كتاب الدليل إلى الاختزال الروسي وفقاً لمبادئ هابلسبرجر (الطبعة الثالثة، سان بطرسبورج، ١٨٦٦م)، وكان موجوداً في مكتبة فيودور ميخايلوفيتش دستوفيسكي. وعن أ.ج. دستوفيسكايا باعتبارها مختزلة انظر: ب.ن. كابلوش و ت.م. بوشيمانسكايا، كتابات أ.ج. دستوفيسكايا بالاختزال في كتاب: «الأرشيف الأدبي»، المجلد السادس، موسكو، ليننجراد، ١٩٦١م، ص ١٠٩-١١١.

^{١٩} فقرة مفقودة في المخطوطة.

قدموا لي فاكهةً وفطائر. وفي التاسعة اقترح عليّ تساييج أن يُوصلني للبيت، نجحت في أن أُلقي خطاباً قصيراً بالألمانية توجهتُ فيه للجميع بالشكر على الاستقبال الطيب، ودعوت مَنْ لديهِ الرغبة في السفر إلى بطرسبورج. مؤكدة أن أتباع مدرسة هابلسبرجر سوف يَلْقَوْنَ نفس الترحيب الحار من جانب الروس. خلاصة القول، إنني كنت في حالة من السعادة من جراء انتصاري، وبخاصة أنني قرأت بعد يوم في صحيفة Dresdener Nachrichten «أنباء درزدن» خبراً تضمّن ما يلي ... ٢١٠٢٠

لكن فيودور ميخايلوفيتش تعامل مع «انتصاري» على نحوٍ مختلف. فعندما قصصتُ عليه كل تفاصيل حفل الاستقبال، لاحظتُ في وجه زوجي تعبيراً لا ينمُّ عن الرضا. وظل باقي المساء حزيناً للغاية؛ وبعد مرور يومين/ ثلاثة قابلنا في إحدى نزهاتنا واحداً من أعضاء الحلقة، شاباً مُتورّد الوجه مُمتلئ البدن مثل خنزير، انحني مُسلماً، بعدها قدم فيودور ميخايلوفيتش لي «مشهداً» أقام فيه الدنيا ولم يُقعدها، لم أرغب بعدها في التردّد على تلك النزهاة الاجتماعية في أطراف المدينة التي دعانا إليها وزوجي السيد تساييج. هذه الخصلة القاسية والمُهينة التي ظهرت مرة أخرى في طباع زوجي دفعتني أن أكون أكثر حذراً وأن أتجنّب مثل هذه المشكلات.

وقد وقعتُ لنا إبّان وجودنا في درزدن حادثة أثارت اضطرابنا إلى حدٍّ بعيد. فقد نما إلى علم زوجي، من شخصٍ ما، أن هناك شائعة تنتشر في المدينة مفادها أنه قد جرى إطلاق الرصاص على إمبراطورنا الذي يزور باريس في الوقت الحالي (محاولة بيريزوفسكي)^{٢٢} وأن هذا العمل الشرير قد حقّق الغرض منه.^{٢٣} يمكن أن نتصور مدى

^{٢٠} فقرة مفقودة في المخطوطة.

^{٢١} بشأن الفقرة المفقودة. تبين أن الخبر الخاص باجتماع جمعية الاختزال في درزدن في العشرين من يونيو ١٨٦٧م، الذي حضرته أ.ج. دستوفسكايا قد ظهر لاحقاً في صحيفة Dresdener Mission-Nachrichten في الثاني والعشرين من يونيو ١٨٦٧م. وفي «مذكرة الكاتب» هناك مقطع مأخوذ عن هذا العدد تحديداً من صحيفة Nationa Zeitung يذكر أن سيّدة روسية حضرت الاجتماع الموسع الأخير لمعهد الاختزال، وهي تدرس بنظام هابلسبرجر وتستخدمه في عملها في بطرسبورج (١٤٥).

^{٢٢} أنطون بيريزوفسكي (١٨٤٧-١٨٦٩م): ثوري بولندي، شارك في الانتفاضة البولندية التي جرت في عام ١٨٦٣م.

^{٢٣} يدور الحديث هنا حول إطلاق النار من جانب المهاجر البولندي أنطون بيريزوفسكي على ألكسندر الثاني (١٨٨١-١٨٨٨م) أثناء إقامة معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧م. وقد اتخذت الصحافة الفرنسية

الاضطراب الذي كان عليه زوجي! كان زوجي شديد الإعجاب بالإمبراطور ألكسندر الثاني الذي قام بتحرير الفلاحين وللإصلاحات التي قام بها لاحقاً.^{٢٤} وبالإضافة إلى ذلك كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أن الإمبراطور صاحب فضلٍ عليه؛ فقد تم إعادة النبالة الوراثية، التي كان يعتز بها أشد الاعتزاز، إلى زوجي بمناسبة تتويج ألكسندر الثاني. كما سمح له أيضاً بالعودة من سيبيريا إلى بطرسبورج؛^{٢٥} ومن ثم فقد أعطى ذلك له الفرصة من جديد ليعود للعمل بالأدب، أقرب الأمور إلى قلبه.

كلها تقريباً، وكذلك المحامون الفرنسيون، الذين نظموا مظاهرة خاصة رفعت شعار Vive la Pologne! («عاشت بولندا») موقفاً مدافعاً عن أنطون بيريزوفسكي، ورأت في حادث الاغتيال انتقاماً شرعياً لبلاده المستعبدة. وفي الثالث من يوليو ١٨٦٧م، أصدرت محكمة المحلفين في باريس حكمها على بيريزوفسكي بالسجن مدى الحياة بدلاً من الإعدام. على أن الكاتب، الذي لم يكن من المؤيدين قبل ذلك لأحكام الإعدام، كان، مع ذلك، مستاءً بشدة من هذا الحكم المخفف الذي أصدرته محكمة المحلفين على بيريزوفسكي. كان موقف المحلفين مناقضاً لمبدأ دستوفسكي حول المسؤولية الشخصية للإنسان على أفعاله. وقد عبر دستوفسكي في خطابه إلى أبوللون مايكوف المؤرخ ٢٨ أغسطس ١٨٦٧م عن رفضه الشديد لقيام بيريزوفسكي بمحاولة الاغتيال، وأدان الحكم الصادر ضد هذا الإرهابي بقوله: «ما حدث في باريس هزني بشدة. كان المحامون الباريسيون رائعين وهم يهتفون Viva la Pologne. أفا! يا لها من حقارة. والأدهى من هذا الغباء وهذه البيروقراطية! لقد أصبحت أكثر اقتناعاً أنا أيضاً بفكرتي السابقة: أن من المفيد لنا، إلى حد ما، أن أوروبا ما تزال لا تعرفنا، وأنها تعرفنا على نحوٍ بشع. أما عن تفاصيل محاكمة ... بيريزوفسكي! فحدث ولا حرج. يا لها من بيروقراطية بشعة ...» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٧).

^{٢٤} كثيراً ما راح دستوفسكي، الكاتب الاجتماعي، يُدافع في الواقع عن وحدة الشعب و«القيصر-المحرر» ألكسندر الثاني. ولعل أكثر الأمور وضوحاً هو هذا المزاج الملكي الذي جرى التعبير عنه في الأعوام الأخيرة من حياة الكاتب. على أن دستوفسكي وهو يدافع عن المبادئ الملكية للدولة الروسية، لم يكن يضع دائماً القياصرة الروس في صورة مثالية، وقد عبّر عن رأيه في نيكولاي الأول بنبرة حادة حين قال: «إن شخصية نيكولاي تتسم بالوقاحة»، هذا ما كتبه دستوفسكي في عام ١٨٧٦م (ن). بيلتشيكوف. تورجينيف ودستوفسكي، نقد «الدخان»، «الأدب والماركسية»، ١٩٢٦م، العدد ١، ص ٨٦).

^{٢٥} في رأي الجنرال المستمع في قضية بتراشيفسكي في التاسع عشر من ١٨٤٩م، فقد دستوفسكي هو وزملاؤه في حلقة بتراشيفسكي كل حقوقهم المدنية، ولكن في السابع عشر من أبريل ١٨٥٨م، أي في عهد ألكسندر الثاني، صدر مرسوم عالٍ لمجلس الشورى بإعادة كافة حقوق النبالة الوراثية إلى دستوفسكي، الذي لم يتسلم على الفور الحق في الحياة في بطرسبورج، وإنما اضطر في البداية، بدءاً من أغسطس إلى ديسمبر ١٨٥٩م، للإقامة في مدينة تفير، وفي الثاني من ديسمبر ١٨٥٩م فقط صدر تصريح ألكسندر الثاني بحق دستوفسكي في الإقامة في بطرسبورج تحت الرقابة السرية للشرطة.

قَرَرْنَا التوجُّه على الفور إلى قنصليتنا. كان وجه فيودور ميخايلوفيتش، كما يقولون، «مخطوفاً»، كان في شدة القلق والاضطراب وكان ينهب الطريق نهباً، أما أنا فقد كنتُ أفرق خوفاً أن تُداهمه النوبة سريعاً (وهو ما وقع له في نفس الليلة). وكَم كانت سعادتنا بِالْغَةِ أَنْ قَلَقْنَا كان مُبالِغاً فيه، فقد هدأ من روعنا الخبر الذي أحاطونا به علماً في القنصلية من أن هذه الجريمة لم تنجح. وعندئذٍ سارَعْنَا بطلب السماح لنا بأن نُسَجِّلَ أسماءنا في عداد الشخصيات التي حضرت إلى القنصلية لتُعَبِّرَ عن استيائها من هذا الاعتداء الأثيم. ظل زوجي طوال اليوم حزيناً مكتئباً، لقد أظهرت محاولة الاغتيال الجديدة، التي أعقبت المحاولة الأولى مباشرة والتي قام بها كاراكوزوف،^{٢٦} أظهرت لزوجي، على نحو واضح، أن شبك المؤامرات السياسية تمتدُّ بجذورها عميقاً، وأن حياة الإمبراطور الذي يُقدِّره عظيم التقدير تحقيق بها الأخطار من كل جانب.

مرَّ ما يقرب من ثلاثة أسابيع على حياتنا في درزدن وإذا بزوجي ذات يوم يتحدث على نحوٍ عابر عن لعبة الروليت (كنَّا أحياناً ما نتذكَّر عملنا معاً في كتابة رواية المقامر) وقد عبَّرَ عن فكرة أنه لو كان وحيداً الآن في درزدن لذهب حتماً ليلعب. وقد عاد زوجي إلى هذه الفكرة مرتين/ثلاثاً، وعندئذٍ سألتَه، وقد أردتُ ألا أقف حجر عثرة أمام رغبته، وما الذي يمنعه الآن أن يفعل؟ تعلَّلَ فيودور ميخايلوفيتش بأنه لا يستطيع أن يتركني وحيداً وأن ذهابنا معاً سيكون مُكلفاً. رحت أقنع زوجي أن يذهب إلى هامبورج لعدة أيام وأنا أؤكد له أنه لن يقع لي أيُّ مكروه في غيابه. ولكنه حاول التذرُّع في البداية، وحيث إنه كان يرغب بشدة في أن «يُجرب حظه»، فقد وافق على السفر إلى هامبورج تاركاً إياي في رعاية صاحبة النزل. وعلى الرغم من أنني كنتُ أشعر بالانتعاش لكنني سرعان ما شعرتُ بالوحدة عندما ابتعد القطار. لم أستطع أن أملك مشاعري فانفجرتُ في البكاء. مرَّ يومان ثلاثة وبدأتُ أتلقي خطاباتٍ من هامبورج يُخبرني زوجي فيها أنه تعرَّض للخسارة ويطلبُ منِّي أن أُرسل إليه نقوداً؛^{٢٧} وقد أجبْتُ طلبه، ولكن تبَّين لي أنه خسر أيضاً النقود التي أرسلتها إليه وطلب منِّي مرةً أخرى أن أُرسل له غيرها، وبالطبع فقد

^{٢٦} دميتري فلاديميروفيتش كاراكوزوف (١٨٤٠-١٨٦٦م): ثوري إرهابي. قام في عام ١٨٦٦م بمحاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني.

^{٢٧} انظر الخطابات، المجلد الثاني، ص ١١-٢٠.

أرسلتها له. وحيث إنني لم أكن أدرك آنذاك قلق «المقامر» إطلاقاً، فقد بالغتُ في أثره على صحة زوجي. لقد تصوّرتُ استناداً إلى خطابه أنه، وقد أقام في هامبورج، يشعر بالقلق والتوتر. خشيتُ أن تُداهمه نوبة جديدة، وسقطتُ في براثن اليأس وأنا أفكر لماذا تركته وحيداً، ولماذا أبقى هنا بدونه بدلاً من أهدئ من روعه وأعيد إلى نفسه السكينة. تصوّرتُ أنني بلغتُ مبلغاً فظيلاً من الأثنية شعرتُ معه بأنني اقترفتُ جرماً لكوني عاجزة، في هذه الدقائق العصبية التي يعيشها، أن أقدم له يد العون.

مرت ثمانية أيام عاد بعدها فيودور ميخايلوفيتش إلى درزدن^{٢٨} وكان سعيداً للغاية ومسروراً لكوني لم أعاتبه قط ولم آسف على ما خسرناه من نقود؛ بل لأنني رُحت فوق ذلك أهدئه وأدفعه للابتعاد عن السقوط في مهاوي اليأس.

لقد تركت الرحلة الفاشلة التي قام بها فيودور ميخايلوفيتش أثراً سيئاً على مزاجه النفسي. راح يعود للحديث عن الروليت، مُعرباً عن أسفه على الأموال التي أهدرها. وأنه لا يلومنُ إلا نفسه. وأكد أن فرصاً كثيرة قد واثته ولكنه لم يُحسن التصرف إزاءها، إما لأنه تسرع وإما لأنه غيّر الرهان، أو جرّب أساليب مختلفة في المقامرة، وكانت الخسارة هي النتيجة. لقد حدث ذلك لأنه تسرع، لأنه جاء إلى هامبورج وحيداً ولأنه كان قلقاً بشأني طوال الوقت. وحتى في سفراته السابقة إلى الروليت فقد كان مُضطراً للبقاء لا أكثر من يومين أو ثلاثة ودائماً ما يذهب إلى هناك وفي حوزته قليل من المال من الصعب أن يُحوّل بواسطتها الظروف غير المواتية للمقامرة. فلو أنه تمكن من الذهاب إلى مدينة القمار ليستقرّ فيها أسبوعين أو ثلاثة، ومعه احتياطي مناسب من المال لحالفه، على الأرجح، التوفيق والنجاح؛ عندئذٍ لن تكون هناك ضرورة للتسرع والاستخدام أسلوب هادئ في اللعب لا يسمح بالخسارة مثلما يحدث مع المبالغ الصغيرة، فعلى أي حال المبلغ الكبير يضمن لك تغطية الخسارة. على هذا النحو راح فيودور ميخايلوفيتش يتحدث بثقة، ضارباً العديد من الأمثلة ليثبت رأيه، الأمر الذي أقنعني أنا نفسي. وعندما طُرح سؤال ما إذا كنا سنمرّ في طريقنا إلى سويسرا (حيث كانت وجهتنا) بمدينة بادن-بادن لنمضي بها

^{٢٨} كتبتُ أنا جريجوريفنا في دفتر يومياتها أن دستوفسكي سافر إلى هامبورج في الرابع من مايو ١٨٦٧م ووعده أن يعود بعد أربعة أيام، ولكنه بقي هناك حتى الخامس عشر من مايو (يوميات دستوفسكايا، ص ٤٦، ص ٨٦).

أسبوعين، وافقت برضاً تاماً على زيارتها. كنت أرى أن وجودي إلى جواره سيكون عاملاً هاماً في كبح جماحه. كان أمر مكان الإقامة بالنسبة إليّ سيّان فالمهم عندي ألا أفترق عن زوجي.

عندما قرّرنا في النهاية أن نقضي أسبوعين في بادن-بادن فور تسلّمنا للنقود، اطمأن فيودور ميخايلوفيتش وراح يعمل في تنقيح وإنهاء عمله الذي تأخر كثيراً. كانت مقالة عن بيلينسكي أراد زوجي أن يضع فيها كل ما استقرّ في نفسه عن هذا الناقد الذائع الصيت.

كان بيلينسكي إنساناً عزيزاً على قلب فيودور ميخايلوفيتش، وكان يضع موهبته في مكانة عالية حتى قبل أن يعرفه معرفة شخصية، وقد تحدّث عن ذلك في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧م.^{٢٩}

وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوفيتش قدّر موهبة بيلينسكي تقديرًا ربيعاً وأثنى بإخلاص على مشاعره النبيلة لتشجيعه لموهبته الأدبية، فإنه لم يستطع أن يغفر لهذا الناقد تجديفه وسُخريته من آرائه ومعتقداته الدينية.^{٣٠، ٣١}

^{٢٩} انظر دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الثاني عشر، ص ٢٧-٣٣.

^{٣٠} لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر مقالنا المنشور بمجلة ألف، مجلة البلاغة المقارنة، العدد الثالث والعشرون ٢٠٠٣م تحت عنوان «دستوفسكي: جدلية الشك والإيمان»، ص ٣١-٤٤. (المترجم)

^{٣١} تستند أنا جريجوريفنا في روايتها عن علاقة دستوفسكي ببيلينسكي، كما هو واضح، على مناقشاتها مع زوجها، وكذلك على مقالة «المسنون» في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣م (انظر دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر) وعلى خطابه إلى نيكولاي ستراخوف المؤرخ الثامن عشر من مايو ١٨٧١م، الذي أكد فيه أن بيلينسكي «سب المسيح سباً مُقذعاً» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٦٤). الأرجح أن الصدام الجوهرى بين بيلينسكي ودستوفسكي بشأن القضايا الدينية شغل مكانة هامة، ولكنها لم تكن السبب الرئيسي في الخلافات الفكرية بينهما فيما بعد. من الواضح أن أنا جريجوريفنا قد تناولت التطور المُعَدّ في العلاقة بين دستوفسكي وبيلينسكي بشيءٍ من التبسيط. لقد كان تأثير بيلينسكي على دستوفسكي هو التأثير الأخطر الذي مرّ به في فترة شبابه. وعلى امتداد حياة دستوفسكي التالية، لا نجد مُفكراً أو كاتباً اجتماعياً نفَذَ بمثل هذا العمق إلى وعيه. «لقد اعتنقت تعاليمه كلها آنذاك بحماس بالغ»، هذا ما كتبه دستوفسكي (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ١٠) اتّسم اللقاء الأول مع بيلينسكي (في مايو عام ١٨٤٥م) بالحماس والبهجة، اللذين طبعا الكلمات التي قالها في أول مناقشة بينهما عن «الفقراء»: «هل تُدرك معنى أنك أنت نفسك الذي كتب هذا! ... لقد لمست جوهر الأمر ووضعت

من الجائز أن تكون معظم الانطباعات المريرة التي عانى منها فيودور ميخايلوفيتش في علاقته بـ «بيلينسكي» بسبب الفتن والوشايات التي أطلقها هؤلاء — الأصدقاء — الذين اعترفوا في البداية بموهبة دستوفسكي وراحوا يروّجون لها، ثم ولأسبابٍ ما لا أفهمها، إلا قليلاً، بدءوا في ملاحقة صاحب رواية «الفقراء» الخجول وتلفيق الأكاذيب له وكتابة أشعار هجائية^{٣٢} تحط من قدره؛ فضلاً عن اعتراف كل شيءٍ من شأنه أن يُخرجه عن شعوره.^{٣٣}

يدك على الشيء الأهم دفعة واحدة ... لقد كشفت لك الحقيقة عن نفسها جليةً باعتبارك فناً امتلك هذه الموهبة. عليك أن تُقدّر موهبتك، وأن تظلّ مُخلصاً، وسوف تُصبح كاتباً عظيماً! (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الثاني عشر، ص ٣١-٣٢) كل ذلك استقرّ للأبد في ذاكرة دستوفسكي. وبمرور الوقت تبدلت رؤية الكاتب، وتبدل معها تقديره لبيلينسكي الماضي. لقد اتفق أن دستوفسكي رفع راية العصيان على الناقد الكبير، ولكنه لم يستطع مطلقاً أن ينسى، أو أن يتعامل بلامبالاة مع أستاذه المُهم إبان شبابه. وبعد الأزمة الفكرية التي عاناها الكاتب في المعتقل، أراد لو تحرّر من تأثير بيلينسكي، ولكنه لم يستطع أن يواصل عصيانه له حتى النهاية، وفي الوقت نفسه انعكس التطوّر الفكري للكاتب بشكلٍ خاصٍّ في علاقته ببيلينسكي تحديداً، والذي كان يُجسّد لدستوفسكي الستينيّات الاشتراكية المُلحّدة الكريهة. وقد شن دستوفسكي حملته الشعواء ضد تعاليم بيلينسكي وضد «الأفكار الهدّامة» للأربعينيّات (انظر، على سبيل المثال، خطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف المؤرخ الثامن والعشرين أغسطس ١٨٦٧م، الخطابات، الجزء الثاني، ص ٢٤-٣٦). بلغت عملية «الإطاحة بالمثل» ذروتها في فترة كتابة «الشياطين»، وهي الرواية التي حوت بين دفتيّها. محاولة التشهير بفكرة الثورة ذاتها. على أنه وقبل ثلاث سنوات من وفاة دستوفسكي تقع انعطافةٌ جديدة في علاقته ببيلينسكي. وفي يناير عام ١٨٧٧م يموت نكراسوف، الذي لعب دور الوسيط في تعرّف كاتب «الفقراء» على بيلينسكي. يتذكّر الآن لقاءه الأول به فيكتب في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧م قائلاً: «هذه كانت أروع دقيقة في حياتي بأسرها. كنتُ أستعيد ذكراها وأنا في المعتقل فتشّد من أذري» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الثاني عشر، ص ٣٢). وحول علاقة بيلينسكي ودستوفسكي انظر كتاب ف. كيربوتين «دستوفسكي وبيلينسكي» (موسكو، ١٩٦٠م).

^{٣٢} مجلة «نيفا» العدد ٤، عام ١٨٨٤م، مقال ي. ب. بولونسكي: «مذكرات أ. ي. جولوفوتشيفا بانايف»، ١٨٩٠م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٣٣} في فبراير ١٨٦٤م نشرت «حوليات الوطن» مقالة لبيلينسكي عن روايتي: الفقراء و«المثل» («المزدوج»)، وقد حوت، إلى جانب الاعتراف بالفضائل الفنية الرفيعة للروائيين (وخاصة «الفقراء»)، ملاحظات انتقادية وجهت أساساً إلى رواية «المثل». وقد أدّت هذه الملاحظات، حسنة النية تمامًا، بدستوفسكي المُوسّوس، إلى الوقوع في حالةٍ من الاكتئاب. ومن ثم راحت علاقته بجماعة «سوفر يمينيك» («المعاصر») تميل

وعندما طلبوا من فيودور ميخايلوفيتش الكتابة «عن بيلينسكي»، تولى القيام بهذا الموضوع المهم بكل ترحاب، واضعاً في اعتباره أن يكتب مقالاً يُعبر فيه بإخلاص وموضوعية، بجدية وليس على نحو عابر، يُضمنه رأيه في هذا الكاتب الذي كان يعتز بدستوفسكي في البداية، ثم إذا به في النهاية يحمل له كل هذا القدر من البغضاء. بداهةً فقد كان هناك الكثير من الأمور لم تختَمر بعدُ في عقل فيودور ميخايلوفيتش، الكثير مما ينبغي تمحيصه، فإما أن يُقره أو يشكَّ في صحته، وقد كان على زوجي أن يُعيد كتابة مقاله عن بيلينسكي خمس مرات، والنتيجة أنه ظلَّ غير راضٍ عنه تمامًا. في خطابه إلى أبوللون مايكوف المؤرَّخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٨٦١م، كتب فيودور

إلى البرود والتكُلف. وفي هذه المرة لم يُعط دستوفسكي روايته الجديدة «السيد بروخارتشين» إلى نكراسوف لنشرها، وإنما إلى أندريه ألكسندروفيتش كرايفسكي، (١٨١٠-١٨٨٩م) الصحفي وصاحب مجلة «حوايات الوطن» وصحيفة «الصوت». وفي هذا الشأن كتب دستوفسكي إلى أخيه في نوفمبر ١٨٤٦م رسالة جاء فيها: «لقد وقع بيني وبين جماعة «المعاصر» في شخص نكراسوف سوء فهمٍ انتهى بالخصام ... والآن يُشيعون أنني قد أُصبت بالغرور، وأنني أقدر نفسي بأكثر مما تستحق. سأُنشر أعمالٍ لاحقاً عند كرايفسكي وهو ما استحسنه مايكوف» (الخطابات، المجلد الأول، ص ١٠٢). على أن السلوك المضطرب للكاتب الشاب، والذي كان وراءه هذا الوسواس الشديد، قد أبعد عنه أدباء جماعة «المعاصر» وأعطى لهم ذريعة للسخرية منه وهجائه. إن «رسالة إلى بيلينسكي ودستوفسكي»، وهي إبداع مشترك لكلٍّ من تورجينيف ونكراسوف تبدأ بالأبيات التالية:

دستوفسكي، يا فارس الحزن،
أيها الطبيب النحيل،
ها أنت على أنف الأدب،
تقف مثل بثرة جديدة.
تزداد احمرارًا.

وعن علاقات جماعة «المعاصر» بدستوفسكي تكتب أفدوتيا باناييفا في مذكراتها قائلة: «بظهور أدباء شبَّان في جماعة «المعاصر» أصبح هدفًا للسخرية والنقد اللاذع من جانبهم، أما دستوفسكي فاتخذ من ذلك، عن عمد، ذريعة للغضب والعجرفة، وإثبات أنه أعلى موهبة منهم بكثير. ومن ثم راح هؤلاء يقدحونه ويُثيرون حفيظته بلمزه في أحاديثهم؛ وفي هذا المجال كان تورجينيف أستاذًا لا يُبارى. كان يعتمد أن يورِّط دستوفسكي في الجدل ويدفعه إلى الغضب الشديد. وعندئذٍ كان دستوفسكي يقف وظهره للحائط مدافعًا بكل حماسٍ عن أفكار سخيفة أحيانًا، راح يقذف بها في سورة غضبه ...» (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، المجلد الأول، ص ١٤١).

ميخايلوفيتش:^{٣٤} «المسألة أنني أنهيتُ هذه المقالة اللعينة: «معرفتي ببيلينسكي». لم يكن هناك من سبيل للتأجيل أو المُماطلة. بالمناسبة فقد كتبْتُها صيفًا، ورغم ذلك فقد عدَّبتني عذابًا هائلًا وكانت كتابتها أمرًا بالغ الصعوبة حتى إنني لم أنتهِ منها إلا مؤخرًا وبشقِّ الأنفس. المشكلة أنني اندفعتُ بغباوةٍ لكتابة هذه المقالة منذ اللحظة الأولى لكتابتها، والآن أرى أنه كان من المُستحيل أن أكتبها وفقًا لمطالب الرقابة (لأنني أردتُ أن أقول كلَّ شيء). إن كتابة عشر ملازم في روايةٍ أسهل من هاتين المزمَتين! لقد كتبتُ هذه المقالة المزعجة، إذا حسبنا الأمر إجمالًا، خمسَ مرات، ثم عدتُ لأشطب، ثم راجعتُ كل ما كتبتُ مرَّةً أخرى. وفي النهاية وصلت بشكلٍ ما إلى المقالة، ولكنها مقالة سيئة، لدرجة أن نفسي قد عافتها. كم من الحقائق الثمينة اضطررتُ لحذفها! وكما توقعت، لم يبقَ إلاَّ الأسوأ وما هو بين بين. يا لها من سفالة!»

أما مصير هذه المقالة فكان مُحزنًا. كان قنسطنطين بابيكوف^{٣٥} قد طلب من فيودور ميخايلوفيتش كتابتها لإدراجها ضمن أحد المُنتخبات، وقد دفع الرجل مائتي روبل على سبيل العربون. كان من الضروري الانتهاء من كتابة المقالة بحلول الخريف وإرسالها إلى موسكو إلى فندق «روما». وتحسبًا لانتقال بابيكوف إلى شقَّةٍ أخرى طلب فيودور ميخايلوفيتش من أبوللون مايكوف أن يُسدي إليه خدمةً بأن يعيد إرسال المخطوطة إلى إيفان سولوفيوف،^{٣٦} بائع الكتب في موسكو ليُسلمها بدوره إلى بابيكوف. وقد تصرَّف أبوللون مايكوف وفق ما طلب منه زوجي، وهو ما أخبرنا به^{٣٧} وحيث إننا كنَّا نعيش بالخارج، فلم نعلم شيئًا عما إذا كانت المقالة قد نُشرت أم لا. وفي عام ١٨٧٢م تسلَّم

^{٣٤} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ١٧٨. (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوففسكايا). *

* انظر الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٦-٣٨.

^{٣٥} قنسطنطين إيفانوفيتش بابيكوف (١٨٤١-١٨٧٣م): شاعر وقصاص، عمل بصحيفتي «الزمن» و«العصر».

^{٣٦} إيفان جريجوريفيتش سولوفيوف: تاجر كُتب في موسكو، شريك دستوففسكي لسنوات طويلة في بيع مؤلفاته. يرد ذكره كثيرًا في مُراسلات دستوففسكي وزوجته. أُعطيَتْ له في عام ١٨٦٠م مقالة دستوففسكي عن ببيلينسكي.

^{٣٧} خطاب أبوللون مايكوف مؤرَّخ الثالث من نوفمبر ١٨٦٧م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوففسكايا). * خطاب أبوللون مايكوف المؤرَّخ الثالث من نوفمبر ١٨٦٧م والمنشور في كتاب: دستوففسكي، المجلد الثاني، ص ٣٤٢-٣٤٣. لا تذكر أنا جريجوريفنا في تعليقاتها على خطابات دستوففسكي تاجر الكُتب

فيودور ميخايلوفيتش رسالة من بائع كُتِبَ ما، طلب منه فيها أن يُسلّمه المقالة التي كان بابيكوف قد اتفق معه على كتابتها، وأخبره بالمناسبة أن المُنتخب لم يُطَبَع بعد.^{٢٨} شعر زوجي بالقلق الشديد لضياع المقالة، وبخاصة أنه بذل فيها جهدًا فائقًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن راضيًا عنها. ولكنه كان يعتز بها. رُحنا نجدُ في البحث عن المقالة لنعرف أين عساها أن تختفي، وطلبنا المساعدة من بائع الكتب الموسكوفي، لكن نتيجة البحث كانت مُحزنة: اختفت المقالة دون أثر. وقد أسفّت شخصيًا على ذلك، لأنه استنادًا على انطباعي عنها آنذاك، ووفقًا للملاحظات التي سجلتها بشأنها في دفتر اختزالي، كانت مقالة هامة للغاية وعبقرية.^{٢٩}

٣

تلقينا في نهاية شهر يونيو نقودًا من هيئة تحرير مجلة «البشير الروسي» وعلى الفور قرّرنا أن نسافر. غادرت، وكلي أسف، مدينة درزذن حيث قضيت أيامًا جميلةً وسعيدة، لكن شعورًا ما مُبهمًا كان يكتنفني ويُنبئني بأن أحوالنا الجديدة سوف يطرأ عليها تغيير كثير. وقد تحقّقت نبوءتي؛ عندما أعود بذكرياتي إلى الأسابيع الخمسة التي قضيناها في

إ.ج. سولوفيوف، وإنما تُذكر ألكسندر فيودورفيتش بازونوف (ف.م. دستوفسكي، خطاباته إلى زوجته، موسكو، ليننجراد، ١٩٢٦م، ص ٣١٤).

^{٢٨} الأرجح أن هذه المعلومة تفتقر إلى الدقة، إذ إن قنسنطين بابيكوف تُوّي في عام ١٨٧٣م، والمقالة لم تصل عمومًا إلى بابيكوف، وهو ما يؤكد خطابه إلى دستوفسكي المؤرخ الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٨٦٧م. ومن خلاله نتعرف بوضوح أنه على مدي عام مضي ظل بابيكوف يأمل دون جدوي أن يتسلّم المقالة التي وعده بها دستوفسكي (انظر بوريس بورسوف، دستوفسكي الذي لا يعرفه أحد، «الصحيفة الأدبية»، ٢٦ نوفمبر ١٩٧٠م).

^{٢٩} لا يمكن أن نؤكد على أي نحو كانت فكرة مقالة دستوفسكي عن بيلينسكي. يمكن فقط أن نفترض أن هذا العمل قد تجسد، في جانبٍ منه، في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨١٣م في المقالة المعنونة «المسنون» (انظر دستوفسكي ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد ١١). وقد توصّل مايكوف الذي قرأ المقالة، إلى اقتناعٍ مفادُه أن من المستحيل نشرها. يقول في خطابه إلى دستوفسكي: «إن الكاتب هنا قد أخذ على عاتقه أن يقول كل شيء، فما إن شرع في الكتابة حتى رأى أنَّ من المستحيل عليه أن يحكي كل شيء. فقط يمكن أن تُنشر في مذكرات الكاتب بعد وفاته» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٩٠).

بادن-بادن، وأقرأ ما سجلته بالاختزال في يومياتي، أصل إلى اقتناع مفاده أن ما هناك كان كابوساً ثقيلاً استولى تماماً على زوجي ولم يُفلته من قيوده الثقيلة.

كانت نظريات فيودور ميخايلوفيتش بشأن إمكانية الفوز في القمار باستخدام طريقته في اللعب صحيحة تماماً، وكان من الممكن أن يُصبح النجاح حليفه، بشرط أن يكون من يستخدم هذه الطريقة رجلاً رابط الجأش، مثل إنجليزي أو ألماني، وألا يكون شخصاً عصبي المزاج ينغمس كلياً في الأمر حتى المدى الأخير، وهو ما لم يكن عليه زوجي. على أنه بالإضافة إلى الرزانة ورباطة الجأش، فإن على المقامر أن يمتلك أموالاً طائلة حتى يتمكن من تحمّل سوء الحظ الذي يُصادفه إبان اللعب. وفي هذا الشأن كان لدى دستوفسكي نقطة ضعف: كان لدينا قليل من المال، مقارنة بالآخرين، ولم تكن لدينا أي فرصة على الإطلاق لتعويضه من أي مصدر في حال خسارته. وما هو إلا أسبوع واحد يمضي وإذا بفيودور ميخايلوفيتش يخسر ما لديه كله، وإذا بالقلق يجتاحه وهو يبحث عن طريقة يحصل بها على نقود ليواصل اللعب. اضطررنا للجوء إلى رهن أشياءنا، ولكن زوجي أحياناً ما كان يفقد القدرة على السيطرة على نفسه بمجرد رهن الأشياء، فكان كثيراً ما يخسر كل ما حصل عليه مُقابل الأشياء المرهونة، وكان أحياناً ما يخسر آخر طالر يملكه تقريباً، وفجأة إذا بالحظ يُحالفه فيعود للبيت حاملاً عشرات من العملات الذهبية (تساوي الواحدة منها عشرين طالراً) أي ما تبلغ قيمته حوالي أربعة آلاف وثلاثمائة طالر، ولكن سرعان ما يختفي كل هذا المال من أيدينا. لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يُطيق صبراً؛ فقبل أن يهدأ من سورة القمار أخذ عشرين عملة ذهبية ليخسرها. ثم يعود ليأخذ عشرين غيرها فيخسرها أيضاً، وعلى مدى ساعتين أو ثلاث عاد عدة مرات، وفي النهاية خسرها كلها. ومرة أخرى نعود لرهن أشياءنا، وحيث إن هذه الأشياء لم تكن ذات قيمة كبيرة فسرعان ما اختفت هذه المصادر. وفي الوقت نفسه راحت ديوننا تتراكم. كنّا نشعر بحرج موقفنا؛ إذ اضطررنا أن نستدين حتى من صاحبة الشقة، وكانت امرأة مiale للشجار، لم تخجل من أن تتعامل معنا بإهمال وتحرمنا من مختلف وسائل الراحة، التي كان لنا الحق في استخدامها بناء على اتفاقنا معها. كتبت خطاباً إلى أمي ورُحنا ننتظر النقود بكثيرٍ من القلق، ولكنها كانت تذهب أدراج الرياح في المقامرة يوم وصولها، أو في اليوم الذي يليه، ولم نكن ننجح إلا في سداد بعض الديون العاجلة (إيجار الشقة، الطعام، وغيرها من أمور) ثم نعود من جديد لنجلس دون نقود نفكر كيف سنتصرّف لكي نحصل على مبلغٍ محترّم يُخلصنا من ديوننا، دون أن نفكر في المكسب الأكبر وهو أن نخرج في نهاية الأمر من هذا الجحيم.

عن نفسي فقد كنتُ ألتقي، بكل رباطة جأش، «ضربات القدر» هذه، والتي كنا نُوجَّهها لأنفسنا بإرادتنا. لقد تكوَّن لديَّ اقتناع تام، بعد مرور وقتٍ قليل من خسائرنَا الأولى واضطراب حياتنا، أن فيودور ميخايلوفيتش لن يربح شيئاً من وراء اللعب، وأنه قد يربح، ربما مبلغاً ضخماً، ولكنه سيخسر هذا المبلغ نفسه في نفس اليوم (أو اليوم التالي على الأكثر) وأن توسُّلاتي ومحاولاتي إقناعه وإغراءه بعدم الذهاب إلى مائدة القمار والتوقُّف عن اللعب لن يؤثر في زوجي فتيلاً.

لقد بدا لي أمراً غريباً كيف أن شخصاً مثل فيودور ميخايلوفيتش تحمَّل في حياته من العذاب صنوفاً وألواناً (الحبس في القلعة، الصعود إلى منصة الإعدام، وفاة أخيه الحبيب وزوجته)، لا يملك مقداراً من الإرادة يجعله يتمالك ويتوقَّف عند قدرٍ معلوم من الخسارة، دون أن يُجازف بأخر طالر يملكه. وقد تصوَّرتُ أن ما يحدث فيه قدرٌ من الإنزال لا يليق بطبيعته السامية، وكنتُ أشعر بالحسرة والألم أن أعترف بهذا الضعف في زوجي العزيز. على أنني سرعان ما أدركتُ أن الأمر ليس مجرد مسألة «ضعف إرادة» بسيطة، وإنما شهوة فرضت كامل سيطرتها على إنسان، قوة طبيعية تعجز حتى أقوى الشخصيات عن التصدِّي لها ومقاومتها، يجب التسليم بذلك والنظر إلى الولع بالمقامرة باعتباره مرضاً لا تملك حياله حولاً أو قوة. لم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة للمقاومة ألا وهي الهروب. ولم نكن نستطيع الهروب من بادن قبل أن نحصل على مبلغ كبير من المال من روسيا.

ينبغي هنا أن أكون منصفة لنفسي. فأنا لم أعاتب زوجي مطلقاً على خسارته، ولم أتشاجر معه لهذا السبب في أي وقتٍ من الأوقات (وقد قدر لي زوجي هذه الخاصية في شخصيتي)^{٤٠} ودون تذمُّر رحْتُ أعطيه آخر ما أملكه من أشياء لن تعود إليَّ على الأرجح إذا لم يُسدِّد رهنُها في موعده (وهو ما حدث بالفعل)؛^{٤١} فضلاً عن مُعاناة السخافات من جانب صاحبة النزل وصغار الدائنين.

^{٤٠} «السيرة الذاتية والخطابات». خطاب دستوفسكي إلى مايكوف، ص ١٧٣ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* خطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف المؤرَّخ ٢٨ أغسطس ١٨٦٧م، الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٩.

^{٤١} لم تكن الرهونات تُقبَل في أماكن القمار لشهور وإنما لأسابيع وربما لأيام فقط. فإذا لم تُسدِّد في الموعد المحدَّد فلا يمكن استردادها حيث يُعلن عن بيعها (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

لكن أكثر ما كان يؤلمني ويعتصر قلبي، مقدار المعاناة التي عاشها فيودور ميخايلوفيتش نفسه. كان دائماً ما يعود من الروليت (لم يأخذني بالمناسبة معه مرة واحدة؛ إذ كان يرى أنه لا مكان لامرأة شابة مُهذبة في صالة للقمار) شاحباً هزياً، تكاد ساقاه تحمِلانه. كان يطلبُ منِّي نقوداً (كان قد أعطاني مُسبقاً كل النقود)، ثم يخرج ليعود بعد نصف ساعةٍ أكثر طلباً للمال من جديد، إلى أن يخسر كلَّ ما لدينا.

عندما كانت الرغبة في الذهاب إلى الروليت تستولي على فيودور ميخايلوفيتش، ولم يكن لدينا مال ولا نتوقّع الحصول عليه من أي مكان، إذ به يُصبح شديد الاكتئاب، مُنقبض النفس حتى ليكاد يبكي. يجلس أمامي على ركبتيه يرجوني أن أُسامحه على ما يُسبِّبه لي من عذابٍ بسبب تصرفاته، ثم ما يلبث أن يهوي فريسة اليأس. كان الأمر يتطلبُ منِّي عندئذٍ جهداً فائقاً لإقناعه وتهديته وتصوير وضعنا بأنه ليس يائساً إلى هذا الحد، وأن علينا أن نُفكر في مَخرج من هذا المأزق، ولفت انتباهه وأفكاره إلى شيءٍ آخر. وكم كنتُ راضيةً وسعيدة، عندما كنتُ أنجح في عمل ذلك بأن أخذَه إلى قاعة القراءة ليتصفح الصحف، أو نذهب معاً لنواصل نزهاتنا، الأمر الذي كان يترك تأثيراً إيجابياً دائماً على زوجي. عشرات الفراسخ قطعناها أنا وزوجي في ضواحي بادن في فترات التوقُّف الطويلة لحين استلامنا نقوداً. عندئذٍ كان مزاجه الطيب السُمح ينتعش، وكُنَّا نتبادل الأحاديث لساعاتٍ طويلة في شتَّى الموضوعات. كانت نزھتنا المُحبَّبة إلى Neues Shloß (القلعة الجديدة)، ومنها، عبر ممَرَّات الغابات الرائعة، إلى القلعة القديمة، حيثُ كنَّا نتناول حتماً هناك اللبن أو القهوة. وقد ذهبنا أيضاً إلى القلعة البعيدة المعروفة باسم قلعة إيرينبريتشتاين (على مسافة ثمانية فراسخ تقريباً من بادن)، وهناك تناولنا طعام الغداء لنعود مع غروب الشمس. كانت نزھاتنا جيدة وأحاديثنا شيقّة، حتى إنني (على الرغم من غياب المال ومضايقات صاحبة النزل) كنت على استعدادٍ أن أحلم ألا يُرسلوا إلينا — لمدةٍ أطول — نقوداً من بطرسبورج. ولكن ها هي النقود تصل وإذا بحياتنا الهانئة تتحوَّل إلى كابوس.

لم يكن لدينا معارف في بادن. الصدفة وحدها قادتنا لللتقي في المنتزه بالكاتب إيفان ألكسندروفيتش جونتشاروف،^{٤٢} الذي عرَّفني به زوجي. كان مظهره أشبه بموظفي

^{٤٢} إيفان ألكسندروفيتش جونتشاروف (١٨١٢-١٨٩١م) كاتب، مؤلف روايات «قصة عادية»، «أوبلوموف»، «الجُرف» وغيرها. تعرَّف عليه دستويفسكي في عام ١٨٤٦م في بيت أبو اللون مايكوف

بطرسبورج، كما بدا لي حديثه عاديًا، حتى إنني أُحبِطت بعض الشيء من هذه المعرفة الجديدة، ولم أكن راغبة فيها، بل إنني لم أُصدِّق أن هذا الرجل هو نفسه صاحب رواية «أوبلوموف»، وهي الرواية التي كنتُ شديدة الإعجاب بها.^{٤٣}

وقد قام فيودور ميخايلوفيتش بزيارة إيفان تورجينيف الذي كان يعيش في هذا الوقت في بادن بادن. ولدى عودته من هذه الزيارة غاضبًا قصَّ عليَّ، تفصيلًا، ما جرى بينه وبين تورجينيف من حديث.^{٤٤}

٤

العام ١٨٦٧م، جينيف

ما إن غادرنا بادن بادن حتى انتهت فترةٌ عاصفة من حياتنا قضيناها بالخارج. وكالعادة، انتشلتنا من مُصيبتنا هيئة تحرير «البشير الروسي» الطبية العبقرية. على أن

ولكنهما لم يتصافقا وإن راح كلُّ منهما يُتابع إبداع الآخر. وقد شغل جونتشاروف مناصب رفيعة، كان من أبرزها عمله مُستشارًا للرقابة.

^{٤٣} قابل دستوفسكي وزوجته إيفان جونتشاروف في الثاني من يوليو عام ١٨٦٧م. ويبدو أن رأيَّ أنا جريجوريفنا في جونتشاروف قد تكوَّن بتأثير الآراء السلبية لدستوفسكي عن شخصية هذا الكاتب الذي كان، بالمناسبة، كاتبًا تُكُنُّ له الاحترام: «أراد الله، من باب السخرية، أن يُنعم عليها بالموهبة الرائعة» (من خطاب دستوفسكي إلى فرانجيل المؤرَّخ التاسع من نوفمبر ١٨٥٦م، الخطابات، المجلد الأول، ص ١٩٩).

^{٤٤} انظر موجز الحديث في يوميات دستوفسكايا، ص ١٩٨-١٩٩، وكذلك في خطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف المؤرَّخ الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٦٧م، الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٠-٣٢. أصبح هذا الخصام بين الكاتبين، والذي وقع في العاشر من يوليو عام ١٨٦٧م، موضوعًا لفتنة أدبية (انظر ي.م. جارشين، ذكريات حول إيفان تورجينيف، البشير التاريخي، ١٨٨٣م، العدد ١١، وهناك تدقيق لهذه المذكرات كتبه ب. بارتينيف في مجلة «الأرشيف الروسي»، ١٨٨٤م، العدد ٣). انظر تفاصيل هذا الخصام أيضًا في تعليقات أ.س. دولينين على خطاب دستوفسكي إلى مايكوف والمؤرَّخ الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٦٧م الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٨٤-٣٨٧. وفي بادن وقع الصدام «الأيدولوجي» الشهير بين دستوفسكي وجونتشاروف، الذي انتهى بالقطيعة النهائية بينهما. كانت هذه القطيعة مُعدةً سلفًا منذ الأربعينيات بدرجة ما، عندما قام تورجينيف بأداء دوره كواحد من أشد الذين وجَّهوا إلى دستوفسكي سهام التجريح القاسية (انظر [الجزء الرابع، الإقامة في الخارج، التعليق رقم ٣٤]). بالمناسبة فقد كان للقاء الأول الذي جرى بين الكاتبين (في منتصف شهر نوفمبر ١٨٤٥م) أثرٌ طيب

كل ما تَسَلَّمناه من «البشير» من نقود، ذهبت في سداد العديد من الديون والرهونات التي تراكمت على كاهلنا في فترة اليأس. لكن الأمر الذي أَلَمني بشدة كان عجزني عن استرداد هدية زواجي العزيزة على قلبي: البروش والأقراط المُطعمة بالماس والياقوت، والتي ذهبت بلا عودة.

على كليهما، مما دفع دستوفسكي لأن يكتب لأخيه في السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٤٥ خطابًا بشأن هذا الانطباع (انظر الفصل المعنون «رَدِّي على سترخوف»). لكنَّ هذه الفترة من التفاهم لم تَدُم طويلًا؛ فسرعان ما انعكست القطيعة بين دستوفسكي وحلقة كُتَّاب «المعاصر» على علاقته بتورجينييف. لينكشف على الفور وعلى نحو واضح «النفور» النفسي بين طبيعتهما ومزاجيهما في كل الأمور الإبداعية؛ فضلًا عن الإنسانية. يقول تورجينييف في أحد خطاباتهِ: «إن دستوفسكي يُكِنُّ لي مشاعر الكراهية منذُ أن كُنَّا شابَّين يافعَيْن نخطو خطواتنا الأولى نحو مستقبلنا الأدبي، على الرغم من أنني لا أَسْتَحِقُّ، بأيِّ حالٍ من الأحوال، هذا الشعور بالكراهية، لكن المخاوف التي لا مُبرر لها أقوى وأطول أثرًا، كما يقولون (تورجينييف، الخطابات، المجلد العاشر، ص ٣٩).

ربما يكون الكاتب قد صنَّف طابع الخصام، الذي استمر طيلة حياتهما تقريبًا، تصنيفًا دقيقًا باعتباره «ولعًا غير مبرر» من جانب دستوفسكي بصورة رئيسية. لكن هذا التوتر النفسي والعاطفي المتبادل قام، بالتأكيد، نتيجة للخلاف الفكري، الذي زادت حدَّته بظهور رواية «الدخان» لتورجينييف في عام ١٨٦٧م. على أنه في سياق هذا التاريخ الصعب للعلاقة بين تورجينييف ودستوفسكي، كانت هناك فترة من التقارب النسبي في التعاون الإبداعي بينهما. وتقع هذه الفترة تحديدًا بين عامي ١٨٦٠م و١٨٦٥م، عندما ظهرت رواية «الآباء والبنون» ثم نشر قصة «أشباح» لتورجينييف في مجلة «العصر». في هذه الفترة انتعشت المراسلات بين تورجينييف ودستوفسكي، وقد ذكر تورجينييف أن دستوفسكي تحديدًا أدرك، دون غيره، مَغْزَى شخصية بازاروف («الآباء والبنون») أكثر من غيره حين قال له: «لقد أدركتُم ما أردتُ أن أُعبر عنه من خلال بازاروف بمهارةٍ وعلى نحوٍ غير منقوص، حتى إنني لم أتمالك نفسي من الدهشة والسعادة» (تورجينييف، الخطابات، المجلد التاسع، ص ٨٥). لكن «دخان» تورجينييف حال بين الأديبين إلى الأبد؛ فقد رأى دستوفسكي المُتعاطف مع أصحاب «نزعة الأرض» (التقريب بين المُتقنين والشعب، المترجم)، في هذه الرواية هجومًا واضحًا من أصحاب «نزعة الغرب» على روسيا، وكانت «الدخان»، حسب تعبيره «جلادًا يدفع بها (روسيا) إلى الحرق» (تورجينييف، الخطابات، المجلد التاسع، ص ٨٥). انصب غضب دستوفسكي على خطاب باتوجين «صاحب النزعة الغربية المتطرفة»، والذي تتطابق آراؤه فيه مع آراء تورجينييف. وكان الاحتجاج العارم لدستوفسكي سببهُ أفكار بطل تورجينييف الذي كان يرى ضرورة أن تقف روسيا على طريق الحضارة الغربية، والنقد الحاد الذي كآله للنزعة السلافية العالمية ولبعض وجهات نظر جيرتسين المتعاطفة إلى حدٍّ كبير مع الأفكار السلافية. وقد أكد مُعاصرو تورجينييف هذا النوع من النقد المُتحيز للرواية، مثل أ.ف. نيكيتين («المفكرة»، المجلد الثالث،

كنا نحلم أنا وزوجي أن نذهب لزيارة باريس فور مُغادرتنا لبادن بادن، أو نمر بإيطاليا، ولكن عندما قمنا بحساب ما نملك قَرَرنا أن نستقر بعض الوقت في جينيف،

موسكو، ١٩٥٦م، ص ٨٣). من هنا راح دستوفسكي ينقل الجدل الأدبي والأيدولوجي مباشرة إلى المجال الفني وهو يصنع روايته «الشياطين». إن شخصية كارمازينوف، ليست سوى كاريكاتور شرير لتورجينييف، مؤلف قصص «الأشباح» و«كفى» و«إعدام تروبان»، التي تتضمن أيضًا تلميحات خطيرة على التعاطف الواضح له (تورجينييف) مع «العدميين» والمتأمرين. كتب تورجينييف يقول: «لقد أدخلني دستوفسكي، على طريقة أريستوفان، إلى زمرة «الشياطين». «بل إن دستوفسكي سمح لنفسه بشيء أسوأ من محاكاة «الأشباح»؛ ففي «الشياطين» نفسها أطلق علي اسم كارمازينوف، الذي كان مُتعاطفًا سرًا مع حزب نيتشايف ... (تورجينييف، الخطابات، المجلد العاشر، ص ٤٩، ص ٣٩). إن تورجينييف، الذي لم يعترف براءة دستوفسكي «الجريمة والعقاب» يقارن بشكل جروتسكي الانطباع الذي تركته عليه هذه الرواية بالمُصّ المستمر من جرّاء مرض الكوليرا. كما هاجم أيضًا وبحدة، رواية دستوفسكي «المراهق» ووصفها «بالفوضى»، وبأنها دمدمة «مبهمة» لا تهتمُّ أحدًا. وقد انعكست هذه الأحقاد المُتحيّزة والآراء الظالمة في النبرة الغاضبة للجدل عند الكاتب؛ فضلًا عن الخلاف المبدئي مع المنهج الإبداعي عند دستوفسكي المتناقض أحيانًا مع وجهة نظر تورجينييف وتطُرّف نزعتة النفسية. لقد تصوّر تورجينييف العالم المأسوي لأبطال دستوفسكي، في كثيرٍ من جوانب هذا العالم، نموذجًا خاصًا للدفاع المريض عن المُعاناة (انظر [الجزء الثاني، التعرف على دستوفسكي والزواج منه، التعليق رقم ٦٠]) إن تورجينييف الفنان يرى أن دستوفسكي هو «موهبة قاسية». بينما يورد س.ل. تولستوي في مذكراته، الإدانة المُميزة لتورجينييف حول «النزعة النفسانية» عند دستوفسكي بقوله: «أذكر أنه كان يتحدّث عنه لي قائلاً: «هل تعرف ما هو الأمر النقيض؟ عندما يكون المرء غارقًا في الحب، فإن قلبه يخفق، وعندما يغضب، يحمّر وجهه وهكذا. كل هذه أمور عامة مشتركة. أما عند دستوفسكي فالأمر يحدث على النقيض من ذلك. خذ مثلاً، إذا التقى الإنسان أسدًا، ما الذي سيفعله عندئذ؟ بالطبع سيشتب وجهه وسيحاول الهرب أو الاختفاء. في إحدى القصص البسيطة التي كتبها جول فيرن، على سبيل المثال، سوف تكون الحكاية على هذا النحو. أما دستوفسكي فسوف يتخذ موقفًا آخر، سيقول: «سوف يحمّر وجهه، ويظل مُسمّرًا في مكانه». وهذا هو الأمر المناقض للطبيعة ... ثم نجد أبطال دستوفسكي بعد ذلك يُعانون كل صفحتين من الهذيان، أو من سَورة الغضب، أو يسقطون فريسة الحُمى. وهي أمور ليس من المعتاد حدوثها» (تورجينييف في مذكرات مُعاصريه، المجلد الثاني، موسكو، ١٩٦٩م، ص ٣٧٧). وكذلك كانت احتفالات بوشكين التي جرت في الثمانينيات حجةً جديدة لنشوب صدامات فكرية. ففي تقدير كلٍّ من تورجينييف ودستوفسكي للشاعر اتّضح مرّةً أخرى أن أفكارهما على طرفي نقيض (انظر [الجزء العاشر، العام الأخير، التعليق رقم ٤٦]). كانت الاتجاهات المُحبة لروسيا من جانب أصحاب نزعة الأرض في تفسيرها لبوشكين تُثير احتجاج تورجينييف. لكن خطاب تورجينييف أيضًا قوبل من جانب دستوفسكي باعتباره «مغازلة» مُتحيّزة للشبيبة الديمقراطية.

آخذين في الاعتبار أننا سوف نسافر إلى الجنوب عندما تتحسن أحوالنا المادية. وفي طريقنا إلى جينيف توقفنا لليلة في بازل بهدف مشاهدة إحدى اللوحات في متحفها، سمع عنها زوجي من صديق له. هذه اللوحة رسمها بريشته هانز هولباين (Hans Holbien) وتُصور عيسى المسيح، الذي عانى عذاباً فوق طاقة البشر، بعد إنزاله من على الصليب، وقد أخذ جسده في التفسُّخ. كان وجهه المتورَّم مُغطَّى بالجروح المُدماة، وكان منظره بشعاً. لقد تركت هذه اللوحة على فيودور ميخايلوفيتش تأثيراً بالغاً وظلَّ واقفاً أمامها ذاهلاً،^{٤٥} لم يكن باستطاعتي النظر إلى اللوحة: كانت تترك في النفس انطباعاً ثقيل الوطء، خاصة وقد كنت أعاني من المرض، خرجتُ لأشاهد القاعات الأخرى لأعود بعد حوالي خمس عشرة أو عشرين دقيقة لأجد فيودور ميخايلوفيتش ما يزال واقفاً مُسمَّراً في مكانه وعلى وجهه المُضطرب تعبير ما مُخيف، تعبير سبق لي مراراً أن لاحظته في الدقائق الأولى لنوبة الصرع التي كانت تنتابه، تأبَّطت ذراع زوجي ثم اقتدته في هدوءٍ إلى قاعةٍ أخرى وأجلسه على أريكه ورُحت أترقب دقيقةً بعد الأخرى حلول النوبة. لكن الأمر لحسن الحظ مرَّ بسلام، وسرعان ما استعاد فيودور ميخايلوفيتش رباطة جأشه. ولدى مُغادرتنا للمتحف عبَّر

على أنه، وعلى الرغم من الخلافات المبدئية العميقة بين تورجينييف ودستوفسكي، فقد وُحِدَ بينهما الحب الصادق الكبير للأدب الروسي. ويمكن تفسير ذلك بالاعتراف الثابت المتبادل بموهبة الآخر حتَّى في فترة احتدام العداوة بينهما (انظر خطاب تورجينييف إلى دستوفسكي المؤرَّخ الثامن والعشرين من مارس ١٨٧٧م في هذه الطبعة). يقول تورجينييف في خطابه إلى دستوفسكي «إنك تقف بالطبع ... في الصف الأول بين مُمثلي الأدب الروسي العظام» (تورجينييف، الخطابات، المجلد الثاني عشر، ص ١٢٩). كان تورجينييف بالنسبة لدستوفسكي موهبة «لا جدال عليها»، «لا يتطرق إليها الشك». في خطابه عن بوشكين عدَّد دستوفسكي أنماط النساء في أعمال تورجينييف من أمثال ليزا كاليتينايا اللائي وصفهن بشاعرية رفيعة. من المعروف أن تورجينييف أعرب عن رغبته في كتابة نعي «شخصية عظيمة» مثل دستوفسكي. للأسف فإن هذه الفكرة لم تتحقَّق. وعن العلاقات بين تورجينييف ودستوفسكي انظر مراسلاتهما التي قام بتحريرها إ. س. زيلبرشتاين (ليننجراد، ١٩٢٨م)، كتاب ي. نيكولسكي «تورجينييف ودستوفسكي. قصة عداوة» (صوفيا، ١٩٢١م) ومقالة أ. س. دولينين «تورجينييف في «الشياطين»» (دستوفسكي، المجلد الثاني).

^{٤٥} تعكس رواية «الأبله» مشاعر دستوفسكي تجاه هذه اللوحة (ملاحظة لأنَّا جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* انظر: دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، المجلد الخامس، ص ٤٦٣.

زوجي عن رغبته الملحة في أن يعود مرةً أخرى ليشاهد هذه اللوحة التي أثارتها إلى هذا الحد.^{٤٦}

بمجرد وصولنا إلى جينيف سارعنا في اليوم نفسه للبحث عن غرفة مفروشة. طفنا بكل الشوارع الرئيسية وشاهدنا العديد من الغرف المفروشة دون جدوى: كانت الغرف إما غير مناسبة لقدراتنا المالية، وإما تقع في أماكن شديدة الازدحام، الأمر الذي لم يكن يُناسبني. وأخيرًا وعند حلول المساء نجحنا أن نجد شقةً مناسبة لنا تمامًا. كانت تقع على ناصية شارعي Guillaume و Bertellier في الطابق الثاني، فسيحة للغاية، ومن نافذتها الوسطى يمكن رؤية أحد الجسور الممتدة على نهر الرون وجزيرة جان جاك روسو. كما أُعجبنا أيضًا بصاحبتَي الشقة الأنستين Raymondin، كلتاهما تخطت سن الزواج بأعوام طويلة. قابلتانا بترحابٍ شديدٍ وراحتا تمتدحانني، ومن ثمَّ قرَّرنا، بلا تردُّد، أن نسكن لديهن.

بدأت حياتنا في جينيف بما لدينا من أموال زهيدة: تكفي لسداد شهرٍ مُقدمًا لصاحبتَي الشقة، وفي اليوم الرابع لوصولنا تبين أن كل ما لدينا هو ثمانية عشر فرنكًا، مع اعتبار أننا كنَّا نضع في حسابنا أننا سنتسلَّم خمسين روبلاً،^{٤٧} لكننا كنَّا قد تعودنا أن نقنع بما لدينا من مبالغ ضئيلة، وعندما يتم صرفها كنا نفتش على رهنٍ أسيئنا. وقد بدت الحياة لنا، وخاصةً بعد الاضطرابات التي عانينا منها منذ زمنٍ غير بعيد، في البداية، جيدة للغاية.

وهنا، كما في درزدن، ساد النظام حياتنا اليومية: فيودور ميخايلوفيتش يعمل ليلاً فلا يستيقظ قبيل الحادية عشرة صباحًا؛ أتناول إفطاري معه ثم أذهب بعد ذلك للتنزه

^{٤٦} عن التأثير الهائل الذي تركته لوحة هانز هولباين «المسيح الميت» كتبت أنا جريجوريفنا دستوفسكايا أيضًا في «مفكرة عام ١٨٦٧م» في الرابع والعشرين من أغسطس (مذكرة دستوفسكي، ص ٣٦٦) وفي «تعليقات على رواية «الأبله»»: «وهناك في متحف المدينة شاهد فيودور ميخايلوفيتش لوحة هانز هولباين، وقد أثارت دهشته بقوة، وعندئذٍ قال لي: إن مثل هذه اللوحة كفيفة أن تُفقد المرء إيمانه» (جروسمان، السمينارات، ص ٥٩).

^{٤٧} «السيرة الذاتية والخطابات»، فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي، ص ١٦٧ (ملاحظة لأنَّ، جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* تستشهد أنا جريجوريفنا دستوفسكايا بخطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف المؤرخ السادس عشر من أغسطس عام ١٨٦٧م. انظر: الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٤.

بناءً على تعليمات الطبيب، أما فيودور ميخايلوفيتش فيواصل عمله. في الثالثة ظهرًا نتوجّه إلى المطعم لتناول طعام الغداء، بعدها أخذ إلى الراحة، فيعود بي زوجي إلى المنزل ليذهب بعدها إلى أحد المقاهي في شارع Mont-Blanc حيث يتلقّون هناك الصحف الروسية، وعلى مدى ساعتين يستمر زوجي في قراءة «جولوس» («الصوت») والوقائع «الموسكوفية» و«البطرسبورجية»، كما يُطالع بعض الصحف الأجنبية. وفي المساء، في حوالي الساعة السابعة، نواصل نُزهتنا، وحتى أتنجّب الإرهاق، كنا نتوقّف أمام نوافذ المحلات الفاخرة ذات الإضاءة المبهرة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يُشير إلى تلك الحليّ الثمينة التي كان يتمنّى لو يُهديها لي لو كانت لديه ثروة. وللإنصاف فقد كان لدى زوجي ذوق فني رفيع، وكانت الحليّ التي يُشير إليها رائعة الجمال حقًا.

كنا نُمضي المساء إمّا في إملاء الرواية الجديدة، وإمّا في قراءة الكتب الفرنسية، وكان زوجي حريصًا على أن أقرأ وأن أدرس، بشكلٍ منهجي، عملاً لأحد الكتاب دون أن يبتعد باهتمامه عن باقي الكتاب. كان فيودور ميخايلوفيتش يضع موهبتَي كلٍّ من بلزاك^{٤٨} وچورج صاند^{٤٩} في مكانة رفيعة، وقد رُحّت تدريجيًا أعيد قراءة رواياتهما. كنا نتحدث

^{٤٨} من الأمور التي جذبت انتباه دستوفسكي في إبداع بلزاك، التوجّه المعادي للبورجوازية في إبداعه، عمق التحليل النفسي، التعاطف مع المُذلّين المُهانين، وكان أول عمل أدبي أنجزه دستوفسكي هو ترجمته لرواية «أوجيني جرانديه»، وفي آخر إنجاز له، وهو خطابه عن بوشكين، يأتي دستوفسكي على ذكر راستينيك، وهو أحد الأبطال الرئيسيين في رواية «الأب جوريو» (انظر خطاب بوشكين في كتاب: دستوفسكي، المجلد الثاني)، الذي يُحاول حل نفس المعضلة، التي كان يسعى راسكولنيكوف لحلّها: حق الإنسان المُتميز (السوبرمان) في تخطّي الحواجز من خلال ارتكاب جريمة يستطيع أن يُحقّق بارتكابها خططه الكبرى. عن السمات المشتركة في إبداع بلزاك ودستوفسكي انظر مقالة ل. ب. جروسمان «بلزاك ودستوفسكي» في كتاب: ل. ب. جروسمان، الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، الإصدار الثاني، موسكو، ١٩٢٨م؛ إ. إ. لابشين «الإخوة كارامازوف» لدستوفسكي و«الحانة الحمراء» لبلزاك. مجلة «فوليا روسي» («إرادة روسيا»)، براج، ١٩٢٧م، العدد الثاني؛ ل. ب. جروسمان «بلزاك في ترجمة دستوفسكي» في كتاب: أ. بلزاك، أوجيني جرانديه، ترجمه ف. م. دستوفسكي، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م.

^{٤٩} كان للكاتبة جورج صاند تأثير كبير على فكر دستوفسكي الشاب. ومن المعروف أن دستوفسكي قام في صيف عام ١٨٤٤م بترجمة قصة جورج صاند «الديني الأخير». وقد نعى دستوفسكي جورج صاند في عدد يونيو من «مذكرة الكاتب» عن ١٨٧٦م بقوله: «تقف جورج صاند ... عندنا في المقدمة، إلى جانب كوكبة كاملة من الكتاب الجدد، الذين اشتهروا فجأة وذاع صيتهم في أنحاء أوروبا بأسرها ...

أثناء نزهاتنا عن قراءاتي، وكان زوجي يُفسر لي جوانب العظمة فيما قرأت من أعمال. وكنت كثيرًا ما أشعر بالدهشة من أن فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان ينسى ما حدث منذ زمنٍ غير بعيد، يتذكّر بوضوح تامّ موضوع وأسماء أبطال روايات هذين الكاتبين المُفضّلين لديه. أذكر أن زوجي كان يقدر على وجه الخصوص Père Goriot («الأب جوريو»)، والجزء الأول من ملحمة Les parents Pauvres («الأقارب الفقراء»).^{٥٠} وقد عاد فيودور ميخايلوفيتش نفسه شتاء عامي ١٨٦٧-١٨٦٨م لقراءة رواية فيكتور هوجو Les humiliés et les offenses («مُذلّون مُهانون»)^{٥١}.

لم يكن لدينا أي معارف تقريبًا في جينيف. كان فيودور ميخايلوفيتش صعب المراس في عقد صداقات جديدة. فمن بين أصدقائه القدامى قابل في جينيف ن. ب. أوجاريف^{٥٢} فقط، الشاعر الشهير وصديق جيرتسين، وكأنا قد تعارفا عنده يومًا ما. كان أوجاريف يأتي لزيارتنا أحيانًا حاملًا معه كتبًا وصحفًا، بل إنه كان يُقرضنا أحيانًا عشرة فرنكات،

لم تكن جورج صاند مفكرة، بقدر ما كانت من بين الذين استشرّفوا ببصيرة نفاذة ... مستقبلاً أكثر سعادة ينتظر البشرية، وأمنا بتحقيق المثل التي كانت تؤمن بها بكل حمية وحماس طوال حياتها» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ٣١١، ص ٣١٤-٣١٥). تورد ف. ف. تيموفيفا (أ. بوتشينكوفسكايا) كلمات دستوفسكي التي تقول: «هناك كاتبة واحدة في العالم بأسره تستحق هذا اللقب! إنها جورج صاند!» (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، المجلد الثاني، ص ١٣٦). وعن تأثير جورج صاند في إبداع دستوفسكي انظر مقالات: A. Brinken. George Sand et Dostojevsky: contribution en problème des emprunts litté. Revue de literature comparée Paris, 1933, Oct.-Dec., P623-629.

وف. كوماريفيتش، شباب دستوفسكي.

مجلة الماضي، ١٩٢٤م، العدد ٢٣.

^{٥٠} خطأ: أول جزء من ملحمة Les parents pauvres هي رواية Le cousin Bette.

^{٥١} تُسمّى أنا جريجوريفنا خطأً رواية Les Misérables («البؤساء») لفكتور هوجو بالعنوان المعتاد لترجمة رواية «مُذلّون مُهانون» لدستوفسكي Les humiliés et les offenses وقد أشار كتاب المذكرات مرارًا إلى العلاقة الحميمة بين دستوفسكي ورواية «البؤساء». انظر، على سبيل المثال، مذكرات تيموفيفا (أ. بوتشينكو فسكايا) ون. ن. ستراخوف في كتاب: دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، المجلد الأول، ص ٣٠٠، والمجلد الثاني، ص ١٧٨-١٧٩، وكذلك في الكتاب الحالي الباب السابع).

^{٥٢} نيكولاي بلاتونوفيتش أوجاريف (١٨١٣-١٨٧٧م): شاعر وكاتب، ناشط ثوري من أنصار جيرتسين. تعرّف عليه دستوفسكي في جينيف. وصفه دستوفسكي في رواية «الشياطين».

أَعَدْنَاها إليه فور تسلُّمنا أول نقودٍ وصلتنا. كان دستوفيسكي يُقَدِّرُ العديد من أشعار هذا الشاعر الصادق،^{٥٣} وكنا نسعد دائماً بزيارته. كان أوجارييف آنذاك قد بلغ أرذل العمر، وكان يُكُنِّي لي قدراً كبيراً من الصداقة والمودة. وكان يتعاملُ معي باعتباري فتاةً شابة. وهو ما كنتُ عليه بالفعل آنذاك. وللأسف الشديد فبعد ثلاثة أشهرٍ من زيارات هذا الرجل الطيب الصالح لنا، انقطع تماماً عن الحضور إلينا؛ فقد وقع له حادث مؤسف، فعند عودته إلى فيلته في الضواحي، أُصيب أوجارييف بنوبةٍ من نوبات الصرع سقط على أثرها على حافة طريق يحدُّ إحدى القنوات، وقد كُسِرَت ساقه من أثر هذا السقوط. ولأن هذا الحادث قد وقع له وقت الغروب وكان الطريق خالياً من المارة، فقد ظلَّ راقداً في هذه القناة حتى الصباح وأُصيب بنزلة بردٍ حادة. أخذه أصدقاؤه للعلاج في إيطاليا، وهكذا فقدنا الصديق الوحيد في جنيف، الذي كنَّا نسعد بلقائه والتحدث معه.

في مطلع شهر سبتمبر من عام ١٨٦٧م عُقد في جنيف مؤتمر السلام،^{٥٤} الذي وصل لحضور افتتاحه جوزيب غاريبالدي^{٥٥} وقد أولى القائمون على الأمر اهتماماً فائقاً بحضوره وأعدت المدينة له استقبلاً رائعاً. وقد ذهبنا أنا وزوجي أيضاً إلى شارع Mont-Blanc، حيث كان من المنتظر أن يمر به بالقطار. كانت البيوت مزدانةً بالزهور والأعلام، واحتشدت الجموع في الطريق الذي سيسلكه. اخترق غاريبا الطريق راكباً عربة تجرُّها الخيل مُرتدياً بدلته المميزة، واقفاً في العربة وهو يلوح بقبعته رداً على الحفاوة الشديدة

^{٥٣} تشير ف. ف. تيموفيفا (أ. بوتشينكو فسكايا) إلى أن الأبيات المفضلة لدستوفيسكي كانت الترجيع من قصيدة ن. ب. أوجارييف «السجن»، التي كُتبت بين عامي ١٨٥٧-١٨٥٨م:

استخرت الكتاب المقدس.
ولم أكن أملُ أو أتطلع،
سوى أن يتيح لي القدر
حياةً وأحزاناً، وموتاً مثل الأنبياء.

^{٥٤} عقد أول مؤتمر لـ «جامعة السلام والحرية» في جنيف من التاسع إلى الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٦٧م.

^{٥٥} جوزيبي غاريبالدي (١٨٠٧-١٨٨٢م): البطل القومي لإيطاليا. أحد قادة الجناح الثوري الديمقراطي المعروف باسم ويسورد جيينتو. شارك في الثورة الإيطالية (١٨٤٨-١٨٤٩م). منظم الدفاع عن جمهورية روما ١٨٤٩م.

للجماهير. نجحنا أن نرى غاريبالدي من مسافة قريبة، وقد رأى زوجي أن هذا البطل الإيطالي يتمتع بوجه لطيف وابتسامة بشوش.

كنّا مهتمين بمؤتمر السلام فذهبنا لحضور جلسته الثانية ورحنا لمدة ساعة أو ساعتين نستمع إلى كلمات الخطباء. خرج فيودور ميخايلوفيتش بانطباع ثقيل من جراء هذه الخطب، فكتب عنها خطاباً إلى إيفانوفا-خميروفا^{٥٦} جاء فيه ما يلي^{٥٧} «لقد بدءوا بقولهم إنه لتحقيق السلام على الأرض ينبغي تحطيم العقيدة المسيحية، وكذلك تدمير الدول الكبرى وتحويلها إلى دويلات؛ وكذلك الأمر مع رءوس الأموال ... إلخ، ليصبح كل شيء للمصلحة العامة ... إلخ. كل ذلك دون تقديم أدنى إثبات، كل ذلك محفوظ عن ظهر قلب منذ عشرين عاماً، وما يزال على حاله. والأمر الرئيسي عندهم هو النار والسيف، وبعد أن يتم هدم كل شيء، في زعمهم، يحلّ السلام». للأسف سرعان ما ندّمنا لاختيارنا جينيف محلاً دائماً لإقامتنا. في الخريف بدأت العواصف الشديدة التي يُسمونها bisés وراح الجو في التقلب مرّتين وثلاثاً في اليوم الواحد. راحت هذه التقلبات المقبضة للنفس تؤثر على أعصاب زوجي، ومن ثم راحت نوبات الصرع تتكرّر بشكل ملحوظ. وقد أثارت هذه الأحوال قلقي، بينما راحت تُثير غمّ فيودور ميخايلوفيتش وكربه، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى أن أوان العمل قد حان، وها هي نوبات المرض المتكررة تعوقه بشدة عن الشروع فيه.

في خريف عام ١٨٦٧م كان فيودور ميخايلوفيتش مشغولاً بإعداد خطة وكتابة رواية «الأبله»، التي خصّصها للأعداد الأولى من مجلة «البشير الروسي» المزمع إصدارها عام ١٨٦٨م. فكرة الرواية قديمة ومحبّبة؛ وصف الإنسان الإيجابي الرائع^{٥٨} لكن هذه المهمة بدت لفيودور ميخايلوفيتش مهمة «لا حدود لها». كل هذه الأمور كانت تُثير قلق زوجي واضطرابه.

^{٥٦} إيفانوفا (خميروفا) صوفيا ألكسندروفنا (١٨٤٦-١٩٠٧م) ابنة أخت دستوفسكي، مترجمة.
^{٥٧} مجلة «روسكيا ستارينا» (الماضي الروسي)، ١٨٧٧م، الكتاب الثاني عشر (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).*

* معلومة غير دقيقة؛ الخطاب المشار إليه المُرسَل إلى س. أ. إيفانوفا والمؤرّخ الحادي عشر من أكتوبر عام ١٨٦٧م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٤-٤٥) نُشر للمرة الأولى في العدد السابع من مجلة «الماضي الروسي» عام ١٨٨٥م.

^{٥٨} مجلة (الماضي الروسي)، ١٨٧٧م، الكتاب السابع (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).*

لا بأس. ولكن إلى جانب كل ذلك فقد اجتمع عليه همٌّ آخر لا أساس له في الواقع إطلاقاً، وهو كيف أني لا أشعر بالملل، رغم أني أعيش معه في وحدة تامة، «في جزيرة غير مأهولة»، هذا ما كتبه في خطابه إلى أبوللون مايكوف^{٥٩} ... كيف لم أحاول أن أقنعه، أو أذكر له أنني سعيدة تماماً، لا ينقصني شيء، وأنه يكفيني أن أعيش معه وأن يظلَّ يُحبني، لكن تأكيداتٍ قليلاً ما كانت تترك أثرها لديه. كان يجأ بالشكوى من قلة المال الذي يُمكننا من الذهاب إلى باريس فيوفر لي إمكانية الاستمتاع بأشياء مثل زيارة المسارح ومتحف اللوفر^{٦٠} ... لم يكن زوجي يعرفني آنذاك حقَّ المعرفة.

باختصار، سرعان ما أصاب الاكتئاب فيودور ميخايلوفيتش بقوة، وعندئذٍ أوحيتُ له بفكرة السفر إلى Saxon les Bains «ليجرب حظَّه» في الروليت، سعياً مني لإبعاده عن الأفكار الحزينة (كانت Saxon les Bains على مسافة خمس ساعات بالقطار من جينيف، وقد أغلقت صالات القمار التي كانت موجودة بها آنذاك منذ فترة بعيدة) استحسن فيودور ميخايلوفيتش فكرتي. وفي أكتوبر-نوفمبر ١٨٦٧م سافر زوجي إلى Saxon لبضعة أيام. وكما توقعت فهو لم يربح أي نقود من الروليت، وإن أثمر الأمر نتيجة أخرى إيجابية: لقد كان لتغيير المكان، والسفر ومعاناة المشاعر العاصفة من جديد^{٦١} أثر عميق على مزاجه؛ فبعد أن عاد فيودور ميخايلوفيتش من جينيف راح، في حماس شديد، في مواصلة ما انقطع من عمل، وخلال ثلاثة وعشرين يوماً كتب حوالي ستِّ مَلازم (٩٣ صفحة) لعدد يناير من «البشير الروسي».

* معلومة غير دقيقة. الخطاب المشار إليه المُرسَل إلى س. أ. إيفانوف والمؤرَّخ الأول من يناير عام ١٨٦٨م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٧١)، والذي استشهدت صاحبة المذكرات بمقطعٍ منه، نُشر للمرة الأولى في العدد السابع من مجلة «الماضي الروسي» عام ١٨٨٥م.

^{٥٩} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ١٨٠ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* الخطاب المُرسَل إلى أبوللون مايكوف، مؤرَّخ التاسع من أكتوبر ١٨٦٧م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٥).

^{٦٠} المرجع السابق، ص ١٨١ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* الخطاب مرسل إلى أبوللون مايكوف، مؤرَّخ التاسع من أكتوبر ١٨٦٧م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٦).

^{٦١} خطابه إلى المؤرخ ١٧ نوفمبر ١٨٦٧م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* انظر الخطابات، المجلد الثاني، ص (٥٤-٥٥).

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش راضيًا عن الجزء الذي كتبته من رواية «الأبله» وأخبرني أنه لم يوفق في كتابة الجزء الأول.^{٦٢} أودُّ أن أذكر هنا بالمناسبة أن زوجي كان دائمًا شديد الصرامة تجاه نفسه ونادرًا ما أثني على عملٍ من أعماله.

كان فيودور ميخايلوفيتش في بعض الأحيان يُبدي إعجابه وحبه لأفكاره، التي تظلُّ تدور في رأسه، ولكنه كان غير راضٍ دائمًا تقريبًا عن تجسيدها في أعماله مع بعض الاستثناءات النادرة.

أذكر أن فيودور ميخايلوفيتش اهتم بشدة في شتاء عام ١٨٦٧م بتفاصيل قضية آل أوميتسكي التي أثارت ضجةً كبيرة آنذاك. وقد بلغ به الاهتمام أنه كان عازمًا على أن يجعل من أولجا أوميتسكايا بطله هذه القضية بطله روايته الجديدة (في الخطة المبدئية)، حتى إنها كانت تحمل نفس الاسم في مسوداته. كان زوجي شديد الأسف أنه ليس في بطرسبورج؛ إذ كان حتمًا سيُدلي برأيه في هذه القضية.^{٦٣}

أذكر أيضًا أن فيودور ميخايلوفيتش في شتاء عام ١٨٦٧م كان مُهتمًا بشدةً بنشاط محكمة المُحلفين قبل توقيع الأحكام بفترةٍ قصيرة. وأحيانًا ما كان يبلغ به الفرح والتعاطف

^{٦٢} عن عدم رضا دستوفسكي عن الفصول الأولى من روايته، كتب أبوللون مايكوف في الثاني عشر من يناير ١٨٦٨م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٦١-٦٢)، حول سير العمل في رواية «الأبله» انظر كتاب: «من أرشيف دستوفسكي «الأبله» مواد غير منشورة»، المحرر ب. ن. ساكولين ون. ف. بيلتشكوف، موسكو، ليننجراد، ١٩٣١م.

^{٦٣} كان للمواد الخاصة بقضية أولجا أوميتسكايا، ابنة مالك الأراضي، المتهمة بإحراق منزل الأسرة عمدًا، والديها: فلاديمير أوميتسكي ويكاتيرينا أوميتسكايا، المُتهمين بسوء استغلال سُلطتهما كأولياء أمرها (صحيفة «موسكفا» («موسكو»)، ١٨٧٦م، العددان ١٣٦ و ١٣٧ المؤرخان ٢٣ و ٢٤ سبتمبر و«جولوس» («الصوت») العددان ٢٦٦ و ٢٦٨ المؤرخان ٢٦ و ٢٨ سبتمبر) كان لها أثرها على تشكيل الفكرة المبدئية لرواية «الأبله». لقد كشفت قضية هؤلاء المُلَّاك من منطقة كاشيرا بالقرب من موسكو، صورة الازدراء الحاد من جانب الوالدين تجاه أطفالهما، وهو الازدراء الذي أثار «ثمرة» ابنة آل أوميتسكي، أولجا، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، والتي حاولت أن تُحرق بيت الأسرة أربع مرات. وتعد أولجا هي النموذج الأصلي لإحدى بطلات الرواية القادمة وتُدعى مينيونا. وعلى الرغم من أن قضية آل أوميتسكي لم تظهر في النص النهائي لرواية «الأبله»، فإن دستوفسكي استشهد من المأساة العائلية لآل أوميتسكي بالملامح النمطية لإعداد موضوع «العائلة العابرة» وهو من الموضوعات الأثيرة لديه.

مع الأحكام المنطقية والعادلة، وكان دائماً ما يُخبرني بأبرز ما قرأه في الصحف فيما يخص الحياة القضائية.^{٦٤}

يمر الزمن وتتزايد همومنا حول ما إذا كان الحدث الهام المُنتظر في حياتنا؛ ميلاد طفلنا البكر، سوف يمر بسلام. وحول هذا الحادث المُنتظر تركّزت بشكلٍ رئيسي أفكارنا وأحلامنا، ورُحنا أنا وزوجي نُحب هذا المولود القادم بكل حنان. اتخذنا قراراً مشتركاً أن نُسَمِّيها، إذا كانت ابنة، صوفيا (رفضت أن أُسَمِّيها أناً كما كان يودُ زوجي)، على شرف صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفا، ابنة أخته المفضلة لديه، وكذلك في ذكرى «سونيتشكا مارميلادوفا»،^{٦٥} سيئة الحظ التي بكيتُ من أجلها كثيراً. أما إذا كان صبياً، فقد قرّرنا أن نُسَمِّيهِ ميخائيل على شرف أخي زوجي الحبيب ميخائيل ميخيلوفيتش.

أُتذكّر بكل العرفان بالجميل، كيف راح فيودور ميخيلوفيتش يُعاملني بعناية فائقة ورهافة نظراً لحالتي الصحية السيئة. لا أنسى كيف كان يهتمُّ بي بكل حذر، متابعاً كل خطوةٍ من خطواتي مُحذراً إيّاي من القيام بأي حركةٍ متعجلة كنتُ، لقلّة خبرتي، لا أوليها اهتماماً. إن أكثر الأمهات عطفاً وحناناً، لم يكن باستطاعتها أن تحافظ عليّ كما فعل زوجي الغالي.

منذ اللحظة الأولى لوصولنا جينيف، سارع فيودور ميخيلوفيتش بعد تسلّمه للدفعة الأولى من النقود، لزيارة أفضل طبيب ولادة وطلبَ منه التوصية بوضعي تحت رعاية قابلةٍ تقوم بزيارتي أسبوعياً. وقبل الولادة بشهر ظهرت لي حقيقة مسّت شغاف قلبي؛ إذ رأيت إلى أي حدٍّ من رهافة الإحساس امتدَّ اهتمام زوجي بي ليشمل أدقّ التفاصيل. ففي إحدى زيارات مدام Barraud (القابلة)، سألتني مَنْ مِنْ معارفنا يعيش في الشارع الذي تقطن فيه؛ إذ إنها كثيراً ما تُقابل زوجي هناك. اندهشت، ولكنّي فكرتُ أنها قد تكون مُخطئة. رُحْتُ لأُحقّ زوجي بالأسئلة: كانت مدام Barraud تسكن في أحد الشوارع

^{٦٤} نتيجة للإصلاحات القضائية التي اتخذت في عام ١٨٦٤م، تم استبدال المؤسسات القضائية العامة لكل الفئات بالمحاكم الطبقيّة، وفي المحاكم الجديدة، خلافاً لمحاكم ما قبل الإصلاحات، كانت القضايا تُنظر علناً ويشارك فيها المحلّفون والمحامون. وكانت تقارير الاجتماعات القضائية تُنشر في الصحف. وقد انعكس اهتمام دستوفسكي بقضاء ما بعد الإصلاحات في رواية «الأبله»، ثم في «مذكرة الكاتب» بعد ذلك، وقد ظهر هذا الاهتمام على نحو خاص في رواية «الإخوة كارامازوف».

^{٦٥} بطلّة رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

العديدة المؤدية إلى الجبل من ناحية شارع Basses، وهو الشارع التجاري الرئيسي في جينيف. ولما كان فيودور ميخايلوفيتش يخشى أن تخونه ذاكرته البصرية، فقد وضع هذا الشارع هدفاً لجولاته، ومن ثم كان يذهب يومياً، بعد الانتهاء من القراءة، للمرور ببيت مدام Barraud، ماراً بخمسة أو ستة بيوت بعده ثم يعود راجعاً إلى المنزل. وقد ظلّ زوجي يقوم بهذه الجولة على مدى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، في الوقت الذي كان صعود هذا المنحدر الصعب يُكلفه تضحية كبيرة، وقد بدأ مَرَضُ الربو يُهاجمه. توسّلت إلى زوجي ألا يُرهق نفسه بهذه المسيرة، لكنّه واصل جولاته. وقد حالفه النصر بعد ذلك، إذ أفادته معرفته بالشارع وبيت مدام Barraud أن يعثر بسرعة في اللحظات العصبية للحدث المُتَوَقَّع، على البيت وقت السَّحَر، وقد لفّ الظلام المكان، وأن يأتي بها إليّ. قلّقاً على حالتي، ورغبةً منه في إسعادي، قرّر فيودور ميخايلوفيتش أن يطلب من أمي أن تحضر إلينا وأن تنزل في ضيافتنا من شهر إلى ثلاثة. وافقَت أمي عن طيب خاطر على الحضور، وكان شوقها إليّ وقلقها بشأني يهزّانها هزّاً، ولكنها طلبت أن نُمهّلها فسحةً من الوقت، حتى تتمكن من تدبير شئون البيوت التي تمتلكها، وقد واجهت بعض الصعوبات في ذلك.

في منتصف شهر ديسمبر من عام ١٨٦٧م، وكنا بانتظار الوضع، انتقلنا إلى شقةٍ أخرى تقع في شارع Mont-Blanc بالقرب من الكنيسة الأنجليكانية. وفي هذه المرة استأجرنا غرفتين إحداها فسيحة للغاية، ذات نوافذ أربع تُطل على الكنيسة. كانت هذه الشقة تفضّل شقتنا القديمة. ولكن كان علينا أن نأسف كثيراً على العجوزين الطيبين، أصحاب الشقة القديمة. كان أصحاب الشقة الجديدة دائمي الغياب فلا يتركان لنا سوى الخادمة، وهي فتاة سويسرية من أصل ألماني، لا تعرف الفرنسية إلّا قليلاً ولا قدرة لديها على مساعدتي. ولهذا قرر فيودور ميخايلوفيتش أن يُحضر لي ^{٦٦}garde-malad لرعاية الطفل والعناية بي في وقت المرض.

انقضى فصل الشتاء ما بين عمَلنا المشترك في كتابة الرواية وبين اهتماماتنا الأخرى، وجاء شهر فبراير من عام ١٨٦٨م ومعه هذا الحدث المأمول والذي طالما أثار مخاوفي. كان الجو في جينيف رائعاً في مطلع العام، ولكنّه بحلول منتصف فبراير انقلب إلى النقيض بفعل العواصف اليومية. كان لتغيّر الجو المفاجئ، كالعادة، أثره السيئ على

^{٦٦} جليسة (بالفرنسية).

أعصاب فيودور ميخايلوفيتش، وخلال هذه الفترة القصيرة أصابته نوبتان من نوبات الصرع. كانت الثانية غاية في القوة، فاجأته في منتصف ليلة العشرين من فبراير، وقد أنهكته حتى إنه بعد استيقاظه في الصباح كان يقف على قدميه بالكاد. ظلَّ طوال اليوم مُتكدِّراً، وعندما وجدتُ أنه على هذا الحال من الضعف أقنعتُه أن يخلد إلى النوم مبكراً، وقد استسلم له في السابعة مساءً. ولكن ما إن مرت ساعة واحدة على استغراقه في النوم، حتى شعرت ببعض الألم، بدأ خفيفاً، ولكنه راح يزداد ساعةً بعد الأخرى. كان ألماً مُميزاً، وعندما أدركتُ أنه ألم المخاض وأن ساعة الوضع قد حلت. وتحملت الألم حوالي ثلاث ساعات، ولكنني خشيتُ في النهاية أن أظلَّ هكذا دون أن يُقدِّم لي أحد المساعدة، وكنتُ آسفةً أن أضطر لإزعاج زوجي المريض، ولكنني قررتُ أن أوقظه. بدأتُ أربّت على كتفيه بهدوء. رفع على الفور رأسه من على الوسادة وسألني: ماذا بك يا أنيتشكا؟ أجبتُ بقولي: يبدو أن الأمر قد بدأ. إنني أتألم بشدة!

تحدّث إليَّ زوجي بصوتٍ يفيض بالشفقة قائلاً: كم أنا آسف من أجلك يا عزيزتي! وفجأةً مالت رأسه على الوسادة ثم راح على الفور في نوم عميق. هزّني حنانه المُخلص بشدة، وفي الوقت نفسه شعرتُ بعجزه التام. أدركتُ أن فيودور ميخايلوفيتش في حالة لن تسمح له بالذهاب وإحضار القابلة، وأن عدم إعطائه فرصةً لمواصلة النوم لتهدئة أعصابه المُنهارة قد يستدعي وقوع نوبةٍ جديدة. كان أصحاب البيت، كعادتهم، بالخارج (كانوا يسهرون كل ليلةٍ وحتى الصباح في مكان ما)، وكان اللجوء للخادمة أمراً لا طائل من ورائه. لحسن الحظ هدأ الألم بعض الشيء فقررتُ التماسك قدر استطاعتي. ولكن، يا لها من ليلةٍ مروعة قضيتها: كانت الأشجار المحيطة بالكنيسة تهتّز بشدة، والريح والمطر يضربان النوافذ، بينما ساد الظلام الحالك الطريق. كان إحساساً خانقاً بالوحدة التامة والعجز يُسيطر على وعيي. وكنتُ أشعر بالمرارة والأسى لأنني في هذه الساعات الصعبة من حياتي لا أجد أحداً من أقربائي الأعزاء بقربي، وأن زوجي، الإنسان الوحيد الذي يرعاني ويحميني هو نفسه في أمس الحاجة لمن يُقدِّم له المساعدة. رحتُ أصلي بحرارة، وقد أعاننتني الصلاة على أن أستعيد قواي الخائرة.

عند انبلاج الصُّبح ازداد الألم وطأة، وفي حوالي الساعة السابعة قررتُ أن أوقظ فيودور ميخايلوفيتش. استيقظ وقد تمالك قواه بشكل ملحوظ. وعندما علم بما عانيته طوال الليل، انزعج بشدة وعاتبني لأنني لم أوقظه قبل ذلك. وفي لمح البصر ارتدى ملابسه وهُرع إلى مدام Barraud، وهناك ظل يقرع الجرس، لكنَّ الخادمة لم ترغب في

إيقاظ سيدتها مدّعية أنها قد عادت لتوها من سهرة لدى أصدقائها. وهنا هدّدها فيودور ميخايلوفيتش بأنه سيظلّ يقرع الجرس أو يُحطّم الزجاج. أيقظوا السيدة وبعد ساعة حَصُرَتْ بصحبة زوجي. اضطررت أن أصغي إليها وهي تُوبّخني على أشياء كثيرة فعلتها عن جهل، وأكدت لي أن إهمالي سوف يؤخّر عملية الولادة. وأكدت لي أن المخاض لن يأتيني قبل سبع أو ثماني ساعات، ووعدت أن تحضر في هذا الوقت. ذهب فيودور ميخايلوفيتش لإحضار الجليسة، جلسنا بعدها أنا وهو ننتظر ما سيحدث لنا وقد بلغ بنا الخوف والقلق مبلغاً شديداً. لم تحضر مدام Barraud، في الموعد الذي ضربته، ومن جديد ينطلق زوجي لإحضارها. وقد تبّين أنها خرجت لتناول طعام الغداء لدى أصدقائها في مكان ما بالقرب من محطة القطار. ذهب زوجي إلى العنوان المحدد وأصرّ على أن تأتي للاطمئنان على حالتي. قررت القابلة أن الأمر يسير على نحو سيئ وأن الوضع ربما يأتي في وقت متأخر من المساء. وبعد أن أعطتني بعض النصائح ذهبت لتناول طعام الغداء؛ واصلت ألامي، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش يتعدّب وهو ينظر إليّ. وعندما بلغت الساعة التاسعة لم يعد بمقدوره أن يتحمّل فتوجّه إلى أصدقاء مدام Barraud فوجدهم مُلتقّين حول ورق اللعب فأخبرها أنني أعاني بشدة من الألم، وأنها إذا لم تأت وتُلازم بجوار فراشي، فسوف يطلب من الطبيب أن يكلّف قابلةً أخرى أكثر التزاماً بواجباتها. وقد أثمر هذا التهديد. كان من الواضح أن مدام Barraud غير سعيدة على الإطلاق بسبب صرفها عن مواصلة اللعب الشيق وراحت تقول لي: Oh, ces ruses, ces russes!^{٦٧} مُكرّرة هذه العبارة عدة مرات.

وحتى يُهدئ من روعها، أعد لها فيودور ميخايلوفيتش عشاءً فاخراً، فاشترى عدداً كبيراً ومتنوعاً من المُقبلات والحلوى والنيذ. كنتُ سعيدة للغاية أن ذهاب زوجي لإحضار القابلة وركضه من دكان لآخر وانشغاله بعض الوقت في القيام بواجبات الضيافة، سوف يصرف انتباهه وقلقه عما أنا فيه. وإلى جانب الآلام التي تُصاحب عملية الولادة، كنتُ أتألم أيضاً لأن رؤية هذه الآلام كانت تؤثر في فيودور ميخايلوفيتش، الذي لم يبرأ بعد من الكدر الذي أصابه من جرّاء نوبتين متتاليتين من الصرع، كان وجهه يطفح بالعذاب واليأس، وكنتُ أراه يبكي في بعض الأوقات، حتى إنني أنا نفسي أُصبتُ بالرُعب من أن

^{٦٧} أه من هؤلاء الروس، هؤلاء الروس! (بالفرنسية).

أكون على وشك الموت. وعندما أعود بذاكرتي إلى هذه الأفكار والمشاعر أقول إنني لم أكن أشعر بالأسى على نفسي، بقدر ما كنتُ أشعر به تجاه زوجي المسكين، الذي كان موتِي يُمثل بالنسبة له مُصيبة كبرى. لقد أدركتُ آنذاك أن أكثر آمالنا وأحلامنا توهجًا هي التي كانت تُوحّد بيني وبين زوجي الغالي وبين طفلنا المنتظر. ومن ثم كان الانهيار المفاجئ لهذه الآمال يُعد أمرًا هائلًا بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش نظرًا إلى ما له من شخصيةٍ تتميز بالاندفاع وعدم القدرة على التماسك. وقد يكون لقلقي الشديد على زوجي واضطرابي أثرٌ في تأخر الولادة، وقد شعرتُ مدام Barraud بذلك، فمنعت، أخيرًا، زوجي من الدخول إلى غرفتي، مؤكدة له أن مظهره اليائس يُثير الجزع في نفسي. أذعن فيودور ميخايلوفيتش للأمر، لكن قلقي راح يزداد، وفي فترات الراحة من الألم، كنتُ أطلب من القابلة تارة، ومن الجليسة تارة أخرى، أن تنظرًا ماذا يفعل زوجي. كانتا تُخبرانني أنه راكم على ركبتيه يُصلي، أو أنه جالس وقد استغرق في التفكير العميق وقد غطى وجهه بكفيه. كان ألمي يزداد ساعةً بعد أخرى؛ وكنتُ أغيب أحيانًا عن الوعي، وعندما أعود إلى وعيي، كنتُ أنظر إلى هاتين العينتين السوداوين الغريبتين المُحدقتين بي، عيني الجليسة، فكنتُ أشعر بالخوف ولا أدرك أين أنا وماذا يحدث لي. وأخيرًا وفي حوالي الخامسة فجر الثاني والعشرين من فبراير توقفتُ آلامي وخرجتُ ابنتنا سونيا إلى النور. فيما بعد أخبرني فيودور ميخايلوفيتش أنه كان يُصلي من أجلي طوال الوقت وأنه سمع فجأة، من خلال أنيني، صوتًا غريبًا يُشبه صراخ طفل. لم يُصدّق أذنيه، ولكنه، عندما تكرّر الصراخ، أدرك أن الطفل قد وُلد، ولم يشعر من فرط سعادته إلا وهو يهبُّ على قدميه ليهرع إلى الغرفة الممنوعة فيمسك بمقبض الباب ويدفعه بقوة ثم يقع على ركبتيه قرب فراشي ويروح يُقبل يدي. كنتُ فرحةً للغاية أن آلامي توقفت. اندهشنا كلانا لأننا طوال الخمس عشرة دقيقة الأولى لم نعرف من الذي وُلد لنا، سمعنا أن إحدى الحضور من السيدات قالت: *Un garçon, n'est – ce pas?*^{٦٨} بينما أجابت أخرى *Fillette, une adorable* ^{٦٩} *fillette* أما أنا وزوجي فكان الأمر بالنسبة لنا سارًا على كل الوجوه، سواء أكان صبيًا أم صبية. كان أكثر ما يملأ نفوسنا سعادةً أنْ حُلْمنا قد تحقق، فقد جاء إلى الدنيا هذا المخلوق، الذي هو مولودنا البكر!

^{٦٨} «صبي، أليس كذلك؟» (بالفرنسية).

^{٦٩} صبية، صبية رائعة! (بالفرنسية)

أثناء ذلك قامت مدام Barraud بحمل المولود من فراشه وهنأتنا بميلاد ابنتنا ثم حملتها إلينا وكأنها تحمل لفافة كبيرة بيضاء. وبإجلال شديد راح فيودور ميخايلوفيتش يرسم علامة الصليب على سونيا ثم قبل وجهها المتغصن وقال: «أنيا، انظري، أي جمال لدينا!» رسمت عليها أنا أيضًا علامة الصليب وقبلتها. فرحت لزوجي وأنا أرى وجهه سعيدًا متهللاً بهذا الفيض من الفرح، والذي لم يتسن لي أن أراه على هذا النحو بعد ذلك. وفي نشوة الفرح عانق فيودور ميخايلوفيتش مدام Barraud وشد على يد الجليسة عدة مرات بقوة. وقد أخبرتني القابلة أنها لم تشاهد على مدى حياتها العملية الطويلة أبًا لمولود على هذا الحال من القلق و«الاضطراب» على النحو الذي كان عليه زوجي طوال الوقت، ثم عادت مرة أخرى لتكرّر عبارة «أوه، هؤلاء الروس. هؤلاء الروس!» ثم أرسلت القابلة لشراء شيء ما من الصيدلية حتى لا يُداهمني النعاس.^{٧٠}

أخبرت مدام Barraud فيودور ميخايلوفيتش أن على والد الطفل أن يقوم بنفسه، بموجب القانون السويسري، بإعلان الأمر للشرطة، وأن يتسلم منها شهادة رسمية، ونبّهته إلى ضرورة الإسراع بذلك وإلا تعرّض لدفع غرامة، وقد يتم القبض عليه. وفي اليوم التالي توجه فيودور ميخايلوفيتش إلى الجهة المعنية وتأخّر هناك حوالي أربع ساعات، الأمر الذي أخافني بشدة. ولعلمي بحالته الصحية فقد دارت برأسي شتى الهواجس حول ما يمكن أن يكون قد وقع له. وأخيرًا عاد فيودور ميخايلوفيتش ليحكي لي عما وقع له من أحداث، وقد ساد المرح روحه. لقد تبين أن الوالد الذي يأتي للشرطة لهذا الغرض عليه أن يصطحب معه شاهدين باستطاعتهما إثبات شخصية الوالدين، وتأكيد صحة الواقعة. راح فيودور ميخايلوفيتش يشرح للموظف أنه أجنبي وأنه لا يملك معارف في جينيف، لكن الرجل لم يستمع إلى ما قاله وبدأ في التعامل مع صاحب الطلب التالي. ولما احتدم سوء الفهم خرج فيودور ميخايلوفيتش من الإدارة وتوجّه إلى الرقيب النوبتجي عند الباب طالبًا نصحه. وعلى الفور أخرج الرجل زوجي من مأزقه مقترحًا عليه أن يكون هو نفسه أحد الشهود، على أنه لن يستطيع أن يُقدم له هذه الخدمة إلا بعد حضور الرقيب الآخر الذي سيتسلم منه الوردية، وأن هذا لن يحدث قبل مرور ساعة ونصف. وعندما سأله

^{٧٠} في رواية «الشياطين» يصف فيودور ميخايلوفيتش، في مشهد ولادة زوجة شاتوف، كثيرًا من مشاعره أثناء ولادة ابنتنا (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستوفسكايا).

فيودور ميخايلوفيتش من أين سنحصل على الشاهد الثاني، اقترح الرقيب قائلاً: un comarade a moi.^{٧١} سارت الأمور على ما يُرام، ولكن كان على فيودور ميخايلوفيتش الانتظار فذهب للجلوس، بناءً على نصيحة الرقيب، على إحدى الأرائك في الشارع وقد استبدَّ به القلق وهو يُفكر كم سيستغرق الأمر من وقتٍ حتى يعود إلى المنزل. وفي الموعد المُحدَّد تغيرت الوردية وحضر الرقيب الثاني، وها هم ثلاثتهم: زوجي واثنان من الرقباء يتوجَّهون إلى مكتب الموظف القائم بالطلبات، وقتٌ طويل انقضى ما بين تسجيل طلب الوالد والشهود، ثم تسجيل الطلب في الدفاتر، ثم استخراج الشهادة.^{٧٢} بعد أن أنهى فيودور ميخايلوفيتش أعماله سأل الرقيب صاحب الفضل بكم هو مدين له هو ورفيقه على هذا الوقت الذي أنفقاه من أجله. فأجاب الرجل: Mais rien, monsieur, rien!^{٧٣} عندئذٍ فكَّر زوجي في دعوة الرقبين إلى أحد المقاهي لتناول شيءٍ من النبيذ نخب المولود الجديد. وافق الرقبين بكل سرور على هذه الدعوة واصطحبا فيودور ميخايلوفيتش إلى أحد المطاعم القريبة حيث جلسوا في غرفة منفصلة وأمر باحضار ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر المحلي. أطلق النبيذ لسان الضيفين فراحا يقصَّان على مضيفهما أحداثاً متنوعة من وقائع خدمتهما. حكى لي فيودور ميخايلوفيتش أنه كان يجلس على أحر من الجمر وهو يفكر في قلقي بسبب غيابه الطويل. كان من غير اللائق أن يترك ضيفيه وخاصة أنه أتبع الزجاجات الثلاث بزجاجتين أُخريين دخل بعدها الرقبين في حالةٍ من المرح فراحا يرفعان الأنخاب تارةً في صحتي، وتارةً أخرى في صحة Petite Sophie (صوفيا الصغيرة) وفي صحة المُتسبب في ظهورها في هذا العالم.

طلب فيودور ميخايلوفيتش أن يكون صديقُه الشاعر أبوللون مايكوف هو الأب الروحي لابنتنا سونيا، وأن تكون أُمِّي، أنا نيكولايفنا سنيتكينا، الأم الروحية لها. وكانت أُمِّي قد عزمت على الحضور إلينا للاحتفال بمولد الطفلة، ولكنها أُصيبت بوعكة صحية ولم يسمح لها الطبيب بالسفر بعيداً حتى حلول الربيع. وقد حضرت أُمِّي إلى جينيف في أوائل شهر مايو بعد إجراءات مراسم تعميم سونيا.

^{٧١} «رفيق لي» (بالفرنسية).

^{٧٢} كان من المُفترض هنا إرفاق نسخة من الوثيقة المُستخرجة (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستويفسكايا).

^{٧٣} «لا شيء يا سيدي، لا شيء» (بالفرنسية).

وعلى الرغم من أنني كنت مسرورة للغاية للتعافي من المرض، فإنني كنت أعاني بشدة من الضعف الذي ألمَّ بي نتيجة ثلاثٍ وثلاثين ساعةً مُضنيةً مرّت بي أثناء الوضع. وعلى الرغم من سعادتي بإرضاع الطفلة، إلا أنني سريعاً ما اقتنعتُ بأن الأمر لن يستقيم دون إرضاعها لبناً خارجياً، فقد كانت طفلةً ممتلئةً البدن، تتمتع بصحةً وافرة، وكانت بحاجةً إلى مزيدٍ من الغذاء. لم يكن من السهل إحضار مرضعةٍ لسونيا، ففي سويسرا يُرضعون الأطفال رضاعةً اصطناعيةً في زجاجات؛ بالإضافة إلى المساحيق المغذية. كانت هناك أمهات أخريات يُرسلن أطفالهن إلى الجبل على مسافةٍ تقرب من ستين فرسخاً ليرضعن من الفلاحات. كان ابتعاد سونيا عني وإعطائها لأيدٍ غريبةً أمراً سخيماً، كما أن الأطباء نصحوني ألا أفعل ذلك، إذ إن عدداً من المواليد تُوفوا بعد أن أخذتهن الفلاحات ولم يُوفرنَ لهن الرعاية الكافية.

عندما استقرَّ النظام في بيتنا، بدأت الحياة التي بقي منها للأبد أغلى ذكرياتي. وكما كانت سعادتي عندما تبين لي أن فيودور ميخايلوفيتش أكثر الآباء حناناً وعطفاً، كان يحرص على أن يكون موجوداً أثناء استحمام الطفلة ويُقدِّم لي المساعدة، ويقوم بنفسه بوضعها في لفَّتها المصنوعة من قماش البيكة ويشبكها بالدبابيس الإنجليزية، ثم يحملها ويهددها على يديه، ويهرع إليها، تاركاً عمله، ما إن يصل إلى سمعه صوتها. كان سؤاله الأول لي فور استيقاظه أو لدى عودته من الخارج: «ماذا عن سونيا؟ بصحة جيدة؟ هل نامت جيداً، هل أكلت؟» كان فيودور ميخايلوفيتش يجلس ساعاتٍ طوالةً إلى جوار مهدها، تارةً يُدندن لها بأغنيات، وتارةً يتحدث إليها؛ حتى إنه كان واثقاً، عندما بلغت شهرها الثالث، أن سونيتشكا بإمكانها التعرف عليه، وها هو يكتب خطاباً إلى أبوللون مايكوف مؤرخاً الثامن عشر من مايو ١٨٦٨م يقول فيه: «هذا المخلوق الصغير، الضئيل، المسكين، الذي يبلغ من العمر ثلاثة أشهر، يُمثل بالنسبة لي كياناً وشخصية. لقد بدأت تتعرّف عليّ وتُحبني وتبتسم لي عندما أقرب منها. وعندما أغني لها بصوتي المضحك أغنية فإنها تُحب الاستماع إليها. إنها لا تبكي ولا تُقطّب وجهها عندما أقبلها، وهي تتوقّف عن البكاء عندما أقبل عليها.»^{٧٤}

^{٧٤} الخطابات، المجلد الثاني، ص ١١٧.

ولكن لم يكن مُقدراً لنا أن نستمتع بالسعادة دون كدٍ مدة طويلة. كان الجو في الأيام الأولى من شهر مايو رائعاً، وبناء على نصيحة الطبيب المُلحة، كنا نأخذ ابنتنا الصغيرة إلى الحديقة الإنجليزية، حيث كانت تنام ما بين ساعة إلى ساعتين تقريباً. وفي يومٍ تعيسٍ وإبان جولتنا اكفهر الجو فجأة وبدأت ريح البيز^{٧٥} تهبُّ بشدة، وبالطبع فقد أصيبت الطفلة بنزلة برد، وكانت حرارتها في الليلة السابقة قد ارتفعت مصحوبة بسعال. توجَّهنا على الفور إلى أفضل طبيبٍ للأطفال والذي بدأ في زيارتنا يومياً مؤكداً أن ابنتنا سوف تتعافى، حتى إنه قال لي، قُبيل وفاتها بثلاث ساعات، إنها قد تحسّنت كثيراً. وعلى الرغم من هذه التأكيدات فإن فيودور ميخيلوفيتش لم يستطع أن يعود إلى عمله وظلَّ جالساً إلى جوار مَهْدِها لا يُغادره تقريباً. كنا في حالةٍ من الخوف والجزع الشديدين، وقد تحقّقت هواجسنا الكئيبة بالفعل، ففي صباح الثاني عشر من مايو توفيت ابنتنا العزيزة سونيا. ليس بمقدوري أن أصف حالة اليأس التي خيَّمت علينا عندما رحنا ننظر إلى ابنتنا الغالية وقد اختطفها الموت. كنت، وأنا أشعر بهول الصدمة ومرارة الحزن لفراقها، أخشى بشدة على ما يمكن أن يقع لزوجي سيئ الحظ. كان يأسه عاصفاً، أخذ يبكي وينتحب مثل امرأةٍ وهو يقف عند الجسد المُسجى لابنته الحبيبة وقد راحت دموعه الساخنة الأسيانة تغمر وجهها الشاحب ويديها الصغيرتين. لم أرَ في حياتي مثل هذا القنوط الجارف. لقد تصوّرنا أننا لن نتحمّل هذا الحزن. يومين لم يترك أحداً الآخر لحظة واحدة، نطوف بشتّى الإدارات لنحصل على تصريحٍ بدفن صغيرتنا ونقوم بكافة الإجراءات الخاصة بالجنائز. قُمنا معاً بلقفاً في كفنٍ حريري أبيض، ثم وضعناها في نعشٍ صغير مُغطّى بالحرير الأبيض وأجهشنا بالبكاء، ولم يكن بمقدورنا أن نتماسك عنده. كان النظر إلى فيودور ميخيلوفيتش أمراً مُخيفاً، أصبح وجهه ضامراً شاحباً بعد أسبوع من مرض سونيا. وفي اليوم الثالث بعد الوفاة حملنا كنزنا إلى الكنيسة الروسية لإقامة القداس الجنائزي، ومنها إلى جبانة Plain Palais حيث تمّ دفنها في مكانٍ حُصِّص للأطفال. وبعد عدة أيامٍ زُرعت فيه شجيرات السرو وأقيم وسطها صليب من المرمر الأبيض. كنا نذهب إلى قبرها يومياً نحمل زهوراً ونبكيها. كان فراق طفلتنا الصغيرة

^{٧٥} ريح البيز Bise: ريح شمالية باردة جافة في فرنسا وسويسرا. (المترجم)

صعباً علينا، لقد أحببناها بإخلاص وحب عظيمين، وكم من الآمال والأحلام جمعت بيننا في وجودها!

٥

كان البقاء في جينيف، حيث كل شيء يُذكرنا بسونيا، أمراً مُستحيلاً، ومن ثَم قَرَرنا أن نُنْفِذ ما كنا قد عزمنا على عمله من قبل دون إبطاءٍ بالانتقال إلى Vevey الواقعة على بحيرة جينيف. كنّا نشعر بالأسف الشديد أنه لم يكن باستطاعتنا، على الإطلاق، أن نُغادر سويسرا لضيق ذات اليد، وقد بات فيودور ميخايلوفيتش لا يُطيقها، كان يلقي باللوم في موت سونيتشكا على المناخ السيئ المُتقلّب لجينيف، وعلى غطرسة الطبيب وافتقار المُمرضة إلى الخبرة. كان فيودور ميخايلوفيتش يحمل دائماً للسويسريين بعض الكراهية، ولكن الغلظة والفظاظة التي أبداهما الكثيرون منهم في لحظات حُزننا الجارف زادت لديه هذه الكراهية. وكمثالٍ على هذه الفظاظة، فقد أرسل جيراننا، وهم على علم تامّ بمُصيبتنا، يطلبون منّي ألا أبكي بصوتٍ مُرتفع لأن ذلك يُثير أعصابهم.

لن أنسى مُطلقاً هذا اليوم الحزين، عندما ذهبنا للمرة الأخيرة لوداع ابنتنا العزيزة ووضع أكليل من الزهور عند قبرها، بعد أن أرسلنا حاجياتنا لشحنها على السفينة. جلسنا نبكي ساعةً بأكملها عند النصب المُقام ونحن نتذكر سونيا، ثم غادرنا المكان وقد شملنا شعور باليتم ونحن نلقي بنظرنا على مرقدتها الأخير.

كانت السفينة التي اضطررنا لركوبها سفينة بضائع، وكان الركاب على متنها قليلين. كان يوماً حاراً، ولكنه كان مُلبداً بالغيوم مثلما كانت حالتنا النفسية. كان فيودور ميخايلوفيتش شديد التأثر، كان ذاهلاً منذ أن ودّعنا قبر سونيتشكا. وهنا، وللمرة الأولى في حياتي، أستمع إلى شكوى زوجي المريرة من القدر الذي يُلاحقه بضرباته (وهو الذي كان نادراً ما يتذمّر). راح فيودور ميخايلوفيتش يحكي لي ذكرياته عن شبابه الذي قضاه حزيناً وحيداً بعد وفاة أمّه الحبيبة الرءوم، وكيف رفاقه في مجال الأدب يسخرون منه، بعد أن اعترفوا بموهبته، ثم إذا بهم ينقلبون عليه ويوجّهون له الإهانات. حكى لي ذكرياته عن المعتقل وعن المعاناة التي عاشها على مدى أربع سنواتٍ قضاهها هناك. تحدّث عن أحلامه في أن يجد في زواجه من ماريا ديمتريفنا ما افتقده من سعادةٍ أُسرّية لم تتحقّق للأسف؛ لم يُنجب من ماريا ديمتريفنا، التي كانت «شخصية ارتيازية غريبة، ذات

خيال مريض»^{٧٦} ممّا جعل حياته معها بؤساً خالصاً. والآن وبعد أن زارته «السعادة الوحيدة العظيمة؛ يقصد ابنتنا الغالية»^{٧٨، ٧٧} وأصبحت لديه الفرصة أن يدرك ويُقدّر معنى السعادة، إذا بالقدر الشرير ينتزع منه، دون رحمة، هذا الكائن الحبيب! كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي انطلق فيها فيودور ميخايلوفيتش مُعبراً بكلّ هذه التفاصيل الدقيقة بل والمؤثرة عن كلّ ما لحق به في حياته من أدّى ناله من أقرب الناس وأعزهم على قلبه.

حاولت أن أهدئ من روعه ورجوته أن يتقبل ما قدّر علينا من ابتلاء، ولكن، بدهاءة، كان الألم يعتصر فؤاده، وكان من الضروري له أن يُنفّس عن آلامه وأن يجأ بالشكوى من ضربات القدر التي ما زالت تُلاحقه طوال حياته. كنت متعاطفةً من أعماق قلبي مع زوجي سيئ الحظ فأخذت أشاركه البكاء على هذه الحياة الحزينة التي عاشها. وقد وحدت أحزاننا المشتركة العميقة وأحاديثنا الصادقة، التي انكشفت لي من خلالها أسرار روحه المعذبة، وحدّت بيننا أكثر فأكثر.

على مدى الأعوام الأربعة عشر من حياتنا الزوجية، لا أذكر صيفاً حزيناً مثل هذا الصيف الذي قضيناه وزوجي في فيفي عام ١٨٦٨م. بدا كما لو أن الحياة قد توقّفت بالنسبة لنا، كل أفكارنا، كل أحاديثنا تركّزت حول ذكرياتنا عن سونيا. وعن تلك الأوقات السعيدة التي أضاءت حياتنا بوجودها. وكلّما التقينا طفلاً هاجت ذكرياتنا عن خسارتنا الفاجعة، وحتى لا ينفطر قلبانا كنا نذهب للنزهة في أي مكانٍ في الجبل، حيث يُمكننا أن نتجنّب اللقاءات التي تهزّ نفوسنا. لقد عانيتُ أنا أيضاً الأحزان الثقيلة وذرفتُ دمعاً هتوناً على ابنتنا. ولكن أملاً كبيراً استقر في أعماق روحي في أنّ رحمة الله سوف ترفع عنا مُعاناتنا وأنه سيُرسل لنا طفلاً من جديد فرحتُ أصلي من أجل ذلك بحرارة، بدأ الأمل

^{٧٦} استخدم فيودور ميخايلوفيتش نفس هذه الكلمات في تعريف شخصية زوجته الأولى في خطابه إلى البارون ألكسندر فرانجيل المؤرّخ ٣١ مارس ١٨٦٥م «السيرة الذاتية والخطابات»، المواد، ص ٢٧٨ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* انظر الخطابات، المجلد الأول، ص ٣٩٨.

^{٧٧} «السيرة الذاتية والخطابات»، المواد، ص ٢٨٨ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٧٨} استشهاد من خطاب دستوفسكي إلى فرانجيل المؤرّخ الثامن عشر من فبراير ١٨٦٦م (انظر [الجزء الثاني، التعرف على دستوفسكي والزواج منه، التعليق رقم ٢٨]).

في الأمومة مرةً أخرى في تهدئتي أنا وأمّي التي كانت مُتَشَوِّقةً إلى حفيد. وبفضل الصلاة والأمل راح الحزن الشديد يَخْفُت شيئاً فشيئاً، لكن الأمر لم يكن على هذا النحو بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش؛ فضلاً عن أن حالته النفسية بدأت تُخيفني بصورة جادة. إليكم ما قرأته في خطابه إلى مايكوف والمُؤرَّخ ٢٢ يونيو، عندما أُتيحت إمكانية إضافة بضع كلمات تحية لزوجته: «... كلُّما مرَّ الوقت، كلُّما تأجَّجت ذكرياتي وكلُّما بدت لي صورة الراحلة سونيا أكثر وضوحاً. هناك دقائق لا يمكن للمرء أن يتحمَّلها. كانت قد بدأت في التعرُّف عليّ، وفي يوم وفاتها غادرتُ المنزل مُتوجَّهاً لقراءة الصحف دون أن أدرك أنها ستموت بعد ساعتين، كانت تتبعني بعينيها مودعةً إيَّاي، إلى حدِّ أنني ما زلتُ أستعيد، حتى هذه اللحظة، نظرتها أوضح فأوضح. لن أنساها مُطلقاً، ولن يتوقَّف عذابي للأبد! وحتى لو رُزقت بطفلٍ آخر، فلا أدري كيف سأحبه، ومن أين هذا الحُب؟ أنا بحاجة إلى سونيا. لا أصدق أنها غير موجودة وأنني لن أراها أبداً.»^{٧٩}

وبهذه الكلمات أجاب فيودور ميخايلوفيتش على عزاء أمّي. كان مزاجه المُحَبَّط يُخيفني بشدة فرُحت أفكر، هل من الممكن أن فيودور ميخايلوفيتش، إذا ما وهبنا الله مولوداً آخر، لن يكون قادراً على أن يُحِبّه، ولن يكون سعيداً به كما كان سعيداً عند ولادة سونيا. ومثل سوادٍ كالحِ يمتدُّ أمامنا، كان الحزن والجزع يُخيِّمان على أُسرتنا.

بدأ فيودور ميخايلوفيتش في مواصلة العمل في كتابة روايته، لكن العمل لم يُهدئ من روعه. وإلى جانب مزاجنا الحزين، أُضيف إلى همنا همٌّ آخر وهو ضياع الخطابات التي كانت ترد إلينا، وهكذا ازدادت صعوبة تَواصُلنا مع أهلنا ومعارفنا، وهو التواصُل الذي كان يُمثل السلوى الوحيدة بالنسبة لنا. وكان من المؤسف على وجه الخصوص انقطاع خطابات أبوللون مايكوف التي كانت زاخرة دائماً بالحياة. راح الشكُّ في أسباب ضياع الخطابات يزداد لدينا يوماً بعد الآخر، وخاصةً عندما تلقينا خطاباً من مجهول^{٨٠}

^{٧٩} انظر الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٢٢. هناك فقرة مفقودة في مخطوطة أنا جريجوريفنا دستوفسكايا: ورد هنا السطر الأول فقط من الاستشهاد: «كلما مرَّ الوقت».

^{٨٠} «السيرة الذاتية والخطابات»، المواد، ص ١٩٢ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا). * من خطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف المؤرَّخ الثاني من أغسطس ١٨٦٨م: «أخيراً تسلَّمتُ خطاباً غفلاً من التوقيع حول شكوكٍ تدور حولي (يعلم الشيطان لماذا) وأن هناك أوامر قد صدرت بفتح

يُفيد أن الشكوك تحوم حول فيودور ميخايلوفيتش، وأن أوامر قد صدرت بفتح خطابه وتفتيشه تفتيشاً دقيقاً على الحدود لدى عودته إلى الوطن.^{٨١} ولسوء الحظ وَقَعَ في يد فيودور ميخايلوفيتش أحد الكتب المحظورة بعنوان *Les secrets du Palais des Tzars* (أسرار قصر القيصرية) منذ عهد الإمبراطور نيكولاي بافلوفيتش.^{٨٢} وقد وضع المؤلف دستوفسكي وزوجته ضمن أبطال الكتاب، زد على ذلك أموراً كثيرة سخيفة وردت به،

خطاباتي وانتظاري على الحدود عند وصولي وتفتيشي بدقّة كما لو أن الأمر يسير دون قصد» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٣٠).

^{٨١} ورد في قائمة الشخصيات المُراقَبة من قبل الشرطة في عام ١٨٦٧م، إلى جانب نشاط الحركة الديمقراطية في الستينيات كل من: تكتاشيف، بلاجو سفيتلوفي، بيسارييف، يليسييف، ميناييف، ف. كوروتشين، كما ورد اسم دستوفسكي أيضاً ضمن هذه القائمة (انظر «قائمة الشخصيات المراقبة من قبل الشرطة في سان بطرسبورج عن عام ١٨٧٦م» التي نشرها م. ليمكين، في الأعمال الكاملة وفي خطابات جيرتسين، المجلد العشرين، ص ١١٣-١١٤). وقد ورد في تعليمات القسم الثالث المؤرّخة الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٦٧م تحت رقم ١٢٩٢: «سري. إلى السيد رئيس إدارة شرطة أوديسا. نُحيط سيادتكم علماً بضرورة تفتيش المُلازم ثان متقاعد فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي لدى عودته من الخارج قادماً إلى روسيا بكل دقة، وفي حالة العثور على أشياء تُثير الشبهة، فعليكم بإرسالها على وجه السرعة إلى القسم الثالث التابع لدائرة جلالة الإمبراطور، بعد تسليم دستوفسكي نفسه في هذه الحالة، مقبوضاً عليه، إلى نفس القسم. مدير إدارة معية جلالة اللواء ميزينتسوف». وقد تم إبلاغ رئيس جمرک منطقة أوديسا، الذي أبلغ بها بدوره، وعلى نحو «سريٍّ للغاية»، حاكم مدينة أوديسا (انظر منتخب «إبداع دستوفسكي»، أوديسا، ١٩٢١م، ص ٣٦، ٣٨).

^{٨٢} كان هذا كتاب بول جريم *Les mystères du Palais de Czars (Sous l'Empereur Nicolqs I)* par paul Grimm, Propriété de l'editeur. Vurzbouorg 1868 («أسرار قصر القيصر زمن نيكولاي الأول» في فيورتسبورج باللغة الفرنسية) وتعرض رواية بول جريم صورةً خياليةً للأيام الأخيرة من حكم القيصر نيكولاي الأول. تقع أحداث الرواية في عام ١٨٥٥م، وقد تمّ تصوير دستوفسكي في الرواية باعتباره أحد الأبطال الرئيسيين. حيث يعود من سيبيريا، التي نُفي إليها بسبب قضية «بتراشيفسكي-بتروشيفيتش»، ثم اشتراكه بعد ذلك بشكل نشط في مؤامرة ثورية سرية. يجتمع أعضاء الجمعية في أحد بدرومات البيوت، حيث يتم تتبّعهم والقبض عليهم. وعند استجوابه في القسم الثالث يرفض دستوفسكي الإدلاء بأسماء رفاقه المشاركين في المؤامرة، وهنا يتعرّض للعقاب البدني ويتم ترحيله إلى قلعة بتروباولفسك. تنجح آنّا جريجوريفنا في مقابلة نيكولاي الأول وترجوه العفو عن زوجها ولكن بعد فوات الأوان. في هذا الوقت يكون الحكم قد صدر على دستوفسكي بالنفي إلى سيبيريا، حيث يموت في شليسيلبرج. تذهب آنّا جريجوريفنا للحياة في الدير بعد أن أضناها الحزن على زوجها. ويرى نيكولاي الأول أن العرش يهتز من تحته فيُنهي حياته بالانتحار. بعد ظهور هذا الكتاب، كانت هناك شكوك حول

ومن بينها أن دستوفسكي يلقى حتفه، بينما تذهب زوجته إلى الدير. وقد أثارت هذه القصة حنق فيودور ميخايلوفيتش، حتى إنه فكّر أن يكتب ردًّا يُكذّب فيه ما ورد بها من وقائع (ما زلت أحتفظ بمسوّدة الخطاب)، غير أنه قرّر فيما بعد أن كتابًا غيبًا مثل هذا لا يستحقّ عناء الاهتمام به.^{٨٣}

٦

بحلول الخريف أصبح من الواضح لنا أنّ من الضروري أن نُروّح عن أنفسنا، وقد فاض الكيل بنا، مهما كلّفنا الأمر، فقرّرنا السفر في مطلع شهر سبتمبر إلى إيطاليا وأن نزور مدينة ميلان عند أول فرصة. كان مضيق سمبلون Simplon،^{٨٤} هو أقرب مضيق جبلي لنا. قطعنا جزءًا منه سيرًا على الأقدام، وأثناء سيرنا أنا وزوجي إلى جوار عربات نقل المسافرين الكبيرة المغلقة، التي تجرّها الخيول، والصاعدة عبر المضيق الجبلي، رُحنا نجمع الزهور الجبلية، ثم هبطنا إلى إيطاليا في الجانب الآخر راكبين عربةً مكشوفة. وقد وقع لنا حادث مُضحك، ما زلتُ أذكره، عند قرية Domo d'Ossola عندما ذهبْتُ لشراء بعض الفاكهة وأختبر في الوقت نفسه ما اكتسبته من اللغة الإيطالية التي تعلمتها خلال الصيف، وعندما لاحظتُ أن فيودور ميخايلوفيتش عرج على أحد المحلات، جال بخاطري فكرة أنه قد يحتاج إلى المساعدة في التحدّث فأسرعتُ للحاق به. وقد اتّضح أنه أراد أن يدخل السرور إلى قلبي بشراء هدية ما، فراح يستفسر عن سعر سلسلة رأها في نافذة المحل. وقد

كون بول جريم، الذي تخفّى وراء اسم مُستعار هو اسم أفجوسط تيودور جريم (١٨٠٥-١٨٧٨م) مُربيّ الأمراء العظام، هو المؤلّف، وكان أفجوسط جريم قد غادر روسيا في عام ١٨٦٠م إلى ألمانيا ليستقر بها إلى الأبد. وفي خطاب أبوللون مايكوف إلى دستوفسكي المؤرّخ السابع عشر من سبتمبر ١٨٦٨م، ينفي مايكوف بشكل حازم كون أفجوسط جريم هو مؤلّف هذا الكتاب (يورد أ. س. دولينين مقطعًا من هذا الخطاب في تعليقاته. الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٣٣) حول كتاب بول جريم والعلاقة السلبية الشديدة لدستوفسكي به، انظر مقال ن. ف. بيلتشيكوف. ف. م. دستوفسكي «عضو الجمعية السرية» في كتاب: ن. ف. بيلتشيكوف، دستوفسكي في قضية بتراشيفسكي، موسكو، ١٩٣٦م، ص ٢٣٦-٢٤٠.
^{٨٣} يحتفظ الأرشيف الحكومي المركزي للآداب والفنون بمسوّدة هذا الخطاب، ملف ٢١٢. وقد نشر في كتاب: الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٣٤-١٣٦.

^{٨٤} Simplon: مضيق جبلي في جبال الألب يصل بين سويسرا وإيطاليا ويقع على ارتفاع ٢٠٥٥ مترًا. (المترجم)

غالى البائع في السعر غلواً كبيراً ظناً منه أننا من «الأجانب الوجهاء» فطلب ثلاثة آلاف فرنك ثمناً لها، مؤكداً أنها ترجع لزمن الإمبراطور فيسباسيان.^{٨٥} ولما كان السعر المطلوب يزيد كثيراً على كل ما نملكه من مال فقد دفع ذلك فيودور ميخايلوفيتش للضحك، ولعله كان الانطباع المرح الأول له منذ المصيبة التي حلت بنا.

كان لتغيير ظروف معيشتنا ورؤية أماكن جديدة وأناس جدد (رأى فيودور ميخايلوفيتش أن فلاحى إقليم لومبارديا يُشبهون كثيراً الفلاحين الروس) أثر حسن على مزاج زوجي، وقد شعر بحالة من الحيوية والنشاط منذ أيامنا الأولى في ميلان، فاصطحبني لمشاهدة كنيسة «الدومو»، التي كانت دائماً محل إعجابه الشديد. كان فيودور ميخايلوفيتش حزيناً فقط لوجود عدد من البيوت التي لا يفصل بينها وبين الكنيسة سوى ميدان صغير (وقد تم توسيع الميدان في الوقت الحالي)، وأخبرني أن عمارة «الدومو» تفقد عظمتها بسبب ذلك. وفي يوم صحو صعدنا أنا وزوجي إلى سطح الكنيسة حتى نتمكن من إلقاء نظرة على المكان حولها ولنشاهد على نحو أفضل التماثيل التي تزينها. اتخذنا لنا مسكناً بالقرب من حي Corso في أحد الشوارع الضيقة، حيث يستطيع الجيران تبادل الحديث عبر النوافذ.

بدأت أشعر بالسعادة عندما وجدت زوجي في حالة نفسية رائعة، ولكن، وأأسفاه، لم تستمر هذه الحالة طويلاً وإذا به يعود مرة أخرى إلى حالة الحنين إلى الوطن. الأمر الوحيد الذي كان يُذهِب عن زوجي بعض الحزن، هو مراسلاته مع أبوللون مايكوف ونيكولاي ستراخوف. وقد أخبرنا الأخير بظهور مجلة جديدة تُسمّى «زاريا» («الفجر») يُصدرها فاسيلي كاشبيرييف.^{٨٦} أكثر ما اهتم به فيودور ميخايلوفيتش في هذا الخبر أن نيكولاي ستراخوف سيصبح هو رئيس تحرير هذه المجلة، وهو الذي عمل، من قبل، محرراً في مجلتي «الزمن» و«العصر»، وقد كتب زوجي يقول إنه بفضل ذلك «لن يموت

^{٨٥} فيسباسيان Vespasien (٧٩-٩٠): إمبراطور روماني (٦٩-٧٩). (المترجم)

^{٨٦} فاسيلي فلاديميروفيتش كاشبيرييف (١٨٣٦-١٨٧٥م): أديب وناشر والمحرر الرسمي لمجلة «زاريا» (١٨٦٩-١٨٧٢م). تعرّف عليه دستوفسكي عن بُعد في عام ١٨٦٩م من خلال ستراخوف، ثم نشر عنده في «زاريا» قصة «الزوج الأبدي»، ١٨٧٠م. وتوطدت أواصر الصداقة بين عائلتي كاشبيرييف ودستوفسكي بعد عودة الأخير من الخارج.

توجُّهنا ولا عملنا المشترك.» لقد آتت «الزمن» و«العصر» على أية حال ثمارهما، وسوف يكون على هذه المجلة الجديدة أن تبدأ من حيث انتهينا، وهو أمر سائرٌ للغاية.^{٨٧، ٨٨}

ألحَّ ستراخوف على دعوة زوجي للعمل في «الفجر». وقد رَحَّب فيودور ميخايلوفيتش بهذه الدعوة بكل سرور، على أن ينتهي أولاً من رواية «الأبله» التي كانت مُستعصيةً عليه، ولم يكن راضياً بعدُ عن أدائه فيها. وقد أكَّد فيودور ميخايلوفيتش مراراً أنه لم تكن لديه في أي وقتٍ فكرة إبداعية أفضل وأكثر من هذه الفكرة، التي انعكست في هذه الرواية، وأنه لم يُعبر فيها إلَّا عن معشار ما أراد أن يُعبر عنه فيها.^{٨٩}

اتَّسم خريف عام ١٨٦٨م في ميلان بشدة المطر والبرد القارس، الأمر الذي منع زوجي من القيام بنزهاته الطويلة (التي كان يُحبها بشدة). لم تكن مكتبات القراءة في هذه المدينة تمتلك صحفاً أو كتباً باللغة الروسية، ومن ثم كان زوجي يشعر بالملل بعيداً عن الوطن دون أن تصله أية أنباء عنه. ونتيجة لذلك قرَّرنا، بعد أن قضينا شهرين في ميلان، أن نسافر إلى فلورنسا في الشتاء. كان فيودور ميخايلوفيتش قد سبق له زيارة فلورنسا وما يزال يحتفظ بذكرياتٍ طيبة عن هذه المدينة، وبخاصة عن كنوزها الفنية.

وهكذا رحلنا في نهاية نوفمبر من عام ١٨٦٨م إلى عاصمة إيطاليا آنذاك ونزلنا بالقرب من Palazzo Pitti، ومرة أخرى يترك تغيير المكان أثراً حسناً على زوجي، وسرعان ما بدأنا في مشاهدة الكنائس والمتاحف والقصور. أتذكَّر جيداً كيف كان فيودور ميخايلوفيتش يذهب إلى الكاتدرائية وإلى كنيسة Santa Maria del Fiore وقد بلغ به الإعجاب أشدَّه، بل إنه كان مُعجباً للغاية بكنيسة del Battistero، الصغيرة التي يتم فيها تعميد الأطفال،

^{٨٧} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٦١ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* مقطع من الخطاب المرسل إلى ن. ن. ستراخوف المؤرَّخ الثاني عشر من ديسمبر ١٨٦٨م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٥٦).

^{٨٨} عن ن. ي. دانيا وفسكايا انظر [الجزء الخامس، في روسيا من جديد، التعليق ٢٦].

^{٨٩} من خطاب دستوفسكي إلى س. أ. إيفانوف المؤرَّخ الخامس والعشرين من يناير (السادس من فبراير بالتقويم القديم) ١٨٦٩م: «لست راضياً عن الرواية؛ فهي لا تُعبر عن معشار ما أردتُ أن أقوله، على الرغم من أنني لم أتخلَّ على أية حال، وما زلتُ أحب حتى الآن فكرتي التي لم أوفَّق في تجسيدها» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٦٠).

كان فيودور ميخايلوفيتش مبهورًا بالأبواب البرونزية لكنيسة باتيستيو (وخاصة delta del Paradiso) (باب الفردوس) وهي من أعمال الفنان الشهير Ghiberti^{٩٠} وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوفيتش يتوقّف عند مروره بها ويتأملّها في إعجاب. وكان يقول لي إنه لو أصاب ثروة كبيرة في يوم ما، فسوف يشتري صورة فوتوغرافية لهذه الأبواب، إن أمكن، بحجمها الطبيعي وسوف يُعلقها في غرفته ليستمتع بالنظر إليها.

أحيانًا ما كنّا نذهب أنا وزوجي لزيارة Palazzo Pitti، وكان يُعبر لي عن إعجابه الشديد بلوحة رفايل Madonna della Sedia وكذلك لوحته الأخرى S. Giovan Battista nel deserto (القديس يوحنا المعمدان في الصحراء)، الموجودة في جاليري Uffizi، التي كان يقف دائمًا طويلًا أمامها. وبعد أن يفرغ من مشاهدة قاعة الصور، كان حتمًا يتوجّه لمشاهدة تمثال Venere de Medici (فينوس ميديتشي) من أعمال النحات اليوناني العظيم كليومين Cleomene^{٩١}. كان زوجي يعتبر هذا التمثال عملًا عبقريًا.

ولحسن الحظ فقد وجدنا في فلورنسا مكتبة ممتازة وقاعة للقراءة تتوفر فيها صحيفتان روسيتان. اعتاد زوجي أن يذهب إلى هناك للقراءة بعد الغداء. وقد استعار منها مؤلفات كلٍّ من فولتير وديدرو^{٩٢} بالفرنسية، التي كان يُجيدها إجابة تامّة، ليقرأها في البيت طوال الشتاء.

^{٩٠} جيبيرتي (لورينزو) (١٣٧٨ م أو ١٣٨١-١٤٥٥ م): صائغ ومعماري ونحات إيطالي. (الترجم)

^{٩١} «فينوس ميديتشي» (متحف أوفيتسي في فلورنسا)، صنعت في روما في القرن الأخير قبل الميلاد، تُنسب خطأً إلى النحات الإغريقي كليومين (القرن الأول قبل الميلاد).

^{٩٢} تصحح مذكرات أنا جريجوريفنا دستوفسكايا وتضيف إلى خطاب دستوفسكي إلى ن. ن. سترخوف من فلورنسا المؤرّخ الثامن عشر من أبريل: «ها أنت تسألني في خطابك عما أقرأ الآن. أقرأ فولتير وديدرو طوال الشتاء. وهذا الأمر، بطبيعة الحال، يجلب لي المتعة والفائدة...» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٨٦). لقد ازداد اهتمام دستوفسكي في نهاية الستينيات تحديدًا، وخاصة مع ارتباطه بالإعداد لرواية «الإلحاد» (انظر في هذا الشأن [الجزء الرابع، الإقامة في الخارج، التعليق رقم ٩٩]) بفلسفة الشك عند فولتير، وفي الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧ م، أي قبل عام من شروعه في العمل في رواية «الإخوة كارامازوف» يكتب دستوفسكي: «حتى آخر العمر (Memento (تذكرة، ١) كتابة كانديد روسي...» تكتمل فكرة كتابة «كانديد روسي»، كما يبدو، في رواية «الإخوة كارامازوف». وعن علاقة دستوفسكي بفولتير انظر مقالة ل. ب. جروسمان «كانديد روسي» (مدخل إلى تأثير فولتير على دستوفسكي) «روسكي فيستنيك» (البشير الأوروبي)، ١٩١٤ م، العدد ٥، وكذلك بحث: A. Rammelmeyer. Dostojevskij und Voltaire. Zeitschrift für slavische philology, Bd. xxvi, H.2, 1958, s. 252-278.

حمل إلينا عام ١٨٦٩م نبأ ساراً: لقد تأكد لنا أن الله قد بارك زواجنا وأنه بات بإمكاننا أن نأمل في أن يكون لنا طفل. كانت سعادتنا غامرة، وراح زوجي العزيز يهتّم بي مثلما كان يفعل إبّان حملي الأول. وقد بلغ اهتمامه بي درجة كبيرة، حتى إنه بعد أن فرغ من قراءة كل أجزاء رواية الكونت ليف تولستوي «الحرب والسلام» التي أرسلها إليه سترخوف فور صدورهما، أخفى عني جزءاً من الرواية؛ حيث يجري وصف احتضار زوجة الأمير أندريه بولكونسكي وهي تلد، لقد خشي فيودور ميخايلوفيتش أن يكون لمشهد الموت أثر قوي وقاسٍ عليّ. وقد بحثتُ طويلاً عن الجزء الضائع حتى إنني عاتبْتُ زوجي لفقده كتاباً هاماً. راح يخلق الأعذار وأكّد لي أنه سوف يجده، ولكنه لم يفعل إلّا بعد أن تحقّق لنا الحدث الموعود. وأثناء انتظارنا لمولد الطفل، كتب فيودور ميخايلوفيتش خطاباً إلى نيكولاي سترخوف يقول فيه: «أنتظر بقلق بالغ وخوفٍ ورجاءٍ ووجل..»^{٩٣} كلانا كان يحلم أن يأتي المولود صبية، وحيث إننا أحببناها بولهٍ شديد في أحلامنا، فقد أسميناها لوبوف^{٩٤} وهو اسم لم يكن يحمله أحد لا في عائلتي ولا في عائلة زوجي. أوصاني الطبيب بكثرة التنزّه، فكنْتُ أذهب يومياً بصحبة فيودور ميخايلوفيتش إلى Giardino Boboli (وهي حديقة تُحيط قصر بيتي)، حيث كانت الزهور تزدهر

وفي هذا العمل يتم بحث تأثير فلسفة حرب الآلهة في رواية فولتير «كانديد، أو التفاؤل» في إبداع شخصية إيفان كارامازوف، وذلك استناداً إلى نصوص وحقائق كثيرة. يكتب أ. س. دولينين مُعلقاً على خطاب دستوفسكي المذكور المُوجّه إلى سترخوف، والذي يتحدّث فيه عن قراءاته لديدرو وفولتير قائلاً: «لعل من الضروري من وجهة النظر هذه، أن نُولي اهتماماً خاصاً لشخصية جانبا (في رواية «الأبله»)، الذي يمتلك سماتٍ ما تُذكرنا بالشخصية الرئيسية عند ديدرو.» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٥٣)، أما فيما يتعلق برواية «مذكرات من العالم السفلي»، فيكتب فاسيلي روزانوف قائلاً: «إن التشابّه الوحيد مع هذا العمل، الذي هو واحد من أعمق أعمال دستوفسكي فيتمثّل في «ابن العم رامو» عند ديدرو (ف. ف. روزانوف، أسطورة المُفتش الأعظم لدستوفسكي، سان بطرسبورج، ١٩٠٦م، ص ٣١). عن دستوفسكي وديدرو انظر كتاب: أ. جريجورييف، دستوفسكي وديدرو (مدخل ل طرح المشكلة). «روسكيا ليتيراتورا» (الأدب الروسي)، ١٩٦٦م، العدد ٤.

^{٩٣} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٨٢ (ملاحظة لأنّ جريجورييفنا دستوفسكايا). *

* من خطاب دستوفسكي إلى ن. ن. سترخوف المؤرّخ الرابع عشر من أغسطس ١٨٦٩م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٠٠).

^{٩٤} لوبوف: تعني بالروسية: حب. (المترجم)

على الرغم من أننا كنّا في شهر يناير. هنا كنّا نستمتع بدفع الشمس ونحلم بسعادتنا القادمة.

في عام ١٨٦٩م ساءت أحوالنا المادية، كما حدث معنا مرارًا من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى المال. كان فيودور ميخايلوفيتش يتقاضى مائة وخمسين روبلاً مقابل المزمة الواحدة، وهو ما يعني حوالي سبعة آلاف روبل مقابل رواية «الأبله»؛ تسلّمنا منها ثلاثة آلاف روبل ذهبت لمصروفات زواجنا قبل سفرنا إلى الخارج. واضطّررنا لدفع الأربعة آلاف الباقية نظير الفوائد على منقولاتنا الموجودة في بطرسبورج، ناهيك عن المساعدات التي كانت تذهب لربيب زوجي وعائلة أخيه المتوفى، ومن ثم فإن ما تبقى لنا من المبلغ كان ضئيلاً نسبياً. وقد تحمّلنا رغم ذلك فقرنا النسبي دون خوف، بل تعاملنا معه أحياناً بشيء من اللامبالاة، حتى إن فيودور ميخايلوفيتش أطلق على نفسه اسم السيد ميكوبرن وعليّ السيدة ميكوبرن.^{٩٥} لقد امتزجت روحانا، والآن، وبعد أن لاح الأمل في سعادة جديدة، كان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرام، لكن ابتلاء آخر كان يتهدّدنا: فعلى مدى العامين المنصرمين عاش فيودور ميخايلوفيتش معزولاً عن روسيا وأصبح يتعذّب بهذه العزلة. وفي خطابه إلى ابنة أخته صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفا (خميروفا)،^{٩٦} المؤرّخ الثامن من مارس ١٨٦٩م في معرض حديثه لها عن روايته القادمة «الإلحاد»^{٩٧} كتب يقول: «لا أستطيع كتابتها هنا؛ وحتى يتسنى لي ذلك يجب أن أكون موجوداً في روسيا

^{٩٥} يُظهر أبطال رواية تشارلز ديكنز عدم اكتراثهم برغم الديون العديدة المُلقاة على كاهلهم. وفي خطابه إلى أبوللون مايكوف المؤرّخ الخامس والعشرين من مارس ١٨٧٠م، يُطلق دستوفسكي على نفسه اسم «مستر ميكوبر» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٦٢). الأرجح أنه ليس من قبيل الصدفة أن دستوفسكي يتذكر هذه الشخصية أثناء فترة انشغاله بكتابة رواية «الأبله»: إن «مستر ميكوبر» استطاع أن يُعطيني الدفعة الأولى لرسم شخصية الجنرال إيفولجين.

^{٩٦} «الماضي الروسي»، ١٨٨٥م، رقم ٧٠ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٩٧} قبل أن يُتمّ عمله في رواية «الأبله»، بدأ دستوفسكي في ديسمبر عام ١٨٦٨م، إبّان وجوده في فلورنسا، التفكير في كتابة رواية «فلسفية ضخمة» جديدة اسمها «الإلحاد»، عن شخص روسي «فقد إيمانه بالله»، شخص «ينقضّ بالهجوم على الأجيال الجديدة، على المُلحدّين، على أنصار النزعتين السلافية والأوروبية، على المُتعصّبين الروس والمُقيمين في الأديرة والقساوسة ... ثم يعود ليلجأ في النهاية إلى المسيح وإلى الأرض الروسية» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٥٠، ١٩٥، ١٦١). لكن دستوفسكي لم يستكمل فكرة رواية «الإلحاد»، وبعد أن أدخل عليها عدداً من التعديلات، تحولت إلى خطة لرواية «سيرة خاطئ كبير»، وهذه أيضاً لم تكتمل، وإن تجسّدت أجزاء منها في روايات «الشياطين»، «المراهق» و«الإخوة كارامازوف».

حتماً، أرى وأسمع وأشارك في الحياة الروسية مباشرة ... أنا هنا لا أملك حتى القدرة على الكتابة، لا أملك بين يديّ المادة الضرورية للكتابة وأعني بها الواقع الروسي (الذي يُمدني بالأفكار) والناس الروس.^{٩٨} ليس الروس فقط وإنما البشر على وجه العموم، ليس لنا صديق واحد هنا في فلورنسا يمكن أن نتبادل معه الحديث، نُجادله، نُمازحه، نتبادل معه انطباعاتنا وكل من حولنا غرباء، وأحياناً ما نراهم يُكنون لنا الكراهية. وإنه لأمر شاقٌّ على النفس أن يعيش المرء في عزلةٍ تامة عن الناس. أذكر أن فكرةً خطرت برأسي أن الناس الذين يعيشون في هذه الوحدة المطلقة والافتراق، يمكن أن يصلوا في النهاية لكراهية بعضهم بعضاً، أو يندمجوا معاً ما تبقى لهم من عمر. ولحسن حظنا أن الأمر الأخير هو الذي تحقّق بيني وبين زوجي، لقد أجبرتنا هذه العزلة الإجبارية على أن ننصهر معاً قلباً وقلباً وجعلت كلاً منا يعتزُّ بالآخر اعتزازاً أكبر.

بعد تسعة أشهر من إقامتي في إيطاليا تعلّمت الحديث قليلاً باللغة الإيطالية، أي بالقدْر الذي يُمكنني من الحديث مع الخادمة أو في المحال، بل والاطلاع على صحيفتي Secola و Piccola وكنت أفهم ما يرد بهما. أما فيودور ميخايلوفيتش، المشغول دوماً بعمله، فلم يتمكن، بطبيعة الحال، من التعلُّم، ومن ثم أصبحت أنا مُترجمته. والآن، وقد اقترب الحدث العائلي المُنتظر، فقد كان من الضروري أن تنتقل إلى بلدٍ يتحدثون فيه بالفرنسية أو الألمانية، حيث يمكن لزوجي التفاهم بحرية مع الطبيب والقابلة وفي المحلّات وهلمَّ جرّاً. رُحنا نندارس أمر البلد الذي سنسافر إليه والذي يمكن لفيودور ميخايلوفيتش أن يجد مجتمعاً مثقفاً. أُوحيْتُ لزوجي بفكرة الإقامة في الشتاء في براج، باعتبارها بلدًا مُتقارباً مع روسيا. وهناك يستطيع أن يتعرّف على الشخصيات السياسية البارزة وأن ينفذ من خلالهم إلى الأوساط الفنية والأدبية هناك. استحسن فيودور ميخايلوفيتش

^{٩٨} تخطّأت أنا جريجوريفنا دستوفسكايا، على نحو خاطئ، بين خطابين من خطابات دستوفسكي باعتبارهما خطاباً واحداً أرسلهما إلى صوفيا إيفانوفنا (خميروفا). ينتهي الجزء الأول من الاستشهاد بعدد من النقاط بالكلمات الآتية: «أشارك في الحياة الروسية بشكل مباشر ...» وهي من خطابه المؤرّخ الثامن من مارس عام ١٨٦٩م، الخطابات، الجزء الثاني، ص ١٧٥. أما الجزء الثاني من الاستشهاد فيسبّقه عدد من النقاط ويبدأ بالكلمات التالية: «... وحتى هنا فإنني أفقد حتى القدرة على ...» وهو استشهاد في غير موضعه، إذ إنه مُقتبس من الخطاب المؤرّخ الخامس والعشرين من يناير (السادس من فبراير بالتقويم القديم). الخطابات، المجلد الثاني، ص ١٦١.

فكرتي، نظرًا لأنه عبّر أكثر من مرة عن أسفه لعدم حضوره المؤتمر السلافي الذي عقد هناك في عام ١٨٦٧م، مُبدئًا تعاطُفه مع التقارب الذي بدأ في روسيا مع الأوطان السلافية، مُعبرًا عن رغبته في التعرف عن قُرب بها. وهكذا استقر أمرنا على أن نُسافر إلى براج وأن نقضي الشتاء كُلّه فيها. كان السفر في مثل حالتي الصحية أمرًا تكتنّفه المصاعب، فقرّرنا أن ننزل للراحة في عددٍ من المدن في طريقنا إلى براج. فكانت فينيسيا، هي أول هذه المدن، لكننا توقّفنا عند انتقالنا من قطار إلى قطار في بولون وذهبنا إلى متحفها لنُشاهد لوحة رفايل «القديسة سيسيليا»، التي كان فيودور ميخايلوفيتش يُقدّرُها تقديرًا رفيعًا، ولكنه لم يكن رأى حتى ذلك الحين سوى مستنسخ منها، والآن غمرته السعادة بعد أن رأى اللوحة الأصلية. بمشقةٍ بالغة استطعتُ أن أنتزع زوجي من تأمل هذا العمل الرائع، ولكنني كنتُ خائفة في الوقت نفسه أن نفقد قطارنا.

نزلنا في فينيسيا بضعة أيام. كان فيودور ميخايلوفيتش في أوج سعادته لرؤيته كنيسة القديس مرقص (Chiesa San Marco) وراح يقضي ساعات طوال في تأمل الفسيفساء التي تزين الحوائط. زُرنا معًا Pallazzo Ducale (قصر الدوق) وقد أُعجب زوجي بشدة بعمارته المُدهشة، كما أُعجب أيضًا بالجمال الأخّاذ لأسقف القصر، التي رسمها أفضل فناني القرن الخامس عشر. يمكن القول إننا لم نبرح ميدان San Marco طيلة أربعة أيام؛ فقد كان يترك في نفوسنا، سواء بالليل أو النهار، انطباعًا باهرًا.

٧

واجهت السفينة التي انتقلنا عليها من فينيسيا إلى تريست موجاتٍ عاصفة؛ وقد أحسّ فيودور ميخايلوفيتش بالخوف من أجلي ولم يبتعد عني خطوةً واحدة، ولكن الأمور انتهت جميعها، لحسن الحظ، على نحوٍ جيد. توقفنا بعد ذلك لمدة يومين في فيينا ومنها سافرنا إلى براج لنصلها بعد رحلةٍ استغرقت عشرة أيام. واجهنا هنا إحباطًا كبيرًا؛ فقد تبين لنا أن الغرف المفروشة في مثل هذه الأوقات هي غرف مفردة فقط، وأن الغرف المفروشة للعائلات غير مُتاحة إطلاقًا، وهي الغرف الأكثر هدوءًا وراحة. وحتى نتمكن من البقاء في براج لم يكن أمامنا سوى أن نستأجر شقة وأن ندفع إيجارها لمدة ستة أشهر مُقدمًا؛ فضلًا عن شراء الأثاث والأدوات المنزلية جميعها. لم يكن لدينا من المال ما يكفي لذلك، وبعد ثلاثة أيام من البحث اضطررنا للأسف أن نترك براج الذهبية، التي استطاعت أن تحوز إعجابنا الشديد. وهكذا انهارت أحلام زوجي في أن يعقد صلاته مع

نشطاء العالم السلافي. لم يبقَ أماننا إلا العودة والاستقرار في درزدن، التي كنّا على علم تامّ بظروف الحياة فيها. وهكذا وصلنا في مطلع أغسطس إلى درزدن حيث استأجرنا فيها ثلاث غرفٍ مفروشة في الجزء الإنجليزي من المدينة (Englischer Viertel) في شارع Victoriasraße، رقم ٥، وفي هذا البيت كان الحدث العائلي السعيد في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر من عام ١٨٦٩م ميلاد ابنتنا الثانية لوبوف،^{٩٩} وقد وصلت أُمي إلى هنا مرة أخرى في موعد الوضع.

وها هو فيودور ميخايلوفيتش وقد بلغ ذروة السعادة يُبلغ أبوللون مايكوف بهذا الحدث ويدعوه أن يكون الأب الروحي لابنته بقوله: «ثلاثة أيام مرّت على ميلاد ابنتي لوبوف. جرى كل شيءٍ في سلام، طفلة جميلة مُمتلئة تنعم بالصحة.»^{١٠٠} بالطبع، فإن

^{٩٩} أصبحت لوبوف فيودوروفنا، ابنة الكاتب، فيما بعد، روائية، كتبت عددًا من الروايات «المحامية»، «المهاجرة» ومجموعة قصصية تحت اسم «فتيات مريضات». سافرت في عام ١٩١٣م إلى الخارج ولم تُعد مُطلقاً بعدها إلى روسيا. كانت تكسب عيشها في الخارج من الكتابة الأدبية وأصدرت مذكراتها عن أبيها باللغة الألمانية. (München, 1920) Dostojewski, geschildert von sei er Tochter.

ظهرت ترجمة مختصرة باللغة الروسية على يد أ. ج. جورينفيلد بعنوان «دستوفسكي كما وصفته ابنته» (موسكو، براج. دار نشر الدولة، ١٩٢٢م). لا يمكن اعتبار كتاب لوبوف فيودوروفنا دستوفسكايا مذكراتٍ بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فعندما تُوفي والدُها كانت تبلغ من العمر أحد عشر عامًا. ولهذا وضعت لوبوف فيودوروفنا «دستوفسكي كما وصفته ابنته» عنوانًا لكتابها. وفي مثل هذه الحالة، عندما يلتزم كاتب المذكرات بصرامة «بوصف» دستوفسكي بحقائق موثقة وأخبار عائلية وذكريات المعاصرين، والأهم من ذلك ما يتذكره هو نفسه من حكايات الأب والأم، عندها يكون هذا «الوصف» محلًا للثقة. بيد أن كاتبة المذكرات قد شوّعت، عن وعيٍ، في كتابها، الحقائق المعروفة في حياة دستوفسكي، ومن ثم اتخذ كتابها منحىً مُتحيزًا بشكل ما. على سبيل المثال تؤكّد لوبوف فيودوروفنا بإصرار، خلافًا للحقائق البديهية والوثائق، على أن أباهما ليس روسيًا، وإنما من أصلٍ نورمندي ليتواني. من المؤكّد أن السبب في هذا الادعاء يعود إلى أن هذا «النسب» لسلالة دستوفسكي كان يُعطي لابنته إمكانية الانتماء إلى فئة النبلاء، وهو ما كان يزيد من قدرها في أوساط المهجر حيث كانت تعيش في العشرينيات. إن تزيف الحقائق المتعمّد والهوى الذي لا يرقى إليه الشكُّ يمثّل عيبًا أساسيًا في مذكرات لوبوف فيودوروفنا دستوفسكايا، وهو يُمثّل الفارق الجوهرى بين مذكرات الابنة ومذكرات أنا جريجوريفنا دستوفسكايا القائمة على أسس واقعية موثقة.*

^{١٠٠} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٠٦ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).*

عيون أبٍ مُتَيِّمٍ بالحب، مُفعم بالسعادة هي وحدها القادرة على أن ترى في كومةٍ من اللحم بلَوْنُ الورد «فتاة حسناء».

بظهور هذا المولود إلى الدُّنيا أُقبلت السعادة على أُسرتنا من جديد. كان فيودور ميخايلوفيتش بالغ الحنان على ابنته، يُلاعبها، يحميها بنفسه، يحملها على يديه، يُهددها ويرى أنه إنسان سعيد للغاية، حتى إنه كتب إلى نيكولاي ستراخوف يقول: «وا أسفاه عليك يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش. لماذا لم تتزوّج، ولماذا لا يكون لك طفل. أُقسِم لك أن في هذا الأمر ثلاثة أرباع السعادة في هذه الحياة، ولعلّ في الربع الآخر ما تبقى من أشياء».^{١٠١}

وفي هذه المرة أيضًا كان أبوللون مايكوف هو الإشبين وقد اختار فيودور ميخايلوفيتش أخته الحبيبة فيرا إيفانوفنا^{١٠٢} إشبينة لابنتنا. بينما كانت أمي وكيلة. لم تتم مراسم العماد إلا في شهر ديسمبر، ففي البداية كنْتُ مريضة، كما أن قسيس كنيسة درزدن كان قد سافر إلى بطرسبورج لقضاء بعض الأمور.

في درزدن عثرنا على مكتبة عامة رائعة تضمُّ العديد من الكتب والصحف باللُّغات الروسية والأجنبية. وفي درزدن أيضًا أصبح لنا بعض المعارف من بين الروس المُقيمين فيها بصفةٍ دائمة، وهؤلاء كانوا يذهبون بعد الغداء إلى أسرة القس المضيفة. ومن بين أصدقائنا الجُدد اكتشفنا عددًا من الشخصيات المُثَقَّفة شديدة الذكاء، وكان زوجي يسعد بالحديث إليهم، وكان ذلك هو الجانب المُشرق من الحياة في درزدن.

ما إن انتهى فيودور ميخايلوفيتش من قصة «الزوج الأبدي» حتى أرسل بها إلى مجلة «زاريا»، حيث ظهرت في العدد الأولين منها في عام ١٨٧٠م. وتحمل هذه القصة ملامح من السيرة الذاتية، وتعكس الفترة التي قضاها زوجي في ضاحية ليوبلينا بالقرب

* اقتباس غير دقيق من الخطاب المُرسَل إلى أبوللون مايكوف والمؤرَّخ السابع عشر من سبتمبر ١٨٦٩م. الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢١١.

^{١٠١} المرجع السابق، ص ٢٨٧ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* من الخطاب المُرسَل إلى نيكولاي ستراخوف والمؤرَّخ السادس والعشرين من فبراير (العاشر من مارس بالتوقيت القديم) ١٨٧٠م، الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٥٦.

^{١٠٢} فيرا ميخايلوفنا دستوفسكايا (إيفانوفنا بعد الزواج) (١٨٢٩-١٨٩٦م)، أخت فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي.

من موسكو عام ١٨٦٦م، حيث أقام في «داتشا» بالقرب من «داتشا» أخته فيرّا ميخايلوفنا إيفانوفنا. ويُعد آل إيفانوف هم النموذج الأصلي لآل زاخليين في القصة. الأب المندمج في عمله، الشباب المرح، وهم أبناء وبنات أخته وأصدقائهم، فقد صوّر م. س. إيفانتشينا بيسارييفا، صديقة العائلة، في شخصية ماريا نيكيتشينا، كما صوّر ربيبه، بافل إيسايف، في شخصية ألكسندر لوبوف، بالطبع في صورة مثالية للغاية. وفي الوقت نفسه فإن شخصية فيلتشانينوف تحمّل بعضاً من سمات فيودور ميخايلوفيتش نفسه. عندما يصف، على سبيل المثال، مُختلف أشكال الألعاب التي اختَرعها عندما وصل إلى الداتشا. وعن هذه الأمسيات الصيفية والعروض التي كانت تُقام في الداتشا في صُحبة شباب ذكي ومرح يكتب ن. ن. فوخت، أحد المشاركين فيها، في مذكراته: ١٠٢

في شتاء عامي ١٨٦٩-١٨٧٠م، كان فيودور ميخايلوفيتش مشغولاً بكتابة رواية جديدة أراد أن يُسمّيها «سيرة خاطئ كبير» كان من المُفترض، وفقاً لفكرة زوجي، أن يتكوّن هذا العمل من خمس قصص طويلة (تقع كل قصة منها في حوالي خمس عشرة ملزمة)؛ فضلاً عن أن كل قصة يمكن أن تُشكل عملاً مُستقلاً، يُمكن نشره في المجلة أو طبعه مُستقلاً في كتاب. كان فيودور ميخايلوفيتش عازماً على طرح هذه القضية الهامة والمُلحة في القصص الخمس كافة، والتي تَعذّب بها طوال حياته، وهي تحديداً قضية وجود الله. ١٠٤ كان من المُفترض أن تدور الأحداث في القصة الأولى في فترة الأربعينيات من القرن الماضي التاسع عشر (المترجم)، وكانت المادة الخاصة بالعمل ونماذج تلك الفترة معروفة وشديدة الوضوح بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش، حتى إنه كان باستطاعته كتابة القصة وهو مُقيم بالخارج. كان زوجي يرغب في نشر هذه القصة في مجلة «زاريا». أما بالنسبة

١٠٢ ن. ن. فوخت (١٨٥١-١٩٠١م): خريج معهد قنسطنطين ميخيفسكي للمساحة والذي كان يعمل به ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف، زوج أخت دستوفسكي أستاذاً للفيزياء والتاريخ الطبيعي. وكان فوخت من بين الشباب الذين أحاطوا بالكاتب إبّان استجمامه في صيف عام ١٨٦٦م في ليوبلينا. انظر مذكراته في مجلة «البشير التاريخي»، ١٩٠١م، العدد ١٢ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

١٠٤ تعيد أنا جريجوريفنا هنا قصّ خطاب دستوفسكي إلى أبوللون مايكوف والمؤرّخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل بالتوقيت القديم) ١٨٧٠م. قارن: «الاسم العام للرواية هو: سيرة خاطئ كبير، على أن تحمّل كل قصة اسماً منفصلاً. إن القضية الكبرى التي يتم معالجتها في كل الأجزاء، هي نفس القضية التي شقيتُ بها طوال عمري بوعي وبلا وعي ... وهي قضية وجود الله ...» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٦٣).

للقصة الثانية، والتي تجري أحداثها في كنيسة، فكان لزماً على فيودور ميخايلوفيتش أن يعود إلى روسيا لكتابتها. كان زوجي عازماً أن يجعل من الأسقف تихون زادونسكي بطلاً رئيسياً للقصة الثانية،^{١٠٥} بالطبع تحت اسم آخر. كان فيودور ميخايلوفيتش يُعول آمالاً كبيراً على القصة التي هو بصدد كتابتها، وكان يرى فيها ختاماً لنشاطه الأدبي. وقد تحققت نبوءته بالفعل، فالعديد من الأبطال الذين أبدعهم لروايته دخلوا فيما بعد في رواية «الإخوة كارامازوف»، وذلك عندما لم ينجح زوجي أن يُحقق عزمه؛^{١٠٦} إذ جذبه

^{١٠٥} في خطابه إلى أبوللون مايكوف والمؤرخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٠م، يكتب دستوفسكي قائلاً: «أودُّ أن أقدم في القصة الثانية الشخصية الرئيسية، تихون زادونسكي ... لعلني أقدم هنا الشخصية الإيجابية العظيمة المقدسة ... وبقدّر ما أعلم فربما يمثل تихون نفسه نموذجنا الروسي للبطل الإيجابي، الذي يبحث عنه أدينا ...» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٦٤). تихون زادونسكي، وكان اسمه تيموفي سافيليفيتش كيريلوف قبل أن يُرسم قساً، وهو ابن كاتب فقير يعمل في مقاطعة تتبع محافظة نوفوجورود، تلقى تعليمه في حلقة نوفوجورود الدراسية ليُصبح مدرساً فيها، ثم رئيساً لحلقة تغير الدراسية، ثم أسقفًا لفورونيغ منذ عام ١٧٦٣م لينتقل في عام ١٧٦٧م إلى كاتدرائية زادونسكي، حيث ظلَّ بها حتى وافته المنية وهو شيخ كبير وهن جسده، وإن ظلَّت روحه على قوّتها، ليُصبح تихون زادونسكي مثلاً للحُبِّ العميق للفعال للإنسانية، يُقدِّم للناس الخير، يُعلمهم ويرعى مرضاهم، يكتب المؤلفات الدينية ذات الطابع الأخلاقي (صدرت الأعمال الدينية لتихون زادونسكي في خمس طبعات: الأولى في عامي ١٨٢٥-١٨٢٦م، في خمسة عشر جزءاً، ثم صدرت الطبعة الخامسة في عام ١٨٨٩م). ومن المؤكد أن دستوفسكي كان مهتماً، منذ بداية الستينيات، وربما قبل ذلك إبان وجوده في سيبيريا في المنفى، بأعماله وحياته. وفي «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٦م، يُوصي دستوفسكي كلَّ من يرغب في إدراك روح الشعب الروسي بقراءة أعمال تихون زادونسكي: «وبالمناسبة؛ هل يعلم كثير من الناس شيئاً عن تихون زادونسكي؟ ربما لم يسمع عنه أحدٌ على الإطلاق. ثَقُوا، أيها السادة، أنكم ستتعرفون على أمور رائعة لو تعرفتم عليه» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الحادي عشر، ص ١٨٤-١٨٥). وقد كان لحياة وأعمال تихون زادونسكي أثر على رسم شخصيات «الآباء» عند دستوفسكي: تихون في فكرة رواية «سيرة خاطئ كبير» التي لم تكتمل، تихون في «الشياطين»، ماكار دولجوروكوف في «المراهق»، زوسيم في «الإخوة كارامازوف» (انظر ر. ف. بلييوف، القلوب الحكيمة (عن «الآباء» في أعمال دستوفسكي، في كتاب: «عن دستوفسكي». مجموعة مقالات حرَّرها أ. ل. بيم، المجلد الثاني، براج ١٩٣٣م، ص ٧٣-٩٢).

^{١٠٦} يعرض دستوفسكي في خطابه إلى نيكولاي ستراخوف المؤرخ الرابع والعشرين من مارس (الخامس من أبريل بالتقويم القديم) وإلى أبوللون مايكوف المؤرخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل) ١٨٧٠م خطة روايته «سيرة خاطئ كبير» تفصيلاً (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٥٨،

موضوع آخر، وهو الموضوع الذي كتب بشأنه إلى نيكولاي ستراخوف قائلاً: «أعمل بقوة في الموضوع الذي أنا بصدد كتابته لنشره في «البشير الروسي»، ولكن لا من الناحية الفنية، وإنما من ناحية التوجُّه: أود أن أُعبر عن بعض الأفكار، حتى ولو ضاعت في ذلك مهارتي الفنية، ما يجذبني الآن هو ما تراكم في عقلي وفي قلبي حتى ولو خرجت جميعها في كُتَيْب، المُهم أن أفصح عمّا يجيش في صدري.»^{١٠٧}

كانت هذه رواية «الشياطين» التي ظهرت في عام ١٨٧١م.^{١٠٨} وقد كان لوصول أخي أثره على ظهور هذا الموضوع الجديد.^{١٠٩} المسألة أن فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يقرأ شتَّى الصحف الأجنبية (وكانت تنشر الكثير مما لا يظهر في الصحف الروسية)، وصل إلى استنتاج مفاده أن أكاديمية بتروفسكي للعلوم الزراعية سوف تظهر فيها خلال وقت قصير اضطرابات سياسية.^{١١٠} وخوفًا من أن يشارك فيها أخي، نظرًا لصغر سنّه،

(٢٦٤-٢٦٣). وقد أضفى دستوفسكي على روايته طابع الاعتراف باعتبارها مُحصلته الإبداعية: «سوف تكون هذه هي روايتي الأخيرة» (الخطابات، المجلد الثاني، ص٢٦٣). ومن خلال خطابه المذكورين إلى كلٍّ من ستراخوف ومايكوف يمكن أن نرى أن العمل في رواية «سيرة خاطئ كبير» كان يسير بالتوازي مع العمل في رواية «الشياطين» (انظر أيضًا «دفاتر مذكرات فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي»، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م). وفي الحقيقة فإن الكاتب راح يؤمن تدريجيًّا بضرورة العودة للعمل على فكرة «سيرة خاطئ كبير» بعد أن ينتهي مباشرة من «الشياطين»، لكن دستوفسكي لم يُحقق عزمه على كتابة «السيرة» بعد ذلك (انظر ن. برودسكي، الفكرة التي خمدت في كتاب: الوثائق، ص٤٧-٥٩؛ ب. بيتسيلي، لماذا لم يكتب دستوفسكي رواية «سيرة خاطئ كبير»؟ في كتاب: «عن دستوفسكي»، مجموعة مقالات حررها أ. د. بيم، المجلد الثاني، براج، ١٩٣٣م، ص٢٥-٣٠؛ أ. دولينين، روايات دستوفسكي الأخيرة. كيف كُتبت روايتا «المراهق» و«الإخوة كارامازوف» (موسكو، ليننجراد، ١٩٦٣م)).

^{١٠٧} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص٢٨٨ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).
* خطاب نيكولاي ستراخوف المؤرَّخ ٢٤ مارس (٥ أبريل) ١٨٧٠م، الخطابات، المجلد الثاني، ص٢٥٧.
^{١٠٨} نشرت رواية «الشياطين» في الأعداد ١، ٢، ٤، ٩-١١ عام ١٨٧١م والعددَين ١١ و١٢ عام ١٨٧٢م من مجلة «البشير الروسي».

^{١٠٩} يتضح من خطاب دستوفسكي إلى صوفيا إيفانوفنا والمؤرَّخ الرابع عشر من ديسمبر ١٨٦٩م أن إيفان جريجوريفيتش سنيتكين، الأخ الأصغر لأنّ جريجوريفنا، الطالب بأكاديمية بتروفسكي للعلوم الزراعية وصل إلى درزدن في منتصف شهر أكتوبر ١٨٦٩م (الخطابات، المجلد الثاني، ص٢٤٠).

^{١١٠} في الواقع فإن كثيرًا من الصحف الأجنبية، وخاصة الصحف الألمانية (Zeitung // c/neue prevssische Zeitung, Kolnische Zeitung, Allgemeine Zeitung) كتبت في هذه الفترة عن شبكات المنظمات المتآمرة المنتشرة

وقلة خبرته، أقنع زوجي أُمِّي بأن تستدعيه لقضاء بعض الوقت في ضيافتنا في درزدن. كان فيودور ميخايلوفيتش يضع في حسبانته أن مجيء أخي سوف يبعث بالاطمئنان في نفسي، وقد بدأت بالفعل أعاني مشاعر الحنين إلى الوطن، وكذلك أُمِّي، التي قضت حتى الآن عامين في الخارج (تارة مع أبناء أختي، وتارة معنا هنا)، وكانت في أشد الشوق إلى ابنها. كان أخي يحلم دائماً بالسفر إلى الخارج؛ وقد انتهز فرصة الإجازات وسافر إلينا. أبدى فيودور ميخايلوفيتش تعاطفاً كبيراً تجاه أخي، وكان مُهتماً بالمواد التي يدرسها وبأصدقائه وبالوسط والمزاج الطلابي بوجه عام. وقد قصَّ أخي عليه تفصيلاً وبحماسٍ بالغٍ عن هذا الأمر. وهنا ظهرت لدى فيودور ميخايلوفيتش فكرة أن يصوِّر في واحدة من قصصه الحركة السياسية في ذلك الوقت، واتَّخذ من الطالب إيفانوف (الذي أسماه شاتوف في القصة) واحداً من أبطاله الأساسيين، والذي قتل فيما بعد على يد نيتشايف.^{١١١} تحدَّث أخي عن الطالب إيفانوف باعتباره طالباً ذكياً وإنساناً صاحب شخصية قوية بارزة. تخلَّى عن قناعاته القديمة بشكلٍ جذري. وكم كانت صدمته شديدة، عندما عرف من الصحف نبأ مصرع إيفانوف، وكان أخي يَكُنُّ له مشاعر ودِّية عميقة! وقد وصف

بشكلٍ كبير في روسيا وعن قُرب وقوع انتفاضة (لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر انظر مقال ف. يفنين «رواية ... الشياطين في كتاب «إبداع دستوفسكي»، موسكو، ١٩٥٩م)، ولا تُوجد أية معلومات في أية مصادر تفيد أن دستوفسكي تنبأ بأن هذه الانتفاضة يجب أن تبدأ تحديداً في أكاديمية بتروفسكايا، سوى تلك المعلومات التي وردت في مذكرات أ. ج. دستوفسكايا.

^{١١١} يرتبط موضوع رواية «الشياطين» ارتباطاً وثيقاً بحادث مُحدَّد هو مصرع الطالب إ. إيفانوف، الطالب بأكاديمية بتروفسكي الزراعية، عضو جمعية «القصص الشعبي» في الحادي والعشرين من نوفمبر ١٨٦٩م بالقرب من موسكو على يد رئيس تنظيم الجمعية س. ج. نيتشايف بمشاركة أعضائها: ب. أ. أوسبينسكي، أ. كوزنيتسوف، بريجوف إ. نيكولايف، ويُعد نيتشايف هو النموذج الأصلي لبيوتر فيرخوفينسكي في رواية «الشياطين»، والأرجح أن دستوفسكي كان على علم «بالقواعد العامة للتنظيم الأثاريكية، التي أنشأها نيتشايف؛ إذ إن أفعال بيوتر فيرخوفينسكي كانت تطبيقاً متطرفاً «لقواعد» نيتشايف. (انظر هذا في السياق الخطابات، المجلد الثاني، ص ٤٨٣-٤٨٥)؛ ولمزيد من التفاصيل عن الأساس التاريخي المُحدَّد للرواية، انظر: «مفكرة ف. م. دستوفسكي» موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م؛ أ. أوسبينسكايا، مذكرات الستينين. «الماضي»، ١٩٢٢م، العدد ١٨؛ ف. روزنبلات، مدخل لإعادة النظر في بعض القيم الأدبية (بشأن الهدف من رواية «الشياطين»). «الأدب الروسي»، ١٩٦٥م، العدد ٣.

فيودور ميخايلوفيتش حديقة أكاديمية بتروفسكي وجبلايتها، حيث قتل إيفانوف، حرفياً من كلمات أخي.^{١١٢}

أُضيف هنا أن وصول أخي إلى درزدن كان حدثاً مهماً في حياته؛ فقد التقى بين أعضاء الجالية الروسية فتاةً أصبحت زوجته بعد عام. وعلى الرغم من أن مادة الرواية الجديدة مُستقاة من الواقع، فإن زوجي عانى صعوبةً كبيرة في كتابتها. وكالمعتاد لم يكن فيودور ميخايلوفيتش راضياً عن عمله، فقد أعاد كتابتها عدة مرات مَرَّق خلالها خمس عشرة ملزمة.^{١١٣} فالرواية الموجهة كانت، بداهة، لا تتفق ومزاجه الإبداعي.

ونظراً لنموّ ابنتنا ليوباتشكا وعدم حاجتي لمُلازمتها طوال الوقت، فقد سنحت لي الفرصة أن نطوف أنا وفيودور ميخايلوفيتش في قاعات معرض الصور، وأن نذهب إلى حفلات الموسيقى الرخيصة في شارع بريولوف وأن نواصل نزهاتنا. وفي إحدى هذه النزهاات وقع لنا حادث يرسم شخصية زوجي آنذاك. وقد حدث الأمر على النحو التالي: في شتاء عام ١٨٧٠م أقيم أوكازيون لبيع مفروشات وملتقات إحدى الدوقات الألمان. كانوا يعرضون قطعاً من الماس وفساتين وبياضات وفراء وما إلى ذلك، وكانت قاعة الفندق مكتظةً بالجمهور. وفي أحد آخر أيام الأوكازيون كنّا نمرُّ بالقرب من بيتها فاقترحتُ على زوجي أن ندخل لنُلقي نظرة، حيث إن البيع عند الألمان يتم علناً. وقد وافق فيودور

^{١١٢} انظر وصف الحديقة والجبلاية في الجزء الثالث من رواية «الشياطين»، الفصل السادس: «ليلة شاقة»، دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، المجلد السابع، ص ٦٢١-٦٢٢. لا تتوقّف فكرة رواية «الشياطين» عند «قضية نيتشايف» فقط. لقد مرّ تاريخ الرواية الإبداعي بعدة مراحل؛ فهي ترتبط على نحو كبير بأفكار روايتي «سيرة خاطئ كبير» و«الإلحاد»، اللّتين لم تكتملا، وكذلك بقضية نيتشايف. وكما يؤكّد دستوفسكي نفسه في خطابه إلى م. ن. كانتكوف المؤرّخ الثامن من أكتوبر ١٨٧٠م، فإن محاكمة نيتشايف تُعد واحدة فقط من الحقائق، التي استخدمهما لتأكيد أفكاره (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٨٨).

^{١١٣} حول عمله في رواية الشياطين كتب دستوفسكي خطاباً إلى ستراخوف في الثاني من ديسمبر عام ١٨٧٠م يقول فيه: «عام بأكمله مضى وأنا لا أفعل شيئاً سوى أن أُمزق ما كتبت، ثم أعود لأكتب من جديد. لقد استهلكْتُ تلاًلاً من الورق، حتى إنني فقدتُ نظام تصحيح ما كتبت. عشر مرات لا أقل، قمتُ فيها بتعديل كل خطتي إلى أن انتهيتُ من كتابة الجزء الأول من جديد» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٩٨). حول تاريخ إبداع رواية «الشياطين» انظر: «دفاتر مذكرات ف. م. دستوفسكي» (موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م)؛ ن. ل. برودسكي، تاريخ إبداع رواية «الشياطين» في كتاب: «سفستوك» («الصارفة»)، الجزء الأول، موسكو، ١٩٢٢م، ص ٨٣-١١٩؛ ج. تشولكوف، كيف كان يعمل دستوفسكي، موسكو، ١٩٣٩م، ص ١٩٨-٢٣٩.

مياخيلوفيتش، وعلى الفور سعدنا إلى القاعة. كانت الأشياء المتبقية قليلة، وكان أغلبها من المعروضات الفاخرة، التي لا تجد لها هواة كثيرين بين الألمان المقتصدين. وفجأة انتبه فيودور مياخيلوفيتش إلى قطع من البلور البوهيمي من طراز رائع بلون الكرز الداكن ذات نقوش مذهبة. كان عددها ثماني عشرة قطعة: مزهريتين كبيرتين، واثنيتين متوسطتين، وستاً أصغر، وأربع مزهريات للمربى وأربعة أطباق، عليها جميعاً نفس الرسوم. راح فيودور مياخيلوفيتش، هاوي القطع الفنية الرفيعة، يتأمل المزهريات وهو يقول «كم أودُّ لو اقتنينا هذه المزهريات الرائعة. هل تريدان أن نشتريناها يا أنيتشكا؟» ابتسمت، ومع علمي بأن لدينا بعض النقود في هذه اللحظة، ولكنها لم تكن لتكفي لشراء هذه الأشياء. إلى جوارنا وقفت امرأة فرنسية كانت مُعجبة بشدة بهذه الأواني البلورية؛ كانت تتحدث إلى رفيقها معبرةً عن أسفها قائلة إنَّ هناك الكثير من الأشياء وكانت تودُّ لو أنها اشترت جزءاً منها. استمع فيودور مياخيلوفيتش لما قالت فتوجَّه لها قائلاً: «مدام، هل نشترى هذه الأشياء مناصفة؟» لم تمر خمس دقائق إلا وقد عُرضت الأشياء أمام الجمهور بسعر ثمانية عشر طالرًا، كل قطعة منها بطالر واحد. حتى الألمان الحريصون أظهروا رغبتهم في الشراء عندما وجدوا أن هذه المجموعة الكبيرة تُباع بمثل هذا السعر المنخفض، فراحوا يزايدون بمعدل Fünf Groschen (خمسة جروشات). فيودور مياخيلوفيتش وحده الذي كان يزايد في كل مرة بمعدل طالر. كان حماسه يزداد دقيقة بعد الأخرى، وكنت أرى أن السعر يرتفع بشدة فأخذت أفكر: ماذا لو أن الفرنسية تراجعت عن الشراء، هل ستكون كل هذه الأشياء من نصيبنا؟ عندما وصل السعر إلى واحدٍ وأربعين طالر، أوقف مدير المزايدة خوفًا من انصراف المشتريين، وأصبحت الأشياء ملكًا خالصًا لنا. لم تتراجع الفرنسية عن الشراء فتقاسمنا الأشياء بالعدل. والآن أصبح علينا أن ننقل مشروعاتنا إلى البيت. انتظر فيودور مياخيلوفيتش إلى جانب الأشياء، بينما حملنا أنا واثنان من الحمالين مزهرية في كل يدٍ وتوجَّهنا إلى البيت، كان على الحمالين أن يعودا مرتين لحمل الأشياء. يمكن أن تتخيل دهشة أُمي عندما رأت هذه المجموعة من المزهريات في غرفة زوجي. وكان أن سارعت بالسؤال: «وكيف ستحملون كل هذه الأشياء إلى روسيا؟ ليست لديكم صناديق وإنما حقائب فقط، وهذه الأشياء مُعرضة جميعها لأن تتحطَّم في الطريق.» لم يخطر ببال أحداً مطلقاً هذا الأمر، وحتى لو حدث لما تراجع فيودور مياخيلوفيتش على أية حال عن الشراء بعد أن تملكه هوس امتلاك هذه الأشياء. ومع ذلك فقد سارت الأمور على ما يُرام: كان كثيرٌ من الروس يُسافرون أحياناً

من درزدن إلى بطرسبورج، فكنتُ أطلب من معارفي بينهم أن يحملوا مزهريةً لتوصيلها إلى أختي. ما تزال هذه الأشياء سليمةً حتى الآن وتُشكل بعضاً من ثروتنا العائلية.

وكما ذكرتُ من قبل، فقد كنّا نذهب أنا وزوجي لزيارة القس نيكولاي فيودورفيتش روزانوف،^{١١٤} الذي لم يكن زوجي يُقدّره على نحو خاص؛ إذ كان يرى أن حماسه المُتَعَجِّل وما يُميز شخصيته من الرعونة في إصدار الأحكام والآراء يجعله لا يُمثل نموذجاً لخدام المذبح على النحو الذي يراه فيودور ميخايلوفيتش. كانت لديه زوجة مضيافة، وكان لديهما أطفال لطفاء، كانوا يضيفون البهجة على بيتهما، وكان من بين السيدات الروسيات اللاتي كن يعشن في تلك السنوات في درزدن، عدد من المُعجبات المتحمّسات لموهبة زوجي: هؤلاء كن يُقدِّمن له الزهور والكتب، والأهمُّ أنهنَّ كنَّ يُدللن ابنتنا لوباتشكا باللُّعب، فضلاً عن أنهنَّ استرعين انتباه فيودور ميخايلوفيتش.

في نهاية شهر أكتوبر ١٨٧٠م اجتمعت الجالية الروسية في درزدن في بيت القس، وتم اتخاذ مبادرة لإرسال خطاب إلى القنصل الروسي آنذاك ردّاً على رسالته العاجلة المؤرّخة ١٩ أكتوبر والموجّهة إلى مُمثلي روسيا هنا.^{١١٥} وعلى الفور راح الجميع يطلب من فيودور ميخايلوفيتش أن يكتب ردّاً على هذا الخطاب، وعلى الرغم من أنه كان مشغولاً للغاية في هذا الوقت بعملٍ عاجل، إلا أنه وافق وقام بكتابة الخطاب على النحو التالي: «علمنا نحن الروس المُقيمين مؤقتاً في الخارج، في درزدن، ببإلغ الفرح والامتنان بما خلصت إليه إرادتكم السامية، التي عبّرتم عنها في رسالتكم المؤرّخة ١٩ أكتوبر، والتي وجّهتموها إلى كل مُمثلي روسيا المُقيمين في الدول الموقّعة على معاهدة باريس. وإننا لفي غاية السعادة ونحن نُعبر لسيادتكم من موقّعنا هذا، وقد اجتمعنا معاً بصورةٍ أخوية أن نُعلن بالإجماع عن مشاعرنا الطيبة، وهي المشاعر التي تراود كلّ فردٍ فينا بعد أن قرأ رسالتكم. لقد

^{١١٤} نيكولاي فيودورفيتش روزانوف: قس روسي عاش في برلين، وقد خلطتُ أنا جريجوريفنا هنا بينه وبين أخيه ألكسندر فيودورفيتش روزانوف (١٨٣٩-١٨٨٣م) وهو القس الروسي الذي عاش في درزدن إبّان إقامة دستوفسكي وزوجته فيها. (المترجم)

^{١١٥} وصلت إلى مجلس الوزراء رسالة عاجلة في السابع عشر (وليس في التاسع عشر) عام ١٨٧٠م تفيد اتخاذ روسيا قراراً بإلغاء المادة الثانية من اتفاقية باريس ١٨٥٦م بشأن تحييد البحر الأسود. وقد وافقت كلّ الدول العظمى على إعادة النظر في هذه المادة من اتفاقية باريس ومن ثمّ تمكنت روسيا من الاحتفاظ بأسطولها الحربي في البحر الأسود مرةً أخرى، الأمر الذي تمّ التصديق عليه في معاهدة لندن عام ١٨٧١م.

شعرنا عند ذلك كما لو كنّا نستمتع لصوت روسيا العظيمة والمجيدة بأسرها. إن كلّ واحدٍ فينا فخور بأن يحمل اسم روسيا وهو يقرأ هذه الكلمات المُفعمة بالحقيقة والتقدير الرفيع.

ندعو الله أن يهب وطننا المحبوب السعادة ونرجوه أن يحفظه دائماً من كلّ سوء. ونتضرّع إليه أن يحفظ مليكنا المحرر المحبوب عمراً طويلاً، وأن يكون خدمه من الشجعان من أمثالكم.»

وقد امتلأ هذا الخطاب بالعديد من التوقعات (بلغت ما يزيد على المائة) وأرسلت إلى القنصل.

على الرغم من أنني عانيتُ من الحنين إلى روسيا طوال السنوات الثلاث الأولى من وجودي في الخارج، فإنني عايشْتُ انطباعاتٍ جديدة منها الحَسَن ومنها الرديء؛ الأمر الذي جعل هذا الإحساس يتبدّد. ولكنني في العام الرابع لم أعد أتحمل مقاومته، وعلى الرغم من وجود أحبّاء وأعزاء بالقرب منّي: زوجي وطفلي، أُمّي وأخي، لكنّ شيئاً مُهمّاً بَتُّ أفتقده، كنت أفتقد الوطن، روسيا، شيئاً فشيئاً راح حنيني يزداد ليصل إلى درجة المرض وليتحوّل إلى نوستالجيا، وتصوّرتُ المستقبل أمامي بلا أملٍ تامّاً. اعتقدتُ أننا لن نرجع مُطلقاً إلى روسيا، وأن عقباتِ كُأداء ما، ستظل واقفة في طريقنا تمنعنا من العودة: تارة لا نقود لدينا، وتارة لدينا ولكنني لا أستطيع العودة بسبب حملي أو خشيةً على مولودي من أن يُصاب بالمرض وهلمّ جراً. تصوّرتُ أن الخارج ليس سوى سجنٍ دُفعتُ إليه وأنتني لن أتمكّن من الخلاص منه إلى الأبد. ورغم مواساة أقاربي لي، فإنهم لم ينجحوا في إغرائي بالأمل في أنّ الأحوال ستتغيّر وأنا سنعود للوطن، كانت كل هذه المواساة تذهب أدراج الرياح: كنتُ قد فقدتُ الثقة في هذه الوعود وأصبحتُ على اقتناعٍ تامٍّ أن قدرتي هو أنّ أظلّ في الغربة إلى الأبد، ولعلمي التامّ أن حنيني كان سبباً في عذاب زوجي، الذي كان هو نفسه يُعاني من الحياة بعيداً عن الوطن على نحوٍ لا يُوصَف، كنتُ أحاول التماسك في وجوده فلا أبكي أو أجأ بالشكوى، لكنّ مظهري الحزين كان يشي دائماً بما أكنّه. كنتُ أقول لنفسي إنني على أنّم استعدادٍ لتقبُّل كافة أنواع المصائب وتحمل الفقر بل وحتى العوز، على أن أعيش فقط في وطني الغالي، الذي أفتخر به دائماً. عندما أتذكّر حالتي النفسية آنذاك أقول إنها كانت حالة صعبة لا تُحتَمَل، وإنني لم أكن لأتمناها حتى لِأشدّ أعدائي ضراوة.

في نهاية عام ١٨٧٠م اتضح لنا أمرٌ من الأمور استطعنا بفضلِه أن نتمكن من الحصول على مبلغ كبير من المال. المسألة تحديداً أن ستيلوفسكي الذي اشترى من فيودور ميخايلوفيتش حق نشر أعماله الكاملة عام ١٨٦٥م، قام بإصدار طبعةٍ مستقلة من رواية «الجريمة والعقاب»، وبموجب هذا الاتفاق كان ستيلوفسكي مُلزماً بدفع ما يزيد عن ألف روبل لزوجي. ها هي الرواية قد خرجت للنور والناشر لا يُريد أن يدفع شيئاً، على الرغم من أن ربيب زوجي أعلن أنه يملك توكيلاً باستلام المبلغ. ولما كان فيودور ميخايلوفيتش لا يثق في خبرة ربيبه، فقد طلب من أبوللون مايكوف أن يأخذ على عاتقه مسئولية الحصول على هذه الأموال، لا بصفته الشخصية، وإنما أن يقوم بتوكيل الأمر إلى محامٍ ذي خبرة أهلٍ للثقة.^{١١٦} أتذكر بامتنانٍ عميقٍ أبوللون مايكوف، لما تمتع به من طيبةٍ كبيرة وسموً في الأخلاق تجلّيا في علاقته بنا على مدى السنوات الأربع التي عشناها في الخارج. وقد بذل أبوللون نيكولايفيتش (مايكوف) أقصى ما في وسعه في قضيتنا هذه، ولم يكتفِ بأن يعهد بها إلى محامٍ واسع الخبرة وإنما سعى لأن يتفاوض مع ستيلوفسكي. لكن هذا الناشر كان معروفاً بالدهاء والاحتتيال، ومن ثم خشي أبوللون مايكوف أن يخذعه فقرّر أن يستدعي فيودور ميخايلوفيتش ليحضر بنفسه إلى بطرسبورج، ولعلمه أننا نُعاني دائماً من قلة المال فقد أرسل لنا برقية نصح فيها زوجي أن يتقدّم بطلبٍ إلى الصندوق الأدبي لإقراضه مبلغاً في حدود مائة روبل^{١١٧} يمكن بواسطتها أن يسافر إلى بطرسبورج وحده دون أن يصطحب العائلة. ولسوء الحظ وصلتنا البرقية في اليوم الأول من أبريل (وهو اليوم الذي اعتاد الناس فيه في روسيا على إطلاق الأكاذيب)، وفي البداية تصوّرنا أنا وزوجي هذه الدعوة للسفر إلى بطرسبورج دعابةً أو مكيدة من أحد الدائنين، لعلّه

^{١١٦} انظر خطّابتي دستوفسكي إلى مايكوف المؤرّخين الخامس عشر، والثلاثين من ديسمبر. وقد ألحق دستوفسكي بخطابه الأخير تفويضاً لمايكوف لاستلام مُستحققاته المالية من ستيلوفسكي مقابل نشر طبعةٍ مستقلة من رواية «الجريمة والعقاب» (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٠٢-٣١٠).

^{١١٧} توجّه أبوللون مايكوف إلى الصندوق الأدبي بطلبٍ إعطاء دستوفسكي خمسمائة روبل لرفع دعوى ضد ستيلوفسكي. وقد أجاب المسئولون في الصندوق بأنهم لا يستطيعون إعطاء دستوفسكي مالاً لرفع دعوى، وإنما يُعطونه «قرضاً بضمان». وقد نصح مايكوف دستوفسكي أن يطلب «من الصندوق أربعمائة روبل» (وليس مائة، الأرجح أنه قد وقع خطأ في البرقية). انظر حول هذا الأمر خطاب مايكوف إلى دستوفسكي المؤرّخ الرابع من أبريل ١٨٧١م في كتاب: دستوفسكي، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٤.

ستيلوفسكي نفسه يرغب في دعوة فيودور ميخايلوفيتش للحضور إلى بطرسبورج حيث يُهدّده بالسجن في قسم الديون، حيث يجعلنا نتنازل عن الكمبيالات التافهة التي لدينا مقابل مُستحققاتنا في «الجريمة والعقاب». أما أبوللون مايكوف الطيب فلم يكتفِ بإرسال البرقية، وإنما راح يلتمس رأي لجنة الصندوق الأدبي بشأن إرسال قرص قيمته مائة روبل إلى الكاتب دستوفسكي، لكن الصندوق تعامل في هذه المرة أيضًا^{١١٨} مع هذا الطلب بصلفٍ وعدوانية، وهو ما ذكره أبوللون مايكوف في خطابه المؤرّخ الحادي والعشرين من أبريل ١٨٧١ م.^{١١٩}

كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالاستياء الشديد بعد أن تلقى هذا الخطاب وكتب في ردّه عليه يقول ...^{١٢٠} [«لعلكم ترون، على أية حال، كيف يتعامل الصندوق بصلف تجاه طلبي (أي تجاه الطلب المُقدّم إليكم بشأن) بشأن القرض، والضمانات التي طلبتموها وما إلى ذلك، وبأي لهجة مُتعالية كان ردُّكم. لو أن أحد العدميين هو من تقدم إليكم بهذا الطلب، ما كانت إجابتكم على هذا النحو»].^{١٢١}

^{١١٨} أعتزم أن أوضح لاحقًا الموقف الوُديّ من جانب زوجي تجاه الصندوق الأدبي، وموافقته المستمرة للمشاركة كمُحاضر في الأمسيات الخيرية التي يُقيمها، والعلاقة العدوانية من جانب الصندوق تجاهه (ملاحظة لأنّنا جريجوريفنا دستوفسكايا).*

* تُبالغ أنّا جريجوريفنا عندما تكتب عن العلاقة العدوانية المُتحيّزة ضد دستوفسكي من جانب الصندوق الأدبي. فالصندوق الأدبي لم يعترض على رغبة دستوفسكي في الحصول على سُلقة؛ ولكنه طلب ضمانًا، ويرجع السبب في ذلك بكل تأكيد، إلى أن الكاتب كان يعيش في الخارج ما يزيد عن أربع سنوات وكانت علاقته بالدوائر الأدبية مقطوعة تقريبًا. وعن علاقة دستوفسكي بالصندوق الأدبي انظر خطاب رئيس الصندوق، ف. ب. جايفسكي في ذكرى دستوفسكي في الثامن من فبراير ١٨٨١ م في كتاب: السيرة، ص ٩٩-١٠٠.

^{١١٩} الأرجح أن هناك زلة في الكتابة، أن خطاب مايكوف مؤرّخ في الرابع من أبريل ١٨٧١ م (وهو منشور في كتاب: دستوفسكي، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٤)، بينما كان رد دستوفسكي مؤرّخًا الحادي والعشرين من أبريل ١٨٧١ م.

^{١٢٠} فقرة مفقودة في المخطوطة.

^{١٢١} لا تورّد أنّا جريجوريفنا في مخطوطتها ردّ دستوفسكي على خطاب مايكوف المؤرّخ الرابع من أبريل ١٨٧١ م، على رغم أنه من الواضح أنها كانت تعتزم نشره. نستند على ذلك بخطاب دستوفسكي المؤرّخ الحادي والعشرين من أبريل ١٨٧١ م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٥٤).

زمن مضى، وها نحن في أبريل من عام ١٨٧١ م وقد أتممنا أربع سنوات في الخارج، وها هو الأمل في عودتنا إلى روسيا يتجدد تارة، ويختفي تارة أخرى. وأخيراً قررنا أنا وزوجي بكل حزم أن عودتنا إلى بطرسبورج أمر حتمي مهما كانت عواقب هذه العودة. لكن حساباتنا كلها كانت مُعلقة بشعرة: كنا نتوقع مجيء ضيف جديد في شهر يوليو أو مطلع شهر أغسطس ليُضاف إلى أسرتنا. فإذا لم نتمكّن، قبل شهرٍ من الحدث المُنتظر، من العودة إلى روسيا لأصبح من المُحتمّ علينا أن نبقي في الخارج عامًا آخر بأكمله، أي حتى حلول الربيع؛ إذ إن الرحيل في نهاية الخريف بصحبة مولود أمر مُستحيل. وعندما افترضنا أنه لن يكون باستطاعتنا أن نرى روسيا لمدة عام آخر، وقعنا في حبال اليأس: لقد أصبحت حياتنا في الغربه أمرًا لا يُحتمل. وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوفيتش يُردّد على مسامعي أنه إن ظلّ في الخارج فإنه «سيحتضر» وأنه لن يكون بمقدوره الكتابة بعد ذلك، إنه هنا لا يملك مادة للكتابة، وهو يشعر أنه لم يعد يفهم أو يتذكّر روسيا والروس؛ إذ إن الروس في درزدن من معارفنا هم ليسوا، في رأيه، روسًا، وإنما هم مُهاجرون جاءوا إلى هنا بمحض اختيارهم، وهم لا يُحبون روسيا وقد تخلّوا عنها إلى الأبد. وقد كانت هذه هي الحقيقة الساطعة: فهؤلاء جميعًا كانوا ينحدرون من عائلاتٍ أرسقراطية، ولم يكن باستطاعتها التصالح مع إلغاء قوانين الرقّ ولا قبول المجتمع بعد أن تغيّرت ظروفه. هؤلاء لفظوا الوطن لكي يستمتعوا بحضارة أوروبا الغربية. هؤلاء كانوا في غالبهم كارهين للنظم الجديدة، أناس اهتزت رفاهيتهم فباتوا يشعرون أن من الأسهل عليهم أن يعيشوا في الغربه.

كان فيودور ميخايلوفيتش يتحدّث كثيرًا عن «احتضار» موهبته المؤكّد، وكيف أنه يتعذّب بفكرة كيف سيتمكن من إطعام عائلته الغالية عليه والتي يزداد عددها يومًا بعد الآخر، الأمر الذي كان يدفعني أحيانًا إلى اليأس وأنا أستمع إليه. وحتى أهدئ من روعه وأبعد عنه أفكاره السوداء والتي تعوقه عن التركيز في عمله، لجأتُ إلى تلك الوسيلة التي كانت تُذهب عنه الحزن وتُسري عنه، فانتهزتُ فرصة امتلاكنا لبعض المال (ثلاثمائة طالر) وانحرفتُ بحديثنا معًا بطريقةٍ ما نحو الروليت، ولماذا لا يُجرب حظه مرّةً أخرى وأنه قد آن الأوان ليفوز، ولم لا يكون لديه شيء من الأمل في أن الحظ سيكون حليفه هذه المرة، وهلم جرا. لم أكن أعول على الفوز وكنتُ آسفةً بشدة على التضحية بمائة طالر، لكنني، استنادًا إلى خبرة الأسفار السابقة إلى الروليت، كنتُ أعلم أنه بعد أن يُعاني مشاعر

عاصفة ويُرضي حاجته للمخاطرة في اللعب، ويقتنع بخيبة أمله في الربح، يعود وقد تجددت قواه لكتابة روايته، وسرعان ما يعوّض خلال أسبوعين أو ثلاثة ما خسر. جاءت فكرتي عن الروليت على هوى زوجي تمامًا فلم يرفضها. سافر فيودور ميخايلوفيتش إلى فيسبادن، حيث قضى هناك أسبوعًا، ومعه مائة وعشرون طالرًا بعد أن اشترط عليّ أن أرسل إليه نفقات العودة في حالة خسارته. وكما توقّعتُ كانت نتيجة اللعب محزنة للغاية، وقد كلفّتنا هذه الرحلة مائة وثمانين طالرًا، وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا آنذاك. لكن تلك العذابات القاسية التي عاناها فيودور ميخايلوفيتش في هذا الأسبوع، عندما راح يلوم نفسه على أنه اقتطع مالا يخصُّ أسرته ويخصُّني ويخصُّ الطفل، كان لها أثر بالغ عليه، حتى إنه قرّر ألا يذهب مُطلقًا بعد ذلك للعب القمار. إليكم ما كتبه زوجي لي في خطابه المؤرّخ الثامن والعشرين من أبريل ١٨٧١م: «لقد وقع لي أمر جلل، لقد اخفقى الوهم الفضيل، الذي عذبني طيلة عشر سنوات (أو، الأفضل أن أقول، منذ وفاة أخي، عندما وقعتُ فجأةً تحت وطأة الديون)، كنت أحلم دائمًا بالكسب؛ أحلم بولعٍ وجدية. الآن انتهى كل شيء! كانت هذه هي المرة الأخيرة. هل تُصدّقين يا أنيا أن يديّ الآن طليقتان، لقد كنت أسيرًا للقمار. سوف أبدأ الآن في التفكير في عملي، ولن أحلم بعد ذلك ليالي بطولها بالقمار، كما كان يحدث لي من قبل.»^{١٢٢}

لم يكن بمقدوري، بطبيعة الحال، أن أصدق أن أعيش سعادةً كبرى مثل أن يخمد أوار فيودور ميخايلوفيتش تجاه المقامرة. فلطالما وعدني بالابتعاد عن اللعب، ولم يكن باستطاعته أن يغي بوعده. لكن هذه السعادة تحققت. وكانت هذه، في واقع الأمر، هي المرة الأخيرة التي يلعب فيها الروليت. وفي رحلاته التالية إلى الخارج (١٨٧٤م، ١٨٧٥م، ١٨٧٦م، ١٨٧٩م) لم يفكر فيودور ميخايلوفيتش في الذهاب ولو مرة واحدة إلى مدينة القمار. والحقيقة أنه سرعان ما أغلقت صالات القمار في ألمانيا، وإن ظلّت مفتوحة في سبا وساكسون وفي مونت كارلو. لم تكن المسافة لتقف حائلًا أمام زوجي للذهاب إلى أيّ منها، لكنه كان قد فقد الرغبة تمامًا في اللعب. لقد بدا أن هذا «الوهم» الذي عايش

^{١٢٢} اقتباس غير دقيق من خطاب دستوفسكي إلى أنا جريجوريفنا المؤرّخ الثامن والعشرين من أبريل ١٨٧١م (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٤٨).

فيودور ميخايلوفيتش في أن يربح في القمار ليس سوى وسواسٍ أو داءٍ عضال شُفي منه فجأةً.

عاد فيودور ميخايلوفيتش من فيسبادن هادئاً مفعماً بالحيوية والنشاط، وسرعان ما انكبَّ على مواصلة العمل في رواية «الشياطين»، إذ كان يتوقع أن السفر إلى روسيا وتدبير مكانٍ جديد للسكنى، ثم انتظار الحدث العائلي، أمور لن تمكنه من العمل الدؤوب. كانت أفكار زوجي كلها موجهة إلى الجانب الجديد من الحياة، التي راحت تتكشف أمامنا، ومن ثم راح يحزر أنه سوف يلتقي بشكلٍ ما بأقاربه وأصدقائه القدامى، وكيف أنهم لا بد وأن يكونوا، في رأيه، قد تغيروا تمامًا على مدى السنوات الأربع التي مرت، وكان يُدرك أن التغيير قد أصاب آراءه ونظرياته هو نفسه.

وفي الأيام الأخيرة من شهر يونيو من عام ١٨٧١م تلقينا من هيئة تحرير «البشير الروسي» مستحقاقنا من أموال أتعاب الرواية، ودون أن نُضيع يوماً واحداً، بدأنا في تدبير إنهاء أمورنا في درزدن (إن شئنا الدقة، فك متاعنا المرهون وسداد ديوننا) وحزم حقائبنا. وقبيل سفرنا بيومين دعاني فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة مكتبه وسلّمني عدداً من الرزم الورقية السميكة المليئة بالكتابة، وكلها من القطع الكبير وطلب منّي أن أحرقها. وعلى الرغم من أننا قد تحدّثنا معاً في هذا الأمر، لكنني أصبحتُ أشعر بالأسف على ضياع هذه المخطوطات، الأمر الذي دفعني لأن أبدأ في التوسّل إلى زوجي أن يسمح لي بأن أخُذها معي. لكن فيودور ميخايلوفيتش ذكّرني بأنهم سوف يفتشونه دون أدنى شك عند الحدود الروسية وسوف يُصادرون كل ما معه من أوراق، وسوف تضيع هذه الأوراق كما ضاعت قبلها أوراقه عند اعتقاله في عام ١٨٤٩م. كما كان من المُحتمل أن يتم احتجازنا في فيرجيبولوفو^{١٢٣} حتى يُراجعوا الأوراق، وهو ما يُشكل خطراً على الحدث العائلي المنتظر. كم كنتُ شديدة الأسف أن أفترق عن هذه المخطوطات، لكنني اضطررتُ أن أخضع لحجج فيودور ميخايلوفيتش اللوحة. أضرمنا النار في المدفأة وأحرقنا الأوراق. وهكذا هلك مخطوطات روايتي «الأبله» و«الزوج الأبدي». وقد أسفتُ، على وجه الخصوص، لفقدان هذا الجزء من رواية «الشياطين»، الذي كان يُمثل الشكل الأصلي لهذا العمل ذي التوجّه المحدد. وقد نجحت فقط في الحفاظ على دفاتر الملاحظات الخاصة بالروايتين المذكورتين

^{١٢٣} الاسم الرسمي لمدينة فيرباليس قبل ١٩١٧م وتقع في جمهورية ليتوانيا. (المترجم)

وأن أعطيها لأمي،^{١٢٤} التي كان من المفترض أن تعود إلى روسيا مع نهاية الخريف. لم توافق أُمِّي على حمل حقيبة مليئة بأكملها بالمخطوطات؛ فهذه الكمية الكبيرة كان من الممكن أن تُثير الشكوك، ولتَمَّت مصادرة الأوراق منها. وأخيرًا نجحنا في الخامس من يوليو أن نُغادر درزدن إلى برلين حيث استقللنا القطار المتجه إلى روسيا.

تعرَّضنا للكثير من الاضطراب في رحلتنا بسبب كثرة الحركة والميل للعب من جانب لوباتشكا، التي بلغت من العمر تسعة أشهر. كنَّا مُسافرين دون أن نصطحب مُربية، ونظرًا لحالتي الصحية، فقد أخذ زوجي على عاتقه مهمة المربية طوال الطريق؛ كان يأخذها للتجول على أرصفة المحطات ويحضر لها اللبن والطعام، يُسلِّيها بالألعاب، باختصار، كان يتصرَّف مثل مُربية خبيرة، وهو ما سهَّل عليَّ هذه الرحلة الطويلة. وقد حدث ما توقَّعناه: قلبوا حقائبنا وأمتعنا رأسًا على عقب، أما أوراقنا وكُتبتنا فقد وضعوها جانبًا.

أُخْرِجَ الجميع من صالة التفتيش وبقينا ثلاثتنا، إلى جانب عددٍ قليل من الموظفين الذين تجمَّعوا بالقرب من الطاولة. حيث راحوا يفحصون الكُتب التي وقع اختيارهم عليها وكذلك الرزمة الصغيرة من المخطوطات. أصابنا القلق خوفًا من أن يفوتنا القطار المتجه إلى بطرسبورج، وإذا بصغيرتنا لوباتشكا تُنقذنا من هذه الورطة. لقد اشتدَّ عليها الجوع فراحت تصيح بصوتٍ مرتفع «ماما، أريد فطيرة»، حتى إنَّ الموظفين سرعان ما أصابهم الملل من جراء صياحها فقرَّروا أن يُخلوا سبيلنا في سلامٍ بعد أن أعادوا لنا الكتب والمخطوطات دون ملاحظات.

كان علينا أن نُعاني أسبوعًا آخر في عربة القطار، لكن إحساسنا بأننا نسير على أرض روسية، وأن جميع من حولنا هم من أهلنا الروس كان يبعث في نفوسنا الهدوء، مما جعلنا ننسى كل متاعب الطريق. كنتُ وزوجي سعيدين، مرحين نسأل بعضنا بعضًا: هل نحن حقًا أخيرًا في روسيا؟ كنَّا في حالة من الدهشة ونحن نرى حلمنا القديم وهو يتحقَّق.

^{١٢٤} هذه المذكرات التي تم العثور عليها والخاصة بروايتي «الأبله» و«الشياطين» تم نشرها في كتابي: «من أرشيف دستوفسكي، الأبله، مواد غير منشورة» المُحرَّران ب. ن. ساكولين ون. ف. بيلتشيكوف، موسكو، ليننجراد، ١٩٣١م؛ «دفاتر مذكرات ف. م. دستوفسكي»، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م.

١٨٧١م، نهاية فترة حياتنا في الخارج

أقول، وقد انتهت فترة حياتنا في الخارج، إنني أتذكّرُها بامتنانٍ عميقٍ للقدر. صحيح أننا عانينا، على مدى ما يزيد عن أربع سنوات، مصائبَ ثقيلة: موت ابنتنا الكبرى، مرض فيودور ميخايلوفيتش، افتقارنا الدائم للمال وحاجتنا للعمل، ولع فيودور ميخايلوفيتش البائس بلعبة الروليت وعجزنا عن العودة إلى الوطن. لكن هذه المصائب جميعها كان لها جانبها الخير؛ فقد قاربت بيننا وجعلتنا نفهم ونُقدّر بعضنا بعضاً، وخلقت تلك المودة المتبادلة المتينة، التي لولاهما لَمَا كُنَّا سعداء على هذا النحو في زواجنا.

إن استعادة ذكريات هذه السنوات تُمثل بالنسبة لي شخصياً لوحة صافية بديعة. لقد عشنا وزرنا العديد من المدن والأماكن الرائعة (درزدن، بادن-بادن، جينيف، ميلانو، فلورنسا، فينيسيا، براج)، وقد تفتّح أمام عينيّ المَبهورتين عالمٌ بأكمله لم أَرُ مثيلاً له حتى الآن، عالمٌ ما يزال غامضاً حتى الآن، ولم يكن هناك شيء يُشبع فضولي الشاب سوى زيارة الكنائس والمتاحف وقاعات العرض، خاصة وقد تسنّى لي الاطلاع عليها بصحبة إنسان حبيب كان كل حديث معه يُمثل بالنسبة لي كشفًا جديدًا في الفن أو في الحياة. لم تكن كل هذه الأماكن التي زُرناها تُشكل جديدًا بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش، ولكنه، وهو الذي يملك ذوقًا فنيًا راقياً ونظرة عميقة، كان يدخل إلى قاعات عرض اللوحات في درزدن وفلورنسا وقد اعترته لذة حقيقية ويظلُّ ساعاتٍ طويلة يتأمل كنيسة القديس مرقص وقصور فينيسيا.

صحيح أنه لم يكن لدينا في الخارج معارف على الإطلاق، اللهم إلا من كُنَّا نلتقي بهم مصادفةً أو على نحو عابر. إلا أن فيودور ميخايلوفيتش كان سعيداً بهذه العزلة عن الناس. كان منذ وفاة أخيه ميخائيل غارقاً في الحسرة، يعيش صراعاً مع خيبة الأمل وسوء الحظ اللذين راحا يُلاحقانه؛ فضلاً عن الإحباط الشديد الذي أصابه من جرّاء علاقته بالعاملين في عالم الأدب. وإلى جانب ذلك فقد رأى فيودور ميخايلوفيتش أن من المفيد للغاية أن يعيش المُفكر أحياناً في حالةٍ من العزلة بعيداً عن الأحداث الجارية التي تُثير فيه الاضطراب دائماً، وأن ينطلق تماماً مع أفكاره وأحلامه. فيما بعد، وبعد أن عاد إلى دوامة الحياة في العاصمة، كان فيودور ميخايلوفيتش كثيراً ما يتذكّر كم كان سعيداً في الخارج وهو يملك بين يديه وقت فراغ هائلاً مكّنه من أن يضع مخطط روايته وأن يقرأ

كتابًا مختارًا دون عجلة، مُستسلماً تمامًا للانطباعات السعيدة والحنونة التي تُسبغها عليه القراءة.

كم من أشكال السعادة الخالصة والعميقة وهبْنَا الحياة في الخارج، إلى جانب الانطباعات الخارجية الرائعة: ميلاد الأطفال وبداية تكوين الأسرة التي كان فيودور ميخايلوفيتش يحلم بها دائماً، كلها أمور ملأت وأضاءت حياتنا، وإنني لأعبر عن امتناني للقَدَر قائلة: «بارك الله هذه السنوات الرائعة التي قُبِضَ لي أن أقضيها في الخارج وحيدةً إلا من هذا الإنسان الرائع بما يحمله من خصالٍ نفسية رفيعة!»

والآن وقد أنهيتُ هذا العرض لحياتنا في الخارج والتي امتدت إلى ما يزيد على أربع سنوات، سوف أتحدّث عن المغزى الداخلي لحياة العزلة الطويلة التي عشناها. وعلى الرغم من الهموم الكثيرة وقلة المال آنذاك، والشعور بالملل المُمضّ أحياناً، وحياة الوحدة الطويلة، فقد كان لهذه الحياة أثرها الإيجابي على ظهور أفكار زوجي وتطوّر مشاعره المسيحية. كل الأصدقاء والمعارف الذين قابلونا لدى عودتنا من الخارج، كانوا يقولون لنا إنهم لم يعرفوا فيودور ميخايلوفيتش، فقد تغيّرت طباعه إلى الأفضل على نحوٍ كبير، إلى حدّ أنه أصبح أكثر طيبةً وتسامحاً مع الناس. لقد اختفى عناده وضيق صدره تماماً. أورد هنا بضع كلمات من مذكرات نيكولاي ستراخوف^{١٢٥} حيث يقول: «إنني على يقينٍ أنّ هذه السنوات الأربع، التي قضاها فيودور ميخايلوفيتش في الخارج، كانت أفضل سني عمره، فهذه السنوات هي التي وفرت له أعمق الأفكار والمشاعر وأنقاها. لقد عمل فيها بدأبٍ بالغٍ وكان يُعاني أحياناً من الحاجة والعوز، لكنه تمتّع بقدر كبير من الهدوء والسعادة بفضل الحياة العائلية الهانئة. لقد عاش طيلة الوقت في عزلةٍ تامة تقريباً، أي إنه كان بعيداً عن كافة الأسباب القوية التي كان من الممكن أن تبتعد به عن الطريق المباشر لتطویر أفكاره وعمله الروحي العميق. إن ميلاد الأطفال والعناية بهم ومشاركة كلٍّ منهما الآخر في آلامه وحتى موت الطفل الأول، جميعها كانت انطباعات ومشاعر رفيعة وسامية. لا شك أنّ الحياة في الخارج تحديداً، وفي مثل هذه الظروف، وبفضل هذه التأملات الهادئة الطويلة، انبعثت هذه الكشف الخاصة لهذه الروح المسيحية التي عاشت بداخله دائماً. وقد ظهر هذا التحوّل الجوهري جلياً أمام كل معارفه بعد أن عاد فيودور ميخايلوفيتش

^{١٢٥} «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٤٩ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستوفسكايا).

من الخارج. وها هو يتحدث بلا انقطاع في شتى الموضوعات الدينية؛ فضلاً عن ذلك فقد تغير سلوكه فأصبح أكثر رقةً إلى حدِّ الوداعة المتناهية في بعض الأحيان، حتى ملامح وجهه باتت تحمّل بعضاً من سمات مزاجه النفسي واستقرّت على شفّته ابتسامة ودودة ... بداهة فقد كانت روحه عامرة بأفضل المشاعر المسيحية، تلك المشاعر التي ما فتئت تُعبر عن نفسها أكثر فأكثر في أعماله. على هذا النحو عاد فيودور ميخايلوفيتش من الخارج.»

وفي السنوات التالية كان فيودور ميخايلوفيتش نفسه يتذكّر بكل العرفان بالجميل هذه السنوات التي قضيناها معاً في الخارج.

لاحظ الأقارب والمعارف أيضاً التغير الذي طرأ عليّ: فتاة وديعة خجول تحوّلت إلى امرأةٍ حازمة لا يُخيفها الصراع مع مصائب الحياة، إن شئت الدقة، الصراع مع الديون، التي بلغت عند وصولنا خمسةً وعشرين ألف روبل. لقد احتفظت بمرحي وحُبي للحياة، لكنها صفات كانت تظهر فقط بين أُسرتي وفي محيط أقاربي وأصدقائي، أما في وجود الغرباء، وخاصة في مجتمع الرجال، فقد كنتُ متحفظةً لأبعد الحدود، ألتزم الصمت والبرود المُنهدب، وأستمع بانتباهٍ أكثر مما أُعبر عن أفكاري. وقد أكّدت لي رفيقاتي أنني كبرتُ سريعاً خلال هذه الأعوام الأربعة، وعاتبَنني على قلة اهتمامي بمظهري فلا أرثدي فاخر الثياب ولا أُولي اهتماماً كبيراً لتصفيف شعري على الموضة. كنتُ أتفق معهم في ذلك، لكنني لم أشأ أن أُغير شيئاً من سلوكي. كنت على اقتناع تامٍّ أن فيودور ميخايلوفيتش يُحِبُّني لا لمظهري وإنما لسماتي العقلية وخصالي الشخصية، ولأننا نجحنا خلال تلك السنوات أن «ندمج روحياً» على حدِّ قول فيودور ميخايلوفيتش. كان لمظهري المتحفظ وتجنُّبي لمجتمعات الرجال أثر طيب على زوجي، إذ لم يسمح ذلك بظهور أي أسباب لإثارة خصاله السيئة، مثل الغيرة التي لا مُبرر لها.

الجزء الخامس

في روسيا من جديد

١

العودة إلى الوطن

الثامن من عام ١٨٧١م، في يومٍ حار، سماؤه صافية، عُدنا إلى بطرسبورج بعد سنواتٍ أربع قضيناها في الخارج.

خرجنا من محطة وارسو لنقطع شارع إسماعيلوفسكي مارّين بالقرب من كنيسة الثلاث المقدّس، حيث تمت مراسم زواجنا. دخلنا لنُصلي أنا وزوجي في الكنيسة، بينما راحت صغيرتنا تتأملّنا وهي ترسم علامة الصليب.

إذن، آنيتشكا — قالها فيودور ميخايلوفيتش ثم أردف — لقد عشنا في سعادة أربع سنواتٍ في الخارج، على الرغم من المصاعب التي واجهتنا أحياناً.

ما الذي تُخبئه لنا الحياة في بطرسبورج؟ كلُّ شيء غامض أمامنا ... لستُ أرى سوى الكثير من المصاعب والمشكلات والاضطراب، قُبيل أن نهض على أقدامنا. لا رجاء أمامنا إلا الله!

— ولماذا الحزن مسبقاً؟ — حاولت أن أخفّف عنه — سوف نتوكل على الله وهو لن يخذلنا! المُهم أن حلمنا القديم قد تحقّق، وها نحن الآن معاً في الوطن مرةً أخرى.

نزلنا بأحد الفنادق في شارع بولشايا كونيوشينايا، ولكننا لم نستقر به سوى يومين فقط. كان البقاء فيه، وقد اقتربنا من استقبال فردٍ جديدٍ يُضاف إلى أسرتنا، أمراً غير مُلائم، كما أنه فوق طاقتنا. استأجرنا غرفتين مفروشتين في الطابق الثالث في المنزل رقم ٣ في شارع يكاتيرينجوفسكي. اخترنا هذا المكان بهدف أن تتمكن ابنتنا من أن تتنزّه في حديقة يوسوبوف، الواقعة بالقرب من المنزل في أيام يوليو وأغسطس الحارة.

زارنا في الأيام الأولى لوصولنا أقارب فيودور ميخايلوفيتش وقد استقبلناهم بكل حفاوة وترحاب. على مدى السنوات الأربع المنقضية تحسّن وضع إميليّا فيدوروفنا دستوفسكايا إلى الأفضل: الابن الأكبر لها، فيودور ميخايلوفيتش، أصبح موسيقياً متميزاً وأصبح يربح كثيراً من دروس البيانو. الابن الثاني، ميخائيل ميخايلوفيتش، يعمل في أحد البنوك، الابنة يكاترينا ميخايلوفنا، تعمل هي أيضاً بالاختزال، أي إن الأسرة باتت تعيش في حبسوبة. وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتادت إميليّا فيدوروفنا خلال هذه الفترة، ألا تلجأ لطلب المساعدة من فيودور ميخايلوفيتش إلا في الحالات الاستثنائية، وعياً منها بأن لديه الآن أسرة.

وحده بافل ألكسندروفيتش لم يستطع أن يتخلّى عن فكرة أن «والده»، كما كان يصّر على نداء فيودور ميخايلوفيتش، «مُلزَم» بالإنفاق عليه؛ فضلاً عن الإنفاق على أسرته. بالمناسبة، فقد قابلته بكل مودة، أساساً، لأن زوجته، ناديجدا ميخايلوفنا، أعجبتني للغاية، وكان قد تزوّجها في أبريل من هذا العام. كانت امرأة حسنة متوسطة الطول، متواضعة وعلى قدر من الذكاء. ولم أكن أفهم كيف قرّرت أن تتزوّج من شخص لا يُحتمل مثل بافل ألكسندروفيتش. كنتُ مُشفقة عليها بإخلاص: كنتُ أتنبأ أن حياتها معه سوف تكون صعبة.

بعد ثمانية أيام من وصولنا إلى بطرسبورج، وفي السادس عشر من يوليو، وضعتُ ابنا الأكبر فيودور في الصباح المبكر.^١ كنتُ في الليلة السابقة قد شعرتُ بوعكة، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش طوال النهار والليل يُصلي من أجل أن يمرّ الأمر بسلام، وقد أخبرني، بعد ذلك، أنه قرّر إذا كان المولود صبيّاً، حتى ولو خرج إلى النور قبيل منتصف الليل بعشر دقائق، أن يُسمّيه فلاديمير، تيمناً باسم الأمير فلاديمير، الذي يحمل هو أيضاً اسم القديس فلاديمير، والذي وافق الاحتفال بذكراه الخامس عشر من يوليو. لكن الصبيّ وُلد في السادس عشر من الشهر ليحمل اسم فيودور، تيمناً باسم والده، كما قرّرنا من قبل. كان فيودور ميخايلوفيتش في قمة السعادة لمولد صبيّ ولأن هذا «الحدث» العائلي الذي أقض مضجعه قد مرّ بسلام.

^١ أنهى فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي الابن فيما بعدُ المدرسة الثانوية في بطرسبورج، ثم كُليّتين في جامعة يربتسكي: الحقوق والعلوم. عمل بترية الخيول وكانت لديه في الوقت نفسه مزرعة مليئة بخيول السباق الأصلية في بطرسبورج.

ذهبنا لتعميد الطفل بعد أن تعافيت. وكان إشبينه هو الشاعر الشهير أبوللون نيكولايفيتش مايكوف، صديق فيودور ميخايلوفيتش (كما حدث مع ابنتنا قبل ذلك) واختار فيودور ميخايلوفيتش ابنته لوباتشكا، التي لم تتجاوز العامين، لتكون هي الإشيينة له.

في نهاية شهر أغسطس سافر زوجي إلى موسكو ليتقاضى أجره عن رواية «الشياطين» التي صدرت في عام ١٨٧١ م.^٢ لم يكن مبلغًا كبيرًا على أية حال، لكنه أتاح لنا إمكانية الانتقال إلى شقة شتوية. وكانت مشكلتنا الكبرى أنه ليس لدينا أي أثاث أو لوازم منزلية. عندئذٍ خطرت ببالي فكرة الذهاب إلى سوق أبراكسين وسؤال تجار الأثاث هناك إن كانوا يُوافقون على أن يبيعوا لنا أثاثًا بالتقسيط، بحيث يكون القسط الشهري خمسة وعشرين روبلاً، على أن يظل هذا الأثاث ملكًا للبائع حتى بلوغ الأقساط أجلها. وقد وجدت تاجرًا وافق على هذه الشروط وسلمنا على الفور أثاثًا قيمته أربعمائة روبل. ويا له من أثاث! كان جديدًا لكنه كان جميعه مصنوعًا من خشب الحور والصنوبر، سيئ الصنع، ناهيك عن طرازه السخيف، حتى إنه تفسخ كله في غضون ثلاث سنواتٍ وراح يتهاوى، وكان علينا أن نستبدل به آخر جديدًا. ولكنني كنت سعيدة بهذا الأثاث: لقد ساعدنا في تكوين شقتنا الخاصة. لقد كان من المستحيل أن نعيش في غرفٍ مفروشة؛ فضلًا عن المتاعب التي واجهتنا، كان صياح أطفال الجيران وبكاؤهم يمنع زوجي من النوم والعمل. رحْتُ أبحث عن شقة، بعد أن اتفقتُ على شراء أثاث جديد. وقد عرض بافل ألكسندروفيتش عليَّ المساعدة. وفي نفس اليوم مساءً أعلن أنه وجد شقةً ممتازة من ثماني غرفٍ إيجارها زهيد؛ مائة روبل في الشهر.

سألته بدهشة: وما حاجتنا إلى شقةٍ كبيرة كهذه؟

— ليست كبيرة على الإطلاق: سيكون لكم غرفة استقبال، غرفة مكتب، غرفة للنوم وأخرى للأطفال؛ ولنا غرفة استقبال وغرفة مكتب وغرفة للنوم، أما غرفة المائدة فمشتركة بيننا.

^٢ لم يسافر دستوفسكي إلى موسكو «في نهاية أغسطس»، وإنما سافر إليها في نهاية يوليو-أوائل أغسطس لاستلام مُستحقاقاته المالية من هيئة تحرير «البشير الروسي». ويتضح من خطاب دستوفسكي إلى صوفيا إيفانوفنا المؤرخ التاسع من أغسطس ١٨٧١ م أنه أقام في بطرسبورج عدة أيام بعد رحلته إلى موسكو (الخطابات، المجلد الثاني، ص ٣٦٨).

صدمتني وقاحتُه فقلت له: وهل تعتزم أن تعيش معنا؟

- وهل هناك حلٌّ آخر؟ هذا ما أخبرتُ به زوجتي: عندما يعود أبي سنعيش معاً.

هنا كان عليّ أن أتحدّث معه بشدّة وأن أثبت له أن الظروف الآن تغيرت، وأنني لا أوافق أن أعيش في شقّةٍ مشتركةٍ مهما كانت الظروف. وكعادته بدأ بافل ألكسندروفيتش يتحدث بوقاحةٍ ويهددني بأنه سيشكوني إلى فيودور ميخايلوفيتش، ولكنني لم أصغ إلى كلامه. إن سنواتٍ أربعاً من الاستقلال لم تذهب هباءً. أما بافل ألكسندروفيتش فقد شرع في تنفيذ تهديده وذهب إلى فيودور ميخايلوفيتش، الذي أجابه بقوله: لقد سلمتُ كل شئون المنزل إلى زوجتي، وما ستُقرره هو الذي سيُنَفَّذ.

ولزمنٍ طويل لم يكن باستطاعة بافل ألكسندروفيتش أن يغفر لي انهيار خُططه.

وبعد بحثٍ طويل عثرتُ على شقّة في شارع صربوخوفسكايا بالقرب من معهد التكنولوجيا، في منزل أرخانجلسكايا، وقد استأجرته باسمي حتى أوَفّر على زوجي عناء الأمور المنزلية. كانت الشقّة مكوّنةً من أربع غرف: المكتب، حيث كان فيودور ميخايلوفيتش يعمل وينام، وغرفة استقبال، وواحدة للمائدة وأخرى رحبة للأطفال حيث أنام.

على الرغم من سوء حالة ما نملكه من أثاث. فقد كنتُ أطمئن نفسي بأننا لن نكون بحاجةٍ إلى شراء أدوات منزلية أو أغطية للفراش؛ إذ إنها كانت موزعةً على عددٍ من الأشخاص يحفظونها لنا. ولكن، يا للأسف، لقد كان بانتظاري هنا خيبة أمل.

كانت أدوات المطبخ والأواني النحاسية لبيتنا محفوظةً لدى إحدى معارفنا، وهي فتاة تخطّت سن الزواج، وقد تُوفيت في أثناء سفرنا وقد أخذتُ أختها معها ما تبقى من متاعها إلى الريف دون أن تنتظر إلى ما لها وما هو غيرها. كانت معاطفنا المصنوعة من الفراء مرهونة لدى إحدى السيدات، التي كانت تتولّى دفع نسبةٍ من المال مقابل الرهن، وعلى الرغم من أننا كنا حريصين على إرسال المال اللازم لها، فإنها لم تلتزم بالسداد فضاعت. تهشمت الأواني الزجاجية والصينية التي سلّمانها لأختي ماريا جريجوريفنا لتحفظها لديها على يد خادمتها التي انزلقت قدمُها وهي تحملها على صينيةٍ كبيرة لغسلها. وهذه كانت تُمثّل لي خسارة كبرى: كان أبي خبيراً ومُثمناً للأواني الصينية، وكان يعشق الذهاب إلى محلات الأشياء القديمة ويقتني منها القطع الرائعة. وقد آل إليّ بعد وفاته نصيبني من هذه الأشياء الذي تمثّل في عددٍ من الأكواب صناعة Vieux-Saxe، وطقم من زمن القيصر نيكولاي، وكذلك إناء زجاجي مُضلع قديم. وما زلتُ آسفة على فقدان تلك الأكواب

الجميلة المزينة برسوم لرعاة، وهذا الكوب المرسوم عليه ذبابة بلغت من الدقة أن كل من شرب منه كان يهشُّها وكأن الحياة قد دبَّت فيها. لقد كنت على استعداد أن أدفع ما لديّ لأستعيد ذكريات الطفولة الغالية!

وقد تعرضت أشياء فيودور ميخايلوفيتش لنفس المصير المحزن. كانت لديه مكتبة رائعة، كان يتحرَّق إليها شوقاً ونحن في الخارج، وكانت تضمُّ كتباً بإهداء أصدقائه من الكُتَّاب؛ بالإضافة إلى العديد من الكُتب في فروع التاريخ والديانات القديمة التي كان فيودور ميخايلوفيتش يهتمُّ بها اهتماماً شديداً. ولدى رحيلنا طلب بافل ألكسندروفيتش من زوجي أن يترك له مكتبته في رعايته مؤكداً أنها ضرورية لتعلُّمه، ووعده أنه سيُعيدها إليه سليمة، ولكن اتضح أنه كان يبيعها، كتاباً وراء الآخر لمحال الكُتب، كلما احتاج إلى نقود. وعندما وبَّختُه على ذلك أجاب بوقاحة قائلاً: إننا السبب في ذلك، إذ لم نُرسل إليه نقوداً في الموعد المناسب.

كان فيودور ميخايلوفيتش حزيناً بشدة على فقدانه هذه المكتبة الثمينة. والآن لم يعد بإمكانه أن ينفق مالاً كثيراً، كما كان يفعل من قبل، على شراء مثل هذه الكتب التي هو في مَسيس الحاجة إليها؛ وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت مكتبته تضمُّ عدداً من الكتب النادرة، التي يصعب شراؤها.^٢

كانت مفاجأة سارة لنا أن نعثر على سلة كبيرة مجدولة تحتوي على أوراق كانت محفوظة لدى بعض أقاربنا. وعندما فحصنا محتوياتها، وجدتُ بها عدداً من دفاتر مخطوطات فيودور ميخايلوفيتش تخصُّ رواية «الجريمة والعقاب» وبعض القصص وعدداً من الدفاتر الخاصة بإدارة مجلتي «الزمن» و«العصر» التي تركها ميخائيل ميخايلوفيتش بعد وفاته، كما وجدنا عدداً هائلاً من المراسلات المختلفة.^٤ وقد أفادتنا هذه

^٢ في ربيع عام ١٩١٧م، عثر ليونيد جروسمان، في أثناء عمله في دراسة محفوظات دستوفسكي في متحف التاريخ بموسكو على الدفتر الذي سجَّلت فيه أنا جريجوريفنا قائمة بأسماء الكتب الموجودة في مكتبة دستوفسكي في الفترة الأخيرة من حياته. (انظر: ل. ب. جروسمان، مكتبة دستوفسكي (مواد لم تُنشر وملاحق قائمة مكتبة دستوفسكي)، أوديسا، ١٩١٩م).

^٤ دفتر المذكرات الخاص برواية «الجريمة والعقاب»، مواد لم تُنشر، موسكو، ليننجراد (معهد الدولة للأدب).

الأوراق والوثائق فائدةً كبيرة في مستقبل حياتنا، عندما تعين علينا إثبات أو نفي أي من الحقائق المتعلقة بحياة فيودور ميخايلوفيتش.

٢

في سبتمبر من عام ١٨٧١م نقلت إحدى الصحف لقراءها خبراً حول عودة الكاتب دستوفسكي من الخارج، وهو خبر كان ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. فسرعان ما انشقت الأرض عن الدائنين، الذين كانوا صامتين حتى الآن، جاءوا يطالبون بسداد ديونهم. وكان أول المطالبين وأكثرهم وعيداً هو جينترشتاين.^٥ لم يكن هذا السيد يستهدف فيودور ميخايلوفيتش شخصياً، ولم يكن يُولي أدنى اهتمام لقضايا المجلات، وإنما كان هدفه الاستيلاء على مصنع التبغ الذي كان يملكه أخوه المتوفى.

كان ميخائيل ميخايلوفيتش إنساناً طموحاً، فبالإضافة إلى المجلة، كان يمتلك مصنعا للتبغ. وحتى يضمن توزيعاً كبيراً للتبغ خصص بعض الجوائز على هيئة مقصات وأمواس حلاقة وبراءات وما إلى ذلك كان يضعها في الصناديق مع السجائر. كانت هذه الهدايا تحوز إعجاب كثير من المشترين. كان ميخائيل ميخايلوفيتش يشتري هذه الأشياء المعدنية من تاجر الجملة جينترشتاين، وكان هذا يبيعها بالدين ويتقاضى نسبةً على ذلك لا بأس بها. وعندما كان الإقبال على الاشتراك في مجلة «الزمن» كبيراً، كان ميخائيل ميخايلوفيتش يُسوي حساباته تدريجياً مع جينترشتاين، الذي كان يُعتبر أكثر دائنيه تعنتاً. وقد أخبر ميخائيل ميخايلوفيتش زوجته وأخاه فيودور ميخايلوفيتش قبل وفاته بأيام أنه «قد تخلص أخيراً من هذا العَلَقَة المدعو جينترشتاين».

ما إن توفي أخوه حتى انتقلت كل الديون إلى فيودور ميخايلوفيتش، وهنا جاءته السيدة جينترشتاين وأخبرته أن ميخائيل ميخايلوفيتش لا يزال مديناً لها بحوالي ألفي روبل. تذكر فيودور ميخايلوفيتش ما قاله أخوه له بشأن سداده كل ديون جينترشتاين وأخبرها بذلك، لكنها أجابت بأن هذا دين آخر، وأنها أعطت ميخائيل ميخايلوفيتش هذا المال دون أية وثائق. راحت السيدة جينترشتاين تتوسل إلى فيودور ميخايلوفيتش وتسأله إما أن يعطيها المال أو يكتب لها كمبيالات به، راحت تنتحب وركعت على ركبتيها مؤكدةً

^٥ جينترشتاين: تاجر جملة في بطرسبورج.

له أن زوجها سيُكدر حياتها. كان فيودور ميخايلوفيتش يثق دائماً في نزاهة الناس، صدّقها وأعطاهما كمبيالتين كل واحدة قيمتها ألف روبل. تم سداد الأولى قبل نهاية عام ١٨٦٧م، أما الثانية والتي تصل قيمتها بالفوائد خلال خمس سنوات إلى ألف ومائتي روبل فقد طلب السيد جينترشتاين سدادها بعد عودتنا. وقد أرسل لنا خطاب تهديد، فذهب إليه فيودور ميخايلوفيتش يطلب منه تأجيل السداد إلى رأس السنة بعد أن يتسلم أجره على روايته، لكنه عاد يائساً؛ لقد أخبره جينترشتاين أنه ليس ببنّيته أن ينتظر أكثر من ذلك وأنه قرر أن يحجز على كل منقولاته، فإذا لم تغطّ هذه المنقولات قيمة الديون، فإنه سيحبسه في قسم الديون.^٦

وهل سيكون بإمكانني وأنا محبوس في قسم الديون، بعيداً عن أسرتي، مع غرباء من شتى الأنواع، أن أعمل بالأدب؟ — هكذا قال له فيودور ميخايلوفيتش — وكيف سأدفع لك إذا ما أفقدتني القدرة على العمل؟

أوه، إنك أديب مشهور، وأنا أعول على أن الصندوق الأدبي سوف يفتديك على الفور من السجن — أجاب جينترشتاين.

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش آنذاك يُحب العاملين بالصندوق الأدبي. وقد عبر عن شكوكه حول إمكانية تقديم أي مساعدة له، وحتى لو كانوا سيفعلون فإنه (كما أخبر جينترشتاين) يُفضل الحبس في قسم الديون على أن يقبل هذه المساعدة.

قضينا وقتاً طويلاً نتباحث أنا وزوجي حول أفضل الوسائل لحل هذه المشكلة، وقرّرنا أن نقترح على جينترشتاين صفقة جديدة: أن نُقدم له الآن مائة روبل، وأن نقترح عليه سداد خمسمائة روبل كل شهر، ثم نُسدّد له المبلغ المتبقي بعد رأس السنة. مرة

^٦ هكذا كان يُسمّى القسم الملحق بالسرية الأولى لفوج إسماعيلوفسكي، الكائن في منزل تاراسوف حيث يُحتجز الأشخاص المحبوسون على ذمة الديون (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستويفسكايا). *

* ورد ذكر بيت تاراسوف للديون، الذي هدد دستويفسكي أكثر من مرة، في خطابات. على سبيل المثال، كتب دستويفسكي إلى مايكوف في السادس عشر من أغسطس ١٨٦٧م يقول: «الحقيقة أن قسم الديون (ولا أقول هذا على سبيل السخرية) كان مُفيداً للغاية لي. كان من الممكن أن تصل ديوني إلى ما لا يقل عن أربعة أو خمسة آلاف روبل، وكنت قد تزوجت لتوّي، وكان السؤال الذي لا إجابة له لديّ، هل سأتحمل الصيف الخانق في سجن تاراسوف؟ إذا كان عليّ أن أكتب هناك، إذا كان ذلك مُستحيلاً في ظروف النوبات الشديدة التي تُداهمني، فكيف إذن سوف أسدد ديوني؟» (الخطابات، المجلد الثاني، ٢٥-٢٦).

ثانية يذهب زوجي بهذا الاقتراح إلى جينترشتاين، لكنه يعود وقد استشاط غضبًا. وعلى حدّ قوله، فإن جينترشتاين قال له بعد حديثٍ طويل: ها أنت ذا أديب روسي موهوب! أما أنا فتاجر ألماني صغير، وأريد أن أريك أن باستطاعتي أن أزجّ بأديبٍ روسي مشهور في سجن الديون. كُن على ثقة أنني سأفعل ذلك.

حدث ذلك بعد الانتصار في الحرب الفرنسية-البروسية،^٧ عندما أصبح كل الألمان يشعرون بالفخر والتعالي.

كنتُ شديدة الاستياء بسبب معاملة فيودور ميخايلوفيتش على هذا النحو، ولكنني كنتُ أدرك أننا وقعنا في يد سافلٍ وأنا لا نملك إمكانيةً للخلاص منه. كنتُ أستشعر أن جينترشتاين لن يكتفي بالتهديد وحده، فقررتُ أن أحاول أن أسوي هذا الأمر دون أن أُخبر زوجي عن نيتي (كان على الأرجح سيمنعني من تنفيذها) في الذهاب بنفسني إلى جينترشتاين.

قابلني بصلفٍ قائلاً: إما النقود على المائدة، وإما سأقوم بالحجز على منقولاتكم لتُباع في مزادٍ علني، وعندها سيُسجن زوجك في منزل تاراسوف.^٨

— إن شققتنا مؤجرة باسمي لا باسم فيودور ميخايلوفيتش — أجبتُه ببرود — كما أن الأثاث اشتريناه بالأجل، وهو ملك لتاجر الأثاث إلى أن يتمّ سداد ثمنه نهائياً، ولذلك لا يُمكنك الحجز عليه. وحتى أثبت له ذلك، عرضتُ عليه عقد الشقة ونسخةً من التعاقد مع تاجر الأثاث.

واصلت حديثي قائلة: أما بخصوص تهديدك بقسم الديون، فإنني أُحذرك أنه إذا حدث ذلك فسوف أطلب من زوجي أن يبقى فيه حتى انقضاء موعد ديونك.^٩ وسأبقى إلى جواره، وسوف نزوره أنا والأطفال ونشدُّ من أزره ونُساعده على العمل. وهكذا لن تنال قرشاً واحداً، وعلاوة على هذا وذاك فسوف تكون مُضطراً أن تدفع ثمن «الجرية»!^{١٠}

^٧ الحرب الفرنسية-البروسية ١٨٧٠-١٨٧١م: اندلعت هذه الحرب بين فرنسا الطموحة لفرض سيادتها على أوروبا وإعاقه وحدة ألمانيا، وبين بروسيا التي توحدت مع عددٍ من الدول الجرمانية الأخرى. في سياق هذه الحرب سقطت الإمبراطورية الثانية في فرنسا، وتم اتحاد ألمانيا برئاسة بروسيا. (المترجم)

^٨ هكذا كانوا يُسمون قسم الديون (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٩ بقاء المدين في قسم الديون يُسقط الدّين. وعلى المدين بمبلغ ١٢٠٠ روبل أن يقضي فيه من ٩ إلى ١٤ شهراً (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{١٠} كان على الدائن أن يدفع نفقات المدين المسجون من جانبه (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

هنا راح جينترشتاين يشكو من نكران جميل فيودور ميخايلوفيتش الراض لدفع الديون، التي صبر عليها طويلاً.

— كلاً، بل أنت الذي عليه أن يُقدر جميل زوجي الذي أعطى لزوجتك كمبيالات بالديون، التي ربما تكون قد دُفعت منذ زمن بعيد — قلتُ له ذلك في غضب — وإذا كان فيودور ميخايلوفيتش قد فعل ذلك، فقد فعله بشهامةٍ وعطف. لقد راحت زوجتك تبكي أمامه وقالت إنك ستُكدر حياتها. فإذا ما تجرأت على أن تُنفذ تهديدك، فسوف أكتب كل ما حدث وأرسله إلى صحيفة «ابن الوطن» حتى يرى الجميع مواهب الألمان «الشرفاء»! لم أكن في وعيي وكنتُ أتحدث دون أن أُلقي بالاً لما أقول. وقد ساعدني حماسي هذه المرة. جَبُنَ الألماني وسألني ماذا أريد؟

— نفس ما طلبه منك زوجي بالأمس؟

— حسناً، إذن، أعطني النقود!

طلبتُ منه أيضاً مفصلاً باتفاقنا، فقد خشيتُ أن يتراجع جينترشتاين فيما بعدُ ويبدأ مرةً أخرى في تعذيبنا. عدتُ إلى البيت منتصرة، وقد تأكدتُ أنني خلال فترةٍ قصيرة سوف أُعيد إلى زوجي السكينة والهدوء.

٣

قبل أن أتحدث عن صراعنا مع الدائنين، والذي استمر بعد ذلك لمدة عشر سنوات، وحتى وفاة فيودور ميخايلوفيتش، أودُّ أن أشرح بصورة محددة كيف ظهرت هذه الديون التي عذبتُ علينا.

كان أقل هذه الديون هي تلك التي تخصُ فيودور ميخايلوفيتش على نحوٍ شخصي تبلغُ ألفين أو ثلاثة آلاف. أما الجزء الأكبر من الديون فيرجع السبب فيه أساساً إلى مصنع التبغ ومجلة «الزمن».^{١١} فبعد الوفاة المفاجئة لميخائيل ميخايلوفيتش (الذي مرض لا أكثر من ثلاثة أيام فقط) أصبحتُ أسرته؛ زوجته وأربعة أطفال، اعتادوا على حياةٍ ميسورة، إن لم تكن مُرفهةً أحياناً، دون أدنى مُورد. كان فيودور ميخايلوفيتش آنذاك أرمِل ولم يكن لديه أطفال، فاعتبر أن من واجبه أن يُسدّد ديون أخيه وأن يؤازر أسرته في محنتها.

^{١١} انظر [الجزء الثاني، التعرف على دستوفسكي والزواج منه، التعليق رقم ١٤].

كان بإمكانه أن ينجح في تنفيذ نيّاته النبيلة، لو أنه كان يمتلك شخصيةً حذرة وعملية. لكنه للأسف كان يثق إلى حدٍّ كبير في إخلاص الناس وأمانتهم. وقد تسنّى لي فيما بعد أن أستمع إلى حكايات شهودٍ عيان حول كيف راح فيودور ميخايلوفيتش يُحرر الكمبيالات، وقد علمتُ أيضًا من الخطابات القديمة تفاصيل العديد من الحقائق، هزّني بشدة فيها ما ينمُّ عن سلوكه الطفولي البريء المفتقد إلى أي خبرةٍ عملية. كان الجميع، من الذين انعدمت ضمائرهم، يَخدعون ويأخذون منه الكمبيالات. لم يكن فيودور ميخايلوفيتش في حياة أخيه يتدخّل في الجانب المالي ولم يكن يعرف إلى أين وصلت الأمور. وبعد أن تُوفي ميخائيل ميخايلوفيتش اضطرّ زوجي لأن يتولّى إصدار مجلة «العصر»، ومن ثم كان عليه أن يتولّى أيضًا أمر تسوية الديون التي لم تُسدّد نتيجة إصدار مجلة «الزمن»، مثل الطباعة والورق والتجليد وما إلى ذلك. ولكن، وبالإضافة إلى مُوظفي مجلة «الزمن» الذين كان فيودور ميخايلوفيتش يعرفهم، بدأ أناس آخرون في الظهور، معظمهم مجهولون تمامًا بالنسبة إليه، وهؤلاء كانوا يؤكّدون أن المرحوم ميخائيل ميخايلوفيتش مدين لهم. لم يُكلف أحدٌ منهم تقريبًا مشقة أن يُقدّم إثباتًا واحدًا، كما لم يطلب فيودور ميخايلوفيتش من أحد أن يُقدّم ما يؤكد أن له دينًا. كان زوجي يضع ثقته التامة في أمانتهم. كان عادة ما يقول للسائل (كما وصل إليّ): ليس لدي مال إطلاقًا في الوقت الحالي، ولكن، إذا شئت، أستطيع أن أُحرّر لك كمبيالة. ولكني أرجوك ألا تُطالبني بسدادها سريعًا. سوف أُسّدها عندما أستطيع.

كان الناس يأخذون الكمبيالات ويعدونه أنهم سينتظرون، لكنهم، بطبيعة الحال، لم يكونوا يُوفون بعهدهم. وسرعان ما يُطالبون بحقوقهم.

سأورد في هذا السياق حادثةً تسنّى لي أن أتتبع صحتها استنادًا إلى الوثائق.

ذات يوم جاء إلى فيودور ميخايلوفيتش كاتبٌ مُتواضع الموهبة يدعى X، كان ينشر أعماله في مجلة «الزمن»، يطلبُ منه أن يُسّدّد له مائتين وخمسين روبلاً مقابل قصة نشرها X في المجلة في حياة ميخائيل ميخايلوفيتش. وكالعادة، لم يكن لدى زوجي نقود، فاقترح عليه أن يُعطيه كمبيالة. شكره X بحرارة ووعد أن ينتظر حتى تتحسنّ أحوال فيودور ميخايلوفيتش، وطلب منه أن يُحرّر الكمبيالة دون موعدٍ مُحدد للسداد حتى لا تكون هناك ضرورة أن يُبرزها للاعتراض عندما يحين موعد سدادها. وكم كانت دهشة فيودور ميخايلوفيتش عندما طُلب منه سدادها وإلاّ حجز على منقولاته. ذهب فيودور

مياخيلوفيتش إلى X يستفسر منه عن الأمر. أبدى X امتعاضه وراح يُبرر ويؤكد أن صاحبة البيت هددت بطرده من الشقة، فوجد نفسه مضطراً أن يُعطيها كمبيالة فيودور مياخيلوفيتش، بعد أن انتزع منها وعداً أن تصبر على طلب سدادها. وقد وعد أن يتحدث معها ليُقنعها وهلمَّ جراً. وبطبيعة الحال لم تسفر المفاوضات عن شيء، واضطر فيودور مياخيلوفيتش، أن يقترض مبلغاً بفوائد كبيرة ليُسدد دينه.

وبعد مرور ثمانية أعوام. كنتُ أراجع، لسبب ما، أوراق فيودور مياخيلوفيتش، وإذا بي أعتزُّ على دفترٍ من دفاتر إدارة هيئة تحرير «الزمن». وكما كانت دهشتي وغضبي عندما وجدتُ فيه إيصالاً موقَّعاً من الكاتب X باستلامه مبلغاً من مياخيل مياخيلوفيتش مقابل قصته! عرضتُ الإيصال على زوجي لأسمع منه الجواب التالي: لم أكن أظنُّ أن X قادر على خداعي! ما الذي يدفع الإنسان إلى هذا الشطط؟!

أعتقد أن الجزء الأكبر من الديون التي تحمَّل أعباءها فيودور مياخيلوفيتش كانت من هذا النوع. بلغت هذه الديون عشرين ألفاً،^{١٢} ووصلت بالفوائد لدى عودتنا من الخارج حوالي خمسة وعشرين ألفاً، كان علينا أن نُسدِّدها خلال ثلاثة عشر عاماً. وقد استطعنا في النهاية، وقبل عامٍ واحد فقط من وفاة زوجي، أن نُسدِّدها وأن يُصبح بمقدورنا أن نتنفس الصعداء، دون خوفٍ من تحذيراتٍ أو مذكراتٍ أو تهديداتٍ بالحجز وبيع المنقولات وما إلى ذلك.

كان على فيودور مياخيلوفيتش أن يعمل فوق طاقته، بل وأن يتخلى عن حاجاته الضرورية وعن راحته؛ فضلاً عن حاجات أسرته الضرورية وراحتها، من أجل سداد هذه الديون الوهمية.

لقد كان بمقدورنا أن نعيش هذه الأعوام الأربعة عشر من حياتنا الزوجية أكثر سعادةً وأكثر رضاً وسكينة، لو لم يَظل أمر سداد هذه الديون شوكَةً في جانبنا. كم كنَّا سنجنى من أرباحٍ من وراء أعمال زوجي الفنية، لو لم يأخذ على عاتقه سداد هذه الديون! لو استطاع كتابة رواياته دون تسرُّع! لو أُتيح له الوقت لمراجعتها وتهذيبها قبل أن يدفع بها إلى المطبعة! كثيراً ما تُقارن المراجع والجمهور أيضاً أعمال دستوفسكي بأعمال غيره من الكتاب الموهوبين، فيأخذون عليه شدة تعقيد وتشوُّش

^{١٢} انظر [الجزء الثاني، التعرف على دستوفسكي والزواج منه، التعليق رقم ١٤].

رواياته وضخامتها، بينما يبدو إبداع الآخرين أكثر رصانة، كما نرى عند تورجينيف، على سبيل المثال، إتقاناً كإتقان صائغي المجوهرات. وهؤلاء نادرًا ما يخطر ببال أحدهم أن يتذكّر وأن يُقدر تلك الظروف التي عاشها وعمل فيها الكتاب الآخرون، وتلك التي عاش وعمل فيها زوجي. جميعهم تقريبًا (تولستوي، تورجينيف، جونتشاروف) كانوا أصحاء، يعيشون في رغد، لديهم المقدرة على أن يفكروا ويُنقحوا أعمالهم. أما فيودور ميخايلوفيتش فكان يُعاني من مرضين عُضال،^{١٢} يحمل على كاهله عبء عائلة كبيرة وديون ثقيلة، مهموم بالتفكير في قوت يومه وما يحمله له الغد من أحداث. كيف لرجل في مثل هذه الظروف أن يتمكن من مراجعة أعماله؟ كم مرة، على مدى الأربعة عشر عامًا الأخيرة من حياته، ظهر له فصلان أو ثلاثة من رواية له في المجلة، بينما كان الفصل الرابع يتمّ جمعه وصفّه في المطبعة، ويكون الفصل الخامس في طريقه بالبريد إلى «البشير الروسي»، أما باقي الفصول التي لم تُكتب بعد فتكون ما تزال مجرد أفكار. وما أكثر ما اكتشف فيودور ميخايلوفيتش فجأة خطأ واضحًا بعد قراءته فصلًا من فصول إحدى رواياته ثم نشره بالفعل، فيسقط في اليأس مُدركًا أنه أفسد الفكرة التي كان يقصدها. أه لو كان بإمكانني استرجاعه — على هذا النحو كان يتحدث أسفًا —، لو كان بإمكانني تصحيحه! الآن أرى أين تكمن المشكلة، لماذا لم أنجح في هذه الرواية. ربما بسبب هذا الخطأ قتلتُ «فكرتي» تمامًا.

كان حزنه حقيقيًا، حزنَ فنانٍ رأى بشكلٍ واضحٍ موضع خطئه، الذي لم يعد يملك إمكانية تصحيحه، ولن تتاح له للأسف هذه الإمكانية مطلقًا: كانت الحاجة للمال مُلحة لمواصلة الحياة ولسداد الديون، ومن ثم كان مضطرًا، على الرغم من مرضه، أن يتعجّل في مواصلة العمل، أحيانًا في اليوم التالي لنوبة الصرع، فيراجع المخطوطة بالكاد، من أجل أن يُرسلها في الموعد ليتمكن من أن يتسلّم المقابل المادي بأسرع ما يمكن. لم يتمكن فيودور ميخايلوفيتش طوال حياته أن يكتب إطلاقًا عملاً واحدًا على مهلٍ ودون تعجّل (باستثناء قصته الأولى «الفقراء») أو أن يُمعن التفكير في خطة روايته وأن يُمحّص تفاصيلها كلها. لم يهب القدرُ فيودور ميخايلوفيتش هذه السعادة الكبرى، التي كانت دائمًا حلمه الحميم الذي لم يُحققه، وا أسفاه، أبدًا!

^{١٢} الصرع وتمتدُّ أوعية الرئة. (المترجم)

ألحقت الديون التي أثقل سداها كاهل فيودور ميخايلوفيتش ضرراً شديداً به من الناحية الاقتصادية: ففي الوقت الذي كان فيه كُتَّابُ أثرياء (تورجينييف، تولستوي، جونتشاروف) يعلمون أن رواياتهم سوف تتنازع على نشرها المجلات، وأن كلاً منهم سيتقاضى خمسمائة روبل على الملزمة،^{١٤} بينما على دستويفسكي المعوز أن يعرض عمله بنفسه على المجلات. ولما كان العارض هو الخاسر دائماً، فقد كان يتقاضى من المجلات مبالغ أقل بكثير. فقد أخذ على الملزمة مائة وخمسين روبلاً في روايات «الجريمة والعقاب» و«الأبله» و«الشياطين» ومائتين وخمسين روبلاً على الملزمة في رواية «المراهق»، وكانت الرواية الوحيدة التي أخذ على الملزمة فيها ثلاثمائة روبل، هي روايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف».

يا له من شعور مرير يتصاعد داخلي، كلما تذكرت كيف أفست ديون «الآخرين» حياتي الشخصية، ديون شخص لم أره مُطلقاً في حياتي؛ بالإضافة إلى الديون الوهمية المُمثلة في كمبيالات أخذها على زوجي أناس لا أخلاق لهم. كانت حياتي كلها آنذاك تُحيطها الكآبة من طول التفكير في كيفية الحصول على هذا القدر الكبير من النقود، أين وبأي سعر يُمكنني رهن هذا الشيء أو ذاك، على أي نحو أتصرف كي لا يعرف فيودور ميخايلوفيتش شيئاً عن زيارتي للدائنين، أو عن شيءٍ ما قمت برهنه. على هذا النحو انقضى شبابي وأنهكت صحتي وأتلفت أعصابي.

ولعل من أكثر الأشياء مدعاةً للأسف كان التفكير في أن نصف هذه المصائب، كان من الممكن تجنبها لو أننا وجدنا من بين أصدقاء زوجي أناساً طيبين، لديهم الرغبة في أن يأخذوا بيد فيودور ميخايلوفيتش، الذي تورط في إصدار مجلة وهو شأن لا يعرفه. كنت أتصور دائماً أنه من غير المفهوم، بل ومن القسوة، أن الأشخاص الذين كان دستويفسكي يعتبرهم أصدقاءه،^{١٥} وكانوا يعرفون افتقاده الطفولي البريء للخبرة العملية، وثقته المفرطة في الآخرين واعتلال صحته، يمكن أن يتركوه وحيداً في مواجهة كل هذه الادعاءات والديون التي خلفها ميخائيل ميخايلوفيتش بعد وفاته. هل من المعقول أنهم لم يستطيعوا أن يُساعدوه في النظر في هذه الادعاءات، وأن يطلبوا من أصحابها

^{١٤} انظر [الجزء الثاني، التعرف على دستويفسكي والزواج منه، التعليق رقم ٦٥].

^{١٥} المقصود أبوللون ميكوف ونيكولاي ستراخوف.

إثبات صحة الدّين؟ كنت على يقين أن العديد من هذه الادعاءات لم تكن لتظهر إذا ما أصبح من المعروف أن فيودور ميخايلوفيتش، حسن النية، لن يقوم وحده بفحصها. وحسرتاه! لم يكن هناك بين أصدقاء زوجي ومُعجبيه شخص واحد مُخلص، توفّرت لديه الرغبة أن يُضحى بوقته وأن يُقدم له خدمة حقيقية. جميعهم كانوا يُشفقون على فيودور ميخايلوفيتش ويتعاطفون معه، لكن كل ذلك كان «كلام، كلام، كلام».

سيقولون، ربما، إن أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش كانوا شعراء وروائيين، وأنهم لا يفهمون في شئون الحياة العملية. وأجيب على ذلك بأن كل هؤلاء الأشخاص كانوا ماهرين للغاية في تدبير أمورهم الشخصية. وقد يعترضون، ربما، أن فيودور ميخايلوفيتش كان يرغب في الاستقلال، ولم يسمح أن يتلقّى تعليماتٍ من غرباء. لكن هذا الاعتراض غير صحيح، لقد فوّضني فيودور ميخايلوفيتش عن طيب خاطر في كل شئونه، وكان يستمع إلى نصائحي ويعمل بها، على الرغم من أنه كان في البداية غير قادرٍ على التسليم بخبرتي العملية. بنفس هذه الثقة كان فيودور ميخايلوفيتش سيلجأ لتلقّي العون من أصدقائه لو أن هذا العون قد عرض عليه. أفكر وأنا أشعر بالأسف المرير من أجل فيودور ميخايلوفيتش في أصدقاء وعلاقات ودّية من هذا القبيل.

٤

في الأيام الأولى بعد عودتنا إلى روسيا كنتُ آمل أن أُسدّد جزءًا من الديون، بعد أن أبيع البيت الذي خُصّص لي كصدّاق. انتظرتُ بفارغ الصبر عودة أُمي من درزدن، وكانت قد سافرت لحضور زفاف أخي، وعودة أُختي من روما، وهي التي كانت تشرف، في غياب أُمي، على كل بيوتنا. وقد وعدت أن تُعطينا كشوف حسابات إدارتها لهذه البيوت بمجرد عودتها في الربيع، لكنها أُصيبت بالتيفود في الربيع وتوفّيت في الأول من مايو عام ١٨٧٢م في روما. وقد علّمتنا بعد وفاتها أنها أعطت زوجها منذ فترةٍ بعيدةً توكيلًا عامًا لإدارة شئونها، وقد قام زوجها بدوره، وكان كثيرًا ما يسافر بعيدًا عن بطرسبورج بصحبة زوجته، بتفويض أحد أصدقائه بالقيام بشئون الإدارة، وقد راح هذا السيد يستغلّ الدخول التي تُدرها هذه البيوت على مدى ثلاث أو أربع سنوات، دون أن يرى ضرورة لأن يُسدّد الضرائب المُستحقة لخزانة الدولة. تراكمت الضرائب المُتأخّرة وتم عرض البيوت للبيع

بالمزاد العلني. وهكذا لم يتبقَّ لدينا أيُّ موارد لدفع الضرائب المتأخرة وإنقاذ البيوت من المزاد، لكننا كنّا نأمل أن يتمَّ شراؤها بسعرٍ جيد فيتوفر لدى أُمِّي مبلغٌ تُعطيه لي عوضاً عن البيت الذي كانت قد وعدتني به. للأسف الشديد فالسيد الذي تولَّى إدارة بيوتنا عقد اتفاقاتٍ شكليةً مع أشخاصٍ صوريين، زعم أنه أجر لهم البيوت لمدة عشر سنوات، وأنه تسلَّم قيمة الإيجار منهم مُقدِّماً. وقد اكتشفنا معالم هذه الصفقة فقط أثناء المزادات؛ بداهةً فإن البيوت لم تجد من يرغب في شرائها. آنذاك قام هذا السافل بوضع يده عليها بعد أن دفع الضرائب المتأخرة للخزانة العامة، أي أنه استولى مقابل بضعة آلافٍ على ثلاثة بيوت ومُلاحقين كبيرين وقطعة أرض كبيرة. وهكذا لم يتبقَّ لنا، أنا وأُمِّي وأُخي، أيُّ نصيب. كان باستطاعتنا، بطبيعة الحال، أن نرفع دعوى قضائية، لكن لم نكن نملك مالاً لذلك؛ فضلاً عن أن رفع الدعوى كان يعني أن نُلقي بالمسئولية على زوج أختي، مما يعني أن ندخل في صدامٍ معه لن يؤدي بنا إلّا لأن نفقد إمكانية رؤية أطفالٍ يتامى نُحبهم حباً جماً. كان من الصعب عليّ التخلّي عن الأمل الوحيد لإصلاح ظروفنا المؤسفة!

في البداية سمحتُ للدائنين بالتفاوض مع فيودور ميخايلوفيتش، لكن نتائج هذه المفاوضات جاءت على أسوأ ما يكون: تحدّث الدائنون مع زوجي بوقاحةٍ وهُدّوه بالحجز على أثاثنا وإرساله إلى قسم الديون. أحسَّ فيودور ميخايلوفيتش بعد هذه الأحاديث باليأس الشديد، وراح يذرع الغرفة وهو يشدُّ شعر فوديه (وهي الحركة التي اعتاد أن يأتي بها عندما يكون مُضطرباً بقوة) وراح يُكرر: إذن ما العمل، ما الذي علينا أن نعمله الآن؟!

وفي اليوم التالي داهمته نوبة الصرع.

كنتُ مشفقةً بشدة على زوجي المسكين، ودون أن أخبره، قررتُ التفاوض مع الدائنين بمفردتي. يا له من صنفٍ عجيب من الناس، أولئك الذين حضروا إليّ خلال تلك الفترة! كانوا، بشكلٍ رئيسي، سماسرة كميالات، أرامل مُوظَّفين يؤجِّرن غرفاً مفروشة، ضباطاً مُتقاعدين من أصحاب الرُتب الدنيا. جميعهم اشتروا الكميالات بثمنٍ بخس، وهم يريدون الآن استعادة قيمتها كاملة. هدّدوني بالحجز والسجن، ولكنني كنتُ قد عرفتُ كيف أتحدّث معهم. كانت حججي هي نفسها التي استخدمتها في مفاوضاتي مع جينترشتاين. وعندما رأى الدائنون أن التهديد لن يجدي، وافقوا على التوقيع معي على اتفاقٍ مُفصّل بدلاً من الكميالات التي وقَّعها فيودور ميخايلوفيتش. ولكن كم كان من

الصعب عليّ سداد المبالغ في الموعد المتفق عليه! وكم من الحيل لجأت إليها: الاقتراض من الأقارب، رهن الأشياء، وحرمانني والأسرة من كثيرٍ من الضروريات!

لم نكن نتلقّى المال بشكلٍ منتظم، وكان الأمر يتوقف كليّةً على نجاح عمل فيودور ميخايلوفيتش. كنا نضطر أحياناً أن نستدين لدفع إيجار الشقة والمحلات، وعندما نتسلّم نقوداً، أربعمئة أو خمسمئة روبل دفعة واحدة (كان زوجي يُعطيها لي دائماً)، لم يكن يتبقى منها في اليوم التالي سوى عشرين أو ثلاثين روبلاً.

لم يكن من الممكن ألا يدخل الدائنون إلى البيت أحياناً، دون أن يلحظهم زوجي. كان يستجوبني عن هذا أو ذاك ولأيّ غرض جاء، وعندما كان يُلاحظ عدم رغبتني في الإجابة، كان يُعاتبني على كتمانني. وقد انعكست شكواه في عددٍ من خطاباتهِ. على أنه لم يكن باستطاعتي أن أكون صريحةً دوماً مع فيودور ميخايلوفيتش. كان بحاجة ماسّةً إلى الهدوء لإنجاز عمله، وكانت المصائب عادةً ما تُصيبه بنوبات الصرع، وهذه كانت تعوقه عن الاستمرار في عمله. لقد اضطررتُ أن أخفي عنه كل شيءٍ بإتقان، وأن أبعد عنه كل ما من شأنه أن يُثير قلقه واضطرابه أو يُسبب له الحزن، مخاطرةً بذلك أن أبدو أمامه امرأة تخفي عنه أسراراً. كم كان عملاً شاقاً! وقد كان عليّ أن أعيش هذه الحياة ثلاثة عشر عاماً تقريباً!

ينتابني الحزن أيضاً عندما أتذكر طلبات أقارب زوجي الفظة. وعلى الرغم من قلة مواردنا، كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أنه ليس من حقّه أن يتخلّى عن مساعدة أخيه نيكولاي ميخايلوفيتش (كوليا)، وربيبه، وأقارب آخرين في بعض الحالات الاستثنائية. وإلى جانب تخصيصه مبلغاً ثابتاً (خمسین روبلاً شهرياً) للأخ «كوليا»، فقد كان هذا الأخ يأخذ خمسة روبلات في كل زيارة لنا.^{١٦} كان إنساناً طيباً وتعيساً، أحببته لطيبته ورقته، ومع ذلك كنتُ أغضب كلما جاء لزيارتنا لأسبابٍ واهية متنوعة: تهنئة الأطفال بأعياد

^{١٦} نيكولاي ميخايلوفيتش دستوفسكي، الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي، كان مُهندساً مدنياً ومعمارياً، عمل في البداية في ريفيل، ثم في بطرسبورج، ولكنه أصبح بلا عمل منذ بداية الستينيات بسبب المرض. كان دستوفسكي يُعامله على نحوٍ خاصٍّ بكل مودة وتعاطف، وكان يمدُّ له يدُ العون دائماً، وقد عاش نيكولاي ميخايلوفيتش طوال حياته في فقر مُدقع.

لزيدٍ من التفاصيل عن نيكولاي ميخايلوفيتش دستوفسكي انظر: فولوتسكي (شجرة عائلة دستوفسكي، المترجم) ص ٣٤٨-٣٥٥.

ميلادهم، أو لقلقه على صحة زوجي، وهلمَّ جرًّا. لم يكن بُخلًا مِنِّي، وإنما كان يؤرِّقني أنَّ البيت ليس فيه سوى عشرين روبلاً، وأنَّ غداً موعد سداد مبلغ لشخص ما، وأنني سأضطر عندئذٍ أن أرهن شيئاً من أشياءنا.

كان أكثر من يبعث في نفسي الاضطراب هو بافل ألكسندروفيتش. كان يأتي لا ليطلب وإنما ليأمر، وكان مُقتنعاً أشد الاقتناع أنه يملك الحقَّ في ذلك.

وفي كل مرة يتسلَّم فيها فيودور ميخايلوفيتش مبلغاً كبيراً، كان يُعطي ربيبه حتماً مبلغاً محترماً. ولكن ما أكثر ما كانت تظهر لديه دائماً احتياجات استثنائية فكان يأتي إلى زوج أمه طلباً للنقود، على الرغم من علمه التام بصعوبة أحوالنا المادية.

— حسناً، ماذا عن بابا؟ ماذا عن صحته؟ (كان يسألني وهو يذلف إلى الداخل) لا بدَّ أن أتحدَّث معه: يلزمني أربعون روبلاً على وجه السرعة.

— أنت تعرف أن كاتكوف لم يرسل شيئاً وليس لدينا نقود، هكذا أجبتُه، لقد رهنْتُ اليوم بروشي مقابل خمسةٍ وعشرين روبلاً. انظر، ها هو الإيصال!

— وماذا في ذلك! ارهني شيئاً آخر.

— كل ما لديَّ مرهون.

— لديَّ نفقات ضرورية (تحدث الريبب بإصرار).

— انتظر حتى نتلقَى نقوداً.

— لا أستطيع تأجيلها.

— ولكنني لا أملك نقوداً الآن!

— وما شأنِي بذلك! ابحثي في أيِّ مكان.

رحتُ أحاول إقناع بافل ألكسندروفيتش أن يطلب من زوج أمه لا أربعين روبلاً، إذ إننا لا نملكها، وإنما خمسة عشر روبلاً، حتى يتبقَّى لنا ولو خمسة روبلات لنفقات الغد. وبعد توسُّلاتٍ طويلة تنازل بافل ألكسندروفيتش مُعتبراً أنه بذلك قد قدَّم لي خدمةً كبيرة. أعطيتُ زوجي خمسة عشر روبلاً لربيبه، وأنا أفكر في حزن، أن هذه النقود كان يُمكن أن تجعلنا نعيش ثلاثة أيامٍ في هدوء، أما الآن فينبغي عليَّ الذهاب غداً مرة أخرى لرهن شيءٍ ما. لا أستطيع أن أنسى مقدار الحزن والأذى الذي سبَّبه لي هذا الشخص عديم الذوق.

لعل البعض سيُبدي تعجُّبه، لِمَ لم أحتج على مثل هذا الطلب اللفظ للنقود؟ لو أنني تشاجرتُ مع بافل ألكسندروفيتش، لسارع يشكوني إلى فيودور ميخايلوفيتش، وقد

يُحرّف القول ليبدو مظلومًا. فيقع الشجار، وكل ذلك قد يؤثر على زوجي بصورة سيئة. وحتى أُجنبه الإزعاج، كنتُ أفضل أن ألتزم الصبر وأن أتحمل الأمر حتى يسود السلام أسرتنا.

على الرغم من إلحاح الدائنين السمج ونقص النقود المستمر، كنت على أي حال أُنذّر بسعادة بالغة شتاء عامي ١٨٧١-١٨٧٢ م. شيء وحيد ترجع إليه هذه السعادة، هو أننا عُدنا من جديد إلى الوطن، لنُصبح بين الروس، يُحيط بنا كل شيء روسي. كان هذا بالنسبة لي مصدر سعادة عظيمة. وكان فيودور ميخايلوفيتش مسرورًا أيضًا إلى حد كبير بعودته وتمكّنه من رؤية أصدقائه، وأن تُتاح له الفرصة أن يُراقب عن كثب، وهو الشيء الأهم بالنسبة له، سريان الحياة الروسية، التي كان يشعر أنه ابتعد عنها بعض الشيء. جدّد فيودور ميخايلوفيتش معرفته بالكثيرين من أصدقائه القدامى، ووجد لدى قريبه البروفيسور م. إ. فلاديسلافيف^{١٧} فرصة الالتقاء بالعديد من رجالات الوسط العلمي. وكان فيودور ميخايلوفيتش يتحدث بشغف^{١٨} واهتمام خاص مع أحد

^{١٧} فلاديسلافيف، ميخائيل إيفانوفيتش (١٨٤٠-١٨٩٠م): فيلسوف مثالي، أستاذ بجامعة بطرسبورج، عمل بمجلتي «الزمن» و«العصر»، زوج ماريا ميخايلوفنا دستوفسكايا، ابنة أخ فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي.

^{١٨} من الأمور التي قاربت بين فاسيلي فاسيليفيتش جريجوريف وبين دستوفسكي، إيمان الأول بالنزعة السلافية واهتمام الثاني بالشرق ورسالة روسيا تجاهه (إن روسيا دولة أوروبية وآسيوية عظمى في نفس الوقت). يري أ. س. دولينين أن ف. ف. جريجوريف كان له بعض التأثير على دستوفسكي من خلال مقالاته (وخاصة مجموعة مقالاته بعنوان «روسيا وآسيا»، سان بطرسبورج، ١٨٧٥م)، وقد ظهر هذا التأثير في المقالات السياسية الساخرة في «مذكرة الكاتب» حيث يدور الحديث عن «المسألة الشرقية». ويشير أ. س. دولينين كذلك إلى التقارب بين السمات الشخصية التي تميز ت. ن. جرانوفسكي باعتباره عالمًا في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٦م (والتي وردت في المقالات المعنونة «المثاليون الكليون» و«هل من العار أن يكون المرء مثاليًا؟») فيما يخصّ المسألة الشرقية والمقالات المبكرة التي كتبها جريجوريف والتي كان لها دويّ هائل في حينه: «ت. ن. جرانوفسكي قبل أن يعمل أستاذًا جامعيًا في موسكو» (مجلة «روسكايا بيسييدا» «الحوار الروسي»، ١٨٥٦م)، ويذكر أن «شخصية جرانوفسكي التي رسمها جريجوريف، تمتلك صفات مشتركة مع شخصية س. ت. فيرخوفينسكي (في رواية «الشياطين») والتي تدفع المرء لأن يفكر على الفور دون إرادة منه، في إمكانية تعرّف دستوفسكي على هذه المقالات، وربما مع كاتبها، قبل سفر (دستوفسكي) إلى الخارج (الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٩٨).

هؤلاء العلماء وهو ف. ف. جريجوريف^{١٩} (عالم الدراسات الشرقية)، كما تعرف لدى الأمير فلاديسلاف ميشيرسكي،^{٢٠} صاحب دار نشر «المواطن»،^{٢١} على فيليبوف^{٢٢،٢٣} ومع كل أفراد الحلقة، التي كانت تتناول طعام الغداء كلَّ أربعاء في بيت ميشيرسكي، وهنا التقى بالسيد بوبيدونوستسيف،^{٢٤} الذي توثقت صلته به بشكل كبير فيما بعد، واستمرت صداقتهما حتى وفاته.^{٢٥}

^{١٩} جريجوريف فاسيليفيتش (١٨١٦-١٨٨١م): عالم في الدراسات الشرقية، أستاذ بجامعة بطرسبورج، كاتب، من أصحاب النزعة السلافية، تعرّف على دستوفسكي بعد عودته من الخارج.
^{٢٠} ميشيرسكي، فلاديمير بتروفيتش (أمير): (١٨٣٩-١٩١٤م): كاتب، ناشر، أصدر جريدة/مجلة «المواطن».

^{٢١} لمزيد من التفاصيل حول فلاديمير بتروفيتش ميشيرسكي وعمل دستوفسكي بمجلة «المواطن»، انظر بقية النص في مذكرات أنا جريجوريفنا (الفصل السادس) [الجزء الثاني، التعرف على دستوفسكي والزواج منه، التعليق رقم ٦٥].

^{٢٢} كان الكاتب تيرتي إيفانوفيتش فيليبوف شخصية اجتماعية وحكومية بارزة في حلقة مجلة «موسكفيتانين الشاب». وقد ترك فيليبوف أثرًا قويًا للغاية على أبوللون مايكوف وأستروفسكي وبيسيمسكي وبوجودين بأفكاره ذات النزعة السلافية بشأن ضرورة عودة روسيا إلى البناء الاجتماعي ونسق الحياة قبل عصر بطرس، وإلى أيام كوتوشخين «بنظامها الأبوي وكنائسها». وقد كان لأفكار ت. إ. فيليبوف، ذات الأفكار والمفاهيم السلافية الخاصة بالمسألة الشرقية والكنيسة، تأثير كبير على دستوفسكي في عصر «أنصار الأرض» (الأرجح بمشاركة مايكوف وجريجوريف). وفي نوفمبر ١٨٧١م يتوجه دستوفسكي إلى ت. إ. فيليبوف طلبًا للمشورة عن طريق أبوللون مايكوف، باعتبار فيليبوف عالمًا مرموقًا في تاريخ الكنيسة، ومنذ هذه الفترة بدأ بين دستوفسكي وبينه تقارب روحي وصداقة (انظر «التراث الأدبي»، الجزء الخامس، ص ١٤٩-١٥٦، حيث نشرت خطابات ن. إ. فيليبوف إلى دستوفسكي).
^{٢٣} فيليبوف، تيرتي إيفانوفيتش (١٨٢٥-١٨٩٩م): شخصية اجتماعية بارزة، أديب، من أنصار النزعة السلافية.

^{٢٤} بوبيدونوستسيف، قنسطنطين بتروفيتش (١٨٢٧-١٩٠٧م): شخصية حكومية بارزة، كاتب، أستاذ بجامعة موسكو (١٨٦٠-١٨٦٩م)، عضو مجلس الشيوخ (من ١٧٦٨م)، عضو مجلس الدولة (من ١٨٧٢م)، نائب المدعي العام (١٨٨٠-١٩٠٥م).

^{٢٥} كان قنسطنطين بوبيدونوستسيف، الذي توطدت علاقته بدستوفسكي، يدعم علاقته بالكاتب إبان سنوات عمله في «المواطن» وحتى وفاته. وكان بينهما، على حدّ تعبير بوبيدونوستسيف، «أحاديث ودية كثيرة»؛ ويؤكد على هذا القول كلُّ الخطابات المتبادلة بين الرجلين: كان دستوفسكي يتابع باهتمام كبير كل ما ينشره بوبيدونوستسيف، ويشاركه الرأي في معظم ميوله السياسية ويُعبر عن تعاطفه مع

أذكر أنه في هذا الشتاء وصل إلى بطرسبورج دانيليفسكي، الذي كان يعيش في القرم بشكل دائم. وكان فيودور ميخايلوفيتش يعرفه منذ شبابه المبكر، عندما كان ما يزال مُولعاً بتعاليم فورييه، وكان آنذاك يُقدر تقديرًا رفيعاً كتابه «روسيا وأوروبا». وقد أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يصل ما انقطع بينهما من معرفة،^{٢٦} فدعاه إلى مأدبة غداء لدينا

وجهاً نظره، وخاصة وجهة النظر التي ترى ضرورة إقامة نظام ملكي قوي في روسيا وتقوية الكنيسة الأرثوذكسية. كان بوبيدونوستسيف يعلق آمالاً كبيراً على دستوفسكي، محاولاً التأثير على اتجاه إبداعه، ساعياً لاستغلال موهبة الكاتب لأهداف وقائية. بعد وفاة دستوفسكي كتب بوبيدونوستسيف إلى ألكسندر الثالث (وكان ما يزال ولياً للعهد): «إن موت دستوفسكي هو خسارة كبيرة لروسيا. لقد كان الوحيد تقريباً بين الأدباء الذي يمكن اعتباره داعية متحمساً لمبادئ الإيمان الأساسية وللقومية وحُب الوطن. لقد كان شاباً البائس، الضال مثل الأغنام بلا راع، يوليه ثقته، لقد كان عمله عظيماً، مفعمًا بحب الخير.» (الأرشيف الأحمر)، ١٩٢٣م، المجلد الثاني، ص ٢٥٢). في واقع الأمر كان من الممكن أن يكون بوبيدونوستسيف راضياً، على نحو ما، بصاحب «مذكرة الكاتب»، لقد كان بوبيدونوستسيف يقصد تحديداً التوجهات الرجعية لكتابات دستوفسكي في السبعينيات في خطابه إلى ألكسندر الثالث. لكن دستوفسكي الفنان والروائي أشاع بكتابات الخوف في بلاط القيصر، وقد انعكس ذلك بشكل واضح في الخطاب الذي أرسله بوبيدونوستسيف إلى دستوفسكي يعبر فيه عن رأيه في الجزء الخامس من «الإخوة كارامازوف» والمعنون Pro u contra (مع وضد)، حتى إنه نصح الكاتب بحرق كل الصفحات المليئة بالتمرد في الرواية. عندما يفشل الفنان في عمل تمثاله، أو يكون غير راضٍ عنه، فإنه يعيد المعدن مرة أخرى إلى البوتقة. وبالمناسبة، يُمكن أن نقول إن أي فنان يُبدع على طريقته، وأنتم، إذا توخيتم الصبر؛ ربما لن تُضطروا إطلاقاً إلى عدم إخراج عملكم إلى النور.» (التراث الأدبي، المجلد ١٥، ص ١٣٩). حول علاقة دستوفسكي بوبيدونوستسيف انظر مقالات: ل. ب. جروسمان، «دستوفسكي والدوائر الحكومية في السبعينيات»، «التراث الأدبي»، المجلد ١٥؛ R. F. Byrnes Dostoevsky and Pobedonostzev – Essays in Russian and soviet History, New York, 1963, 85-102.

(يقدم الكتاب تحليلاً محدداً لنماذج من مؤلفات كلٍّ من دستوفسكي وبوبيدونوستسيف ويعرض للتشابه والاختلاف في وجهات نظرهما السياسية).

^{٢٦} كان نيكولاي ياكوفليفيتش دانيليفسكي مواظباً في الأربعينيات على زيارة جماعة بتراشيفسكي، حيث راح يدرس بإعجاب مبادئ فورييه (انظر العرض الذي قدّمه لمذهب فورييه في كتاب ف. ليكينا «جماعة بتراشيفسكي»، تحرير: ب. ي. شيجوليف، موسكو، ١٩٢٤م). في عام ١٨٤٩م تم القبض عليه في قضية بتراشيفسكي. وأثناء وجوده في قلعة بتروبا فلوفسك قدم دانيليفسكي طلباً أثبت فيه براءته، وقد أفرجت المحكمة عنه، لكنه نُفي من بطرسبورج إلى فولوجدا ثم نُقل منها إلى سمارة.

وبدأ من عام ١٨٥٣م يعمل دانيليفسكي في مختلف دور النشر وينشر عدداً من المقالات سواء في تخصصه (علم النبات)، أو في موضوعات اجتماعية مختلفة.

هو وبضعة نفر آخرين ممن يتحلّون بالذكاء والموهبة (أذكر منهم مايكوف ولامانسكي^{٢٧} وستراخوف). وقد امتد النقاش بينهم جميعاً حتى وقت متأخر من الليل. وفي هذا الشتاء ذاته طلب ترياتيكونف،^{٢٨} صاحب أشهر قاعة عرض للوحات في موسكو، من زوجي أن يمنحه الفرصة لعمل صورة شخصية (بورتريه) له.^{٢٩} ومن أجل

وفي عام ١٨٦٩م ينشر دانييلفسكي في مجلة «زاريا» (الفجر) عمله الرئيسي: «روسيا وأوروبا» (وقد ظهر في طبعات متعددة عام ١٨٧١م، ١٨٨٨م، ١٨٨٩م). وتشغل فكرة دانييلفسكي حول انهيار أوروبا وعن الخصائص الثابتة لروسيا (الأرثوذكسية وروح الجماعة وهلمّ جرّاً) الجزء الأكبر من الكتاب، وإن لم تُقدم جديداً مقارنة بما عبّر عنه أنصار النزعة السلافية من قبل. وتُعدّ آراء دانييلفسكي السياسية هي الأكثر أصالةً في زمنه، وخاصة المشروع الذي طرحه لحلّ المسألة الشرقية، والذي تمثّل في إنشاء الاتحاد السلافي، بحيث تكون عاصمته هي القسطنطينية. وعن تأثير أعمال دانييلفسكي على آراء دستوففسكي في السبعينيات، الذي بدأ عمله «مذكرة الكاتب» في الظهور بعد أربع سنوات من ظهور كتاب دانييلفسكي «روسيا وأوروبا» انظر كتاب د. ف. جريشين «مذكرة الكاتب» لفيودور دستوففسكي، ملبورن، ١٩٦٦م، ص ١٣٢-١٣٥.

^{٢٧} لامانسكي، فلاديمير إيفانوفيتش (١٨٣٣-١٩١٤م): مؤرخ، أستاذ بجامعة بطرسبورج، تعرف على دستوففسكي في أواخر السبعينيات.

^{٢٨} ترياتيكونف، بافل ميخايلوفيتش (١٨٣٢-١٨٩٨م): مؤسس قاعة ترياتيكونف للأعمال الفنية في موسكو.

^{٢٩} ظلّ بافل ميخايلوفيتش تريتيكونف مؤسس أشهر قاعة عرض للوحات الفنية طوال حياته واحداً من أكثر المُعجّبين بإبداع دستوففسكي (لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: ف. ب. زيلوتي، في بيت ترياتيكونف، نيويورك، ١٩٥٤م، ص ١٨٣-١٨٧). وقد ازدادت العلاقة بينه وبين دستوففسكي توثقاً في موسكو في يونيو عام ١٨٨٠م، عندما شارك في تنظيم احتفالات بوشكين بصفته محافظاً للمدينة. ويشهد على هذه العلاقة الوثيقة خطاباً دستوففسكي إلى ترياتيكونف المؤرخ ١٤ يونيو ١٨٨٠م ثم إلى زوجته فيرا تريتيكونفا المؤرخ ١٣ يونيو ١٨٨٠م (انظر كتاب أ. ب. بوشكين «بافل ميخايلوفيتش ترياتيكونف في الحياة والفن»، موسكو، ١٩٦٠م، ص ٢٣٩-٢٤٠).

كتب ترياتيكونف إلى كرامسكوي خطاباً في الخامس من فبراير ١٨٨١م بعد وفاة دستوففسكي يقول فيه: «ما أكثر ما قيل وما كُتِب عن (دستوففسكي)، ولكن هل يُدرك الناس مدى فداحة الخسارة التي مُنينا بها؟ لقد كان رجلاً روسياً حتى النخاع، إلى جانب كونه كاتباً عظيماً، كان يُقدر وطنه بحماس، على الرغم مما أصاب هذا الوطن من قروح. لم يكن حوارياً فقط كما وصفته، بل كان نبياً ومُعلماً لكل ما هو طيب. كان ضمير مجتمعنا» (مراسلات إ. ن. كرامسكوي وب. م. ترياتيكونف، ١٨٦٩-١٨٨٧م، موسكو، ١٩٥٣م، ص ٢٧٧).

هذا وصل إلى موسكو الفنان الشهير بيروف.^{٣٠} وقبل أن يبدأ في عمله راح بيروف يتردد علينا يومياً على مدى أسبوع؛ وكان يتأمل فيودور ميخايلوفيتش في شتّى أحواله المزاجية، يتحدث معه، يدخل معه في جدل، حتى استطاع أن يلحظ أكثر التعبيرات المميزة لفيدودور ميخايلوفيتش عندما يكون مُستغرقاً في أفكاره الفنية. ربما يمكن القول إن بيروف أمسك في صورته «بلحظة الإبداع عند فيودور ميخايلوفيتش»، وقد لاحظتُ أنا نفسي مراتٍ عديدة هذا التعبير على وجه زوجي، عندما كنتُ أدخل عليه فألحظ أنه كما لو كان «ينظر داخل نفسه» فأترك المكان دون أن أنبس ببنت شقة. ثم أعرف فيما بعد أنه كان مشغولاً بأفكاره، وأنه لم يلحظ دخولي ولم يُصدق حتى أنني جئتُ للاطمئنان عليه.

كان بيروف رجلاً ذكياً وودوداً، وكان زوجي يُحب التحدث إليه.^{٣١} كنتُ دائمة الوجود أثناء جلسات الرسم وما زلتُ أحتفظ لبيروف بأطيب الذكريات. سرعان ما انقضى الشتاء وحل ربيع عام ١٨٧٢م، ومعه دخلت حياتنا أحزان ومصائب كثيرة تركت بعدها، ولسنوات طويلة، آثاراً لا تُنسى.

٥

يقول المثل: «إن المصائب لا تأتي فرادى»، وفي حياة كل إنسان تقريباً زمن يدهمه فيه، ربما لفترة طويلة، مُسلسل من شتّى المصائب والأرزاء التي لم يكن ليتوقعها. وهو نفس ما حدث لنا تماماً. بدأت مصائبنا في نهاية عام ١٨٧٢م، عندما تعثرت ابنتنا ليليا (وكان عمرها آنذاك عامين ونصف العام) وهي تجري في الغرفة لتسقط أمام أعيننا، وعندما

^{٣٠} بيروف، فاسيلي جريجوريفيتش (١٨٣٣-١٨٨٢م): رسام شهير، كتب عنه دستوفسكي عدداً من المقالات في مذكره الكاتب.

^{٣١} عن عمله في رسم صورة دستوفسكي في نهاية أبريل والنصف الأول من مايو ١٨٧٢م كان فاسيلي جريجورييفيتش بيروف يُحيط ترياتيكيوف علماً في خطابه (انظر: خطابات الفنانين إلى ب. م. ترياتيكيوف ١٨٧٠-١٨٧٩م، موسكو، ص ٧٦-٧٧).

وعن إبداع ف. ج. بيروف كتب دستوفسكي مرتين: الأولى بخصوص لوحته «دعوة في الريف» في مقاله: «معرض في أكاديمية الفنون عن العامين ١٨٦٠-١٨٦١م» (المقال ملحق بأعمال دستوفسكي انظر دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الثالث عشر، ص ٥٤٤-٥٤٥). والثانية عن لوحة «صيادون عند الموقف» في «مذكره الكاتب» عن عام ١٨٧٣م في مقاله «بخصوص المعرض» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ٧٣-٧٤).

رأيناها تبكي بشدة، اندفعنا باتجاهها، رفعناها ورُحنا نُهدئُها. لكنها واصلت البكاء ولم تسمح لنا أن نلمس يدها. سارع فيودور ميخايلوفيتش ومعه المربية والخادمة في البحث عن طبيب. وبعد أن استعلم فيودور ميخايلوفيتش من الصيدلية عن عنوان أقرب جراح، أحضره بعد نصف ساعة. وفي نفس الوقت تقريباً أحضرت المربية طبيباً آخر من مستشفى أوبوخوفسكايا. رأى الجراح، بعد أن فحص الذراع المصابة، أنه قد حدث خلع، وعلى الفور جَبَر العظم ولفَّ الذراع في ضمادة سميكة. وقد وافق الطبيب الثاني على رأي الجراح بشأن الخلع وأكد أنه ما دام العظم قد جَبَر فإنه سرعان ما يلتئم. وقد اطمأننا لرأي الطبيبين المختصين ودعونا الجراح لزيارة المريضة، وقد راح يزورنا على مدى أسبوعين كل صباح، فيزيل الضمادة عن ذراعها ويقول إن كل شيء يمضي على ما يُرام. وقد نبهتُ الجراح أنا وفيودور ميخايلوفيتش إلى وجود بعض الورم على مسافة ما يقرب من عشرة سنتيمترات من الكفِّ لونه أزرق قرمزي. وقد أكد الجراح أن الذراع المصابة متورمة كلها وأن ذلك نزيف دموي عادي يحدث بسبب الكدمة وأنه سيختفي بالتدريج. وبسبب اضطرارنا للسفر فقد اقترح علينا الجراح ألا نكفَّ الضمادة أثناء الطريق خشية حدوث أي مضاعفات إلى أن نصل إلى غايتنا. سافرنا في الخامس عشر من مايو عام ١٨٧٢م إلى ستاريا روسا ونحن مطمئنون تماماً من جهة الحادث المؤسف الذي وقع لنا.

تم اختيارنا لهذا المنتج للإقامة الصيفية بناء على نصيحة البروفيسور ميخائيل فلاديسلاف، زوج ماريا ميخايلوفنا، ابنة أخ فيودور ميخايلوفيتش، وقد أكد لنا الزوجان أن الحياة في روسا هادئة وريضة، وأن صحة أبنائهما قد تحسنت بشكل كبير في الصيف الماضي بفضل حمامات الماء المالح. كان فيودور ميخايلوفيتش مهتماً للغاية بصحة أطفالنا فأراد أن يصحبهم إلى روسا وأن يُتيح لهم فرصة الاستفادة من الاستحمام في مياهها. ما تزال رحلتنا الأولى إلى ستاريا روسا عالقة في ذاكرتي واضحة جلية، باعتبارها واحدة من أسعد ذكريات حياتنا العائلية.^{٣٢} وعلى الرغم من أن شتاء عامي ١٨٧١-١٨٧٢م مرَّ بسلام وبصورة ممتعة، ولكننا بدءاً من الصيام الكبير رُحنا نحلم بالرحيل في مطلع الربيع إلى أيِّ مكانٍ بعيد، إلى مكانٍ ناءٍ في زوايا الريف، حيث يُمكن أن نعيش ونعمل

^{٣٢} عن وصول دستوفسكي إلى ستاريا روسا في عام ١٨٧٢م والسنوات التالية، انظر التفاصيل في كتاب: ل. م. راينوس، ف. م. دستوفسكي في ستاريا روسا، ليننجراد، ١٩٦٩م.

معاً بعيداً عن الناس، لا كما نعيش في بطرسبورج، وإنما على النحو الذي اعتدنا عليه في الخارج، يستمتع كل مناُ بصحبة الآخر. وها هو حلمنا يتحقق.

غادرنا ستاريا روسا في صباح يوم دافئ رائع، وبعد ساعات أربع وصلنا إلى محطة سوسنينكا، حيث يمكن منها السفر بالبواخر إلى نوفجورود عبر نهر فولخوف. وهناك علمنا أن الباخرة تغادر في الواحدة بعد منتصف الليل وأن علينا أن ننتظر هنا يوماً كاملاً. أقمنا في نزل صغير، ولما كان الجو في الغرفة خائفاً فقد ذهبنا للنزهة في القرية بصحبة الأطفال ومعنا مربيتهم العجوز. وهنا وقع لنا حادث مُضحك: لم نكن قد تجاوزنا السير حتى منتصف الشارع، حين التقينا امرأة تحمل طفلاً وقد غطت وجهه بقُع حمراء وبثور. تجاوزناها لنُقابل ثلاثة أو أربعة أطفال آخرين تُغطي وجوههم أيضاً بقُع حمراء وبثور، وقد أصابنا هذا المنظر بالإحباط وقادنا إلى فكرة إصابة أطفال القرية بالحصبة، وأن من الممكن أن يُصاب أطفالنا بالعدوى. أمرنا فيودور ميخايلوفيتش بحميةٍ بسرعة العودة إلى المنزل، وهناك سأل صاحبة النزل إن كانت القرية مُصابة بالمرض، ولماذا تنتشر البُقع على وجوه الأطفال. غضبت المرأة وأجابت أن الأطفال ليسوا بمرضى وأن ذلك من أثر «قرصات الناموس». هدأت هذه الإجابة من روعنا بشأن مرض الحصبة، وقبل أن تمر ساعة اقتنعنا أن «البعوض» هو السبب في ذلك بالفعل، إذ راحت وجوه أطفالنا تتشوه بسبب قرصاته. سعدنا إلى الباخرة في منتصف الليل، وضعنا الأطفال في فراشهم ليناموا، جلسنا بعدها على السطح حتى الساعة الثالثة ونحن نتأمل النهر والأشجار التي انتشرت على ضفاف نهر فولخوف. وقبيل الفجر أصبح الجو بارداً فعدت إلى القمرة، بينما بقي فيودور ميخايلوفيتش جالساً في الهواء الطلق: كان يُحب الليالي البيضاء إلى حدٍ كبير!

في السادسة صباحاً أحسستُ أن أحداً ما يُربّت على كتفي. نهضت وسمعت فيودور ميخايلوفيتش يقول: أنيا، اصعدي إلى السطح، انظري كم هو بديع المنظر هناك!

وبالفعل كان المنظر رائعاً، يستحق أن ينسى المرء النوم من أجله. وعندما كنتُ أستمع لذكرياتي فيما بعد عن نوفجورود، كان هذا المنظر يتراءى أمام عيني.

كان صباحاً ربيعياً مُدهشاً، كانت الشمس تُلقي بضوئها الباهر على الضفة المقابلة للنهر وقد ارتفعت فوقه حوائط الكرملين المُسننة وتألقت قباب كاتدرائية صوفيا المُذهبة، وفي هذا الهواء البارد دوى صليل أجراسها مُعلنًا عن صلاة الصبح.

كان فيودور ميخايلوفيتش مُحباً للطبيعة، عالماً بأحوالها، وها هو يمرُّ بفضلها بحالة مزاجية سامية، وقد انعكس هذا المزاج لا إرادياً عليّ أنا أيضاً. جلسنا جنباً إلى جنب مدة

طويلة صامتَيْن، كما لو كنَّا نخشى أن نفقد هذه اللحظات الساحرة، وقد استمرَّ هذا المزاج الطيب معنا طوال اليوم. يا لها من أيامٍ طويلة مضت لم تنعم فيها أرواحنا بمثل هذا الهدوء ولم تَغشَّها هذه السكينة!

عندما استيقظ الأطفال انتقلنا إلى باخرةٍ أخرى اتجهتُ بنا إلى ستاريا روسا. قليلون هم الركاب الذين كانوا على متنها مما أتاح لنا رحلةً مريحة؛ فضلاً عن روعة ما شاهدناه: كانت بحيرة إيلمان ساكنة مثل مرآة، وقد بدت صافية الزرقة بفضل سماءٍ خالية من السحب، حتى إننا تصوّرنا أننا نسبح في بحيرةٍ من بحيرات سويسرا. وقد سارت بنا الباخرة في الساعتَيْن الأخيرَتَيْن عبر نهر بوليست، وهو نهر كثير التعرُّج، وكانت ستاريا روسا تتراءى من بعيد بكنائسها وقد راحت تقترب تارةً وتبتعد تارةً أخرى.

وأخيراً اقتربت الباخرة في الساعة الثالثة من رصيف الميناء. أخذنا متاعنا واستقللنا عربةً مُتوجهين للبحث عن داتشا القس روميا نتسيف^{٣٣} التي استوُجرت لنا (بواسطة أقارب فلاديسلافليف). بالمناسبة لم يستغرق البحث وقتاً طويلاً: ما إن انعطفنا من كورنيش نهر بيريريتيتسا إلى شارع بياشيتسكوي وإذا بالحُوزي يقول لنا: «ها هو الأب يقف عند البوابة، من الواضح أنه ينتظركم منذ فترة طويلة.» وبالفعل، ولعلمه بوصولنا في الخامس عشر من مايو تقريباً ذهب القس وعائلته لينتظرونا، وها هم وقد جلس بعضهم ووقف البعض الآخر عند البوابة. ألقوا علينا بالتحية وقد علَّت وجوههم السعادة لمُقَدِّمنا وقد شعرنا على الفور أننا جئنا أناساً طيبين. بعد أن سلَّم الأب على زوجي في العربة الأولى، اقترب من العربة الثانية حيث أجلس وقد وضعتُ فيديا على يدي، وإذا بهذا الغلام الذي ما يزال يحبو يميل بجسده بمودةٍ إلى الأب وينزع عنه قُبْعته ذات الحواف العريضة ويلقي بها إلى الأرض، ومنذ هذه اللحظة بدأت صداقة فيودور ميخايلوفيتش وصداقتي مع الأب يوحنا روميانتسيف وزوجته الفاضلة، يكاترينا بتروفنا، وهي صداقة امتدَّت عشر سنوات ولم تنتهِ إلا بوفاة هؤلاء الناس المحترمين.^{٣٤}

^{٣٣} روميانتسيف يوهان (إيفان إيفانوفيتش) (؟-١٩٠٤م): قس، راعي الكنيسة في ستاريا روسا. صديق عائلة دستوفسكي.

^{٣٤} بالإضافة إلى الكتاب سابق الذكر لراينوس عن القس إ. روميانتسيف، انظر نعي «صديق دستوفسكي» صحيفة «نوفوستي» (الأخبار)، ١٩٠٥م، ١٢ فبراير، العدد ٣٦؛ ومقاله أ. ف. كروجولوف «رحلة ستاريا روسا». «البشير التاريخي»، ١٨٩٥م، العدد ٤، حيث تتضمن المقالة أيضاً ذكريات موجزة لروميانتسيف نفسه عن لقاءاته بدستوفسكي في ستاريا روسا.

كنا جميعًا مُتعبين من جراء السفر وقد أنهينا يومنا الأول من حياتنا في ستاريا روسا بغبطةٍ ومزاج حسن.

ولكن، يا إلهي! من أين للمرء أن يعرف ما الذي ينتظره في غده القادم! وها هو الغد يأتي ومعه هذا الحادث: في الحادية عشرة صباحًا، وبعد أن تناولنا إفطارنا، كنت أرغب أن أطلق الأطفال إلى الحديقة، ولكن خجلتُ أن يظهر رباط يد ابنتي على هذا النحو من الاتساع. قررتُ أن أشقَّ الضمادة التي لفَّها الجراح حول يديها المصابة ثم أفكها، وكان قد سمح لي بذلك. ويا لهول ما رأيت: لقد فشَّ الورم في الذراع تقريبًا خلال الأيام الماضية، ولكن ظهر واضحًا في المقابل ورم أسفل الكف. في المكان الذي أشرنا إليه أنا وزوجي للجراح في بطرسبورج. بدا أن الورم لم يُعدَّ شيئًا كما كان في أول الأمر وإنما يابس، وقد ظهرت زرقة داكنة في الأصابع، وظهر تقوُّس اليد واضحًا دون لبس، الأمر الذي أصابني بالدهشة. انزعج فيودور ميخايلوفيتش بشدةٍ وتصور أن أمرًا بالغ السوء قد وقع ليد الصبية أثناء رحلتنا الطويلة. استدعينا الأب يوحنا وطلبنا منه أن يُشير علينا بطبيب، وسرعان ما حضر طبيب كان يعيش على مقربةٍ منَّا، وقد أخبرنا أن ما أصاب ذراع الصبية لم يكن مجرد كدمة، وإنما هو كسر في العظم، وحيث إنهم لم يُثبتوه على نحوٍ صحيح ولم يُجبروا الذراع فقد التأم الكسر على نحوٍ خاطئ. أفزعنا حديثه. وقد أجاب الطبيب على سؤالنا حول مصير اليد مُستقبلًا بقوله إن التقوُّس سيزداد، وإن اليد سيُصيبها التشوُّه، وبينما ستنمو اليد اليسرى على نحوٍ طبيعي؛ فإن اليمنى ستتوقف عن النمو، باختصار، سوف تُصاب يد الصبية بالشلل.

يعلم الله وحده ما الذي أصابنا عندما سمعنا أنا وزوجي أن ابنتنا الرقيقة، التي نحبها ونحنو عليها سوف تُصبح معاقة! في البداية لم نُصدق ورُحنا نبحث عن جراح في المدينة. أخبرنا الطبيب أن طبيبًا عسكريًا جراحًا حضر إلى روسا بصحبة الجنود الذين يُرسلون إلى هنا للعلاج بالمياه، غير أنه لا يعرفه شخصيًا وأنه غير مُتأكد من كفاءته. قررنا استدعاء هذا الجراح وطلبنا من الطبيب الانتظار لدينا. ذهب الأب الطبيب للبحث عن الجراح ليعود بعد نصف ساعةٍ ومعه طبيب عسكري. كان مُنتشيًا إلى حدٍّ كبير من أثر الخمر، وقد عثر الأب عليه في الفندق يلعب البلياردو. ولما كان معتادًا على التعامل مع الجنود، لم يفكر في أن يكون أكثر حرصًا مع مريضته الصغيرة فإذا به يضغط على العظمة، التي كانت ما تزال مُصابة، أثناء فحصها بطريقة جعلتها تصرخ بشدةٍ وتروح في بكاء مرير.

للأسف الشديد فقد أكد الطبيب العسكري على رأي زميله،^{٣٥} في كون ما حدث لم يكن كدمة، وإنما كسر أصاب العظم، وحيث إن الأمر قد مضى عليه ثلاثة أسابيع، فقد التأم العظم وأخذ في النمو على نحوٍ خاطئ. وعندما سألنا الطبييين ما الذي علينا أن نفعله الآن، اتَّفقا على أن من الضروري كسر العظم المُلتئم مرة أخرى وأن تُوضَعَ الذراع في جبسٍ ثابت بعد تجميع الشظايا معًا، وعندئذٍ يلتئم العظم على نحوٍ صحيح. وقد نبَّهونا إلى ضرورة إجراء هذه الجراحة على الفور وبأسرع ما يمكن، قبل أن يلتئم العظم بشكلٍ تام. وعندما سألنا الطبييين إن كانت هذه العملية مؤلمة، أجابا مؤكِّدين أنها كذلك، بل إن الجراح أضاف أنه لا يُمكنه تحمُّل مسؤولية إجراءاتها حيث إنه لا يعلم إن كان بمقدور ابنتنا، التي تبدو شاحبةً ضعيفةً، أن تتحمَّل ألم العملية.

أليس من الممكن إجراء العملية تحت تأثير البنج؟ سأل فيودور ميخايلوفيتش، لكنهما أجاباه بأن من الخطر تخدير الأطفال فقد يتعرَّضون للدخول في نومٍ أبدي.

أتذكر كيف اعتصر الألم قلوبنا أنا وزوجي لهول المفاجأة وإلى أي درجة أحسنا بالبؤس. لم نكن نعرف ما الذي علينا أن نُقرِّره، فطلبنا من الطبييين اللذين راحا يتعجلاننا أن يُمهِّلانا يومًا ننظر فيه في الأمر من كل جوانبه. كان وضعنا مأسويًا بكل معنى الكلمة: فمن ناحية، لم يكن من المعقول أن نترك ابنتنا معاقة، وألا نحاول أن نُصلح يدها. ومن ناحية أخرى، كيف لنا أن نأتمن هذا الجراح، الذي قد يكون، فوق ذلك كله، مفتقدًا إلى الخبرة، في إجراء العملية (وقد دفعنا منذ فترة غير بعيدة ثمن ثقتنا!)، ناهيك عن أنه مُحِب للشراب، ثم إنه هو نفسه، وهو الجراح، غير واثق في نجاح العملية (وقد قال حرفيًا: «لا يمكن التأكيد أن اليد ستلتئم على نحوٍ صحيح، وربما نُضطر إلى إعادة العملية.») ولديه شك في قدرة صغيرتنا الحبيبة على تحمُّل هذه العملية المؤلمة؛ كل ذلك دفع بنا للوقوع في مهاوي اليأس. يا إلهي كم عانينا أنا وزوجي في هذا اليوم الكئيب ونحن نُفكر في اتخاذ القرار! راح فيودور ميخايلوفيتش يذرع بسرعة شرفة الحديقة جيئةً وذهابًا في زهول من جراء وطأة الحزن والقلق، وقد أخذ يشد شعر فؤديه وهي علامة من علامات شدة اضطرابه، بينما كنتُ أتوقع بين لحظة وأخرى أن تُداهمه نوبة

^{٣٥} يُدعى طبيب ستاريا روسا أ. أ. رويخل وهو مدير مينيرلني فودي، أما الطبيب العسكري الذي جاء إلى ستاريا روسا فيدعى ن. أ. شينك (انظر بقية النص في «مذكرات» أنا جريجوريفنا المؤرَّخ السابع والعشرين من مايو ١٨٧٢م. الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٨-٣٠).

الصرع، وأنا أنظر إليه تارةً وتارةً أخرى إلى ابنتنا المريضة التي لم تُفارقني لحظةً وهي تبكي أيضًا. باختصار كان الفزع يُحيط بنا من كل جانب! لم ينتشلنا من هذا الغم سوى القس الأب يوهان روميا نتسيف، الذي أصبح صديقنا الصدوق منذ هذه الفترة، بقوله: دعكم وأطباءنا: إنهم لا يفهمون شيئًا، ولا يُحسنون صنعًا: إنهم لا يفعلون شيئًا سوى أن يُعذبوا ابنتكم. الأفضل أن تذهبوا بها إلى بطرسبورج، فإذا احتاجت عملية، فلتُجرها لها هناك.

كان الأب يوهان يتحدث بثقة ويلقي بالحجة تلو الحجة، مما ساعدنا على أن نُقرر السفر إلى بطرسبورج. على أن موانع كبيرة كانت تقف في سبيل سفرنا. خذ مثلًا: كنا قد حزمنا أمرنا على قضاء الصيف في عزلةٍ وهدوء وأن ندّخر بعض الصحة والعافية لمواجهة الشتاء، عثرنا على داتشا جيدة، قطعنا إليها طريقًا شاقًا، وفجأةً نَجِدُنَا مُضطرين جميعًا للعودة إلى بطرسبورج الخائفة، حيث لا نمتلك شقةً بها (كنا قد أجَرناها قبل سفرنا). وقد اضطررنا للبحث عن داتشا أخرى في أي مكان من ضواحي العاصمة، بعد أن دفعنا مائة وخمسين روبلاً إيجارًا للداتشا في روسا، حدث ذلك رغم قلة مواردها المالية وفي الوقت الذي كنا مُجبرين فيه على أن نقتصد في نفقاتنا. وبالإضافة إلى ذلك كنا نشعر بالأسف لترك هذه الداتشا التي أعجبنا، وأن نترك هؤلاء الناس الذين عاملونا بكل طيبة ومودة. اقترح علينا الأب حلًا آخر: أن نسافر مع لوبا وأن نعود بها إلى روسا بعد إجراء العملية، وأن نترك الصبي فيديا مع مُربيته. والطباخة في الداتشا، وقد وعدنا الأب وزوجته، يكاترينا بتروفا أن يقوموا برعاية الطفل ومُربيته طوال فترة غيابنا. وكلاهما، الأب وزوجته، تعاطفا بإخلاص مع مُصيبتنا وأعربا عن استعدادهما لرعاية فيديا وأن بإمكاننا الاطمئنان أنهما سوف يهتمان بالصغير.

تبقي أمامنا أمر واحد كان يُثير قلقنا وهو أن طفلنا كان يبلغ من العمر عشرة أشهر فقط، وكنتُ ما أزال أرضعه. كنا نتمتع كِلانا بصحة جيدة، وكنت عازمة على فطامه عندما تبدأ أسنانه اللبنية في الظهور. وما أنا أضرّ فجأةً أن أترك الطفل، الذي لا يعرف طعامًا آخر سوى الرضاعة. تصورتُ أن التغيير المفاجئ لنظام غذائه سوف يترك تأثيرًا سيئًا عليه. وأنه سيمرض نتيجة لذلك؛ وأن التأثير سيمتدُّ حتمًا إلى صحتي أنا أيضًا عند انقطاعي المفاجئ عن الرضاعة. كل ذلك أصابنا أنا وزوجي بالإحباط، لكننا تغلبنا على خوفنا وشفقتنا على صغيرنا وقرّرنا أن نرحل في اليوم التالي إلى بطرسبورج.

كم كان سفرنا حزينًا! لم أفارق طفلي الغالي طوال الصباح؛ حضر فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة الطفل، وبدا لي أنه لم يستطع أن يُلقي بنظرةٍ على ابنه. وأخيرًا،

عندما حانت لحظة الوداع، أرضعت الطفل للمرة الأخيرة وضممته بشدة إلى صدري. كنتُ أشعر أنني لن أراه مرةً أخرى. جلستُ وزوجي بعدها نُصلي أمام الأيقونة، باركنا طفلنا الذي ابتسم في سعادة، ثم انطلقنا بعد ذلك إلى الباخرة بروح يملؤها القلق والهم. لا بد أن أذكر هنا بكلّ الامتنان والعرفان عائلة روميانتسيف. فبفضل رعايتهم لنا مرّةً الأمر بسلام. لقد أخبروني فيما بعد أن طفلي وقد أصابه الجوع بعد مُغادرتنا، راح يبحث عني وهو يُشير للمربية بأصبعه نحو الباب وهو يعني «هناك». حملته العجوز من غرفته إلى الغرفة الأخرى؛ وعندما لم يجدني بها انهمرت دموعه رافضاً ما قدّموه له من غذاءٍ ولم يَمَ ليلته إطلاقاً. ثم أخذ بعد ذلك في التعوّد على شرب اللبن، وكانت صحته على ما يُرام. لكن أكثر ما حَزَّ في نفسي وآلمني عندما عدتُ إلى روسا بعد ثلاثة أسابيع، وقد أخذني الشوق إلى فيديا بشدة، فإذا به لا يتعرّف علي، أنا أمّه، ولم يأت مُتلهفاً إلى ذراعيّ. لقد استطاع أن ينساني تماماً.

كانت رحلتنا إلى بطرسبورج رحلةً حزينة، ولم يسترِعِ اهتمامنا طوال الطريق لا نهر إيلمين ولا نهر فولخوف. كان اهتمامنا كله منصباً على رعاية ابنتنا. كنا نخشى أن ترقُد ليلاً على ذراعها المريضة فتؤلمها. نظّمنا وقتنا بيني وبين زوجي، فكنا نتبادل الجلوس إلى جوار فراشها كل ساعتين ونحن نتعجّل بصبرٍ نافد أن نصل إلى نهاية هذا الطريق الطويل.

وكما ذكرتُ من قبل، لم تكن لدينا شقة هناك، ومن ثم قرّرنا أن نُقيم في المدينة في شقة أخي إيفان سنينكين، الذي توجّه هو وأمي للسكنى في داتشا في الضواحي. كان يوماً خانقاً شديد الحرارة. وما إن فتحت الخادمة لنا الباب حتى بادرتنا قائلة: إن السيدة العجوز (أمي) مريضة.

– يا إلهي، ماذا بها؟ أين هي؟ في الداتشا؟

– لا، إنها هنا، في الشقة.

دلفُت إلى غرفتها لأراها. كانت نائمة، وهي جالسة على الأريكة وقد علا وجهها الشحوب، بينما كانت قدمها ملفوفةً في ضمادة. بدأتُ أستوضح الأمر فعلمتُ أن حادثاً وقع لها إبّان نقل أثاثنا إلى مخازن كوكوريفسكي. لم تنتبه أمي عندما أسقط الحمال، الذي لا بدّ وأنه كان مخموراً، صندوقاً ثقيلاً على قدمها. كانت إصبع قدمها اليسري مكسورة. وقد أخبرها الطبيب الذي استدعيناه أن الإصبع متقيحة ومنعها من الحركة ووعده بشفائها في ظرف شهر لا أقل. كان لعودتنا المفاجئة ولهذا السبب المفزع أثر بالغ

السوء على أُمِّي، وقد أحنَها بشدة على حفيدتها الوحيدة، التي كانت تُحبها حبًّا جَمًّا. راحت أُمِّي تبكي وقد أصابها الكدر، وإذا بحرارتها ترتفع بشدة، وعندما زارها الطبيب في المساء، قرَّر أن تقرُّح الإصبع قد زاد إلى حدٍّ أنهم قد يُضطرون لبتَرها. يمكن لأيِّ إنسان أن يتصوَّر مدى اليأس الذي وصلت إليه بعد أن علمتُ بهذه المصيبة الجديدة.

بمجرد وصوله إلى المنزل، توجَّه فيودور ميخايلوفيتش إلى إيفان مارتينوفيتش بارتش،^{٣٦} كبير الأطباء بمستشفى ماكسميليانوفسكايا، وكان يُعد آنذاك واحدًا من أفضل جراحِي العاصمة. كان صديقًا قديمًا لفيودور ميخايلوفيتش، الذي لم يكن قد تمكَّن بعد من زيارته بعد عودتنا من الخارج. وعندما وقعت حادثة ذراع ابنتنا، أردنا أن نتوجَّه إلى بارتش، لكن زوجي كان يعلم أن بارتش لن يتقاضى نقودًا مقابل فحص الصبيَّة، وهو أمرٌ بدا مُحرجًا لنا، وفي الوقت نفسه لم يكن بإمكاننا أن نُقدِّم له هديةً مناسبة بدلًا من النقود. كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أن الاستعانة بطبيبٍ شهير مثل بارتش، بعد أن لجأنا إلى جراحٍ ظننَّا أنه خبير؛ هو ببساطة، أمر غير لائق.

استقبل بارتش فيودور ميخايلوفيتش بحفاوة بالغة وعاتبه على عدم حضوره إليه منذ اللحظة الأولى لوقوع الأمر ووعده بزيارته في المساء، وقد حضر بالفعل في الوقت المحدد. وقد نجح في جذب اهتمام ابنتنا بساعته ذات السلسلة، ثم راح ينزع برفق الضمادة عن يدها، حتى دون أن يمَسَّها حتى لا يؤلِّمها. بعدها أعلن مباشرة أن الأطباء في ستاريا روسا قد شخَّصوا الحالة تشخيصًا صحيحًا، وأن العظم قد التأم على نحوٍ خاطئ. ورأى أن من المُستحيل أن تصبح اليد اليمُنَى أقصر من اليسرى، لكنه حذَّر من أنَّ تجويفًا من جانب وبروزًا من جانب الكف سوف يكونان واضحَيْن على أية حال، ولكي يتم إصلاح العيب يجب إعادة كسر العظم وتركه يلتئم بعد عمل ضمادة من الجبس. بادَره فيودور ميخايلوفيتش بقوله إنه يعرف أن العملية مؤلِّمة للغاية ويخشى ألا تتحمَّلها الطفلة.

لكنها لن تشعر بشيء، فسوف تُجرى العملية تحت تأثير المُخدِّر، أجاب بارتش. – لقد أخبرنا الأطباء في ستاريا روسا أن الأطفال الصغار لا ينبغي أن يتعرضوا للتخدير لأنَّه يُمثِّل خطرًا عليهم، قال زوجي.

^{٣٦} إيفان مارتينوفيتش بارتش (١٨٣١-١٨٩٠م): كبير الأطباء بمستشفى ماكسميليانوفسكايا في بطرسبورج.

— حسنًا، لأطباء ستاريا روسا أن يقولوا ما شاءوا بشأن تخدير الأطفال، ابتسم الجراح لهذه الملاحظة، أما نحن فنُخدَّر حتى الأطفال الرُّضّع، وسيمرُّ كل شيء بسلام. وبينما هو يستفسر عن كافة التفاصيل، راح بارتش يُحملق في وجهي باهتمام. لم تغب عن نظرتي الثاقبة حالة الحمى التي كانت تعتريني.

— هل صحتك على ما يرام؟ توجه إليّ سائلًا، لماذا يبدو وجهك مُمتقعًا؟ لعلها الحمى! هنا اضطررتُ للاعتراف بأنني كنتُ أعانى الحمى طوال الليل وأن رأسي كان يؤلمني أثناء النهار وأنني ما زلتُ أشعر بدوار، ثم شرحت له السبب.

انزعج فيودور ميخايلوفيتش بشدةٍ وراح يُعاتبني على إخفائي حالتي المرضية. هدئي من روعك يا سيدتي، قال بارتش، أما ابنتك فسوف نُعالجها، ولكنني لن أقوم بإجراء العملية قبل أن تتعافى أنتِ نفسك. لعلّ لبن الرضاعة يندفع إلى رأسك، وهو أمر لا ينبغي الاستهانة به. اذهبي إلى الصيدلية على الفور لإحضار الدواء الذي سأصفه لك، وعندما علم بارتش أننا نسكن في شقةٍ ليست لنا، وأن لدينا فوق هذا امرأة مريضة، اقترح علينا أن ننتقل لمدة ثلاثة أسابيع إلى مستشفى ماكسيميليانوفسكايا، حيث ستُفرد لنا غرفة مُستقلة. وقد أخبرنا أن العظم لن يلتئم قبل ثلاثة أسابيع وأنه لن يقوم بالعملية إلا إذا بقينا في بطرسبورج طوال الفترة اللازمة للشفاء. كان واضحًا أنه، باعتباره جراحًا ماهرًا، لا يرغب في تحمّل مسؤولية، ربما، فشل العملية بسبب خطأ يُمكن أن يرتكبه طبيب ستاريا روسا إذا ما تابع العلاج هناك وقام بنزع الضمادة فيما بعد. قرّرنا أنا وزوجي على الفور أن ننتقل في اليوم التالي إلى المستشفى وقد وعدنا بارتش أن يُجري الجراحة غدًا إن أمكن.

كان يومًا عصيبًا مليئًا بالشكوك. وصلنا إلى المستشفى في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وسرعان ما انضمَّ إلينا أبوللون نيكولايفيتش مايكوف، إشبين ابنتنا. وكان بارتش قد طلب منا بالأمس أن يحضر أحدًا من أقاربنا أو معارفنا العملية، وقد طلب فيودور ميخايلوفيتش من مايكوف أن يحضر هو العملية.

كان من المقرر أن يُخدروا الفتاة في أثناء نومها المعتاد بعد الإفطار. لكنها كانت مُثارةٌ بسبب انتقالها عبر شوارع المدينة والأماكن والأشياء الجديدة عليها فلم تستطع أن تنام.

عندئذٍ قرّروا تخديرها وهي مُستيقظة. ظهر بارتش في الغرفة ومعه مساعده الدكتور جلاما. وعندما علم بارتش أنني وزوجي ننوي حضور العملية اعترض بشدة.

عفوًا، قال بارتش، أحدكما سيُصاب بإغماء، والآخر بالصرع، وعندئذٍ سنلتفتُ لكما ونترك العملية! كلاً، يجب عليكما أن تخرُجا من هنا، وإذا ما تطلَّب الأمر وجودكما، فسوف آتي لطلبكما.

رسمنا علامة الصليب على ابنتنا عدة مرات وقبَّلناها، ولمَّا بدأت في النوم بتأثير المخدر، أخذها بارتش من يدي ووضعها بحرصٍ في السرير. خرجنا وزوجي من الغرفة والرُّعب يملأ قلوبنا، وقد خامرنا شعور بأننا لن نراها حيَّة مرة أخرى. أخذنا أحد العاملين إلى إحدى الغرف وتركنا وحدنا. كان وجه فيودور ميخايلوفيتش شاحبًا كالموتى؛ وكنتُ من الاضطراب أقف على قدمي بالكاد.

– آنيّا، لنُصلِّ ولنسأل العون من الله، وسوف يُعيننا! قالها زوجي بصوتٍ مُتهدج. ركعنا كلانا ورُحنا نُصلي بحرارة، لعلَّنا لم نصلِّ في حياتنا كلها بهذا الخشوع مثل صلاتنا هذه الدقائق! ما إن انتهينا حتى تناهى إلى أسماعنا صوت خطوات مسرعة، وإذا بمايكوف يدخل إلى الغرفة: اذهبا إلى هناك. بارتش يُناديكما، قال مايكوف.

فكرة وحيدة خطرت ببال فيودور ميخايلوفيتش مثلما خطرت ببالي تمامًا، أن ليليا لم تتحمَّل التخدير وأن بارتش يستدعينا لحضور الدقائق الأخيرة من حياتها. لم أعانِ في حياتي وحتى الآن شعورًا بالرُّعب مثل هذا الشعور: تخيلتُ أمامي صورة موت ابنتنا الكبرى. لحظتها أخذني زوجي من يدي ضاغطًا عليها بعصبية. غدَّنا السير إلى حدِّ الهرولة عبر ممرِّ المستشفى وما إن دخلنا الغرفة حتى رأينا بارتش (دون سترة وقد شمَّر أكمام قميصه)، وكان يبدو قلقًا. دعانا بإشارةٍ من يده لنتقدَّم نحو السرير، الذي كانت تنام عليه الفتاة في هدوء. كانت يدها المكسورة مُستقيمة الآن تمامًا، ليس فيها أي أثرٍ لتورُّم، ملقاةً إلى جانبها وقد وُضعت على وسادة صغيرة.

– حسنًا، انظروا، قال بارتش، ترون أن اليد مُستقيمة تمامًا، ويبدو لي أنكم غير مُصدِّقين؟ والآن ابتعدوا، دعوني أكمل عملي.

وها هو بارتش، في وجود ثلاثتنا، يقوم بربط الضمادة حول اليد وقد أحاطها بالجبس، وقد قام بذلك كله بسرعة كبيرة (سبع دقائق) إلى حدِّ أننا لم نتمكن من إدراك أن العملية قد انتهت بالفعل. طوال الوقت كان جلاما يتابع نبض الفتاة. ثم أخذ بارتش في إفاقتها وطلب منِّي أن أناديها باسمها بصوتٍ مرتفع. لم تستطع أن تستيقظ لمدة طويلة، وعندما عادت لوعيتها أبدت دهشتها وهي تنظر إلى يدها المربوطة بالضمادة وأعلنت أن لديها «شعاعًا» سكريًّا (بلون الجبس).

يا إلهي، كم كنا سعيدين أنا وزوجي إلى حد الجنون. فبعد أن انتهى الأمر، خرج الطبيبان وتركانا وحدنا مع صغيرتنا الحبيبة. من الصعب أن أصف شعور السعادة والهدوء الذي اكتنّفنا. لقد بدا أن كلّ المصائب والهموم قد انزاحت وأنها لن تعود ثانية، ولكن ذلك لم يحدث في الواقع.

بقي فيودور ميخايلوفيتش في بطرسبورج يومًا آخر، حيث إن نتيجة العملية (أي معرفة ما إذا كان العظم سيلتئم على نحو صحيح في هذه المرة) لم تكن لتتضح قبل ثلاثة أسابيع، قرّر فيودور ميخايلوفيتش ألا ينتظر أكثر من ذلك فسافر على الفور إلى روسا يدفعه الشوق الجارف إلى فيديا بعد فراقٍ طويل عنه. أما فيما يتعلق بي فحدثت ولا حرج: كنت أفكر والألم يعترض قلبي كيف أني تركت ابني الغالي دون شفقة أو رحمة. ظلّت الهواجس تتقاذفني خشية أن يكون سوءٌ قد أصابه. ولهذا كنتُ سعيدة أن زوجي أسرع عائداً إلى هناك. كنتُ أعلم أنه أبٌ رءوم وكنت على يقين أنه سيرعى ابننا الحبيب.

أما ما لم أكن أتصوّره أن يتحول بقائي مع ليليا في بطرسبورج إلى عذابٍ مستمر، عذاب عليّ أن أتحملّه. أولاً، كنت أشعر طوال الوقت بالقلق البالغ خشية أن تقع وهي تركز في الغرفة على يديها المصابة، وقد تصطدم بشيء ما فينكسر الجبس، أو تتحرك الضمادة عن موضعها عند أي حركة خاطئة، وعندئذٍ يلتئم العظم مرةً أخرى على نحو خاطئ. كنت أتابعها لحظةً بلحظة، ولمّا كانت فتاتنا شديدة الحيوية والنشاط، فقد أصبحت بسبب خوفي الدائم وتوتري الزائد في حالة عصبية مستمرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد ساء نومي بالليل، فكنتُ أستيقظ كل دقيقة لكي أطمئن عليها وأتأكد أنها لا تنام فوق ذراعها المريضة. ناهيك عن أن ليليا اعتادت الحياة وسط أفراد الأسرة، تنظر فترى بجوارها أباه وأخاها ومربيّتها؛ أما هنا فقد كان مصيرها أن تعيش في وحدة تامة، ولهذا كان من الطبيعي أن تشعر بالوحشة وأن تشاكس وأن تستسلم للبكاء؛ فضلاً عن ذلك كانت المدينة حارةً والجو خانقاً، وكانت رائحة الدواء تنتشر في أنحاء المستشفى. كان عدم الخروج إلى الهواء الطلق مُستحيلاً، وكنت أرغب في زيارة أُمي، التي لم تبرأ بعدُ من مرضها. كان الخروج إلى الشارع يعني زيادة احتمالات السقوط على الأرض وإصابة الطفلة بالكدمات والرضوض. لم تكن لدي القوة لحملها على يدي، ولم يكن بإمكانها أن تمشي لمسافة طويلة، وكان استخدام الحنطور عذاباً حقيقياً، فسواء عند ركوبه أو النزول منه كان من السهل للغاية أن تتعرّض يد الفتاة للأذى.

وإلى جانب الخوف على ليليا، لم أستطع التخلص من التفكير فيما عساه يحدث الآن لزوجي، أليس من الجائز أن يكون قد أصيب بنوبة صرع؟ أحسست من خطاباته أنه يشعر بالوحشة والقلق بشأننا، بينما لم يكن بمقدوري أن أمدّ له يد المساعدة. لقد تعذبت أنا أيضاً بالحنين إلى صغيري، وكنت في غاية الانزعاج في الوقت نفسه بخصوص الجرح القائم في قدم أُمِّي الذي لا يبرأ بل ويزداد ألماً. لهذه الأسباب وغيرها أصبحت أعصابي متوترة، كنت أبكي وأنتحب عدة مرات في اليوم.

لكن المصائب واصلت مطاردتنا. فبعد سفر فيودور ميخايلوفيتش بعدة أيام زارني أخي إيفان جريجوريفتش (كان يتوقع زيارة أحد أقرباء زوجته في القريب العاجل، ولهذا كان بإمكانه أن يغادر الداتشا لفترة قصيرة لزيارة أُمِّي وزيارتي)، وكان يبدو حزيناً مكروباً. رُحْتُ ألح عليه في السؤال إن كان أمرٌ ما قد وقع، فكان يُجيب أن كل شيء على ما يُرام، فزوجته بصحة جيدة، وأُمِّي تحسّنت بعض الشيء، إذن لماذا يبدو مُحبطاً على هذا النحو ولماذا يبدو أحياناً وكأنه على وشك البكاء؟ هكذا رُحْتُ أفكر. لكنه سرعان ما خرج لتُعاودني من جديد فكرة أن يكون مكروبٌ ما قد وقع لفيودور ميخايلوفيتش أو لابني وأن أخي يُخفي عني ذلك. وصل قلقي إلى حدّه الأقصى، فبت لي لي كلّه مسهدة تعبت بي شتّى الهواجس المفزعة. وفي الصباح الباكر أرسلت برقية إلى أخي ليحضر إليّ حتماً. وها هو أخي قد جاء على نفس حالته من الحزن والإحباط التي كان عليها بالأمس. أخبرته بشكوكي حول وقوع مكروهٍ ما لأهلي في روسا وأضفت أنني لا أستطيع أن أتحمّل قلقي عليهم أطول من ذلك، ولهذا سوف أرحل من هنا إليهم أنا وابنتي مُجازفة بإفساد كل ما فعلناه من أجل علاجها. راح أخي يؤكّد لي أنه لم يتلقَ أية أنباء سيئة من روسا وأن لحُزنه سبباً مُختلفاً، وعندما رأى إلحاحي وخشية أن أقرر السفر خوفاً من أن يزيد حزني، قرر أخي في النهاية أن يُخبرني بمكروهٍ جديد أصاب أسرتنا، وهو وفاة أختنا الوحيدة ماريا جريجوريفنا شفانكوفسكايا.^{٢٧} كنا وأخي نُحب ماشا حباً عظيماً وقد صدّمتنا موتها المفاجئ ولم تزل بعدُ في شرخ الشباب. كانت أختنا جميلة، تتمتع بصحة جيدة، امرأة

^{٢٧} في عام ١٨٧١م سافرت ماريا شفانكوفسكايا مع زوجها وطفليها الكبيرين إلى الخارج تاركةً طفليها الصغيرين في بطرسبورج. وفي فبراير ١٨٧٢م استقرّ بهما المقام في روما، حيث أصيبت بعدوى الملاريا أثناء تجوّلها وربما، بالتيفود، كما يرى أطباء آخرون. ظلت مريضةً شهرين ثم تُوفيت في الأول من مايو،

مُحبة للحياة، بلغت الثلاثين منذ أشهرٍ قليلة. وبالإضافة إلى الحزن الشديد الذي شعرنا به لفقدائها. كنتُ وأخي نفكر بقلقٍ بالغٍ في مصير أربعة أطفال تركتهم وراءها وكانت لهم أماً حنوناً. كنّا نُعاني يأساً لا حدود له، وعندما رأتنا ابنتنا نبكي راحت تبكي هي الأخرى. لن يغيب عن ذاكرتي إلى الأبد هذا اليوم الحزين!

بعد انقضاء الدقائق الأولى للحزن، رحْتُ أَسْتَفسر من أخي عن فداحة مُصيبتنا التي لا تَعَوُّض. وقد اتضح أنه ذهب، بناء على طلب أُمِّي، ليعود أطفال أختي، وهناك علم أن زوجها قد عاد لتوّه هذا الصباح فقط من الخارج. ولعلمه أن وفاة أختي سوف تُمثل لي ضربةً قاصمة، خَشِي أخي أن أقع مريضةً من الحزن وعندئذٍ لن يكون هناك من يرعى ابنتي، ومن ثَمَّ قَرَّر ألا يُخبرني. وقد أكد لي أخي أنه الآن أصبح يشعر براحةٍ أكبر بعد أن أصبح باستطاعتي أن أشاطره حزنه وأن يسترشد برأيي فيما يجب عمله. كانت أماننا مهمة ثقيلة كيف نُخبر أَمَّنَا بوفاة ماشا. كانت ابنتها الكبرى الأثيرة لديها، وكنت وأخي نخشى ألا تتحمَّل هذه المصيبة فقد تحدث لها صدمة أو نُجَن.

في البداية قَرَّرنا أنا وأخي أن نُخفي عنها الخبر. وقد فكرتُ أن أقنعها بالسفر معي إلى روسيا ثم أبلغها هناك بالمصيبة بعد أن أُعدها تدريجياً لتلقِّي هذا النبأ الحزين. وكنتُ أعوِّل في هذا على مساعدة زوجي الذي كانت تربطه بأُمِّي صداقةٌ قوية، كما كان له تأثير قوي عليها. لكن فيودور ميخايلوفيتش رفض ذلك رفضاً قاطعاً^{٢٨} هذه الخطوة، ورأى أن ذلك سوف يُعمِّق من حزنها وأقنعنا بضرورة أن نُخبرها على الفور، حيث يُمكنها أن تتقاسم حزنها مع أحفادها الذين تبنَّموا.

ازدادت مُهمتنا صعوبةً وخاصة عندما علم الطبيب المُعالج لها بالمصيبة الجديدة التي حلَّت بنا، فطلب منَّا أن نُخفي عنها الخبر إلى أن يتمَّ شفاء قدمها. وأكد الطبيب لي أن الالتهاب سوف يزداد بلا شك (نتيجة الاضطراب والدموع)، وعندئذٍ قد يُضطر لبرء الإصبع. ما القرار الذي علينا أن نتَّخذه؟ كان هذا هو السؤال المُفزع لي ولأخي. وفي الوقت

ولسبب ما لم يجد زوجها إمكانيةً لإبلاغ الأسرة عن وفاتها، وإنما أخبر أخته التي كانت ترعى طفليه بسرعة عودته (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٨} الخطاب المؤرَّخ ٣٠ مايو ١٨٧٢م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثالث، ص ٣٢-٣٣.

نفسه كانت لدى أخي همومه الثقيلة: كانت زوجته تتوقع أن تلد خلال بضعة أيام؛ ولما كان ذلك هو مولودهما الأول، فقد كان أخي وزوجته في حالة قاسية من الاضطراب، يأملان في أن يمر الأمر بسلام.

أما أنا فكانت لديّ أيضًا أوجاعي: زوجي وابني الغالي، نجاح أو فشل عملية ابنتي ثم مرض أُمِّي، والآن إذا بهذا الهمّ الكبير يُداهمنا! لكن الله يهبّ الصبر على قدر المصيبة! هكذا قرّرنا أن نخفي نبأ وفاة أختي عن أُمِّي، ولكن إلى حين! وكما كان ذلك صعبًا علينا أن نفعل ذلك! كانت أُمِّي تتحدّث عن أختي وكأنها بيننا، وتكتب لها الخطاب تلو الآخر وتُعد من أجلها الهدايا لتعطيها لها عند حضورها. كم عانينا من سماع أحاديثها عن ماشا ونحن نتحدّث بحرص بالغ خشية أن تفلت منا كلمة تشي بنا، وخاصة عندما تُذكرنا هذه الأحاديث بالراحلة فيكاد الدمع عندئذٍ يطفر من أعيننا. كانت أُمِّي تلاحظ أحيانًا أنني أبكي، ولكنني كنتُ أذكر لها أن ذلك من فرط قلقي على نجاح العملية وعلى أحبائي الموجودين في روسيا.

مضى الزمنُ وقرّرنا أن نكشف السرّ الذي كتمناه طويلًا. وإذا بأُمِّي تُقرر فجأة، وقد أحنّنها أنها لم تتلقَ خطابات من أختي المريضة، أن تزور أطفالها الصغار. وعلى الرغم من أننا حاولنا إقناعها بأن سفرها يُمكن أن يضرّ بقدمها، فقد أصرت على رأيها. وفي نفس الوقت تلقينا خطابات من فيودور ميخايلوفيتش اهتزّ على أثرها قرارنا. وأخيرًا حسّمنا موعد السفر. اتفقت مع ممرضة المستشفى أن تُجالس ليليا ساعتين أو ثلاثًا وأن تشغلها باللعب، ولكنها خافت لو تركتها لدقيقة واحدة أن يقع لها مكروه. وقد ترك أخي أيضًا زوجته المريضة وهو في أشدّ حالات الخوف، وهكذا جلسنا جميعًا في العربة وقد اصطحبنا أُمّنا العزيزة مُنجهين لزيارة أطفال أختي الراحلة. كم من الألم عانينا أنا وأخي في هذا اليوم! سرّنا ببطء حتى لا نؤلم قدم أُمِّي المصابة، كنت أشعر تمامًا كما لو كنتُ مُساقفة إلى الإعدام. كنتُ أشعر أن كل دقيقة تمر، كل منعطفٍ نمُرُّ به، هكذا كنتُ أفكر، ربما يأخذنا إلى مصيبة جديدة، بل وربما نصل حتى إلى موت أُمِّي. يا له من رعب! إلى الآن، وبعد مرور سنواتٍ عديدة، ما زلتُ أتصور هذا اليوم كما يتذكر الإنسان كابوسًا ثقيلًا! وصلنا إلى بيت أختي (في شارع مالايا إيتاليانسكيا). سارع كل من الحارس والبواب بحمل أُمِّي إلى الطابق الثاني، بينما هُرعت ابنتا أختي الكبيرتان، لياليا وأوليا، إلى السُّلم لاستقبال أُمِّي. أصابت الدهشة أُمِّي المسكينة لعدم خروج أختي مع الطفلتين لاستقبالها،

وهنا أَحَسَّتْ فجأةً باقتناعٍ عميق أن ابنتَهَا لم تُعَدْ على قيد الحياة (وهو ما أَخْبَرْتَنِي به بعد ذلك).

ماتت ماشا! عزيزتي ماشا ماتت! صاحت أُمِّي في هيسْتيرية وانخرطت في بكاءٍ حار. وكذلك أَخَذَ الأطفال في البكاء، بَكِينًا أَنَا وَأَخِي، ثم خرج بافل جريجوريفيتش^{٣٩} (زوج أَخْتِي) وهو في حالة من الاضطراب الشديد. كان مشهدًا حزينًا بئسًا يقطع نياط القلوب لا يُمكن لأَيِّ كلماتٍ أَنْ تصفه. مرَّت بنا حوالي ساعتين، قبل أَنْ نستعيد رباطة جأشنا. كان علينا أَنْ نُفكر في إعادة أُمِّي إلى منزلها، إذ كان وجودها لدى آل سفانكوفسكي أمرًا لا مَعْنَى له؛ فمن الذي يستطيع هنا أَنْ يقوم على رعاية امرأةٍ مريضة والجميع قد عادوا لتوَّهم من الخارج ولم يتمكَّنوا بعدُ من الراحة من عناء السفر وتهيئة أمورهم. فضلًا عن ذلك كانت أُمِّي ترغب بشدة في العودة إلى منزلها لتنفرد بنفسها (مُتَفَرِّغةً لأحزانها). كما كان من الضروري أَنْ يعود أَخِي إلى زوجته المريضة على وجه السرعة، وأعود أَنَا إلى ليليا في المستشفى، وفي الوقت نفسه لم ينقطع أَيُّ مَنَّا عن البكاء والحزن.

وأخيرًا وافقَت أُمِّي على تَوَسُّلاتنا وعودنا بأن نعود بها ثانية بعد عدة أيام لزيارة الأطفال اليتامى. عُدْنَا على مهلٍ إلى بيتها ومنه توجَّهت إلى المستشفى، ولحُسْنِ الحظ وجدتُ كل شيءٍ على ما يرام: ليليا والممرضة يغطَّان في الفراش في نومٍ عميق. وفي الحال ألبستُ ابنتي وذهبتُ بها لقضاء بقية اليوم عند أُمِّي، بعد أَنْ قرَّرتُ أَلَّا أتركها وحيدةً مع حزنها البالغ. وقد بكينا معًا كثيرًا، وكان مما خَفَّفَ من أحزاني أَنني لم أَضطرَّ أَنْ أُخفي عنها طويلًا هذا الهم الذي ظلَّ جاثمًا على صدرينا أَنَا وَأَخِي.

بعد عودتي إلى روسا ومعِي ليليا ساد الهدوء والسكينة حياتنا بعضًا من الوقت، لكنهما لم يستمرَّا طويلًا نتيجة إصابتي بنزلة بردٍ حادة أصابتنِي (كان صيفًا مُمطرًا باردًا)، وقد أُصِبتُ بخُراجٍ في حلقي مع ارتفاعٍ في الحرارة بلغت أربعين درجة خلال بضعة أيام. كان ن. أ. شينك،^{٤٠} كبير الأطباء العسكريين، الذي وصل إلى ستاريا روسا

^{٣٩} بافل سفانكوفسكي زوج أخت أَنَا جريجوريفنا دستوفسكايا، ماريا جريجوريفنا سفانكوفسكايا (سنيٲٲكنا قبل الزواج) (١٨٤١-١٨٧٢م): موظف، عمل رقيبًا في الفترة من ١٨٦٦-١٨٦٧م.

^{٤٠} ن. أ. شينك (الصواب قنسنطنين ألكسندروفيتش شينك) (١٨٢٩-١٩١٢م): كبير الأطباء في مُستشفى سيميونوفسكايا العسكري في ستاريا روسا. تولى في البداية علاج لوبا ابنة دستوفسكي، ثم علاج زوجته أَنَا جريجوريفنا. (المترجم)

لعمله الموسمي، قد حذر زوجي في يومٍ من أسوأ أيام حياتي، من أنه إذا لم يُشفَ هذا الخراج خلال أربع وعشرين ساعة فإنه غير مسئول عن حياتي، فصحتي منهارة وقلبي يعمل على نحوٍ سيئ. ما إن استمع فيودور ميخايلوفيتش إلى هذا الكلام حتى بلغ به اليأس أشدّه. وحتى لا يُزعجني ذهب بعيداً ليبيكي بين يدي الأب يوحنا. استند إلى المائدة وغطّى وجهه بيديه وراحت الدموع تنهمر من عينيه. اقتربت منه زوجة القس وسألته عما قاله الطبيب. قال لها فيودور ميخايلوفيتش بصوتٍ متقطع من البكاء: سوف تموت أناً جريجوريفنا. ماذا عساي أفعل بدونها؟ وهل بمقدوري أن أعيش بعدها، إنها كل شيءٍ بالنسبة إليّ!

أمسكت السيدة الطيبة به من كتفه وقالت له: لا تبك، فيودور ميخايلوفيتش، لا تجزع، إن الله رحيم ولن يترك أطفالك يتامى.

كان للمشاركة القلبية وإقناع الأم الطيبة أثره الطيب في نفس زوجي وعملاً على رفع معنوياته المنهارة. ظلّ فيودور ميخايلوفيتش يتذكّر بكل امتنانٍ هذا التعاطف من جانب هذه السيدة وكان يكتنّ لها احتراماً شديداً.

يمكن تصور حالة اليأس التي كنتُ أمرُّ بها إبّان مرضي: كنتُ أرى أنّ وضعي الصحي يزداد سوءاً، وعلى مدى بضعة أيامٍ لم أكن أستطيع أن أنطق ولو بكلمة واحدة، فكنتُ أكتب ما أريد على ورقة. كان الطبيب يُسجل درجة حرارتي مرتين يومياً (كان فيودور ميخايلوفيتش يُخفي دائماً عنيّ هذه الورقة، لكن المربية كانت تُحضرها لي بناءً على طلبي لأنظر ما بها، دون أن تُدرك لماذا أطلبها)، كنتُ أفهم بالطبع إلى أين يذهب بنا الأمر. كنتُ أشعر بالأسى لدنو الموت مني. كان أمراً قاسياً أن أترك زوجي وأطفالي الأحباء، وقد رحّتُ أتصوّر على أي نحوٍ من البؤس سوف يعيشون دون أمٍّ مع أبٍ مريض فقير. أي مصير ينتظرهم؟ أما أمي فهي عجوز ومريضة وقد ماتت أختي. كان الأمل معقوداً على أخي الطبيب في أن يرعى أطفالي. كنتُ أشعر بالأسى الشديد على زوجي: من سحّبته، من سيرعاه ويُشاركه عمله ويقاسمه أحزانه؟ ناديتُ زوجي وأطفالي بإشارة. قبلتُهم وباركتهم وكتبتُ تعليماتي لزوجي في حالة وفاتي. على أنني وقبل الأزمة بيومين أصبحتُ أشعر بقدرٍ كبيرٍ من اللامبالاة: بدا كأنني لا أشعر بأيّ أسى على فيودور ميخايلوفيتش ولا الأطفال وكأنني قد غادرت هذا العالم بالفعل.

ولحُسن حظنا جميعًا، فقد حدثت الأزمة في نفس الليلة: سُفي الخراج الموجود في حلقي وبدأتُ في التعافي. وبعد أسبوعين تكرر ظهوره، وفي حلقي مرةً أخرى، ولكن بدرجةٍ بسيطة. وإذا بسلسلة المصائب التي وقعت لنا طوال عام ١٨٧٢م تنتهي تمامًا. لقد كان عليَّ أن أعاني في حياتي فيما بعدُ الكثير من الأحداث المريعة. كانت هناك خسائر فادحة: موت زوجي وابني أليوشا، ولكن هذه المصائب لم تتكرر مرةً أخرى.

العامان ١٨٧٢-١٨٧٣م

١

العام ١٨٧٢م

بحلول خريف عام ١٨٧٢م بدأنا في التعافي بعض الشيء من الآثار الثقيلة لهذا الصيف التعيس الذي عشناه، وبعد أن عُدنا من ستاريا روسا أقمنا في السرية الثانية التابعة لفوج إسماعيلوفسكي في منزل الجنرال ميفيس.^١ كانت شقتنا تقع في الطابق الثاني للمنزل القائم في عمق الفناء. كانت الشقة مكونة من خمس غرف غير فسيحة وإن كانت مريحة: غرفة استقبال ذات ثلاث نوافذ، مكتب لفيودور ميخايلوفيتش مساحته متوسطة يقع بعيداً عن غُرَف الأطفال بحيث لا يصل ضجيجهم وركضهم إلى مسامعه فيقطع عليه حبل أفكاره.

وعلى الرغم من أن زوجي ظلَّ يعمل طوال الصيف على إتمام روايته، فإنه كان غير راضٍ تمامًا عنها، حتى إنه تخلَّى عن الخطة التي سبق أن وضعها وأعاد كتابة الفصل الثالث منها من جديد.

في شهر أكتوبر سافر فيودور ميخايلوفيتش إلى موسكو، واتفق مع هيئة التحرير على نشر الفصل الثالث من الرواية في العددَيْن الأخيرَيْن من «البشير الروسي». جدير بالذكر أن رواية «الشياطين» لاقت نجاحًا كبيرًا في أوساط القراء، لكنها خلقت لزوجي، مع ذلك، أعداءً كثيرين في عالم الأدب.^٢

^١ الجنرال ميفيس: صاحب البيت الذي عاش فيه دستوفسكي عام ١٨٧٢م.

^٢ استُقبلت رواية «الشياطين» باستهجان تامٍّ سواء من جانب الصحافة الليبرالية أوالديمقراطية. وقد ظهرت الانتقادات الحادة في مجلة «سيانبا» («الضياء») (١٨٧٣م، الجزء الأول) وكذلك في صحف

بانتهاه فصل الشتاء أتيحت الفرصة لفيودور ميخايلوفيتش أن يلتقي لدى نيكولاي سيميونوف^٤ بنيكولاي دانييليفسكي وكان من أنصار فورييه، وذلك بعد مرور خمس وعشرين سنة لم يلتق خلالها زوجي به مرة واحدة. كان فيودور ميخايلوفيتش في أوج سعادته بهذا اللقاء. وكان قد قرأ لدانييلفسكي كتابه «روسيا وأوروبا»، فأراد أن يتحدث معه بشأنه مرة أخرى. ولما كان الأخير يتهيأ لمغادرة المكان مسرعاً، فقد دعاه فيودور ميخايلوفيتش لتناول طعام الغداء في منزلنا في اليوم التالي. وما إن علم أصدقاء دانييليفسكي ومحبوه بشأن هذا اللقاء حتى جاءوا من أنفسهم إلينا للمشاركة في هذا

«بيريجيفي فيدموستي» (١٨٧٢م، العدد ٨٣)، «نوفوي فريميا» (١٨٧٣م، العدد ٦١)، «جولوس» (١٨٧٣م)، (العدد ١٨). ظهرت المقالات والآراء، كما ظهر الهجاء والهجوم على مقالة «بخصوص المعرض» في الصحف الديموقراطية: «ديلو» و«إيسكرا»، كانت أشهرها مقالات د. ميناييف («ديلو»، ١٨٧١م، العدد ١١) وب. تكانثيف («المرضى»، «ديلو»، ١٨٧٣م (العددان ٣-٤)). وحتى صحيفة «روسكي مير» («العالم الروسي») ذات التوجه الرجعي، جمعت في مقالاتها بين ما هو مناصر للجوانب المتحيزة للرواية (ف. ج. أفسينكو) وبين توجيه اللوم لدستوفسكي لافتقار العمل إلى الحرفية الفنية والإطالة و «الجنوح إلى الخيال» («روسكي مير»، ١٨٧٢م، العدد ٣١٥؛ ١٨٧٣م، العدد ٥). صحيح أن أفسينكو خفف من حدة ملاحظاته النقدية بشكل ملحوظ في مقالته: التوجه النفسي الاجتماعي في الرواية. «البشير الروسي»، ١٨٧٣م، العدد ٨. في حين اكتسبت مقالات ف. ب. بورنين في «وقائع سان بطرسبورج» نبرة أكثر ليناً وتحفظاً، ١٨٧٢م، العدد ١٥، ٣٤٥؛ ١٨٧٣م، العددان ٦، ١٣ (عن بورنين انظر [الجزء السادس، العامان ١٨٧٢-١٨٧٣م، التعليق رقم ٢٨]). تجدر الإشارة إلى أن النقد الليبرالي زاد من حدة هجومه على رواية دستوفسكي: وإذا كان هذا النقد قد صبَّ لعنته عليه، إلا أنه، في الواقع، قد أحجم عن تحليلها. المقالة الوحيدة التي تميّزت بنبرة موضوعية وهادئة والتي قامت بتحليل «الشياطين» تحليلًا منطقيًا في خضم الجدل المحتدم حول الرواية في الأعوام ١٨٧١-١٨٧٣م، كانت مقالة ن. ك. ميخايلوفسكي «ملاحظات أدبية وصحفية» وذلك في «حوليات الوطن»، ١٨٧٣م، العدد الثاني، انظر كتاب زاموتين، ص ١٣١-١٦٧، حيث جرى جمع الآراء التي وردت في المجلات والصحف الدورية عن «الشياطين»، انظر أيضًا [الجزء السادس، العامان ١٨٧٢-١٨٧٣م، التعليق رقم ١١].

^٢ نيكولاي بتروفيتش سيميونوف (١٨٢٣م-؟): كاتب، رجل دولة، أخو ب. ب. سيميونوف تيان-شانسكي. ^٤ تعرف دستوفسكي، كما يبدو، على الكاتب والصحفي نيكولاي بتروفيتش سيميونوف من خلال أخيه، الرحالة الشهير ب. ب. سيميونوف — تيان — شانسكي، وقد كان على معرفة قريبة منه قبل ذلك في الأربعينيات في جماعة بتراشيفسكي ثم التقى به مرة أخرى في المنفى في مدينة سيميبالاينسك. كان ن. ب. سيميونوف عضواً في هيئة تحرير مَعْنِيَة بكتابة قانون للفلاحين وقد تسنّى له، على الأرجح، أن يتحدث مع دستوفسكي في هذا الموضوع.

الغداء. لكم أن تتخيّلوا الرُعب الذي أصابني عندما ذكر لي زوجي أن عدد الضيوف المتوقعين يبلغ، بالإضافة لنا، حوالي عشرين شخصاً. وعلى الرغم من إمكانياتي المتواضعة فقد نجحتُ في إعداد غداءٍ لائقٍ سادته الحيوية، حتى إنّ الضيوف ظلُّوا يتبادلون أحاديثهم الشيقة حتى منتصف الليل.

٢

توطئة إلى مذكرات عام ١٨٧٢م

عندما كنت أفكر في وضعنا المالي السيئ، كنت أحلم بطريقةٍ لعلّي أستطيع بها أن أساهم في زيادة دخلنا. فكرتُ في ممارسة الاختزال من جديدٍ وخاصةً أنّني حققتُ فيه نجاحاً ملحوظاً في السنوات الأخيرة. طلبتُ من أقاربي ومعارفي أن يجدوا لي عملاً في أيّ من المؤسسات. وقد وجد أستاذي في الاختزال بافل أولخين عملاً عن طريق أحد معارفه في مؤتمر اقتصاديات الغابات، وقد اقترح عليّ محرر مجلة الغابة، نيكولاي شافرانوف،^٥ أن أسافر إلى موسكو في الفترة من الثالث إلى الثالث عشر من أغسطس. لسوء الحظ كنتُ أشعر آنذاك بالإرهاق من جرّاء الأحداث التي مرّت بي ذلك الصيف فرفضتُ هذا العمل. وفي شتاء عام ١٨٧٢م أخبرني أخي، الذي انتقل مع زوجته الشابة إلى بطرسبورج، أنّ مؤتمراً، لا أذكر في أيّ مجال، سيُعقد قريباً في واحدةٍ من مدن المنطقة الغربية،^٦ وأنهم يبحثون عن مختزل للعمل فيه. على الفور كتبتُ إلى المسئول عن اختيار المختزلين، وقد قمتُ بذلك بموافقة فيودور ميخايلوفيتش الذي، على الرغم من تأكّيده أنني أُرعى الأطفال وأقوم على تصريف شئون المنزل، بل وأساعده فوق هذا كله في عمله، فإنني بذلك أؤدي كلّ ما في وسعي تجاه الأسرة، فإنه لم يشأ أن يقف في سبيلي عندما رأى رغبتني المتحمسة في أن أكسب بعض النقود بجهدي، وقد اعترف لي بعد ذلك أنه كان يأمل أن يأتي الرفض من جانب رئيس المؤتمر، الذي ردّ بالإيجاب وأبلغني بالشروط. لن أقول إن المكافأة كانت مغرية؛ رغم أن الجزء الأكبر منها سيذهب على السفر والإقامة في الفندق. المهم أن النقود،

^٥ نيكولاي سميونوفيتش شافرانوف (١٨٤٤-١٩٠٣م): عالم غابات، أستاذ بمعهد بطرسبورج للغابات.

انظر الخطاب المؤرّخ ١٧ يوليو ١٨٧٢م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٦ المنطقة الغربية: جزء من الإمبراطورية الروسية في القرنين ١٩-٢٠ تشمل محافظات بيلاروسيا وليتوانيا وأوكرانيا. (المترجم)

بالمناسبة، لم تكن هي الهدف، بقدر ما كان البدء في العمل، فلو أنني أنجزت عملي بشكل جيد، فلعلّي أستطيع أن أحصل على توصية من رئيس المؤتمر للحصول على أعمال أخرى تدر دخلاً أكبر.

لم تكن هناك أية أسباب جادة حتى يعترض فيودور ميخايلوفيتش على سفري، فقد بذلت أمني وعداً بالحضور إلينا إبّان غيابي لرعاية الأطفال والقيام بأعمال البيت. وفي الوقت نفسه لم يكن لدى زوجي في هذا الوقت أي عمل لي؛ كان يعمل آنذاك في تنقيح خطة رواية «الشياطين». على أي حال، لم يلقَ سفري أي ترحيب إطلاقاً من جانبه، فراح يختلق كافة الأسباب حتى لا يسمح لي بالسفر. سألني: كيف، وأنا المرأة الشابة، أذهب وحدي إلى مدينة بولندية، لا معارف لي فيها، وكيف سأرتّب أموري وهلمّ جرّاً. بعد أن استمعت إلى هذه الاعتراضات تذكّر أخي أن أحد رفاقه السابقين مسافر إلى المنطقة الغربية وهو على معرفة جيدة بها، ودعاني وزوجي لزيارته وتناول الشاي في بيته للتعارف ومعرفة كافة المعلومات التي يريدها منه.

ذهبنا لبيت أخي في الموعد المحدّد. كان فيودور ميخايلوفيتش يتمتّع بصحة جيدة وقد مضى عليه وقتٌ طويل لم تُداهمه النوبة، وكان مزاجه رائعاً. تحدّثنا بهدوءٍ مع أخي وزوجته ونحن في انتظار صديقه، ولم أكن قد رأيته من قبل، ولكنني سمعت عنه كثيراً من أخي. كان شخصاً طيباً من القوقاز، لا يتمتّع بذكاء خاص، كانوا يُسمّونه «الآسيوي الفظ» بسبب سرعة غضبه وتصرفه على نحوٍ مفاجئ. كان هذا اللقب يُثير حنقه، وحتى يُثبت أنه «أوروبي» كان يُعلن عن إعجابه بشوبان^٧ في الموسيقى وريبين^٨ في التصوير ودستوفسكي في الأدب. وقد استقبل أخي ضيوفه في الصالة. وعندما علم صديقه أنه سوف يتعرّف على فيودور ميخايلوفيتش وربما يُقدّم له خدمة أيضاً، شعر بسعادةٍ بالغة، على الرغم من أنه كان يبدو وجلاً. وما إن دخل إلى غرفة الاستقبال ورأى معبوده حتى شعر بالارتباك حتى إنه لم ينبس ببنت شفة، انحنى مُسلماً على زوجي وعلى ربّة البيت. كان يبلغ من العمر عشرين عاماً، طويل القامة، أكرت الشعر، عيناه واسعتان وشفاهه شديدة الحمرة.

^٧ فريدريك شوبان (١٨١٠-١٨٤٩م) موسيقار بولندي وعازف بيانو. (المترجم)

^٨ إيليا يفيموفيتش ريبين (١٨٤٤-١٩٣٠م): رسام روسي شهير. من أهم أعماله «نوتية نهر الفولجا» و«إيفان الرهيب وابنه». (المترجم)

عندما رأى أخي ارتباك رفيقه سارع بتقديمه إليّ. أمسك «الآسيوى» بيدي وقبّلها. هزّها عدة مرات بشدّة ثم قال بلسان ألثغ: كم أنا مسرور لذهابك إلى المؤتمر وأنّ باستطاعتي أن أكون مفيدًا لك!

أضحكني حماسه البالغ، لكن هذا الحماس أغضب زوجي. وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوفيتش كان يُقبّل أيدي السيدات، وإن حدث ذلك نادرًا، ولم يكن يُعطي لهذا الأمر أي أهمية، فقد كان دائمًا ما يشعر بالغضب إذا ما قبّل أحدهم يدي. عندما لاحظ أخي أن مزاج فيودور ميخايلوفيتش قد تغيّر (وكان مزاج زوجي ينقلب من حال إلى نقيضه على نحوٍ حاد) سارع بالدخول في الحديث عن الجانب العملي للمؤتمر. مرّة أخرى اضطرب «الآسيوى» بشدّة وراح يُجيب على الأسئلة وهو ينظر إليّ مُعظم الوقت دون أن يجرؤ على النظر إلى فيودور ميخايلوفيتش. أذكر جيدًا إجاباته المهذبة وإن اتّسمت بالسخافة.

— ألا تعتقد أن الوصول إلى الإسكندرية صعب؟ سألته، وهل هناك تغيير كثير للقطارات؟

— لاتقلقي، أنا جريجوريفنا، سوف أرافقك بنفسي، وإذا شئت أستطيع أن أسافر معك في نفس عربة القطار.

— هل يوجد في الإسكندرية فندق محترم بحيث يمكن لامرأة شابة الإقامة به؟ سأله زوجي.

نظر الشاب إليه بفرح وصاح بحماس: إذا أرادت أنا جريجوريفنا، فباستطاعتي أن أقيم معها في نفس الفندق، رغم أنني كنتُ أنوي الإقامة عند أحد رفاقي.

— أنيا، هل سمعتِ الشاب موافق على الإقامة معك؟ يا للروعة! صاح فيودور ميخايلوفيتش بصوت عالٍ وضرب المائدة بكل قوته. سقط كوب الشاي على الأرض وتهشّم. هُرعت ربة البيت لئُمسك بقوة المصباح المُشتعل الذي راح يهتز من قوة الضربة، بينما انتفض فيودور ميخايلوفيتش من مكانه واندفع صوب المدخل. ألقى معطفه على كتفيه وهرب.

ارتديتُ ملابسني على عجل وانطلقتُ في أثره: عندما خرجتُ إلى الشارع شاهدتُ زوجي يسير مسرعًا مُتخذًا الاتجاه المعاكس لمنزلنا. هرولتُ خلفه حتى تمكّنتُ من اللحاق به بعد خمس دقائق. كنتُ ألتقط أنفاسي بصعوبة، ولكنني لم أفلح في إيقافه على الرغم من توسّلاتي له أن يتوقّف، تخطيته مسرعةً وأمسكت بيدي بياقتي معطفه الذي كان مطروحًا على كتفيه: فيديا، هل جنّنت! إلى أين تُسرّع؟ هذا ليس طريقنا! قف، أدخل ذراعيك في المعطف، لا يصحّ ذلك، سوف تُصاب بالبرد!

كان لظهري المضطرب أثره على زوجي فتوقّف وارتدى معطفه. أغلقتُ الأزرار وتأتبّطت ذراعاه وأخذته في الاتجاه المعاكس. التزم فيودور ميخايلوفيتش الصمت وقد بدت عليه الحيرة والارتباك.

ما الأمر؟ لعلها الغيرة مرة أخرى. أليس كذلك؟ كنت أنا أيضاً مرتبكة وأنا أتحدث؛ هل تظن أنني نجحت خلال بضع دقائق أن أقع في هوى «الآسيوي الفظ»، وهو أيضاً أغرم بي، وأنا عقدنا عزمنا على الهروب معاً؟ أهذه هي الحقيقة؟ ألا تشعر بالخل؟ هل صحيح أنك لا تُدرك أنك تسيء إليّ بغيرتك هذه؟ إننا متزوّجان منذ خمس سنوات وأنت تعلم كم أُحبك، كم أقدر سعادتنا الزوجية، ومع ذلك فأنت حريص على الغيرة من أول من تُقابله، وتضع نفسك بذلك وتضعني في موقف مُضحك!

اعتذر زوجي وراح يُبرر موقفه ووعدني أنه لن يستسلم لغيرته بعد ذلك. لم أستطع أن أظلّ طويلاً غاضبة: كنت أعلم أنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه عندما تجتاحه سورة الغيرة. رحّضتُ أضحك وأنا أتذكّر هذا الشاب المتحمّس ثم غضب فيودور ميخايلوفيتش المفاجئ وفراره. عندما رأى زوجي التحوّل في مزاجي أخذ هو الآخر يسخر من نفسه متسائلاً كم من الأشياء حطمها في بيت أخي، وكيف حطم بالمناسبة هذا المتحمّس المعجّب به.

قضينا مساءً رائعاً. قطعنا المسافة المتبقية إلى المنزل سيراً على الأقدام. كان الطريق طويلاً استغرق منّا ساعة أو يزيد. ألقينا أخي في المنزل. فبعد أن رأى فرار زوجي استبدّ به الخوف، هرولاً إلينا وكان في شدة القلق عندما لم يجدنا في المنزل. ساعة بأكملها قضاهما هنا مع هواجسه المُرعبة، وقد اندهش بشدّة عندما رأنا في حالة طيبة. أبقيناه ليحتسي معنا الشاي ورُحنا جميعاً في الضحك ونحن نتذكّر ما حدث. وعندما سألناه كيف شرح للقوقازي هروبنا المفاجئ أجاب: عندما سألني ما الذي يحدث هنا، قلت له: إذا لم تفهم ما حدث فلتذهب إلى الجحيم.

أدركتُ، بعد الذي حدث، أن عليّ أن أرفض السفر. كنتُ أستطيع بالطبع أن أقنع زوجي بالسفر. ولكنني كنت أعلم أنه سيظل قلقاً، مُضطرباً. وقد لا يتمالك نفسه فيتبعني إلى الإسكندرية، وقد تحدّث فضيحة. وعلى أية حال كنّا بذلك سنُنفق النقود القليلة التي سنحصل عليها عبثاً.

وهكذا انتهت محاولتي لكسب بعض المال بالعمل بالاختزال.

العام ١٨٧٢م، مرض فيديوشا عشية عيد الميلاد

وقعت لأسرتنا هذه الحادثة العجيبة عشية عيد ميلاد العام ١٨٧٢م. كان فيودور ميخايلوفيتش، وهو الأب البالغ الحنان، يفكر باستمرار في كيفية إدخال السرور على أطفاله. كان مُهتماً بشكلٍ خاصٍّ بإعداد شجرة عيد الميلاد؛ ألح عليّ بضرورة شراء شجرة كبيرة كثيرة الفروع، وراح يُزينها بنفسه (كانت الزينة لدينا تنتقل من عامٍ إلى آخر)، وقف على كرسي وراح يُنبت الشموع ثم وضع «النجمة» في أعلاها.

كانت شجرة عيد الميلاد عام ١٨٧٢م شجرةً شديدة التميّز: فقد حضر إعدادها ابني الأكبر فيديا «وهو مُدرك لما يدور حوله». أوقدنا زينة الشجرة مُبكراً. اصطحب فيودور ميخايلوفيتش طفليّهِ بشكلٍ احتفالي إلى غرفة الاستقبال. كان الطفلان مُنبهريّن، بطبيعة الحال، بالأضواء وبالزينة وبالألعاب المُحيطة بالشجرة. وزّع أبوهما عليهما الهدايا، الابنة كان من نصيبها عروسة رائعة وطاقم شاي من اللعب، بينما حصل الابن على مزمارةٍ كبير، سرعان ما راح ينفخ فيه، وطبلة. لكنّ أكثر ما ترك أثراً كبيراً على الطفلين كان الحصانين وقد أخرجهما من صندوق ورقي كبير. حصانان لهما عرفان وذيلان رائعان. وقد تُبّنت إليهما زحافتان كبيرتان. ألقى الطفلان ألعابهما وجلسا في الزحافتين، بينما راح فيديا الصغير يُمسك بالأعنة ويهزّها وهو يستحثّ الحصانين. سرعان ما أحسّت الفتاة بالملل تجاه الزحافة لتعود إلى لعبها. أما الصبيّ فقد بلغ ذروة التأثر فراح يصيح بالحصانين، يضربهما بالعنان، لعلّه تذكّر ما كان يفعله الفلاحون الذين كانوا يمرّون بجوار بيتنا الصيفي في ستاريا روسا. لم نُفلح أن نُبعده عن غرفة الاستقبال ونضعه في فراشه إلا عن طريق الخداع.

جلسنا طويلاً أنا وفيودور ميخايلوفيتش ورُحنا نتذكّر تفاصيل عيدنا الصغير، وكان فيودور ميخايلوفيتش سعيداً ربما أكثر من أطفاله. أخذت إلى النوم في الثانية عشرة، بينما تباهى زوجي بشرائه كتاباً جديداً اليوم من فولف،^٩ وكان يعترّم قراءته ليلاً. لكنّ هذا لم يحدث، ففي حوالي الساعة الواحدة، سمع زوجي بكاءً حاداً في غرفة الأطفال،

^٩ مافريكي أوسيبوفيتش فولف (١٨٢٦-١٨٨٣م): ناشر وبائع كتب وصاحب مطبعة في بطرسبورج.

وعلى الفور أسرع إلى هناك ليجد طفلنا وقد احمرَّ وجهه من البكاء وقد أفلت من بين يدي العجوز بروخورفنا وهو يُتمتم بكلمات غير مفهومة (كان عمره آنذاك أقلَّ من عام ونصف، ولم يكن قد أجاد الكلام بعد) استيقظتُ أنا أيضًا على صراخه وهُرعَت إلى غرفته. عندما أحسَّ فيودور ميخايلوفيتش أن صراخ فيديا يُمكن أن يوقظ أخته النائمة معه في نفس الغرفة، قرَّر أن يحمله إلى غرفته. وعندما مررنا بغرفة الاستقبال شاهد فيديا الزحافة على ضوء الشموع، وهنا صمت للحظة ثمَّ مدَّ جسده بكلِّ ما يملك من قوة لأسفل ناحية الزحافة، حتى إن فيودور ميخايلوفيتش لم يستطع الإمساك به فرأى أنَّ من الضروري أن يجلسه عليها. وعلى الرغم من أن دموعه استمرت في الانهمار فوق خديّه، إلا أنه بدأ في الابتسام مُمسكًا بالعنان وراح من جديد يهزُّه وهو يتلمَّظ وكأنه يقود حصانًا حقيقيًا. عندما بدا أن الطفل قد هدأ تمامًا، أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يحمله إلى حُجْرته، لكن فيديا انفجر في بكاء مُرتفع وظلَّ على بكائه حتى أجلسه أباه مرةً أخرى في الزحافة. هنا أدركتُ أنا وفيودور ميخايلوفيتش أن الرعب الذي انتابنا في البداية — خوفًا من أن يكون الطفل قد أُصيب بمرضٍ ما، مما جعلنا نُقرّر استدعاء طبيب، على الرغم من تأخُّر الوقت — كان سببه أن خيال الطفل بداهةً كان نشطًا مشغولًا بشجرة عيد الميلاد وباللُّعب، وبهذه المُتعة التي عاشها وهو يجلس في الزحافة. وها هو يستيقظ ليلاً ويتذكَّر الأحصنة فيرغب في الحصول على لُعبته، ولمَّا لم يجد من يُلبّي له هذه الرغبة، رفع عقيرته بالصياح حتى يجد من يُحقِّق له غايته. ما الذي كان علينا أن نفعله: أخيرًا، وكما يُقال، «انتعش» الطفل ورفض العودة إلى النوم. وحَتَّى لا يظلَّ ثلاثتنا مُستيقظين قرَّرنا أن نذهب أنا والمُربية للنوم، بينما يجلس فيودور ميخايلوفيتش مع الصبي، حتى إذا غلبه النعاس حمله إلى فراشه، وهو ما حدث. وفي اليوم التالي اشتكى لي زوجي بمرح ما حدث له البارحة: أوه، كم عذَّبني فيديا طوال الليل! لقد بقيتُ ساعتين أو ثلاثًا لم أخفض بصري عنه، كنتُ خائفًا أن يقع خارج الزحافة فيُصاب بمكروه. جاءت إليه المُربية مرتين تُشير له «باي باي» وهو يهزُّ لها يده ثم يعود للبكاء مرةً أخرى. وهكذا جلسنا معًا حوالي خمس ساعات، حتى بدا عليه التعب وراح يميل جانبًا. أمسكتهُ فرأيتُ أنه قد غطَّ في نوم عميق، عندئذٍ حملته إلى غرفته. وهكذا لم يتسنَّ لي أن أبدأ قراءة الكتاب الذي اشتريته. ابتسم فيودور ميخايلوفيتش وقد بدا عليه الرضا التام أن هذا الحادث الذي أخافنا في البداية قد انتهى بسلام.

العام ١٨٧٣م، طبع رواية «الشياطين» وتحريرها، التعارف

بعد أن أنهى فيودور ميخايلوفيتش رواية «الشياطين» ظلَّ لبعض الوقت مُتردِّداً بشدةٍ فيما عليه أن يفعله الآن. كان العمل في رواية «الشياطين» قد استنفد كل جهده وتركه مُرهقاً إلى حدٍّ أنه كان يشعر باستحالة قيامه في الوقت الحاضر بكتابة رواية جديدة. كان إنجاز الفكرة التي تولَّدت لديه في الخارج، وهي إصدار «مذكرة الكاتب» في صورة مجلة شهرية، أمراً تكتنفه المصاعب.^{١٠} كان الإنفاق على طبع المجلة وعلى الأسرة (ناهيك عن سداد الديون) يتطلَّب موارد كبيرة للغاية، وبالنسبة لنا فقد طرح علينا سؤالاً مُلغزاً: هل ستلقى هذه المجلة نجاحاً كبيراً، باعتبارها حدثاً لا مثيلَ له حتى الآن في الأدب الروسي، سواء من ناحية الشكل أو المضمون؟ وفي حالة فشل «المذكرة» فسوف نجد أنفسنا في وضع لا نُحسد عليه.

كان فيودور ميخايلوفيتش في حالة من الحيرة الشديدة، ولم أكن أعرف أي قرارٍ سيتَّخذ، لو لم يقترح عليه الأمير فلاديمير بتروفيتش ميشيرسكي في هذا الوقت تحديداً مهمةً مُحرَّر مجلة «المواطن» الأسبوعية.^{١١} وكانت هذه المجلة قد تأسَّست منذ عامٍ

^{١٠} يُصرِّح دستوفسكي نفسه في خطابه إلى أ. ي. فرانجيل المؤرِّخ الثامن من نوفمبر ١٨٦٥م وإلى صوفيا إيفانوفنا المؤرِّخ التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٦٧م أن فكرة إصدار «مذكرة الكاتب» كانت تراوده قُبيل سفره إلى الخارج (انظر: الخطابات، المجلد الأول، ص ٤٢٤؛ المجلد الثاني، ص ٤٤).

^{١١} بدأ ف. ب. ميشيرسكي في إصدار الصحيفة/المجلة الأسبوعية «المواطن» عام ١٨٧٢م؛ وفي نهاية العام قرَّر أن يدعو دستوفسكي للعمل بالصحيفة/المجلة باعتباره مُحرِّراً. في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٧٢م تم رفع التماس لتعيين دستوفسكي مُحرِّراً بمجلة «المواطن»؛ إذ إن دستوفسكي كان معروفاً بأنه «مجرم سياسي» سابق، وكان موضوعاً تحت الرقابة السرية للشرطة. وقد قدم ميشيرسكي هذا الالتماس بنفسه إلى كلِّ من مدير ورئيس القسم الثالث ب. أ. شوفالوف وأ. ف. شولتز (انظر مقال ر. كاننور «معلومات جديدة عن دستوفسكي»، «البشير الأدبي»، ١٩٢١م، العدد ١١؛ ومقال ي. ج. أوكسمان «دستوفسكي في هيئة تحرير «المواطن»»، في كتاب: «إبداع دستوفسكي»، أوديسا، ١٩٢١م). جاءت موافقة دستوفسكي على العمل في تحرير المواطن «بسبب الوضع المالي المتردِّي للكاتب، كما كتبت بعد ذلك أنا جريجوريفنا دستوفسكايا؛ فضلاً عن رغبة دستوفسكي الشديدة في الانخراط المباشر في الصراع الأدبي والسياسي. كان دستوفسكي مدفوعاً بالرغبة في إمكانية أن يشارك بكتابة مقالاته وهو

فقط وصدرت بتحرير ج. ق. جرادوفسكي.^{١٢} وقد تجمعت حول هيئة تحرير هذه المجلة الجديدة مجموعة من الشخصيات المرموقة ذات الاتجاه الفكري المشترك، من بينهم: ق. ب. بوبيدونوستسيف، أ. ن. مايكوف ت. إ. فيلييوف، ن. ن. ستراخوف وأ. أ. بوريتسكي،^{١٣، ١٤}

يشغل أكبر منصب في المجلة. كان قرار دستوفسكي — مؤلف رواية «الشياطين» (التي اعتبرها النقد الديمقراطي وحتى الليبرالي بمثابة طعن وهجاء للحركة الثورية وللشباب المعاصر) أن يصبح محرراً لأكثر الدوريات الأسبوعية رجعيةً، والتحالف مع الكاتب ميشيرسكي عدو التقدم، الذي راح يُدافع بكل صلابة عن المزايا الإقطاعية والارستقراطية، العدو للدود للإصلاحات، من وجهة نظر كلِّ صحف بطرسبورج تقريباً — انتقالاً طبيعياً لدستوفسكي إلى المعسكر الرجعي. كان دستوفسكي يأمل بمجرد تسلمه العمل محرراً «للمواطن» أن يحصل على الحرية والاستقلال الكاملين في العمل. لكنه راح يعضُّ إصبع الندم على ضياع آماله بأسرع مما كان يتصوّر: لم يتمكن دستوفسكي بسبب الوصاية والتدخل المتكرر من جانب ميشيرسكي في عمله؛ فضلاً عن الهجوم الذي ازدادت حدته من الصحافة في بطرسبورج من ممارسة نشاطه في التحرير إلّا قليلاً، كما أضعف كل ذلك على نحو كبير من وضع دستوفسكي في عالم الصحافة الأدبية. لقد تحمل دستوفسكي «آلاماً نفسية» مبرحة على مدى العام الذي عمل فيه محرراً في «المواطن»، لا بسبب «أعداء» الأمير ميشيرسكي فقط، وإنما ينبغي أيضاً أن نعزو هذه الآلام إلى غالبية الصحف الروسية، ربما باستثناء مجلة «أحاديث عائلية» و«البشير الروسي» فسيفولد سولوفيوف (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الثاني، ١٩٦-١٩٧). سرعان ما تصاعد الخلاف الداخلي، وخاصة الصدام «الأيدولوجي» الحاد بين دستوفسكي وميشيرسكي، الذي أدى إلى انفصالهما، وأعرب فيها عن فكرته في فرض الرقابة على شباب الطلاب. وقد كتب دستوفسكي خطاباً إلى ميشيرسكي في نوفمبر ١٨٧٣م عبّر فيه عن استيائه بقوله: «إن فكرتك هذه تتنافى بشدة مع مُعتقداتي وقد أثارت في نفسي القلق» (الخطابات، المجلد الثالث، ص ٨٨). عن عمل دستوفسكي في «المواطن» انظر: ف. ب. ميشيرسكي، مذكراتي، الجزء الأول، سان بطرسبورج، ١٨٩٨م (وهي مذكرات تفتقر بشدة إلى الحياد، وقد أغفل فيها ميشيرسكي الحديث عن الصدامات والخلافات بينه وبين دستوفسكي)؛ مذكرات ف. ف. تيموفيفا (أ. بوتشينكوفسكايا) وم. أ. ألكسندروفا في كتاب: دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الثاني، والعمل المتميز الذي أعده ف. ف. فينوجرادوف (ف. م. دستوفسكي باعتباره محرراً «للمواطن» ومؤلفاً مجهولاً للمقالات الهجائية فيه في كتابه «مشكلة التأليف ونظرية الأساليب»، موسكو، ١٩٦١م).^{١٢} جريجوري قنسطنطينوفيتش جرادوفسكي (١٨٤٢-١٩١٥م): كاتب ومؤسس صحيفة/مجلة «المواطن».

^{١٣} ألكسندر أوستينوفيتش بوريتسكي (١٨١٩-١٨٧٩م): كاتب ومحرر لمجلة «إجازة الأحد» عامي ١٨٦٤-١٨٦٥م، المحرر الرسمي لمجلة «العصر».

^{١٤} تعرف ألكسندر أوستينوفيتش بوريتسكي على دستوفسكي في الأربعينيات (انظر خطابات دستوفسكي إلى بوريتسكي في الأربعينيات، الخطابات، المجلد الأول). تذكر ف. ف. تيموفيفا

ي. أ. بيلوف،^{١٦١٥} وكانوا جميعهم مُتعاطفين مع فيودور ميخايلوفيتش، الذي استمتع كثيراً بالعمل معهم. كذلك لم تكن إمكانية مشاركة القراء بصورة أكبر في الموضوعات التي تتناول قضيتي الآمال والشكوك، التي نضجت في عقله، أقلّ متعة وجاذبية من العمل مع هؤلاء الرفاق. وعلى صفحات مجلة «المواطن» استطاع فيودور ميخايلوفيتش أن يُحقق أيضاً فكرة «مذكرة الكاتب» وإن لم تظهر بالشكل الذي قدّمه فيما بعد.

كانت الأمور تسير على ما يُرام من الناحية المادية. كان المُحرر يتقاضى نظير مسؤولياته ثلاثة آلاف روبل، علاوة على أجره مقابل مقاله من «مذكرة الكاتب»، وفيما بعد مقابل المقالات «السياسية». وقد بلغ إجمالي ما كنّا نتقاضاه حوالي خمسة آلاف روبل في العام. كما كان لحصولنا على مبلغٍ محددٍ شهرياً جانبه الإيجابي: فقد أتاح ذلك لفيودور ميخايلوفيتش ألا ينشغل عن مسؤولياته بالاهتمام بالحصول على النفقات اللازمة للحياة والتي كانت تؤثر بشكلٍ مرهقٍ على صحته ومزاجه.

بالإضافة إلى ذلك، لم يُخفِ فيودور ميخايلوفيتش — عندما وافق على العمل مع الأشخاص المُعجبين به لتوليّ تحرير «المواطن» — أنه يتحمّل هذه المسؤولية مؤقتاً باعتبار

(أ. بوتشينكوفسكايا) قائلة: «يعترف لي دستوفسكي بقوله: إنني أكنُ لهذا الإنسان ثقةً خاصة؛ ففي كل الأحداث الصعبة وفي لحظات الشك في حياتي كنتُ الجأ إليه، ودائماً ما أجد لديه الدعم والسكينة» (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الثاني، ص ١٦٢). كان موريتسكي يُدير في الستينيات قسم «العروض النقدية المحلية» في مجلة الأخوين دستوفسكي «الزمن»، وقد تولى بعد وفاة ميخائيل دستوفسكي (١٠ يوليو ١٨٦٤م) وظيفة المُحرر الرسمي لمجلة «العصر» حتى توقّفها. يصف سترخوف بوريتسكي في مذكراته بأنه «كان إنساناً ذكياً، مُثقفًا، يتميّز فوق ذلك بخصالٍ نفسية نادرة. كان يمتلك قلباً طيباً نقيّاً لا تشوبه شائبة. كان مُتعاظفاً بكلّ جوانحه لتوجّهات مجلة «العصر» (السيرة الذاتية، ص ٢٧٢). عن دور ألكسندر بوريتسكي في مجلة «العصر» انظر مقالة أ. س. دولينين «مدخل إلى تاريخ الرقابة على المجلّتين الأوليين لدستوفسكي»، في كتاب دستوفسكي، المجلد الثاني، ص ٥٧٤-٥٧٧.

^{١٥} يفجيني ألكسندروفيتش بيلوف (١٨٣٩-١٩٠٩م): شاعر وصحفي ومُترجم، عمل بمجلة «المواطن»، التقى في عامي ١٨٧٣-١٨٧٤ بدستوفسكي.

^{١٦} يفجيني ألكسندروفيتش بيلوف؛ مُعلم، مُؤرخ للحركة السلافية، مؤلّف الكتاب الشهير «تاريخ روسيا قبل إصلاحات بطرس الأكبر» (١٨٩٦م)، عرض فيه تفصيلاً لوجهات نظره وإيمانه بالحركة السلافية. ومن الأمور الشيقة أن بيلوف في شبابه كان معجباً بالاشتراكية الطوباوية، كما اشترك في الواقع مع دستوفسكي في تطوّره الفكري في نفس الاتجاه. في عام ١٨٧٣م تولى بيلوف العمل في مجلة «المواطن» في قسم «الفهارس». وله عددٌ من المقالات في «المواطن» عام ١٨٧٣م (الأعداد ٢١، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٣٢).

العمل هنا إجازة من العمل الفني، وحتى يتسنى له التعرف على نحو أكثر قرباً من الواقع اليومي، وأنه سوف يترك هذا العمل الذي يخالف شخصيته عندما تظهر لديه من جديد الحاجة لعمل إبداعي.

يُعد مطلع العام ١٨٧٣م ذكرى مشهودة بالنسبة إليّ، وذلك بفضل ظهور الطبعة الأولى من رواية «الشياطين» التي أصدرناها معاً. وتُمثل هذه الطبعة أساساً لعملنا المشترك أنا وفيودور ميخيلوفيتش، وبعد وفاته استمرّ عملي في النشر ثمانية وثلاثين عاماً.

كان أحد آمالنا لإصلاح ظروفنا المالية (وربما كان أهمّها) هو إمكانية بيع حق نشر رواية «الأبله» أولاً، ثم رواية «الشياطين» بعد ذلك. كان من العسير علينا أن ندبر هذا الأمر أثناء إقامتنا في الخارج؛ ولم يكن سهلاً حتى بعدما عدنا إلى روسيا وأصبح بمقدورنا أن نتفاوض بأنفسنا مع الناشرين. فقد كان كلُّ من توجّهنا إليهم يعرض سعراً بخساً، فعلى سبيل المثال، فقد دفع لنا بائع الكتب أ. ف. بازونوف^{١٧} مائة وخمسين روبلاً مقابل حقّ نشر رواية واحدة هي «الزوج الأبدي» (٢٠٠٠ نسخة)، بينما عرضوا خمسمائة روبل فقط مقابل نشر رواية «الشياطين»، ناهيك عن أنّهم اشترطوا الدفع على دفعاتٍ على مدى عامين.

كان فيودور ميخيلوفيتش يحلم في شبابه أن يصدر أعماله بنفسه، وقد كتب عن ذلك خطاباً لأخيه،^{١٨} كما حدّثني عن ذلك إبّان إقامتنا في الخارج. وقد جذبت هذه الفكرة اهتمامي أنا أيضاً، وقد حاولتُ أن أتعرّف شيئاً فشيئاً على جميع شروط نشر الكتب وتوزيعها. وذات يوم، كنتُ أوصي بطبع بطاقات تعارف باسم زوجي، وتحدثتُ مع صاحب المطبعة وسألته عن شروط إصدار الكتب. فقال لي إن أغلب الكتب يتمّ دفع تكاليف طبعتها نقدًا. أما إذا كان الكاتب ذائع الصيت، تلقى كتبه رواجاً عند بيعها، فإن أيّ مطبعة تُعطيهِ عن طيب خاطرٍ قرضاً لمدة نصف عام، فإذا لم يتمكّن خلال هذه المدة من سداد النقود، فإنها تلزمه بدفع نسبةٍ محددة من قيمة هذا القرض. وبنفس

^{١٧} ألكسندر فيدوروفيتش بازونوف (١٨٢٥-١٨٩٩م): ناشر وبائع كتب، صاحب عددٍ من المكتبات في موسكو وبطرسبورج؛ كان يُصدر أعمال دستوفسكي.

^{١٨} انظر خطاب دستوفسكي إلى أخيه ميخائيل المؤرّخ ٣١ ديسمبر ١٨٤٣م، يناير وأبريل ١٨٤٤م، وأكتوبر ١٨٤٦م (الخطابات، المجلد الأول، ص ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ١٠٠، ١٠١).

هذه الشروط يُمكن للكاتب الحصول على الورق اللازم للطباعة. وقد أخبرني أيضًا عن التكلفة الفعلية للطبعة التي اقترحها عليه، أي تكلفة الورق والطباعة والتجليد. وبناء على حساباته فإنَّ تكلفة طبع رواية «الشياطين» في حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة نسخة، يُمكن أن تصل إلى حوالي أربعة آلاف روبل. وقد نصحتني صاحب المطبعة أن تُباع نسخة الرواية (في ثلاثة أجزاء) بعد طباعتها بخط واضح وعلى ورق مصقول بما لا يقلُّ عن ثلاثة روبلات ونصف الروبل. ويتم خصم حوالي ثلاثين بالمائة من إجمالي ثمن البيع البالغ اثني عشر ألفًا ومائتين وخمسين روبلاً لبائعي الكتب، آخذين في الاعتبار في هذه الحالة أيضًا بعض النفقات الأخرى. فإذا تم بيع الرواية بنجاح فإننا نحصل على صافي ربح مجز.

في ذلك الزمن لم يكن هناك أحدٌ من الكُتاب يتولَّى طبع مؤلفاته بنفسه، فإذا ما ظهر من لديه الشجاعة على ذلك، فعليه أن يتحمَّل الخسارة ثمنًا لهذه الشجاعة. كان هناك عددٌ من دور النشر: بازونوف، فولوف، إيساكوف^{١٩} وغيرها، تشتري حق نشر الكتب وطبعها وتوزيعها في كافة أنحاء روسيا. أما الكتب التي تنشرها الهيئات العلمية أو الأفراد فيتولَّى باعة الكتب تخزينها أو بيعها مقابل نسبةٍ تبلغُ خمسين بالمائة بحجة أنهم يقومون بتخزينها والإعلان عنها (وهو ما كانوا يفعلونه بتقدير بالغ) وفي كثير من الأحيان يكون الجزء الذي يُرد منها للناشر في حالة سيئة.

لمَّا كنت راغبة في إصدار رواية «الشياطين»، فقد حاولتُ أن أسأل في محال الكتب عن النسبة التي يحصلون عليها مقابل بيع الكتب، وهناك كنتُ أحصل على شتَّى الإجابات: البعض يقول إن العملة تتوقف على الكتاب، وبعض الباعة يحصلون على «من أربعين إلى خمسين بالمائة» وأحياناً أكثر. وذات مرةٍ كنتُ أشتري لزوجي كتابًا ثمنه ثلاثة روبلات، وعندئذٍ رحْتُ أختبر البائع فطلبتُ شراءه مقابل روبلين، بحجة أنهم أنفسهم يحصلون على خمسين بالمائة، وعليه فإن الكتاب لا يُكلفهم سوى روبل ونصف. امتعض البائع من اقتراحي وقال إنه لا يحصل إلَّا على «من عشرين إلى خمسةٍ وعشرين بالمائة» وعلى ثلاثين بالمائة من بعض الكتب؛ بشرط أن تكون الكمية المُشتراة من هذه الكتب كبيرة.

^{١٩} ياكوف ألكسييفيتش إيساكوف (١٨١١-١٨٨١م): ناشر في بطرسبورج وبائع كتب.

وقد اكتشفتُ من خلال هذه الاستفسارات، ما هي النسبة التي ينبغي دفعها لبائع الكتب لعددٍ مُعين من النُّسخ.

وعندما أَخْبَرْنَا عددًا من معارفنا وأصدقائنا برغبتنا في نشر الرواية، سَمِعْنَا العديد من الاعتراضات والنصائح وتحذيرنا من التورُّط في مشروع لا نَعْلَمُ عنه شيئاً، وقد تَوَدَّي قلة خبرتنا فيه إلى هلاكنا، وعندها سَنُضِيفُ إلى ديوننا القديمة بضعةً آلافٍ جديدة. لكن هذه الاعتراضات لم تُفَتَّ في عضدنا وقرَّرنا أن نضع فكرتنا موضع التنفيذ.

حصلنا على ورق الطباعة من شركة فارجونين،^{٢٠} وكانت وما تزال تمتلك أفضل مصنع لإنتاج الورق الناعم، أعطيناها لمطبعة زاميسلوفسكي^{٢١} للطباعة، التي انتقلت ملكيتها آنذاك إلى عائلة البارون بانتيلييف.^{٢٢} مرَّت نهاية عام ١٨٧٢م وبداية العام التالي وقد كرَّسنا فيها اهتمامنا بالكتاب؛ قرأت التصحيحين الأول والثاني، بعدها قام فيودور ميخايلوفيتش بمراجعة النص في صورته النهائية.

في الأيام العشرة الأخيرة تقريباً من شهر يناير تمَّ تجليد الكتاب وأُرسل إلى بيتنا جزءً منه. كان فيودور ميخايلوفيتش سعيداً للغاية بمظهر الكتاب، وأنا أيضاً كنتُ معجبةً به. عشية صدور الكتاب أخذ فيودور ميخايلوفيتش ليعرضه على واحدٍ من أشهر بائعي الكتب (كان زبونا دائماً عنده) أملاً في أن يُبدي الرجل رغبته في شراء عددٍ من النُّسخ. قلبَ بائع الكتب الكتاب بين يديه وقال: حسناً، أُرسل لي مائتي نسخةٍ لأبيعها مقابل عمولة.

– وكم تبلغ؟ سأله زوجي.

– لا أقل من خمسين (بالمائة).

لم يُجب فيودور ميخايلوفيتش وعاد حزيناً إلى المنزل ليقصَّ عليَّ نَبأَ سوء الحظ الذي صادفَه. كنت قلقةً أنا أيضاً، أما اقتراح بائع الكتب أن يأخذ مائتي كتابٍ مُقابل هذه العمولة فلم يَرُقَّنِي إطلاقاً؛ كنتُ أعلم أنه حتى لو باع هذه الكتب فإننا لن نحصل على نقودنا منه إلا بعد مرور وقتٍ طويل.

^{٢٠} ألكسندر إيفانوفيتش فارجونين (١٨٠٧-١٨٨٠م): أحد مُلَّاك شركة الإخوة فارجونين الشهيرة بتجارة ورق الطباعة.

^{٢١} الأمير زاميسلوفسكي: صاحب مطبعة في بطرسبورج. قام في السبعينيات بطبع أعمال دستوفسكي.

^{٢٢} الإخوة بانتيلييف: جريجوري فومين وبيوتر فومين (?-١٩٠٦م): مُلَّاك مطبعة في بطرسبورج كانت تطبع أعمالاً لدستوفسكي.

كان الثاني والعشرين من يناير عام ١٨٧٣م يوماً مشهوداً في حياتنا. في هذا اليوم ظهر إعلاننا في صحيفة «جولوس»^{٢٣} («الصوت») حول صدور رواية «الشياطين». وفي العاشرة صباحاً وصلنا مندوب من محل كتب بوبوف^{٢٤} الواقع بالقرب من شارع الباساج. خرجت من غرفتي إلى المدخل وسألته عما يريد.

– لقد ظهر إعلانكم في الصحيفة ولذلك جئت لأطلب عشر نسخ. أحضرت الكتب وأنا أشعر ببعض القلق وقلتُ له: سعر النسخ العشر خمسة وثلاثون روبلاً، عمولتكم عشرون بالمائة، فيكون المطلوب منكم ثمانية وعشرون روبلاً.
– أليست قليلة؟ ألا يُمكن جعلها ثلاثين بالمائة؟ قال المندوب.
– لا.

– حسناً، ولو خمساً وعشرين بالمائة؟
– الحقيقة، لا يُمكن، قلتُ له ذلك وأنا في شدة الاضطراب؛ ولو أنه انصرف لكنتُ قد أضعتُ بذلك أول مشترٍ.
– إذا لم يكن مُمكنًا فإليك النقود. وإذا به يُعطينيها.

كنت في غاية السعادة حتى إنني أعطيتُه ثلاثين كوبيكًا مقابل الانتقال. لم يَمُضْ وقتٌ طويل حتى جاء صبيٌّ من أحد محال بيع الكتب في مدينة أخرى وقد اشترى عشر نسخٍ أيضًا بعمولة عشرين بالمائة، بعد أن ساومني هو الآخر. وقد أراد المندوب الذي أرسله محل كتب جلازونوف^{٢٥} أن يأخذ خمساً وعشرين نسخة، إذا تنازلتُ عن نسبة خمسة وعشرين بالمائة؛ ونظرًا لحجم الطلب فقد اضطررتُ للتنازل. وقد حضر عددٌ آخر من الناس، أخذ كلُّ منهم عشر نسخٍ وقد لجئوا جميعهم للمساومة، ولكنني لم أتنازل لأكثر من عشرين بالمائة. وفي حوالي الساعة الثانية عشرة وصل مندوب يرتدي ملابس مُهندمة ويعمل لدى بائع كتبٍ من معارف فيودور ميخايلوفيتش، وأعلن أنه جاء للحصول على

^{٢٣} جولوس («الصوت») (١٨٦٣-١٨٦٦م): صحيفة يومية سياسية أدبية ذات توجهٍ ليبرالي أصدرها في بطرسبورج أ. أ. كرايفسكي. وقد دأب دستوفسكي على مُطالعتها، وكان يكتب تعليقاتٍ حادة على ما تنشره، وذلك في مجلتي «الزمن» و«العصر» اللتين أصدرهما مع أخيه ميخائيل. (المترجم)

^{٢٤} ميخائيل فاسيليفيتش بوبوف (١٨٣٦-١٩٠٦م): تاجر، ناشر، صاحب محل لبيع الكتب في بطرسبورج. باع رواية «الشياطين» و«مذكرة الكاتب» لدستوفسكي.

^{٢٥} إيفان غيليتش جلازونوف (١٨٢٦-١٨٨٩م): ناشر من بطرسبورج وبائع كتب، شغل منصب عمدة بطرسبورج في الثمانينيات.

عشرين نسخة مُقابل نسبة مئوية. أجبتُه، وقد امتلأتُ حماسًا من أثر النجاح الذي أحرزته في البيع في الصباح. إنني لا أبيع بالعمولة وإنما نقدًا.

– كيف؟ لقد وعدنا فيودور ميخايلوفيتش أن نوفد له شخصًا ليحصل على الكتب مُقابل عمولة وقد جئتُ بناءً على ذلك.

أخبرته أن زوجي يُصدر الكتب بينما أتولى أنا بيعها، وأن هذا وذاك من بائعي الكتب يدفعون لنا ثمن الكتب نقدًا.

– وهل بإمكانني أن أقابل فيودور ميخايلوفيتش «نفسه»، قالها المندوب وهو يُعول، بداهة، على تنازل زوجي.

– فيودور ميخايلوفيتش يعمل ليلاً، وأنا لا أستطيع إيقاظه قبيل الثانية.

طلب مني المندوب أن أعطيه عشرين نسخة و«سوف ندفع لفيودور ميخايلوفيتش». وبرغم ذلك ظلمتُ على موقعي المُتشدّد بعد أن شرحتُ له أن أيّ نسبة نُقدّمها في مقابل كمية معلومة، كما أخبرته أن ما تبقى لدينا من النسخ لا يتجاوز خمسمائة نسخة وسوف تباع اليوم وفقًا لحساباتي. وقف المندوب برهةً مترددًا ثم عاد أدراجَه بِخُفي حزين، وبعد ساعة جاء من عندهم مندوب آخر يرتدي ملابس أكثر بساطة واشترى خمسين نسخة نقدًا مع خصم ثلاثين بالمائة.

كنتُ متلهفة بشدة أن أشارك فيودور ميخايلوفيتش سعادتي، ولكن كان عليّ أن أنتظر حتى يخرج من غرفته.

بالمناسبة، فقد كان هناك شيء غريب في شخصية زوجي: فعندما يستيقظ من النوم، يبدو وكأنه ما زال تحت تأثير الأحلام والكوابيس الليلية التي تُعذّبه أحيانًا في نومه فيظل صامتًا تمامًا ولا يُحب أن يتحدث معه أحد في هذه الفترة. ولهذا اعتدتُ على ألا أزعجه صباحًا (طالما لا توجد هناك أسباب قهرية للحديث)، وإنما أنتظر حتى يحتسي قدحين ساخنين للغاية من القهوة ثم ينتقل إلى حجرة مكتبه. وعندئذ أتبعه إلى هناك لأخبره بكل الأنباء، السارّ منها والمُحزن. في هذا الوقت يكون فيودور ميخايلوفيتش قد وصل لذروة مزاجه الحسن: فيُبيدي اهتمامًا بكل شيء، ويسأل عن كلّ شيء، يُنادي الأطفال، يُمازحهم ويُلَاعِبهم وهو ما حدث صباح اليوم، أما أنا فجلستُ في مكاني المعتاد بالقرب من مكتبه، بعد أن أرسلتُ بالأطفال إلى غرفتهم. ولمّا رأي فيودور ميخايلوفيتش صامتةً نظر إليّ مبتسمًا ابتسامةً ساخرة وسألني: حسنًا. أخبريني إذن يا أنيتشكا كيف تسير تجارتنا؟

– على نحو رائع، أجبتُه بنفس النبرة.

- لعلك نجحت في بيع نسخة واحدة؟
 - ليست نسخة واحدة، وإنما مائة وخمسين بعثتها.
 - معقول؟! حسناً، أهنئك إذن! واصل فيودور ميخايلوفيتش حديثه ساخراً، مُتصوراً أنني أمزح.

- فلتعلم أنني أقول الحق، رُحت أحاصره، ما قولك؟ ألا تُصدقني؟
 ثم أخرجت من جيبِي قائمة سجلتُ فيها كمية النسخ المباعة، وإلى جانب القائمة رزمة من الأوراق المالية قيمتها حوالي ثلاثمائة روبل. ولما كان فيودور ميخايلوفيتش يعلم أن ما لدينا من نقودٍ بالمنزل قليل، فإن المبلغ الذي عرضته عليه كان كفيلاً بإقناعه أنني لا أمزح. وبدءاً من الساعة الرابعة بعد الظهر توالى قرع جرس الباب: لقد ظهر مشترٍون جُدد، بالإضافة إلى الذين جاءوا في صباح نفس اليوم ليحصلوا على احتياطيٍّ جديد. كان واضحاً أن الكتاب قد لاقى نجاحاً كبيراً، وقد شعرتُ ببهجة نادرة ما تحدث لي. كنت سعيدة بطبيعة الحال لحصولي على المال، لكن الأهم أنني وجدتُ لنفسِي عملاً شيقاً هو إصدار مؤلفات زوجي العزيز، كما كنتُ راضيةً أيضاً أن مشروعنا قد حققَ هذا القدر من النجاح على عكس تحذيرات مُستشارينا الأدبيين.

كان فيودور ميخايلوفيتش أيضاً راضياً للغاية وبخاصة عندما أخبرته بما قاله لي أحد المندوبين «إن الجمهور يسأل عن الرواية منذ زمن بعيد». كان فيودور ميخايلوفيتش يُقدّر دائماً تعاطف الجمهور تقديراً رقيقاً، لأن الجمهور وحده هو الذي كان يدعمه باهتمامه وتعاطفه طوال زمن نشاطه الأدبي. وقد لعب النقد الأدبي (باستثناء بيلينسكي ودوبروليوبوف^{٢٦} وبورنين^{٢٧} دوراً محدوداً للغاية في ذلك الوقت في إظهار موهبته: فهي

^{٢٦} نيكولاي ألكسندروفيتش دوبروليوبوف (١٨٣٦-١٨٦١م) ناقد، كاتب في صحيفة «المعاصر». آخر أعماله مقال «المنسيون» (مجلة المعاصر، ١٨٦١م، العدد ٩)، مكرسة بالمناسبة لإبداع دستوفسكي، وهي أكثر الأعمال عمقاً في تحليل أعمال دستوفسكي المبكرة: «الفقراء» و«مذلون مهانون». كانت له وجهات نظر في الفن والواقع تُخالف وجهات دستوفسكي الذي كتبَ رداً عليها في مقاله «السيد بوف وقضية الفن» (المقصود الناقد دوبروليوبوف). (المترجم)

^{٢٧} فيكتور بتروفيتش بورنين (١٨٤١-١٩٢٦م): ناقد وشاعر. في البداية انتقد دستوفسكي باعتباره من أنصار «نزعة الأرض»، كما انتقد أيضاً الجوانب السلبية في رواية «الأبله»، لكنه أدهش المؤلف نفسه بنقده العميق لروايتي «الشياطين» و«الإخوة كارامازوف»، وقد رأى بورنين أن دستوفسكي الروائي أفضل بكثيرٍ من دستوفسكي الكاتب الاجتماعي والفيلسوف والأخلاقي. (المترجم)

إما تجاهلت أعماله، وإما تعاملت معها بعدوانية.^{٢٨} والآن وقد مضى على وفاة فيودور ميخايلوفيتش ما يزيد عن خمس وثلاثين سنة، ما نزال نُعيد، باستغرابٍ بالغ، قراءة هذه

^{٢٨} من الواضح أن أنا جريجوريفنا تقصد الآراء الحادة التي وجَّهها النقد المعاصر لرواية «الشياطين» (انظر [الجزء السادس، العامان ١٨٧٣-١٨٧٢، التعليق رقم ٢]) والاستقبال الفاتر لرواية «الأبله». بطبيعة الحال فقد كان دستوفسكي كثيرًا ما يُقاسم أنا جريجوريفنا آراءها بشأن النقاد المعاصرين، الذين كان يميل أكثر منها لأن يَعدَّهم ضمن «أعدائه». وكان دستوفسكي يتعامل مع صمت النقاد وآرائهم العدوانية بنفس الحدة، وفي الوقت نفسه كان يضع رأي القراء العاديين في مواجهة المقالات النقدية المنحيزة والتي تفتقد إلى العمق؛ وفي هذا الصدد، على وجه الخصوص، تحدَّثت إحدى ملاحظاته التي سجَّلها في دفتره عام ١٨٧٦م: «إنني أجد دائمًا الدعم والتأييد لا من النقد، وإنما من الجمهور. من النقاد لديه معرفة بخاتمة رواية «الأبله» هذا المشهد شديد القوة، الذي لم يتكرَّر مطلقًا في الأدب. حسنًا، إن الجمهور يعترف به» (الأرشيف المركزي للأدب والفن).

أما فيكتور بوريفين فقد كتب كثيرًا عن دستوفسكي بدءًا من النصف الثاني من الستينيات وخاصة في صحيفتي «وقائع سان بطرسبورج» و«الزمن الحديث»، على أن كتاباته كانت تتميز بالسطحية وسوء القصد في معظم الأحوال. وقد اعتبر بورينين أن رواية «الأبله» «خليط قصصي مكوَّن من أحداث وشخصيات سخيفة وُضعت دون أدنى عناية بالهدف الفني لها» (وقائع سان بطرسبورج، ١٨٦٨م، العدد ٢٥٠). وعلى الرغم من أن بورينين، الناقد في صحيفة ليبرالية، أدان الاتجاه النقدي الساخر للرواية، إلا أنه رفض بشدة الآراء التي وضعت رواية «الشياطين» جنبًا إلى جنب مع روايات ليسكوف وأفسينكو وماركيفيتش. وأردف قائلاً إنه حتى الصفحات، أكثر صفحات هذه الرواية تحيزًا، فإنها «ثمرة اعتقاد مُخلص، وليست تملُّقًا رخيصًا لغرائز الجماهير الحسِّية الفظة، مثل ما هو موجود في روايات الأساتذة» («وقائع سان بطرسبورج»، ١٨٧٣م، العدد ١٣). كان لهذا الرأي تحديدًا أثره الطيب على دستوفسكي، الذي أبرز مقالة بورينين بشكل خاص لأن الناقد «في تحليله لرواية «الشياطين» طرح فكرة أنني إذا كنتُ قد اعتنقتُ إيمانًا مغايرًا لإيماني السابق، فقد حدث هذا بكل صدق (أي أن ذلك لم يكن بقصد التظاهر، دائمًا بشرف)، وقد مسَّت هذه العبارة شغاف قلبي» (مكتبة الدولة باسم لينين). من الواضح أنه يتعيَّن علينا أن نشرح جزئيًا، بناءً على هذا الموقف، ما ذكره بورينين إلى جانب ما ذكرته أنا جريجوريفنا في مذكراتها عن بيلينسكي ودوبروليوبوف. إن المقالات الرصينة التي كتبها بورينين عن رواية «الإخوة كارمازوف» («العصر الحديث»، ١٨٧٩م، الأعداد، ١٠٨٧، ١٢٧٣، ١٣٥٧)، والتي تناول فيها الناقد العمل الجديد لدستوفسكي بصورة إيجابية تمامًا، حتى إنه كتب يقول: إن الرواية من حيث عمقها وطزاجتها في مُعالجتها للحياة الروسية «تبدو أكثر عصريَّة بعشر مراتٍ عن أكثر القصص والروايات والأعمال الدرامية والكوميديا المعاصرة». قد ساهمت في زيادة التعاطف من جانب دستوفسكي تجاه الناقد، وقد انعكس ذلك الشعور في مذكرات زوجته. على أنَّ أنا جريجوريفنا استطاعت أن تجد من بين النقاد الباحثين المعاصرين لإبداع دستوفسكي اسمًا أكثر جدارة من بورينين وهو فاليريان نيكولايفيتش

الآراء النقدية لأعماله، لنرى إلى أي حد كانت بالغة السطحية، لا تتسم بالعمق، تافهة، تعكس كراهية شديدة للكاتب.

اكتملت سعادتي بزيارة بائع الكتب كوجانتشيكوف^{٢٩} لنا، وقد عرض علينا شراء ثلاثمائة نسخة فوراً بكمبيالاتٍ تستحق السداد خلال أربعة أشهر. كان عرضاً مغرياً وبخاصة أنه كان سيأخذ هذه الكتب لبيعها في الأرياف، وبالتالي لن يضايق باعة كُتبنا في المدن. أكثر ما أحبطني هو أنه سيأخذ الكتب ويُعطينا كمبيالة، وهنا جاءني فيودور ميخايلوفيتش ليتشاور معي في هذا الأمر. لم يكن لديّ آنذاك فكرة عن الكمبيالات التجارية، ولذلك اقترحت على زوجي أن يأخذ في الحديث مع المشتري حتى أذهب إلى صاحب المطبعة، الذي يسكن بالقرب منّا. ولحسن الحظ وجدتُ واحدًا من الإخوة بانتيليف فأشار عليّ ألا أُضيع هذه الصفقة الجيدة، وأكّد لي أنه يمكن خصم كمبيالات كوجانتشيكوف، وأنه موافق أن يأخذها باعتبارها سدادًا لديونا للمطبعة. عدتُ بهذه الأخبار إلى البيت وعلى الفور كتب لنا كوجانتشيكوف (الذي كان يحمل بصحبته دائماً دفتر كمبيالات، باعتباره تاجرًا مُحنكًا) ثلاث كمبيالات قيمتها سبعمائة وخمسة وثلاثين روبلاً، وأعطاه فيودور ميخايلوفيتش إيصالاً يتسلّم به الكتب من المطبعة.

باختصار، فقد بدأ نشاطنا في النشر بداية رائعة. وبنهاية العام كنا قد بعنا ثلاثة آلاف نسخة، أما الخمسمائة نسخة المُتبقية فقد امتدّ بيعها إلى ما يقرب من عامين أو ثلاثة. والنتيجة أنه بحساب عمولات بيع الكتب وتسديد كافة المصروفات فقد حصلنا على ربح صافٍ يزيد على أربعة آلاف روبل، ممّا هياً لنا إمكانية سداد بعض الديون التي أثقلت كاهلنا طويلاً.

لا أظنُّ أنه قد حدث لنا بعض الخسائر في المرة الأولى: فقد استغل اثنان أو ثلاثة نصّابين نقص خبرتي في أعمال النشر، لكن هذه الخسارة علّمتنا أن نكون أكثر حذرًا وألاّ نستسلم للعروض البراقة، التي تبدو في ظاهرها رائعة، ثم يتضح بعد ذلك أنها خاسرة.

مايكوف، الذي أشار في مقالاته «شيءٌ ما عن الأدب الروسي في ١٨٤٦م» (الوقائع الوطنية، ١٨٤٧م، المجلد ٥٠) إلى أوجه التشابه بين واقعية جوجول وواقعية دستوفسكي، وحدّد بدقة أيضًا أوجه الخلاف بينهما في مقولة: «إن جوجول شاعر يتميز بالنزعة الاجتماعية، بينما يتميز دستوفسكي بالنزعة النفسية.»

^{٢٩} ديمتري يفيموفيتش كوجانتشيكوف (؟-١٨٧٧م): ناشر من بطرسبورج وبائع كتب.

كانت تسمية الرواية «بالشياطين» سبباً في تسميتها بأسماء مختلفة أخرى من جانب القادّمين لشرائها، وذلك عند طلبها من الفتاة بائعة الكتب. البعض كانوا يُسمونها «القوة العدوانية»، والبعض يقول: «أتينا لشراء الأبالسة»، وآخر يقول: «أعطني عشر نسخ من «الجن»». وحتى مُربيّتنا العجوز اشتكت لي، بعد أن استمعت مراراً لاسم الرواية، مؤكدة أنه منذ أن جلبنا إلى شقّتنا هذه «الروح الخبيثة» (تقصد «الشياطين») فإن ربيبها (ابني) أصبح أكثر قلقاً نهاراً وينام أسوأ ليلاً.

عندما بدأ فيودور ميخايلوفيتش عمله مُحرراً في مجلة «المواطن»، شغله هذا العمل وما يُحيط عملية التحرير من أمور جديدة عليه تماماً، إلى جانب هذا الكمّ المتنوع من الشخصيات التي تسنّى له الالتقاء بها في هيئة التحرير. أنا أيضاً كنت مسرورة في البداية لتغيير مهنة زوجي، مُفترضة أن تحرير مجلة أسبوعية لا يُمكن أن يُشكل صعوبة، خاصة وأنه سوف يتيح لفيودور ميخايلوفيتش أن يستريح بعض الوقت بعد عملٍ مضنٍ استمر ثلاث سنواتٍ في كتابة رواية «الشياطين». ولكنني شيئاً فشيئاً، أدركتُ أن زوجي، كما أدرك هو أيضاً ذلك، قد ارتكب، بقبوله هذا العمل غير المُلائم لشخصيته، خطأً كبيراً. كان فيودور ميخايلوفيتش يُمارس مهام التحرير بضميرٍ مُتقد، فكان يقرأ كافة المقالات التي تصل إلى المجلة؛ فضلاً عن تصحيح المقالات المكتوبة دون إتقان وبعضها من تأليف صاحب المجلة نفسه.^{٢٠} وكان ذلك يستهلك، بطبيعة الحال، وقتاً وجهداً كبيرين. ما زلت احتفظ بمسودّتين أو ثلاثٍ لأشعار مكتوبة بشكلٍ آخرق ولكنها تشي بموهبة كبيرة، وكيف ظهرت هذه الأشعار فيما بعد، على نحوٍ رائع، بعد أن قام فيودور ميخايلوفيتش بتصحيحها وتهذيبها.

وإلى جانب القراءة وتصويب مقالات الآخرين، استحوذت على فيودور ميخايلوفيتش المراسلات التي تجري مع كتّاب المجلة، وقد ظهر معظمها كما ورد نصّاً، وفي حالة

^{٢٠} خطاب فيودور ميخايلوفيتش إلّيّ والمؤرّخ التاسع والعشرين من يوليو ١٨٧٣م (ملاحظة لأنّاً جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثالث، ص ٧٠. وكما يُصرح دستوفسكي نفسه في هذا الخطاب (المؤرّخ التاسع والعشرين من يوليو ١٨٧٣م)، فقد قام بإعادة كتابة مقالة ميشيرسكي عن تيوتشيف. وقد نشرت مقالة «الذاكرة النضرة لتيوتشيف» في «المواطن» العدد ٣١ المؤرّخ ٣٠ يوليو ١٨٧٣م بعد أن قام دستوفسكي بتنقيحها (انظر في هذا السياق: ن. بيلتشيكوف، دستوفسكي عن تيوتشيف، مُلحق بها مقالة ف. ميشيرسكي، «الذاكرة النضرة لتيوتشيف»، مجلة «الماضي»، ١٩٢٥م، العدد ٥).

اختصارها أو تعديلها، كان هؤلاء الكتّاب يرسلون إليه خطابات حادّة وأحياناً وقحة. لم يكن فيودور ميخايلوفيتش ليقف مكتوف الأيدي تجاه مثل هذه الخطابات؛ فكان يردُّ عليها بشكل أكثر حدة. وهو ما كان يعود ليندّم عليه في اليوم التالي. ولما كان الردُّ على هذه الخطابات الحادة يتم عادة عن طريقي، ولعلمي بأنّ غضب زوجي سوف يهدأ في اليوم التالي وأنه سوف يندّم على غضبه، فقد كنتُ أحتفظ بالخطابات ولا أرسلها على الفور، وفي اليوم التالي، عندما كنتُ أراه يعصّ إصبع الندم على رده الحاد، كنتُ أخبره أن هذا الخطاب لم يرسل «صدفة»، عندها كان فيودور ميخايلوفيتش يكتب ردّاً وهو في حالة أكثر هدوءاً. وما زلتُ أحتفظ في أرشيفي بأكثر من عشرة خطابات من هذه الخطابات «الغاضبة»، التي كان من الممكن أن تدفع زوجي إلى نزاعٍ مع أناسٍ لم تكن لديه الرغبة إطلاقاً في الشجار معهم، ولكنه، تحت تأثير الملل أو الإرهاق، لم يكن باستطاعته أن يتمالك نفسه فيعبر عن رأيه دون أن يضع في اعتباره غرور مراسله. كان فيودور ميخايلوفيتش دائماً الامتنان لي على تلك الخطابات التي لم ترسل بالصدفة.

كم مرة اضطرّ فيها فيودور ميخايلوفيتش أن يُجري مباحثات شخصية، رغم وجود سكرتير لهيئة التحرير يُدعى فيكتور فيوفيليفيتش بوتسيكوفيتش.^{٣١} لكنّ أغلب العاملين في المجلة كانوا يرغبون في الحديث معه، وقد حدث كثيرٌ من سوء الفهم. ولما كان فيودور ميخايلوفيتش صادقاً في حديثه وتصرفاته، يُعبر عن رأيه دون مواربة، فقد خلق له ذلك أعداءً في عالم الصحافة!

وبالإضافة إلى الأضرار المادية، فقد تحمّل فيودور ميخايلوفيتش العديد من الأضرار النفسية أيضاً إبان عمله محرراً لمجلة «المواطن»؛ إذ إن الأشخاص الذين لم يكونوا مؤيدين لاتجاه المجلة، أو الذين كانوا كارهين للأمير ميشيرسكي شخصياً، نقلوا كراهيتهم وأحياناً حقدهم نحو دستويفسكي. وقد ظهر له عددٌ كبير من الأعداء حتى في مجال الأدب، باعتباره محرراً لهذه المجلة المحافظة.^{٣٢}

^{٣١} فيكتور فيوفيليفيتش بوتسيكوفيتش (١٨٤٣-١٩٠٩م): كاتب، مُحرر بمجلة المواطن في الفترة من ١٨٧٤-١٨٧٩م. أُصدر في الفترة من ١٨٧٩-١٨٨١م، وحرّر في برلين، مجلة «المواطن الروسي».

^{٣٢} في «مذكرات عن ف. م. دستويفسكي» كتب فسيفولد سولوفيوف يقول: «كان يُعلق آمالاً كبيراً على نشاطه في التحرير منذ أول لقاءٍ لنا. لكنّ هذا النشاط لم يكن مُبشراً إطلاقاً بالنجاح، وهو ما كان من

الغريب أن كثيراً من هؤلاء استمروا على كراهيته قبل وبعد وفاته، ولم يستطيعوا أن يغفروا له تحريره لمجلة «المواطن». وما تزال آراؤهم الكارهة له تظهر في الصحف حتى الآن.

في بداية عمله الجديد ارتكب فيودور ميخايلوفيتش هفوة. فقد استشهد في «المواطن» (في مقالة الأمير ميشيرسكي «نواب من قيرغيزيا في سان بطرسبورج») بكلمات للإمبراطور كان قد وجهها للنواب.^{٣٣}

ووفقاً لقواعد الرقابة المعمول بها آنذاك، كان ممنوعاً نشر خطاب أعضاء الأسرة الإمبراطورية؛ فضلاً عن الإمبراطور ذاته، إلا بعد الحصول على تصريح وزير البلاط الإمبراطوري، وكان زوجي لا يدري شيئاً عن هذا البند من القانون. وقد تمّ استدعاؤه إلى المحكمة دون مُحامين. انعقدت المحكمة في الحادي عشر من يونيو عام ١٨٦٣م في محكمة إقليم سان بطرسبورج.^{٣٤} ظهر فيودور ميخايلوفيتش شخصياً هناك، وقد اعترف بطبيعة الحال، بخطئه وحُكم عليه بغرامة قدرها خمسة وعشرون روبلاً، والحبس يومين

الممكن التنبؤ به على الفور لعلنا بشخصيته وبالظروف التي تُحيط به. كانت سُمعة المجلة قد ترسّخت وراحت الصحافة كلها آنذاك تُهاجم المجلة بحدة وبذاعة. وقد انهالت السخرية والازدراء على المحرر الجديد من كل جانب، سخرية غبية ووقحة. لقد تعرّض مؤلف «الجريمة والعقاب» ومذكرات من البيت الميت» لوصفه بالجنون والمهوس والمتخلف والخائن، بل إنهم دعوا الجمهور للذهاب إلى معرض أكاديمية الفنون لـ «مشاهدة صورة دستوفسكي هناك، التي رسمها بيروف، باعتبارها دليلاً مباشراً على أن هذا المعتوه مكانه في بيت المجانين» (دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، المجلد الثاني، ١٩٦-١٩٧).

^{٣٣} نشرت مقالة ميشيرسكي «نواب قيرغيزيا في سان بطرسبورج» في «المواطن»، العدد ٥، المؤرخ التاسع والعشرين من يناير ١٨٧٣م. وقد تضمّن المقطع التالي: «قام أقدم النواب المدعو سلطان محمد ... بإلقاء خطابه الذي كتبه نيابة عن الشعب، وقد ألقاه بأصالة وحزم وبلغة سليمة: «جلالة الإمبراطور»، ولكن عندما اعترض الإمبراطور على هذه الكلمات قائلاً: «هل تتحدّث بالروسية؟»، ارتبك محمد، حتى إنه نطق بضع كلمات بصوت خفيض باللغة القيرغيزية من خطاب كان قد أعدّه ثم أصابه الخرس» (حول هذا المقطع انظر: ي. ج. أوكسمان، «ف. م. دستوفسكي في هيئة تحرير «المواطن» في كتاب: إبداع دستوفسكي، أوديسا، ١٩٢١، ص ٦٩-٧١).

^{٣٤} تكوّنت المحكمة من الأعضاء: الأمير ي. م. بورخ، ف. ن. كريستيان، ك. أ. بيلياسوف، النائب العام، ج. زيجير (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

في المخفر الرئيسي.^{٣٥} كان زوجي قلقاً لعدم معرفته متى عليه أن يقضي العقوبة، وكذلك لأن ذلك عطّله عن اللحاق بنا في روسيا. وإبان اعتقاله تسنّى له أن يتعرّف على رئيس محكمة إقليم سان بطرسبورج آنذاك أناتولي فيودورفيتش كوني،^{٣٦} الذي بذل قصارى جهده حتى يتم حبس زوجي في أصلح مكان ملائم له. ومنذ هذا اليوم نشأت بين كوني وبين زوجي علاقة صداقة وطيدة استمرت حتى وفاته.^{٣٧}

كان علينا أن ننقل إلى شقة أخرى حتى نعيش بالقرب من هيئة تحرير مجلة «المواطن»، فانتقلنا لنسكن في شارع ليموفسكايا، عند ناصية حارة جوسيف، في بيت سليفتشانفسكي. لم يكن اختيارنا لهذه الشقة موفّقاً. كانت الغرف ضيقة وموزعة توزيعاً غير مُريح لنا. وحيث إننا انتقلنا في منتصف فصل الشتاء، فقد اضطررنا أن نستسلم للعديد من الأمور التي لا تبعث على الارتياح. أحد هذه الأمور هو شخصية صاحب البيت

^{٣٥} غير صحيح ما كتبه أنا جريجوريفنا دستوفسكايا أنّ دستوفسكي «بالطبع، اعترف بخطئه». انعقدت المحاكمة للنظر في قضية دستوفسكي صباح الحادي عشر من يونيو ١٨٧٣م. وقد حضر دستوفسكي إلى المحكمة، لكنه لم يعترف بذنبه؛ وقد حضر للدفاع عنه المحامي ف. ب. جايفسكي ممثلاً للصندوق الأدبي الذي أعلن أن لجنة الرقابة لا تملك الحق القانوني في رفع القضية (انظر «جولوس»، ١٨٧٣م، ١٣ يونيو، العدد ١٦٢).

^{٣٦} أناتولي فيودورفيتش كوني (١٨٤٤-١٩٢٧م): شخصية عامة، رجل قضاء، ناشر وأديب.

^{٣٧} وعن هذا المقطع يحكي أ. ف. كوني في مقالته في كتاب «ف. م. دستوفسكي» وإن كان في الحقيقة قد أخطأ في قوله إن دستوفسكي قد أُدين لنشره «معلومات عن رحلة القيصر» (انظر: أ. ف. كوني، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو، ١٨٦٨م، ص ٤٣٢). جمعت الصدفة بين أ. ف. كوني، رجل القانون الروسي البارز والكاتب في عام ١٨٧٣م، ليكون هذا التاريخ بدايةً لصداقة امتدت بينهما لسنوات طويلة. كان مؤلف الجريمة والعقاب مُهتماً بشكل خاصّ بمشكلات مخالفة القواعد الأخلاقية والاجتماعية، وكان أ. ف. كوني مُهتماً للغاية كذلك بهذه المشكلات باعتباره قانونياً بارزاً، وبفضله استطاع دستوفسكي أن يحصل على فرصة الحضور في عددٍ من المحاكمات في بطرسبورج في السبعينيات. وقد نظّم كوني لدستوفسكي رحلةً إلى مستعمرة للمجرمين الأحداث في عام ١٨٧٥م، وفي النهاية فإن رواية «الإخوة كارامازوف» مدينة للعديد من النصائح الحرفية التي بذلها كوني (الباب التاسع «تحقيق تمهيدي» والباب الثاني عشر «خطأ قانوني»). وإلى جانب مقالته عن «ف. م. دستوفسكي» كتب كوني مقالتين أُخريين عن دستوفسكي اتخذتا طابع المذكرات (انظر: أ. ف. كوني، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو، ١٩٦٨م).

المُضطربة. كان عجوزًا غريب الأطوار تسببت نزواته لي ولزوجي في إساءات كبيرة. ورد ذكرها في خطاب فيودور ميخايلوفيتش لي المؤرخ التاسع عشر من أغسطس.^{٣٨} في ربيع عام ١٨٧٣م سافرتُ مع الأطفال إلى ستاريا روسا، بناءً على نصيحة الأطباء، وذلك لاستكمال علاجهم بالمياه المالحة الذي كنّا بدأناه في العام الماضي، والذي كان له عليهم تأثير ملحوظ. لم نُقم هذه المرة لدى الأب روميانتسيف، إذ جرى تأجير البيت لآخرين، وإنما في بيت العقيد ألكسندر كارلوفيتش جريبى^{٣٩} وكان موجودًا في الخدمة في إدارة الإسكان العسكري منذ زمن أراكشيف.^{٤٠}

كان الفراق عن الأسرة أمرًا قاسيًا بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش، وكان يشعر بالوحشة الشديدة، ولذلك جاء إلينا في ستاريا روسيا أربع مراتٍ خلال فصل الصيف. وقد اضطر أن يتحمل كافة المسؤوليات المالية للمجلة أثناء غياب الأمير ميشيرسكي، ناهيك عن تحمُّله العيش في العاصمة طوال أشهر الصيف الحارة في بطرسبورج وما يُصاحبها من مضايقات.

كان للظروف التي ذكرتها سابقًا أثر بالغ السوء على أعصاب فيودور ميخايلوفيتش وخاصة على صحته، وهو ما جعله في خريف ١٨٧٣م يتذمّر من عمله كمحرر ويحلم بأن يعود ليجلس مرةً أخرى ليمارس عمله الإبداعي الخالص.

في عام ١٨٧٣م اختير فيودور ميخايلوفيتش عضوًا في جمعية مُحبي التعليم الديني، وكذلك عضوًا في جمعية بطرسبورج الخيرية السلافية.^{٤١} وقد بدأ يتردّد على اجتماعات ولقاءات هاتين الجمعيتين. اتسعت دائرة معارفنا وأصبح أصدقاء زوجي ومعارفه يتردّدون علينا أكثر فأكثر. وبالإضافة إلى ستراخوف الذي ظلّ لعدة سنواتٍ يتناول طعام الغداء معنا كل أحد، وكذلك أبوللون مايكوف، الذي كان كثيرًا ما يزورنا في هذا الشتاء،

^{٣٨} انظر الخطابات، المجلد الثالث، ص ٧٧.

^{٣٩} أ. ك. جريبى (١٨٠٦-١٨٧٦م): صاحب البيت الذي عاش فيه دستوفسكي في ستاريا روسا.

^{٤٠} ألكسي أندرويفيتش أراكشيف (١٧٦٩-١٨٣٤م): وزير مؤقت في عهد القيصر بافل الأول، ووزير حربية في الفترة من ١٨٠٨م إلى ١٨١٠م في عهد القيصر الإسكندر الأول.

^{٤١} غير صحيح؛ الحديث يدور عن لجنة بطرسبورج السلافية الخيرية، التي انبثقت عنها في عام ١٨٧٧م الجمعية السلافية الخيرية لتقديم المساعدات العينية للسلافيين البلقان، ودعم المتطوعين المُتجهين إلى ميدان الحرب الروسية التركية.

بدأ فلاديمير سرجييفتش سولوفيوف^{٤٢} — وكان ما يزال في عنفوان الشباب، وقد أنهى تعليمه لتوّه — زيارته إلينا.^{٤٣}

^{٤٢} فلاديمير سرجييفتش سولوفيوف (١٨٥٣-١٩٠٠م): فيلسوف وشاعر وكاتب اجتماعي، تعرّف عليه دستوففسكي في مطلع عام ١٨٧٣م.

^{٤٣} على الرغم من أن أواصر التعارف بين دستوففسكي وسولوفيوف عُقدت بالفعل في مطلع عام ١٨٧٣م (خطاب فلاديمير سولوفيوف إلى دستوففسكي المؤرخ ٢٤ يناير ١٨٧٣م، مكتبة الدولة باسم لينين)، ويدور الحديث في هذا الخطاب على الأرجح عن الأخ الأكبر لسولوفيوف، الكاتب والناقد فسي فولد سولوفيوف، الذي توطّدت علاقته بالمناسبة مع دستوففسكي في هذه الفترة (انظر فسي فولد سولوفيوف «مذكرات عن ف. م. دستوففسكي»، «دستوففسكي في مذكرات معاصريه» الجزء الثاني، ص ١٨٦-٢٠٩). وقد سافر فلاديمير سولوفيوف إلى الخارج لمدة عامين فور حصوله في عام ١٨٧٤م على درجة الماجستير، وكانت أطروحته تُسمّى «أزمة الفلسفة الغربية» وهكذا فإن العلاقة بينه وبين دستوففسكي توطّدت على نحوٍ أوثق بدءاً من عام ١٨٧٧م فور عودته إلى بطرسبورج. وقد جرّت معظم لقاءاتهما منذ نهاية ١٨٧٧م وحتى خريف ١٨٧٨م عندما راح دستوففسكي يواظب على حضور المحاضرات التي كان يُلقّيها فلاديمير سولوفيوف بنجاحٍ منقطع النظير في سولياني في ضواحي بطرسبورج تحت عنوان «قراءات حول الإله الإنسان». وفي يونيو ١٨٧٨م وإبان رحلتها معاً إلى دير أوبتينا، عرض دستوففسكي على فلاديمير سولوفيوف «فكرته الرئيسية» وبعضاً من الخطة الكاملة لسلسلة رواياته المنتظرة، التي لم يكتب منها سوى «الإخوة كارامازوف» (انظر في هذا السياق: فلاديمير سولوفيوف، المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، سان بطرسبورج، ١٩١٢م، ص ١٩٧). وقد حضر دستوففسكي في السادس من أبريل ١٨٨٠م مناقشة أطروحة فلاديمير سولوفيوف للدكتوراة التي كان عنوانها «نقد المبادئ المُحررة». وقد اهتمّ الكاتب بنظريات الفيلسوف الشاب، وكان أكثر ما لفت انتباه دستوففسكي هو جوهر الفكرة القريبة إليه، والتي عبّر عنها سولوفيوف عندما ذكر أن «الإنسانية ... تعرف أكثر بكثير مما استطاعت أن تُعبّر عنه فيما أنجزته من علوم وفنون» (خطاب دستوففسكي إلى إدوارد يونج المؤرخ الحادي عشر من أبريل ١٨٨٠م، الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٣٦). وبعد وفاة دستوففسكي ألقى فلاديمير سولوفيوف ثلاثاً حُطّب أكد فيها على المُثل الدينية في إبداع الكاتب: وهكذا فإنّ الكنيسة، باعتبارها مثلاً اجتماعياً إيجابياً، وأساساً وهدفاً لكل أفكارنا وأعمالنا، وهي ماثرة الشعب بأسره، والطريق المستقيم إلى تحقيق هذا المثال. هذه هي الكلمة الأخيرة التي وصل إليها دستوففسكي، والتي أضاءت كل أعماله بنور نبوي» (فلاديمير سولوفيوف، ثلاث حُطّب في ذكرى دستوففسكي، موسكو، ١٨٨٤م، ص ١٠). على أن هناك أُسساً قوية للشك في الإخلاص التام لفلاديمير سولوفيوف، الذي كانت المُثل التي نادى بها الكاتب غريبة عليه في مُعظمها، وفي آرائه الدينية التي كتب عنها بحدة تامّة إلى الكاتب والناقد قنستانتين ليونتييف «إن دستوففسكي يؤمن بحرارة في وجود الدين وكثيراً ما نظر إليه من خلال أنبوبٍ بصري، باعتباره موضوعاً قائماً بذاته، ولكنه لم يستطع إطلاقاً أن يقف في الواقع على أرضية دينية» (فاسيلي روزانوف، من مراسلاته

في البداية كتب خطاباً لفيودور ميخايلوفيتش، الذي دعاه لزيارتنا. ترك سولوفيوف آنذاك أثراً طيباً على زوجي، وكان كلما ازداد لقاءً به وتناول معه شئاً الأحاديث، ازداد حُباً وتقديراً لعقله وتعليمه الرفيع. وذات مرة أخبره زوجي عن السبب وراء مودته الشديدة له.

– إنك تذكرني بشدة بشخص ما، قال زوجي له، يُدعي شيدلوفسكي،^{٤٤} كان له أثر عظيم عليّ في شبابي،^{٤٥} إنك تشبهه شبهاً كبيراً شكلاً وموضوعاً، حتى يُخيل لي أن روحه قد انتقلت لتستقر بداخلك.

– وهل مات منذ زمن بعيد؟ سأله سولوفيوف.

– لا، منذ أربع سنوات فقط.

– وهل كنت تظن أنني على مدى عشرين عاماً قبل وفاته كنت أعيش بلا روح؟! سأله فلاديمير سيرجييفيتش وانفجر في الضحك. كان في معظم الأحوال مرحاً. تنتقل إليه سريعاً عدوى الضحك. وأحياناً ما تقع له أحداث طريفة بسبب ما ينتابه من شرود. على سبيل المثال، كان فلاديمير سيرجييفيتش يعلم أن زوجي قد تجاوز الخمسين من العمر، من ثم اعتبر أنني، زوجته، لا بد وأن أكون في نفس العمر تقريباً. وها هو ذات مرة ونحن نتحدث عن رواية بيسميسكي^{٤٦} «الأربعينيون»، يتوجّه إلينا بالحديث قائلاً: وأنتما، باعتباركما من الأربعينيين، قد تزون أن ... وهلمّ جرّاً.

إلى قنسطنطين ليونتييف «البشير الروسي»، ١٩٠٣م، العدد ٥، ص ١٦٢). وعن دستوفسكي وفلاديمير سولوفيوف انظر مقالة الفيلسوف المثالي إرنست ليوبولدوفيتش رادلوف «سولوفيوف ودستوفسكي» في كتاب دستوفسكي، المجلد الأول.

^{٤٤} إيفان نيكولايفيتش شيدلوفسكي (١٨١٦-١٨٧٢م): شاعر، صديق شباب دستوفسكي. تعرّف عليه الأخوان دستوفسكي عام ١٨٧٣م عندما وصلا للمرة الأولى للدراسة في معهد الهندسة ببطرسبورج.

^{٤٥} تعرّف دستوفسكي على إيفان نيكولايفيتش شيدلوفسكي في ربيع ١٨٣٧م، بمجرد وصوله مع أخيه ميخائيل إلى بطرسبورج. لقد وقع دستوفسكي في السنوات الأولى لوجوده في معهد الهندسة تحت تأثير شيدلوفسكي، الذي كان يكتب قصائد صوفية غامضة، وكان يعيش قصة حبّ سامية، ويتحدث على نحو مُلهم عن مملكة الله ويحلم بلذة بالانتحار. كان دستوفسكي يحكي لأخيه عن شيدلوفسكي بحماس بالغ: «تنظر إليه، فإذا بك أمام شهيد! كان نحيلاً، خداه غائران، عيناه منديتان، متوهجتان بالحماس، الجمال الروحي لوجهه يستمر فوق ذبوله البدني ...، يا له من إنسانٍ مخلص صريح! أن تنساب الآن عندما أتذكر الماضي ... لقد قُمتنا في لقائنا الأخير بالتنزّه في يكاتير ينهوف. كم كانت أمسية! لقد استعدنا

وعندما نطق بهذه الكلمات ضحك فيودور ميخايلوفيتش وقال لي مشاكساً: هل تسمعون يا أنيا؟ فلاديمير سرجييفيتش يعدُّك من الأربعينيات!
- الرجل لم يُخطئ، أحبته، فقد ولدت في السادس والأربعين وثمانمائة وألف.
شعر سولوفيوف بالخلل الشديد للخطأ الذي ارتكبه؛ وهنا فقط، للمرة الأولى ينظر إليّ ليتعرّف على الفارق الكبير في العمر بيني وبين زوجي. وقد ذكر فيودور ميخايلوفيتش في حديثه عن وجه فلاديمير سولوفيوف أنه يُذكره بلوحة من لوحات أنيبال كاراتشي^{٤٧} المحببة إليه واسمها «رأس المسيح الشاب».

فيها ذكريات فصل الشتاء، عندما تحدثنا عن هيرميروس وشكسبير وشيللر وهوفمان، وقد تحدّثنا طويلاً عن هوفمان وقرأناه كثيراً ... لقد كنت في حالة من البهجة الشديدة في الشتاء الماضي. وقد عشتُ أجمل ساعات حياتي بفضل معرفتي بشيدلوفسكي ... أستطيع أن أقول إن لي رفيقاً، مخلوقاً، أحبه حباً جماً! (الخطاب مؤرّخ الأول من يناير ١٨٤٠م، الخطابات، المجلد الأول، ٥٦-٥٧). عمل شيدلوفسكي لفترة قصيرة موظفاً في بطرسبورج، ولكنه سرعان ما غادرها عائداً إلى مسقط رأسه في محافظة خاركوف، وهناك أعد بحثاً كبيراً في تاريخ الكنيسة الروسية. ولعلّ من اللافت للانتباه أن أوردينوف، بطل قصة دستوفسكي المبكرة، يجمل، ربما، كثيراً من الملامح النفسية لشيدلوفسكي، والذي كان يكتب هو أيضاً بحثاً عن تاريخ الكنيسة. وفي الخمسينيات انخرط شيدلوفسكي في سلك الرهينة بدير فالويسكي، ومن هناك ذهب للحج في كييف. عاد بعدها إلى قريته، حيث عاش بها إلى أن وافته المنية. ظلّ دستوفسكي طوال عمره يحتفظ بذكرياتٍ طيبة عن صديق شبابه. ويذكر فسيفولد سولوفيوف أنه عندما طلب من دستوفسكي أن يقص عليه طرفاً من حياته ليكتب مقالته عنه، أجابه الكاتب: «من الضروري أن تذكر في مقالاتك شيدلوفسكي، لا حاجة لك أن تقول إن أحداً لا يعرفه، وإنه لم يترك بعده اسماً أدبياً. أستحلفك بالله يا عزيزي أن تذكر أنه كان شخصاً عظيماً بالنسبة لي، وأن اسمه لا ينبغي أن يُطوى في غياهب النسيان» (دستوفسكي في ذكريات مُعاصريه، المجلد الثاني، ص ١٩١). ظلت شخصية شيدلوفسكي، الرومانسي الروسي، مطبوعةً للأبد في مخيلة دستوفسكي. ويعد أوردينوف، بطل قصة دستوفسكي «صاحب النزل» أول من بدأ المسار الرومانسي بين أبطاله؛ لينتهي هذا المسار بديمتري كارامازوف الذي ألقى نشيد شيللر. عن شيدلوفسكي ودستوفسكي المبكر، أوديسا، ١٩٢١م.

^{٤٦} ألكسي فيوفيلاكثوفيتش بيسميسكي (١٨٢١-١٨٨١م): كاتب، مؤلف روايات: «ألف نفس»، «البحر الهائج»، «الماسونيون» وغيرها.

^{٤٧} كاراتشي Carracci: عائلة فنية إيطالية من مدرسة بولونيا تُمثّل الاتجاه الأكاديمي لود وفيكو (١٥٥٥-١٦١٩م) والأخوان أجوستينو (١٥٥٧-١٦٠٢م) وأنيبالي (١٥٦٠-١٦٠٩م) أسسوا في بولونيا «أكاديمية الذين ساروا على الطريق الصحيح» (حوالي ١٥٨٥م) جمعوا بشكلٍ توفيقٍ بين أساليب أساتذة عصر النهضة. أشهرهم أنيبالي الذي رسم صوراً شخصية واقعية ومناظر طبيعية وجداريات قصر فارنيزي بروما (١٥٩٧-١٦٠٤م). (المترجم)

تعود معرفة فيودور ميخايلوفيتش ببيوليا دنيسوفنا زاسيتسكايا^{٤٨} ابنة الفدائي دنيس دافيدوف^{٤٩} إلى عام ١٨٧٣م. وكانت قد أسست لتوها أول ملجأ في بطرسبورج (يتبع السرية الثانية في فوج إسماعيلوفسكي) وقد دعت فيودور ميخايلوفيتش عن طريق سكرتير تحرير مجلة «المواطن» في يوم مُحدّد لمشاهدة الدار التي بنتها للمُشرّدين. كانت بيوليا زاسيتسكايا من أتباع الطائفة الريدستوكية،^{٥٠} وقد حضر فيودور ميخايلوفيتش عدة مرات المناقشات الدينية لريدستوك^{٥١} وغيرهم من المُبشّرين لهذا المذهب. كان فيودور ميخايلوفيتش يُقدّر فكر وطيبة ي. د. زاسيتسكايا الشديدة تقديراً رقيقاً، كان يزورها أحياناً ويُراسلها أحياناً أخرى.^{٥٢}

^{٤٨} بيوليا رئيسوفنا زاسيتسكايا (دافيدوفا قبل الزواج) (١٨٨٢-٩م): كاتبة ومترجمة.

^{٤٩} دنيس فاسيليفيتش دافيدوف (١٧٨٤-١٨٣٩م): شاعر وكاتب حربي.

^{٥٠} الريدستوكية: اسم طائفة ظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إنجيلية مسيحية على اسم اللورد الإنجليزي ريدستوك الذي بشرّ بتعاليمه في بطرسبورج. (المترجم)

^{٥١} في عام ١٨٧٤م قام جرينفيل ريدستوك، الداعية الإنجليزي لمذهب التوبة عن طريق الإيمان، بقراءة عدد من المحاضرات في بطرسبورج. وكان لدعوته أثر في نشأة طائفة دينية في روسيا عُرفت باسم الباشكوفيين (أحد أسماء طائفة المسيحيين الإنجيليين في نهاية القرن التاسع عشر على اسم زعيمها آنذاك ف. أ. بشكوف، المترجم). ويتلخص مذهب ريدستوك في التوبة عن طريق الإيمان في أن «غفران الذنوب لا يأتي نتيجة الأعمال الصالحة، فالذنوب يمكن أن يُطهرها الدم المُقدّس، الذي إنساب وغسل كل من آمن بالمسيح، باعتباره المُخلّص الوحيد، وهو الوحيد الذي يصل بين الله والإنسان». وقد أعرب دستوفسكي عن رفضه لتعاليم ريدستوك في «مذكرة الكاتب» عن ١٨٧٦م قائلاً «إن النجاح الحقيقي للورد ريدستوك يعتمد في الأساس على أننا «انفصلنا» عن أرضنا، عن أمتنا. ويبدو أننا، الصفوة المثقفة في مجتمعنا، أصبحنا الآن شعباً غريباً، صغير العدد للغاية، لا قيمة له إطلاقاً، لكنه يمتلك مع هذا عاداته وخرافاته، التي يمكن اعتبارها ديناً خاصاً به» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ٢٤٢).

^{٥٢} لم يُكشف حتى الآن أي خطاب من دستوفسكي إلى زاسيتسكايا. وبخصوص المراسلات التي جرت بينهما تشير أ. ج. دستوفسكايا إلى «التعليقات على أعمال ف. م. دستوفسكي»: «ربما يمكن العثور لدى وريثة بيوليا دنيسوفنا زاسيتسكايا (أبنائها وبناتها) أو لدى أختها الأميرة فيسكونتي على خطابات أرسلها فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي ردّاً على خطابات زاسيتسكايا، وخاصة تلك التي تدور حول قضايا الدين» («إبداع دستوفسكي»، أوديسا، ١٩٢١م، ص ٣٤). ليس من قبيل الصدفة أن تكتب أنّا جريجوريفنا دستوفسكايا، أن هذه الخطابات تدور «بصفة خاصة حول قضايا الدين ثم تذكر فيما بعد في مذكراتها أن دستوفسكي اشتبك في جدل شديد، وإن كان ودياً مع ي. د. زاسيتسكايا حول معتقداتها الدينية». وانتقلت من الأرثوذكسية إلى اللوثرية، وقد حاول دستوفسكي أن يعيدها إلى الأرثوذكسية

وقد زارتني هي أيضًا وتعاملتُ معها وكانت سيدة غاية في الطيبة والرقّة، شاركتني أحزاني عندما توفي زوجي.

في عام ١٨٧٣م كنا ننور آل كاشبيري^{٥٢} وكان فاسيلي كاشبيري^{٥٣}، رأس العائلة، يُصدر مجلة «الفجر»، بينما كانت زوجته صوفيا سرجيفنا^{٥٤} تصدر وتحرر مجلة أطفال تُسمى «أمسيات عائلية». كان الزوجان يحملان لنا مشاعر طيبة للغاية، وكان فيودور ميخيلوفيتش يُحب زيارتهم. في عام ١٨٧٣م أقام الزوجان أمسية شيقة شارك فيها الكاتب الشهير ألكسي بيسيمسكي، قرأ فيها روايته «البورجوازيون الصغار» التي لم تكن قد نشرت بعد. لم يترك بيسيمسكي انطباعًا قويًا لديّ: كان يبدو لي رجلًا سمينًا أخرق، لكنه قرأ روايته بشكٍ رائع، استطاع بمهارة أن يُميز خلالها أنماط أبطالها.

وفي عام ١٨٧٣م أيضًا جدّد فيودور ميخيلوفيتش صداقته القديمة بعائلة شتاكينشنايدر^{٥٥} والتي كانت يلينا أندرييفنا^{٥٦} بمثابة القلب النابض لها، وهي ابنة المعماري الشهير شتاكينشنايدر^{٥٧}. كانت امرأة ذكية ومتقفة وكانت تجمع في بيتها كل أحدٍ جمعًا من الأدباء والفنانين. كانت تعامل فيودور ميخيلوفيتش برقةٍ وطيبةٍ بالغين. وقد بادلناها نفس المشاعر. بالمناسبة كنّت من النادر في هذه السنوات أن أذهب إلى

مرة أخرى. عن الجدل الديني بينهما: انظر مذكرات ن. س. ليسكوف: «عن الفلاح الكاتب وأمور أخرى. ملاحظات حول بعض الآراء التي قيلت عن ليف تولستوي». في كتاب ن. س. ليسكوف، الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، موسكو، ١٩٥٨م، ص ١٤٧-١٥٥.

^{٥٣} فاسيلي فلاديميروفيتش كاشبيري (١٨٣٦-١٨٧٥م): أديب، ناشر مجلة «الفجر» (زاريا).
^{٥٤} صوفيا سرجيفنا كاشبيري: زوجة ف. ف. كاشبيري. مُحررة وناشرة لمجلة الأطفال «أمسيات عائلية» منذ عام ١٨٧٠م. صديقة لعائلة دستوفسكي.

^{٥٥} أدريان أندرييفيتش شتاكينشنايدر (١٨٠٢-١٨٦٥م): معماري من بطرسبورج. أنشأ قصر مارينسكي.
^{٥٦} يلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر (١٨٣٦-١٨٩٧م): ابنة شتاكينشنايدر، صاحبة صالون أدبي.

^{٥٧} تعرفت يلينا شتاكينشنايدر على دستوفسكي في مطلع الستينيات وتجدّدت صداقتهما في السبعينيات، وقد قام بزيارتها في بيتها كثيرًا، كما أنهما كانا يتراسلان أيضًا (انظر: الخطابات، المجلد الرابع، ص ٦٢، ص ١٨٢). وقد انعكست هذه اللقاءات في يوميات ي. شتاكينشنايدر وفي مذكراتها عن دستوفسكي التي لم تكتمل (ي. أ. شتاكينشنايدر، يوميات ومذكرات (١٨٥٤-١٨٨٦م)، موسكو، ليننجراد (١٩٣٤م). عن زيارات دستوفسكي لبيت ي. شتاكينشنايدر انظر أيضًا لمذكرات: ف. ميكوليتش (ل. إ. فيسيليتسكايا)، لقاءات مع الكتاب، ليننجراد، ١٩٢٩م.

المناسبات الاجتماعية، إذ كان أطفالاً ما يزالون صغاراً وكان من الخطر تركهم في رعاية المربية.

كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالأسى الشديد بسبب قسوة الظروف التي أعيشها في المنزل، وفي شتاء عام ١٨٧٣م أصر على أن أنتهز الفرصة المتاحة لأحصل على اشتراك لمشاهدة الأوبرا الإيطالية التي كان يُغني فيها مُغنون متميزون مثل باتي^{٥٨} وفوليبين^{٥٩} وكالتسولاري^{٦٠} وسكالكي^{٦١} وإيفرادي^{٦٢} وغيرهم. كان مكاني في الشرفة في مواجهة الثُّرَيَّا الضخمة مباشرة، وكنتُ أرى ما يحدث على الجانب الأيمن من خشبة المسرح فقط، وأحياناً لا أرى سوى الأقدام، بل كنتُ أحياناً أسأل جارتني: «من الذي يرتدي الحذاء الأصفر الضخم أو الحذاء الوردي؟» ولكن على الرغم من أن المكان لم يكن مريحاً، فإنه لم يمنعي من الاستمتاع بالأصوات الرائعة للفنانين^{٦٣} كما أنني لم أكن قلقاً على الأطفال، حيث كان فيودور ميخايلوفيتش في هذه الأمسيات يظلُّ بالبيت، فيُهرع إليهم بمجرد سماعه أي صوتٍ أو بكاء ليطمئنَّ على أنَّ كل شيءٍ على ما يُرام.

^{٥٨} أديلينا باتي (١٨٤٣-١٩١٩م): مغنية إيطالية، قدمت عروضها في السبعينيات من القرن التاسع عشر في بطرسبورج.

^{٥٩} إيميليا فوليبين (١٨٤١-٩م): مغنية إيطالية، قدمت عروضها في السبعينيات من القرن التاسع عشر في بطرسبورج.

^{٦٠} إنريكو كالتسولاري (١٨٢٣-١٨٨٨م): مغنٍّ إيطالي، قدم عروضه في الستينيات والسبعينيات في بطرسبورج.

^{٦١} صوفيا سكالكي (١٨٥٠-١٩٢٢م): مغنية إيطالية، قدمت عروضها في السبعينيات في بطرسبورج.

^{٦٢} كاميللو إيفرادي (١٨٢٥-١٨٩٩م): مُغنٍّ، أستاذ بكونسرفاتوار موسكو وبطرسبورج.

^{٦٣} أتذكّر على وجه الخصوص أوبرا Dinorah التي غنت فيها باتي «وكأنها بلبل يزقزق» (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

الجزء السابع

العامان ١٨٧٤-١٨٧٥م

١

العام ١٨٧٤م، الحبس، نكراسوف

كانت الأشهر الأولى من عام ١٨٧٤م أشهرًا ثقيلة الوطء. كنا مضطرين للخروج من المنزل لقضاء الأعمال المتعلقة بمجلة «المواطن» في كل الأوقات. كان فيودور ميخايلوفيتش يواصل الجلوس ساعاتٍ طويلةٍ قبيل صدور العدد الجديد في غرفة التصحيح شديدة الحرارة، حتى إنه كان يُصاب بالبرد من حينٍ لآخر، أما سعاله الذي بدأ خفيفًا، فقد تحوّل إلى سعالٍ شديد وأصبح يُعاني من النهجان، وقد نصحه البروفيسور كوشلاكوف^١، بعد أن زاره زوجي، بالعلاج بالهواء المضغوط. أوصاه كوشلاكوف بالعلاج في مستشفى الدكتور سيمينوف (وكان يقع في شارع جاجارينسكايا)، حيث راح فيودور ميخايلوفيتش يجلس ساعتين تحت الكئوس ثلاث مراتٍ أسبوعيًا. سرعان ما عاد عليه العلاج — بالهواء المضغوط — بالفائدة الكبيرة، على الرغم من أنه كان يستقطع منه وقتًا كبيرًا، إلى حدٍّ أنه كان يفسد عليه يومه: كان عليه أن يستيقظ مبكرًا ليصل في الموعد المحدد، ثم ينتظر المرضى الذين تأخروا في الحضور، وهؤلاء كانوا يجلسون معه تحت الكئوس وهلمَّ جرًّا. كل ذلك كان يُكدر كثيرًا من صفو زوجي.

^١ ديمتري إيفانوفيتش كوشلاكوف (١٨٣٥-١٨٩١م): أستاذ بالأكاديمية الطبية للجراحة، طبيب أمراض باطنية، تولى علاج دستوفسكي.

ومن الأمور التي زادت آنذاك من عذاب فيودور ميخايلوفيتش، هو أنه يومًا وراء الآخر، لم يعد باستطاعته أن يذهب لقضاء يومي الحبس اللذين حُكم عليه بهما في العام الماضي بسبب مقالته التي نشرها في «المواطن»^٢، وكان وراء ذلك التزامه بأعمال التحرير، ناهيك عن سوء حالته الصحية. أخيرًا اتفق زوجي مع المحامي كوني وتحدّد موعد الحبس في النصف الثاني من مارس. وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر حضر إلينا ضابط شرطة، وكان فيودور ميخايلوفيتش بانتظاره، وقد ذهبا معًا في البداية إلى المحكمة المحلية. وكان عليّ أن أتوجّه بعد ساعتين إلى قسم الشرطة لأعرف على وجه اليقين في أي مؤسسة سوف ينزل زوجي. وقد علمت أنه سوف يقيم في المخفر الموجود في ميدان سينايا (ميدان العلف وهو الآن معمل المدينة). على الفور ذهبت إلى هناك ومعني حقيبة صغيرة بها بياضات للفرش وبعض اللوازم. كان زمنيًا يتّسم بالبساطة وسرعان ما سمحوا لي بالدخول إلى زوجي. وقد وجدتُ فيودور ميخايلوفيتش في حالة نفسية طيبة: بدأ يسألني عن الأطفال وما إذا كانوا قد أحسّوا بالوحشة في غيابه وطلب منّي أن أقدم لهم بعض الهدايا وأن أخبرهم أنه مسافر إلى موسكو ليحضر لهم الألعاب التي يُحبونها. وفي المساء أحسستُ أن صبري قد نفذ، فذهبت عائدةً مرةً أخرى إلى زوجي، بعد أن وضعتُ الطفلين في الفراش. كان الوقت متأخرًا فلم يسمحوا لي بالدخول ومقابلته، ولكنني أرسلتُ له مع الحارس فطيرة طازجة وخطابًا. كنتُ أشعر بالحزن الشديد لأنني لم أستطع أن أبادله بعض الحديث، وأن أطمئنّه على الأطفال، حتى إنني وقفتُ أسفل نافذة المخفر (الأخيرة في حارة سباسكي) ورأيتُ زوجي جالسًا إلى المائدة وقد راح يقرأ كتابًا. وقفتُ خمس دقائق ثم نقرتُ بهدوء على النافذة، وعلى الفور قام زوجي ونظر من النافذة. وعندما رأيته تبسّم وبدت على وجهه أمارات المرح وراح يهزُّ رأسه. وفي هذه اللحظة اقترب منّي الجندي المناوب فاضطرتُّ أن أغادر المكان. ذهبتُ إلى أبوللون مايكوف (وكان يسكن غير بعيدٍ في شارع سادوف) وطلبتُ منه أن يزور زوجي غدًا. كان ودودًا للغاية حتى إنه أبلغ فسيفولد سولوفيوف بنياً حبس زوجي، فسارع هذا لزيارة فيودور ميخايلوفيتش في اليوم التالي.^٣ وفي اليوم الثاني ذهبتُ إلى زوجي مرتين (ثم عدتُ إليه مرةً ثالثة في

^٢ انظر ملاحظاتي السابقة في هذا الشأن (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

^٣ مذكرات فسيفولد سولوفيوف عن فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي «البشير التاريخي»، ١٨٨١م،

أبريل (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكيا).*

المساء، وفي هذه المرة كان ينتظرني في النافذة)، أما في اليوم الثالث فقد قابلنا أنا والأطفال بسرور بالغ «بابا» الذي عاد «من موسكو»، وفي الطريق عرجنا على أحد المحال لشراء ألعاب للأطفال. عاد فيودور ميخيلوفيتش من الحبس مُغتبطاً وأخبرني أنه قضى يومين رائعين. كان رفيقه في الزنزانة أحد أصحاب الحرف، كان يقضي ساعاتٍ طويلة نهاراً نائماً مما أتاح لزوجي أن يُعيد قراءة «البؤساء» لفكتور هوجو، وهو من الأعمال التي كان يُقدها تقديراً رفيعاً.

رائع أنهم حبسوني، قال زوجي بمرح، وإلا لما تمكنتُ مطلقاً من أن أُجدد انطباعاتي القديمة الرائعة عن هذا العمل العظيم.

في بداية عام ١٨٧٤م قرر فيودور ميخيلوفيتش أن يترك نهائياً العمل في تحرير مجلة «المواطن» (العدد الأخير باسمه في الخامس عشر من أبريل).^٥

من جديد يجتذب العمل الإبداعي الخالص فيودور ميخيلوفيتش. ومن جديد تتوَلَّد في رأسه أفكار وشخص جديدة، وها هو يشعر بالحاجة لتجسيدها في رواية جديدة. كان مهموماً، بطبيعة الحال، بمسألة أين سينشرها^٦ في حالة ما إذا كانت «البشير الروسي» قد حصلت بالفعل على مادة لنشرها في العام القادم. وبصفة عامة كان زوجي، فوق ذلك، يشعر بالحرج دائماً من عرض أعماله. وقد تكاثفت الظروف لتصنع نهايةً سعيدة لهذه المشكلة التي أَرَقَّتْنا.

في صباح أحد أيام شهر أبريل، وفي الساعة الثانية عشرة، أعطتني الخادمة بطاقة تعارفُ كُتِبَ عليها «نيكولاي ألكسييفيتش نكراسوف» كنت أعلم أن فيودور ميخيلوفيتش قد ارتدى ملابسه وأنه في سبيله لمغادرة المنزل فوراً، فأسرعتُ بدعوة الضيف إلى

* اقتباس غير دقيق. عن هذا الأمر كتب فيسيفولد سولوفيوف في عدد مارس (العدد ٣) من مجلة «البشير التاريخي» عام ١٨٨١م، ص ٦٤.

^٤ فيكتور هوجو (١٨٠٢-١٨٥٥م): روائي فرنسي كبير.

^٥ في أبريل عام ١٨٧٤م توقَّف دستوفسكي عن العمل باعتباره مُحرراً لمجلة «المواطن»، ولكنه في الواقع كان يمارس منذ نهاية عام ١٨٧٣م بعض المهام الشكلية فقط كمُحرر، وهو ما أخبر به م. بوجددين في خطابه له المؤرِّخ الثاني عشر من نوفمبر ١٨٧٣م: «... أقوم بإعداد العدد، أقرأ المقالات، أنقحها ولكنني نادراً ما أكتب، هذا هو كل عملي. أما ما يتعلق بباقي الأعمال، فإنني لا أملك حيالها تفسيراً» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٣٠٢).

^٦ يدور الحديث هنا عن رواية «المراهق».

غرفة الاستقبال ثم ذهبْتُ فسَلَّمت البطاقة إلى زوجي. وبعد خمس دقائق دعا فيودور ميخايلوفيتش ضيفهُ إلى مكتبه معتذراً له عن تأخُّره.

كنت مهتمة بشدة لحضور نكراسوف، صديق الشباب، ثم، فيما بعد، عدوه الأدبي. كنت أعلم أن صحيفة «المعاصر»^٧ كانت تشتم فيودور ميخايلوفيتش في الستينيات، عندما كانت «الزمن» و«العصر» تصدران، وحتى في السنوات الأخيرة لم ينقطع الهجوم المرير مرةً واحدة في المجلة من جانب ميخايلوفسكي^٨ وسكابيتشيفسكي^٩ ويلييسيف^{١٠} وغيرهم.^{١١} كنت على علمٍ أيضًا أن فيودور ميخايلوفيتش منذ عودته من الخارج، لم يلتقِ

^٧ المعاصر («سوفريمينيك»): مجلة دورية صدرت في بطرسبورج في الفترة من ١٨٣٦م وحتى ١٨٤٦م، أسسها الشاعر ألكسندر بوشكين، وبعد وفاته أعاد إصدارها مجموعة من أصدقائه وعلي رأسهم جوكوفسكي. في عام ١٨٣٨م انتقلت إلى بليتنييف الذي نقل حقوق إصدارها في عام ١٨٤٦م إلى نكراسوف. (المترجم)

^٨ نيكولاي قنسطنطينوفيتش ميخايلوفسكي (١٨٤٢-١٩٠٤م): عالم اجتماع وكاتب وناقد أدبي، مُنظرٌ للنزعة الشعبية. عمل بمجلة «حوليات الوطن» منذ عام ١٨٦٨م، ثم عضوًا بهيئة تحريرها.

^٩ ألكسندر ميخايلوفيتش سكابيتشيفسكي (١٨٣٨-١٩١٠م): مؤرخ للأدب وناقد، عمل بمجلة «حوليات الوطن» منذ عام ١٨٦٨م.

^{١٠} جريجوري زخاروفيتش يلييسيف (١٨٢١-١٨٩١م): كاتب وصحفي. عمل بمجلة «المعاصر»، ثم عمل محررًا بصحيفة «الشرارة» («إيسكرا») منذ عام ١٨٦٨م، عضو هيئة تحرير «حوليات الوطن».

^{١١} يدور الحديث هنا عن «حوليات الوطن»: إذ إن «المعاصر» كانت قد توقفت عن الصدور في عام ١٨٦٦م. وعن صداقته بنكراسوف في الأربعينيات، وعن «الذكرى الخالدة» للقاء الأول بينهما، يحكي دستوفسكي في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧م (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، ص ٢٩-٣٢: انظر أيضًا مذكرات ديمتري جريجورفيتش في كتاب: دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الأول، ص ١٣٢-١٣٣). ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف بينهما، ويرجع السبب في ذلك بشكل أساسي إلى تحول موقف بيلينسكي وحلقته من دستوفسكي (انظر في هذا السياق مذكرات أفدوتيا باناييفا في كتاب: دستوفسكي في مذكرات مُعاصريه، الجزء الأول)، على أنهما لم يَعبرا هذا الخلاف الذي دبَّ بينهما. وفي مجلة «الزمن»، التي أصدرها الأخوان دستوفسكي، ظهرت مقالتان لنكراسوف («أطفال الفلاحين» و«وفاة بروكليس»). وفي بداية صدور «الزمن»، عندما كان توجَّهها يميل إلى نزعة «أنصار الأرض» على نحو مُبهم، لم يكن نكراسوف وحده الذي كتب فيها رسالته الساخرة بعنوان «نشيد الزمن»، وإنما شارك بالكتابة فيها أيضًا نشيرينشيفسكي إلى جانب آخرين شاركوا هم أيضًا عن طيب خاطر بالكتابة في هذه المجلة الجديدة. وفيما بعد اشتدَّ الصراع الفكري بين مجلة «الزمن» (التي تحولت فيما بعد إلى «المعاصر»)، وذلك بفضل انضمام الكاتب نافد الصبر، صاحب المزاج القتالي نيكولاي ستراخوف إلى هيئة تحرير المعاصر، ومعه أبوللون جريجورييف

في أي مكان بنكراسوف ومن ثم فإن زيارة نكراسوف لنا لا بد وأن لها أهمية مُحددة. كان فضولي هائلاً إلى حدٍّ أنني حسمتُ أمري وقررتُ الوقوف خلف باب غرفة المكتب المؤدي إلى غرفة الطعام. كانت سعادتي بالغّة عندما سمعت نكراسوف وهو يدعو زوجي للانضمام للعمل معه ويطلب منه روايةً لنشرها في العام القادم في «حوليات الوطن»^{١٢} ويعرض عليه مائتين وخمسين روبلاً للملزمة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يتقاضى آنذاك مائة وخمسين روبلاً.

عندما رأى نكراسوف حالتنا شديدة التواضع فإنه فكر، على الأرجح، أن فيودور ميخايلوفيتش سيكون سعيداً للغاية لهذه الزيادة في الأجر، وأنه سوف يوافق على الفور. لكن فيودور ميخايلوفيتش قال له، بعد أن شكره على عرضه: نيكولاي ألكسييفيتش، ليس باستطاعتي أن أردد عليك بالإيجاب لسببين: أولاً: يجب على أن أكتب إلى «البشير الروسي»

من جانب، ثم انضمام سالتيكوف شيردين، صاحب القلم الحاد الذي لا يلين، إلى المجلة لتزداد نبرة المجلة حدةً على نحوٍ ملحوظ، وخاصة بعد وفاة دوبوليويوف ونفي تشيرنيشيفسكي. ولم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك كله على تراجع العلاقة بين نكراسوف ودستوفسكي، على أنها لم تُصبح على الإطلاق علاقة عداوية. وحتى عندما ألقى دستوفسكي باللائمة على نكراسوف لاتخاذهُ منحنى «رسمياً» في شعره وسخر من قصيدته «النساء الروسيات»، فقد أفصح في الوقت نفسه عن تعاطفه معه باعتباره واحداً «من أكثر شعرائنا حماساً واكتئاباً ومعاناة». (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، المجلد الحادي عشر، ص ٢٣). تضع أنا جريجوريفنا كلاً من ن. ميخايلوفسكي، أ. سكايتشيفسكي، ج. يليسيف، موظفي مجلة «حوليات الوطن» في عداد الكارهين لدستوفسكي بصراحةٍ تامة ودون إثبات، وكانت تقصد تطابق تقاليد «حوليات الوطن» و«المعاصر». في الوقت نفسه فإن سكايتشيفسكي ويلييسيف لم يكتباً شيئاً في «حوليات الوطن» عن دستوفسكي، عدا بعض الإشارات العابرة، أما ميخايلوفيسكي فهو صاحب المقالة الوحيدة الموضوعية والمتزنة التي كُتبت عن رواية «الشياطين» («حوليات الوطن»، ١٨٧٣م، العدد ٢). وعن الجدل الذي دار بين «المعاصر» من جانب، ومجلتي «الزمن» و«العصر» من جانب آخر، انظر «مذكرات عن ف. م. دستوفسكي» (السيرة، ص ٢٧٥-٢٧٦)؛ س. بورشيفسكي، شيردين ودستوفسكي. قصة صراعهما الفكري، موسكو، ١٩٥٦م؛ أ. جورالنيك، دستوفسكي والصراع الجمالي الأدبي في الستينيات. في منتخب «إبداع دستوفسكي»، موسكو، ١٩٥٦م.

^{١٢} حوليات الوطن (١٨٣٩-١٨٨٤م): مجلة شهرية صدرت في بطرسبورج، أصدرها كرايفسكي حتى عام ١٨٦٨م، ثم جاء بعده نكراسوف وسالتيكوف شيردين ويلييسيف. وتولّى بيلينسكي قسم النقد في الفترة من ١٨٣٩م إلى ١٨٤٦م. رأس نكراسوف تحريرها من ١٨٦٨م إلى ١٨٧٧م مواصلاً تقاليد «المعاصر». (المترجم)

وأن أسألهم إن كانوا بحاجة إلى روايتي؟ فإذا كانت لديهم مادة للعام القادم عندئذٍ أكون حراً وأستطيع أن أعدك برواية. لقد عملتُ زمناً طويلاً في «البشير الروسي»، وكان كاثكوف^{١٢} يستجيب لمطالبني باهتمامٍ محمود، وسوف يكون من غير اللائق من جانبي أن أتخلّى عنهم بالأعزض عليهم عملي. وسوف يتضح الأمر في خلال أسبوع أو أسبوعين. كما أنني أرى أن من الضروري أن أنبهك، نيكولاي ألكسييفيتش، أنني أتقاضى مبلغاً مقدماً من إجمالي أجري، وهذا المقدّم يكون في حدود ألفين أو ثلاثة آلاف روبل. وقد أعلن نكراسوف قبوله التام، ثم أردف زوجي قائلاً: والمسألة الأخرى هي أن أستمع لرأي زوجتي في اقتراحكم. إنها بالبيت الآن وسوف أسألها في الأمر. خرج فيودور ميخايلوفيتش قادماً إليّ.

وهنا وقع أمرٌ مضحك؛ فعندما جاء زوجي إليّ أخبرته في لهفة: ولماذا تسألني؟ وافق يا فيديا، وافق على الفور.

– أوافق على ماذا؟ سألني بدهشة.

– أوه، يا ربي! على عرض نكراسوف.

– وكيف علمت بعرضه؟

– لقد سمعت حديثكما كله، لقد كنت واقفةً وراء الباب.

– إذن كنتِ تتنصتين! ألا تشعرين بالخجل يا أنيتشكا؟ صاح فيودور ميخايلوفيتش

بمرارة.

– لا شيء يدعو للخجل! أنت لا تخفي عني أسراراً، وعلى أية حال كنت ستُخبرني حتماً بذلك. حسناً، ما أهمية أن أتنصت، إنها أمور تخصنا معاً ولا تخص غيرنا.

لم يكن أمام فيودور ميخايلوفيتش إلا أن يصمت أمام منطقي.

بعد أن عاد فيودور ميخايلوفيتش إلى مكتبه قال لنكراسوف: لقد تفاوضت مع زوجتي وهي سعيدة للغاية أن روايتي ستظهر في «حولييات الوطن».

يبدو أن نكراسوف لم يكن راضياً على نحو ما أن الأمر بحاجة إلى موافقتي فقال: لم أكن أتصور إطلاقاً أن زوجتك قد «طوتك تحت جناحها».

^{١٢} ميخائيل نيكيفوروفيتش كاثكوف (١٨١٨-١٨٨٧م): ناقد، كاتب، ناشر مجلة «البشير الروسي» وصحيفة «الوقائع الموسكوفية».

- وما وجه العجب هنا؟ أجاب فيودور ميخايلوفيتش مُعْتَرِضًا. إننا نعيش معًا في تفاهم تام، وقد فَوَّضْتُهَا في كل شئوني، وأنا أثق في ذكائها ونزعتها العملية. كيف لا أسألها إذن النصيحة في هذا الأمر الذي يُهم كَلِينَا؟

- حسنًا، نعم، بطبيعة الحال فإنني أفهم ... أجاب نكراسوف ثم انحرف بالحديث إلى موضوعٍ آخر. غادرنا نكراسوف بعد حوالي عشرين دقيقة بمشاعر وديةٍ وطلب منه زوجي أن يُحيطه علمًا فور تلقّيه ردًّا من «البشير الروسي».

وحتى يستوضح فيودور ميخايلوفيتش مسألة الرواية في أسرع وقتٍ مُمكن قرر أن يستعِض عن الكتابة إلى «البشير الروسي» بالسفر إلى موسكو والذهاب مباشرةً إلى هناك في نهاية أبريل. بعد أن استمع كاتكوف إلى عرض نكراسوف، وافق أن يُخَصَّص لزوجي نفس السعر، ولكن عندما طلب زوجي منه أن يُعطيه مقدّمًا في حدود ألفي روبل، أخبره كاتكوف أنهم قد أنفقوا لتوّهم مبالغ طائلة للحصول على أحد الأعمال (رواية «أنا كارنينا») وأن هيئة التحرير عاجزة عن توفير أموال في الوقت الحالي. وهكذا ذهبَت الرواية إلى نكراسوف.

٢

العام ١٨٧٤م، السفر إلى الخارج

قضى فيودور ميخايلوفيتش شهر مايو مع العائلة في ستاريا روسا، وفي الرابع من يونيو سافر إلى بطرسبورج ليسافر بعدها، بناءً على نصيحة البروفيسور كوشلاكوف، للعلاج في إم.س.^{١٤} في بطرسبورج راح الأمير ميشيرسكي وأحد أقاربه يقنعان زوجي بالذهاب إلى سودين^{١٥} بدلًا من إم.س. وهي نفس النصيحة التي أعطاهَا له الدكتور بريتل^{١٦} الذي كان يعالجه دائمًا. كان لهذه النصائح الملحّة أثر كبير في ارتباك فيودور ميخايلوفيتش، ومن

^{١٤} إم.س (Ems): مدينة في ألمانيا. (المترجم)

^{١٥} سودين: مدينة في ألمانيا. (المترجم)

^{١٦} ياكوف بوجدانوفيتش فون بريتل (١٨٤٢-١٩١٨م): طبيب أسرة دستوفسكي منذ عام ١٨٧٠م. أول من استدعته زوجة دستوفسكي عند احتضاره في ٢٦ يناير ١٨٨١م. وقد كتب مذكراته عن الكاتب وضمّنَهَا تفاصيلَ عن صحته والساعات الأخيرة في حياته. (المترجم)

ثم قرر أن يطلب النصيحة في برلين من الطبيب البارز هناك البروفيسور فريوريخس،^{١٧} وما إن وصل إلى برلين حتى توجه إليه على الفور. لم يتجاوز الفحص دقيقتين وضع الطبيب فيهما سماعته على صدره، وبعدها مباشرة أعطاه عنوان الطبيب جوتنتاج في إمس، واقترح أن يتوجه إليه. وقد شعر فيودور ميخايلوفيتش بالامتعاض الشديد نتيجة عدم الاهتمام من جانب الطبيب الألماني الشهير، وهو الذي اعتاد على الرعاية الدقيقة من جانب الأطباء الروس.

وصل فيودور ميخايلوفيتش إلى برلين في التاسع من يونيو، ولما كانت جميع البنوك مغلقة، فقد توجه إلى المتحف الملكي ليشاهد أعمال الفنان كاولباخ^{١٨} الذي كثر الحديث والكتابة عنه. لم تنل أعماله إعجاب فيودور ميخايلوفيتش؛ فقد رأى فيها مجازاً بارزاً لا أكثر.^{١٩} لكن لوحات المتحف الأخرى، وبخاصة لقدامى الفنانين، تركت أثراً ممتازاً على زوجي، وقد عبر عن أسفه لأننا لم نشاهد معاً — إبان زيارتنا الأولى لبرلين — هذه الكنوز الفنية.

وفي برلين اضطر فيودور ميخايلوفيتش للطواف بالمحلات لشراء شال أسود من الكشمير، مثل الذي اشتراه لي من درزدن؛ بناءً على طلب صاحبة الدائشة التي نقيم بها. وقد نجح فيودور ميخايلوفيتش في إنجاز المهمة التي كُلف بها واشترى شالاً رائعاً وبسعر مناسب نسبياً. أنتهز هذه الفرصة لأقول إن لزوجي ذوقاً رفيعاً في اختيار الأشياء، وكانت كل مشترواته خالية من العيوب. قطع فيودور ميخايلوفيتش الطريق من برلين وهو يشاهد، بإعجاب، المناظر الطبيعية الخلابة. وقد كتب لي يقول: «كل ما أراه رائع، لطيف، خيالي. يحتوي المنظر الطبيعي على أجمل ما في الكون، الوهاد، الجبال، القلاع، مدن مثل ماربورج وليمبورج بأبراجها الفاتنة، هذا التناغم المدهش بين الجبال والوديان. أشياء لم أشاهد مثلها من قبل. هكذا استمر الحال حتى وصلت إلى إمس نفسها في صباح

^{١٧} فريدريخ تيودور فريوريخس (١٨١٩-١٨٨٥م): أستاذ وطبيب الأمراض الباطنية. استقبل دستوفسكي في برلين عام ١٨٧٤م.

^{١٨} فيلهلم كاولباخ (١٨٠٥-١٨٧٤م): فنان ألماني.

^{١٩} خطابه إلى المؤرخ ٢٥ يوليو ١٨٧٤م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٠٢. الأرجح أن مقالة دستوفسكي «مجاز بارد» كانت تخص بالنقد لوحتي ف. كاولباخ: «معارك الهن» و«سقوط أورشليم» اللتين كانتا تزينان مدخل متحف برلين الملكي.

يوم صحو، مشمس وحار.^{٢٠} راح فيودور ميخايلوفيتش بفرح بالغ يصف جمال إمس، هي نفسها التي أصبحت بعد ذلك (نتيجة إحساسه بالسأم والوحدة) مصدرًا لانطباعاته المؤلمة.

بعد أن توقف فيودور ميخايلوفيتش في أحد الفنادق، توجه في نفس يوم وصوله إلى الدكتور أورت، حاملًا له خطابًا من الدكتور برييتسل. وقد قام أورت بفحصه فحصًا دقيقًا، وتوصل إلى أنه يعاني نزلة شُعبية عابرة، لكنه أخبره أن المرض جدُّ خطير، فكلما تطور قلَّت القدرة على التنفس، ووصف له شراب الماء ووعده بالشفاء الأكيد بعد استمرار العلاج لمدة أربعة أسابيع.

وفي اليوم نفسه نجح زوجي، بعد بحث طويل، في العثور على غرفتين في الطابق الثاني في منزل يقع في شارع Haus Blucher رقم ٧ بإيجار اثني عشر طالرًا في الأسبوع. وبالإضافة إلى ذلك ثم الاتفاق مع صاحبة النزل على إضافة طالر ونصف مقابلَ قهوة الصباح والغداء والشاي وعشاء خفيف.

كتب لي فيودور ميخايلوفيتش يصف كيف يقضي وقته بقوله: «أقرأ بوشكين فقط، وتغمرني قراءته بفيض من السعادة؛ كلَّ يوم أجد شيئًا جديدًا.» وفي الخطاب نفسه (٢٨ يونيو) يخبرني زوجي أنه «قابل مساءً أمس للمرة الأولى، في أثناء نزهته، الإمبراطور فيلهلم: طويل القامة، عجوز، مهيب الطلعة. هنا يقف الجميع (بما فيهم السيدات) يرفعون القبعات وينحنون، أما هو فلا ينحني لأحد، وأحيانًا ما يكتفي بالإشارة بيده. أما قيصرنا فهو، على العكس من ذلك، ينحني للجميع، وهو ما يقدِّره له الألمان تقديرًا رفيعًا. وقد حكى لي بعضهم أن الألمان والروس يسعون جاهدين لأن يوجِّدوا في طريقه على نحوٍ ما وأن يتجمعوا أمامه.»^{٢١}

ما إن مر أسبوع واحد حتى بلغ الحنين للأسرة لدى فيودور ميخايلوفيتش مبلغًا كبيرًا، وهو الذي لم يعتدَّ من قبلُ على فراقها، اللهم إلا لفترة قصيرة، وكان بإمكانه عندئذٍ أن يعود إليها سريعًا عند أي ظرف طارئ. ازداد حنينه أيضًا نتيجة لأن خطاباتي لم تكن تصله في موعدها، وإنما كانت تصل متأخرة بشكل ملحوظ في غير الموعد الذي كان

^{٢٠} المصدر السابق (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستويفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٠٣.

^{٢١} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٠٨، ١١٠.

يتوقعها فيه زوجي. ولمعرفتي بمدى القلق الذي يمكن أن يعانیه، كنت أحمل خطاباتي وأذهب بها بنفسني إلى مكتب البريد، وفي كل مرة أطلب من المدير إرسالها على وجه السرعة. وكنت أحضر إليه لأريه خطابات زوجي التي شكا فيها من تباطؤ مكتب بريد ستاريا روسا في إرسالها، وأرجوه ألا يؤخر مراسلاتنا، لكن جهودي ذهبت سُدى؛ كانوا يستبقونها في روسا يومين أو ثلاثة، إلى أن علمتُ في ربيع عام ١٨٧٥م فقط سببَ هذا التأخير.^{٢٢}

بعد إقامة دامت ثلاثة أسابيع في Haus Blucher، حيث راحت صاحبة النزل تخطئ في حساباتها، بل وفكرت في نقل زوجي إلى الطابق الأعلى، انتقل زوجي إلى Hotel Ville d'Alger في الرقم ٤-٥، وقد سعد بالإقامة في هاتين الغرفتين للغاية، فقد كانتا تقعان في طابق مرتفع، وكانت لهما شرفة تظل مفتوحة حتى وقت متأخر من المساء.

وفي إمس كان لفيودور ميخايلوفيتش بضع معارف من الروس. كان يكنُّ لهم شعورًا بالمودة. وقد التقى هناك، على سبيل المثال، بكوبليتسكي^{٢٣} وشتاكينشنايدر والسيد X والأميرة شاليكوف،^{٢٤} التي كان يقابلها عند كاتكوف. وقد ساعدت هذه العجوز الطيبة فيودور ميخايلوفيتش في الصبر على ملل الوحدة بمعاملتها المرححة الودودة. وأنا ممتنة لها بشدة على هذا الجميل. لقد اشتد السأم بزوجي أيضًا لحرمانه من متعة النزاهات الكبيرة التي اعتاد القيام بها (مرتين في اليوم). كان من السخف بالطبع أن يتنزه في حديقة صغيرة وسط جُمع كبير من الناس يتدافعون في سيرهم، وفي الوقت نفسه لم يكن بمقدوره أن يصعد إلى الجبل لسوء حالته الصحية. كان يفكر في قلق كيف سنقضي شتاء هذا العام. نَفد المقدم المالي الضخم الذي أخذناه من نكراسوف: جزء ذهب في سداد الديون العاجلة، والجزء الآخر ذهب في تغطية نفقات رحلة زوجي. لم يكن مقبولاً أن نطلب مبلغاً آخر مقدماً دون أن نسلم الرجل ولو جزءاً من الرواية. كل هذه الظروف مجتمعة تركت أثراً سيئاً على زوجي، لقد توترت أعصابه (وربما كان لشرب الماء أثره في ذلك أيضاً) وذاع صيته بين الناس باعتباره الروسي «السودوي» الذي يتلو

^{٢٢} انظر: الفصل ٦ من الباب السابع.

^{٢٣} ميخائيل يفستافيفيتش كوبليتسكي (١٨٢١-١٨٧٥م): مؤرخ مسرحي وعالم في الموسيقى.

^{٢٤} ناتاليا بتروفنا شاليكوف (الاسم المستعار «ي. ناريسكايا») (١٨١٥-١٨٧٨م): كاتبة؛ تعرفت على دستوفسكي في فيسبادن عام ١٨٥٦م.

على الجميع مواعظه.^{٢٥} كانت خطاباتي وحكايتي عن الأطفال وكلامهم تهدئ من روع زوجي كثيراً. كتب لي خطاباً مؤرخاً الحادي والعشرين من يوليو، يقول فيه: «إن الطرائف التي تحكيها لي يا أنيا عن الأطفال؛ تجدد روحي ببساطة وتُشعِرني أنني بينكم.» وفي نفس الخطاب يذكرني فيودور ميخايلوفيتش بنقص في تربية صغارنا، حين يقول: «ليس لديهم أصحاب، صديقات ورفاق، صغار في مثل سنهم.» وفي حقيقة الأمر كان قليل جداً من بين معارفنا من لديهم أطفال في عمر أطفالنا، إلى أن جاء فصل الصيف ووجد أطفالنا أصدقاء لهم من بين أفراد عائلة الأب يوحنا روميانتسيف.

وعندما كنا نخطط لرحلة فيودور ميخايلوفيتش إلى الخارج في الربيع، رأينا، أنا وزوجي، أنه بانتهاء مرحلة العلاج، عليه أن يذهب ليعيش في مكان ما يكون بمثابة علاج إضافي له، فإذا ما توافرت لنا نقود فليذهب عندئذٍ ويلقي نظرة على باريس. وقد خطرت ببالي فكرة إرسال خمسين روبلاً لشراء قطعة قماش من الحرير الأسود من باريس، تلزمني لعمل ثوبٍ سهرة للظهور به في بعض المناسبات الضرورية. أثار إرسال النقود دهشة زوجي، ولما كان تحت تأثير إحدى النوبات فقد وبَّخني على ذلك. لكن فكرة تحقيق رغبتني لم تفارقه، وقد طاف بمدينة برلين على العديد من المحالِّ إلى أن أحضر لي قطعة رائعة من الحرير. وعلى الرغم من أنه عرض مشروعاته على موظفي الجمر، فإن هؤلاء لم يولوا اهتماماً بها، وأصرُّوا على فحص كل ما لديه من كتب وأوراق، ربما يجدون فيها شيئاً محظوراً.

لم يكن لدى فيودور ميخايلوفيتش ما يكفيه من المال للسفر إلى باريس. وفي الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يقاوم الرغبة المخلصة لديه في أن يزور مرةً أخرى في حياته مقبرة ابنتنا الكبرى سونيا، والتي كانت ذكرها متقدِّة في قلبه، فذهب إلى جينيف ليزور جبَّانة Plainpalais للأطفال مرتين. ومن هناك أحضر لي بضعة أغصان من شجرة السرو التي نمت على مدى ست سنوات فوق النصب الذي أقيم فوق قبرها.

وفي العاشر من أغسطس تقريباً عاد فيودور ميخايلوفيتش إلى روسيا، بعد أن قضى يومين أو ثلاثة في بطرسبورج قبيل عودته.

^{٢٥} خطاب زوجي إلى المؤرخ ٢١ يوليو ١٨٧٤م (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).
* الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٢٧.

العامان ١٨٧٤-١٨٧٥ م ... صيف وشتاء في ستاريا روسا

في خطابات التي أرسلها إليّ في صيف ١٨٧٤م، يعود فيودور ميخايلوفيتش إلى الفكرة التي كانت تؤرقه دائماً، حول أننا سنضطر أن نعيش حياة شاقة في المستقبل القريب.^{٢٦} وفي الواقع كان وضعنا يدفعنا أن نفكر أننا سنظل دائماً نعانى من سوء أحوالنا المادية. ذكرت من قبل أن نكراسوف زارنا في أبريل يطلب من فيودور ميخايلوفيتش أن ينشر روايته الجديدة في «حوليات الوطن» في عام ١٨٧٥م. كان زوجي سعيدياً لإعادة علاقات الصداقة من جديد مع نكراسوف، هذه الموهبة التي كان يقدرها، وكنا، كلانا، سعداء أيضاً لأن نكراسوف عرض سعرًا يزيد مائة روبل عما كان زوجي يتقاضاه في «البشير الروسي».

لكن الأمر كان له جانبه الصعب بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش، ف «حوليات الوطن» كانت مجلة تقف في المعسكر المضاد له؛ بالإضافة إلى أنها كانت منذ زمن غير بعيد، إبان قيام زوجي بتحرير مجلتي «الزمن» و«العصر»، تشنُّ حرباً شعواءً ضد هاتين المجلتين،^{٢٧} وكان من بين محرري «الحوليات» عدد من أعداء فيودور ميخايلوفيتش الأدبيين: ميخايلوفسكي، وسكابتشيفسكي، ويليبيف، ويليبيف جزئيًا،^{٢٨، ٢٩} وهؤلاء كان بإمكانهم أن يطلبوا من زوجي إدخال تعديلات على روايته لتلائم توجهاتهم. لكن

^{٢٦} الخطابات التي أرسلها لي في الفترة من ٢٤ يونيو إلى ١٤ يوليو وغيرها (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الثالث، ص ١١٤، ١٣١.

^{٢٧} كانت هيئة تحرير مجلة «المعاصر» التي أسسها نكراسوف هي التي تدير الجدل مع مجلتي «الزمن» و«العصر»، بعد أن أصبح نكراسوف رئيساً لتحرير «حوليات الوطن»؛ اعتباراً من عام ١٨٦٨م، بينما العدد الأخير من «العصر» في عام ١٨٦٥م.

^{٢٨} ألكسي نيكولايفيتش بليشيف (١٨٢٥-١٨٩٣م): عضو في حلقة بيتراشيفسكي، شاعر وناقد.

^{٢٩} انظر: [الجزء السابع، العامان ١٨٧٥-١٨٧٤م، التعليق رقم ١١]. ليس من قبيل المصادفة أن كتبت أنا جريجوريفنا: «وبليشيف جزئيًا»، لعلها، بداهة، أنه وعلى الرغم من الاختلاف الفكري بين دستوفسكي وبليشيف (وقد شغل الأخير في عام ١٨٧٤م منصب سكرتير «حوليات الوطن») فقد استمرت علاقتهما

فيودور ميخايلوفيتش لم يكن ليتخلى بحال من الأحوال عن قناعاته الجذرية. بدورها، كان بإمكان «حوليات الوطن» ألا تنشر آراء زوجي المختلفة، وعندئذ كان بإمكان فيودور ميخايلوفيتش، عند أول بادرة خلاف، أن يستعيد، بلا شك، روايته، مهما كلفنا الأمر من عواقب وخيمة.

في خطابه المؤرخ ٢٠ من ديسمبر ١٨٧٤م، كتب لي، وقد ساورته المخاوف بسبب هذه الأفكار، يقول: «الآن يمكن لنكراسوف أن يضغط عليّ، إذا ظهر شيء مخالف لتوجهاته ... ولكن حتى لو اضطررنا لطلب الصدقة هذا العام، فإنني لن أتنازل عن سطر واحد يعبر عن توجهاتي».^{٣٠}

ما الذي كان علينا أن نفعله في حالة وقوع خلاف بيننا وبين «حوليات الوطن»؟ كانت هذه الفكرة تورق علينا إلى حد كبير. ناهيك عن التفكير فيما إذا اضطررنا لرد المقدم المالي على الفور، وقد أنفقنا جزءاً كبيراً منه، عندئذ سيصبح الدفع الفوري أمراً بالغ الصعوبة. وفضلاً عن ذلك، كانت هناك فكرة أخرى تُلح علينا؛ وهي من أين لنا أن نحصل على نقود يمكن أن نعيش بها إلى أن ينجح فيودور ميخايلوفيتش أن يؤلف روايته؟ لم يكن أمامنا سوى «البشير الروسي»؛ المجلة الوحيدة آنذاك التي كان من الممكن لزوجي العمل فيها، والتي كانت آراؤها تتفق وآراءه.^{٣١}

الشخصية وديةً تمامًا، والتي تعود إلى الأربعينيات عندما كانا عضوين في جماعة بتراشيفسكي. انظر في هذا السياق التقديم الذي كتبه ل. س. بوستيلنيك لخطابات أ. ن. بليشيف إلى دستوفسكي. في كتاب «الأرشيف الأدبي»، الجزء السادس، موسكو، ليننجراد، ١٩٦١م، ص ٢٥٢-٢٥٥. وعن العلاقة بين دستوفسكي وبليشيف انظر أيضًا: مقالة ف. ل. كوماروفيتش «شباب دستوفسكي»، مجلة «الماضي»، ١٩٢٤م، العدد ٢٣، ص ٣-٤٣.

^{٣٠} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٤٥.

^{٣١} يدحض ظهور «المراهق» في مجلة «حوليات الوطن» الراديكالية، والتي يحررها شيدريرين ونكراسوف؛ يدحض بشكل عملي رأيي أننا جريجوريفنا في هذا الخصوص. كان دستوفسكي متعاطفًا في السبعينيات مع التوجه السياسي «للبشير الروسي»، ومع المقالات التي ينشرها كاتكوف. على أن العلاقة بين كاتكوف ودستوفسكي كانت تتعرض مرارًا للتوتر والبرود. وقد صاحب ظهور «الجريمة والعقاب» و«الشياطين» و«الإخوة كارامازوف» في «البشير الروسي» كثيرٌ من الخلافات الجادة بينهما. وعلى صعيد آخر، فإن الخلافات الأيديولوجية الجوهرية مع توجه «حوليات الوطن»، لم تمنع دستوفسكي من الشعور بالتعاطف العميق مع نكراسوف، الذي كان يرى فيه صديقًا قديمًا وشاعرًا عظيمًا.

وصلت إلى فكرة — من بين أفكار مختلفة نتجنب بها الفشل المتوقع — تقليل نفقات أسرتنا (بقدر المستطاع)، فعلى الرغم من أننا كنا نعيش على نحو متواضع للغاية، فقد كنا ننفق سنوياً، بخلاف ما نسدده من الديون التي أثقلت كاهلنا — فضلاً عن فوائدها — ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبل، فقد كانت شقتنا وحدها (وكانت دائماً شقة متواضعة) تكلفنا ما بين سبعمائة وثمانمائة روبل، تصل إلى ألف بحطب التدفئة.

من هنا خطرت ببالي فكرة أن نقيم في الشتاء في روسا، وبخاصة أننا، أنا وزوجي، قررنا بشكل قاطع أن نعود من جديد في الربيع القادم إلى روسا؛ حيث يستفيد أطفالنا كثيراً من استحمامهم في مياهها. لقد كانت الإقامة في العاصمة تستمر لمدة ثمانية/تسعة أشهر، يضيع منها شهر ونصف، شهران على الأرجح، ما بين بحث عن شقة ثم تجهيزها. أما الربيع فنقضيه في الاستعداد للرحيل مرةً أخرى. كل هذا الوقت كان من الممكن أن يستغله فيودور ميخيلوفيتش في العمل، وكان يدرك جيداً إمكانية الانتهاء من الرواية بأقصى سرعة؛ حتى يتمكن من البدء في تحقيق حلمه المنشود، وهو إصدار مجلته المستقلة تحت اسم «مذكرة الكاتب».

كانت أسعار المؤن في ستاريا روسا أرخص من مثيلاتها في بطرسبورج ثلاث مرات، ناهيك عن رخص الشقق فيها، كما أن نفقاتنا الأخرى في روسا كانت أقل بكثير من النفقات الضرورية في العاصمة.

وخلالاً للحسابات المادية، فقد كان قضاء الشتاء بأكمله في هدوء وسلام، والاستمتاع بالحياة العائلية الهانئة، التي كنا نحياها دائماً في فصل الصيف؛ أمراً شديداً الإغراء بالنسبة إليّ شخصياً، فقد كنا نتذكر هذه الأوقات دائماً بشعور طيب عندما يدهمنا الشتاء.

قليلاً ما كان فيودور ميخيلوفيتش ينضم إلى الأسرة في فصول الشتاء، حيث كان عليه أن يظهر في مجتمعات بطرسبورج في هذه الآونة، وأن يحضر اجتماعات الجمعية الخيرية السلافية، التي كان عضواً فيها^{٣٢} منذ عام ١٨٧٢م.

اضطرت لتحمل مزيد من الأعباء، بينما أبعدت المشاغل فيودور ميخيلوفيتش عني وعن الأطفال، الذين اضطروا بدوره لقضاء وقت أقل معهم، وهم الذين كان تواصلهم معه يمثل له السعادة الكبرى. كان بقاء الصغار في ستاريا روسيا يجنبنا العديد مما يعكر صفو حياتنا العائلية.

^{٣٢} انظر: [الجزء السادس، العمان ١٨٧٢-١٨٧٣م، التعليق رقم ٤١].

بعد أن استقر قرارى على العودة لقضاء الشتاء فى روسا، عقدت العزم على البحث عن شقة هناك؛ إذ لم يعد من الممكن البقاء شتاءً فى الداتشا التى يملكها جريبي لأسباب عديدة. لم يكن العثور على شقة رحبة فى روسا بالأمر الصعب، كانت الداتشات التى تؤجر مقابل ثلاثمائة/أربعمائة روبل فى الموسم تملأ من سكانها فى الشتاء؛ ولهذا كان أصحابها يؤجرونها مقابل خمسة عشر/عشرين روبلاً فى الشهر. ولكننى لم أكن لأقطع أمراً دون فيودور ميخايلوفيتش، كان بإمكانه العثور على شقة مناسبة عند مروره ببترسبورج، ومن ثم يصبح قضاء الشتاء فى روسا أمراً هيناً.

إلى روسا عاد فيودور ميخايلوفيتش فى نهاية يوليو، بعد أن قضى فى بترسبورج يومين/ثلاثة، لم ينجح فى العثور على شقة، ولم يحاول أن يجد فى البحث عنها؛ إذ كان متلهفاً للقاء الأسرة، فعاد أدراجها إلينا بسرعة.

مضت عدة أيام على عودته، وإذا بنا نعرّج بالحديث إلى موضوع الشقة الشتوية وعن موعد مغادرتنا روسا، وعندئذ قلت بصيغة الاقتراح: حسناً، وماذا لو بقينا فى روسا؟ وقبل اقتراحى برفض قاطع من جانب فيودور ميخايلوفيتش. وكانت حجته فى الرفض مفاجئة، وإن تضمنت فى الوقت نفسه إطرأً شديداً لى. راح زوجى يتحدث عن شعوره بالوحشة فى روسا، وكم عانينا من الوحدة طوال الصيف الماضى.

— طوال فصول الشتاء الماضى، قال زوجى: لم تذهبي إلى أى مكان، ولم تُتَحِّ لك أى فرصة للاستمتاع؛ فى هذا الشتاء العمل، والحمد لله، يسير على ما يرام، وستتوفر لنا نقود أكثر، عندئذ يمكن أن تجهزي لنفسك ثياباً أنيقة، وسوف نغشى معاً المجتمعات. هذا ما قررته بشكل حاسم. سوف تذهبين تماماً هنا فى روسا!

رحت أسعى لإقناع فيودور ميخايلوفيتش أن الشتاء القادم سيكون مليئاً بالعمل، وأن علينا أن نواصل العمل لإنهاء «المراهق»، ومن ثم لا مجال عندي للتفكير فى الأناقة أو التسلية.

— هذه أشياء لا تلزمنى على الإطلاق، إن الهدوء والسكينة العائلية التى لا تعكر صفوها مفاجآت الحياة، التى نعيشها هنا، أهم وأعلى عندي من كل ما عداها.

قلت له إن ما أخشاه فقط هو أن يتسرب إلى نفسه السأم فى روسا؛ نتيجة ابتعاده عن المجتمع المناسب له. لكن حتى هذا الأمر المحزن يمكن التغلب عليه بأن يسافر مرة/مرتين فى الشتاء إلى بترسبورج، فيلتقي هناك بمعارفه وأصدقائه الأعزاء. وهذه السفريات التى

سيقوم بها وحده لن تكلفه الكثير، كما أنها ستمكّنه من أن يجدد انطباعاته دون أن تأخذه بعيداً عن اهتماماته الأدبية والفنية. أعددت لزوجي كلّ أسباب الراحة، المادية وغيرها، كي أغريه بقضاء الشتاء هنا في روسيا. وقد أُعجب زوجي بالصورة التي رسمتها له لحياة أسرية هائلة مطمئنة، يمكن له أن يتفرغ فيها كلياً لإبداعه. على أن فيودور ميخايلوفيتش ساوَره الشكُّ في إمكانية العثور على شقة دافئة رحة، عندئذٍ اقترحت على زوجي، في نفس اليوم ونحن نتنزه، أن نذهب معاً إلى روسيا لبضعة أيام تكون داتشا الأدميرال ليونتييف^{٣٣} قد تم إخلاؤها؛ لنلقي نظرة عليها، وقد حسمت هذه الزيارة الأمر نهائياً، لقد حازت الشقة القائمة في الطابق الأسفل للداتشا إعجاب فيودور ميخايلوفيتش الشديد. كانت داتشا ليونتييف تقع في شارع إيلينسكايا الحيوي، وهي عبارة عن بيت كبير^{٣٤} من طابقين يؤجّر (الطابقان العلوي والأرضي) مقابل ثمانمائة روبل في الموسم. كانت شقتنا المختارة مكونة من ست غرف، كانت لاستخدام صاحب البيت. ويعود إعجاب زوجي بها إلى أن عُرفها (النوم والمكتب) تفصلها عن النصف الخاص بنا غرفة كبيرة لها أربعة نوافذ. وبفضل ذلك لا يصل ضجيج الأطفال أو ركضهم إلى فيودور ميخايلوفيتش، فلا يقطع عليه عمله أو نومه، بل ويجعل الأطفال على سجيّتهم (وهو ما كان زوجي حريصاً عليه دائماً)، وبذلك يستطيعون الصباح وإحداث جلبة كما شاءوا.

تحدثنا على الفور مع السيدة التي تتولى شئون المنزل، وأجرنا الشقة في الخامس عشر من مايو من العام التالي، على أن ندفع خمسة عشر روبلاً في الشهر. وحتى لا نُضيع الوقت المخصص للعمل، قررنا الانتقال بسرعة وتهيئة المكان لقضاء الشتاء به.

يحتل شتاء عامي ١٨٧٤-١٨٧٥م، الذي قضيناه في ستاريا روسيا، مكانة رائعة في سجل ذكرياتي. كان الأطفال يتمتعون بصحة جيدة، ولم يضطرونا مرةً واحدة لاستدعاء الطبيب، وهو ما كان يحدث مراراً عندما كنا نعيش في العاصمة. وكذلك كان الحال بالنسبة لفيودور ميخايلوفيتش الذي تحسنت صحته كثيراً فظهرت عليه النتائج الإيجابية للعلاج في إمس: قلَّ السعال وأصبح تنفسه أعمق. وبفضل الحياة الهادئة المنظمة وغياب كافة المفاجآت السخيفة (التي كانت تتكرر كثيراً في بطرسبورج) تحسنت أيضاً أعصاب

^{٣٣} يفتيخي إيفانوفيتش ليونتييف (١٨٩٢م-٤): عاش دستوفسكي في بيته في ستاريا روسيا عامي ١٨٧٤-١٨٧٥م.

^{٣٤} لا يزال هذا البيت قائماً على حاله حتى اليوم (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستوفسكايا).

زوجي، ونَدَرَت نوبات الصرع التي كانت تصيبه، وتراجعت حدتها بشكل ملحوظ، ونتيجة لذلك كان فيودور ميخايلوفيتش نادراً ما يغضب أو يثور، وكان طيباً مرحاً مياً دائماً للحديث والثرثرة. لم يكن مرضه المزمن، الذي كان سبباً في وفاته بعد ست سنوات،^{٣٥} قد تطور بعد، فلم يكن يعاني من ضيق التنفس؛ ولهذا كان يسمح لنفسه أن يجري ويلعب مع الأطفال. ما زلت أتذكر أنا وأطفالي وأصدقائنا في ستاريا روسا، كيف كان فيودور ميخايلوفيتش يلعب مع الأطفال في المساء على ألحان الأرغن اليدوي الصغير (البیانولا)^{٣٦} ثم يروح يرقص المازوركا.^{٣٧} كان زوجي يحب المازوركا بوجه خاص، وكان يرقصها، إحقاقاً للحق، بشجاعة وحماش شديد وكأنه «بولندي حقيقي»، وقد كان في غاية السعادة عندما أخبرته برأيي ذات مرة.

كانت حياتنا اليومية في ستاريا روسا مقسمة على عدد من الساعات، وقد راعينا ذلك بدقة صارمة. كان زوجي يعمل في الليل ولا يستيقظ قبيل الحادية عشرة. وعندما يخرج من غرفته لتناول القهوة، كان ينادي على الأطفال فيُهرعون إليه في سرور، ويحكون له كل ما حدث لهم هذا الصباح، وكل ما شاهدوه في نزهتهم. وكان فيودور ميخايلوفيتش يتألمهم في سعادة ويشاركهم حديثهم المفعم بالحيوية والبهجة. لم أشاهد من قبل ولا من بعد إنساناً عطوفاً مثل زوجي، بإمكانه أن ينفذ إلى ما في عقول الأطفال، وقادراً على تسليتهم بحديثه إليهم. في هذه السويكات كان فيودور ميخايلوفيتش يتحول هو نفسه إلى طفل.

كان فيودور ميخايلوفيتش يدعوني للحضور إلى مكتبه بعد الظهر ليُملئ عليّ ما تسنّى له كتابته في أثناء الليل. كان عملي مع فيودور ميخايلوفيتش يمثل لي متعة كبيرة دائماً، وعن نفسي فقد كنت فخورة بشدة أنني أساعده وأُنني أول من يستمتع من القراء إلى الرواية من فم المؤلف.

كان فيودور ميخايلوفيتش يملئ عليّ الرواية عادةً من المخطوطة مباشرة. فإذا لم يكن راضياً عن عمله أو كان لديه شك فيه، فقد كان يقرأ عليّ ما كتبه دفعةً واحدة قبل الإملاء. وهنا يتولد لديّ انطباع أقوى من الإملاء العادي.

^{٣٥} تمدد أوعية الرئة. (المترجم)

^{٣٦} اشتراه فيودور ميخايلوفيتش بنفسه للأطفال، والآن يلعب به أحفاده (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستويفسكايا).

^{٣٧} المازوركا: رقصة بولندية. (المترجم)

الإملاء

وبالمناسبة، سوف أذكر هنا بضع كلمات عن الإملاء.

كان فيودور ميخايلوفيتش يعمل دائماً بالليل، عندما يسود البيت الهدوء التام، وعندئذٍ لا يقطع حبلَ أفكاره أيُّ شيء. وكان يملئ عليّ ما كتب من الثانية ظهراً وحتى الثالثة، وما زلت أتذكر الساعاتِ باعتبارها أسعد ساعات حياتي.

إن الاستماع إلى عمل جديد من شفاه الكاتب الذي أحببته، بهذه النبرات التي يلون بها كلمات أبطاله؛ كان قدراً سعيداً بالنسبة إليّ. كان زوجي يتوجه لي بالسؤال فور أن ينهي إملاءه قائلاً: حسناً، ما رأيك يا أنيتشكا؟

— رأيي أنها رائعة! بهذا كنت أجيبه. لكن هذه «الرائعة» كانت تعني بالنسبة إلى فيودور ميخايلوفيتش أن المشهد الذي أملاه عليّ بعد أن نجح في عمله لم يترك لديّ، ربما، أثراً خاصاً. وكان زوجي يولي انطباعاتي الشخصية اهتماماً كبيراً. ودائماً ما كان يحدث علي نحو ما أن صفحات الرواية التي تركت لديّ انطباعاً طيباً أو كان أثرها محزناً علي نفسي، كانت تترك علي غالبية القراء نفس الانطباع؛ الأمر الذي كان يتحقق منه زوجي من خلال أحاديثه مع القراء أو يعرفه من أحكام النقاد.

كنت أسعى أن أكون مخلصاً في حديثي، وألا يكون هذا الحديث مجرد مديح أو إعجاب لا أشعر به حقيقة، وكان زوجي يقدر إخلاصي تقديراً رفيعاً. بطبيعة الحال لم أكن لأخفي انطباعاتي أحياناً. أذكر كيف ضحكت عند قراءة أحاديث السيدة خوخلاكوفا أو الجنرال في رواية «الأبله»، وكيف مازحت زوجي بشأن المدعي العام في «الإخوة كارامازوف».

— أوه! خسارة أنك لم تكن مدعياً عاماً! إذن لاستطعت بخطابك أن ترسل بريئاً إلى سيبيريا.

— إذن في رأيك أن خطاب المدعي العام قد حقق نجاحاً، سألني فيودور ميخايلوفيتش.
— لقد نجح نجاحاً باهراً — قلت مؤكدة — ولكن علي أي حال يؤسفني أنك لم تكن واحداً من القضاة! كنت ستصبح جنرالاً، وكنت سأصبح جنرالاً لا ملازماً ثانياً متقاعدًا.

عندما كان فيودور ميخايلوفيتش يملئ عليّ خطاب فيتنيوكوفيتش،^{٣٨} ثم توجه إليّ بعده بسؤاله المعتاد: «ما رأيك يا أنيتشكا؟» أذكر أنني قلت له: «والآن أقول لك لماذا لم تعمل بالمحامية يا عزيزي! إذن لبرأت المتهم الحقيقي ولخرج من القضية ناصعًا كالثلج، أما فيتنيوكوفيتش فقد صورته على نحو رائع!

وفي مرة أخرى بكيت. أذكر ذلك عندما أملئ عليّ زوجي مشهد عودة أليوشا مع الأطفال بعد دفن إيليوشتشكا، كنت في حالة شديدة من التوتر، لدرجة أنني كنت أكتب بيدٍ وأمسح عن عينيّ دموعي باليد الأخرى، وعندما لاحظ فيودور ميخايلوفيتش مدى اضطرابي، اقترب مني وقبّل رأسي دون أن يقول كلمة واحدة.

كان فيودور ميخايلوفيتش، بصفة عامة، يضعني في صورة مثالية، وكان يرى أنني أفهم رواياته فهمًا عميقًا أكثر، في ظني، مما كنت أتصور في واقع الأمر. وهكذا كان عليّ اقتناع أنني أفهم الجانب الفلسفي في رواياته. أذكر أنني، بعد الانتهاء من إملاء أحد فصول رواية «الإخوة كارامازوف»، أحبته على سؤاله التقليدي بقولي: أتعرف، إنني لم أفهم مما أمليته عليّ (كان الحديث عن المفتش الأعظم) اللهم إلا القليل. أظن أنه لكي أفهم لا بد وأن أملك ذهنية فلسفية خلّاقًا لما لديّ.

— مهلاً، قال زوجي، سأقصّ عليك الأمر على نحو أكثر وضوحًا. وراح يشرح لي الأمر في عبارات أكثر تحديدًا.

— حسنًا، والآن هل أتضح الأمر؟ سألني زوجي.

— والآن ما يزال غير واضح. مهما كررت، فإنني غير قادرة على الفهم.

— كلا، لقد فهمت، لقد عرفت ذلك من خلال أسئلتك التي طرحتها. وإذا كنت لم تتمكن من عرض ما فهمته، فإن ذلك مرجعه عدم قدرتك على الصياغة.

أقول في هذا السياق، إنه كلما امتد بي العمر بكل ما حمله من أحزان، انفتحت أمامي، وعلى نحو أرحب، آفاق أعمال زوجي، وكلما رحت أفهمها فهمًا أعمق.

أذكر أيضًا، من بين أحداث حياتنا في ستاريا روسا، أن فيودور ميخايلوفيتش قرأ عليّ فصلًا من رواية، كان قد أنهى كتابته لتوّه، عن فتاة شنقت نفسها («المراهق»)،

^{٣٨} فيتنيوكوفيتش: محامي ديمتري كارامازوف في رواية «الإخوة كارامازوف». وقد أفرد دستوفسكي ثلاثة فصول لخطابه. يمكن للقارئ الاطلاع على هذا الخطاب البالغ في ترجمة د. سامي الدروبي للرواية الصادرة عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، المجلد الثالث، الجزء الرابع، الباب الثاني عشر. (المترجم)

الجزء الأول، الفصل التاسع).^{٣٩} وبعد أن انتهى من قراءته نظر إليَّ ثم صاح قائلاً: أنيا، ماذا دهاك يا يمامتي، أنتِ شاحبة، هل أنتِ متعبة؟ هل أصابك مكروه؟
- إنه أنت الذي أفزعتنني! أجبتُه.
- يا إلهي، هل حقاً كان لهذا الفصل أثر ثقيل عليك؟ كم أنا آسف! كم أنا آسف!

٥

أعود بالحديث إلى عام ١٨٧٤م. فبعد أن كان فيودور ميخايلوفيتش ينهي الإملاء ويتناول إفطاره بصحبتني، كان يقرأ (في هذا الشتاء) «رحلة الراهب بارفيني»^{٤٠} أو يكتب خطابات في أي وقت، وفي الثالثة والنصف كان يخرج للتنزه في شوارع روسا المقفرة. ودائماً ما كان يمر في أغلب الأحوال على محل آل بلوتنيكوف^{٤١} ليشتري المقبلات والحلوى الآتية

^{٣٩} كان لهذا الفصل أثر هائل على نكراسوف، وهو ما ذكره لي زوجي في خطابه المؤرخ التاسع من فبراير ١٨٧٥م (ملاحظة لآنا جريجوريفنا دستوفسكايا).
* الخطابات، المجلد الثالث. انظر: الباب السابع، الفصل ٧.

^{٤٠} الأب بارفيني (بيوتر جاييف قبل الانخراط في سلك الرهينة)، مؤلف المذكرات الشهيرة المعروفة باسم «قصة رحلة الأب بارفيني إلى روسيا ومولدافيا وتركيا والأراضي المقدسة»، تعرّف دستوفسكي على هذا الكتاب، الذي أشاد به سالتيكوف شيدرين وأنينكوف وتورجينييف، إبان وجوده في سيميبلاتينسك، وقد ترك الوصف الشعاعي والبساطة الآسرة، التي قدّم بها الأب بارفيني رحلاته عن الشرق، أثراً عميقاً على دستوفسكي. يؤكد ستراخوف (انظر: «السيرة» ص ٢٩٨) أن دستوفسكي اصطحب معه في عام ١٨٦٧م عند سفره إلى الخارج كتاب «رحلات الأب بارفيني»، وقد استفاد مما به من مفردات وتعبيرات استخدمها على لسان مكار إيفانوفيتش في رواية «الأبله». وفي خطابه إلى ن. أ. لوبيموف المؤرخ السابع من أغسطس ١٨٧٩م، أشار دستوفسكي في سياق حديثه عن «الإخوة كارامازوف» إلى الكتاب السادس من الرواية تحت عنوان «عن الكتابة المقدسة في حياة الأب زوسيم» في قوله: «هذا الفصل رائع وشاعري، النموذج الأصلي هنا مأخوذ من بعض تعاليم تيخون زادونسكي، أما بساطة العرض فهي من كتاب رحلات الأب بارفيني» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٢). عن التأثير الذي تركه بارفيني على إبداع دستوفسكي، انظر العمل المتميز الذي كتبه ر. ف. بليتنييف: "Dostojewski und der Hieromonach Parfenij." "Zeitschrift für slavische Philologie," Band xiv, Heft 1-2, 1937, s. 30-46.

^{٤١} ورد وصفه في رواية «الإخوة كارامازوف»، حيث ذهب ميتيا كارامازوف إلى هذا المحل لشراء هدايا توجّه بها إلى موكروي (ملاحظة لآنا جريجوريفنا دستوفسكايا).

لتوها من بطرسبورج ولو بكميات صغيرة. كانوا يعرفونه في المحل ويحترمونه، ولم يكن يضايقهم أنه يشتري بما لديه من نقود قليلة، بل كانوا يسارعون فيعرضون عليه أحدث ما وصل إليهم.

في الخامسة كنا نجلس مع الأطفال لتناول طعام الغداء، وكان زوجي دائماً ما يكون في هذا الوقت في أفضل مزاج له. وكان أول ما يفعله أن يحمل كأساً من الفودكا للعجوز بروخورفنا، مربية ابننا،^{٤٢} كان فيودور ميخايلوفيتش يقدمه لها قائلاً: «الفودكا أيتها المربية العزيزة!» كانت تشربها ثم تتناول شيئاً من المقبلات، عبارة عن خبز وملح. كان الغداء يمضي في جو من المرح، بينما يروح الأطفال يثرثرون دون انقطاع، أما نحن فلم نكن نتحدث مطلقاً إبان الغداء في أية موضوعات جادة لا يفهمها الأطفال. بعد انتهاء الغداء وشرب القهوة يظل زوجي جالساً مع الأطفال حوالي نصف ساعة أو يقرأ عليهم حكايات كري洛夫.^{٤٣}

في السابعة مساءً كنا نذهب أنا وفيودور ميخايلوفيتش إلى نزهتنا المسائية، وكنا نمر حتماً في طريق عودتنا بمكتب البريد،^{٤٤} حيث يمكن أن نبحت في هذا الوقت عما لنا في البريد القادم من بطرسبورج.

كان ما يصل فيودور ميخايلوفيتش من مراسلات ذا أهمية كبرى؛ ولذلك كنا أحياناً ما نهول عائدين إلى البيت في سعادة لنبدأ في قراءة الخطابات والصحف.

^{٤٢} كان فيودور ميخايلوفيتش يقدّر بروخورفنا تقديراً كبيراً؛ لحبها لطفلنا، وكان زوجي يذكرها أحياناً في خطابه إلى، «وقد صورها في رواية «الإخوة كارامازوف» في شخصية العجوز، التي كانت تُخرج الصدقات على روح ابنها الحي، الذي لم تكن تصلها منه أنباء، وكان فيودور ميخايلوفيتش قد نصحها بذلك وتنبأ لها أنها ستلقى خطابات في القريب العاجل، وهو ما حدث بالفعل (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٤٣} إيفان أندرييفيتش كري洛夫 (١٧٦٩-١٧٤٤م): كاتب قصص وحكايات روسي. أصدر مجلات ساخرة. كتب في الفترة من ١٨٠٩م إلى ١٨٤٣م ما يزيد عن مائتي حكاية. أطلق جوجول على حكاياته اسم «كتاب حكمة الشعب». (المترجم)

^{٤٤} في هذا الزمن كانت القطارات تصل إلى مدينة نوفجورود القريبة، ومن هناك يقطع البريد ثمانين فرسحاً (وأربعين أخرى عبر البحيرة) على الخيول، ومن ثم كنا نتسلم الصحف من ساعة البريد في اليوم التالي فقط، ولذلك كنا نذهب بأنفسنا إلى مكتب البريد لتسلم الصحف في يوم صدورها (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

كنا نضع أطفالنا في الفراش قرب التاسعة مساءً، وكان فيودور ميخايلوفيتش يذهب إليهم حتمًا «تمنياً لهم أحلاماً سعيدة»، ويقرأ عليهم صلوات «يا أبانا»، «العذراء» ثم دعاءه المفضل: «أتوسل إليك يا أم الرب أن تحفظيني في كفك!»

وفي العاشرة مساءً يعم الهدوء أركان البيت، حين يأوي كل من فيه، حسب تقاليد الريف، إلى فراشه مبكرًا. هنا ينسل فيودور ميخايلوفيتش إلى مكتبه ليقرأ الصحف؛ بينما أركن سعيدةً إلى الهدوء وقد أنهكني الهرج والمرج طوال اليوم؛ فضلًا عن ضجيج الأطفال، فأجلس في غرفتي وأرتب أوراق اللعب التي تعلمتها حتى الرقم ١٢ لرؤية الطالع.

أتذكر بحنين بالغ كيف كان زوجي يأتي إليّ عدة مرات كل مساء ليخبرني عما قرأه في الصحف الأخيرة، أو ليتحدث معي ببساطة في شتى الأمور، ودائمًا ما كان يبدأ في مساعدتي في الانتهاء من ترتيب ورق اللعب، بحيث يكون طالعي حسنًا، والدهش أنه كان يجد الكروت اللازمة والتي لم أكن ألحظها. كان لعب الورق يكتنفه الغموض والإلهام، ولم أكن لأفوز دون مساعدة زوجي.^{٤٥} في الساعة الثانية عشر يظهر زوجي عند باب غرفتي، وكان هذا يعني أن عليّ أن أخلد إلى النوم. كنت أطلب منه أن يسمح لي بدور آخر، كان يوافق فنذهب ونرتب أوراق اللعب معًا. أخيرًا أذهب للنوم ويكون جميع من في البيت قد ناموا، ولا يبقى نشاط سوى زوجي، فيجلس ليعمل حتى الثالثة/الرابعة بعد منتصف الليل.

مضى النصف الأول من شتائنا في ستاريا روسا (من سبتمبر وحتى مارس) على خير ما يرام، لا أذكر أننا نعيمنا في أي وقت آخر يمثل هذا الهدوء الذي خلا من أي كدر. صحيح أن الحياة هنا كانت تمر على وتيرة واحدة؛ كل يوم يشبه الآخر، حتى إن هذه الأيام كانت تتصل بعضها ببعض في ذكرياتي، حتى إنه لم يعد بإمكانني أن أتذكر أية أحداث خلال هذه الفترة. على أنني أذكر حادثةً مضحكةً مبكيًا وقع في مطلع الشتاء، قطع لبضعة أيام هدوءنا، وإليكم ما حدث: وصل إلى مسامعي أن التجار تسلموا من

^{٤٥} بمناسبة الورق: في ذلك المجتمع (وبخاصة المجتمع الأدبي)، الذي تربى في وسطه فيودور ميخايلوفيتش، لم يكن لعب الورق أمرًا معتادًا. وعلى امتداد حياتنا معًا، والتي استمرت أربعة عشر عامًا، لم يلعب زوجي الورق سوى مرة واحدة، عندما كان في ضيافة أقاربنا، وعلى الرغم من أنه كان قد انقطع عن اللعب لمدة تزيد عن عشر سنوات، فقد لعب على نحو رائع، بل إنه كسب بضعة روبلات شعر بسببها بالخلج (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكيا).

سوق مدينة نيجيجورود معاطف قصيرة من فراء الغنم للكبار والصغار، وقد أخبرت بهذا زوجي، وقد أبدى اهتمامًا شديدًا بذلك، وأخبرني أنه كان لديه في وقت ما معطفًا من فراء الغنم، وأنه يريد شراء واحد منه لفيديا، ذهبنا إلى المحل، وهناك عرضوا علينا عشرات المعاطف تفضل بعضها بعضًا. اخترنا عددًا منها، وطلبنا أن يرسلوها إلى البيت لقياسها، اخترنا معطفًا أصفر اللون فاتحًا، موثى على الصدر والأطراف على نحو رائع، وقد أعجب به فيودور ميخايلوفيتش للغاية، وقد كان مناسبًا لابننا تمامًا من ناحية المقاس. كان فيديا طفلًا مورّد الوجه، وكم كان يبدو وسيماً عندما كان يرتدي هذا المعطف بغطاء الرأس المرتفع، وحول خصره يضع حزامًا أحمر اللون! اشترينا أيضًا معطفًا أنيقًا للفتاة، وكان زوجي يظل يتطلع في الأولاد قبل خروجهم للنزهة، لكن إعجابنا سرعان ما خبا؛ ففي أحد الأيام البائسة لاحظت على الطرف الأمامي للمعطف الأصفر الفاتح بقعًا دهنية كبيرة؛ فضلًا عن دهون أخرى كانت متراكمة على الجلد. أخذتنا حيرة شديدة، فمن أين للصبي أن يلوّث معطفه بالدهن أثناء نزهته؟ ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة، كان لطاهيتنا العجوز زوج شبه أعمى، وكان يجلس لديها في المطبخ منذ الصباح، وبعد أن يتناول إفطاره، ولا يجد تحت يديه فوطة يمسح فيها يديه الملوّثتين بالدهن، كان يستخدم المعطف الذي كنا نعلقه في المطبخ ليجف. وقد حاولنا بشتى الوسائل أن نزيل الدهن من المعطف، ولكن البقع كانت تبدو بعد كل تنظيف جديد أكثر وضوحًا، وهكذا لم يعد المعطف الجميل صالحًا على الإطلاق. كنت في حالة شديدة من الغيظ لما أصاب المعطف من تلف، وبخاصة أنه لم يكن بإمكاننا استبدال آخر جديد به، وكان غضبي أشدّ على الطاهية، التي لم تكن تحسن تدبير شئون المطبخ، حتى إنني من الحسرة كدت أن أطردها من البيت، هي وزوجها الأخرق، لكن فيودور ميخايلوفيتش وقف إلى جانبيهما وأعادني إلى جادة الصواب. وبطبيعة الحال، فسرعان ما طوت الأيام صفحة هذا الحادث المؤسف الصغير.

لما كان إصدار روايتينا «الشياطين» و«الأبله» قد حقق نجاحًا كبيرًا، فقد قررنا، وكنا ما نزال في روسيا، إصدار «مذكرات من البيت الميت»، التي كانت طبعتها قد نفدت منذ زمن طويل، وكان باعة الكتب كثيرًا ما يطلبونها. أرسلوا إلينا مسوّد الطبع لتصحيحها، بعدها كان عليّ أن أسافر إلى العاصمة قبيل صدور الرواية؛ حتى أقوم ببيع كمية من النسخ (وقد نجحت في ذلك) وتوزيع كمية أخرى، مقابل عمولة، ومراجعة الحسابات

مع المطبعة، وما إلى ذلك من أعمال. كنت أرغب كذلك أن أزور أقاربي وأصدقائي، وأن أشتري، بمناسبة أعياد الميلاد، حلوى ولُعبًا لنزين بها شجرة عيد الميلاد التي كنا نود أن نجهزها لأطفالنا، وكذلك لأطفال القس الأب روميانتيف؛ لصلته القوية بأسرتنا. سافرت في السابع عشر من ديسمبر وعدت في الثالث والعشرين من نفس الشهر. وعند عبر بحيرة إيملين المتجمدة، عانيت من الخوف الشديد: عدد من العربات التي كانت تسير معًا انحرفت عن الطريق، وقد خاطرنا بالسير في الريح الشديدة، بعد أن هبَّت علينا عاصفة ثلجية، ولحسن الحظ أطلق الحوذية خيولهم، فاتخذت الحيوانات الذكية طرقًا مختلفة، حتى وصلت بنا في النهاية إلى الطريق الممهّد.

٦

شتاء عام ١٨٧٤م

كانت الحرائق في ذلك الزمن تنشب في ستاريا روسا على نحو متكرر؛ سواءً في فصل الشتاء أو في فصل الصيف. وكان من نتيجتها احتراق شوارع بأكملها. وكان العدد الأكبر من هذه الحرائق يقع ليلاً (في أحد المخابز أو الحمامات). وعندما كان فيودور ميخايلوفيتش يتذكر الحريق الذي أتى على أورنبورج كلها قبل فترة قصيرة، كان يشعر بالخوف الشديد إذا ما نشب حريقٌ هنا أو هناك، وراحوا يدقون الأجراس في أبراج الكنائس، وبخاصة أجراس الكنائس الواقعة بالقرب من بيتنا.

ورغم معرفته بأنني أكون في الأحوال العادية في غاية الهمة والنشاط، لا أهاب شيئاً، فقد كان يعلم أيضًا كيف «أفقد السيطرة على الأمور» في حالة وقوع أي حدث مفاجئ، لأبدأ بعده في ارتكاب تصرفات طائشة. ولذلك كان لدينا دائماً، إبان إقامتنا في روسا، اتفاق أن يوقظ كلُّ منا الآخر فور سماعه قرع أجراس الخطر. فما إن يسمع فيودور ميخايلوفيتش صليلها حتى يهزني من كتفي قائلاً: يا أنيا، لا تخافي، هناك حريق في مكانٍ ما، لا تقلقي من فضلك، أما أنا فسأذهب لأستطلع أين يقع الحريق!»

كنت أستيظ على الفور فألبس الأطفال النيام جوارب طويلة وأحذية، وأعدُّ لهم الملابس الخارجية حتى لا يصابوا بالبرد إذا ما اضطررنا لحملهم خارج المنزل. كنت أخرج ملاءتٍ كبيرةً فألفُ في إحداها (بشكل محكم) كلَّ ملابس زوجي، إلى جانب مذكراته

ومحفوظاته، وفي الأخرى أضع كل ما هو موجود في الصوان والكومودينو من فساتيني وأشياء الأطفال. كنت أهدأ بعد الانتهاء من كل ذلك وقد علمت أن أهم الأشياء في أمان. في أول الأمر كنت أحمل كل اللفائف إلى مدخل البيت بالقرب من باب الخروج، ولكنني منذ أن تعثر زوجي فيها في العتمة وكاد يقع عند عودته من الخارج بعد أن استطلع الأمر، بدأت في وضعها في الغرفة. كثيراً ما كان فيودور ميخايلوفيتش يهدئ من روعي قائلاً: «إن الحريق على بعد ثلاثة فراسخ.» وأكون وقتها قد أعددت العدة لإنقاذ حاجاتنا. ولكنني كنت أرى أن هذا الكلام لن يقنعني، وأن جمع الأمتعة على هذا النحو هو الذي سوف يبعث في نفسي الطمأنينة. لقد كان زوجي يدفعني عند كل إنذار إلى «حزم الأمتعة»، طالباً، مع ذلك، سرعة إعادتها بعد انقضاء الخطر المزعوم، إلى أماكنها.

أتذكر، عندما انتقلنا في ربيع عام ١٨٧٥م من شقتنا الشتوية في بيت ليونتييف مرة أخرى إلى داتشا جريبي، أن الحارس قال لي وهو يودعنا: أكثر ما يُشعرنني بالأسف أن السيد سيسافر.

- ولماذا؟ سألته وأنا أعرف أن زوجي لا تربطه به علاقة.

- كيف يا سيدتي؟! لقد كان يُهرَع للقرع على باب الحارس ما إن ينشب حريق هنا أو هناك: انهض، هناك حريق في مكان ما! حتى إن رئيس الشرطة قال عني: ليس هناك أحد في المدينة أكثر انضباطاً من حارس الجنرال ليونتييف، فما إن تدق الأجراس حتى يُهرَع واقفاً عند الباب. والآن كيف ستمضي الأمور بدونه؟ وكيف لا آسفُ سيدتي لفراقه؟!

عندما وصلت إلى المنزل أخبرت زوجي بما قاله الحارس، فضحك وقال: حسناً، انظري، إن لديّ فضائل لم يراودني، أنا نفسي، الشكُّ فيها.

سادت حياتنا على منوال منظم، كما استمر العمل في الرواية بنجاح منقطع النظير. كان ذلك أمراً هاماً بالنسبة إلينا، وأثناء رحلتنا إلى بطرسبورج التقى فيودور ميخايلوفيتش مع البروفيسور ديمتري كوشلاكوف، الذي نصحه بإلحاح بأن يواصل العلاج، وأن يذهب مرة أخرى في الربيع إلى إمس، بعد أن لاحظ النتائج الإيجابية للعلاج بالماء في العام الماضي. في أبريل عام ١٨٧٥م، كان علينا أن نسعي للحصول على جواز سفر للخارج. لم يكن الأمر يشكل مشقة في بطرسبورج؛ ولأننا كنا نعيش في هذا الوقت في روسيا، فقد كان على زوجي أن يتسلم جواز سفره من محافظة نوفجورود. ولكي نعرف أي أوراق عليه

أن يستوفيها في نوفجورود والمصروفات اللازمة، وما إلى ذلك، ذهبت إلى رئيس الشرطة في ستاريا روسا. آنذاك كان رئيس الشرطة هو العقيد جوتسكي،^{٤٦} وهو شخص عُرف عنه طيشه، يحب المرور على ملاك الأراضي المجاورين. بعد أن تسلّم الأوراق، دعاني على الفور إلى مكتبه، أجلسني على مقعد وسألني عن علاقتي بالأمر، وبعد أن قلب في درج مكتبه، أعطاني كراسة سميكة ذات غلاف أزرق. فتحتها وقد أدهشني بشدة أن أجد أن تتضمن «قضية الملازم ثانٍ متقاعد فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي، الموجود تحت المراقبة السرية والمقيم في الوقت الحالي مؤقتًا في ستاريا روسا»^{٤٧} تصفحت بعض الأوراق^{٤٨} وابتسمت وأنا أقول: هكذا؟ إذن فنحن تحت رقابتكم الواعية، وأنتم، على الأرجح، تعرفون كل شيء يحدث لدينا؟ هذا ما لم أتوقعه!

– نعم، أنا أعرف كل شيء يحدث في أسرركم، قال رئيس الشرطة بأهمية بالغة، وأستطيع أن أقول بأنني راضٍ حتى الآن عن زوجك تمامًا.

– هل أستطيع أن أنقل لزوجي مديحكم هذا؟ قلت له ذلك بلهجة ساخرة.
– نعم. أرجوكم أن تخبروه أنه يتصرف على نحو رائع، وأني أعول على أنه لن يسبب لي في المستقبل أي متاعب.^{٤٩}

بعد وصولي للمنزل أخبرت فيودور ميخايلوفيتش بما قاله رئيس الشرطة وأنا أضحك من فكرة أن رجلًا كزوجي يمكن أن توكل مهمة مراقبته لرجل شرطة غبي. لكن فيودور ميخايلوفيتش استمع إلى الخبر الذي نقلته إليه على مضض، قائلًا: كم غصوا البصر عن

^{٤٦} إدوارد ميخايلوفيتش جوتسكي دانيلوفيتش (١٨٩٥-١٩٥٠م): عقيد، جنرال فيما بعد. رئيس شرطة ستاريا روسا. المسئول عن الرقابة السرية لدستوفسكي باعتباره عضوًا سابقًا في جماعة بتراشيفسكي.
^{٤٧} تم نشر المواد الخاصة بقضية الرقابة السرية على دستوفسكي إبان وجوده في ستاريا روسا في كتاب أ. ز. جافورونكوف وس. ف. بيلوف، «قضية الملازم ثانٍ متقاعد فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي»، مجلة «روسكايا ليتيراتورا» (الأدب الروسي)، ١٩٦٣م، العدد ٤.

^{٤٨} انظر ترجمتنا لما ورد في هذا الكراس الأزرق المنشورة بمجلة ضاد، الصادرة عن اتحاد كتاب مصر، تحت عنوان: اختفاء دستوفسكي، العدد الرابع، السنة الأولى، يونيو ٢٠٠٦م، ص ٦٣-٧٠.

^{٤٩} ورد في تقرير جوتسكي عن دستوفسكي ما يلي: «يعيش حياته بوعي كامل، حتى إنه يسعى للسير في أقل الطرق ازدحامًا، يعمل يوميًا في الليل، يواصل العمل في غرفته على مكتبه حتى الرابعة صباحًا...» (المترجم)

أناس سيئي السمعة، أما أنا فيرتابون فيّ ويراقبونني! أنا الرجل المخلص بقلبه وأفكاره للقيصر وللوطن.

بفضل ثرثرة رئيس الشرطة تكشّف وضع أحزاننا بشدة، لكن السبب الذي لم نكن نستطيع تفسيره تحديداً من قبل؛ وهو لماذا لم تكن خطاباتي التي كنت أرسلها إلى فيودور ميخايلوفيتش من ستاريا روسا إلى إمس؛ لم تكن ترسل مكلّفاً إليه في نفس اليوم عندما كنت أسلمها إلى مكتب البريد؟ وإنما كانت تُحتجز لسبب ما في المكتب يوماً أو يومين. وهو ما كان يحدث أيضاً مع خطابات فيودور ميخايلوفيتش المرسلة من إمس إلى روسا. وفي الوقت المناسب يسبب له قلقاً شديداً؛ بالإضافة إلى أنه كان وراء وقوعه في نوبات الصرع، وهو ما يتضح، على سبيل المثال، من خطابه لي المؤرخ ٢٨ يوليو ١٨٧٤م.^{٥٠} الآن اتضح أن خطاباتنا كانت تراقب، وكان إرسالها يتوقف على نظرة رئيس الشرطة الذي كان كثيراً ما يتغيب يوماً أو يومين في مركز الإقليم.

هذه الرقابة التي كانت تتم على مراسلاتي مع زوجي على يد هذه الإدارة أو غيرها (وربما على كل مراسلاتنا الأخرى)، استمرت أيضاً في السنوات التي تلت ذلك، وسببت لزوجي ولي غصة في نفوسنا، لكن التخلص من هذا الموقف الحرج كان أمراً مستحيلاً. ولم يحاول فيودور ميخايلوفيتش نفسه أن يثير مسألة رفع رقابة الشرطة عنه، وبخاصة أن شخصيات مطلّعة أكدت لنا أنه ما دام يسمحون له أن يكون محرراً وناشراً لمجلة «مذكرات الكاتب»، فلا شك أن الرقابة السرية على نشاطه قد رُفعت. على أن الرقابة استمرت، مع هذا، حتى عام ١٨٨٠م، عندما تسنى لفيودور ميخايلوفيتش أن يتحدث مع إحدى الشخصيات الرفيعة عن هذا الأمر إبان الاحتفال ببوشكين، وقد أصدر هذا الشخص تعليماته التي بفضلهما رُفعت الرقابة السرية.^{٥١}

^{٥٠} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٣١.

^{٥١} تؤكد ف. س. نيتشايفا أن أنا دستوفسكايا على خطأ هنا؛ فقد رُفعت الرقابة السرية عن دستوفسكي منذ صيف عام ١٨٧٥م، وهو الأمر الذي لم يكن دستوفسكي على علم به حتى عام ١٨٨٠م، ففي ربيع عام ١٨٨٠م قدّم دستوفسكي التماساً إلى الأمير العظيم قنسطنطين نيكولايفيتش لرفع الرقابة عنه، وذلك عن طريق «شخصية هامة»، هي الكاتب أ. أ. كيرييف، الذي كان يعمل في معية الأمير، وقد تم إبلاغ دستوفسكي بعدها أن الرقابة مرفوعة عنه بالفعل منذ عام ١٨٧٥م (انظر: ف. س. نيتشايفا، متى رفعت الرقابة السرية عن دستوفسكي. «الأدب الروسي»، ١٩٦٤م، العدد الثاني).

العام ١٨٧٦م، السفر إلى بطرسبرج وإمس

في مطلع شهر فبراير، اضطر فيودور ميخايلوفيتش للسفر إلى بطرسبورج ليقضي بها أسبوعين. كان الهدف الرئيسي لهذه الرحلة هو ضرورة مقابلة نكراسوف، والاتفاق معه على المواعيد التالية لنشر الرواية. كان من الضروري أيضًا له التشاور مع البروفيسور كوشلاكوف؛ إذ كان زوجي يعتزم السفر إلى إمس في هذا العام؛ لكي يعزز النجاح الكبير الذي صادف العلاج هناك في العام الماضي.

في اليوم التالي لوصولنا إلى العاصمة بصحبة زوجي، وقع حادث مؤسف جعله يشعر بالخوف، فقد جرى استدعاؤه لمقابلة رئيس الشرطة، لكن زوجي فشل في الاستيقاظ والذهاب في الموعد المحدد (الساعة التاسعة صباحًا)، وعندما وصل لم يجد أحدًا بانتظاره، فاضطر للعودة مرة ثانية بعد الظهر. اتضح أن السبب وراء استدعاء زوجي هو أن لديه جواز سفر مؤقتًا، وقد طلبوا منه تقديم جواز سفر دائم، وهو ما لم يكن يملكه. وقد أثبت فيودور ميخايلوفيتش لمساعد رئيس الشرطة أنه يعيش بجواز سفر مؤقت منذ عام ١٨٥٩م، وأنه يحصل على أساسه على جواز سفر للخارج، وأن أحدًا لم يطلب منه إطلاقًا جوازًا آخر. إليكم ما جاء بخطابه المؤرخ السابع من فبراير ١٨٧٥م:

«راح مساعد رئيس الشرطة أيضًا يجادلني: لن نعطيك جواز سفر، إننا ملزمون بالحفاظ على القوانين.

– وما الذي عليّ أن أفعله؟

– أحضر لنا جوازًا دائمًا.

– ومن أين لي الحصول عليه؟

– ليس من شأننا؟

– حسنًا، هذه حماقة؛ أن يعامل «الكاتب»، في شعبنا هذا، بهذه الاستهانة.

في النهاية أقول لك إن في بطرسبورج عشرين ألفًا دون جواز. وها أنتم تحتجزون شخصية مشهورة وكأنه صعلوك.

– نعلم هذا يا سيد، نعلم جيدًا أنك رجل مشهور في روسيا كلها، لكننا

ملتزمون بالقانون. على أية حال، لماذا القلق؟ سنعطيك غدًا شهادة، أليس الأمر

سيان بالنسبة لك؟

- تباً، إذن لماذا لم تقل لي ذلك من البداية وأضعت الوقت في الجدال»^{٥٢}

انتهى الأمر باحتجاز جواز زوجي حتى موعد سفره، ثم أعاده إليه دون أن يستبدلوا به آخر جديداً، وإنما سببوا له المزيد من هموم كان في غنى عنها. في الخطابين المؤرخين السادس^{٥٣} والتاسع من فبراير، أخبرني زوجي بشعور بالرضا عن لقائه الودي بنكراسوف، الذي عبر له عن سعادته البالغة عند قراءته نهاية الجزء الأول من رواية «المراهق»: «جلست طوال الليل أقرأ، وقد استغرقتُ في القراءة على نحو لم أكن لأسمح لنفسي به؛ وأنا عجوز معتل الصحة». «يا له من موضوع مبتكر يا صديقي العزيز!» (أكثر ما أعجب به نكراسوف كان المشهد الأخير مع ليزا) «في سنواتنا هذه لا توجد مثل هذه الطزاجة عند أي كاتب. لا يوجد عند ليف تولستوي في روايته الأخيرة سوى تكرار لما قرأته له من قبل، بل إن القديم كان أفضل. وقد رأى في مشهد الانتحار «قمة الكمال»، تصوري، لقد أُعجب أيضاً بالفصلين الأولين. يقول نكراسوف: «أضعف ما في روايتك هو الفصل الثامن، هنا كثير من الأحداث الظاهرية.» أليس على حق؟ عندما كنت أعيد قراءة المسودة لم أعجب، أنا نفسي، بالفصل الثامن تحديداً، وحذفت منه مقاطع كثيرة»^{٥٤}

بعد عودتنا إلى روسا قصص عليّ زوجي العديد من الأحاديث التي دارت بينه وبين نكراسوف، وقد اقتنعت أن تجديد العلاقات الودية مع صديق الشباب كان أمراً عزيزاً على قلبه. بينما تركت لقاءات أخرى له مع بعض الشخصيات الأدبية آنذاك انطباعات أقل أثراً.^{٥٥} على العموم فقد قضى زوجي أسبوعين في العاصمة في حالة من الاضطراب

^{٥٢} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٤٩.

^{٥٣} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٤٧.

^{٥٤} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٥١-١٥٢.

^{٥٥} في خطابه إلى أنا جريجوريفنا دستوفسكايا المؤرخ الثاني عشر من فبراير ١٨٧٥م، يشير دستوفسكي صراحةً إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين أبولون مايكوف ونيكولاي ستراخوف بسبب نشر «المراهق» في «حوليّات الوطن» الذي يرأس تحريرها نكراسوف. (انظر: الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٥٥). كان أبولون نيكولايفيتش مايكوف صديقاً مقرباً من دستوفسكي منذ النصف الثاني من الأربعينيات، كما كان مقرباً أيضاً منذ هذا التاريخ من جماعة بتراشيفسكي. وكان مايكوف تحديداً محل ثقة دستوفسكي فيما يخص معلوماته السرية عن الاستعدادات الجارية لقلب الحكومة، كما قص عليه عن عزمه هو ونفر

والإجهد الكبيرين، وقد شعر بسعادة لا توصف عندما عاد إلى أسرته ووجدنا جميعاً أصحاباً سالمين.

وفي نهاية شهر مايو اضطر فيودور ميخايلوفيتش للسفر مرة أخرى إلى بطرسبورج لعدة أيام، ومنها للخارج. في هذه المرة لم يكن متحمساً للسفر إلى إمّس، وقد بذلت جهداً كبيراً لأقنعه ألا يفوّت الصيف دون علاج. كان سبب إحجامه يعود إلى أنه تركني ولستُ أفضل ما يُرام صحياً (كنت حاملاً)، وإلى جانب الحنين المعتاد للأسرة فقد عانى زوجي قلقاً بالغاً بسببي.

وقد وقعت حادثة (في نهاية فترة علاج زوجي) أنذرتني بخطر كبير: في الثالث والعشرين من يونيو تسلمت خطاباً من بطرسبورج أخبروني فيه أن صحيفة «وقائع سان بطرسبورج» نشرت خبراً يفيد أن فيودور ميخايلوفيتش مريض بشدة. لم أصدق ما ورد في الخطاب، ولكنني أسرع بالذهاب إلى مكتبة «مينرالني فودي» بحثاً عن صفح المساء، فوجدت في العدد ١٥٩ من الصحيفة المذكورة الملاحظة التالية:

«علمنا أن كاتبنا الشهير فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي مريض بشدة.» يمكنكم تصور كيف يمكن أن تؤثر مثل هذه الأخبار عليّ. خطر ببالي على الفور أن من الأرجح

من أعضاء جماعة بتراشيفسكي: سيشنيف، مودفينوف، وموميللي، وفيليبوف وميليتين، الانفصال عن هذه الجماعة، و«تكوين جمعية خاصة بهم تمتلك مطبعة سرية (...) بهدف القيام بانقلاب في روسيا» (انظر «الأرشيف التاريخي»، ١٩٥٦م، الجزء الثالث، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ انظر كذلك خطاب أبولون مايكوف إلى البروفيسور ب. أ. فسكوفاتوف. دستوفسكي، الجزء الأول، ص ٢٦٦-٢٧١).

وقد عادت العلاقات الودية بين دستوفسكي ومايكوف سيرتها الأولى في الخمسينيات والستينيات. زد على ذلك أن دستوفسكي، كما أشار بحق أ. س. دولينين، «راح في نهاية النصف الأول من الستينيات يعيد النظر في أفكاره التي اقتربت أكثر من النزعة السلافية، ومن ثم فقد كان عليه أن يتواصل مرة أخرى مع مايكوف، الذي كان قد مر بنفس مراحل التطور قبل ذلك بعدة أعوام (في نهاية الخمسينيات). (الخطابات، المجلد الأول، ص ٥١٩). وفي النصف الثاني فقط من السبعينيات، عندما جرى نشر «المراهق» في «حوليات الوطن»، عاد الفتور ليخيم على العلاقة بين دستوفسكي ومايكوف وبخاصة بعد رد دستوفسكي على سؤال ألقاه أحدهم عليه إبان غداء أقامه بعض الأساتذة والأدباء في الثالث عشر من مارس ١٨٧٩م؛ تكريماً لتورجينييف بقوله: «لماذا أنت الوحيد الذي ينشر في «البشير الروسي»؟» وقد أجاب دستوفسكي على الفور: «لأنهم يدفعون أكثر وبأمانة ومقدماً.» وفي نفس اليوم كتب مايكوف خطاب احتجاج إلى دستوفسكي تساءل فيه بحدة قائلاً: «لقد انتظرت أن تقول، باعتبارك شخصاً مستقلاً، ونظراً لتعاطفك مع كاتكوف واحترامك له، ولاتفاقمك معه في العديد من الآراء الأساسية (...) العديد من الآراء الأساسية

أن تكون نوبة صرع مزدوجة قد داهمت فيودور ميخايلوفيتش، ومثل هذه النوبات دائماً ما يكون لها تأثير بالغ السوء عليه. وقد تكون صدمة عصبية أو ربما أي شيء فظيع آخر. ذهبت إلى مكتب البريد في حالة من اليأس التام لأرسل برقية إلى زوجي، ورحت بعدها أستعد للسفر إليه، بعد أن اتخذت قراراً بترك الأطفال في رعاية الأب روميانتسيف وزوجته. وقد حاولا إثنائي عن السفر إلى زوجي، ولكنني لم أكن قادرة على أن أتحمّل فكرة أن زوجي العزيز مريض للغاية وقد يموت وأنا لست بجانبه. ولحسن الحظ فقد تسلمت رداً مطمئناً في حوالي الساعة السادسة. ما زلت أتذكر بمشاعر الخوف ما الذي كان من الممكن أن يحدث لو أنني سافرت وأنا «حامل» وعلى هذه الحالة من القلق الشديد. الحقيقة أن الله قد أنقذنا من كارثة!

لم أنجح في معرفة من الذي أبلغ الصحف هذا الخبر الذي لم يكن له أساس من الصحة، والذي تسبّب في الساعات العصبية التي قضيناها أنا وزوجي. ولكن، وبالإضافة إلى قلقلتي على الأطفال وخوفي على حملي، فقد كانت هناك فكرة ما لبثتُ تعذب فيودور ميخايلوفيتش؛ وهي أنه لا يتقدم في عمله وأنه غير قادر على تسليم «المراهق» في الموعد المحدد. في خطابه المؤرخ الثالث عشر من يونيو، كتب فيودور ميخايلوفيتش قائلاً: إن أكثر ما يعذبني هو ألا تحقق الرواية نجاحاً، حتى الآن أجلس وأتعذب ويساورني الشك وليست لديّ القوة أن أبدأ. لا، ليس بهذه الطريقة تُكتب رواية أدبية، ليس بالعصا، بل أن يكون لدى الكاتب الوقت والإرادة. ولكن، يخيل لي، أنني في النهاية سرعان ما سأجلس لأبدع عملاً حقيقياً، لكن، إلى أين سيقودني الأمر! ما دمت أعيش في هذا السأم فقد أفسد «الفكرة» ذاتها.^{٥٦}

ومن بين المشكلات التي كانت تؤرق فيودور ميخايلوفيتش أيضاً مشكلة استئجار شقة شتوية. وعلى الرغم من أننا كنا نعيش على نحو جيد في روسيا، ولكن إقامتنا فيها شتاءً آخر كان أمراً صعباً، وبخاصة نتيجة لأنه في بداية العام التالي (١٨٧٦م) قرر فيودور ميخايلوفيتش أن يشرع في العمل في مجلة «مذكرة الكاتب» التي كان يفكر في

لكنك ابتعدت دون أن تقول لماذا، هل تنشر عند كاتكوف بسبب النقود؟» (دستويكي، المجلد الثاني، ص ٣٦٤). عن ستراخوف انظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب (الفصل ٢)، ردّي على ستراخوف وكذلك [الجزء الثاني عشر، ما بعد موت فيودور ميخايلوفيتش، التعليق رقم ٣٨].

^{٥٦} الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٨٠.

إصدارها منذ زمن بعيد. كان الأمر يتلخص في هل يبدأ البحث عن شقة أثناء مروره ببطرسبورج بعد عودته من الخارج، أم تسافر الأسرة إلى العاصمة، وبعد أن نستقر جميعًا في أحد الفنادق نبدأ في البحث عن شقة نقيم فيها؟ كلٌّ من هذه الحلول كان له مصاعبه، أما أنا فكنّنت أميل إلى فكرة الذهاب إلى بطرسبورج بنفسني في توقيت عودة زوجي لنقوم معًا بالبحث عن شقة. وقد اعترض زوجي بحسم على هذا الحل؛ أخذًا في اعتباره حالتي الصحية آنذاك. وقد قررنا في النهاية أن يبقى فيودور ميخايلوفيتش يومين/ ثلاثة في بطرسبورج، فإذا لم يُسعد الحظ في العثور خلال هذه الفترة على شقة مناسبة فعليه بالعودة إلى روسيا.

العام ١٨٧٥م، الفأر الصغير

طوال إقامتنا في ستاريا روسيا كان مزاج فيودور ميخايلوفيتش دائمًا لطيفًا ومرحًا، وهو ما يشهد عليه، على سبيل المثال، مزاحه معي.

ذات يوم من أيام ربيع عام ١٨٧٥م غادر فيودور ميخايلوفيتش فراشه صباحًا وقد ارتسم العُيُوس على وجهه. أحسست بالقلق فسألته عن صحته.

— بصحة جيدة — أجاب فيودور ميخايلوفيتش — ولكن وقع لي حادث مزعج؛ لقد اتضح أن هناك فأرًا صغيرًا في فراشي، لقد استيقظت بعد أن شعرت أن شيئًا ما جرى على قدمي، أزحت الملاءة فرأيت فأرًا صغيرًا. وقد شعرت بالاشمئزاز! قالها فيودور ميخايلوفيتش وقد عبّرت قسَمات وجهه عن نفور شديد، وأردف قائلًا: لعل من الضروري أن نبحث عنه في الفراش!

— نعم، حتمًا. أحبته.

ذهب فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة المائدة ليتناول قهوته؛ بينما ناديت على الخادمة والطاهية ورحنا معًا نفتش الفراش، أزحنا الملاءة واللحاف والمخدات، استبدلنا البياضات ولم نعثر على شيء، رحنا نقلب الكراسي ونبعد الأرفف عن الحوائط حتى نعثر على جحر الفأر.

عندما سمع فيودور ميخايلوفيتش الجلبة التي أحدثناها بدا في النداء عليّ، ولما لم أستجب أرسل إليّ أحد الأطفال، أحبته أنني سأتي إليه فور انتهائي من تنظيم الغرفة. عندئذ طلب مني فيودور ميخايلوفيتش بإصرار أن أذهب إليه في غرفة المائدة. وعلى الفور ذهبت إليه وعندها سألني بنفس النفور السابق: حسنًا، هل وجدتم الفأر الصغير؟

- أين نجده؟! لقد هرب. الغريب في الأمر أن غرفة النوم ليس بها أي منفذ، بداهةً فقد تسلل من المدخل.

- أول أبريل، أنيتشكا، أول أبريل! أجاب فيودور ميخايلوفيتش وقد أضاءت وجهه الطيب ابتسامة حنون مرحة. اتضح أن زوجي تذكر أن من الشائع في أول أبريل أن يلجأ الناس إلى عمل خدعة، فأراد أن يسخر مني، وكنت قد صدقت الأمر وقد نسيت تمامًا تاريخ اليوم. بالطبع ضحكنا كثيرًا، وقد اعتدنا أن يدبر كل منا للآخر خدعة «أول أبريل» وكان أطفالنا يشاركون فيها.

٨

العام ١٨٧٥م، ميلاد ليوشا العودة إلى بطرسبورج

عاد فيودور ميخايلوفيتش من إمس إلى بطرسبورج في السادس من يوليو، ف قضى في المدينة يومين/ثلاثة، ولما كان من الصعب عليه في هذه الفترة القصيرة أن يعثر على شقة مناسبة، فقد ترك البحث، بعد أن شاهد عددًا من الشقق، وعاد أدراجه إلى روسا. كان متشوقًا للغاية للعودة إلى أحضان الأسرة. وبعد أن أمعنًا النظر والتدبير قررنا البقاء في روسا إلى أن يصل العضو المنتظر إضافته لأسرتنا، ناهيك عن أن السادة كبار السن، الذين كانوا يهيمنون حبًا بأطفالنا، أقنعونا بعدم سفرهم في منتصف فصل الصيف.

وافق فيودور ميخايلوفيتش على البقاء بارتياح مستغرب؛ لأن ذلك كان سيسمح له بالعمل في هدوء على إتمام روايته قبيل وبعد أن أضع طفلي، دون أن يتخلل عن تعاوني معه. كان العمل يتطلب قدرًا كبيرًا من الجهد حتى يتسنى لزوجي عند وصوله إلى بطرسبورج أن يطلب من نكراسوف نقودًا مقابل رواية «المراهق». وكانت النقود ضرورية لنا لأقصى حد لكي نبدأ بها حياتنا في العاصمة.

سار كل شيء على ما يرام. كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر أن قد تعافى تمامًا، وقد راح الأطفال يكبرون وتحسن صحتهم، وحتى أنا شعرت، بعد عودة زوجي، أن كل مخاوفي، التي كانت تنتابني قبل الوضع باحتمال موتي، قد اختفت جميعها تمامًا. وهكذا مضت أحوالنا في هذا الشهر هادئة لا يعكر صفوها شيء. وفي العاشر من أغسطس وهبنا

الله غلامًا سميناه ألكسي.^{٥٧} كلانا كان سعيدًا إلى حد لا يوصف، مسرورًا بمجيء أليوشا للدنيا (وبخاصة أنه كان بصحة لا بأس بها)، وبفضل ذلك استعدت عافيتي سريعًا واستطعت أن أساعد زوجي مرةً أخرى بأعمال الاختزال.

جو لطيف ساد شهرَ أغسطس بأكمله حل بعده شهر سبتمبر بأيامه المعروفة «بالصيف الهندي»، عجيبة بدفئها وهدوئها، على أننا قررنا السفر في حوالي الخامس عشر من الشهر خوفًا من تقلب الجو. كان الطريق أمامنا شاقًا، فالسفن لم تكن تصل إلى المدينة بسبب انخفاض المياه في نهر بوليستا، ومن ثم كانت تقف في بحيرة إيلمين في مواجهة قرية أوستريكا، على بُعد ثمانية عشر فرسخًا من روسا. وذات صباح رائع دافئ خرجنا من البيت في طابور طويل: في المقدمة جلس فيودور ميخايلوفيتش مع الطفلين في عربة مسقوفة؛ بينما جلست أنا والرضيع والمربية في العربة الثانية، وفي الثالثة جلست الطاهية فوق جبل من الصناديق والأجولة والصرر. سرنا في جو يسوده المرح على صليل أجراس الخيول، وكان فيودور ميخايلوفيتش يوقفها لكي يطمئن على أحوالي ويخبرني أنه في غاية السعادة مع الأطفال.

وصلنا إلى أوستريكا بعد حوالي ساعتين ونصف، وهنا صادفنا أمرًا لم نعمل له حسابًا؛ لقد وصلت السفينة بالأمس، وبعد أن أخذت عددًا كبيرًا من المسافرين، قرر القبطان أن العدد الراغب في السفر سيكون قليلًا اليوم؛ ولهذا وعد بالمجيء في الغد. أسقط في أيدينا. كان علينا أن نقضي يومًا بطوله هنا. هُرعَت إلينا ربأت بيوت من بيتين/ثلاثة يدعوننا للمبيت لديهم. اخترنا أكثرها نظافةً لنتنقل العائلة كلها إليه، سألت صاحبة البيت كم تأخذ أجرًا على المبيت، فأجابت بأريحية شديدة: «لا عليك يا سيدتي، لن نأخذ أكثر مما يجب، وأنت لن تهضمينا حقنًا شيئًا».

اتضح لنا أن الغرفة متوسطة الاتساع بها سرير كبير، يمكن وضع الأطفال فيه بالعرض. قررت أن أقرب بعض الكراسي إلى بعض وأنا م عليها، أما فيودور ميخايلوفيتش فنام على أريكة قديمة نكَّره مظهرها بطفولته. بينما ذهبت الفتيات (الطاهية والخادمة) للنوم في مخزن العلف.

^{٥٧} تيمناً بالقدیس ألكسي، وكان من الأولیاء الذین أحیهم فیودور میخایلوویتش، ولهذا أطلق اسمه على مولوده، على الرغم من أحدًا في عائلتنا لم يكن يحمل هذا الاسم (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكيا).

وحيث إننا سافرنا ومعنا كل ما نملكه، حاملين معنا أيضًا موادَّ غذائية، فقد ذهبنا الطاهية على الفور لإعداد طعام الغداء، بينما توجهنا نحن للنزهة، فمددنا عددًا من الأربطة على الأرض فوق تل يُطلُّ على البحيرة وجلسنا نستجم. كان وليدنا بصحبتنا وقد استغرق في النوم في هذا الهواء الطلق. قضينا يومًا رائعًا، كان فيودور ميخايلوفيتش مسرورًا للغاية يلعب مع الأطفال ويدخل معهم في سباق للجري. وكنت مبتهجة لأننا نجحنا أن نجعل جزءًا من رحلتنا الطويلة على هذا النحو من السعادة. تناولنا طعام الغداء، وسرعان ما هبط الظلام لنعود ونهجع في أسرَّتنا مبكرًا.

في الصباح، في حوالي الثامنة، أخبرونا أن دخان السفينة يتراءى عن بُعد، وبعد حوالي ساعة ونصف سوف تصل إلى أوستريكا. بدأنا نجمع أمتعتنا ونلبس الأطفال ما يناسب الطريق، ثم ذهبنا لدفع أجرة المسكن. اختفت صاحبة البيت ليظهر بدلًا منها ابنها، يبدو من مظهره أنه شخص مولع بشرب الفودكا. كان الحساب مكتوبًا بخط رديء، وبلغت قيمته أربعة عشر روبلاً وبضع كوبيكات، منها روبلان ثمن دجاجة، واثنان ثمن اللبن وعشرة للمبيت. غضبت بشدة ورحت أجادله في الحساب، لكن ابن صاحبة البيت لم يترجع وهُدِّدنا بأنه سوف يحتجز حقائبنا إذا لم ندفع المبلغ كله. بالطبع اضطررنا للدفع ولكنني لم أتمالك نفسي ووصفته «باللص».

في هذه الأثناء كانت السفينة قد اقتربت وتوقفت على مسافة نصف فرسخ من الشاطئ، ومن ثمَّ كان علينا أن نستقلَّ قاربًا لنصل إليها. ولكن عندما نزلنا إلى الشاطئ نفسه تبين أن القوارب تقف على مسافة بضع خطوات من البر، وكان البسطاء يخوضون في المياه إليها بعد أن خلعوا أحذيتهم. أما نحن فقد حملتنا على ظهورهن نسوةٌ أشداء. لُكِّم أن تتخيلوا مدى الخوف والقلق الذي شعرنا به أنا وزوجي على الأطفال. حملوا زوجي أولاً وقد وضع على يديه الأطفال وقد راخوا يصرخون ويكون من الخوف. ثم حملوني بعده وأخيرًا حملوا الرضيع. جلست في القارب وقد انتابني الخوف وأنا أفكر كيف سنصعد إلى السفينة على السلم ومعنا الأطفال! لكن كل شيء تم على ما يرام؛ أرسل القبطان واحدًا من بحَّارته ليستقبلنا، وقد قام بحمل الأطفال كلهم. في هذه الأثناء وصلت أمتعتنا عبر قارب يقوده ابن صاحبة البيت.

كان النهار بديعًا. انعكس سطح بحيرة إيلمين بلون الفيروز لتذكرنا بالبحيرات السويسرية. لم يكن هناك أدنى اهتزاز، وقد جلسنا ساعات السفر الأربع جالسين على السطح.

وصلنا إلى نوفجورود في حوالي الساعة الثالثة. وعلى الفور توجهنا أنا وفيودور ميخايلوفيتش والأطفال إلى محطة السكك الحديدية. بينما تولى الحوزية إنزال أمتعتنا مع أمتعة باقي الركاب، وبعد ساعة أحضروا الأمتعة، ولما لم أكن أثق في فطنة الخادمة فقد ذهبت بنفسني لمراجعتها، كانت لدينا حقيبتان جلديتان كبيرتان، إحداهما سوداء والأخرى صفراء، وبعض الحقائق الصغيرة، وقد هدا خاطري عندما شاهدتهم جميعاً.

مر اليوم بسرعة كبيرة، وفي حوالي الساعة السابعة جاء إليَّ الحارس وأخبرني أن من الأفضل لي أن أعطيه التذاكر مقدماً، وأن أتسلم الحقائق قبل أن يزدحم المسافرون للحصول على أمتعتهم. وافقت واشترت التذاكر، وبعد أن عدت أشرت للحارس إلى حقيبتين كبيرتين واثنين آخرين يجب تسليمهما. وفجأة، ولشدة دهشتي، قال لي الحارس، مشيراً إلى الحقيبة السوداء: «سيدتي، هذه ليست حقيبتك، لقد سلمتها لتوي لحفظها لمسافر آخر.»

- كيف ليست حقيبتني؟ مستحيل! صرخت واندفعت أفحص الحقيبة. وا أسفاه! على الرغم من أنها بنفس شكل ومقاس حقيبتنا (من المؤكد أنه قد تم شراؤها أيضاً من مخزن جوستيني دفور بعشرة روبلات)، ولكنها، دون أدنى شك، حقيبة شخص آخر، مكتوب على سطحها الحرفان الأولان من اسم صاحبها بخط يكاد ينمحي.

- يا إلهي، إذن أين توجد حقيبتنا في هذه الحالة؟ ابحث عنها، قلت للحارس، لكنه أجاب بأنه لا توجد حقيبة سوداء أخرى هنا. وقعت في هاوية اليأس، فالحقيبة الضائعة أشياء تمثل أهمية كبرى لفيودور ميخايلوفيتش؛ ملابسه الخارجية وبياضات، والأهم من ذلك كله مخطوطات رواية «المراهق»، التي ينبغي على زوجي أن يحملها غداً إلى «حوليات الوطن» ويتسلم مكافأته المالية عنها، والتي نحن في أمس الحاجة إليها، وعلى هذا فقد ضاع جهده على مدى الشهرين الأخيرين، ومن المستحيل إعادة كتابتها مرة أخرى، إذ إن المسودات التي كتبها فيودور ميخايلوفيتش موجودة أيضاً في الحقيبة، وبدونها يصبح عاجزاً تماماً، وعليه أن يضع، مضطراً، خطة جديدة للرواية. هكذا تخيلت حجم الكارثة التي حلت بنا. هرولت دون أن أشعر وقد غمرني الحزن إلى الصالة التي كان ينتظرني فيها فيودور ميخايلوفيتش مع الأطفال. عندما رأى وجهي وقد علاه الكدر، فزع زوجي خشية أن يكون مكروهاً قد أصاب المولود الذي كان بصحبة المربية في غرفة السيدات. ما كدت ألتقط أنفاسي حتى رحت أقص عليه ما حدث.

كانت صدمة عنيفة لفيودور ميخايلوفيتش حتى إن وجهه قد شحب، وغمغم قائلاً: حقاً! إنها كارثة ثقيلة. ما الذي علينا أن نفعله الآن؟

- أتعرف؟ تذكرت فجأةً، إنه هذا الوقح ابن صاحبة البيت لم يضع الحقيبة على الباخرة؛ نكاية فيّ لأتني وصفته باللص.

- لعلك على حق - وافقني على ذلك فيودور ميخايلوفيتش - ولكن، تعرفين أن علينا ألا نتوقف عن البحث عن الحقيبة، يجب أن نحاول، مستحيل أن تكون قد اختفت. إليك ما ينبغي أن نفعله: تذهبين إلى بطرسبورج مع الأطفال (كان النزول في فندق هنا بصحبة الأطفال والخادمة أمرًا مستحيلًا؛ إذ لم يكن معنا ما يكفي من مال)، وأنا سأبقى هنا، وغداً أذهب إلى ليرخي^{٥٨} (محافظ نوفجورود، وكان صديقاً لفيودور ميخايلوفيتش)، فأطلب منه أن يرسل معي شرطياً، وغداً أذهب مباشرة إلى أوستريكا. فإذا كان صاحب البيت احتجز الحقيبة لديه، فسوف يسلمها لنا على الأرجح خوفاً من إجراء تفتيش. حسناً، وأنت هذئي من روعك بالله عليك! اذهبي فاغتسلي بالماء البارد، ثم عودي إلينا بأسرع ما يمكن!

ذهبت وقد بلغ بي اليأس حدًا كبيرًا. رحت ألوم نفسي على العصبية التي وقعت، وعلى أنني لم أعتنِ اعتناءً كافياً بأعز ما لدينا، وعلى أنه بسبب عدم متابعتي لأمتعتنا ضاع جهد شهرين بذله زوجي! «لكنني نظرت وكنت على يقين أنها حقيبتنا! هكذا حدثت نفسي. وهل كان من الضروري أن تقع هذه المصادفة فيحدث هذا التشابه مع حقائبنا!» وقفت في صالة الحقائق مستندةً إلى إحدى القوائم، وفجأةً برقت في رأسي فكرة أنه ماذا لو أن الحقيبة ما تزال على رصيف الباخرة؟ في هذه الحالة لا بد أنهم أخذوها بطبيعة الحال وأخفوها. ماذا لو ذهبت للسؤال عنها هناك؟ توجهت إلى الحارس بالسؤال إن كان بإمكانه الذهاب إلى الرصيف والاستعلام إن كانت هناك حقيبة وأن يحضرها إلينا، فإذا لم يعطوها له فليخبرهم أن أصحابها سيأتون غداً لاستلامها. أجابني الحارس أنه لا يستطيع مغادرة المكان لأنه منوط بالوردية. عندئذٍ، ودون أن أطيل التفكير، قررت الذهاب بنفسني إلى الرصيف. خرجت من المحطة، وجدت عند البوابة حوزيين فصرت قائلة: «من يأخذني إلى رصيف السفن، ذهاباً وعودة؟ أعطيه روبلاً ونصف.» أحدهما أجاب أنه مشغول، والآخر، وهو شاب يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وافق. قفزت في العربة وانطلقنا. كانت الساعة حوالي الثامنة مساءً وكان الظلام قد حل بدرجة كبيرة.

^{٥٨} إدوارد فاسيليفيتش ليرخي (١٨٢٧-١٨٨٩م): سيناتور، محافظ نوفجورود في الفترة من ١٨٦٤م إلى ١٨٨٢م.

عندما كنا نسير عبر شوارع المدينة، لم يكن ينتابني أي خوف؛ لوجود أعمدة الإضاءة والمشاة. ولكننا ما إن عبرنا جسر فولخوفسكي وانحرفنا يميناً، بالقرب من عدد من العنابر الطويلة، حتى راح قلبي يدق بشدة: هنا، في الظلام، في عمق العنابر، بدا أن هناك أناساً مختبئين، حتى إن صعلوكين منهم راحوا هناك يركضون وراءنا. عندئذٍ قام الفتى بهمز الحصان ودفعه حتى إنه انطلق كأنه الطير. وصلنا بعد عشر دقائق إلى الرصيف. قفزت من العربة وعدت عبر الجسر الصغير نحو المكتب الأمامي. كان المكان هناك مظلماً بداهة، كان الحارس نائماً. رحت أدق الحائط بكل قوتي، ثم الحائط الآخر، ثم النافذة. في البداية صُحْتُ بأعلى صوتي: «أيها الحارس، افتح بسرعة!» بعد خمس دقائق وكنت قد يئست من نجاحي وأردت أن أعود إلى الحوذي، إذا بسعال رجل عجوز يدوي فجأة، ثم تلاه صوت يقول: «من يدق؟ ماذا تريدان؟» افتح يا جدي بسرعة! — صُحْتُ، بعد أن قررت بناءً على الصوت، أنني أتحدث إلى شيخ عجوز — لقد تركنا لديكم حقيبة سوداء كبيرة، وقد قديمنا لأخذها. «موجودة» أجاب الصوت. «أخرجها إذن بسرعة!» «اقترب، أجاب العجوز ثم دفع في الحائط الجانبي بحاجز خشبي (يسلمون الأمتعة عبره للمكتب بالأمّعة) وألقى على الرصيف بحقيقتي السوداء. يمكنكم أن تتصوروا سعادتي الغامرة في هذه اللحظة!

— يا شيخ، أحضر الشنطة إلى الحوذي وسوف أعطيك ثمن الفودكا. توجهت إليه بهذا الطلب، لكنه إما لم يسمعي وإما خشي رطوبة المساء، ولكنه أعاد الحاجز الخشبي إلى مكانه، ليسود المكان الصمت المطبق الذي كان عليه من قبل. حملت الحقيبة فوجدتها ثقيلة للغاية يصل وزنها إلى أربعة بودات.^{٥٩} أسرعت أبحث عن الفتى الحوذي لكنه رفض وضّعها على مقعده قائلاً: «انظري بنفسك، المكان ضيق للغاية، كيف لي أن أضعها إلى جوارِي وأقود الحصان!» أُسْقِط في يدي! عدت من جديد بسرعة، أمسكت الحقيبة من مقبضها وجريتها وأنا أتوقف لالتقاط أنفاسي خطوةً بعد خطوة، ولسوء الحظ كان الجسر طويلاً. على أنني نجحت في النهاية أن أصل. نزل الحوذي من العربة ووضع الحقيبة في المسافة بين مقعده والمقعد الخلفي، أما أنا فقد جلست فوقها بنفسني، وقد عقدت العزم ألا أتنازل عنها حتى ولو هاجمنا «الأوباش». راح الحوذي يهمز حصانه فانطلقنا بسرعة البرق، لنمر عبر طريقنا بأشخاص راحوا ينادون علينا، وبعد خمس عشرة دقيقةً وصلنا

^{٥٩} البود: وحدة وزن زنتها ١٦,٣٨ كيلوجراماً. (المترجم)

إلى الميدان التجاري. المكان هنا أكثر أماناً. وعند هذه اللحظة انتعش سائقنا وبدأ يحكي عن الخوف الذي انتابه: «أردت أن أعود أدراجي، ولكن خشيت أن أترك وحدك. فقد جاءني اثنان من «الأوباش» وسألاني عن الأمر فقلت لهم إنني أحضرت رجلاً، وعندما سمعوا صياحك مع شخص ما انصرفوا.»

رجوت الفتى أن يسرع في العودة، فقد كنت أدرك كم من الوقت مضى منذ مغادرتنا المحطة، وأن فيودور ميخايلوفيتش لا بد وأنه يفتقدني بشدة الآن. وقد اتضح أن زوجي، عندما وجد أنني لم أرجع، ذهب إلى استراحة السيدات، ولما لم يجدني هناك بعد أن تركت الأطفال وأليوشا للمربية، ذهب للبحث عني. ظل زوجي يسأل الحراس لعل أحداً منهم قد رأي، فأجابه أحدهم أن السيدة استأجرت حوزياً اتجه بها ناحية هذا الجانب من المدينة. كان فيودور ميخايلوفيتش قلقاً، لا يعرف إلى أين توجهت في هذه الساعة المتأخرة، وحتى يتمكن من لقائي، خرج إلى سقيفة الباب. وعندما رأيته عن بُعد صحت: ها أنا ذا فيودور ميخايلوفيتش! جئت ومعى الحقيبة!

لحسن الحظ أن المكان أمام بوابة محطة السكك الحديدية لم يكن مضاءً بشكل مناسب، وإلا شاهد الناس سيدة محترمة لا تجلس على المقعد المخصص للجلوس في عربة وإنما فوق حقيبته، ويا له من منظر غير لائق بالمرّة! عندما قصصت على فيودور ميخايلوفيتش مغامراتي كلها أصابه الذعرُ ووصفني بالجنون.

- يا إلهي! يا إلهي! صاح زوجي، فكري في مدى الخطر الذي تعرضت له! الأمر أن الأوباش عندما رأوا حوزياً معه امرأة في عربته أسرعوا وراءك، وكان باستطاعتهم أن يهجموا عليك فينهبوك ويشوهوك ويقتلوك! فكري، ما الذي كان سيحدث لنا! سيحدث لي! سيحدث للأطفال! أه يا أنيا، إن اندفاعك هذا سيقودك للهلاك!

كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أن اندفاعي، أو، كما يقال، ميلي لاتخاذ قرار خاطف في ثانية واحدة ووضعه موضع التنفيذ، دون إمعان التفكير فيما يترتب عليه من نتائج؛ هو أكبر عيوبي، وقد أشار إلى ذلك في بعض خطاباته إليّ.

شيئاً فشيئاً عاد فيودور ميخايلوفيتش إلى هدوئه، وفي نفس الليلة عدنا إلى بطرسبورج سالمين.

أقدم هذا المشهد كنموذج للمصاعب والكروب التي صادفتنا في تلك الأزمان البعيدة، لمجرد سفرنا إلى بلد قريب نسبياً؛ مثل ستاريا روسا.

الجزء الثامن

العامان ١٨٧٦-١٨٧٧م

١

العام ١٨٧٦م، المزحة السخيفة

ينتابني إحساس بالفزع كلما تذكرت هذا الحادث الذي وقع في الثامن عشر من مايو عام ١٨٧٦م. إليكم ما حدث: في هذا العام كانت «حوليّات الوطن» تنشر رواية جديدة للكاتبة صوفيا سميرنونا^١ بعنوان «قوة الشخصية». كان فيودور ميخيلوفيتش صديقاً لها، وكان يقدر موهبتها الأدبية تقديرًا رفيعًا. وقد أبدى زوجي اهتمامًا بعملها الأخير، فطلب مني أن أحصل له على أعداد من المجلة بمناسبة ظهور الرواية فيها. كنت دائمًا أتحين تلك الأيام التي يستريح فيها من عناء العمل في «مذكرة الكاتب»، فأحضر له «حوليّات الوطن». ولما كانت المكتبة تُعير الأعداد الجديدة من المجلة لمدة يومين/ثلاثة، فقد كنت أحث زوجي على قراءة المجلة حتى نتجنب دفع غرامة للمكتبة إذا لم نُعد إليها الأعداد في الوقت المحدد. وهو ما حدث مع عدد أبريل، فبعد أن أتم فيودور ميخيلوفيتش قراءة الرواية أثنى لي على العزيزة صوفيا إيفانوفنا (التي كنت أنا أيضًا أفدّرها) لنجاحها في تصوير إحدى الشخصيات.^٢ وفي المساء ذاته خرج فيودور ميخيلوفيتش لحضور أحد الاجتماعات، أما

^١ صوفيا إيفانوفنا سميرنونا (١٨٥٢-١٩٢٠م): كاتبة مسرح وروائية. نشرت في «حوليّات الوطن» ثم في «العصر الحديث». زوجة الممثل ن. ف. سazonوف.

^٢ من البدهي أن الشخصية الرئيسية في رواية س. إ. سميرنونا نيكولاي بافلوفيتش سولفوي؛ هي التي جذبت انتباه دستوفسكي بقوتها واستقلاليّتها.

أنا فقد عكفت، بعد أن وضعت الأطفال في أسرّتهم، على قراءة «قوة الشخصية». تضمنت الرواية، بالمناسبة، خطاباً غفلاً من التوقيع أرسله شخص سافل لبطل الرواية، إليكم ما ورد بالخطاب:

سيدي الكريم^٢ بيتر إيفانوفيتش المحترم^٣

أنا شخص مجهول لديكم تماماً، وحيث إنني متعاطف معكم، فإنني أتجاسر بكتابة هذه السطور إليكم. إنني على دراية تامة بما تملكونه من نبل وكرم؛ ولذلك يحزُّ في نفسي أن تقوم إحدى الشخصيات القريبة منكم بخداعكم على نحو لا يليق بكم. إن هذه الشخصية تعيش على مسافة، ربما، ما يزيد على ألف فرسخ، وهي مثل يمامة سعيدة، ما إن تنشر جناحيها حتى تحلّق في الفضاء غير أبهة بالعودة إلى بيت الأسرة. لقد تركتم لها العنان وهي الآن على وشك الهلاك. لقد وقعت بين مخالب شخص يسومها العذاب، لكنه يفتنها بمظهره المتملق، شخص ملك فؤادها، وبات لديها أعزّ من عينيها، فإذا لم يرد على أذنيها معسول الكلام، راحت تكره كل شيء حتى أطفالها. إذا أردت أن تعرف من هذا الوقح فلن أخبرك باسمه، ولكن عليك أن تحاذر أصحاب البشرية السمراء، فإذا ما رأيت أحدهم حريصاً على زيارتكم وكثرة التردد عليكم، فتدبّر أمرك. هذا الأسمر يقطع الطريق عليكم منذ زمن بعيد دون أن تحزّر من هو. لا شيء في الأمر كله يهمني، لكنني أكشف لكم هذا السر لما عهده فيكم من كرم ونبل. فإذا لم تكن تصدقني فيما أقول، فإن زوجتك تعلق في رقبتها سلسلة لها قلادة، فانظر من تضع في هذه القلادة فوق قلبها. المجهول أبداً، المخلص دوماً.

ينبغي أن أذكر هنا أنني في الفترة الأخيرة كنت في حالة نفسية رائعة: توقفت منذ فترة طويلة نوبات الصرع التي كانت تدهم زوجي، شفي الأطفال من الأمراض تماماً، كنا

^٢ «حويات الوطن» ٢ أبريل، ١٨٧٦م، ص ٤٥٧ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٣ غير دقيق، فالخطاب في الرواية يبدأ على النحو التالي: «العزیز إيفان بافليتش!» («حويات الوطن»، ١٨٧٦م، أبريل، ص ٤٥٧).

نسدد ديوننا شيئاً فشيئاً، أما نجاح «مذكرة الكاتب» فكان في صعود. كل ذلك دعم داخلي المزاج المميز لشخصيتي المحبة للحياة. وهكذا إذا بي تحت تأثير هذا المزاج، وقرآتي لهذا الخطاب الذي أرسله مجهول، تخطر في ذهني فكرة عبثية هي أن أعيد كتابة هذا الخطاب (بعد أن أغير وأمحو سطرين/ ثلاثة إلى جانب الاسم) وأرسله إلى فيودور ميخايلوفيتش. تصورت أنه، وقد قرأ هذا الخطاب بالأمس في رواية سميرنوفا، سوف يخمن على الفور أن هذا الخطاب ليس سوى مزحة وسوف نضحك عليه كلانا. وقد خطرت برأسي فكرة أخرى؛ أن زوجي سوف يأخذ الخطاب على محمل الجد، وفي هذه الحالة شاقني أن أعرف كيف سيتصرف عندما يتسلم خطاباً مجهولاً: هل سيعرضه عليّ أم سيلقي به في سلة المهملات؟ وكعادتي رحت أنفذ ما فكرت فيه. في البداية أردت أن أكتب الخطاب بخطي المعتاد، ولما كنت أعيد يومياً كتابة «مذكرة الكاتب» بعد أن يملئها عليّ فيودور ميخايلوفيتش، من لغة الاختزال إلى الكتابة العادية، فقد بات خطي معروفاً على نحو جيد له. وهنا لجأت إلى بعض التموهيه لهذه المزحة، فتوصلت لكتابة الخطاب بخط مختلف الحروف، فيه أميل للاستدارة التي لا تميز خطي. وقد كلفني هذا جهداً بالغاً، فقد اضطررت لإفساد عدد من الصفحات قبل أن تتخذ الكتابة شكلاً متسقاً. وفي صباح اليوم التالي وضعت الخطاب في الصندوق ليسلمه لنا البريد في منتصف اليوم ومعه باقي المراسلات.

في هذا اليوم تأخر فيودور ميخايلوفيتش في مكان ما، ومن ثم فقد عاد إلى المنزل في الخامسة تماماً، وحيث إنه لم يرغب في تأخير الأطفال عن الغداء، فقد ارتدى ملابس المنزل ولم يتفحص البريد واتجه مباشرة إلى غرفة الطعام. كان فيودور ميخايلوفيتش في حالة نفسية طيبة، كان يتحدث كثيراً ويضحك وهو يجيب عن أسئلة الأطفال. وبعد تناول الغداء، وما هي إلا عشر دقائق حتى توجهت لاستطلاع أثر الخطاب المجهول عليه.

دخلت إلى الغرفة وجلست في مكاني المعتاد بالقرب من المكتب، وتعمدت أن أنحو بالحديث منحيّ يتطلب إجابة من فيودور ميخايلوفيتش. لكنه ظل صامتاً وقد علا وجهه العُبوس، ثم راح يذرع الغرفة بخطوات ثقيلة. لاحظت أنه متوتر وأحسست في لحظة خاطفة بشعور من الأسى عليه. وحتى أقطع الصمت الذي ساد المكان سألته: فيديا، لماذا أنت متجهم هكذا؟

نظر إليّ فيودور ميخايلوفيتش غاضباً ثم واصل سيره مرتين في الغرفة ثم توقف في مواجهتي مباشرة: هل تحملين قلادة؟ سألني بصوت مختنق.

- نعم، أحمل.

- أريني إياها!

- لماذا؟ لقد شاهدتها مرارًا.

أريني القلادة! صاح فيودور ميخايلوفيتش بأعلى صوته.

أدركت عندئذٍ أن مزحتي وصلت إلى طريق مسدود، وحتى أهدئ من روعة رحت أفك أزرار ياقة ثوبي. لكنني لم أستطع أن أسحب القلادة بنفسي. لم يستطع فيودور ميخايلوفيتش أن يملك غضبه الذي اجتاحه، وإذا به يميل نحوي بسرعة وينزع السلسلة عن رقبتني بكل قوته. كانت سلسلة رقيقة، اشتراها بنفسه لي في فينيسيا. وعلى الفور قُطعت السلسلة واستقرت القلادة في يد زوجي. استدار نحو مكتبه وانكبَّ فوقه يتفحص القلادة. لم يكن يعرف كيف يضغط على الزُنْبُرْكَ؛ ولذلك راح يعالجه مدة طويلة. كنت أرى كيف راحت يديه ترتعشان، حتى كادت القلادة تسقط من يديه على المكتب. كنت أشعر بالأسى الشديد نحوه والحزن على نفسي. بدأت أتحدث إليه بشكل ودي فعرضت عليه أن أفتحها بنفسي، لكن فيودور ميخايلوفيتش أشاح برأسه غاضبًا رافضًا مساعدتي. أخيرًا نجح زوجي في معالجة الزنبرك، وعندما فتح القلادة وجد بداخلها صورة لوباتشكا على جانب، وعلى الجانب الآخر صورتي. أصابه الدهول التام، وواصل تفحص الصورة صامتًا.

- حسنًا، ماذا وجدت؟ فيديا، يا عزيزي، كيف استطعت أن تصدق خطابًا من

مجهول؟ التفت إليّ فيودور ميخايلوفيتش بحماس.

- وأنت من أين عرفت بشأن الخطاب من مجهول؟

- من أين؟ إنني أنا الذي أرسلته بنفسي!

- كيف أرسلته بنفسك؟! ماذا تقولين؟! أمر لا يُصدق!

- سوف أثبت لك!

اقتربت بسرعة من المكتب الآخر، حيث وُضعت عليه أعداد من «حوليات الوطن». فتتشت فيها وأخرجت بعضًا من الأوراق، التي كنت أجرب فيها بالأمس كيف أنتحل خطأ غير خطي.

أسقط في يد فيودور ميخايلوفيتش من الدهول.

- وأنتِ التي صُغتِ هذا الخطاب؟
- لم أصُغه إطلاقاً! لقد نقلته حرفياً ببساطة من رواية صوفيا إيفانوفنا. وقد كنت تقرأه أمس، لقد اعتقدت أنك ستحزُر الأمر على الفور.
- حسناً، الآن تذكرت! على هذا النحو تماماً يكتبون الخطاباتِ المجهولة المرسلة.
- لكني لا أدري لماذا أرسلته لي!
- أردت فقط أن أمزح. شرحت له الأمر.
- إذن كنت تمزحين يا آنيتشكا - قالها وقد امتلأ صوته بالإحساس بالذنب - ألم تفكري أن الأمر كان يمكن أن يؤدي إلى مصيبة! كان من الممكن أن أخنقك في لحظة غضب! ليس هناك ما يقال سوى إن الله قد لطف بنا رافعةً بأطفالنا! تصوّري، على الرغم من أنني لم أجد صورة هناك، لكن كان من الممكن أن يبقى في صدري قدراً من الشك في إخلاصكِ، وبقيتُ طوال عمري أتعذب بذلك. أتوسل إليك ألا تمزحي بمثل هذه الطريقة، فلست مسئولاً عما أفعل في لحظة الغضب!
- كنت أشعر أثناء حديثنا ببعض الألم عندما أحرك رقبتني. وضعت عليها منديلي، فإذا بشريط من الدم ينطبع عليه، بدهاة فقد جرحت رقبتني عند نزاع السلسلة بقوة. أحسّ زوجي بالذعر عندما شاهد الدم على المنديل.
- يا إلهي، ماذا فعلت! آنيتشكا، عزيزتي، سامحيني! لقد جرحتك! هل تشعرين بالألم؟ أخبريني، هل الألم شديد؟
- رحت أهدئ خاطره. شرحت له أنه لا يوجد أي جرح، وأن الأمر لا يزيد عن خدش بسيط ما يلبث أن يلتئم غداً. كان فيودور ميخايلوفيتش في غاية القلق، والأهم أنه كان ما يزال تحت تأثير سورة غضبه. ظل طوال المساء يعتذر ويأسف ويعاملني بكل حنان ومودة. كنت في غاية السعادة أن مزحتي السخيفة انتهت على خير. كنت أشعر بالندم لما سببته من ألم لفيودور ميخايلوفيتش، وعاهدت نفسي ألا أمزح مطلقاً في حياتي في مثل هذه الأمور، بعد أن علّمتني التجربة كيف يمكن لدقائق من الغيرة أن تدفع بزوجي إلى حالة من الجنون والخبيل.
- ما زلت أحتفظ حتى الآن بالقلادة والخطاب الغفل من التوقيع (المؤرخ الثامن عشر من مايو ١٨٧٦م).

عام ١٨٧٦م، البحث عن بقرة

في صيف عام ١٨٧٦م عاش في ستاريا روسا نيكولاس بتروفيتش فاجنر،^٥ الأستاذ في جامعة سان بطرسبورج هو وأسرته. وقد زارنا حاملاً خطاباً من ياكوف بولونسكي،^٦ وقد ترك انطباعاً جيداً لدى زوجي، وقد راحا يلتقيان أحياناً، وكان فيودور ميخايلوفيتش مهتماً بصديقه الجديد باعتباره شخصاً مهتماً على نحو خيالي بتحضير الأرواح.^٧ وذات يوم صادفني فاجنر وكنت أتنزه في إحدى الحدائق، وقال لي: لقد أدهشني بالأمس فيودور ميخايلوفيتش!

^٥ نيكولاي بتروفيتش فاجنر (١٨٢٩-١٩٠٧م): كاتب، نشر أعماله تحت اسم مستعار هو «كوط مورليك» في الفترة من ١٨٧٦م إلى ١٨٧٨م. أصدر مجلة «سفيت» (الضوء). أستاذ علم الحيوان بجامعة بطرسبورج. له مقالات في تحضير الأرواح.

^٦ ياكوف بتروفيتش بولونسكي (١٨١٩-١٨٩٨م): شاعر وناقد. عمل بمجلتي «حوليات الوطن» و«المعاصر»، ثم مجلتي «الزمن» و«العصر».

^٧ يعود السبب الرئيسي في اقتراب دستوفسكي من نيكولاي بتروفيتش فاجنر، لاهتمامه بظاهرتي استحضار الأرواح والوسطاء الروحانيين. وكان فاجنر داعية متحمساً لهما، وقد نشر مقالتين دافع فيها عنهما في «البشير الأوروبي» (١٨٧٥م، العدد ٤) وفي «البشير الروسي» (١٨٧٥م، العدد ١٠) أحدثتا دويّاً هائلاً. وقد أخذت هوية استحضار الأرواح في الانتشار في المجتمع الروسي في السبعينيات، وتوافد على بطرسبورج كثير من الوسطاء الروحيين، معظمهم من إنجلترا، نظموا جلسات لاستحضار الأرواح، شارك فيها عدد من مشاهير العلماء والكتاب:

بليتروف، بوبوريكين، أ. ن. أكسكوف، فاجنر، ليسكوف (انظر في هذا السياق: ن. ليرنر، «الملتقيات السرية. حادثة دستوفسكي». في كتاب «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٨م، أكتوبر، ص ٣٦-٤٢). وقد ازدادت هذه الهواية قوة؛ الأمر الذي دفع بجمعية الفيزياء التابعة لجامعة بطرسبورج أن تشكل لجنة يرأسها العالم الشهير ديمتري مندلييف بهدف دراسة الظواهر الروحانية دراسة علمية. في هذه الفترة تحديداً كتب دستوفسكي خطابه إلى هيئة تحرير صحيفة «العصر الحديث» «قضية البعد الرابع» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٠-١١)، والتي تؤكد اهتمام الكاتب بظاهرة استحضار الأرواح (انظر: ف. ب. فا) (ف. إ. برييكتوكفا)، «ذكريات عن دستوفسكي». «ريبوس»، ١٨٨٥م، العدد ٢٥، ص ٢٣٠-٢٣٢؛ العدد ٢٦، ص ٢٤٠-٢٤٥. على أن ملاحظات دستوفسكي الثلاث عن استحضار الأرواح في «مذكرة الكاتب» عن العام ١٨٧٦م تكشف أن اهتمامه بهذه الظاهرة أخذ يفتّر تدريجياً. وقد أتى دستوفسكي

- كيف؟ أجبتُ وقد أخذني الفضول.
- كنت أتنزه في المساء، وأردت أن أمرَّ بكما، وإذا بي ألتقي عند تقاطع الطريق بزوجك فسألته: «هل أنت ذاهب للنزهة، فيودور ميخايلوفيتش؟»
- لا، لست ذاهباً للنزهة، وإنما في عمل.
- وهل يمكنني أن آتي معك؟
- يمكنك إذا كنت تريد. أجب دون ترحاب.
- كان مظهره يدل على أنه مهموم، وكان من الواضح أنه لا يرغب في تبادل الحديث معي. وعندما وصلنا إلى أول تقاطع التقينا امرأة ما في طريقنا، وعلى الفور سألتها فيودور ميخايلوفيتش: يا عمة، ألم تقابلي في طريقك بقرة بنية داكنة؟
- لا، يا أبتاه، لم أقابل. أجابت المرأة.
- بدا لي أمر البقرة ذات اللون البني الداكن أمراً عجيماً. وقد أرجعت الأمر للمعتقد الشعبي الذي يؤمن بأنه يمكن التنبؤ بالطقس القادم تبعاً لأول بقرة تكون عائدةً لتوها من الحقل. وقد ظننت أن فيودور ميخايلوفيتش يستفسر عن بقرة بغرض معرفة الجواب المتوقع غداً. ولكننا عندما بلغنا الحي التالي وتوجه فيودور ميخايلوفيتش بنفس السؤال إلى صبي قابلناه، لم أتمالك نفسي من سؤاله: ما حاجتك يا فيودور ميخايلوفيتش إلى بقرة؟
- كيف ما حاجتي؟ إنني أبحث عنها.
- استمرّ في البحث. قلت متعجباً.

مرتين، في ملاحظته الأخيرة «مرة أخرى كلمة موجزة عن ظاهرة استحضار الأرواح» على ذكر ن. ب. فاجنر (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الحادي عشر، ص ٢٧٤-٢٧٥)، ترجع أنا جريجوريفنا دستوفسكايا خطأ تاريخ تعارف دستوفسكي وفاجنر إلى صيف عام ١٨٧٦م. والحقيقة أنهما تعارفا في صيف ١٨٧٥م. ويؤكد ذلك خطابات دستوفسكي الخمسة إلى فاجنر، التي لم تُدرج في مجلدات «الخطابات» الأربعة لدستوفسكي، والتي قام على تحريرها أ. س. دولينين (١٩٢٨-١٩٥٩م)، وقد نُشرت للمرة الأولى في تشيكوسلوفاكيا على يد التشيكي غ. كاوتمان المتخصص في الدراسات الأدبية في كتاب: (1962), Cis. 4. "Sbornik Národního Muzea v Praze," SV. VII.

ثم في الاتحاد السوفيتي بعد ذلك (انظر: س. ف. بيلوف، «خطابات دستوفسكي» مجلة «الأرشيف السوفيتية»، ١٩٦٩م، العدد ٢). وقد نشر ف. كاوتمان خطاباً آخر أرسله دستوفسكي إلى فاجنر، يتعلق

– إنني أبحث عن بقرتنا، إنها لم تُعد من الحقل. لقد ذهب كلُّ من في المنزل للبحث عنها، وأنا أيضًا أبحث عنها.

وهنا فقط أدركت لماذا ينظر فيودور ميخايلوفيتش بإصرار عند القنوات وعلى جوانب الطرق ولماذا كان متكررًا.

– وما الذي أدهشك في ذلك؟ سألتُ فاجنر.

– وكيف لا أدهش؟ – أجابني – كاتب عظيم، عقله وخياله مشغولان دائمًا بالأفكار الرفيعة، وإذا به يسير في الطريق يبحث عن بقرة بنية داكنة.

– بداهة، إنك لا تعرف أيها المحترم نيكولاي بتروفيتش – قلت له – أن فيودور ميخايلوفيتش ليس كاتبًا موهوبًا فحسب، ولكنه ربُّ أسرة بالغ الحنان والعطف، يمثل له كلُّ ما يحدث في البيت أهميةً كبرى. فلو أن هذه البقرة لم ترجع إلى البيت أمس، لَمَا وجد أطفالنا، وبخاصة الرضيع، حليبًا يشربونه، ولاضطررنا للحصول عليه من بقرة غريبة، ربما لا تكون في حالة صحية جيدة؛ ولهذا خرج فيودور ميخايلوفيتش للبحث عنها.

من الضروري أن أخبرك أننا لم نكن نملك بقرةً خاصة بنا، ولكننا عندما حضرنا إلى روسا في فصل الصيف، راح نفر من الفلاحين من جيراننا يتنافسون فيما بينهم محاولين أن يعطينا كلُّ منهم بقرته، أملًا في أن تنال غذاءً جيدًا في الربيع، عوضًا عن ضمورها طوال الشتاء. كنا ندفع للفلاحين خمسة عشر روبلاً مقابل استغلال البقرة طوال فصل الصيف، ولكن في حالة نفوق البقرة أو استغلالها؛ بحيث تصاب على نحو أو آخر، فقد كنا ملزمين بدفع تسعين روبلاً. وفي كل صيف كانت البقرة تختفي هنا أو هناك ثلاث/أربع مرات، فلا تعود من الحقل مع القطيع، فيخرج كلُّ من في البيت عن بكرة أبيهم، عدا المربية والرضيع، لينتشروا في شتى الطرقات بحثًا عنها. وكان فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يضع أسرته في موضع الاهتمام البالغ في السراء والضراء، كان يندفع لمساعدتنا. وقد حدث أن ذهب بنفسه مرتين/ثلاثًا يسوق بقرتنا إلى البيت ليدخلها إلى الحظيرة. كانت هذه العناية الفائقة من جانب زوجي بأسرته تمس دائمًا شغاف قلبي بقوة.

بالخطابات الخمسة الأخرى، ولم يُدرج أيضًا في مجلدات «الخطابات» الأربعة، نشره في مجلة Literär ni archive (الأرشيف الأدبي، ١٩٦٧م، العدد ٢)، ونشره س. ف. بيلوف في مجلة «قضايا الأدب»، ١٩٦٧م، العدد ٥.

العام ١٨٧٦م، الشتاء، التعارف

في هذا الشتاء ازداد تعارف دستوفسكي بشخصيات اجتماعية متنوعة بشكل كبير. كان الجميع يستقبلونه في كل مكان بترحاب شديد؛ إذ كانوا يقدِّرون فيه فكره وموهبته؛ فضلاً عن امتلاكه قلباً طيباً يتعاطف مع أحزان الناس وآلامهم.

وفي نفس هذا الشتاء قررت ألا أخرج إلى المجتمع؛ كنت مرهقة بشدة من جراء العمل في «مذكرة الكاتب» ومن الانهماك في شئون البيت؛ ناهيك عن جلبة الأطفال وصخبهم، حتى إنني كنت بحلول المساء لا أطمع في شيء سوى أن أخلد للراحة والاطلاع على كتاب شيق. أما الحياة الاجتماعية فلعلي كنت أبدو فيها مملة على نحوٍ ما، زد على ذلك أنني لم أشعر بالأسف مطلقاً لكوني لم أشارك في المناسبات الاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك أنه، ومنذ اللحظة الأولى لعودتنا إلى روسيا، لم تتوقف الزيارات إلى بيتنا، إلى أن صعدت روح فيودور ميخايلوفيتش إلى بارئها. ولما كنت أشعر دائماً بالأسى لأنني لا أرتاد المجتمعات، ومن ثم أشعر بالوحشة، فقد أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يسليني بعض الشيء بأن يحكي لي كل ما يراه في زيارته؛ ما سمعه من أحداث وما دار من مناقشات بينه وبين هذا أو ذاك من الحضور. كانت أحاديث زوجي شيقة للغاية، وكان له أسلوب في الحكي شديد الجاذبية، إلى حد أنه كان يغنيني تماماً عن صحبة الآخرين، أذكر أنني كنت دائماً ما انتظر عودة زوجي من زيارته على أحر من الجمر، ولدى عودته التي ما تكون عادةً في تمام الواحدة أو الواحدة والنصف، يكون الشاي معداً له لتوه، فيخلع عنه ملابسه ويرتدي ثوباً منزلياً صيفياً فضفاضاً (يستخدمه بدلاً من روب المنزل)، ثم يحتسي كوباً من الشاي الساخن ليأخذ بعده في الحديث عن المقابلات التي أجراها اليوم في المساء. كان فيودور ميخايلوفيتش على علم بولعي بالتفاصيل؛ ولهذا لم يكن يرضُّ عليَّ بها، فيخبرني بكل ما دار من أحاديث، وأروح أنا أستوضحه: «حسنًا، وهي ماذا قالت لك؟ وأنت بماذا أجبتَه؟»

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يشرع في عمله بعد عودته من زيارته مباشرة. وحيث إنه اعتاد أن يخلد إلى فراشه في وقت متأخر، فقد كنا نجلس لتبادل الحديث حتى الخامسة فجراً، وكثيراً ما كان فيودور ميخايلوفيتش يُلحُّ عليَّ في الذهاب للنوم مؤكداً أنني سأصاب حتماً بالصداع، وأنه سوف يكمل حديثه لي في الغد.

أحياناً ما كان يتسنى لفيودور ميخايلوفيتش أن يتباهى أمامي بانتصار أحرزه في جدلٍ ما، أدبيٍّ أو سياسي. وأحياناً أخرى كان يقص عليّ كيف جانبه التوفيق عندما عجز أن يعرف أو يعترف بشيءٍ ما، وما ينتج عن ذلك من سوء فهم، ثم يروح يطلب مني أن أخبره برأيي أو أسدي إليه نصيحةً من شأنها أن تصلح ما أرتكبه من خطأ. وكثيراً ما كان فيودور ميخايلوفيتش يبُثني شكواه صراحةً لأن بعضهم عامله بإجحاف، أو أن نفرّاً من الناس حاول إهانته أو المساس بكرامته. يجب الاعتراف حقيقةً أن بعضاً من زملاء المهنة، حتى ممن يملكون فكراً وموهبةً، كانوا يعاملونه بجفاء وغلظة، ويتعرضون له بالأذى بالقول والفعل؛ محاولين أن يُثبتوا له أن موهبته ضئيلة في أعينهم. على سبيل المثال، كان هناك أشخاص آخرون يتحدثون مع فيودور ميخايلوفيتش عن عمله الجديد كما لو كانوا لا يريدون أن يغضبوه بأرائهم، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون، بطبيعة الحال، أنه لا ينتظر منهم مديحاً أو مجاملة، وإنما رأياً صريحاً فيما إذا كان قد نجح أن يقدم في الرواية الفكرة التي قصدتها. أو يجيب «صديق» له على سؤاله المباشر إن كان قد قرأ الفصل الأخير من روايته (بعد شهر من ظهوره)، فيجيب «الصديق» أن «الرواية استحوذ عليها الشباب، وأنهم راحوا يتبادلونها ويثنون عليها». على الرغم من أن هذا المتحدث يعلم تماماً أن ما يهّم فيودور ميخايلوفيتش هنا ليس رأي الشباب الغض، وإنما رأي المتحدث نفسه، وأن من المؤسف بالنسبة إليه أن هذا «الصديق» لم يُبدِ اهتماماً كبيراً بروايته، حتى إنه لم يجد متسعاً من الوقت لقراءتها.

أذكر، على سبيل المثال، أن أحد الأدباء، وكان قد التقى بزوجي في أحد المجتمعات، أنه قد نجح أخيراً في قراءة رواية «الأبله»، وكانت الرواية قد ظهرت منذ خمس سنوات مضت، وأنه أعجب بالرواية، لكنه وجد فيها شيئاً من عدم الدقة.

— وفي أي موضع لاحظتم عدم الدقة؟ أبدى فيودور ميخايلوفيتش اهتمامه، متوقعاً أن يكون الأمر وثيق الصلة بالفكرة أو في شخصيات أبطال الرواية.

— لقد قضيت هذا الصيف في بافلوفسك — أجاب محدث زوجي — وعندما كنت أتجول مع بناتي، أخذنا نبحث عن هذه الداتشا الفاخرة على طراز الأكواخ السويسرية، التي عاشت فيها بطلة الرواية، أجلايا إبانشين. ما قولكم أن هذه الداتشا غير موجودة في بافلوفسك!

كما لو كان فيودور ميخايلوفيتش ملزماً أن يصور في روايته داتشا موجودة بالفعل وليست من بنات أفكاره.

أديب آخر (فيما بعد) أعلن أنه قرأ بفضول عظيم مرتين خطابَ المدعي العام (في رواية «الإخوة كارمازوف») وكانت القراءة الثانية جهراً وقد أمسك في يده بساعة.

– ولماذا بساعة؟ أعرب زوجي عن دهشته.

– لقد قلتُ في روايتكم إن الخطاب استمر ...^٨ دقيقة. وقد أردت أن أختبر الأمر. وقد اتضح أن الخطاب لم يستغرق ...^٩ وإنما ...^{١٠} فقط.^{١١}

في البداية اعتقد فيودور ميخايلوفيتش أن خطاب المدعي العام قد أثار اهتمام الأديب حتى إنه أعاد قراءته مرة ثانية، كما يحدث عندما يعجبنا شيءٌ ما، ولكن اتضح أن هناك سبباً آخر لا يمثل أهميةً تُذكر، اللهم إلا رغبة هذا الأديب في الإساءة أو في جرح فيودور ميخايلوفيتش. مثل هذه العلاقة من جانب الأدباء المعاصرين نحو زوجي كانت كثيرة. كل هذه الأمور كانت، بطبيعة الحال، مساساً بعزة نفسه، لا تليق بأناس أذكىاء موهوبين، ولكنها كانت تؤثر في الوقت نفسه تأثيراً بالغاً على الأعصاب المتوترة لزوجي المريض. كنت أشعر أحياناً بالغضب على هؤلاء الأشرار، وكنت أميل إلى تفسير هذه التصرفات المهينة (سامحوني إن كنت مخطئة) إلى «الغيرة المهنية»، والتي، إن شئنا العدل، لم تكن من بين خصال فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان دائماً ما يعطي أعمال الكُتّاب الآخرين الموهوبة حقّها من التقدير، مهما كان مختلفاً مع فكر هذا الشخص الذي يتحدث معه أو يكتب عنه.

كنت أستمتع دائماً بوصف فيودور ميخايلوفيتش للملابس السيدات اللاتي يشاهدن في المجتمعات التي يرتادها. وكثيراً ما عبّر لي عن ضرورة أن أمتلك ثوباً مثل ثوبِ كان قد أعجب به.

– ما رأيك يا أنا؟ قال زوجي، كانت السيدة ترتدي ثوباً رائعاً، ذو طراز بسيط للغاية، مرفوع، وذو ثنيات من اليمين، منسدل من الخلف حتى الأرض ولكنه لا يجرجر، لا أذكر كيف كان من اليسار، أظن أنه كان مرفوعاً قليلاً أيضاً. فصّلي لنفسك واحداً مثله، سوف يكون جميلاً.

^٨ فقرة مفقودة في المخطوطة.

^٩ فقرة مفقودة في المخطوطة.

^{١٠} فقرة مفقودة في المخطوطة.

^{١١} ورد في «الإخوة كارمازوف» ما يشير إلى أن المناقشات القضائية استمرت من الثامنة صباحاً، عندما بدأ النائب العام حديثه، وحتى لحظة خروج المحلفين والمحامين في الساعة الواحدة ليلاً.

وعدته أن أفصل ثوبًا، على الرغم من أنه كان من الصعوبة بمكان أن أضع تصورًا محددًا لطرازه بناءً على الوصف الذي ذكره فيودور ميخايلوفيتش. كان فيودور ميخايلوفيتش يخطئ أحيانًا في معرفة الألوان، بل كان يميزها على نحو سيئ. كان أحيانًا ما يسمي الألوان بأسماء اختفت تمامًا من الاستخدام، على سبيل المثال، لون الماساك؛ أكد لي فيودور ميخايلوفيتش أن هذا اللون يلائم لون وجهي بالتأكيد، وطلب مني أن يكون هذا اللون هو لون ثوبي الجديد. حاولت إرضاء زوجي ورحت أسأل في المحال عن قماش بهذا اللون. لم يفهم التجار ما أقصد، إلا سيدة عجوزًا عرّفتُ منها أن الماساك ما هو إلا البنفسجي الداكن، وأن المخمليّ منه كان يُستخدم قديمًا في موسكو في تبطين النعوش. ربما يكون البنفسجي الداكن ملائمًا لشخص آخر، وقد يكون ملائمًا لي أيضًا، لكنني لم أنجح في إعداد ثوب لي بهذا اللون، ومن ثم لم أستطع أن أحقق رغبة زوجي.

بالمناسبة، كان زوجي يشعر بالسعادة الغامرة عندما يراني مرتدية ثوبًا أحمر اللون أو أضع على رأسي قبعة جميلة. كان حلمه أن يراني في ذروة الأناقة.^{١٢} كان ذلك يسرّه أكثر مما يسرّني. لم تكن أمورنا المالية على ما يرام، ومن ثم كان من المستحيل أن تفكر في الأناقة. ورغم ذلك كان زوجي العزيز يشعر بالرضا والسرور عندما يشتري أو يحضر لي من الخارج شيئًا جميلًا، ولو على غير رغبتني أحيانًا. في كل رحلة له إلى إمس كان فيودور ميخايلوفيتش يحضر لي هدية، فمرة اشترى مروحة فاخرة لها يدٌ من عاج، تحفة فنية، ومرة أخرى أحضر نظارة مقرّبة رائعة من الميناء الزرقاء وطقمًا من الكهرمان (بروش وحلق وإسورة). كان ينفق وقتًا طويلًا في انتقائها ثم فحصها وتقييمها، وكان يشعر بالسعادة الغامرة إذا نالت هداياه إعجابي. ولما كنت أعلم كم يسعد زوجي تقديمه للهدايا، فقد كنت أقبلها معبرةً له عن سعادتي الكبرى، على الرغم من أنني كنت أشعر أحيانًا بالحزن الشديد لتبديد المال في أشياء غير ضرورية بالرغم من جمالها. أذكر، على سبيل المثال، كيف أصابني الأسف عندما اشترى فيودور ميخايلوفيتش دسنة من قمصان النوم، بلغ سعر الواحد منها اثني عشر روبلاً، وكان قد تسلم لتوه مبلغًا من المال من كاتكوف، من أفضل محلات موسكو. بالطبع فقد قبلت الهدية بإعجاب ظاهري، ولكن في

^{١٢} خطابه لي المؤرخ ٢٤ يوليو ١٨٧٦ م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). * الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٣٥.

واقع الأمر كنت أشعر بالأسف على النقود، فقد كان لديّ عددٌ كافٍ من هذه القمصان، وكان من الممكن شراء العديد من الأشياء الضرورية الأخرى.

وقد وقعت حادثة طريفة على أثر شراء القمصان الفاخرة أزلت عني كثيرًا من الهموم؛ فذات مرة وقد اقتربت الساعة من الثانية صباحًا، دخل عليّ زوجي غرفتي وأيقظني بصوت مرتفع وهو يسأل: «أنيا، هل هذه قمصانك؟»

— «أي قمصان؟ لعلها قمصاني.» أجبت دون أن أعي السؤال جيدًا.

— «وهل يُعقل أن ترتدي مثل هذه القمصان الخشنة؟» قال زوجي بلهجة غاضبة.

— «بالطبع، ممكن، لا أدري عمّ تتحدث يا عزيزي، دعني أنام!» وفي الصباح جاء تفسير تصرف زوجي وسبب استيائه. وقد قصّت عليّ الخادمة كيف أفزعها «السيد» هي والطاهية، ثم أدهشهما بعد ذلك. كانت الخادمة قد غسلت قمصانها في المساء ونشرتها على الحبل خلف النافذة. وفي الليل اشتدت الرياح وراحت القمصان المتجمدة تضرب الزجاج. كان فيودور ميخايلوفيتش يعمل في غرفته، وعندما سمع الطرّق على الزجاج خشي أن يستيقظ الأطفال، فذهب إلى المطبخ ووقف على كرسي صغير، ثم فتح جزءًا من النافذة وراح يسحب القمصان المنشورة إلى الداخل واحدًا بعد الآخر، ثم نشرها بعناية على حبل فوق المدفأة، وهنا تمكن فيودور ميخايلوفيتش من رؤية القمصان (وكانت مصنوعة بالطبع من قماش أشبه بالخيش الخشن) فأصابه الذعر وهُرع ليوقظني. في الصباح قصصت على زوجي الأمر فابتسم ساخرًا من خطئه. وعندما سألتها ولماذا لم يوقظ الخادمة، أجاب: «من الظلم أن أوقظها، إنها تكدح طوال اليوم، تركتها لتستريح.» على هذا النحو كانت علاقة زوجي بالخادمة؛ حتى إنه لم يكن يكلفها عناء بعض أموره الشخصية فيتولى بنفسه إنجازها.

لكن أكثر ما أدخل البهجة والسعادة على قلب زوجي بشكل خاص، عندما استطاع، قبل وفاته بعامين، أن يهديني زوجًا من الأقراط في كل قرطٍ حجرٍ من الماس. كلفته مائتي روبل، وقد لجأ زوجي عند الشراء إلى بيوتر فومين بانتيليف الخبير في الأشياء الثمينة.

أذكر أنني علّقت في أذني هدية زوجي للمرة الأولى في إحدى الأمسيات الأدبية التي ألقى فيها زوجي كلمة. آنذاك، عندما راح الأدباء الآخرون يلقون بكلماتهم، جلست بجوار زوجي بالقرب من حائط تزيينه المرايا. وقد لاحظت فجأة أن زوجي ينظر جانبًا وابتسم لشخص ما؛ ثم التفت إليّ وهمس في فرح: «يتلألآن، يتلألآن على نحو رائع!» وقد تبين لي أن الحجرين الكريمين كأننا يبرقان مع اهتزاز الأضواء العديدة بشكل جميل، وهو ما جعل زوجي يفرح كالأطفال.

العام ١٨٧٦م، دَيْن تورجينيف

سوء فهم صغير، ما زلت أذكره، وقع لنا في عام ١٨٧٦م. وقد أثار اضطراب زوجي، الذي كان قد تعرض يومين أو ثلاثة قبله لنوبة صرع. فقد حضر إلى فيودور ميخايلوفيتش شاب يُدعى ألكسندر فيودورفيتش أوتو^{١٣} (أونيجين)، كان يعيش في باريس، وقد استطاع أن يجمع بعد ذلك مجموعة قيمة من كتب بوشكين ووثائق خاصة به. أعلن السيد أوتو أن صديقه، إيفان سيرجيفيتش تورجينيف، قد فوّضه في زيارة فيودور ميخايلوفيتش، وأن يتسلم منه مبلغًا من المال دينًا له. اندهش زوجي وسأله إن كان تورجينيف لم يتسلم من بافل فاسيليفيتش أنينكوف^{١٤} الخمسين طالرًا، التي أعطاهما لأنينكوف ليسلمها لتورجينيف في يوليو من العام الماضي، عندما قابله في القطار المتجه إلى روسيا. أكد السيد أوتو على استلام النقود من أنينكوف، لكنه قال إن تورجينيف يذكر أنه أرسل لفيودور ميخايلوفيتش في فيسبادن لا خمسين طالرًا وإنما مائة طالر، ومن ثم فإنه يرى أن فيودور ميخايلوفيتش ما يزال مدينًا له بخمسين طالرًا. اضطرب زوجي بشدة وقد ظن أنه أرتكب خطأ، وعلى الفور استدعاني.

– أخبريني يا أنيا، بكم كنت مدينًا لتورجينيف؟ سألني زوجي بعد أن قدّمني لضيّفه.

– بخمسين طالرًا.

– أكيد؟ هل تذكرين جيدًا؟ ألا يمكن أن تكوني مخطئة؟

– أذكر جيدًا؛ إذ إن تورجينيف ذكر في خطابه إليك تحديدًا المبلغ الذي سيرسله إليك.

– أريني الخطاب، هل ما يزال عندك؟ سألني زوجي.

لم يكن الخطاب في حوزتي في هذه اللحظة بطبيعة الحال، ولكنني وعدته بالبحث عنه، وقد طلبنا من الشاب أن يمر بنا بعد يومين.

كان فيودور ميخايلوفيتش شديد القلق خوفًا من أن يكون هناك احتمال للخطأ من جانبي، ومن ثم ظل متكررًا، أما أنا فقد قررت السهر طوال الليل إلى أن أجد الخطاب.

^{١٣} ألكسندر فيودورفيتش أوتو (أونيجين) (١٨٤٤-١٩٢٥م): جامع ووثائق ومواد خاصة ببوشكين. مؤسس متحف بوشكين في باريس.

^{١٤} بافل فاسيليفيتش أنينكوف (١٨١٢-١٨٨٧م): أديب وناقد وكاتب مذكرات.

انتقل القلق الذي يعاني منه زوجي إليّ، ورُحْتُ أسأل نفسي، ألا يمكن أن يكون هناك ثمة سوء تفاهم في هذا الموقف. للأسف كانت مراسلات زوجي على مدى الأعوام الأخيرة في فوضى تامة، وكان عليّ أن أراجع ما لا يقل عن ثلاثمائة أو أربعمائة خطاب، إلى أن عثرت أخيراً على خطاب تورجينيف. بعد أن قرأنا الخطاب وتأكدنا أنه لم يحدث خطأ من جانبنا، هدأ زوجي.

عندما زارنا السيد أوتو بعد يومين أطلعناه على خطاب تورجينيف، كان في حالة ارتباك شديد، وطلب منا أن نعطيه الخطاب حتى يتسنى له إرساله إلى تورجينيف، وفي الوقت نفسه وعدنا أن يعيد لنا الخطاب.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، عاد إلينا السيد أوتو من جديد حاملاً خطاباً، لكنه غير الذي أعطيناه إياه، وإنما خطاب فيودور ميخايلوفيتش نفسه أرسله من فيسبادن، طلب فيه من تورجينيف أن يُقرضه خمسين طالراً.^{١٥} وعندئذ اتضح لنا سوء الفهم أمام دهشتنا البالغة. كان الوحيد الذي عانى من هذا الموقف هو السيد أ. ف. أوتو الذي كتب في خطابه الذي أرسله بعد عدة سنوات (في التاسع عشر من ديسمبر ١٨٨٨م) يقول:

«إن معرفتي القصيرة بفيودور ميخايلوفيتش كانت قائمة على سوء فهم فظيع بالنسبة إليه، وقد قمت بدور لا ناقة لي فيه ولا جمل، إنني، الشخص الذي حضر إليكم منذ زمن بعيد، عندما كنتم ما تزالون تسكنون في حي بيسوك. كنت آنذاك في وضع لا أحسد عليه؛ إذ قوَّضني صديقي إيفان تورجينيف لتسلُّم دينه لدى فيودور ميخايلوفيتش، وقد عانيت آنذاك حرجاً بالغاً عندما أبديتكم ثقتكم فيّ وشرحت لي الوضع برمته، ثم أثبت فيودور ميخايلوفيتش بعد ذلك، بعد أن عانى من الاضطراب والتوتر ما عانى، أن طلب إيفان سرجيفيتش غير عادل بالمرّة. ونظراً لطبيعتي الحادة فقد كتبت خطاباً شديد اللهجة إلى إيفان سرجيفيتش، وقد اتضح الأمر الآن؛ لقد أدرك إيفان سرجيفيتش خطأه، ولكنني

^{١٥} تعرض أنا جريجوريفنا هذا المشهد الخاص بدين تورجينيف على نحو غير دقيق. ففي خطابه المؤرخ الثالث من أغسطس ١٨٦٥م كتب دستوفسكي إلى تورجينيف يطلب منه أن يُقرضه مائة تالر، وليس خمسين، كما كتبت أنا جريجوريفنا (انظر: الخطابات، المجلد الأول، ص ٤١٠). على أن تورجينيف أرسل إلى دستوفسكي خمسين طالراً، شكره دستوفسكي عليها في خطابه المؤرخ ٢٠ أغسطس (انظر: الخطابات، المجلد الأول، ص ٤١٠).

^{١٦} ما زلت أحتفظ بخطابي فيودور ميخايلوفيتش والسيد أوتو (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكيا).

فقدت صداقته تمامًا، كما يحدث دائماً لشخص ثالث تدخل في خلاف بين شخصين آخرين»^{١٧}

٥

العام ١٨٧٧ م، ضياع المعطف

في مطلع عام ١٨٧٧ م وقع لي «حادث» تعرفت بفضلله على التعرف على نُظم قسم مباحث العاصمة؛ وذلك عندما سرق اللصوص معطفي الجديد المصنوع من فراء الثعلب. جدير بالذكر هنا أنني، بعد عودتي إلى روسيا، كنت أواصل السير في أشهر الشتاء مرتديةً معطفًا متوسط الطول مصنوعًا من الاستراكان،^{١٨} كنت أرتديه أثناء إقامتي في درزدن. وقد أحس فيودور ميخايلوفيتش بالخوف عليّ عندما رأيَ أرتدي مثل هذا المعطف الخفيف، وتنبأ بأن أُصاب بنزلة برد شديد بكل ما يتبع ذلك من توابع للمرض. بالطبع لم يكن معطفًا مثل هذا ليقِي المرء من صقيع شهري ديسمبر ويناير، وكنت مضطرة إذا ما اشتد البرد أن أضع فوقه دثارًا غليظًا كان يضيفي على منظري شيئًا من الغرابة. ولكن كان ما يشغلني بالدرجة الأولى في السنوات الأولى لعودتنا إلى روسيا؛ هو سداد ديوننا، ولهذا ما كان موضوع شراء بالطو ثقيل، والذي كان يتجدد كلَّ خريف، ينتهي دون أن نجد له حلًا مرضيًا. وأخيرًا أتاحت لنا في نهاية عام ١٨٧٦ م فرصة أن نحقق رغبتنا القديمة، وما زلت أذكر أن هذا الأمر العائلي، الذي يبدو غير جدير بالاهتمام، كان يورق فيودور ميخايلوفيتش طوال الوقت. وحيث إنه كان على علم بتقتيري الشديد آنذاك فيما يخص أناقتي، فقد قرر أن يأخذ هذه المهمة على عاتقه. اصطحبتني ذات يوم إلى محل زيزيرين للفراء (حاليًا يسمى ميرتينس. حيث كان يحفظ لديه دائماً معطفه الفراء في الصيف) وطلب من كبير الموظفين أن يختار لنا «بإخلاص» فرو ثعلب لبالطو وياقة من فرو الدلق. وضع الموظف (الذي كان من المعجبين بموهبة زوجي) تلاً من فرو

^{١٧} تحتفظ مكتبة الدولة (مكتبة لينين) بكتاب أ. ف. أونيجين إلى أنا جريجوريفنا دستوفسكايا، المؤرخ ١٩ ديسمبر ١٨٨٨ م.

^{١٨} الاستراكان: فراء من جلد الضأن. (المترجم)

الثعالب، وأشار إلى ميزاتهما وعيوبهما، ثم اختار لنا في النهاية قطعة من الفرو خالية من كل عيب، ثمنها مائة روبل، إلى جانب قطعة أخرى رائعة من فرو الدلق للياقة ثمنها أيضاً مائة روبل. وقد وجدنا لديهم عيّناً من الحرير الأسود راح فيودور ميخايلوفيتش يختبرها من ناحية الجودة والذوق والمتانة. وعندما دار الحديث حول الموضة (كانت موضة المعطف المستديرة المقببة قد ظهرت لتوها) طلب فيودور ميخايلوفيتش أن يرى أحدث ما في الموضة، وعندما رأى تلك الموضة «السخيفة» اعترض عليها على الفور. وعندما أخبره البالغ ممازحاً أن الخطوط الدائرية اخترعها خياط أراد أن يسلم من زوجته، قال له زوجي: أما أنا فلا أريد أن أسلم من زوجتي؛ ولهذا أطلب منك أن تخطط لها شيئاً على الموضة القديمة، معطفاً بأكمام!

عندما رأيت أن زوجي يروقه عملُ معطفٍ بهذه المواصفات، لم أصرَّ على موضة المعطف المستدير. وعندما أحضروه لنا بعد أسبوعين ارتديته، وعندما قال لي فيودور ميخايلوفيتش بإعجاب: حسناً، الآن سيدة تشبه تاجرات موسكو! الآن لن أخشى عليك الإصابة بالبرد.

وإذا بالمعطف الذي «تم تجهيزه» بعد سنوات عديدة من الانتظار يتعرض للسرقة! الذي حدث أن السرقة وقعت في وضح النهار، خلال عشر دقائق. عدت من مكان ما، وعندما علمت أن فيودور ميخايلوفيتش قد استيقظ منذ فترة، وأنه قد سأل عني، ذهبت إليه في مكتبه بعد أن تركت المعطف على المشجب في بهو الاستقبال، على الرغم من أنني عادةً ما أخذه لأضعه في غرفتي. ما إن انتهيت من حديثي مع زوجي حتى عدت إلى بهو الاستقبال، لأكشف اختفاء المعطف من على المشجب. جُن جنوني، أخبرتني الفتاتان، اللتان كانتا في المطبخ، أنهما لم يشاهدا أحداً. نظرنا خارج الباب، إلى السلم، كان المكان خاوياً. بداهة، فقد نسيت الفتاة التي نزعت المعطف أن تغلق الباب، وقد نجح اللص في استغلال هذه الهفوة.

كان فيودور ميخايلوفيتش حزيناً للغاية لضياح المعطف، وبخاصة أنه ما يزال أمامنا شهران من البرد القارس. كنت في حالة من اليأس الشديد «أرغى وأزبد»، أشتم الخادمتين، غاضبة حتى من نفسي؛ لماذا تركت المعطف في البهو! استدعينا البواب العجوز الذي أبلغ الشرطة عن ضياح المعطف. في المساء جاءنا أحد رجال الشرطة ليستجوب الخادمة وأشار عليّ أن أذهب بنفسني لقسم المباحث، وأن أطلب منهم أن يقوموا بالبحث على نحو أكثر دقة.

ذهبت في اليوم التالي إلى قسم الشرطة. ونظرًا للاسم الأدبي الذي أحمله، فقد استقبلني على الفور أحد الضباط من ذوي الرتب الرفيعة، كان اسم عائلة زوجي الذي أحمله (دستوفسكي) له أثر كبير إبان حياة زوجي في إدارات الشرطة («ربما لأن الأديب لديه القدرة على الكتابة في الصحف!»)

هناك استمعوا إليّ باهتمام بالغ، وسألني الموظف لمن أوجه شكوكي؟ أخبرته أنني أثق في خادمتي، لقد جئت بهما من ستاريا روسا، يعملون لديّ منذ ثلاث سنوات ولم ألحظ عليهما أيّ تصرف مريب. كما أنني لا أشك في أي شخص آخر. - أخبريني، من هم زواركم الدائمون؟ سألني الموظف. - معارفنا كثير، منهم من يأتون إلينا من المحلات لتسلم الكتب والمجلات،^{١٩} ولكنهم دائمًا يدخلون عبر المطبخ، ولم يحضر منهم أحد بالأمس.

- ألا يحضر إليكم أحيانًا ذوو الحاجة، أقصد من يطلبون المساعدة لفقرهم؟ - هؤلاء يأتون، هم كثير. لا بد أن أخبرك أن زوجي في غاية الطيبة، وهو لا يملك القدرة على رد من يطلب المساعدة، على قدر إمكانياتنا بطبيعة الحال، أحيانًا، عندما يطلب أحدهم صدقة، ولا يكون لدى زوجي بعض النقود الصغيرة، فإنه يقود الفقراء إلى شقتنا وهنا يعطيهم بعض المال. بعد ذلك يبدأ هؤلاء الزوار في الحضور إلينا دون دعوة، وبعد أن تعرفوا على اسم زوجي من اللوحة المثبتة على الباب، صاروا يسألون عن فيودور ميخايلوفيتش. وعند خروجي من المنزل، كانوا يحكون لي عن فقرهم، فكنت أعطيهم ثلاثين أو أربعين كوبيكًا. وعلى الرغم من أننا لسنا أغنياء، ولكن كان باستطاعتنا دائمًا أن نقدم بعض المساعدة في هذه الحدود.

- إذن فاللص هو واحد من هؤلاء السائلين. قال الموظف. - لا أظن. اسمح لي أن أشفع لفقرائنا هؤلاء - قلت له - فعلى الرغم من إلحاحهم وأنهم يستغرقون في ذلك وقتًا طويلًا، فإنني لا أصدق أنهم لصوص؛ إن لهم مظهرًا ينم عن البؤس وسوء الحال.

- سننظر في الأمر، قال الموظف، إيفانوف، أحضر لي ألبوم صور. أحضر المساعد ألبومًا سميًا ووضعته أمامي على المائدة.

^{١٩} المقصود هنا مذكرات الكاتب.

— قد يكون من المفيد تفحص الصور — أردف قائلاً — لعلك تجددين صورة وجه مألوف لك.

أخذت بكثير من الفضول أقلب الألبوم، وفي الصفحة الثالثة لاحظت ملامح مألوفة لي.

— يا إلهي! صحت بدهشة. أعرف هذا الشخص معرفة جيدة، إنه كثير التردد علينا، وهذا أيضاً أعرفه. أردفت قائلة وأنا أقلب الصفحات. وتحت كل صورة من صور «معارفي» كُتبت عبارة «لص مداخل شقق»، وتحت إحدى الصور لشخص أعرفه معرفة تامة عبارة «محطم أبواب»، ألقى القبض عليه ومعه سلاح ناري.

كنت في حالة شديدة من الذهول، فهؤلاء الذين ترددوا علينا مراراً، والذين كنت أتحدث معهم بمفردي، إذا بهم من اللصوص، بل والقلة، الذين لا يكتفون بالسرقة أحياناً، بل كان بإمكانهم قتلي أو قتل فيودور ميخايلوفيتش، وكان من الممكن أن تتعرض أسرنا لخطر داهم. انتابني قشعريرة سرت في ظهري؛ من جرّاء الخوف والجزع، لقد خطرت على بالي فكرة مرعبة، فهؤلاء الناس سوف يواصلون التردد علينا، وليس هناك على الإطلاق ما يضمن حمايتنا في المستقبل من موت محقق. وحتى لو امتنعنا الآن عن مساعدتهم، لأصبحوا، ربما، أكثر قوةً، ولدفعنا بالخطر في اتجاهنا. دقائق قليلة مضت وأنا أجلس في أشد حالات الإحباط.

— يا للأسف — قلت — إن زوجي لم يشاهد هذه الصور لأناس أعرفهم ويعرفهم هو أيضاً، ولعله لم يكن ليصدق أنهم لصوص.

— قد يكون من المفيد أن تختاري صورَ مَنْ تعرفين، إن لدينا العديد منها. وسأشرح لك كيف تستفيدين منها؛ إذا ظهر واحد منهم لديكم، فأخبريه أنك ذهبت لقسم المباحث وأنهم أعطوك صوراً لهم، صدقيني، سوف يخبرون بعضهم بعضاً بذلك، وسوف تتخلصين من زيارتهم عامّاً بأكمله.

نادراً ما كنت أسعد بهدية مثل مجموعة الصور «الرائعة» التي أهداني إياها موظف القسم، والتي ما زلت أحتفظ بها حتى الآن. وقد وعدني الرجل بإرسال عميل من عندهم من ذوي الخبرة الطويلة، رأى أن من الممكن أن يعثر على المعطف الذي سرق مني، وبخاصة وقد أصبح معروفاً لهم أي دائرة يمكنهم البحث فيها.

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش أقل مني دهشةً عندما رأى الصور وقد كُتبت تحتها نوعية هؤلاء الناس. وقد تعرّف على بعضهم على الفور؛ إذ كان كثيراً ما يقابلهم أثناء

جولته المسائية عند أبواب مستشفى الأمير أولديبورجسكي، حيث كانوا يسألون المارة نقوداً لدفن من يدعون أنهم توفوا في مستشفى الأطفال من أطفالهم أو أقاربهم. وكم من مرة توجهوا إلى فيودور ميخايلوفيتش بهذا الرجاء أو غيره! وقد كان يستجيب لهم دائماً، رغم علمه بأنهم يخلتقون أسباباً ملفقة للتسول.

وبالفعل فقد كانت الصور التي أهديت لي ذات نفع كبير. ينبغي أن أشير إلى أنه على مدى الشهر الأول بعد السرقة لم يحاول أحد إزعاجنا بطلب المساعدة. ثم ظهر بعد ذلك أحد أكثر المتسولين إلحافاً، وقد سبق أن ساعدته من خلال هباتي الصغيرة على دفن أمه المريضة؛ فضلاً عن عدد من عماته. وقد جاء مرةً أخرى طلباً للمساعدة في شراء دواء لعمته المريضة. وحتى أشعر بالحماية ناديت لوكيريا (وهي فتاة فارعة الطول) من المطبخ، وطلبت منها أن تحضر ثلاثين كوبيكاً، فجاءت ووضعتها على المائدة، ثم خاطبت «لص المداخل» بحزم قائلة: اسمع، خذ هذه الكوبيكات الثلاثين ولا تأتِ إلى هنا مرة أخرى من فضلك. لقد سُرِق مني منذ فترة معطف، وقد ذهبت بسبب ذلك إلى قسم المباحث وقد أعطوني هناك «صوراً للصوص المداخل»، وقالوا لي أن أقدم إلى الشرطة كل من يأتي إلى هنا للتسول. وقد وجدت صورتك من بينها، هل تود أن تراها؟

– لا، ولماذا ترهقين نفسك؟ أجاب السائل ثم اختفى في لمح البصر. بداهة فقد أخبر المتسول رفاقه بشأن الصور، ومنذ ذلك الحين مر زمن طويل لم يأت إلينا فيه واحد من هؤلاء. وحتى فيودور ميخايلوفيتش لم يعد يصطحب معه أحداً من الشارع منذ ذلك الوقت، فإذا لم يكن معه شيء يعطيه للسائل، فقد كان يطلب منه الانتظار عند مدخل البيت ويرسل له نقوداً مع الخادمة.

زارنا في اليوم التالي العميل، الذي وعدني قسم المباحث بإرساله، وطلب مني أن أقص عليه أدق التفاصيل التي حدثت، مستفسراً على نحو غامض عن أتفه الأمور. وبالمناسبة فقد سألته إن كانوا يعثرون أحياناً على الأشياء المسروقة، فجاءت إجابته على النحو التالي: هذا يتوقف، سيدتي، بشكل رئيسي، على ما إذا كان الشخص الذي فقد شيئاً يرغب في أن يسترجع هذا الشيء من عدمه؟

– أظن أن كل شخص لا بد وأنه يرغب في ذلك.

– نفترض أن كل شخص يرغب في ذلك، لكن هناك شخصاً يهتم أكثر من شخص آخر يهتم على نحو أقل. على سبيل المثال، ذات مرة وقعت سرقة في بيت الأمير، بلغت قيمة

الأشياء الثمينة التي سُرقَت خمسة آلاف روبل، عندئذٍ قال لي الأمير مباشرة: ابحث لي عن الأشياء وسأعطيك عشرة بالمائة من قيمتها، وقد تم العثور على المسروقات. إن كل عميل يعلم جيدًا أن جهوده المضاعفة سوف تكافأ.

وعاد العميل ليضرب لي مثلين/ثلاثة آخرين. غادرت الغرفة لعدة دقائق متجهة إلى زوجي وأخبرته أن عليّ، بداهة، أن أعد العميل بإعطائه عشرة بالمائة وأن أعطيه ولو خمسة روبلات تحت الحساب. اكتفى فيودور ميخايلوفيتش بهز رأسه لكنه ذكر أن البحث لا طائل من ورائه. بعد أن عدت إلى العميل وعدته بأن أعطيه عشرة بالمائة وأعطيته خمسة روبلات، بعد أن وعدني بدوره باتخاذ إجراءات استثنائية ما.

بعد يومين جاءني العميل مرة أخرى وقال لي إنه عثر على أثر من آثار لص المعطف، وإنه، خشية انتشار الخبر قبل الأوان، فقد قرر ألا يخبرني باسمه. ثم عاد مرة أخرى يسألني عن تفاصيل ليست بذات أهمية مضيعة ساعة من وقتي. وقد خمنت أنه ما إن يحصل على رشوة مني حتى ينصرف، فأعطيته خمسة روبلات وقلت له إنني مشغولة دائمًا، وأرجوه أن يأتي فقط عندما تكون لديه إمكانية لأن يخبرني بشيء هام حول الموضوع.

مر أسبوع ونصف، وذات يوم وكنا نجلس في غرفة الطعام أنا وزوجي، إذا بلوكيريا تدخل علينا وهي تصيح: تعالي يا سيدتي، لقد وجدوا المعطف! لقد أخبرنا العميل بذلك، وهو قادم الآن.

فرحنا جميعًا بطبيعة الحال. أخبرنا العميل أن اللص رهن معطفي المسروق لدى أحد محالّ الرهونات (في مويكا) وأنه عثر على الإيصال، وأن المحل المحترم ملزم برد المعطف دون أتعاب، إذا ما قمت بإثبات أن هذا المعطف يخصني. وقال إن عليّ أن أعلن حقي في ملكيته فورًا، وأن أذهب معه الآن إلى محل الرهونات وأن أستعيد منه معطفي. لم يعجب فيودور ميخايلوفيتش بهذا الاقتراح من جانب العميل؛ وأعرب عن عزمه الذهاب بنفسه، ولكن العميل رفض قائلًا إنه باعتباره، أي زوجي، رجلًا، فلن يكون باستطاعته أن يذكر بعض العلامات المميزة للمعطف المسروق. كنت أرغب بشدة في استعادة المعطف لدرجة أنني أقنعت زوجي أن يسمح لي بالذهاب مع العميل، وأنني سوف أعطي وجهي بالخمار في حالة إذا ما التقينا صدفةً بأحد من معارفنا. وهكذا سرت، في وضح النهار المشمس، مختربة وسط مدينة بطرسبورج بصحبة عميل قسم

المباحث؛ وأنا أضحك في سري وأنا أتخيل أن كل لصوص العاصمة، الذين يتنزهون في شارع نيفسكي وقد أربكتهم المفاجأة لرؤية لصة مجهولة تسير الآن بصحبة عميل من قسم المباحث يعرفونه حق المعرفة.

وصلنا إلى شارع مويكا وأردت أن أدفع للحوذي أجرته، لكن العميل قال لي إنني سوف أحتاج للحوذي ليوصلني للمنزل بعد أن يعطوني المعطف. طلبت من الحوذي أن ينتظر. دخلنا إلى الإدارة ومنها قادونا إلى غرفة منفصلة، وبعد عشر دقائق أحضروا لنا معطفًا نسائيًا من فرو الثعالب. تبين لي من النظرة الأولى أن المعطف ليس معطفي، فأخبرت العميل بذلك.

— انظري إليه جيدًا — طلب مني العميل ذلك — لعلك تتعرفين عليه، انظري إلى الأكمام، النساء يتعرفن أكثر من خلال الأكمام.

ما هي إلا لحظة حتى استدعوا العميل، ألقيت نظرة على بطاقة المحل المثبتة على طرف المعطف. انحنيت لأقرأ، وكم كانت ثورة غضبي، عندما قرأت على البطاقة أن المعطف قد جرى تسليمه للمحل في نوفمبر عام ١٨٧٦م؛ أي قبل أربعة شهور من سرقة معطفي! كان من الواضح أن العميل على علم بذلك، لكنه افترض أنني إما لن أتعرف على معطفي، وإما أن يكون لدي استعداد أن آخذ شيئًا لا أملكه ما دمت لم أجد ما سُرق مني. عندما عاد العميل أشرت له إلى البطاقة، ثم عبرت له عن غضبي بصوت مرتفع في وجود مدير المحل؛ لخداعه الواضح لي. انعطف بجسده بشدة وعلى الفور ابتعد ليتفحص شيئًا ما في نافذة المحل. قلت للحوذي وأنا أغادر المكان إنني لن أعود معه، وسألته كم يطلب أجرًا على توصيلي إلى هنا من شارع جريتشسكايا لا أكثر ولا أقل. كم كان أسفي شديدًا عندما أخبرني الحوذي أنه يطلب سبعة روبلات حيث إنه أوصل «السيد» منذ الصباح، وإذا بهذا السيد يخرج من مدخل المحل ليقول إن «السيدة سوف تدفع المبلغ كله.» بالطبع كنت مضطرة لأدفع المطلوب. وهكذا تحققت نبوءة فيودور ميخايلوفيتش وانتهى بحثي عن المعطف دون طائل. بل واضطرت أن أضيف سبعة عشر روبلاً أنفقتها على العميل على قيمة المعطف المسروق. كان من رأي زوجي أن اللجوء للموظف المختص للشكوى ضد العميل الذي أوصى به أمرٌ لا معنى له؛ فقد يرسل عميلًا آخر لنبدأ في المماطلة ذاتها من جديد. كان من الأفضل أن أستسلم لضياح المعطف، وأن أعاهد نفسي ألا ألجأ في المستقبل لمساعدة هذه المؤسسة.

العام ١٨٧٧م، شراء منزل، السفر إلى ميروبولي، نبوة السيدة فيلد

في مطلع عام ١٨٧٧م تلقينا نبأً حزيناً؛ توفي ألكسندر جريبي،^{٢٠} صاحب الداتشا التي قضينا فيها الأربع سنوات الأخيرة في ستاريا روسا. وبالإضافة إلى الحزن الخالص الذي شعرنا به لوفاة هذا العجوز الطيب، وقد كان يتعامل مع أسرتنا دائماً بود شديد، فقد أزعجتنا، أنا وزوجي، فكرة إلى من ستؤول هذه الداتشا، وهل سيرغب المالك الجديد في السماح لنا باستئجارها في الصيف؟ كان هذا السؤال يمثل أهمية كبرى بالنسبة لنا. لقد أحببنا داتشا جريبي؛ فضلاً عن إعجابنا الشديد بالمدينة نفسها، وقد بدا لنا أن من الصعب أن نعتز على داتشا تساويها في فضائلها. لم تكن داتشا السيد جريبي بيتاً من بيوت المدن، وإنما هي في الأغلب أقرب إلى الضيعة الإقطاعية، حديقة وارفة الظلال وبستان خضراوات، تضم عنابر وقبواً وهلم جراً. كان فيودور ميخايلوفيتش يقدر تقديراً خاصاً وجود حمام روسي ممتاز في حديقة الداتشا.

ما تزال داتشا جريبي موجودة في ضاحية المدينة بالقرب من كولومتس، على ضفاف نهر بيريريتيتسا، محاطة بأشجار الدردار الضخمة، التي غرست منذ زمن أراكتشيف.^{٢١} أما بمحاذاة الجانبين الآخرين للمنزل (على امتداد الحديقة) فيقع شارعان عريضان، لا يبقى سوى جانب واحد فقط من الأرض يشترك مع جانب من حديقة الجيران.

كان فيودور ميخايلوفيتش يخشى من الحرائق، التي تأتي أحياناً على مدن مشجرة عن آخرها (أورينبورج مثلاً)، ومن ثم كان يقدر هذه العزلة التي كانت تميز بيتنا الصيفي، كما كان معجباً أيضاً بحديقته وارفة الظلال والفناء المرصوف بالحصى، حيث كان يمارس زهته الضرورية لصحته في الأيام الممطرة، عندما تغرق المدينة كلها في

^{٢٠} تُسقط أنا جريجوريفنا دستوفسكايا عاماً بأكمله. فقد توفي ألكسندر كارلوفيتش جريبي في الأول من يناير ١٨٧٦م، وبالتالي فقد اشترى البيت الصيفي في ستاريا روسا (الداتشا)، الأمر الذي كتبت بشأنه أنا جريجوريفنا فيما بعد، في عام ١٨٧٦م، وليس في عام ١٨٧٧م (انظر ل. م. راينوس، دستوفسكي في ستاريا روسا، ليننجراد، ١٩٦٩م، ص ٣٥؛ جروسمان، ص ٢٤٨).

^{٢١} ألكسي أندرييفيتش أراكتشيف (١٧٦٩-١٨٣٤م): شخصية بارزة في عصر القيصر بافل الأول، وزير الحربية من عام ١٨٠٨م إلى عام ١٨١٠م في عصر القيصر ألكسندر الأول.

الأحوال، ويصبح السير في الطرق غير المرصوفة أمرًا مستحيلًا. كذلك كنا معجبين، أنا وزوجي، بالغرف الصغيرة للمنزل الموزعة على نحو مناسب، وقد وُضع بها أثاث ثقيل عتيق مصنوع من خشب الماهوجني مفروشًا فرشًا وثيرًا يوفر الدفء، وبالإضافة إلى كل ذلك، كانت فكرة ولادة ابننا أليوشا في هذا البيت يجعلنا نشعر أنه كان مكانًا حميميًا. أحيانًا كان ينتابنا الخوف الشديد من احتمال أن نفقد هذا الركن الذي نحبه حبًا عظيمًا، ولكن سرعان ما اتضحت الأمور:

لقد رحلت وريثة السيد جريبي من المدينة بعد أن قررت بيع البيت، وطلبت في المقابل (بما في ذلك الأثاث بل وحتى الحديقة المشجرة) ألف روبل، وهو مبلغ كان باهظًا آنذاك بالنسبة إلى الأهالي في روسا. لم يكن بحوزتنا مثل هذا المال في تلك الفترة، ولكني لم أكن أرغب أن أتنازل عن هذه الداتشا حتى إنني طلبت من أخي، إيفان جريجوريفيتش، أن يشتري البيت باسمه، على أن يعيد بيعه لنا عندما نتوفر على ثمنه. وقد لبى أخي رغبتني واشترى البيت، وقد أعدت شراؤه من أخي بعد وفاة زوجي باسمي.

وبفضل شرائنا لهذا البيت أصبحنا نمتلك، على حد تعبير زوجي، «عشًا خاصًا بنا نلجأ إليه بسرور منذ بواكير الربيع، ونرحل عنه بمشقة مع قرب انتهاء الخريف.» كان فيودور ميخايلوفيتش يعتبّر بيتنا الصيفي في ستاريا روسا المكان الذي تجد فيه روحه سكينتها ويجد بدنه فيه راحته، أذكر أنه كان دائمًا ما يرجئ قراءة كتبه المفضلة والشيقة إلى حين وصوله إلى روسا، حيث يجد العزلة المحببة إليه، والتي لا تقطعها زيارات الفضوليين إلا نادرًا.

في عام ١٨٧٧م كنا ما نزال نواصل إصدار «مذكرة الكاتب»، وعلى الرغم من النجاح المادي والمعنوي الذي كانت تحققه، فقد زادت معه أيضًا المتاعب المرتبطة بإصدار مجلة شهرية؛ أي توزيع الأعداد، إدارة الاشتراكات، المراسلات مع المشتركين، وما إلى ذلك من تبعات. وحيث إنني لم أكن أمتلك مساعدين في هذا الأمر (اللهم إلا ساعٍ وحيد)، فقد كنت أبذل جهدًا فائقًا أوصلني للإرهاق الشديد، الذي ترك أثره على صحتي حتى الآن. لقد فقدت جزءًا كبيرًا من وزني على مدى العامين الأخيرين، وبدأت في السعال. راح زوجي الطبيب، الذي كان يعتني بصحتي دائمًا، يصر على أن أخلد إلى الراحة التامة طوال الصيف، ولكن وحيث إنني كنت مسئولة عن رعاية البيت في ستاريا روسا، فلم يكن هناك من سبيل إلى مثل هذه الراحة المنشودة؛ ولذلك فقد قرر زوجي أن يقبل دعوة أخي لقضاء الصيف بطوله في الريف. وفي مطلع شهر مايو اصطحبنا الأسرة كلها إلى محافظة كورسكايا؛ حيث ضيعة أخي المسماة «مالي بريكول» بالقرب من مدينة ميروبولي.

أذكر جيداً رحلتنا الطويلة. توقفنا خلالها عدة مرات في موسكو وفي بعض محطات السكك الحديدية الرئيسية، حتى اضطر قطارنا للوقوف ساعاتٍ طويلةً بسبب نقل قوات من الجيش المتجهين إلى الحرب.^{٢٢} وفي كل التوقيفات كان فيودور ميخايلوفيتش يتوجه إلى البوفيه ليشتري كمياتٍ كبيرةً من الكعك والفطائر والسجائر والكبريت، ويذهب ليوزعها على الجنود في العربات، وكان يدخل في نقاش طويل مع عدد منهم.

عندما أذكر هذه الرحلة الطويلة، أقول إن ما كان يدهشني دائماً هو أن فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يغضب لأتفه الأسباب في الحياة العادية، يبدو رفيقاً سهل المعشر، شديد التحمل في السفر، يوافق على كل شيء دون أن يبدي أي نوع من التذمر أو يصر على بعض المطالب، بل على العكس من ذلك، كان يبذل قصارى جهده ليوثر لي وللمربيّتين أسباب الراحة ليتمكننا من العناية بالأطفال، الذين كانوا يشعرون بالتعب سريعاً فيبدءون في المشاكسة. لكن أكثر ما كان يدهشني هو قدرة زوجي على تهدئتهم، فما إن يبدأ أحد من الثلاثة في ممارسة الشقاوة، حتى يأتي فيودور ميخايلوفيتش من ركنه (كان يجلس معنا في نفس العربة ولكن على مسافة منا)، ويأخذ الطفل إليه الذي سرعان ما يهدأ. كان لدى زوجي موهبةٌ خاصة في التحدث إلى الأطفال، وأن يعرف ما الذي يثير اهتمامهم، يكتسب ثقتهم (وهو ما كان يحدث أيضاً مع الغرباء من الأطفال الذين يلتقيهم صدفة)، وهكذا يروح يسلي الطفل فتسوّدُ البهجة ويصبح مطيعاً. لعلي أفسر ذلك بحبه الدائم للأطفال الذي يلهمه كيفية التصرف في مثل هذه المواقف.

في نهاية شهر يونيو اضطر فيودور ميخايلوفيتش للذهاب إلى بطرسبورج تاركاً الريف؛ لكي يتولى أعمال تحرير وإصدار العدد المزدوج من «مذكرة الكاتب» لشهرَي مايو ويونيو. ذهبت بصحبة زوجي والطفلين الكبيرين إلى محطة كورنيوفو متجهين لزيارة الأماكن المقدسة في كييف. كان فيودور ميخايلوفيتش يولي اهتماماً كبيراً في تربية الأطفال للمؤثرات النورانية البديعة التي يعيشونها في طفولتهم المبكرة. وحيث إنه كان يعلم أنني أحلم منذ زمن بعيد بالذهاب إلى كييف والصلاة في رحاب الأماكن المقدسة هناك، فقد اقترح عليّ زوجي أن أنتهز فرصة غيابه والذهاب إلى كييف، وهو ما أنجزناه على خير ما يرام.

^{٢٢} الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م.

حالف التوفيق فيودور ميخايلوفيتش في إصدار وتوزيع عدد الصيف من مجلة «مذكرة الكاتب»، ولكنه للأسف، عانى الكثير من القلق بسبب انتظاره الطويل لاستلام خطابات مني. أكثر ما كان يزعجه أنني، باتفاق معه، كنت أرسل إليه بالخطابات عن طريق كبير بوابي بيتنا. لكن زوجي، بتأثير نوبة من نوبات الصرع وقعت له، نسي أننا اتفقنا على أنه في حالة إرسالي خطابات على اسمه مباشرة، فإن مكتب البريد الرئيسي — بناءً على توجيهات سابقة منه، أعطاهما له في الربيع قبيل سفره إلى القرية — يعيد هذه الخطابات إلى ميروبولي، كما اعتاد المكتب أن يفعل مع عدد كبير من مراسلاتي إلى زوجي في بطرسبورج.

في السنوات الأخيرة عبر فيودور ميخايلوفيتش أكثر من مرة عن أسفه لعدم تمكنه من الذهاب إلى قرية داروفويه، حيث ضيعة الراحلة أمه، التي كان يقضي فيها فصول الصيف في طفولته. ونظرًا إلى أن فيودور ميخايلوفيتش كان يشعر في صيف عام ١٨٧٧م أنه بصحة جيدة، فقد أقنعت أنه يتوقف، في طريق عودته من بطرسبورج إلى ميروبولي، في موسكو، ليسافر منها إلى داروفويه، وهو ما فعله فيودور ميخايلوفيتش. وقد نزل ضيفًا على أخته فيرا ميخايلوفنا (إيفانوفنا التي انتقلت ملكية الضيعة إليها) ليلتين. وقد قصَّ عليَّ أقاربُ زوجي فيما بعد أنه قام بزيارة مختلف الأماكن في المنتزه والضواحي التي كانت عزيزةً عليه في ذكرياته، حتى إنه ذهب سيرًا على الأقدام (مسافة تبعد فرسخين عن الضيعة) إلى دغل «تشيريومشني» الأثير إلى قلبه في طفولته، وقد استخدم فيودور ميخايلوفيتش هذا الاسم في رواية «الإخوة كارامازوف». وقد عرَّج أيضًا على أكواخ يسكنها فلاحون من أترابه ما يزال يذكروهم، حيث استقبله عجايزُ من الرجال والنساء؛ فضلًا عن أترابه، الذين بقي حيًّا في ذاكرتهم منذ طفولته بسرور بالغ، وألحوا عليه لزيارتهم في أكواخهم وقدموا له الشاي. أيقظت هذه الرحلة إلى داروفويه ذكرياتٍ عديدةً في وجدان زوجي حكاها لنا بعد عودته بكثير من الحماس.^{٢٣} وقد وعد أطفاله بأن يسافر معهم حتمًا إلى داروفويه؛ حتى يريهم كلَّ الأماكن المفضلة لديه في المنتزه. وقد حققتُ

^{٢٣} عن سفر دستوفسكي إلى داروفويه ٢٠-٢١ يوليو ١٨٧٧م، انظر: مذكرات الفلاح من داروفويه إ. ماكاروف في مقالة: د. ستونوف، «قرية داروفويه». مجلة كراسنايا نيفا، ١٩٢٦م، العدد ١٦، ومقالة

لزوجي هذه الرغبة، وتمكّن الأطفال من مشاهدة الأماكن التي قضى فيها طفولته، عندما اصطحبتهم في عام ١٨٨٤م^{٢٤} إلى داروفويه، وقد عرّفنا أقاربه بكل الأماكن التي زارها فيودور ميخايلوفيتش في رحلته الأخيرة، وقد زرناها جميعها.

مر بنا صيف عام ١٨٧٧م على نحو غير مسبوق من المرح والسعادة، ولم ينقص من سعادتنا شيء سوى أننا لم نستطيع البقاء في القرية، حتى شهر سبتمبر. ولكن كان علينا أن نُصدر عدد الصيف المزدوج، يوليو-أغسطس، وقد عدنا إلى بطرسبورج مع نهاية شهر أغسطس.

بدأت الحياة العادية المليئة بشتى أنواع المشاكل والاضطرابات. كان فيودور ميخايلوفيتش قد بدأ في استقبال ضيوف شتى كل يوم، منهم من يعرفهم ومنهم من لا يعرفهم. وفي هذا الخريف دأب على زيارتنا واحدٌ من أشد المعجبين بموهبة زوجي؛ فسيفولد سيرجيفيتش سولوفيوف. وفي إحدى زيارته لنا حكى لزوجي أنه تعرّف على امرأة اسمها السيدة فيلد، حدثته بدقة عن حياته الماضية، ثم تنبأت له بعد ذلك بأشياء تحققت بالفعل. وعندما غادرنا سولوفيوف عائداً إلى منزله، خرج بصحبته زوجي، الذي يقوم بنزهته في هذا الوقت كلّ مساء. سأله زوجي الغالي إن كانت السيدة فيلد تسكن بعيداً، عندما علم منه أنها تعيش على مقربة اقترح عليه أن يعرجا عليها على الفور. وافق زوجي واتجها معاً إلى العرّافة^{٢٥}. لم تكن السيدة فيلد تعلم، بطبيعة الحال، من هو هذا الضيف المجهول، ولكن ما تنبأت به لزوجي من أن مجداً كبيراً ينتظره وشهرة عظيمة لم تخطر ببالة في طريقها إليه؛ قد تحقق حرفياً في احتفالية بوشكين! وقد تحققت معها أيضاً، للأسف الشديد، نبوءتها أيضاً بأن زوجي سوف يواجه في القريب العاجل مصيبةً عائلية؛ إذ توفي ابننا العزيز أليوشا! وقد أخبرني فيودور ميخايلوفيتش بالنبوءة الحزينة للعرّافة بعد مُصابنا الأليم.

ف. س. نيتشايفا «من المراجع الخاصة بدستوفسكي» (رحلة إلى داروفويه)، «العالم الجديد»، ١٩٢٦م، العدد ٣.

^{٢٤} توفي فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي عام ١٨٨١م. (المترجم)

^{٢٥} يحكي فسيفولد سولوفيوف في «مذكراته عن ف. م. دستوفسكي» عن زيارته بصحبة دستوفسكي إلى العرّافة فيلد (انظر: «البشير التاريخي»، ١٨٨١م، العدد ٤، ص ٨٤٩).

مع اقتراب العام من نهايته، راح فيودور ميخايلوفيتش يُمعن التفكير في مسألة مواصلة إصدار «مذكرة الكاتب» في العام التالي. كان زوجي راضيًا تمام الرضا عن النجاح المادي للمجلة واستقبال المجتمع لها بمزيد من الثقة والإخلاص، وهو ما انعكس في الخطابات التي كان يتلقاها والأعداد الغفيرة من قراء لا يعرفهم، وهو ما قدّره تقديرًا رفيعًا، لكن حاجته للإبداع الفني تغلبت عليه؛ ومن ثم قرر فيودور ميخايلوفيتش أن يتوقف عن إصدار «مذكرة الكاتب» لمدة عامين أو ثلاثة وأن يشرع في كتابة رواية جديدة. وبالنسبة إلى المهام الأدبية التي شغلت زوجي وأرقته، يمكن الرجوع إلى دفتر مذكراته الذي وجدناه بعد وفاته، وقد سجّل فيه في الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧م ما يلي:

«حتى آخر العمر Memento».^{٢٦}

- (١) كتابة كانديد روسي.
- (٢) كتابة كتاب عن المسيح.
- (٣) كتابة مذكراتي.
- (٤) كتابة قصيدة الأربعين.^{٢٧}

(كل ذلك، ما عدا الرواية الأخيرة و«المذكرة» المفترض إصدارها، يتطلب عشر سنوات Minimum عملاً، وأنا الآن أبلغ من العمر ٥٦ عامًا.)

توطئة لعام ١٨٧٧م

في منتصف شهر أبريل احتاج فيودور ميخايلوفيتش للذهاب لأمرٍ ما إلى بنك الحكومة. ولأني خشيت أن يجهد البحث عن فرع البنك المطلوب له، فقد تطوعت باصطحابه. وقد لاحظنا، ونحن نخترق شارع نيفسكي، أن الناس يزدهمون حول باعة الصحف. أوقفنا الحوذي، اخترقت الزحام واشترت الإعلان الذي ظهر لتوه. كان «بيان سامٍ حول عبور

^{٢٦} Memento (لاتينية): تذكّرة. (المترجم)

^{٢٧} الأربعين: اليوم الأربعين بعد الوفاة. (المترجم)

القوات الروسية الحدود التركية، الموجودة في كيشينيف في الثاني عشر من أبريل ١٨٧٧م.» كان الجميع ينتظر هذا البيان منذ أمد بعيد، لكن إعلان الحرب الآن أصبح حقيقة واقعة بعد أن قرأ فيودور ميخايلوفيتش البيان، أمر الحوذي أن يأخذنا إلى كنيسة كازان. كان هناك جمع كبير من الناس محتشدين في الكنيسة يؤدون الصلاة بلا انقطاع أمام أيقونة عذراء كازان، وعلى الفور اختفى فيودور ميخايلوفيتش وسط الزحام. كنت أعلم أنه في الاحتفالات الأخرى يحب الصلاة في هدوء، بعيداً عن الأنظار، لم أتبعه، ولكنني بعد مرور نصف ساعة رحت أبحث عنه في ركن الكنيسة، حيث وجدته مستغرقاً في الصلاة والدعاء، حتى إنه لم يتعرف عليّ للوهلة الأولى. لم يكن من الممكن الذهاب إلى البنك؛ إذ كان فيودور ميخايلوفيتش متأثراً للغاية بهذا الحدث وما له من نتائج عظيمة بالنسبة لوطنه الحبيب. وضع زوجي البيان في عداد أوارقه الهامة، وهو موجود الآن في أرشيفه.^{٢٨}

٧

العام ١٨٧٧م

كان شهر نوفمبر عام ١٨٧٧م زمناً لحزن عظيم عاشه فيودور ميخايلوفيتش؛ توفي نيكولاي نكراسوف، الذي عانى آلام مرض عضال. يمثل نكراسوف ذكرياتٍ عزيزةً على زوجي ترتبط بشبابه وبداية مستقبله الأدبي. لقد كان نكراسوف من أوائل الذين اعترفوا بموهبة فيودور ميخايلوفيتش وساعدوه على النجاح في المجتمع الثقافي آنذاك. والحقيقة أن المعتقدات السياسية فرقت بينهما بعد ذلك، وأن جدلاً حامي الوطيس نشب في الستينيات بين مجلتي «الزمن» و«المعاصر». لكن فيودور ميخايلوفيتش تغاضى عن كل ما حدث، وعندما اقترح عليه نكراسوف أن ينشر روايته في «حوليات الوطن»، فقد وافق على الفور،

^{٢٨} شدت الحرب الروسية-التركية ١٨٧٧-١٨٧٨م انتباه الرأي العام الروسي إلى ما عُرف بالمسألة الشرقية أو السلافية. وقد رأى دستوفسكي أن «المسألة الشرقية» ما هي إلا تطوير لأفكاره الخاصة بنزعة «أنصار الأرض»، وقرر أن اشترك روسيا في الحرب هو بمثابة بداية لتحقيق رسالة الشعب الروسي التاريخية التي تستهدف توحيد البشرية جمعاء، وعلى رأسها الشعوب السلافية، على أسس المحبة والإخاء المسيحيين (انظر: «مذكرة الكاتب» عن ١٨٧٦م، يونيو. دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الحادي عشر، ص ٣١٦-٣٣٣).

وسرعان ما جدد علاقات الود بينه وبين صديق شبابه، الذي استجاب لها بإخلاص. وعندما عرّف فيودور ميخايلوفيتش أن نكراسوف يعاني من مرض خطير، راح يعود في مرضه ويطمئن على صحته مرارًا. وفي مرات أخرى، كان يطلب ألا يوقظوا المريض حرصًا عليه، وأن يبلغوه فقط تحياته القلبية. أحيانًا كان زوجي يجد نكراسوف في حال من النشاط، وعندئذ كان يجلس لديه ليستمتع منه إلى أشعاره الأخيرة. وعندما أشار نكراسوف إلى إحدى قصائده — «البؤساء» — (تحت عنوان «الخد») قائلاً: «لقد كتبتها عنك!» الأمر الذي تأثر به فيودور ميخايلوفيتش أيما تأثر.^{٢٩} على العموم، فقد تركت اللقاءات الأخيرة بنكراسوف انطباعًا عميقًا لدى فيودور ميخايلوفيتش،^{٣٠} ولهذا فقد كان حزنه عميقًا، عندما علم في السابع والعشرين من ديسمبر بوفاة نكراسوف. وفي تلك الليلة راح يقرأ جهرًا أشعار الراحل، مبدئيًا إعجابه بإخلاص بالعديد منها، معتبرًا إياها دررًا حقيقية في عقد الشعر الروسي. عندما رأيت مقدار كدره، وخوفًا من أن تدهمه نوبة من نوبات الصرع، بقيت جالسة إلى جواره في غرفة المكتب، ومن حكاياته عرفت بعضًا من المواقف التي عاشها معًا في شبابهما.

^{٢٩} لا تدخل قصيدة البؤساء في عداد الأشعار التي كتبها نكراسوف مؤخرًا، كما كتبت أنا جريجوريفنا. نُشرت هذه القصيدة في العدد الخامس من «المعاصر» عام ١٨٥٦م. ومن المرجح أن دستوفسكي جاء تحديدًا على ذكر قصيدة «البؤساء» عندما كتب عن لقائه بنكراسوف في «مذكرة الكاتب» عام ١٨٧٧م، في قوله: «عندما عدت من المعتقل، أشار إليّ (نكراسوف) إلى إحدى قصائد ديوانه قائلاً: «لقد كتبت هذه القصيدة آنذاك عنك»» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٣٣).

^{٣٠} كتبت أ. بوتكيفيتش، شقيقة نكراسوف في يومياتها عن لقاء دستوفسكي بالشاعر، إبان مرضه في الثالث والعشرين من مارس ١٨٧٧م، تقول: «حضر إلينا ف. م. دستوفسكي. كانت ذكريات الشباب تربط أخي به (كانا يُزَيَّن)، وكان أخي يحبه، قال أخي: «لن أستطيع التحدث إليه، أخبريه أن يدخل لدقيقة واحدة، يسعدني أن أراه». لم يُطل دستوفسكي زيارته، وحكى له أنه كان مندهشًا اليوم بعد أن رأى في السجن كتاب «فسولوجيا بطرسبورج» لدى السجناء. كان دستوفسكي في هذا اليوم شاحبًا ومنتعّبًا على نحو واضح؛ سألته عن صحته، أجاب: «ليست على ما يرام، نوبات الصرع تزداد حدة، خمس نوبات داهمتني هذا الشهر، آخرها منذ خمسة أيام، ولا يزال رأسي مشوشًا؛ لا تتعجبي أنني أضحك اليوم، إنه ضحك عصبي يحدث لي دائمًا بعد كل نوبة» (ن. أ. نكراسوف في مذكرات معاصريه، موسكو، ١٩٧١م، ص ٤٤١). يذكر دستوفسكي نفسه لقاءه الأخير مع نكراسوف في النصف الثاني من نوفمبر ١٨٧٧م في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧م (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٣٤٦).

حضر فيودور ميخايلوفيتش القداس الجنائزي الذي أقيم لنكراسوف، وقرر الذهاب لحمل جثمانه ودفنه. وصلنا في ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثين من ديسمبر إلى حي لينينيانيا، حيث منزل كرايفسكي الذي عاش فيه نكراسوف، وهنا وجدنا جمهوراً غفيراً من الشباب يحملون أكاليل الغار في أيديهم. سار فيودور ميخايلوفيتش خلف النعش حتى وصل إلى شارع إيتالينسكايا، وحيث إن السير في هذا البرد القارس دون غطاء رأس يُعتبر أمراً خطيراً، فقد أقنعت زوجي بالعودة إلى المنزل، ثم الذهاب بعد ساعتين إلى كنيسة العذراء لحضور القداس. وهذا ما فعلناه، وفي الظهيرة كنا في الكنيسة.

وقفنا حوالي نصف ساعة في جو حارٍّ داخل الكنيسة، وهنا قرر فيودور ميخايلوفيتش الخروج للهواء. وقد خرج معنا صديق زوجي، أورشست فيودوروفيتش ميلر، ورحنا معاً نبحث عن قبر نكراسوف. ترك الهدوء الذي خيم على المكان انطباعاً موحياً بوجود الموت. وعندئذٍ قال لي: «أنيا، عندما أموت ادفني هنا أو حيث شئت، لكن تذكّري، لا تدفني في جبّانة فولكوفي، عند جسور الأدباء؛ لا أريد أن أرقد بين أعدائي، كفاني ما لقيت منهم في حياتي!» كان لوصيته بشأن الدفن وقعٌ ثقيل على قلبي؛ رحت أقنعه وأؤكد له أنه بصحة جيدة وأنه لا ينبغي عليه التفكير في الموت. ورغبةً مني في تغيير مزاجه الحزين رحت أصور له أموراً خيالية حول دفنه، متمنيةً له أن يعيش أطول عمر ممكن.

— إذا لم تكن ترغب أن تُدفن في فولكوفي، فسوف أدفنك في كنيسة نيفسكي، إلى جانب جوكونفسكي،^{٣١} وقد كنتَ تكنُّ له حباً شديداً. ولكن، أرجوك ألا تموت، من فضلك! سوف أستدعي مغنين من نيفسكي وسوف يقيم القداس أسقف، بل أسقفان. هل تعرف؟ سوف أفعل كل ما في وسعي لكي يسير وراءك ليس فقط هذا الجمعُ الغفير من الشباب، وإنما بطرسبورج كلها، ستون ألفاً، ثمانون. وسوف تكون الأكاليل ثلاثة أضعاف. انظر أيّ جنازة رائعة أعدك بتنظيمها! ولكن بشرط واحد؛ أن تعيش سنواتٍ طويلةً! طويلة! وإلا فسوف أكون تعيسة للغاية! رحت أسرف عمداً في وعودي؛ لعلمي أن ذلك ربما يصرف فيودور ميخايلوفيتش عن تلك الأفكار التي استولت عليه في هذه اللحظة، وقد نجحت في ذلك. ابتسم فيودور ميخايلوفيتش وقال لي: حسناً، حسناً، سأحاول أن أعيش أطول!

^{٣١} فاسيلي أندرييفيتش جوكونفسكي (١٧٨٣-١٨٥٢م): شاعر روسي شهير. (المترجم)

ذكر أوريست ف. ميلر شيئاً ما عن خيالي الخصب، وانتقلنا بالحديث إلى أمور أخرى.^{٣٢}

بعد أن أنهى عدد من العاملين في «حوليات الوطن» كلماتهم عند قبر نكراسوف، طلب جمهور من الشباب الذي أحاط بقبره أن يلقي دستوفسكي كلمته. ألقى فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان في حالة من التأثر العميق، كلمة قصيرة بصوت متهدج. وضع فيها موهبة المتوفى في منزلة رفيعة، وأوضح مدى الخسارة الفادحة التي أصابت الأدب الروسي بموته. كانت هذه الكلمة، في رأي الكثيرين، أكثر الكلمات، التي قيلت على القبر المفتوح لنكراسوف، إخلاصاً. انتشرت هذه الكلمة انتشاراً واسعاً، وظهرت في عدد ديسمبر من «مذكرة الكاتب» عام ١٨٧٧م. وقد تضمنت الفصول التالية: (١) وفاة نكراسوف. وتعرض الكلمات التي أُلقيت عند القبر. (٢) بوشكين، ليرمونتوف ونكراسوف. (٣) الشاعر، والمواطن، وهو عن ردود الأفعال العامة عن نكراسوف باعتباره إنساناً.

^{٣٢} مضت ثلاث سنوات، وعندما توفي فيودور ميخايلوفيتش وجرت جنازته المهيبة الضخمة، التي لم يحدث مثيل لها في العاصمة حتى الآن، ذُكرني أوريست ف. ميلر، الذي زارني بعدها بفترة وجيزة، بنبوءتي التي تحققت بالحرف الواحد، وكما تنبأت بالفعل، فقد وجد فيودور ميخايلوفيتش مرقده الأبدى في كنيسة ألكسندر نيفسكي بجوار قبر الشاعر جوكوفسكي (وكان من الممكن ألا نجد مكاناً إلى جواره)، وفي القديس الجنائزي الذي جرى لجثمانه، حضر اثنان من الأساقفة، وأنشد مغنون رائعون من نيفسكي، وسار في موكبه، كما تنبأت، من ستين إلى ثمانين ألفاً، كانوا يحملون عدداً كبيراً من الأكاليل. أنا نفسي تذكرت وعودي المسرفة في الخيال التي ذكرتها في جبانة كنيسة العذراء، ولكنني لم أتعجب إطلاقاً لدقة نبوءتي؛ كنت أدرك في نفسي القدرة أحياناً على التنبؤ، أو إبداء ملاحظة (على نحو غير متوقع تماماً، كما لو أنها جاءت في حديثي دون إرادة مني)، لكنها كانت تتحقق بحذافيرها تقريباً. كانت هذه القدرة تظهر عادة لدي في تلك المواقف عندما تكون أعصابي متوترة للغاية، وقد كانت بالفعل على هذا النحو عندما مشينا في جنازة نكراسوف، وكنت أنظر بقلق بالغ إلى زوجي، وأرى إلى أي حد ترك موت صديقه القديم ومُعاصره أبلغ الأثر عليه.

لقد قرأت في مكان ما أن بعض القدرات، مثل «التنبؤ»، هي أمر فطري لدى نساء الشمال؛ أي النرويجيات والسويديات. ترى هل يمكن تفسير قدرتي هذه لكوني من أم سويدية؟ هذه القدرة التي كانت السبب في بعض الحالات في العديد من الفترات التعيسة التي عشتها (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

(٤) شاهد لصالح نكراسوف. وقد أكد العديد من الأدباء أن هذه المقالة مثَّلت أكبر دفاع عن نكراسوف كإنسان سجَّله نقاد من نقاد هذا الزمان.^{٣٢}

^{٣٢} لم تكفِ غالبية صحف بطرسبورج أن تكتب في مقالاتها بشأن وفاة نكراسوف عن قيمة شعر نكراسوف، بقدر ما أولت اهتماماً كبيراً «لواقعية» هذا الشعر وما به من «عيوب»، وعن «ازدواجية شخصيته». وفي هذا السياق ذاته جاءت مقالة دستوفسكي عن نكراسوف في «مذكرة الكاتب» — كما أشارت أنا — إنساناً. وقد اختتم دستوفسكي مقالته بأن قال: «إن نكراسوف هو نموذج روسي تاريخي، وهو أحد أعظم الأمثلة على أي حد وصل الإنسان الروسي في تناقضاته وانقساماته في مجالي الأخلاق والعقائد في زمننا الانتقالي المؤسف. لكن هذا الإنسان سيبقى في قلوبنا. لقد كانت سورة الحب عند هذا الشاعر مفعمة دائماً بالإخلاص والطهارة ونقاء السريرة! لقد كان سعيه نحو الشعب سعيًا ساميًا، وقد وضعه هذا الشعب في منزلة رفيعة. أما من ناحية كونه إنساناً ومواطناً، فقد أثبت مرةً أخرى حبّه للشعب ومعاناته من أجله، وقد كفّر بهما عن الكثير، إن كان هناك ما يكفّر عنه ...» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٣٦٣). هكذا استقبل العاملون البارزون في «حوليات الوطن»، مثل ميخايلوفسكي وسكابيتشيفسكي، خطاب دستوفسكي باعتباره «خطاباً للدفاع» عن نكراسوف تحديداً، وعن الانطباع الذي تركه خطاب دستوفسكي عن نكراسوف وعلى المعاصرين. انظر: مذكرات: أ. أ. بليشيف، «ثلاثون عاماً على وفاة نكراسوف»، «صحيفة بطرسبورج» ج. ف. بليخانوف، الأدب وعلم الجمال، الجزء الثاني، موسكو، ١٩٥٨م، ص ٢٠٦-٢٠٩؛ ف. ج. كورلينكو، تاريخ معاصر لي، موسكو، ١٩٦٥م، ص ٤٢٩-٤٣١.

الجزء التاسع

العامان ١٨٧٨-١٨٧٩م

١

على مدى أيام الصيام الكبير عام ١٨٧٨م، قرأ فلاديمير سيرجيفيتش سولوفيفوف سلسلة من المحاضرات الفلسفية بطلب من جمعية محبي الثقافة الروحية في مبنئ بمدينة سولياني. وقد جمعت هذه القراءة عددًا كبيرًا من المستمعين اكتظت بهم القاعة؛ كان من بينهم العديد من معارفنا المشتركين. وحيث إن أمورنا المنزلية كانت مستقرة، فقد واطبنا نحن أيضًا، أنا وفيودور ميخايلوفيتش، على حضور هذه المحاضرات.^١

ولدى عودتنا من إحدى هذه المحاضرات سألني زوجي: ألم تلاحظي كيف تصرف معنا نيكولاي نيكولايفيتش (ستراخوف) على نحو غريب؟ وأنه لم يعد يزورنا كما كان يفعل دائمًا، وفي الاستراحة حيًا على نحو عابر، ثم راح يتحدث مع شخص ما. ألا تظنين أنه قد يكون غاضبًا منا! ما رأيك؟

— لقد بدا لي أيضًا أنه كما لو كان يتحاشانا — أجبت — زد على ذلك أنني عندما قلت له مودعة: «لا تنس الأحد». أجاب: «سأحل ضيفًا عليكم».

كنت أشعر بشيء من الانزعاج لعلني أكون، بطبيعتي المندفعة، قد ذكرت شيئًا ما أثار استياء ضيف الأحد المعتاد. كان زوجي يحرص بشدة على النقاش مع ستراخوف، وكان دائمًا يذكّرني بضرورة الاحتفاظ بنبيذ جيد أو تقديم طبق من السمك الذي كان ضيفنا يحبه.

^١ كان موضوع المحاضرات هو «قراءات حول الإله الإنسان». وكانت هذه المحاضرات، بشهادة دستوفسكي نفسه، «تتم في حضور جمهور يبلغ ألف شخص» (خطاب دستوفسكي إلى ن. ب. بيترسون المؤرخ ٢٤ مارس ١٨٧٨م، الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩).

في أول أحد زارنا نيكولاي نيكولايفيتش على الغداء، وقد قررت أن أستوضح منه الأمر فسألته مباشرة إن كان غاضباً منا.

— ما الذي يدعوك، أنا جريجوريفنا، لتفكري في ذلك؟ سألني سترخوف.

— لقد بدا لي ولزوجي أنك، في محاضرة سولوفيوف الأخيرة، تحاشيت لقاءنا.

— أوه، لقد كان ظرفاً استثنائياً — ضحك سترخوف — لم أتحاشاكم وحدكم، وإنما تحاشيت كل معارفي. لقد جاء معي إلى المحاضرة الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي، وقد طلب مني ألا أقوم بتعريفه لأي أحد، هذا هو السبب الذي جعلني أبتعد عن الجميع.

— مستحيل! كنت مع تولستوي؟ — صاح فيودور ميخايلوفيتش بدهشة ممزوجة بالحزن — كم أشعر بالأسف لأنني لم أراه! بالطبع لم أكن لألح على التعارف، ما دام لم يرغب في ذلك، ولكن لماذا لم تهمس لي بأنه معك؟ كنت على الأقل سأنظر إليه.

— أنت تعرفه، لا شك، من خلال صورته. قال نيكولاي نيكولايفيتش ضاحكاً.

— وما قيمة الصور؟ وهل بإمكانها أن تكون عوضاً عن الإنسان؟ الأهم أن تراه شخصياً. أحياناً تكفي نظرة واحدة لكي تنطبع صورة الإنسان في القلب طول العمر. لن أغفر لك، نيكولاي نيكولايفيتش، أنك لم تخبرني بوجوده.^٢

فيما بعد لم يعبر فيودور ميخايلوفيتش لأحد عن أسفه أنه لم يتعرف على وجه تولستوي.

٢

توطئة لذكريات عام ١٨٧٨م

في السادس عشر من مايو ١٨٧٨م مُنيت أسرتنا بمُصاب جَلٍّ؛ توفي ابننا الأصغر ليوشا.^٣ لم تكن هناك أية بادرة تنبئ بوقوع هذه المصيبة، كان الصبي يتمتع طوال الوقت بصحة

^٢ جرت هذه المحاضرة التي ألقاها فلاديمير سولوفيوف وحضرها كلٌّ من دستوفسكي وتولستوي في العاشر من مارس ١٨٧٨م. وقد عبر تولستوي أيضاً بالخاص عن أسفه أن سترخوف لم يخبره بوجود دستوفسكي في المحاضرة. انظر تفاصيل هذا الموضوع في الباب الثاني عشر من هذا الكتاب في الفصل المعنون «حديث مع تولستوي».

^٣ ألكسي فيودوروفيتش دستوفسكي (أسماء التذليل: أليوشا، ليوشا) (١٨٧٥-١٨٧٨م): الابن الأصغر لدستوفسكي.

جيدة، وكان يمضي وقته مرحًا مسرورًا. وفي صبيحة يوم وفاته كان ما يزال يثرثر بلغته غير المفهومة، وكان يضحك بصوت مرتفع مع العجوز بروخورفنا، التي جاءت لزيارتنا قبل سفرنا إلى ستاريا روسا. وفجأة راح وجهه يهتز ويعتريه التشنج، وقد ظننت أن ما يحدث أمرٌ معتاد بالنسبة إلى الأطفال عند ظهور أسنان لهم، والحقيقة أن جذور هذه الأسنان كانت قد بدأت في التكون بالفعل عنده في هذه الفترة. خَفْتُ بشدة، وعلى الفور استدعيت طبيب الأطفال، جريجوري تشوشين،^٤ الذي اعتاد علاج أطفالنا، وكان يعيش بالقرب منا، وقد حضر على الفور. يبدو أنه لم يولِ المرض أهميةً فائقة. وصف لنا دواءً ما وأكد أن الصغير سوف يُشفى سريعًا. وعندما وجدت أن التشنج لم يتوقف فقد أيقظت فيودور ميخايلوفيتش الذي انتابه القلق بشدة. قررنا اللجوء إلى مختص في الأمراض العصبية. توجهت إلى البروفيسور أوسبينسكي.^٥ كان يستقبل المرضى، وكان هناك ما يقرب من عشرين شخصًا يجلسون لديه في الصالة. قابلني لمدة دقيقة وقال لي إنه سوف يأتي إلينا ما إن ينتهي من زوّاره، ووصف لي دواءً ما مهدئًا وأمر بإعطائي وسادة خاصة بها أوكسجين ليستنشق منها الطفل من حين إلى آخر.

عدت إلى المنزل فوجدت ابني المسكين على نفس حالته؛ كان فاقداً للوعي، يهتز جسده الصغير كلّ فترة من التشنج. ولكن، يبدو أنه لم يكن يتألم، لم يكن يئنُّ أو يصرخ. بقينا ملازمين لابننا الصغير المريض؛ وقد عيل صبرُنا في انتظار الطبيب، وأخيرًا في حوالي الثانية ظهرًا حضر الطبيب. فحص المريض وقال لي: «لا تبكي، لا تقلقي، سوف ينتهي كلّ ذلك سريعًا!» ذهب فيودور ميخايلوفيتش يودع الطبيب ليعود وقد كسا وجهه شحوبٌ رهيب، ركع على ركبتيه إلى الأريكة التي نقلناها لينام عليها الصبي، حتى نسهّل على الطبيب فحصه. وركعت بدوري على ركبتَيَّ إلى جانب زوجي. أردت أن أسأله ماذا قال له الطبيب لكنه أشار إليّ بالصمت (وقد علمت منه فيما بعد أن الطبيب أخبره أن سكرة الموت قد بدأت). مرت حوالي ساعة وبدأنا نلاحظ أن نوبات التشنج قد قلّت على نحو ملحوظ. كنت مسرورة بعد أن هدأ الطبيب من روعي؛ ظنًا مني أن اهتزازه الذي تحول إلى نوم هادئ،

^٤ جريجوري ألكسندروفيتش تشوشين (١٨٣٧-؟): طبيب أطفال في بطرسبورج، كان يعالج أطفال دستويفسكي.

^٥ بيوتر إيفانوفيتش أوسبينسكي (١٨٣٨-١٨٩٣م): طبيب أعصاب في بطرسبورج، كان يعالج ألكسي (ليوشا) الابن الأصغر لدستويفسكي.

ربما ينبئ بشفائه. وكم كان يأسى عندما توقف الصبي عن التنفس فجأة لتصعد روحه إلى بارئها! قبله فيودور ميخايلوفيتش ثم رسم عليه علامة الصليب ثلاث مرات، وراح في بكاء مريع. بكيت أنا أيضًا بحرقة وشاركنّا أطفالنا الذين كانوا يحبون ليوشا البكاء.

كانت وفاة ليوشا صدمة هائلة لفيودور ميخايلوفيتش. كان يحبه بشكل خاص، حبًا لا مثيل له، وكأنه كان يشعر سلفًا أنه سوف يفقده سريعًا. كان أكثر ما يؤلم فيودور ميخايلوفيتش أن الطفل قد لقي حتفه نتيجة نوبة صرع، وأنه هو الذي ورثه هذا المرض اللعين.^٦ اعتمادًا على ظاهر الأمور، فقد بدا فيودور ميخايلوفيتش هادئًا متمسكًا، شجاعًا في تحمله لضربة القدر التي نزلت بنا، ولكنني كنت أشعر بالخوف بشدة لأن كتماننا لحزنه العميق سوف ينعكس حتمًا عليه وعلى صحته المعتلة حتى قبل وقوع هذه المصيبة. وحتى أخفّ من وطأتها على فيودور ميخايلوفيتش ولو قليلًا وأصرّفه عن أفكاره الكئيبة، توسلت إلى فلاديمير سولوفيوف، الذي كان يزورنا في هذه الأيام العصيبة، أن يبذل قصارى جهده لإقناع فيودور ميخايلوفيتش للسفر معه إلى دير أوبتينا،^٧ الذي كان سولوفيوف يعتزم زيارته هذا الصيف. كانت زيارة دير أوبتينا حلمًا قديمًا طالما راود فيودور ميخايلوفيتش، ولكن كم كان من الصعب تحقيقه! وقد وعدني فلاديمير سيرجيفيتش (سولوفيوف) بأن يمد لي العون في هذا الأمر؛ ومن ثمّ راح يقنع فيودور ميخايلوفيتش بالذهاب إلى دير أوبتينا بصحبته. ازدادت إلحافًا في طلبي إلى أن تقرر سفر فيودور ميخايلوفيتش إلى موسكو في منتصف شهر يونيو (وكان قد عقد عزمه على السفر إلى هناك ليعرض على كاتكوف روايته القادمة)، وأن ينتهز الفرصة للذهاب مع فلاديمير سيرجيفيتش سولوفيوف إلى دير أوبتينا. لم أكن لأسمح لفيودور ميخايلوفيتش بالذهاب وحده إلى دير أوبتينا قاطعًا طريقًا طويلًا، والأهم أنه كان طريقًا شديد الوعورة والمشقة في ذلك الزمان، وعلى الرغم من أن سولوفيوف كان، في رأيي، «نسيج وحده»، حالمًا، مثاليًا،

^٦ حول حقيقة مرض ألكسي دستوفسكي (ليوشا) راجع ترجمتنا لمقال ب. مويسييفا «هل كان دستوفسكي مريضًا بالصرع؟» في كتاب «نماذج من النقد الروسي»، الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «آفاق عالمية»، عام ٢٠٠٥م، العدد ٤٥، ص ٣١-٥٨. (المترجم)

^٧ دير أوبتينا: دير للرجال يقع على بعد كيلومترين من مدينة كوزيلسك. تأسس في القرن الرابع عشر الميلادي على يد الأب أوبتوي (مكاري). بجواره خلوة (أسست عام ١٨٢١م)، زارها كل من جوجول ودستوفسكي وتولستوي. (المترجم)

لكن كان باستطاعته أن يحافظ على فيودور ميخايلوفيتش إذا ما تعرض لنوبة من نوبات الصرع.

كان لوفاة طفلنا الغالي أثره البالغ على حياتي، كنت مصدومة إلى حدٍّ أنني غرقت في حزني ودموعي، حتى بات الناس يتعرفون عليَّ بالكاد. اختفى حبي للحياة كما اختفت معه حيويتي وطاقتي، ليحل محلُّهما الخمول واللامبالاة تجاه كل شيء: أعمال البيت وحتى تجاه أطفالي، ولم يعدْ أمامي إلا أن أنكبَّ على كتابة مذكراتي عن السنوات الثلاث الأخيرة. وقد سجَّل فيودور ميخايلوفيتش العديد من شكوكي وأفكاري وحتى كلماتي بنصها في رواية «الإخوة كارامازوف» في الفصل المعنون «النساء المؤمنات»، حيث تحكي المرأة التي فقدت طفلها عن حزنها إلى الأب زوسيمًا.

كانت حالتي تعذب فيودور ميخايلوفيتش بشدة، كان يسعى لإقناعي ويرجوني أن أخضع لإرادة الله، وأن أستسلم لقضائه، وأقبل المصاب الذي أنعم به الله علينا، وأن أرحم أطفالنا، الذين أصبحت، في رأيه، لا مباليةً تجاههم. وقد أثمرت توسلاته ومواعظه؛ فرُحت أغالب نفسي حتى لا يزيد حزني الفائض من كدر زوجي المكلوم.

ما إن انتهينا من مراسم دفن أليوشا (وقد دفناه في جبَّانة بولشي أو ختينسكي)، حتى سافرنا إلى ستاريا روسا، وبعدها سافر فيودور ميخايلوفيتش في العشرين من يونيو إلى موسكو. وهناك سرعان ما نجح في الاتفاق مع هيئة تحرير «البشير الروسي» على نشر روايته الجديدة في العام ١٨٧٩ م.^٨ وبعد انتهائه من هذه المهمة اتخذ طريقه إلى دير أوبتينا، وقد وصف زوجي رحلته أو، إن شئنا الدقة، «مهاجته» بصحبة فلاديمير سولوفيوف في خطابه لي المؤرخ التاسع والعشرين من يونيو ١٨٧٨ م.^٩

^٨ المقصود هنا رواية الإخوة كارامازوف.

^٩ انظر: الخطابات، المجلد الرابع، ص ٢٩. في الفترة من ٢٣ إلى ٢٩ يونيو ١٨٧٨ م سافر دستويفسكي إلى دير أوبتينا بصحبة فلاديمير سولوفيوف. بخصوص هذه الرحلة انظر: مذكرات فلاديمير سولوفيوف، فلاديمير سولوفيوف، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، سان بطرسبورج، ١٩١٢ م، ص ١٩٧. وكذلك مقالة د. إ. ستاخيف «جماعات ووجوه»، البشير التاريخي، ١٩٠٧ م، العدد الأول، ص ٨٤-٨٨. دير أوبتينا هو دير قديم تم تأسيسه بناءً على نبوءة في القرن الرابع عشر، يقع على مقربة من مدينة كوزيلسك، بمحافظة كالوجا، وهذا الدير، إلى جانب أديرة أخرى، مثل دير ساروفسكايا (محافظة تامبوف) ودير جيلنسكايا (محافظة كورسك)، ودير بيلوبريجيفسكايا (محافظة أرلوف)، أنجب طرازًا خاصًا من الرهبان الآباء (الأب في الأرثوذكسية تعني قائد الضمير). كان آباء دير أوبتينا يمثلون دائمًا مركز جذب

عاد فيودور ميخايلوفيتش من الدير وقد غَشَّتْهُ الطمأنينة، وساد السلام روحه على نحو ملحوظ، وقد حكى لي الكثير عن عادات الدير حيث قضى به يومين. وهناك التقى ثلاث مرات بـ «بالأب» أمفروسي، الذي كان يحظى بشهرة واسعة آنذاك: مرة وسط زحام الناس، ومرتين على انفراد، وأجرى معه أحاديث خرج منها بانطباعات عميقة نفاذة. وعندما حدّثه فيودور ميخايلوفيتش عن المصائب التي حلت بنا وعن الحزن العاصف الذي ألمَّ بي، سأله الأب إن كنت أومن بالله، فلما أكد له فيودور ميخايلوفيتش أنني مؤمنة، طلب منه أن يبلغني تحياته وكذلك هذه الكلمات التي قالها الأب زوسيم^{١٠} إلى الأم المكلومة...^{١١}

لرجال الأدب والفن البارزين. وقد زار الدير: جوجول ودستوفسكي وتولستوي وأبوختين وجوكوفسكي وفلاديمير سولوفيفوف وألكسي تولستوي ومكسيم جوركي وب. ف. وإ. ف. كيرييفسكي ون. س. ليسكوف وتورجينيف وفورمانوف (انظر: د. ب. بوجدانوف «دير أوبتينا ومن حجَّ إليه من الكُتَّاب الروس»). البشير التاريخي، ١٩١٠م، العدد ١٠). ومن المثير للانتباه وجود كتب في مكتبة دستوفسكي الخاصة منها: «سيرة الأب ليونيد (الاسم قبل الانخراط في الرهبنة هو ليف) من دير أوبتينا» موسكو، ١٨٧٦م، وكتاب «الوصف التاريخي لكوزيليسكايا فيدينسكايا بدير أوبتينا»، الطبعة الثالثة، موسكو، ١٨٧٦م. وقد قص ستراخوف أيضًا على دستوفسكي بالتفصيل عن رحلته بصحبة ليف تولستوي إلى دير أوبتينا عام ١٨٧٧م.

^{١٠} في رواية «الإخوة كارامازوف». (المترجم)

^{١١} فقرة مفقودة في المخطوطة.*

* وفي «ملاحظات على مؤلفات ف. م. دستوفسكي» تستشهد آنَّا جريجوريفنا بكلمات زوسيم في «الإخوة كارامازوف»: «سأذكر يا أمه، سأذكر حزنك عند صلاتي، سأذكر أيضًا زوجك وأدعو له بالصحة». (دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، الجزء التاسع، ص ٦٦)، وتضيف قائلة: «نقل فيودور ميخايلوفيتش هذه الكلمات لي بعد عودته في عام ١٨٧٨م من دير أوبتينا؛ وقد تبادل هناك أطراف الحديث مع الأب أمفروسي، وحكى له عن حزننا وبكائنا على طفلنا الذي مات منذ زمن غير بعيد. وقد وعد الأب أمفروسي فيودور ميخايلوفيتش «أن يذكر أليوشا في صلاته» و«حزني عليه»، وأن «يدعو لنا ولأطفالنا بالصحة». وقد تأثر فيودور ميخايلوفيتش تأثرًا عميقًا بحديثه مع الأب ووعد أنه يصلي من أجلنا» (جروسمان، السمينارت، ص ٦٧). ويعتبر الأب أمفروسي إلى حد كبير هو النموذج الأصلي للأب زوسيم في رواية «الإخوة كارامازوف». ومن الأمور الشيقة المقارنة بين فصل «رائحة الجثة» في الفصل السابع من «الإخوة كارامازوف» وحديث الأب أمفروسي الذي سمعه دستوفسكي في دير أوبتينا، والذي كثيرًا ما راح أمفروسي يردده: «لقد استمتعت من الناس إلى كثير من المديح في حياتي، ولهذا سوف يفوح النتن من جسدي». وقد جرى إصلاح خلوة وقلابة الأب زوسيم في دير أوبتينا. وعن الأب أمفروسي، النموذج الأصلي

وقد تبين لي من أحاديث فيودور ميخايلوفيتش على أي نحو من الخبرة بالقلوب وحدة البصيرة كان هذا «الأب» الذي كان الجميع يَكُونون له الاحترام.

بعد عودتنا في الخريف إلى بطرسبورج قررنا ألا نقيم مرةً أخرى في هذه الشقة التي تمثل جنباتها بذكرياتنا عن ابننا الراحل، ومن ثم انتقلنا للسكنى في حارة كوزنيتشني، في المنزل رقم ٥ حيث قُدِّرَ لزوجي أن يُتوفى فيه بعد عامين ونصف العام.

كانت هذه الشقة مكونة من ست غرف ومخزن كبير للكتب، مدخل ومطبخ، وكانت تقع في الطابق الثاني. كانت هناك سبع نوافذ تطل على حارة كوزنيتشني، وكان مكتب زوجي موجوداً في المكان الذي تُعلّق فيه الآن لوحة من المرمر. يقع المدخل الأمامي (وقد تم إغلاقه الآن) أسفل حجرة الاستقبال (بجانب المكتب).

حاولنا كثيراً أنا وزوجي أن نستسلم لإرادة الله، وأن نقاوم الحنين وننسى أليوشا الحبيب، لكننا لم نستطع، وبقينا طوال الخريف، ومن بعده الشتاء، نكابد الذكريات الحزينة. كان لهذا الفقد أثره البالغ على زوجي الذي ازداد ولعه بأطفاله، فراح يعاملهم بحب أكثر وبقلق أشد.

كانت حياتنا تسير، ظاهرياً، على سابق عهدا: فيودور ميخايلوفيتش يعمل بجد في وضع خطة روايته الجديدة (كان وضع خطة للرواية يمثل دائماً الأمر الأهم والأصعب في أعماله الأدبية، فقد كان يعيد إعداد خطط رواياته أحياناً أكثر من مرة، مثلما حدث مع رواية «الشياطين» على سبيل المثال). كان العمل يسير بقدر كبير من النجاح، إلى حدّ أنه بحلول شهر ديسمبر من عام ١٨٧٨م كان قد تم إنجاز حوالي عشر ملازم من رواية «الإخوة كارامازوف»، وقد نشرت جميعاً في عدد يناير من مجلة «البشير الروسي» عام ١٨٧٩م؛ فضلاً عن الخطة التي وضعها فيودور ميخايلوفيتش.

في الرابع عشر من ديسمبر عام ١٨٧٨م شارك فيودور ميخايلوفيتش في الأمسية الأدبية الموسيقية التي أقيمت في قاعة الجمعية الخيرية لصالح فصول بيستوجيف.^{١٢}

لروسيم، انظر: مقالة ر. ف. بليتنيف «حكماء القلب (عن «الآباء» عند دستوفسكي)»، في كتاب: «عن دستوفسكي». مجموعة مقالات حررها أ. ل. بيم، الجزء الثاني، براج، ١٩٣٣م، ص ٧٣-٩٢.

^{١٢} مؤسسة تعليمية عليا قبل الثورة (الفصول النسوية العليا) كانت تقوم بإعداد الأطباء والمدرسين، كان على رأسها بيستوجيف، ريومين قنسطنطين نيكولايفيتش (١٨٢٠-١٨٩٧م)، أستاذ التاريخ ورئيس الجمعية الخيرية السلافية.

وقد قرأ «قصة نيللي» من رواية «مذلون مهانون». كان أكثر ما سلب لبَّ المستمعين في قراءة فيودور ميخايلوفيتش هو البساطة البالغة والإخلاص، وكأنه ليس هو الكاتب الذي يقرأ، وإنما هي الفتاة المراهقة، التي تحكي عن حياتها المريعة. كانت هذه القراءة البسيطة فناً حقيقياً، حتى إنها تركت مثل هذا الأثر الذي لا يُمحى لدى المستمعين. رحبت الدراسات ترحيباً حاراً بالمحاضر، وأذكر أن زوجي كان سعيداً لوجوده وسط هؤلاء الشباب المتحمسات اللائي عاملنّه بكل إخلاص. فيما بعد، وافق فيودور ميخايلوفيتش برضاً خاص على دعوته للقراءة لصالح الدراسات.^{١٣}

٣

العام ١٨٧٨م، التعارف بالأمراء العظام

عندما ظهر الإعلان عن توقف فيودور ميخايلوفيتش عن إصدار «مذكرة الكاتب»، وذلك في العدد قبل الأخير منها لأسباب مَرَضِيَّة،^{١٤} راح زوجي يتلقى من المشتركين والقراء خطاباتٍ تعبر عن تعاطف بعضهم معه في مرضه ويتمنون له الشفاء، وآخرون عبّروا عن أسفهم لتوقف المجلة، الأمر الذي كان يعبر بجلاءٍ عن كل ما يثير المجتمع آنذاك من قضايا! وهناك

^{١٣} انظر، على سبيل المثال، مذكرات: مساعدى الأطباء؛ أ. دوجانوفيتش عن كلمة دستوفسكي في الأمسية الأدبية التي أقيمت في مدرسة الأطباء المساعدين (مجلة «نابليوداتل» (المراقب)، ١٨٨٥م، أكتوبر، ص ٣٣٢-٣٣٤)؛ ي. أ. شتاكينشنايدر، عن كلمة دستوفسكي في الأمسية الأدبية التي أقيمت في الثانوية النسوية (ي. أ. شتاكينشنايدر، مذكرات ويوميات (١٨٥٤-١٨٨٦م)، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٤م، ص ٤٦٣-٤٦٤). زوجة الفسيولوجي إ. ب. بافلوف؛ س. ف. بافلوفا تذكر كلمة دوستوفسكي في الأمسية الأدبية التي أقيمت في الدورات التربوية في بطرسبورج عام ١٨٧٩م: «فجأةً سمعت صوتاً مدوياً، وعندما نظرت إلى المنصة شاهدت «النبى». لقد اكتسب وجه دستوفسكي ملامح جديدة. وكانت عيناه تبرقان بوميض أشعل قلوب الحضور، أما وجهه فراح يضيء بقوة الإلهام السامية إ... لم تكن الموسيقى والغناء في هذه الأمسية سوى افتتاح لهذا الخطاب النبوي الذي ألقاه دستوفسكي. كنت أؤكد طوال الوقت: «نعم، لقد أشعل قلوب الناس لخدمة الحق والحقيقة»» («العالم الجديد»، ١٩٤٦م، العدد ٣، ص ١١٦-١١٧).

^{١٤} لم يظهر الإعلان الموجه «إلى القارئ» عن موعد توقف «مذكرة الكاتب» في العدد قبل الأخير من المذكرة، أي عدد نوفمبر ١٨٧٧م، وإنما ظهر في عدد أكتوبر (انظر: دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٢٦٥). وقد توقف دستوفسكي عن إصدار «مذكرة الكاتب» مؤقتاً في ذروة انشغاله بالعمل في «الإخوة كارامازوف».

من عبّر عن أمله في أن يصدر فيودور ميخايلوفيتش «المذكرة» دون تحديد موعد ثابت، إن كان في إصدارها شهرياً عبء كبير على صحته، وأن يصدرها عندما تسمح ظروفه الصحية وقوته بذلك، حتى يمكن أن يتعرف، ولو من حين إلى آخر، على آرائه السيدة المخلصة بشأن الأحداث البارزة الجارية. كانت هذه الرسائل تصل بالمئات في مطلع العام، وكانت تترك أثراً طيباً على زوجي، كما أنها كانت تثبت لفيودور ميخايلوفيتش أن هناك العديد ممن يشاركون آراءه، وأن المجتمع يقدر وجهة نظره المحايدة، ويثقون به. وفي هذا الصدد فقد احتفظت بالخطاب الذي كتبه فيودور ميخايلوفيتش إلى صديقه ستيبان ديمترييفيتش يانوفسكي،^{١٥} الذي أورده فيما يلي:

«لن تصدّق إلى أي حد وجدت تعاطفاً من الشعب الروسي خلال هذين العامين المنصرمين من إصدار «المذكرة». لقد وصلتنني مئات الخطابات التي تثني عليها، بل والتي تعبر بصدق عن حبها لها. ومنذ شهر أكتوبر الماضي، عندما أعلنت عن توقف إصدارها، راحت هذه الخطابات تنهال عليّ شهرياً من كل أنحاء روسيا ومن كل طبقات المجتمع (على تباينها الشديد)، يعرب أصحابها عن أسفهم ويطلبون مني ألا أتخلّى عن القضية. إن ضميري فقط هو الذي يمنعني أن أصف إلى أي حد عبروا عن تعاطفهم معي، ولعلمت قدر ما تعلمته أنا نفسي في هذين العامين من إصدار «المذكرة» من خلال هذه الخطابات التي تلقيتها من الشعب الروسي، الذي هو بحق — من وجهة نظر صادقة وعادلة لإنسان روسي، لا من وجهة نظر مثقفي بطرسبورج المشوهة — أعظم بدرجة لا تقارن مما كنت أظنه عنه قبل عامين. وإنه لأكبر إلى حد أنني لم أستطع، في أكثر أبعد أحلامي وخيالاتي، أن أصل إلى هذه النتيجة. صدّقني، إن لدينا في روسيا الكثير من الأمور، ليست بهذا

^{١٥} تم التعارف بين دستوفسكي والطبيب ستيبان ديمترييفيتش يانوفسكي في عام ١٨٤٦م. وقد جمعت بينهما روابط الصداقة على الرغم من التباين النفسي بينهما. وقد ظل يانوفسكي طوال حياته محتفظاً بالمشاعر الودية الخالصة تجاه دستوفسكي.

وعن وصول دستوفسكي إلى تغير قادمًا من سيمبالاتينسك، كتب يانوفسكي قائلاً: «كان دستوفسكي أول من ذهب لزيارته من أصدقائي في هذه المدينة (...) لكي أراه وأعانقه فقط لمعزته لديّ». («العصر الحديث»، ١٨٨١م، ٢٤ فبراير (٨ مارس بالتقويم القديم)، العدد ١٧٩٣). ترك س. د. يانوفسكي «مذكرات عن دستوفسكي»، وقد نشرت في «البشير الروسي»، ١٨٨٥م، العدد ٤، ص ٧٩٦-٨١٩. وفي خطابه إلى دستوفسكي بخصوص موضوع «الزوج الأبدى»، كتب مايكوف يقول: «لقد تعرفت فيها على قصة يانوفسكي وشخصيته». (الخطابات، المجلد الثاني، ٤٧٦).

السوء الذي كنا نتصوره من قبل، إن الكثير من الناس يعبرون عن طموحهم الشديد لحياة جديدة عادلة، عن إيمانهم العميق بقرب حدوث تغير كبير في الطريقة التي يفكر بها مثقفونا، الذين تخلّوا عن الشعب، والذين لا يفهمونه على الإطلاق. أنت غاضب على كرايفسكي، ولكنه ليس وحده؛ إنهم ينكرون الشعب، سخروا، وما زالوا يسخرون، على حركته، وعلى هذا التجلي الواضح المضيء لإرادته وللشكل الذي صاغ من خلاله طموحه. وبذلك سوف يختفي هؤلاء السادة، سوف يَهْرَمون ويصمتون. إن الذين لا يفهمون الشعب عليهم الآن أن ينضموا إلى سماسرة البورصة واليهود، هذه نهاية ممثلي فكرنا «التقدمي». إن أمرًا جديدًا يجري داخل جيش شبابنا ونسائنا (أخواتنا) أمر مختلف تمامًا عما توقعه الجميع أو تنبأ به، ولسوف ننتظر.

«إن كرايفسكي يخدم المشاهير، وبالإضافة إلى ذلك فإنه، من وجهة نظري، يريد أن يبدو متميزًا بأصالته منذ الحرب الصربية. ولكن ما إن يقدم المرء تنازلًا واحدًا، حتى يستمر في ذلك دون أن يملك القدرة على التوقف. زد على ذلك أن لدينا هنا ردود أفعال قليلة في الصحف كلٌّ، باستثناء «حوليات موسكو» وسياسيّها التقدميين الذين يَلَقُّون تقديرًا كبيرًا في الخارج، أما الصحف الأخرى فإنها لا تفعل شيئًا سوى انتهاء الفرصة. في كل هذه المئات من الخطابات التي تلقيتها على مدى هذين العامين. كان الناس يمتدحونني لنزاهة أفكاري وصدقها، هذا يعني أن هذا ما يفتقدون إليه، وما يتعطشون إليه، ما لا يجدونه لدينا.»^{١٦}

^{١٦} من خطاب دستوفسكي إلى س. د. يانكوفسكي المؤرخ ١٧ ديسمبر ١٨٧٧م. الخطابات، المجلد الثالث، ٢٨٥. يمكن أن نلاحظ أن خطابات دستوفسكي، بدءًا من الستينيات، تتضمن آراء مليئة بالغضب والسخرية المريرة تجاه كرايفسكي وجريدة «الصوت». وقد ازدادت هذه النزعة حدّة في السبعينيات بشكل ملحوظ، اشتد الجدل مع الصحافة المحافظة، وبخاصة مع «الوقائع الموسكوفية» التي كان يصدرها م. ن. كاتكوف، وقد وجهت «الوقائع» في مقالاتها الهجائية، التي كانت تحمل عنوان «طرائف أدبية واجتماعية» (١٨٧٢-١٨٧٣م) و«الأدب والحياة»، وجهت نقدًا حادًا إلى مجلة «المواطن»، التي كان يصدرها ف. ب. ميشيرسكي، و«البشير الروسي» التي كان يصدرها م. ف. كاتكوف، وهما المجلتان اللتان كان يعمل بهما فيودور دستوفسكي بالمناسبة. كانت «الصوت» لكرايفسكي تهاجم تقديم المساعدة إلى الصّرب والجبل الأسود في صراعها العسكري مع تركيا في عام ١٨٧٦م؛ وذلك من مواقع ليبرالية، كما كانت تهاجم أيضًا مشاركة الشعب الروسي ذاته في الحرب التركية عامي ١٨٧٧-١٨٧٨م. وقد عبرت «الصوت» في مقالاتها عن وجهات نظر تتعارض بشدة وموقف دستوفسكي الذي يفسر سياسة روسيا بأنها تعود للمشاعر

في السادس من فبراير عام ١٨٧٨م تلقى فيودور ميخايلوفيتش الرسالة التالية من السكرتير الدائم للأكاديمية العلوم:

«إن أكاديمية العلوم الإمبراطورية إذ تُعرب عن احترامها لجهودكم الأدبية، فإنها قد اختارت سعادتكم ضمن أعضائها المراسلين في قسم اللغة الروسية وآدابها.» وقد جرى تدشين هذا الاختيار في اجتماع احتفالي جرت مراسمه في الأكاديمية في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧م.

كان فيودور ميخايلوفيتش سعيدًا بهذا الاختيار، على الرغم من أنه جاء متأخرًا بالنسبة له بعض الشيء (في العام الثالث والثلاثين من نشاطه) مقارنة بأقرانه في مجال الأدب.^{١٧}

أذكر هنا أن فيودور ميخايلوفيتش قد شارك في مطلع عام ١٨٧٨م في حفلات الغداء التي كانت تنظمها جمعية الأدباء كلَّ شهر في مختلف المطاعم: لدى بوريل^{١٨} أو في مطعم «مالويارسلافيتش» وغيرها. كانت الدعوات تُرسل مهورةً بتوقيع الكيميائي الشهير مندلييف.^{١٩} وفي هذه المآدب التقى أدباءً من شتى الأحزاب المتباينة بشدة، وفيها

الأخوية للشعب الروسي تجاه السلافيين. وكان دستوفسكي في خطابه إلى يانكوفسكي يعني تحديدًا الموقف المعادي «للصوت» تجاه اشتراك روسيا في الحرب على تركيا. ويعترف دستوفسكي أن مجلة «الصوت» الوقحة قد «أثارت حنقه» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٥). لمزيد من التفاصيل عن علاقة دستوفسكي بكرايفسكي وصحيفته «الصوت» انظر العمل المتميز الذي كتبه ف. ف. فينوجرادوف عن الكاتب الساخر من أ. أ. كرايفسكي وصحيفته «الصوت» («الأدب الروسي»، ١٩٦٩م، العدد ٣).

^{١٧} في الثاني من ديسمبر ١٨٧٧م تم اختيار دستوفسكي عضوًا مراسلًا في أكاديمية العلوم، فرع اللغة الروسية والأدب، وفي التاسع والعشرين من ديسمبر أغفلت الأكاديمية إعلان اختياره عضوًا مراسلًا بها في الاحتفال السنوي باهتمامها، وفي السادس من فبراير ١٨٧٨م أحاط ك. س. فيسيلوفسكي، السكرتير الدائم للأكاديمية دستوفسكي علمًا بالخطاب الرسمي الملحق بشهادة الشرف والمكتوبة باللغة اللاتينية (وقد نشر ب. ل. مودزليفسكي النص اللاتيني للشهادة في مقالته: «دستوفسكي، العضو المراسل للأكاديمية العلوم». «دستوفسكي»، صحيفة جمعية علم المكتبات الروسية، براج، ١٩٢١م، ١٢ نوفمبر). كان دستوفسكي قد حصل على هذا اللقب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد حصول عدد من الكتّاب الروس عليه. وقد سبقه إليه كلُّ من ليف تولستوي، تورجينيف، جونتشاروف، أستروفسكي، ألكسي تولستوي، أبولون مايكوف، تيوتشيف، ك. أكساكوف، خومياكوف.

^{١٨} بوريل: صاحب مطعم في بطرسبورج.

^{١٩} ديمتري إيفانوفيتش مندلييف (١٨٣٤-١٩٠٧م): عالم كيمياء، صاحب الجدول الدوري المعروف باسمه. التقى بدستوفسكي عدة مرات وألقى كلمةً بليغة يوم وفاته.

كان فيودور ميخايلوفيتش يلتقي بأشد أعدائه من الأدباء لدادة. وعلى مدى شتاء عام ١٨٧٨م، تردد فيودور ميخايلوفيتش مرات أربع لحضور مآدب الغداء هذه، وكان يعود منها في كل مرة مضطربًا مثارًا، فيحكى لي على نحو شيق عن لقاءاته المفاجئة وعمن تعرف عليهم فيها.

وفي مطلع عام ١٨٧٨م وقع حادث سارٌّ كان له تأثيره الطيب على فيودور ميخايلوفيتش؛ زاره ديمتري سيرجيفيتش أرسينيف،^{٢٠} مربى الأميرين العظيمين سيرجي وبافل ألكسندروفيتش. وقد أعرب أرسينيف عن رغبته في أن يتعرف تلميذاه على الكاتب الشهير الذي أثارت رواياته إعجابهما، وأردف أرسينيف قائلًا إنه حضر إلى هنا ممثلاً للقيصر،^{٢١} الذي يود لو أن فيودور ميخايلوفيتش سعى من خلال أحاديثه أن يترك أثرًا طيبًا على الأميرين الشابين العظيمين.^{٢٢}

آنذاك كان فيودور ميخايلوفيتش مستغرقًا في وضع خطة رواية «الإخوة كارامازوف»، وكان انقطاعه عن هذه الرواية أمرًا بالغ الصعوبة، لكن رغبة القيصر المحرر كانت، بطبيعة الحال، قانونًا بالنسبة إليه. كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالرضا كونه يدرك أن لديه إمكانية أن يحقق ولو جزءًا يسيرًا من رغبة شخصية كان يَكُنُّ لها دائمًا تقديرًا كبيرًا لما قامت به من عمل عظيم تمثل في تحرير الفلاحين من القنانة، ولتحقيقه الحلم الذي كان عزيزًا عليه في شبابه والذي عانى من أجله بشدة في هذا الزمن.

وفي الخامس عشر من مارس تلقى فيودور ميخايلوفيتش الخطاب التالي من ديمتري أرسينيف:

«مضى زمن طويل منذ ذلك اليوم الذي تعارفنا فيه، وبعد أن تبادلت معكم الحديث ازدادت اقتناعًا أن من الأفضل أن أعد لتعارف الأميرين العظيمين بكم، بحيث لا يبدو الأمر متفقدًا عليه بناءً على نصيحة الأسرة أو بطلب من المربي، وإنما ليأتي نابغًا من رغبتهما الشخصية. وهكذا، وبإيحاء من هذه الرغبة

^{٢٠} ديمتري أرسينيف (١٨٣٢-١٩١٥م) أدميرال. مربى الأميرين العظيمين، شغل، منذ عام ١٨٨٢م، منصب مدير المدرسة البحرية في بطرسبورج.

^{٢١} القيصر ألكسندر الثالث (١٨٤٥-١٨٩٤م).

^{٢٢} قدم ل. ب. جروسمان عرضًا لتاريخ العلاقة بين د. س. أرسينيف ودستوفسكي في مقالته «دستوفسكي والدوائر الحكومية في السبعينيات». «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، ص ٨٣-١٦٢.

بواسطة (كما يبدو) أحاديثَ عابرة مضي عليها زمن طويل أثناء عيد الصوم الكبير والأسبوع الأول من الصيام. كنت أخشى أن يأتي اللقاء الأول معكم أقل قوةً بتأثير ترتيبات أخرى، ولهذا السبب أتيت إليكم برجاء الوفاء بوعدهم.^{٢٣}

كان للقاء الأميرين العظميين أثر طيبٌ للغاية على فيودور ميخايلوفيتش، وجد لديهما قلباً طيباً وعقلاً راجحاً، وقدرةً على التنازل عن آرائهما التي أحياناً ما تبدو ما تزال مفتقدةً إلى الخبرة؛ فضلاً عن تعاملهما باحترام تجاه آراء الطرف الآخر المخالفة. وكان من الواضح أن تعارف الأميرين العظميين بفيودور ميخايلوفيتش قد ترك أثراً رائعاً عليهما، فراحا يكرران دعوتهما له. وذات يوم مر علينا أرسينيف، ولما لم يجد زوجي بالبيت ترك له الخطاب التالي (٢٣ أبريل ١٨٧٨م):

«... أرجو زيارتي في حدود الخامسة والنصف، إذا لم يكن في هذا الأمر مشقة عليكم، وسيكون ذلك فضلاً عظيماً من جانبكم، إذ إن لديّ رغبةً في التحدث إليكم على انفراد قبيلَ لقائكم بالأميرين العظميين. أود أن أطلب منكم أن تتطرقوا إلى الحديث عن هذا الدور الذي يمكنهما القيام به في الظرف الاجتماعي الراهن، وعن كيف يمكننا الوصول إلى ذلك على نحو طبيعي للغاية، إنني متشوق للحديث معكم.»^{٢٤}

استمرت علاقة الأميرين العظميين بفيودور ميخايلوفيتش حتى وفاته. وعندما ذهب سموهما إلى الخارج في عام ١٨٨١م، أرسلنا إليّ برقية تتضمن خالص عزائهما لي في مصابي الجلل.

تسنّى لفيودور ميخايلوفيتش أن يلتقي، في أثناء زيارته للأميرين العظميين، بالأمير قنستنتين قنستنتينوفيتش،^{٢٥} وكان في ذلك الوقت شاباً مخلصاً سليم الطوية، أدهش زوجي بحماسة الشديد تجاه كل شيء جميل ورائع في أدبنا الوطني. وقد استشرّف

^{٢٣} يفقد هذا الاستشهاد من خطاب أرسينيف إلى دستوفسكي، والمؤرخ ١٥ مارس ١٨٧٨م، إلى بعض الدقة. وقد نُشر الخطاب كاملاً في «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، ص ١٥٦-١٥٩.

^{٢٤} نُشر هذا الخطاب كاملاً في «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، ص ١٦٠.

^{٢٥} قنستنتين قنستنتينوفيتش (١٨٥٨-١٩١٥م): رئيس أكاديمية العلوم، عازف بيانو، ناقد وشاعر.

فيودور ميخايلوفيتش في هذا الأمير الشاب موهبة شعرية حقيقية، وعبر عن أسفه لأن الأمير العظيم اختار البحرية مستقبلاً له سيراً على نهج أبيه،^{٢٦} بينما كان من الضروري، في رأي زوجي، أن يظهر نشاطه في مجال الأدب؛ وقد تحققت نبوءته فيما بعدُ على نحو رائع.^{٢٧} انعقدت عُرى الصداقة بين زوجي وبين الأمير العظيم الشاب، على الرغم من فارق السن بينهما، وكان كثيراً ما يدعو زوجي إليه ليتبادلا أطراف الحديث على انفراد، أو يدعو صحبة مختارة ويطلب منه أن يقرأ عليهم ما يروق له من مقاطع من روايته الجديدة. وهكذا تسنى لزوجي مرتين أو ثلاثاً أن يقرأ من أعماله في حضور زوجة ولي العهد، سمو الأميرة العظيمة ماريا فيودوروفنا،^{٢٨} وكذلك ماريا ماكسيميليانوفا بادنسكايا^{٢٩} وغيرهن من شخصيات الأسرة المالكة. وما زلت أحتفظ بعدد من الخطابات التي تفيض مودةً أرسلها الأمير العظيم إلى زوجي،^{٣٠} وعندما توفي زوجي لم يكتفِ سموه بإرساله برقية عزاء، وإنما أرسل إليّ أيضاً خطاباً. ومن بين العديد من خطابات العزاء التي تلقيتها في عام ١٨٨١م كان لخطاب سموه أثر عميق في نفسي، وكنت مقتنعة تماماً أنه قد حزن حزناً شديداً لوفاة فيودور ميخايلوفيتش.

لا يمكنني أن أحرَم نفسي من متعة الإفصاح عن هذا الخطاب الذي ورد إليّ من هذا الإنسان الرائع الذي اختطفه الموت مبكراً:

«الفرقاطة الدوق إينبورجسكي» ١٤ (١٦) فبراير ١٨٨١م.

المحترمة أنا جريجوريفنا

لقد تكبدتم خسارة فادحة لا تعوض، ولكنكم لست وحدكم من تكبدها، فروسيا بأسرها تشعر بالحزن العميق تجاه خسارتها رجلاً عظيماً ضحى بعمره كله من أجلها. إن الله الرحيم، وقد حمّلك عبء هذا المصاب الجلل، لَسوف ينعم

^{٢٦} كان الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش ابناً لقنسطنطين نيكولايفيتش، وزير البحرية في الخمسينيات.

^{٢٧} نال الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش بعد ذلك شهرة واسعة باعتباره شاعراً موهوباً، وكان يوقّع على أشعاره بالحرفين ق. ر.

^{٢٨} ماريا فيودوروفنا (١٨٤٧-١٩٢٨م): الإمبراطورة، زوجة ألكسندر الثالث.

^{٢٩} ماريا ماكسيميليانوفا بادنسكايا (١٨٤١-١٩١٤م): زوجة الأمير فيلجليم بادنسكي.

^{٣٠} الخطابات الموجهة إلى دستوفسكي منشورة في «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، ص ١٦٠-١٦٢.

عليك في ذات الوقت بالصبر الجميل؛ لسوف يشارككم هذا الحزنَ كلُّ مواطنينا الذين عرّفوا فيودور ميخايلوفيتش عن قرب أو لم يعرفوه.

لقد منعني السفر بحرًا إلى بلاد بعيدة أن أعرف بالمصيبة التي حلت بوطننا في حينها. وقد وقع عليّ هذا النبأ الحزين، الذي عرفته بالأمس فقط، وقَعَ الصاعقة. وعلى الرغم من أن الفرصة لم تتح لي حتى الآن للتعرف عليكم، فإنني لا أملك في هذه الظروف العصبية إلا أن أعبر لكم عن رغبتني التي لا تقاوم في وصف حزني العميق ومشارككم أحزانكم. ولما كنت محبًا مخلصًا لزوجكم خالد الذكر، فإنني لا أملك إلا أن أعرب لكم عن عزائي في هذه المصيبة التي أشعر بها الآن، والتي لا يمكن لكلماتي أن تصفها. اغفري رفعَ الكلفة وأن أخاطبكم في هذه المحنة، التي لا يستطيع أي شيء على وجه الأرض أن يبدّد فيها روعك. ثقي في مشاعري المخلصة.

المخلص قنسطنطين

عندما عاد الأمير العظيم لحضور مراسم دفن الإمبراطور ألكسندر الثاني، أبلغني، بواسطة الأميرة أ. ي. كوماروفسكايا،^{٣١} عن رغبته أن يلتقي بي. وصلت إلى الأميرة بدعوة منها في المساء، وقضيت بضع ساعات أتبادل الحديث مع الأمير العظيم. وما زلت أذكر بشعور الامتنان الخالص ما حدثني به عن زوجي خالد الذكر وعن تأثيره الطيب الذي تركه الراحل عليه. وقد تمنى الأمير العظيم رؤية أطفالي، الذين تحدث عنهم زوجي بفرح بالغ. وقبيل رحيله إلى البحر، دعاني الأمير العظيم أنا وأطفالي يوم خميس العهد، حيث راح الأطفال «يلونون البيض» ويتلقون منه الهدايا. بعد ذلك زارني الأمير العظيم في أسبوع الآلام وقَدَّم لي أنا والطفلين صورة له (وهو بالزي البحري) وعليها إهداء ودي.^{٣٢}

فيما بعد، وعندما تأسست في ستاريا روسا مدرسة تحمل اسم فيودور ميخايلوفيتش، انضم الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش للشخصيات التي أرادت لهذه المدرسة

^{٣١} أنا يجوروفنا كوماروفسكايا، أميرة (١٨٣٢-٩): وصيفة في بلاط ألكسندر الثاني.

^{٣٢} نشرت هذه الصورة في «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، ص ٩٧، وهي الآن محفوظة في بيت بوشكين (معهد الأدب الروسي، المترجم).

النمو والإزهار بمساهمة مالية سنوية بلغ مقدارها خمسمائة روبل، قبلتها المدرسة بامتنان عميق.

٤

العام ١٨٧٨م، وصول معجبة

ذات يوم من أيام الربيع الأولى لعام ١٨٧٨م كانت أُسرتنا جميعًا تجلس إلى مائدة الغداء في سلام. كان فيودور ميخايلوفيتش يتمتع في هذا اليوم بمزاج حسن، وقد استعاد نشاطه وحيويته، بعد جولة خلوية طويلة، وقد راح يتبادل أطراف الحديث مع الطفلين. فجأة دوى صليل الجرس بقوة، هُرعَت الخادمة لتفتح الباب. وإذا بنا نسمع عبر الباب المفتوح جزئيًا عند المدخل صوتًا نسائيًا عاليًا يصرخ قائلاً: هل ما يزال حيًّا؟ لم تفهم الفتاة السؤال فالتزمت الصمت.

— أنا أسأل هل ما يزال فيودور ميخايلوفيتش على قيد الحياة؟

— كلهم أحياء. أجابت الفتاة على عجل.

أردت أن أذهب لأستوضح الأمر، لكن فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان جالسًا بالقرب من الباب، سبقني مندفعًا بسرعة نحو المدخل.

قفزت عن الكرسي امرأةً متوسطة العمر مهرولة وقد مرت يديها نحوه صائحة: ما زلت حيًّا، فيودور ميخايلوفيتش؟ كم أنا مسرورة أنك حي!

— ما الذي بك يا سيدتي؟ صاح بدوره وقد أخذته الدهشة. أنا حي أرزق وعازم على أن أعيش طويلًا!

— لقد انتشرت الشائعات عندنا في خاركوف — أجابت المرأة باضطراب — أن زوجتك قد هجرتك وأنت رقدت طريح الفراش بسبب خيانتها، دون أن تجد من يمد لك يد العون، وعلى الفور سافرت حتى أقوم على رعايتك. إنني قادمة إليك مباشرة من القطار.

خرجت إلى المدخل أنا أيضًا بعد أن سمعت الضجة والصياح لأجد فيودور ميخايلوفيتش في حالة من الغضب الشديد: هل سمعت يا أنيا؟ التفت مخاطبًا إياي، بعض السفلة نشروا شائعات تقول إنك هجرتني، كيف يبدو لك الأمر؟! كيف يبدو لك الأمر؟!

— اهدأ يا عزيزي، لا تقلق — قلت له — لا شك أن هناك سوء فهم ما. اذهب من فضلك، الهواء هنا شديد عند المدخل. وبهدوء شديد دفعت فيودور ميخايلوفيتش باتجاه

غرفة الطعام. استجاب لي؛ وبعد أن خرج استمعت إلى صياحه الغاضب آتياً من غرفة الطعام.

رحت أتحدث مع المرأة الغربية وقد تبين أنها مُدرسة، طيبة للغاية، ولكن لا يعني هذا بالضرورة أنها تتمتع بالذكاء على نحو خاص. يبدو أنها قد وقعت تحت إغراء فكرة رعاية كاتب شهير هجرته زوجته السافلة، وأنها، من الجائز، يمكن أن تنقله إلى عالم أفضل، ثم تفخر بعد ذلك طوال حياتها أنه مات على يديها. كنت أشعر بالأسف الشديد لهذه المرأة المجهولة، التي كانت، بداهة، في حالة شديدة من الاضطراب. استأذنتها وذهبت لدقيقة إلى غرفة الطعام، وقلت لزوجي إنني أريد أن أقدم لها بعض الطعام.

هز فيودور ميخايلوفيتش يديه وقال بصوت خفيض: «نعم، نادي عليها، ولكن انتظري برهةً لأذهب بعيداً أولاً!» غادر مقعده وتوجه إلى غرفته.

عدت إلى المرأة المجهولة وعرضت عليها أن تستريح وتتناول طعام الغداء، لكنها كانت، كما يبدو، غاضبة من استقبال زوجي لها، وطلبت أن تقوم الخادمة بتوصيل سَلَّتْها الكبيرة، التي أحضرها لها البواب بعد وصولها، إلى الحوذي. لم ألحَّ عليها في العرض ولكنني استفسرت منها عن مكان إقامتها وعن اسمها كاملاً.

عندما عدت إلى زوجي وجدته على حال كبيرة من العصبية.

— فقط، فكري — قال زوجي وقد اشتد اضطرابه وراح يذرع الغرفة — أي حقارة يخترعونها! أنتِ هجرتني! يا لها من افتراءات وقحة! من هذا العدو الذي يروج هذه التلفيقات؟

كان أكثر ما يثير قلق زوجي في هذا الحادث هو فكرة أن باستطاعة أحد أن يلفق لي الشائعات. عندما رأيت أن حادثاً ليست له، نسيباً، كلُّ هذه الأهمية، قد أثار قلق زوجي إلى هذا الحد، اقترحت عليه أن يكتب إلى صديقه القديم، البروفيسور ن. ن. بيكيتوف،^{٣٤،٣٣} وأن يستفسر منه عن الشائعات التي تدور حولنا هناك. أخذ زوجي بنصيحتي، وفي المساء كتب خطاباً إلى بيكيتوف،^{٣٥} وقد هدأ هذا من قلقه بعض الشيء. وفي اليوم التالي طلب مني أن أدعو المرأة المجهولة للحضور إلينا، لكنني لم أجدها؛ فقد سافرت في الصباح عائدةً إلى خاركوف.

^{٣٣} تعرّف دستوفسكي على نيكولاي نيكولايفيتش بيكيتوف وتوطدت بينهما أواصر الصداقة في عام ١٨٤٦م (وكان شقيقه ألكسي نيكولايفيتش، رفيقه في معهد الهندسة وراء تعرّفهما). ويعترف دستوفسكي (الذي كان يشعر بالحزن من جراء انفصاله عن «المعاصر») بقوله إن معرفته بالأخوين

العام ١٨٧٩م

مر الشهران الأولان من العام الجديد في هدوء تام، كان فيودور ميخايلوفيتش يعمل في دأب من أجل إنجاز روايته الجديدة، وكان العمل فيها يسير هيناً. وفي مطلع شهر مارس شارك زوجي في عدد من الأمسيات الأدبية. على سبيل المثال، ألقى في التاسع من مارس محاضرة لصالح الصندوق الأدبي في قاعة الجمعية، وقد شارك في هذه الأمسية أفضل كُتّابنا: تورجينييف، سالتيكوف،^{٣٦} بوتخين^{٣٧} وغيرهم. وكان فيودور ميخايلوفيتش قد اختار «قصة سرية» موضوعاً لمحاضرته، وهي من رواية (الإخوة كارامازوف)، قرأها على نحو رائع واستقبلها الجمهور بتصفيق مدوّ.^{٣٨} كان للنجاح الكبير الذي حققته هذه

بيكيتوف «قد ارتقت به خلقياً وبدنياً». (الخطابات، المجلد الأول، ص ١٠٣). ولمزيد من التفاصيل حول صداقة دستوفسكي بالأخوين بيكيتوف في الأربعينيات، انظر: «المذكرات الأدبية» التي كتبها د. ف. جريجوروفيتش (موسكو، ١٩٦١م، ص ٩٠-٩٣) ومقالة ف. كوماروفيتش «شباب دستوفسكي» («الماضي»، ١٩٢٤م، العدد ٢٣).

^{٣٤} نيكولاي نيكولايفيتش بيكيتوف (١٨٢٧-١٩١١م): أكاديمي، أستاذ الكيمياء في جامعتي خاركوف وبطرسبورج. شخصية اجتماعية بارزة، صديق شباب دستوفسكي.

^{٣٥} لم يتم العثور على هذا الخطاب الذي أرسله دستوفسكي إلى ن. ن. بيكيتوف. أما الرد الذي أرسله ن. ن. بيكيتوف في الثامن عشر من أغسطس ١٨٧٨م، فهو محفوظ في مكتبة لينين. يستنتج أ. س. دولينين، استناداً إلى رد بيكيتوف، الذي يتضمن معلومات عن أ. ل. أوجيجينا، أن أنا جريجوريفنا دستوفسكايا كانت تتحدث في الفصل المعلن «وصول مُعجبة» من مذكراتها عن ل. أ. أوجيجينا، وهي روائية نشرت رواية بعنوان «طريقي. من يوميات فتاة معاصرة» في «حوليات الوطن» (١٨٦٩م، الأعداد ٣، ٥-٧) (انظر: الخطابات، المجلد الرابع، ص ٣٤٤).

^{٣٦} سالتيكوف شيدرين ميخائيل يفغرافوفيتش (١٨٢٦-١٨٨٩م): كاتب ساخر له عدد من الروايات. عمل محرراً بمجلة «حوليات الوطن».

^{٣٧} ألكسي أنتيبوفيتش بوتخين (١٨٢٩-١٩٠٨م): أديب وكاتب مسرحي.

^{٣٨} «حديث في الخفاء» هو «اعترافات قلب حار. شعراً» الفصل الثالث من الجزء الأول من «الإخوة كارامازوف». تذكر ف. ف. تيموفيفا (أ. بوتشينكوفسكايا) خطاب دستوفسكي في الأمسية التي جرت في التاسع من مارس ١٨٧٩م بقولها: «كان يقرأ فصلاً من «الإخوة كارامازوف» هو «حديث في الخفاء»، لكنه كان بالنسبة إلى الكثيرين، وأنا من بينهم، بمثابة نبوءة لكل ما سيحدث ... استمعت على صوت هذه

الأمسية الأدبية أثره في اتخاذ قرار بإعادتها في السادس عشر من نفس الشهر بمشاركة نفس الكتّاب تقريباً (باستثناء سالتيكوف). عقب انتهائه من القراءة، في السادس عشر من مارس، قُدِّمت له باقة من الزهور نيابة عن طالبات الفصول النسائية العليا.^{٢٩} وقد زين الشريط على الطريقة الروسية وعليه إهداء مؤثر للمحاضر. في أحد أيام العشر الثانية من مارس وقع لزوجي حادث مؤسف كان من الممكن أن تكون له عواقب وخيمة. فعندما كان فيودور ميخايلوفيتش يقوم بجولته المعتادة في شارع نيكولايفسكايا قبيل الغداء، إذا بسكّير يدفعه من قفاه بقوة لدرجة أن زوجي وقع على الرصيف فجرح رأسه. سرعان ما تجمع المارّة وظهر الشرطي ليقنّاد السكير إلى قسم الشرطة، وقد دعوا زوجي أيضاً للذهاب إلى هناك. وفي القسم طلب زوجي من ضابط الشرطة إطلاق سراح الرجل الذي آذاه لأنه «يعفو عنه». ولكن وحيث إن الصحف ستظهر في الغد وهي تتحدث عن

القراءة إلى عبارتين، كانتا كافيتين لتفسّرا لي وللجميع ما كان يعتمل في نفس دستوفسكي وفي نفوسنا جميعاً. وقد خُيل لي أن الحضور في الصالة لم يفهموا في البداية ما كان يقرّؤه عليهم، فراحوا يتهايمسون فيما بينهم: مهووس! ... مجذوب! ... غريب الأطوار ...

على أن صوت دستوفسكي المتهدج، شديد الانفعال، غطى على كل هذا الهمس.

ليكن غريباً! ليكن حتى ولياً من أولياء الله! ولكن الأهم ألا تموت الفكرة العظيمة!

كان هذا الصوت الحماسي النفاذ يهز أعماق قلوبنا ... لم أكن وحدي التي شعرت بالاضطراب، وإنما شعر به كل من كان بالقاعة. أذكر كيف راح أحد الشباب الجالسين بالقرب مني يرتجف وهو يتنهد، كان وجهه يحمّر ثم يكسوه الشحوب، ينتفض رأسه تشنجاً، يغلق أصابعه كما لو كان يتحكم فيها بصعوبة نتيجة للتصفيق اللاإرادي ... كان الجميع يصفقون وقد استولى عليهم الاضطراب، كان هذا التصفيق المفاجئ يقطع القراءة في وقت غير مناسب، كما لو كان يوقظ دستوفسكي، فيهتز جسده ثم يتوقف عن الحركة في مكانه برهة، بينما يستمر التصفيق أكثر حدة. هنا يستوي دستوفسكي واقفاً وكأنه يستيقظ بصعوبة من حلم لذيذ، ينحني احتراماً للحضور، ثم يعود للجلوس مرة أخرى ليستكمل القراءة» (دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزء الثاني، ص ١٨٢-١٨٣).

^{٢٩} لمزيد من التفاصيل عن خطاب دستوفسكي في الأمسية التي أقيمت في السادس عشر من مارس ١٨٧٩م، انظر: مذكرات المثلة م. ج. سافينا في كتاب «تورجينييف وسافينا»، تقديم وتحرير أ. ف. كوني، براج، ١٩١٨م، ص ٦٨-٦٩، وكذلك مذكرات د. ن. سادوفينكوف في مجلة «الماضي الروسي»، ١٩٢٣م، العدد الأول، ص ٧٥-٧٦. وقد حملت م. ف. كامينيتسكايا، ابنة أ. ب. فيلوسوفوفا باقة من الزهور قدّمتها إلى دستوفسكي.

«الهجوم»، وستحمل بالطبع اسم الأديب الذي تعرض للإيذاء، فإن المحضر الذي أعدته الشرطة تقرر فيه عرض القضية على محكمة الدائرة الثالثة عشرة التي يرأسها قاضي الصلح السيد تروفيموف، بعد حوالي ثلاثة أسابيع تم استدعاء فيودور ميخايلوفيتش إلى المحكمة. وقد تبين من التحقيقات أن المدعى عليه فلاح يُدعى فيودور أندرييف، وقد اعترف أنه «شرب بشراهة ولكنه اصطدم صدامًا خفيفًا مع «السيد» الذي تعثرت قدماه فسقط.»^{٤٠} أعلن فيودور ميخايلوفيتش للمحكمة أنه يعفو عن آذاه، وطلب ألا يعاقبوه. وهؤلاء الطالبات رُحْن ينادينني باسمي بنبرة ملؤها المودة. لحسن الحظ لم يكن بحاجة للنداء طويلاً، إذ اقتربت من زوجي على الفور.

حلَّ موسم الربيع، وبدأنا كعادتنا في الإسراع بالسفر إلى ستاريا روسا، وبخاصة أن البروفيسور كوشلاكوف كان قد أوصى فيودور ميخايلوفيتش بالذهاب إلى إمس، بينما كان زوجي يرغب في السفر مع الأسرة إلى الداتشا، وأن يواصل عمله بحرية، إذا ما أُتيح له ذلك.

لسوء حظنا كان الربيع باردًا وممطرًا، ومن ثم لم يجد زوجي فرصة للتعافي في الداتشا؛ بل إن وزنه قد تراجع إلى حدٍّ أثار قلقنا بشدة.

ولذلك فقد سعدنا ببدء حلول فصل الصيف، وقد حضرت إلى روسا في الموسم أ. ف. جاكلر كورفين بصحبة عائلتها. وكنا نحبها، أنا وزوجي، للغاية. كان فيودور ميخايلوفيتش يحرص على المرور يوميًا تقريبًا بعد عودته من جولته، ليتناقش معها باعتبارها امرأة ذكية طيبة القلب، تشغل مكانة مهمة في حياته.

في النصف الثاني من شهر يوليو (الثامن عشر)، سافر فيودور ميخايلوفيتش للخارج، ليصل إلى إمس في الرابع والعشرين من نفس الشهر. وقد أقام في الشقة التي أقمنا فيها من قبل في Ville d'Alger، ومنها توجه إلى طبيبه الخاص السيد أورت. وعلى الرغم من مرور ثلاث سنوات، وقد استجاب قاضي الصلح لطلبه، لكنه أصدر حكمه بأن يدفع الفلاح أندرييف غرامة مالية قدرها ستة عشر روبلاً بدلاً من حبسه أربعة أيام. وقد

^{٤٠} صحيفة «جولوس» («الصوت»)، العدد ١٠٢، ١٤ أبريل ١٨١٩م (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

انتظر زوجي من أساء إليه عند باب المحكمة وأعطاه ستة عشر روبلاً ليسدد بها الغرامة المقررة.^{٤١}

إبان عيد الفصح (٣ أبريل) أقيم في مدينة سوليانك حفلٌ للقراءة الأدبية لصالح جمعية فريبيليفسكي،^{٤٢} قرأ فيه دستوفسكي مقاطعٍ من «طفل عند شجرة عيد الميلاد»، ولما كان الحفل مخصصاً للأطفال فقد حرص زوجي أن يصطحب معه أطفالنا؛ حتى يتمكنوا من سماع والدهم وهو يقرأ في حفل عام، ويرون كيف يستقبله الناس بحبة كبيرة، تميز الاهتمام هذه المرة باهتمام فائق، فأحضرت مجموعة من الصغار باقة من الزهور قدموها للقارئ، استمر فيودور ميخايلوفيتش موجوداً حتى نهاية العيد مع أطفالنا، متجولاً معهم في القاعات متأملاً إياهم وهو يلعبون، سعيداً مبتهجاً بالعروض التمثيلية التي لا نظير لها.

في عيد الفصح قرأ فيودور ميخايلوفيتش محاضرة في مبنى ثانوية ألكسندروفسكايا النسوية لصالح فصول بيستوجيف. واختار مشهداً من «الجريمة والعقاب»، وقد ترك تأثيراً كبيراً بقراءته. وقد راحت الطالبات يصفقن بحرارة له؛ فضلاً عن أنهن أحطن به

^{٤١} حضر هذا الاجتماع الحاسم د. د. مينايف، وقد قام بعد انتهاء الاجتماع، الذي حضره دستوفسكي، بقراءة مقطع شعري فكاخي على تروفيوموف، جاء فيه:

إذا كان دستوفسكي نفسه
ينتظر حكمك العادل،
فأنت، بلا شك،
أكثر القضاة حظاً
في عاصمة النيفا.

(البشير التاريخي، ١٩٠٩م، العدد ٩، ص ٩٢٥)

عن هذه الفترة من حياة دستوفسكي، انظر أيضاً: مذكرات ن. ريبين «دستوفسكي والصعلوك». «صحيفة بطرسبورج»، ١٩٠٣م، ٤ ديسمبر، العدد ٣٣٣.

^{٤٢} أنشئت جمعية فريبيل في روسيا على يد أتباع المعلم التربوي الألماني الشهير فريدريخ فريبول. وقد استعان دستوفسكي أثناء عمله في رواية «الإخوة كارامازوف» بأفضل المراجع التربوية النموذجية، بما فيها أعمال فريبول. وقد ورد في مسودات الرواية إشارة «عن بيستالوتسي، عن فريبول. مقالة ليف تولستوي عن التعليم المدرسي المعاصر ... (ف. م. دستوفسكي، مواد وأبحاث، تحرير أ. س. دولينين، ليننجراد، ١٩٣٥م، ص ٨٢).

في الاستراحة، ورحن يتناقشن معه حول شتى الموضوعات التي تُهمهن، وعندما انتهت الأمسية وقرر الذهاب، أحاط به جمهور يبلغ عدده مائتين، وربما أكثر، اندفع وراءه على الدرج وحتى مدخل البناية، حيث تنافس الجميع في مساعدته على ارتداء معطفه، وحاولت أن أكون قريبة من زوجي لكن الجمهور المندفع بحماس أبعدني، حتى أصبحت بعيدة في الخلف. كنت على ثقة أن زوجي لن يغادر المكان بدوني. وبالفعل فقد راح فيودور ميخايلوفيتش يلقي ببصره هنا وهناك بحثاً عني بعد أن ارتدى معطفه، وعندما لم يلحظني قال بصوت يعبر عن الشكوى: أين زوجتي؟ كانت معي هنا. أرجوكم ابحثوا عنها!» قال ذلك متوجهاً بالحديث للمعجبات اللائي كن يُحِطُنَ به منذ زيارته الأخيرة، فقد تعرّف عليه الطبيب على الفور، بل إنه طمأنه وقال له إن مياه كرينخن سوف تبعثه من جديد. وفي الخامس والعشرين من يوليو كتب إليّ زوجي يقول: «وجد أن لدي جزءاً ما من رثتي قد تحرك من مكانه وأنه قد غيّر وضعه تماماً، كما أن قلبي غيّر من وضعه السابق ليستقر في مكان آخر. كل ذلك نتيجة لمرض الإمفيزيما (تمدد الرئة)، على الرغم من أنه قد أضاف موساسياً؛ أن قلبي بحالة ممتازة، وأن كل هذه التغيرات في الأماكن ليست هي أيضاً بذات أهمية كبيرة ولا تشكّل أي تهديد من أي نوع. بطبيعة الحال فقد كان ملزماً، باعتبارها طبيباً، أن يتحدث إليّ مطمئناً، ولكن إذا كانت الإمفيزيما، وهي ما تزال في بدايتها، قد تسببت في كل هذه التغيرات، فما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ بالمناسبة ما زلت أعوّل على العلاج بالمياه.»^{٤٣}

شعرت بالإحباط الشديد والقلق من جرّاء هذا التحليل للوضع، والذي قدمه الدكتور أورت. وحيث إنني كنت أشاهد زوجي في أعوامه الأخيرة قوياً مليئاً بالحيوية، لم أظن أن مرضه قد نجح في إحداث هذه النتائج السيئة. ولكن لعلمي أن مياه كرينخن كانت مفيدة دائماً لزوجي، فقد عللت نفسي بالأمانى وبفكرة أن صحته سوف تتحسن كثيراً في هذه المرة.

كنت أعقد آمالاً عريضة على أن فيودور ميخايلوفيتش سوف يلتقي حتماً بشخص ما من أصدقائه المحبين إلى نفسه، وأن لقاءاته به سوف تُسرّي عنه، وأنه لن يشعر عندئذٍ بالملل، الذي كان دائماً ما يشعر به عند افتراقه عن أسرته. ولكن، للأسف الشديد، لم تتحقق هذه الآمال؛ فعلى مدى الأسابيع الخمسة من إقامة زوجي في إمس، لم يلتقِ بشخص

^{٤٣} الخطابات، المجلد الرابع، ص ٧٤.

واحد يعرفه، فكان يشكو بمرارة من شعوره بالوحدة التامة: «وأنا في قمة الضجر تبين لي أن قاعة المكتبة لا تحوي سوى صحيفة «حوليات موسكو»، وهذه تصل متأخرة على نحو فظيع، و«الصوت» الحقيرة، التي لا تفعل شيئاً سوى إصابتي بالجنون.»^{٤٤} كل متعتي هنا تتلخص في النظر إلى الأطفال الموجودين بكثرة والتحدث إليهم. وفوق ذلك فهناك أمور دنيئة تحدث هنا؛ لقد صادفت اليوم طفلاً في طريقه إلى المدرسة وسط الزحام، يبلغ من العمر خمس سنين، يسير وهو يغطي عينيه بكفيه ويبيكي. أسأل ما الذي به؟ فأعرف من المارة الألمان أنه يعاني منذ شهر بأكمله من التهاب بعينه (عذاب شديد)، أما أبوه فهو إسكافي، لا يريد أن يأخذه إلى الطبيب حتى لا ينفق بضعة قروش على الدواء. هذا الأمر المفزع أشعرنني بالكرب، أرهق أعصابي وجعلني عبوساً، لا يا آنيا، ليس الملل بالشيء الهين. في وجود الملل يصبح العمل أمراً مضمناً أيضاً، ويصبح المعتقل مكاناً أفضل، كلا، لقد كان المعتقل أفضل!»^{٤٥} كانت خطابات فيودور ميخايلوفيتش إليّ تفيض حزناً وأسى. وقد كتب خطابه المؤرخ الثالث عشر من أغسطس يقول: «إن النبأ الذي تلقيته بشأن المسكنة إيميليا فيودورفنا قد أصابني بالحزن الشديد. صحيح أنه لم يكن من الممكن أن تعيش طويلاً مع هذا المرض، ولكن بموتها انتهى كل شيء كان قد تبقى على الأرض من ذكرى أخي. لم يبق سوى فيديا، فيودور ميخايلوفيتش، الذي هدهدته على يدي. أما أطفال أخي الآخرون فقد ترعرعوا على نحو ما، بعيداً عني. اكتبني إلى فيديا عن عزائي العميق، فأنا لا أعرف عنواناً أكتب له عليه ... تصوري، لقد رأيت حلماً في الخامس من الشهر (سجلت التاريخ): رأيت أخي يرقد في الفراش، وقد قُطع منه الوتين»^{٤٦} وقد سال منه الدم، رحت أفكر وأنا في شدة الرعب هل أهرع إلى الطبيب؟ ثم تعود الفكرة تستوقفني، فلو أنني فعلت ذلك لنفد دمه قبل وصولي للطبيب. يا له من حلم غريب! والأهم أن الخامس من أغسطس كان ليلة وفاتها. لا أظن أنني كنت مذنباً أمامها: لقد ساعدتها، عندما كان ذلك بإمكانني، وتوقفت عن مساعدتها بشكل مستمر، عندما أصبح هناك من القريبين إليها من يساعدها؛ ابنها وصهرها. لقد أوقفت حياتي عليهم منذ العام

^{٤٤} انظر: [الجزء التاسع، العامان ١٨٧٨-١٨٧٩م، التعليق رقم ١٦].

^{٤٥} الخطاب المرسل إليّ والمؤرخ ١٠ أغسطس ١٨٧٩م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٥.

^{٤٦} الوتين: الشريان الرئيسي الذي يغذي جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب. (المترجم)

الذي توفي فيه أخي. لم أفكر ولم أسف على العشرة آلاف التي كنت أملكها، وإنما ضحيت بعافيتي وباسمي الأدبي، الذي عرّضته للعار مع دار نشر فاشلة، عملت كالنور، والآن حتى أخي لا يمكنه، وهو في العالم الآخر، أن يلومني.» ثم أضاف في نهاية الخطاب قائلاً: «غداً أتم أسبوعين من الصمت الذي أعيشه هنا. إنها ليست الوحدة فقط، وإنما الصمت. لقد نسيت الكلام، إنني أتحدث مع نفسي كالمجنون.»^{٤٧} وفي خطابه المؤرخ السادس عشر من أغسطس، كتب زوجي يقول: «لقد أصبحت شخصاً تسيطر عليه الهواجس بسبب الوحدة. أتخيل أنه لا يوجد هناك شيء سيئ أو محزن. إن كآبتي على نحو لا يوصف؛ لقد نسيت الكلام، وأشعر بالدهشة من نفسي عندما أنطق كلمة بصوت مرتفع. هذا هو الأسبوع الرابع الذي لم أسمع فيه صوتي.»^{٤٨}

أنا أيضاً تعذبت بشدة بسبب الحالة النفسية الصعبة لزوجي، وبخاصة أنه بالإضافة إلى ذلك كان يشعر بالقلق بشأن النقود التي وعدته بإرسالها، والحقيقة أنني لم أستطع إرسال هذه النقود لأن سوء فهم قد وقع مع هيئة تحرير «البشير الروسي»؛ فقد أرسلت هيئة التحرير حوالة مالية لي على مكتب أخينباخ وكولي^{٤٩} في بطرسبورج، وكنت قد وعدت زوجي أنني لن أترك الأطفال وحدهم يوماً واحداً؛ ولهذا لم أستطع أن أسافر لتسلم النقود، ومن ثم كان عليّ أن أعيد الحوالة مرة أخرى، وأن أطلب إرسال النقود إليّ نقداً على عنواني في ستاريا روسا. وما إن تسلمتها حتى أرسلتها على الفور إلى زوجي.

٦

العام ١٨٧٩م، التفكير في شراء ضيعة

كان فيودور ميخايلوفيتش يفكر كثيراً في مصير الأسرة في حالة تراجع نشاطه الأدبي أو موته، وعندئذ كان يتوقف عند فكرة شراء ضيعة صغيرة، بعد أن نتخلص نهائياً من سداد ديوننا، وأن نعيش جزئياً من عوائدها. وفي خطابه إليّ من إمس، والمؤرخ الثالث عشر من أغسطس، كتب يقول: «أفكر طوال الوقت، يا عزيزتي، في موتي (أفكر هنا بجدية)

^{٤٧} الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٨-٩٩.

^{٤٨} الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٠٢.

^{٤٩} أخينباخ وكولي: بنك في بطرسبورج.

وفيما أتركه لك وللأطفال. الجميع يظنون أننا نملك مالاً، بينما لا نملك شيئاً. أنا الآن مشغول بآل كارامازوف. عليّ إنهاء الرواية على نحو جيد، أن أضيغها صياغة صائغ ماهر، إنها عمل شاق ومخاطرة رهيبة تستنفد قواي، لكنها أيضاً عمل مصري، فعليها يتوقف اسمي، وإلا ضاعت كل آمالي. سوف أنتهي منها ثم أعلن بنهاية العام عن فتح باب الاشتراك في «المذكرة»، ومن حصيلة الاشتراكات أشتري ضيعة، ثم أعيش وأصدر «المذكرة» حتى موعد الاشتراكات التالية من حصيلة بيع الكتب. يلزمني قدر من الطاقة وإلا لن يتحقق شيئاً على الإطلاق. يكفي ذلك الآن، وسوف يكون باستطاعتنا أن نتشاور ونتجادل معاً لأنك لا تحبين الريف، أما أنا فلديّ إيمان: (١) أن الضيعة هي رأس مال سوف يتضاعف ثلاث مرات عندما يبلغ الأطفال أشدهم، ثم إن (٢) من يملك أرضاً يشارك في السلطة السياسية فوق الدولة. هذا مستقبل الأطفال والذي سيحدد من سيكونون: مواطنين أقوياء ومستقلين (ولا شيء أسوأ) أم أوباشاً. وفي أحد الخطابات التالية^{٥٠} كتب يقول: «ما زلت أحلم بإعداد المستقبل وبكيفية شراء ضيعة. هل تصدقين أنني أكاد أجن من التفكير في الأمر، أكابد الصبر من أجل الأطفال ومصيرهم.»

كنت متفقة تماماً، من حيث المبدأ، مع زوجي في هذه المسألة، ولكنني وجدت أنه في مثل ظروفنا هذه، فإن التفكير في تأمين مصير الأولاد من خلال ضيعة يمكن أن يبدو أمراً غير قابل للتحقيق. كان الأمر الأول والأهم يتمثل فيمن ستقع على أكتافه مسئولية القيام بأعمال الضيعة إذا ما نجحنا في امتلاكها؟ إن فيودور ميخايلوفيتش، على الرغم من فهمه لشئون الزراعة لكنه مشغول بالعمل الأدبي، وعلى الأرجح لن يكون باستطاعته أن يكون له نشاط يُذكر في هذا الأمر. أما أنا فلم أكن على دراية مطلقاً بالأعمال الريفية، ومن المحتمل أن يتطلب الأمر بضع سنين قبل أن أتعلم أو أتأهل لهذا العمل الذي أجهله تماماً. لم يبق أمامنا سوى تفويض الضيعة لشخص يديرها. على أنه وبناءً على خبرة العديد من معارفنا من ملاك الأراضي، توقعت النتيجة التي يمكن أن تتول إليها الضيعة إذا ما قام على إدارتها شخص غريب.

لكن فيودور ميخايلوفيتش أصر على هذه الفكرة التي كانت تروقه، إلى حد أنني كنت غير راغبة بإخلاص أن أعارضه، ثم رحت أطلب منه فقط أن يتمهل إلى أن نحصل،

^{٥٠} الخطاب المؤرخ في السادس عشر من أغسطس ١٨٧٩ م (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

في النهاية، على نصيبنا في ميراث عمه زوجي أ. ف. كومانينا،^{٥١} وعندئذٍ نبدأ مشروعنا تدريجيًا على قطعة الأرض التي ستؤول إلينا. وقد وافقني فيودور ميخايلوفيتش على رأيي، وقرر أن يترك مستحقاته المالية عن رواية «الإخوة كارامازوف» لدى هيئة تحرير «البشير الروسي» باعتبارها احتياطيًا يمكنه اللجوء إليه عندما يبدأ في إعداد الضيعة.

تسلمنا ميراثنا عن كومانينا في مطلع السبعينيات، وكان عبارة عن ضيعة تبلغ مساحتها ستة آلاف ديسياتينا،^{٥٢} وتقع على بُعد مائة فرسخ من ريازان، بالقرب من قرية سباس-كليكا. وقد بلغ نصيب إخوة دستوفسكي (الذين دفعوا نصيب أخواتهم أموالاً) ثلث الضيعة، وتبلغ حوالي ألفي ديسياتينا، كان نصيب فيودور ميخايلوفيتش منها خمسمائة ديسياتينا.

وحيث إن ورثة كومانينا كان عددهم كثيرًا، فقد واجه الاتفاق معهم صعوبات جمة. لم يكن هناك مشترٍ قادرٍ على شراء الضيعة بأكملها، وفي الوقت نفسه فقد كان مطلوبًا منا ومن باقي الورثة تسديد ما على الأرض من التزامات، وكذلك طلب وكيلنا أيضًا نقودًا مقابل سفره إلى الضيعة وإعداد الأوراق والمصروفات القضائية وما إلى ذلك. وهكذا لم يعد علينا هذا الميراث إلا بالمتاعب والمصروفات.

أخيرًا توصل الورثة إلى قرار أن يأخذوا الأرض على ما هي عليه، وحيث إن الأرض كانت متنوعة، من غابة قديمة إلى مستنقعات ممتدة، فقد قررنا، أنا وزوجي، أن نأخذ مساحة أقل فيها، على أن تكون من نوعية جيدة. ولكن وحتى نختار نصيبنا، كان علينا أن نسافر وأن نعاين الضيعة. كان الحديث يدور كل ربيع حول اجتماع الورثة في الضيعة بهدف اختيار وتقسيم الأنصبه، ولكن كان يحدث في كل مرة أن يعتذر هذا الوريث أو ذاك عن الحضور، فيتم تأجيل الأمر إلى العام التالي.

وأخيرًا، وفي صيف عام ١٨٧٩م، قرر الورثة الاجتماع في موسكو ليتوصلوا إلى اتفاق نهائي، فإذا ما نجحوا في ذلك، يتوجهون جميعًا إلى ريازان، ومن هناك إلى الضيعة؛ حيث يقررون أمرهم على الطبيعة بشكل نهائي.

كان فيودور ميخايلوفيتش يتلقى علاجه آنذاك في إمس، وكان من المتوقع أن يعود بعد شهر. كان من المؤسف أن تضيق هذه الفرصة السانحة للانتهاء من هذا الأمر بالغ

^{٥١} ألكسندرا فيودوروفنا كومانينا (نيتشايفا قبل الزواج) (١٧٩٦-١٨٧١م): عمه فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي.

^{٥٢} ديسياتينا: وحدة المساحة في روسيا قبيل الثورة الروسية وتساوي هكتارًا. (المترجم)

الصعوبة. من ناحية أخرى، كنت أجد نفسي في مأزق؛ هل ينبغي عليّ أن أبلغ زوجي بهذه الرحلة المقترحة إلى الضيعة، وبخاصة أن هناك إمكانية ألا تحدث؟ وحيث إنني كنت على دراية بمدى ولع فيودور ميخايلوفيتش بأطفاله وحرصه على مستقبلهم، فقد خشيت، عندما علمت بطول الرحلة، أن أزعجه وأن أفسد عليه علاجه. ولحسن الحظ، تسلمت موافقة من زوجي على اصطحاب الأطفال إلى دير القديس نيل ستولبينسكي (على بُعد مائة فرسخ من روسا)، وحيث إن هذه الرحلة تستغرق حوالي أسبوع، فقد قررت أن أعرج أولاً على موسكو لمدة يومين أو ثلاثة. ولكنني ما إن وصلت إلى هناك ووجدت الورثة الأساسيين المتجهين إلى الضيعة، حتى قررت أن أنتهز الفرصة وأن أذهب معهم بصحبة الأطفال؛ لأعين الأرض وأحدد القطعة المناسبة لزوجي. استمرت رحلتنا إلى الضيعة حوالي عشرة أيام، وقد انتهت بسلام. وهناك نجحت في اختيار نصيب زوجي؛ مائتي ديسانينا من الغابة، في منطقة تسمى «بيخوركا»، ومائة ديسانينا؛ أرض صالحة للزراعة. في خطاباته من إمس أعرب فيودور ميخايلوفيتش عن سروره البالغ لاختياري، ولكنه وبّخني بشدة «لكتماني» عنه أمر سفري. كان من الصعب عليّ، بطبيعتي، أن أكتُم شيئاً عن فيودور ميخايلوفيتش، ولكنني كنت أجد ذلك أمراً ضرورياً في بعض الأحيان؛ حتى لا أزعجه أو أثّر اضطرابه (ما دام هذا ممكناً)؛ فكثيراً ما يؤدي اضطرابه لإثارة نوبة من نوبات الصرع لا حاجة له بها، تكون نتيجتها وخيمة على صحته، وبخاصة عندما تحدث النوبة وهو بعيد عن أسرته.

عدنا إلى روسا في مطلع شهر سبتمبر، وعادت حياتنا سيرتها الأولى: يتجمع لدينا كلّ يوم في حوالي الساعة الثانية ظهراً بعض الأشخاص، بعضهم نعرفهم، والبعض الآخر لا نعرفهم. يدخلون على فيودور ميخايلوفيتش تباعاً. يجلسون لديه أحياناً لمدة ساعة. كنت أعلم أن الأحاديث الطويلة تثير ملل زوجي، ولذلك كنت أبعث إليه أحياناً الخادمة لتبلغه بحاجتي إليه لمدة دقيقة، وعندما يخرج أناوله قدحاً من الشاي الطازج فيحتسيه على عجل، ثم يسأل عن الأطفال ويسرع عائداً إلى صحبته. وأحياناً كنت أضطر، بسبب امتداد المناقشات، لاستدعاء فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة الطعام لكي يقابل مندوباً ما جاء يطلب منه قراءة محاضرة في إحدى الأمسيات الأدبية (لصالح جمعية ما) أو لمقابلة أحد الأصدقاء، الذين يصعب عليهم الانتظار في طاوور الزائرين المجهولين.

وفي هذا الشتاء ازداد تعاطف المجتمع مع فيودور ميخايلوفيتش (بفضل نجاح رواية «الإخوة كارامازوف»)، وأصبح يتلقى دعوات تكريم وبطاقات لحضور أمسيات

أدبية وحفلات رقص وموسيقى. كان يضطر أحياناً للرفض اللبق فيرسل خطابات اعتذار وشكر، وأحياناً أخرى كان يرسلني للحضور خشية أن يغضب أصحاب الدعوات. كنت أقضي حوالي الساعتين وقد استبدَّ بي الملل، ثم أذهب للبحث عن منظمات الاحتفال فأعبر لهم، نيابةً عن زوجي، عن امتنانه لاهتمامهم واعتذاره عن عدم الحضور بسبب أعمال طارئة. كل ذلك كان له أثر كبير في ارتباك حياتنا ولم يكن ليحلب لنا أي متعة.

في ديسمبر من عام ١٨٧٩م اضطر فيودور ميخايلوفيتش للاشتراك عدة مرات في أمسيات ثقافية حاضِر فيها. فعلى سبيل المثال، ألقى في السادس عشر من ديسمبر محاضرة لصالح مساعدة طلاب ثانوية لارينسكايا غير القادرين. وقد قرأ على الحضور قصة «طفل مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد». كانت القراءة في منتصف النهار، في الساعة الواحدة، وكان من بين الحضور الممثل الشهير وكاتب القصة القصيرة إ. ف. جوربونوف،^{٥٣} وما زلتُ أذكر أن حضوره قد أضفى حيويةً شديدة في القاعة. وقد ظل الأدباء، بعد أن أنهوا مختارات من أعمالهم، موجودين في أماكنهم ولم يتوجهوا ناحية الجمهور. كان إيفان فيودوروفيتش مبهوراً، وقد راح يقصُّ على الجمهور العديد من حكاياته الجديدة، بل إنه رسم على أفيش الحفل صورة بقلمه.

وفي الثلاثين من ديسمبر أقيمت ندوة أدبية أخرى في الصباح، قرأ فيها فيودور ميخايلوفيتش بأستاذية رفيعة «المفتش الأعظم» من رواية «الإخوة كارامازوف». نالت نجاحاً غير مسبوق، وراح الجمهور يصفق له بحرارة ويكرر التصفيق لإعادته إلى المنصة كلما غادرها.^{٥٤}

^{٥٣} إيفان فيودوروفيتش جوربونوف (١٨٣١-١٨٩٥م): كاتب وممثل في مسرح ألكسندروفسكي في بطرسبورج.

^{٥٤} قرأ دستوفسكي مقطعاً من «المفتش الأعظم» في الندوة الأدبية الصباحية التي أقيمت لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة بطرسبورج في مبنى الجمعية الخيرية. ما يزال برنامج الندوة الصباحية موجوداً، ويضم إلى جانب دستوفسكي مشاركين آخرين أيضاً؛ هم: د. ف. جريجوروفيتش وب. إ. فاينبرج. ويؤكد خطاب لجنة جمعية مساعدة الطلاب إلى دستوفسكي، وكذلك البيان الذي أصدرته اللجنة، على الأثر العميق الذي تركته قراءة دستوفسكي على الجمهور (الوثيقتان محفوظتان في مكتبة لينين). على أن م. س. فولكونسكي، راعي دائرة بطرسبورج التعليمية، ظل حائقاً على الاستقبال الحافل للجمهور، وقرر منع قراءة «المفتش الأعظم» لاحقاً. وقد كتب دستوفسكي إلى ف. ب. جايفسكي يخبره: «أن الراعي حضر بنفسه القراءة، لكنه أخبرني بعدها، أنه نظراً للأثر الذي أحدثته هذه القراءة على نفوس الجمهور،

العامان ١٨٧٩-١٨٨٠ م

كثيراً ما كان فيودور ميخايلوفيتش يضطر، على مدى العامين ١٨٧٩ م و ١٨٨٠ م، لإلقاء محاضرات لصالح مختلف الهيئات الخيرية والصندوق الأدبي وغيرها. ونظراً إلى تدهور حالته الصحية، فقد كنت حريصة على اصطحابه بشكل دائم إلى الأمسيات الأدبية، وكنت أشعر، أنا نفسي، برغبة شديدة في الاستماع إلى قراءته الفنية الحقيقية، والحضور عند سماع دويّ التصفيق الذي يحييه به جمهور بطرسبورج دائماً.^{٥٥}

كان العدد الأكبر من الأمسيات الأدبية يقام في جمعية الائتمان، وتقع على الجانب المواجه لمسرح ألكسندروفسكي أو في الجمعية الخيرية بالقرب من جسر الشرطة. للأسف، فإن ظهوري في المجتمع لم يكن يخلو أحياناً من المنغصات المفاجئة تماماً بسبب غيرة فيودور ميخايلوفيتش غير المبررة، والتي كانت تضعني في أوضاع محرجة. أورد هنا واحداً من هذه المواقف:

ذات يوم تأخرنا بعض الشيء في الوصول إلى إحدى الأمسيات الأدبية، وهناك تجمّع مختلف المشاركين في الأمسية في انتظارنا. وعند دخولنا أخذ الجميع يحيون فيودور ميخايلوفيتش بمودة صادقة، وراح الرجال يقبلون يدي، ويبدو أن هذه العادة الاجتماعية (تقبيل الأيدي) كان لها أثر سيئ على زوجي. رد على تحية الجميع بجفاء ثم انتحى جانباً. أدركت على الفور كُنْه غضبه. وبعد أن تبادلنا مع الموجودين عبارات المجاملة، جلست إلى جوار زوجي محاولاً أن أخرجته من حالته النفسية السيئة. لكنني لم أنجح في ذلك. توجهت إليه مرتين أو ثلاثاً بالسؤال لكنه لم يجب، ثم حدجني بنظرة «شرسة» قائلاً: اذهبي إليه!

فقد قرر منعي من القراءة مستقبلاً. وهكذا، أصبح من المستحيل قراءة «المفتش» الآن. وأصبح لزاماً عليّ البحث عن شيءٍ ما آخر» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٣٣).

^{٥٥} كنت أحضر معي دائماً في هذه الأمسيات الكتاب، الذي يقرأ منه زوجي، ودواء السعال؛ وهو عبارة عن أقراص للاستحلاب أحضرها معه من إمس، ومندبل يد إضافياً (في حالة ما إذا فقد مندبله) وشملة يتلحف بها عند خروجه إلى الهواء البارد، وبعض الأشياء الأخرى. كان فيودور ميخايلوفيتش عندما يراني محملاً دائماً بالأشياء يسميني «السلاحدار الأمين» (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

- اندهشت وسألته: إلى من أذهب؟

- ألم تفهمي؟

- لم أفهم. لمن عليّ أن أذهب؟ قلت مبتسمة.

- إلى هذا الذي قبّل يدك بولّه!

وحيث إن جميع الحضور من الرجال في القاعة الذين قبّلوا يدي فعلوا ذلك على نحو مهذب، فإنني لم أستطع، بطبيعة الحال، أن أقرر من منهم شريكي في الجريمة التي ارتكبتها من وجهة نظر زوجي. دار هذا الحديث بيني وبين فيودور ميخايلوفيتش الذي كان يتحدث بصوت واضح، حتى إن الذين كانوا يجلسون قريباً منا استمعوا إليه بوضوح تام، وخوفاً من وقوع «مسرحة عائلية» قلت له: حسناً فيودور ميخايلوفيتش، أرى أنك منحرف المزاج ولا تود الحديث معي. الأفضل أن أذهب إلى القاعة لأبحث عن مكاني. وداعاً!

ابتعدت، وما هي إلا خمس دقائق وإذا ببافل ألكسندروفيتش جايديبوروف^{٥٦} يأتي إليّ ليخبرني أن فيودور ميخايلوفيتش يدعوني. اعتقدت أن زوجي يجد صعوبة في العثور على المقطع الذي حدده للقراءة من الكتاب، فذهبت إلى حيث يوجد مسرعة، لكن زوجي قابلني على نحو عدواني.

- لم تطيقي صبراً؛ فذهبت للبحث عنه؟ قال معلقاً.

- حسناً، نعم، بالطبع - قلت مبتسمة - ولكنني أبحث عنك أيضاً. هل يلزمك شيء؟

ما؟

- لا يلزمي شيء.

- لكنك طلبت مني الحضور.

- لم أفكر في طلبك؟ لا تدّعي شيئاً من فضلك!

- حسناً، إذا لم تكن قد طلبتني فوداعاً، أنا ذاهبة.

مرت عشر دقائق وإذا بواحد من المنظمين يأتي إليّ ليخبرني أن زوجي يرغب في رؤيتي. أحبته بأنني كنت لديه لتوي وأنني لا أريد أن أفقده تركيزه في الاهتمام بما سيقروّه. ولم أذهب. على أن المنظم جاءني من جديد في الاستراحة الأولى يخبرني أن زوجي

^{٥٦} بافل ألكسندروفيتش جايديبوروف (١٨٠٧-١٨٨٢م): صحفي، محرر وناشر مجلة «نيديليا».

يلحُ في طلبه الذهاب إليه. أسرع إلى زوجي العزيز لأجده في حالة من الإحباط وقد ارتسمت على وجهه علاماتُ الشعور بالذنب. انحنى عليَّ وهمس في أذني بصوت خفيض: سامحيني يا أنيتشكا، وأعطيني يدك. تمنِّي لي حظًا سعيدًا! سأخرج الآن للقراءة! كنت في غاية السعادة أن فيودور ميخايلوفيتش قد عاد له هدوءه، ولكنني لم أستطع قط أن أخمن من الحضور (وجميعهم كانوا دون استثناء من الشيوخ المحترمين) كان موضوع شك زوجي، الذي رأى العاشق المفاجئ. على أن الكلمات المهينة التي وجهها لي فيودور ميخايلوفيتش (إيه أيتها الفرنسية، هكذا يكون الإطراء)، جعلتني أفهم أن العجوز جريجوروفيتش^{٥٧} كان وراء شكوك زوجي وغيّره (وقد كانت أمه فرنسية). بعد أن عدنا إلى بيتنا من الأمسية عاتبت زوجي عتابًا شديدًا على غيْرته غير المبررة. وكعادته راح فيودور ميخايلوفيتش يرجوني المغفرة، معترفًا بذنبه، وهو يقسم أنه لن يعود إلى ذلك أبدًا، وأن الندم يعذبه، وفي الوقت نفسه ظل يؤكد أنه ظل على مدى ساعة بأكملها غير قادر على التغلب على سورة الغيرة المفاجئة التي انتابته، والتي أحس بسببها بتعاسة عميقة.

وهذا النوع من المشاهد كان يتكرر تقريبًا في كل أمسية ثقافية. كان فيودور ميخايلوفيتش يرسل حتمًا واحدًا من المنظمين أو من معارفه ليرى أين أجلس ومع من أتحدث. وأحيانًا ما كان يقترب من باب غرفة المكتبة بعد أن يواربه قليلًا لبحث عني بنظره من بعيد إلى حيث أشاروا له عليَّ. (كان من المتبع آنذاك أن يجلس أقارب المحاضر في أماكن بامتداد الحائط الأيمن للقاعة على بُعد خطوات قليلة من الصف الأول.)

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يشرع في القراءة مباشرة، بعد أن يخرج إلى المنصة وينحني أمام تصفيق الجمهور، وإنما كان يبدأ في تفحص كل السيدات الجالسات على امتداد الحائط الأيمن. وحتى يتمكن زوجي من رؤيتي على الفور، كنت أمسح جبھتي بمنديلي الأبيض، أو أذهب واقفة عن مكاني، وما إن يتأكد فيودور ميخايلوفيتش من وجودي، حتى يبدأ في القراءة. وكان معارفي، وكذلك القائمون على تنظيم الأمسية، قد لاحظوا، بطبيعة الحال، هذه النظرات الخاطفة واستفسارات زوجي حول تحركاتي. فكانوا يمازحونني بشأنها تلميحًا إلى حدٍّ أنني كنت أشعر بالغضب الشديد، وقد أشعّرني

^{٥٧} ديمتري فاسيليفيتش جريجوروفيتش (١٨٢٢-١٨٩٩م): كاتب وصديق دستوفسكي منذ الأربعينيات.

ذلك بالضيق والملل. وذات مرة ونحن في طريقنا إلى إحدى الأمسيات الأدبية قلت لفيودور ميخايلوفيتش: أتعرف يا عزيزي أنك إذا ما استمرت اليوم في النظر والبحث عني وسط الجمهور، فإنني أعدك بأنني سوف أنهض من مكاني وأخرج من القاعة من الجانب التي تقع فيه المنصة.

— أما أنا فسأترك المنصة قفراً وأهرع وراءك لأعرف ما الذي حدث لك وإلى أين تذهبين.

قال فيودور ميخايلوفيتش هذا بجدية تامة، وعندها أيقنت تماماً أنه قادر على اقتراف هذه الفضيحة، في حالة إذا ما غادرت المكان فجأة.

٨

آفة النسيان تصيب فيودور ميخايلوفيتش

كان لنوبات الصرع أثرها البالغ على ذاكرة فيودور ميخايلوفيتش؛ وبخاصة على قدرته على تذكر الأسماء والأشخاص، وقد اكتسب بسبب عدم قدرته على التعرف على وجوه الناس أعداء كثيرين، وعندما كانوا يذكرون لهم أسماءهم، لم يكن بمقدوره، دون اللجوء إلى سؤالهم عن كثير من التفاصيل، أن يحدد من هم هؤلاء الناس الذين يتحدثون إليه. كان هذا يثير حنق الذين نسيهم أو الذين لا يعترفون بمرضه، معتقدين أن هذا نوع من الخيلاء، أو أنه نسيان متعمد بهدف إهانتهم. أذكر تلك الحادثة التي وقعت لنا، عندما كنا نزور ذات يوم آل مايكوف، يومئذ التقى فيودور ميخايلوفيتش على سلم بيتهم بالكاتب ف. ن. بيرج، الذي عمل في وقت ما في مجلة «الزمن»، وقد غاب الرجل عن ذاكرة فيودور ميخايلوفيتش تماماً. توجه بيرج بالتحية الودية إلى زوجي، ولما رأى أنه لم يتعرف عليه خاطبه قائلاً: فيودور ميخايلوفيتش، ألا تعرفني؟

— اعذرنى، لا أستطيع أن أتعرف عليك.

— أنا بيرج.

— بيرج؟ نظر إليه فيودور ميخايلوفيتش نظرة استفهام (كل ما تذكره زوجي في هذه اللحظة، كما ذكر لي مؤخراً، هو «بيرج»، الألماني القح، صهر آل روستوف في رواية «الحرب والسلام»).

— الشاعر بيرج — قال الرجل موضحاً — أحقاً لا تذكرني؟

- الشاعر بيرج؟ أجاب زوجي ثم راح يكرر، تشرفنا، تشرفنا! لكن بيرج، الذي أصر على أن يعرف نفسه، كان يعتقد يقيناً أن فيودور ميخايلوفيتش لم يتعرف عليه عمداً، وظل طوال حياته يتذكر هذه الإهانة. وكم من أعداء، وبخاصة من الأدباء، اكتسبهم فيودور ميخايلوفيتش بسبب آفة النسيان!

وقد وضعتني هذه الآفة وعدم التعرف على الأشخاص، الذين كان فيودور ميخايلوفيتش يلتقي بهم، وضعتني أنا أيضاً في مواقف شديدة الحرج.

أذكر حادثاً مضحكاً في هذا الصدد: كنا نذهب وزوجي ثلاثاً/أربع مرات في العام للاحتفال بالأعياد في ضيافة عائلة ابن عمي ميخائيل نيكولايفيتش سنيتكين، وكان يحب أن يجمع في بيته الأقارب. وفي كل مرة تقريباً، كنا نلتقي هناك بإشبينتي، ألكسندرا بافلوفا، والتي لم أزرها منذ زواجي، حيث كان زوجها يعتنق وجهات نظر سياسية لا تتفق وجهات نظر فيودور ميخايلوفيتش. كانت ألكسندرا بافلوفا تشعر بالاستياء لأن زوجي، الذي كان يقابلها دائماً بكل لطف، لم يتبادل معها الحديث إطلاقاً، وقد ذكرت ذلك أمام كل أقاربنا، وهؤلاء أبلغوني بذلك. وفي أول زيارة لنا لآل سنيتكين، طلبت من زوجي أن يتحدث معها وأن يعاملها بمودة قدر استطاعته.

- حسناً، حسناً - وعدني بذلك فيودور ميخايلوفيتش - ما عليك إلا أن تخبريني أي من السيدات هي إشبينتك، وسوف أجد موضوعاً شيقاً للحديث. وسوف تشعرين بالرضا.

بعد أن وصلنا، أشرت إلى فيودور ميخايلوفيتش نحو السيدة الجالسة على الأريكة. نظر إليها في البداية باهتمام ثم نظر إليّ، ثم عاد ينظر إليها مرة أخرى، ثم حياها بأدب جم، ثم إذا به يقضي بقية السهرة دون أن يقترب منها. وبعد أن عدنا إلى بيتنا عاتبته لأنه لم يحقق رغبتني البسيطة هذه.

- أخبريني يا آنيا من فضلك - أجبني فيودور ميخايلوفيتش والحيرة تبدو على وجهه - من منكم إشبينة الأخرى؟ أنت التي عمّدتها أم هي؟ لقد أخذت أنظر إليكما بتمعن، كلاكما تشبه الأخرى، حتى إنني ارتببت في إمكانية التمييز بينكما، وحتى لا أخطئ، قررت أن من الأفضل ألا أقرب منها.

المسألة أن الفارق في العمر بيني وبين إشبينتي لم يكن بالغاً نسبياً (ستة عشر عاماً)، وحيث إنني كنت دائماً أردي ملابس متواضعة، وغالباً ما تكون قاتمة، بينما كانت هي تحب التزين وتردي ملابس جميلة، فقد بدت أصغر مني سنّاً بدرجة ملحوظة، الأمر الذي أدى بزواجي للحيرة.

لكن الأمر الأكثر مدعاة للفضول؛ هو أنني علمت، بعد عام، أننا مدعوون لقضاء عيد الميلاد لدى آل سنيتكين، وأنا حتمًا سنقابل هناك إشبينتي، فطلبت من زوجي أن ينفذ لي نفس الطلب، بعد أن شرحت له بإصرار مدى قربها مني. بدا أن زوجي قد استمع إليّ باهتمام بالغ (بداهة كان مستغرقًا في التفكير في أمر آخر)، وعدني على أية حال أنه سوف يتبادل معها أطراف الحديث، وكما أنه لم يفِ بوعده في العام الماضي، فقد أخلّ بوعده أيضًا هذه المرة؛ لقد تطرقت إلى نفسه نفس شكوك العام الماضي، لم يستطع أن يحسم أمر «من منا الذي عمّد الآخر»، وقد اعتبر زوجي أن سؤالي أمام الأغراب أمرٌ غير لائق.

كان نسيان فيودور ميخايلوفيتش لأسماء أقرب الناس إلينا يضعه أحيانًا في مواقف شديدة الحرج: ذات مرة ذهب زوجي إلى قنصليتنا في درزدن لاعتماد تصديق بصحة توقيع علي تفويض ما (حيث لم يكن باستطاعتي الذهاب بنفسي لمرضي). ما إن رأيت من النافذة أن فيودور ميخايلوفيتش قد رجع بسرعة إلى البيت، حتى هُرعَت لمقابلته. دخل إلى البيت منفعلاً وسألني غاضبًا: آنيا، ما اسمك؟ ما اسم عائلتك؟

— دستوفسكايا — أجبت في ذهول — وقد تعجبت لهذا السؤال.

— أعرف أنه دستوفسكايا، ولكن ما اسم عائلتك قبل الزواج؟ لقد سألوني في القنصلية عن اسم العائلة عند الميلاد، وقد نسيت، وسيكون عليّ أن أذهب إلى هناك مرة ثانية. لقد سخر مني الموظفون لأنني نسيت اسم عائلة زوجتي. اكتبني الاسم في الاستمارة وإلا نسيته مرة أخرى في الطريق!

مثل هذه الأحداث وقعت كثيرًا في حياة فيودور ميخايلوفيتش، وللأسف، خلقت له أعداءً كثيرين.

الجزء العاشر

العام الأخير

١

تجارة الكتب

كان مطلع عام ١٨٨٠ م مميزًا بالنسبة لنا، عندما قمنا بافتتاح مشروعنا الجديد: «تجارة الكتب لصاحبها فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكي (لسكان المدن الأخرى فقط)».

وعلى الرغم من أن أحوالنا المادية كانت تسير سيرًا حسنًا من عام لآخر، وأننا نجحنا في سداد غالبية ديوننا (الديون التي تراكمت على فيودور ميخايلوفيتش منذ الستينيات)، فإن هذه الأحوال ظلت على حالها من عدم الاستقرار. ها قد أصبحت الحياة أكثر غلاءً وتعقيدًا، ولم ننجح في ادخار قرش واحد أبيض «لليوم الأسود». وقد أخافنا ذلك لأبعد الحدود، وبخاصة أن فيودور ميخايلوفيتش نفسه بات يدرك أن العمل أصبح يشكل صعوبة بالغة عليه يوميًا بعد الآخر. في الوقت الذي راح مرضه (الإمفيزيما) يزداد سوءًا؛ الأمر الذي جعلنا نخشى توقف فيودور ميخايلوفيتش عن العمل الأدبي؛ نتيجة تدهور صحته. ومن ثم كنا نود، بسبب هذا الوضع المحزن، لو أننا تمكنا من امتلاك رصيدٍ ما من النقود، أو يكون لنا عملٌ ما جانبي يمكّننا من توفير هذا الرصيد. على أن مجالات عمل المرأة ما تزال، حتى يومنا هذا، محدودة للغاية، ناهيك عما كانت عليه في تلك الأيام.

فكرت طويلًا في العمل الذي يمكن أن يكون لنا عونًا ولو قليلًا. وبعد تفكير طويل وطلب المشورة من معارفٍ نثق في خبرتهم، استقر رأيي على فكرة افتتاح تجارة كتب لسكان المدن الأخرى، وبخاصة أنني نجحت، جزئيًا، بفضل عدد من الإصدارات التي توليتها، في التعرف على حرفة الكتب. كان للمشروع الذي بدأتها ميزتان: الأولى، وهي الأهم بالنسبة لي، أنه لن يجبرني على الابتعاد عن البيت، وأنني أستطيع، كما في السابق، أن أتابع

صحة زوجي، وأن أقوم على تربية أطفالي وإدارة الشؤون المنزلية. وأما الثانية فتتلخص في أنك إذا أردت أن تفتتح مشروعاً لتجارة الكتب، فلن تكون مضطراً لإنفاق أموال على الإطلاق؛ فلا حاجة هناك لاستئجار محل وشراء سلع، وإنما يمكنك، في بداية الأمر، أن تكتفي بشراء الكتب، التي تم إرسال أثمانها عن طريق الاشتراكات. المصروفات الوحيدة تتمثل في دفع «الحقوق التجارية»، وفي استخدام صبي تكون مهمته الذهاب لشراء الكتب وتسجيل الطرود وتسليمها للبريد. وهذا الأمر تبلغ تكاليفه من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة روبل سنوياً، وهو مبلغ يمكن المخاطرة به، وبطبيعة الحال، يلزم لنجاح العمل نشر إعلانات في الصحف، وقد اعتمدت في المرة الأولى على الإعلانات المطبوعة، التي وزعتها على المشتركين السابقين في «مذكرة الكاتب»، وفي العام التالي قررت أن أوزعها مع تحمل المصاريف مع ناشرة مجلة «أمسيات عائلية»^١. إعلان كبير يظهر في مجلة توزع آلاف النسخ، وقد تم إرسال الإعلان في مطلع عام ١٨٨١م، ولكنني لم أكن أملك بعد التأثير في حركة البيع.

لم يكن من الممكن، بطبيعة الحال، إلا أن نعول في نجاح مشروعنا على أن ننسب تجارتنا للكتب إلى اسم فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي. وهكذا كان عليه أن يتقدم إلى «الغرفة التجارية» للحصول على «حقوق البيع» بصفته تاجراً؛ الأمر الذي ما لبث أن عرّضه للسخرية من جانب أعدائه في الصحف. لكن هذه السخرية لم تؤثر في كبرياء زوجي قيد أنملة؛ إذ إنه بعد أن اندمج في «الصناعة»، استحسن فكرتي وأصبح مثلي مؤمناً بنجاح مشروعنا.

كانت آمالي في نجاح المشروع معقودة بالدرجة الأولى على افتراض أن المشتركين السابقين في «مذكرة الكاتب» (١٨٧٦-١٨٧٧م)، والذين اعتادوا على العمل الدقيق لزوجي في تحريره للمجلة، بإمكانهم أن يولوا ثقتهم لتجارة الكتب التي يقوم بها نفس الناشر الذي تعاملوا معه من قبل، وفي الحصول على ما يلزمهم من كتب. وقد تحققت آمالي؛ فما إن مر شهران/ثلاثة، حتى تكونت حلقة (من حوالي ثلاثين شخصاً) من المشتركين السابقين في «مذكرة الكاتب»، الذين بدءوا يطلبون كل شهر كتباً من خلال تجارتنا. أتذكر، على سبيل المثال، أحد الأساقفة من بولتافا، وكان يشتري كل شهر (لمكتبته الخاصة وللهدايا) الكثير من الكتب الثمينة الغالية، من أموال الوقف الكنسي الذي خصصه الأمير

^١ مع صوفيا سرجيفنا كاشيبيريفا.

ف. م. يليتسكي. أذكر كذلك أحد المهندسين من مينسك، كان يطلب شراء كتب بمبالغ باهظة، لم يقتصر في طلبها على تخصصه فقط.

على أنه، بالإضافة إلى حلقة المشترين الراسخة التي تشكلت، بدا أن هناك عددًا غير قليل من الشخصيات المستقلة، الذين لاحظوا أن تجارة الكتب قد ظهرت من جديد. بطبيعة الحال كان هناك زبائن مملون يشتركون في أي صحيفة من أجل أن يوفروا خمسة وعشرين كوبيكًا. على أنه كان هناك أيضًا مشتررون أكثر مللاً، كانوا يجبروننا على البحث عن كتب نفدت من السوق منذ زمن بعيد. وبعد أن يطول بنا البحث الدءوب عن طيب خاطر، كنا نضطر لإعادة النقود لهم مرة أخرى.

لم تكن تجارة الكتب تقتطع مني شخصيًا وقتًا طويلاً، كان عليّ فقط أن أنظم الكتب، وأن أسجل الطلبات وأكتب الفواتير. وكان الصبي الذي رشحوه لي يعمل من قبل في محل للكتب، وكان بيبوتر (وهذا اسمه) ماهرًا في التصرف عند شراء الكتب وعند إرسالها، على الرغم من سنوات عمره الخمس عشرة.^٢

كان فيودور ميخايلوفيتش في غاية الاهتمام بسير مشروعا، وكنت أعدد له في نهاية كل شهر تقريرًا موجزًا بالعائدات والمصروفات في هذا الشأن. عادة ما كانت الأرباح تتراوح ما بين ثمانين إلى تسعين روبلاً عند بداية العام وعند نهايته (وهي مواعيد الاشتراك في الصحف والمجلات) وما بين أربعين إلى خمسين روبلاً في أشهر الصيف. على العموم، فقد بلغ صافي أرباحنا في العام الأول، بعد طرح المصروفات، ثمانمائة روبل وأحد عشر، وقد اعتبرنا، أنا وفيودور ميخايلوفيتش، هذه النتيجة فألاً حسناً للمستقبل.

بداية، فقد كان من الممكن أن يتسع حجم العمل على نحو أكبر؛ فقد كانت هناك طلبات من المؤسسات التعليمية ومخازن الأرياف لإرسال الكتب إليهم بالآجل. ولما كان الحصول على هذه الكتب يتطلب أموالاً ضخمة، على الرغم من الربح الكبير المتوقع، فقد اضطررنا للاعتذار لهؤلاء الزبائن.

إن تجارة الكتب للمدن الأخرى أمر مربح للغاية، إذا ما جرت إدارته، بطبيعة الحال، بحرفية ودقة، قد تحولت أمام ناظري ثلاث شركات، بدأت بتجارة صغيرة، لتصبح بعد

^٢ كان ذلك هو بيبوتر جريجوريفيتش كوزنيتسوف، الذي أصبح فيما بعد من أشهر تجار الكتب في ليننجراد، وقد ترك مذكراته عن عمله صبيًا لدى محل كتب ف. م. دستوفسكي. انظر: ب. ج. كوزنيتسوف، «العمل عند دستوفسكي». مجلة «كنيجنايا تورجوفليا» («تجارة الكتب»)، ١٩٦٤م، العدد ٥، ص ٤٠-٤١.

ثلاثة عقود شركاتٍ محترمةً لبيع الكتب («الإخوة باشماكوف»، بانافيدين، كليوخين)^٢ وأنا على يقين تام أنني لو كنت قد واصلت نشاطي في بيع الكتب، لامتلك الآن محلًا لا يقل عن محل «نوفوي فريميا» («العصر الحديث»). لم أواصل هذا العمل لأنني أخذت على عاتقي إصدار الأعمال الكاملة لزوجي، التي أخذت كل جهدي ووقتي.

عندما أعلنت، بعد وفاة فيودور ميخيلوفيتش، عن عزمي إغلاق تجارة الكتب، اتصل بي العديد من الشخصيات يطلبون مني أن أنقل إليهم ملكية مشروع، بل إن بعضهم أعرب عن رغبته في شراء الشركة وعرضوا ألفًا وخمسمائة روبل مقابلها. لكنني لم أوافق؛ إن إدارة تجارة الكتب ترتبط باسم فيودور ميخيلوفيتش دستوفسكي، أمر أختص به أنا وحدي، فقد كنت أدرك مدى جدارة هذه الشركة وسمعتها. يعلم الله كيف سينظر إلى هذا الأمر من سيشترى الشركة أو يأخذها هبة، وهل سيتعرض اسم فيودور ميخيلوفيتش دستوفسكي، العزيز إلى قلبي، إلى الذم أو السخرية، في حالة إدارة الشركة بلا دراية أو دون ضمير.

وهكذا اختفت من الوجود في مطلع شهر مارس ١٨٨١م تجارة كتب فيودور ميخيلوفيتش دستوفسكي.

وبالمناسبة، ما زلت أذكر مشروع قصير العمر بكل المشاعر الطيبة، وبخاصة، تجاه هذه العلاقات الودية التي ترسخت بين الزبائن وبين الشركة. بعض الأشخاص كانوا يعتقدون بسذاجة أن فيودور ميخيلوفيتش كان يعمل بالفعل ببيع الكتب، وكانوا يكتبون إليه مباشرة، آخرون، وهم يكتبون إلى الشركة، كانوا يطلبون إبلاغ فيودور ميخيلوفيتش مدى السرور البالغ الذي شعروا به إبان قراءتهم رواية «الإخوة كارامازوف»، أو أي عمل آخر من أعماله. وآخرون طلبوا، عند إرسالهم حساباتهم، إبلاغهم عن أحوال «الكاتب الكبير» الصحية، متمنين له أطيب الأمنيات. كان فيودور ميخيلوفيتش شديد التأثر من قراءته لبعض الخطابات التي تميزت بالبساطة والتعبير عن الفرح، وطلب مني أن أنقل لهم نيابة عنه أسمى تحياته وتقديره. كان فيودور ميخيلوفيتش، الذي كثيرًا ما قوبل بالعداوة من جانب أصدقائه من الأدباء والنقاد، يقدر التعبيرات التي تنطوي على سلامة الطوية، والبساطة التي تصل أحيانًا إلى حد السذاجة، والإعجاب بموهبته، والاحترام

^٢ «الإخوة باشماكوف»، بانافيدين، كليوخين: تجار كتب في بطرسبورج.

والإخلاص من أناس لا يعرفهم على الإطلاق، وإنما أناس يعبرون عن تعاطفهم مع نشاطه الفني.

٢

بداية العام ١٨٨٠م، الأمسيات الثقافية زيارة المعارف

أقول، على وجه العموم، إن عام ١٨٨٠م قد بدأ ونحن في ظروف طيبة؛ ها هي صحة فيودور ميخايلوفيتش تسير، كما يبدو، إلى الأفضل بعد رحلته إلى إمس في العام الماضي (١٨٧٩م)، أما نوبات الصرع فأصبحت تداهمه على نحو أقل. كما أن أطفالنا كانوا يتمتعون بصحة جيدة. وقد حققت رواية «الإخوة كارامازوف» نجاحًا لا شك فيه، وكان فيودور ميخايلوفيتش، وهو الصارم دائمًا في أحكامه تجاه نفسه، راضيا تمامًا عن عدد من فصول الرواية.^٤ وقد تحقق مشروعنا الذي كنا نفكر فيه (تجارة الكتب)، وحققت إصدارتنا مبيعات لا بأس بها. إجمالًا، فقد سارت أمورنا سيرًا حسنًا. كل هذه الظروف مجتمعة، كان لها أطيّب الأثر على فيودور ميخايلوفيتش، وكانت روحه المعنوية عالية ومزاجه طيبًا ومرحًا.

في مطلع العام كان فيودور ميخايلوفيتش مهتمًا بالمناقشة المنتظرة لفلاديمير سيرجيفيتش سولوفيفوف للحصول على لقب دكتور في الفلسفة، وقد رأى أن حضوره هذا الاحتفال أمر لا بد منه. أنا أيضًا ذهبت بصحبة زوجي حتى أجنبّه، بالدرجة الأولى، احتمال الإصابة في الزحام بنزلة برد. كانت المناقشة رائعة، وقد نجح سولوفيفوف في التصدي لهجوم مناقشيه الجادين والرد عليهم في أثناء سير المناقشة. ظل فيودور ميخايلوفيتش منتظرًا حتى انفض الجمهور ليتمكن من مصافحة صاحب الاحتفال. أظهر سولوفيفوف

^٤ أرفق دستوفسكي بالفصل الذي أتمه من رواية «الإخوة كارامازوف» خطابًا إلى محرر «البشير الروسي» ن. أ. لوبيموف، في الثلاثين من يناير ١٨٧٩م، جاء فيه: «لا أدري أي عيب في الفصل الثالث، الذي أرسله إليك، بل، على العكس تمامًا، أظن أن التوفيق قد حالفني في كتابته (أرجو أن يتسع صدرك لهذا التباهي الصغير؛ لعلك تذكر مقولة القديس بولص: «لم أجد من يمدحني، فمدحت نفسي»» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٤٦).

سعادته بوجود فيودور ميخايلوفيتش، الذي، على الرغم من ضعفه، حرص على الحضور إلى الجامعة؛ ليكون ضمن أصدقائه في هذا اليوم المشهود من حياته.^٥

في عام ١٨٨٠م، وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوفيتش بذل جهداً كبيراً في رواية «الإخوة كارامازوف»، فقد وافق على حضور عدد من الأمسيات الأدبية لصالح بعض من الهيئات المختلفة. كانت براعة فيودور ميخايلوفيتش في القراءة دائماً ما تجذب الجمهور، ولم يكن ليتوانى عن الموافقة على المشاركة مهما كانت مشاغله، ما دام صحيحاً معافى. أذكر أنه قد شارك في الأمسيات التالية منذ بداية العام: في الثاني من فبراير شارك بالقراءة في ثانوية كولومنسكايا النسوية؛ بناءً على طلب من بيوتر فاينبرج.^٦ وفي العشرين من مارس قرأ في قاعة مبنى البلدية لصالح أطفال دار الرحمة في سان بطرسبورج، وهناك اختار زوجي «حديث الأب زوسيم مع النساء».^٧

وفي اليوم التالي (٢١ مارس) اضطر فيودور ميخايلوفيتش للاشتراك بالقراءة في قاعة الجمعية الخيرية لصالح فصول الدراسات التربوية. وقد اختار زوجي مقطع «حلم راسكو لنيكوف عن الحصان المنهك». كان الانطباع الذي تركته القراءة على الناس بالغ

^٥ دافع فلاديمير سولوفيفوف عن طريق أطروحته للدكتوراه «نقد الأفكار المجردة»، في السادس من أبريل ١٨٨٠م في جامعة بطرسبورج.

^٦ بيوتر إيسافيتش فاينبرج (١٨٣١-١٩٠٨م): شاعر ومترجم. زميل دستوفسكي في الصندوق الأدبي.

^٧ لا أستطيع ألا أذكر عن هذا الحادث الغريب، الذي وقع معي في الأمسية الأدبية التي جرت في العشرين من مارس ١٨٨٠م، كانت قاعة مبنى البلدية مكتظة بجمهور جاء إلي الأمسية في أبهى ثياب، وكان أغلبهم من الرجال. عندما تفحصت هذا الجمع، أدهشني أمر وحيد تحديداً: أن غالبية وجوه فيودور ميخايلوفيتش بذلك، وقد تعجب لهذه الظاهرة الغريبة. لكن الأمر اتضح، عندما طُلب من المشاركين وزوجاتهم أن يحضروا، في وقت الاستراحة، إلى قاعة جانبية. وهناك صُفّت على الموائد الكبيرة المزهريات وزجاجات الشمبانيا والفاكهة والحلوى، وقام منظمو الأمسية — محافظ المدينة، إيفان إيليتش جلازونوف، وزوجته السيدة جلازونوفا، راعية دار الرحمة — باستضافة المغنين والأدباء بحفاوة وترحاب شديدين، وقد حضر الأمسية، بطبيعة الحال، تجارٌ وبائعو محل جوستيني دفور الشهير، الذين لبّوا الدعوة إلى الأمسية باعتبارهم من المؤسسة الراعية للمناسبة. ولما كنت قد أنفقت بضعة أيام أطوف بكل أنحاء محل جوستيني دفور؛ بحثاً عن أقمشة زاهية الألوان، جميلة الرسوم، لزوم ملابس الأولاد الصيفية، ولهذا تذكرت وجوه البائعين فبت لي الآن معروفة. كنت في غاية السرور؛ لأن الأمر الذي بدا لي في البداية مرضاً ما غير معروف؛ قد اتضح لي الآن ببساطة (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

الأثر، وقد شاهدت بعيني رأسي كيف جلس الناس وقد شحبت وجوههم من الفزع، بينما راح بعضهم يبكي. أنا نفسي لم أستطع كبح دموعي. كانت القراءة الأخيرة في الربيع، وكان موضوعها حديث راسكولنيكوف مع مارمیلادوف، وجرت في الثامن والعشرين من مارس في مبنى الجمعية الخيرية لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة سان بطرسبورج. تجددت أمسيات القراءة الأدبية في خريف ١٨٨٠م. بعد أن استمع فيكتور جايفسكي،^٨ رئيس الصندوق الأدبي، إلى كلمة فيودور ميخايلوفيتش في احتفالية بوشكين، أقنعه بالمشاركة بالحضور للقراءة لصالح الصندوق، يوم التاسع عشر من أكتوبر، وهو يوم الاحتفال ببوبيل الليسيه.^٩ وبالفعل حضر فيودور ميخايلوفيتش وقرأ مشهداً من مسرحية «الفارس الفقير» (الفصل الثاني)، ثم قرأ بعده قصيدة «مثل وقت دافئ في الربيع». وعندما راح الجمهور يدعوه لمزيد من القراءة، ألقى قصيدة «النبى»، الأمر الذي أثار حماساً منقطع النظير لدى الجمهور، حتى إن حوائط جمعية الائتمان، حيث جرى الاحتفال، بدت وكأنها تهتز من أثر التصفيق العاصف. انحنى فيودور ميخايلوفيتش عدة مرات محيياً الحضور، ثم غادر المنصة، لكن الجمهور راح يستدعيه مرة وراء الأخرى، وقد استمر هذا الوضع ما يقرب من عشر دقائق.^{١٠}

ونظراً للنجاح المدوي لهذه القراءة، فقد قرر فيكتور جايفسكي أن يعيدها بعد أسبوع، أي في السادس والعشرين من أكتوبر بنفس البرنامج ونفس المؤدين. وبفضل رد الفعل السابق، فقد جذبت الأمسية التالية جمهوراً كبيراً وقف جانب منه في المرات. وعندما خرج فيودور ميخايلوفيتش إلى المنصة استقبله الجمهور بتصفيق طويل، حتى إن زوجي لم يستطع أن يبدأ قراءته، ثم راح الجمهور يقاطعه بعد كل شطرة بالتصفيق ولم يسمح له بمغادرة المنصة. وقد وصل الحماس ذروته بالحضور عندما أنهى فيودور ميخايلوفيتش قراءة قصيدة «النبى». لقد حدث شيء ما هنا لا يمكن وصفه بالكلام.

^٨ فيكتور بافلوفيتش جايفسكي (١٨٢٦-١٨٨٨م): محام، مؤرخ أدبي ومفهرس. أحد مؤسسي الصندوق الأدبي ورئيسه لسنوات طويلة.

^٩ الليسيه: مدرسة متميزة في روسيا القيصرية، كان يدرس بها أبناء النبلاء ورجال البلاط، ومنهم الشاعر ألكسندر بوشكين، والأعمال التي قرأها دستوفسكي في هذه المناسبة، من أعمال هذا الشاعر. (المترجم)

^{١٠} عن كلمة دستوفسكي التي ألقاها في التاسع عشر من أكتوبر ١٨٨٠م، انظر: «اليوميات والمذكرات (١٨٥٤-١٨٨٦م)» ي. أ. شتاكينشنايدر (موسكو، ليننجراد، ١٩٣٤م).

ومرة أخرى يذهب فيودور ميخايلوفيتش في الحادي والعشرين من نوفمبر إلى الجمعية الخيرية ليقراً فيها لصالح الصندوق الأدبي. وفي الجزء الأول من الأمسية، قرأ قصيدة نكراسوف «ظلمة الضلال»، وفي الجزء الثاني، قرأ مقاطع من الجزء الأول من قصيدة جوجول «الأنفس الميتة».^{١١}

في الثلاثين من نوفمبر، أقيمت أمسية في جمعية الائتمان لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة سان بطرسبورج، قرأ فيها فيودور ميخايلوفيتش الفصل المعنون «دفن إيليوشيتشكا» من «الإخوة كارامازوف». كانت القراءة بصوت خفيض، وعلى الرغم من ذلك بلغت من فنيته أنها مسّت القلوب مسّاً موجعاً، حتى إنني شاهدت حولي وجوهاً باكية مكلومة، ليس فقط من النساء. قدّم الطلاب إلى زوجي إكليلاً من الغار، ورافقه جمهور كبير حتى باب البناية. لقد استطاع فيودور ميخايلوفيتش أن يتأكد بنفسه إلى أي حد يحبه الشباب ويقدره. كان إدراك هذا أمراً عزيزاً على زوجي.

اعتاد الجمهور أن يستقبل فيودور ميخايلوفيتش بكل حفاوة في أمسيات القراءة الأدبية. كان ظهوره على المنصة يثير عاصفة من التصفيق تستمر بضع دقائق. فيودور ميخايلوفيتش يهب في أنثائه واقفاً عن كرسيه فينحني ويشكر الجمهور، الذي لا يني يعطيه الفرصة للقراءة، ثم بعد ذلك يعود ليقاطعه أكثر من مرة بتصفيق يُصمّ الأذان. نفس الشيء كان يحدث بعد الانتهاء من القراءة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يضطر للعودة لتحية الجمهور، بعد مغادرته المنصة، ثلاث أو أربع مرات. بالطبع فإن إعجاب الجمهور بموهبته كان يُسعد فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يشعر برضاً معنوي عظيم. قبيل القراءة، كان فيودور ميخايلوفيتش يخشى ألا يسمع الناس صوته الواهن، وقد لا يسمع صوته إلا الجالسون في الصفوف الأولى، وكانت هذه الفكرة تؤرقه. لكن التوتر العصبي الذي كان يسيطر عليه في هذه الأحوال كان يجعل من صوته، حتى ولو كان ضعيفاً، مدوياً على نحو واضح، وتصبح كل كلمة من كلماته جلية مسموعة في كل أركان القاعة الفسيحة.^{١٢}

^{١١} «الأنفس الميتة» (الجزء الأول، ١٨٤٢م). رواية/قصيدة حسب تصنيف نيكولاي جوجول (١٨٠٩-١٨٥٢م)، وقد أحرقت مخطوطة الجزء الثاني منها في عام ١٨٥٢م. (المترجم)

^{١٢} من اللافت للانتباه أن دستوفسكي نفسه، بشهادة معاصريه من الأدباء، كان يتحدث كثيراً عن الطابع الفريد المميز لقراءاته الأدبية بقوله: «أتراني أقرأ بصوتي؟! إنما أنا أقرأ بأعصابي!» (أ. موشين، الجديد عن الكتاب العظام ... الطبعة الثانية، سان بطرسبورج، ١٩٠٨م، ٧٣).

هناك حقيقة هامة ينبغي ذكرها هنا؛ لقد كان فيودور ميخايلوفيتش قارئاً من الطراز الأول.^{١٣}

وسواء أكان يقرأ من أعماله أم أعمال كُتَّاب آخرين، فقد تميزت قراءته بإبراز تنوع وخصائص محل عمل من هذه الأعمال. وفي الوقت نفسه فقد كان يقرأ بسلاسة دون أن يلجأ لأي أسلوب من أساليب الخطابة. لقد ترك فيودور ميخايلوفيتش أثراً مذهلاً على مستمعيه بقراءته (وبخاصة عندما قرأ قصة نيللي من «مذلون مهانون» أو أليوشا كارامازوف وهو يحكي عن إيليوشيتشكا). كنت أشاهد الدموع في عيون الحضور؛ وأنا نفسي كنت أبكي، على الرغم من أنني كنت أحفظ هذه المقاطع عن ظهر قلب. كان فيودور

^{١٣} وحتى لا يكون حديثي دون سند، سأورد هنا كلمات سميون أفانا سيفيتش فينجيروف عن الانطباع الذي تركه فيودور ميخايلوفيتش في نفسه. «كان من نصيبي أن أنال هذه السعادة الكبرى بالاستماع إليه (دستوفسكي) وهو يقرأ في إحدى الأمسيات التي نظمها الصندوق الأدبي عام ١٨٧٩م ... ليس هناك نُدُّ له كقارئ؛ يمكن أن نسمي دستوفسكي «قارئاً» لأنه لا يوجد على الإطلاق تعريف لهذا الرجل، الذي يخرج إلى المنصة ليقرأ روايته وقد ارتدى معطفاً أسود. في هذه الأمسية نفسها، التي استمعت فيها إلى دستوفسكي، قرأ تورجينيف وسالتيكوف؛ شيدرير وجريجوروفيتش وبولونسكي وألكسي بوتخين. وباستثناء سالتيكوف، الذي قرأ على نحو رديء، وبولونسكي، الذي قرأ بنبرة احتفالية غنائية للغاية، فقد قرأ الآخرون على نحو جيد. ولكن الأمر، تحديداً، لم يكن سوى مجرد قراءة. أما دستوفسكي فكانت قراءته تنبئية بكل معنى الكلمة. قرأ بصوت رقيق — لكنه واضح وثاقب، وعلى نحو مؤثر يصعب وصفه — واحداً من أروع فصول «الإخوة كارامازوف» — «اعترافات قلب حار» — حيث يحكي ميتيا كارامازوف كيف جاءت إليه كاترينا إيفانوفنا تطلب منه نقوداً لتعطيها لأبيه. وإلى وقتنا هذا لم أشاهد مطلقاً صمتاً مطبقاً مثل هذا الصمت الذي ساد القاعة، وقد اندمج الحضور، البالغ عددهم ما يزيد عن ألف شخص، اندماجاً تاماً بأرواحهم، رغم اختلاف أمزجتهم، وكأنهم توحّدوا في شخص واحد. وعندما كان الآخرون يقرءون لم يكونوا ليفقدوا «ذواتهم»، وإن تعاملوا، على نحو أو آخر، مع ما استمعوا إليه، كلٌّ على طريقته. وحتى القراءة الرائعة لتورجينيف، بالاشتراك مع سافينا، لم تصعد بالجمهور إلى ذرى عالية. أما عندما يقرأ دستوفسكي، فالمستمع، مثله مثل قارئ رواياته الكابوسية العبقريّة، يفقد «ذاته» تماماً ويصبح أسيراً بكل كيانه لسلطان التنويم المغناطيسي لهذا العجوز النحيل، رث الهيئة، ذي النظرة الثاقبة الحادة النافذة المشتعلة بنيران غامضة، تشبه، على الأرجح، هذا البريق الذي كان يتأجج يوماً ما في عيون البابا أفاكوم.» (صحيفة «ريتش» («الخطاب») ٢٥ أبريل ١٩١٥م) (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

مخيلوفيتش يرى أن من المفيد أن يبدأ كل قراءاته بتقديم موجز؛ حتى يتسنى فهمها للأشخاص الذين لم يقرأوا النص، أو قرأوه ثم غاب عن ذاكرتهم.^{١٤}

وبالإضافة إلى الأمسيات الأدبية، حرص فيودور مخيلوفيتش على زيارة معارفه. في شتاء ١٨٧٩-١٨٨٠م زار إيفان بتروفيتش كورنيلوف^{١٥} المحترم (الراعي السابق لإقليم فنلنيسكي التعليمي)، وقد قابل لديه العديد من العلماء والشخصيات، التي كانت تشغل مكانة رسمية رفيعة. وقد حضر فيودور مخيلوفيتش الأمسيات التي كانت تقيمها يلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر (ابنة المعماري البارز)، وكان عدد من الأدباء البارزين يجتمعون في بيتها أيام الثلاثاء فيقرءون أحياناً مقاطع من أعماله.^{١٦} وكانت تنظم أيضاً مسرحيات منزلية؛ أذكر، على سبيل المثال، أنني وزوجي حضرنا في شتاء عام ١٨٨٠م عرض «دون جوان»، وقد أدى الأدوار المسرحية: ص. ف. أفيركييفا^{١٧} في دور دونا آنا. وقد أدت الدور بموهبة فائقة، وقد قام بالأداء أيضاً الشاعر ك. ك. سلوتشيفسكي^{١٨} ونيكولاي سترخوف. وقد أدى الأخير دوراً مناسباً له، حتى إن فيودور مخيلوفيتش صفق له بشدة، وكان في حالة من المرح الشديد في هذه الأمسية. وقد تعرّف فيودور مخيلوفيتش في هذا الشتاء أيضاً على ليديا إيفانوفنا فيسيليتسكايا^{١٩} في بيت شتاكينشنايدر، وقد اشتهرت ليديا كأديبة بعد ذلك باسم ف. ميكوليتش. أود أن أشير هنا إلى دقة حدس فيودور مخيلوفيتش؛ فبعد أن تحدث مع هذه الفتاة الشابة مرتين أو ثلاثاً، خمن، على

^{١٤} يحكي س. أ. فينجروف عن إحدى الأمسيات الأدبية التي أقيمت يومَي التاسع والسادس عشر من مارس ١٨٧٦م في قاعدة الجمعية الخيرية أن تورجينيف قرأ في الأمسية الأولى قصة «العمدة»، وفي الثانية «الذئب»، وفيها قرأ أيضاً مقطعاً من كوميديا «القروية الساذجة» بصحبة م. ج. سافينا. (انظر: «الصوت»، ١٨٧٩م، ١١ مارس، العدد ٧٠؛ ٨ مارس، رقم ٧٧؛ كتاب «تورجينيف وسافينا»، براج، ١٩١٣م، ص ٦٨-٦٩، ٨٠).

^{١٥} إيفان بتروفيتش كورنيلوف (١٨١١-١٩٠١م): جامع للمخطوطات والكتب القديمة، وقد انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين دستوفسكي في نهاية السبعينيات.

^{١٦} انظر: ي. أ. شتاكينشنايدر، اليوميات والمذكرات (١٨٥٤-١٨٨٦م)، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٤م.

^{١٧} صوفيا فيكتورفنا أفيركييفا (١٨٤٠م- ما بعد ١٩١٧م): ممثلة.

^{١٨} قنستطنطين قنستطنطينوفيتش سلوتشيفسكي (١٨٣٧-١٩٠٤م): شاعر، ناشر، وناقد، ومحرر مجلة «برافيتلستفني فيسنيك» («بشير الحكومة»).

^{١٩} فيسيليتسكايا، ليديا إيفانوفنا (الاسم الأدبي «ميكوليتش») (١٨٥٧-١٩٣٦م): كاتبة.

الرغم من حداثة عمرها وارتباكها المفهوم، أنها ستصبح لا مجرد سيدة مجتمع بارزة، وإنما شخصية تمتلك إرهابات لشيء ما أسمى، طموحاً لمثل أعلى، وعلى الأرجح، موهبة أدبية. لم يخطئ حدس فيودور ميخايلوفيتش؛ وقد تركت مؤلفة «ميموشك» أثراً بارزاً بأعمالها الأدبية في الأدب الروسي.^{٢٠}

كانت يلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر موضع احترام ومحبة فيودور ميخايلوفيتش؛ لطبيعتها الدائمة ودماثة خلقها، التي احتملت بها أمراضها المزمنة، ودون أن تفصح عن شكاواها منها علناً، وإنما على العكس من ذلك، كانت تشيع البهجة في نفوس الآخرين بحفاوتها وترحابها.

كان أدريان أندرييفيتش، الأخ الأصغر ليلينا أندرييفنا، يتمتع بمحبة خاصة بين أفراد عائلة شتاكينشنايدر،^{٢١} وهو شاب ذكي واسع الأفق، وكان معجباً بموهبة فيودور ميخايلوفيتش بإخلاص. كان فيودور ميخايلوفيتش دائم التشاور مع محام موهوب مثل أدريان أندرييفيتش بشأن كل الأحداث التي تدور في عالم المحاكم وعن نظمها. ويدين فيودور ميخايلوفيتش بمعلوماته في هذا الشأن له، حتى إن كل تفاصيل محاكمة ميتيا كارامازوف كانت من الدقة بحيث إن أي ناقد حقوق (وهؤلاء ما أكثرهم) لم يكن ليجد فيها أي خطأ أو هفوة.

كان فيودور ميخايلوفيتش شغوفاً بزيارة قنصلنطين بوبيدونوستسيف؛ الذي كان الحديث معه يمثل متعة ذهنية رفيعة لزوجي، باعتبار الحديث تواصلاً مع عقل راجح، ذي فكر عميق، على الرغم من ميله للشك.

على مدى عامي ١٨٧٩-١٨٨٠م واطب فيودور ميخايلوفيتش على زيارة الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا أرملة المرحوم الشاعر الكونت ألكسي تولستوي. كانت امرأة شديدة الذكاء، ومثقفة واسعة الاطلاع. كان زوجي يرى أن النقاش معها أمر غاية في الروعة، وكان يبدي دائماً تعجبه من موهبتها وقدرتها على النفاذ إلى جوهر الأمور وإبداء الرأي في العديد من الأفكار الفلسفية، وهو أمر نادر بين النساء.^{٢٢}

^{٢٠} تركت ل. إ. فيسيليتسكايا مذكراتها عن تعرفها بدستوفسكي ولقاءاتها معه. ف. ميكوليتش، لقاء من الشهر، موسكو، ١٩٠٣م. وقد تضمن كتابها «لقاءات مع الكتاب»، لينجراد، ١٩٢٩م، هذه المذكرات.

^{٢١} أدريان أندرييفيتش شتاكينشنايدر (١٨٤١-؟) محام، ابن المعماري شتاكينشنايدر.

^{٢٢} نظمت صوفيا أندرييفنا تولستايا صالوناً أدبياً في بيتها، كان من بين المترددين عليه كل من جونتشاروف وتورجينييف وفلاديمير سولوفيوف، وكان دستوفسكي يكنّ لصوفيا أندرييفنا احتراماً كبيراً ومشاعر

وبالإضافة إلى ما كانت تتمتع به هذه المرأة البارزة من فطنة، كان لها قلب عطوف وإحساس مرهف، وسوف أظل أذكر لها طوال عمري بكل امتنان أنها أدخلت السرور على قلب زوجي ذات يوم.

ف ذات مرة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يتجاذب أطراف الحديث مع الكونتيسة عن قاعة الصور الفنية في درزذن، أعرب عن رأيه في لوحة العذراء السيستينية، وأضاف قائلاً — بالمناسبة، وقد تملكه إحساس بالحزن — إنه لم يستطع إطلاقاً أن يحضر معه من الخارج صورة فوتوغرافية كبيرة للوحة العذراء، وأن الحصول عليها هنا أمر يكاد يكون مستحيلاً. وعندما ذهب فيودور ميخايلوفيتش إلى إمس، كان يود لو أنه تمكّن من شراء نسخة من هذه اللوحة، لكنه لم يتمكن من تحقيق رغبته. أنا أيضاً بحثت عن نسخة

ودية خالصة، وهو ما يؤكد خطابه إليها، المؤرخ ١٣ يونيو ١٨٨٠م (الخطابات، المجلد الرابع، ١٧٤). تكتب لوبوف فيودوروفنا دستوفسكايا في كتابها "Dostojewski, geschildert von seiner tochter" في الفصل المعنون «صالون الأميرة تولستايا»: «كان صالون الأميرة تولستايا أرملة الكاتب ألكسي تولستوي، من بين أكثر الصالونات الأدبية شهرةً في بطرسبورج، التي كان دستوفسكي يحرص على حضورها في السنوات الأخيرة من حياته. وتؤكد ابنة الكاتب (لوبوف دستوفسكايا) أن دستوفسكي ذكر أن تولستايا، في رأيه، كانت تمتلك بصيرة نافذة «حادة كالصلب». وبعد أن استقر المقام الأخير بالأميرة تولستايا في بطرسبورج، راحت تستقبل في بيتها كل أصدقاء زوجها القدامى من الشعراء والكتاب، وكانت تسعى في الوقت نفسه لعقد صداقات أدبية جديدة. وبعد أن قابلت أبي سارعت بدعوته، وكانت تكنُّ له كل مشاعر الود والاحترام. تناول أبي في بيتها طعام الغداء أكثر من مرة، وكان يزورها مساءً، وقد وافق على قراءة بعض فصول من «الإخوة كارامازوف» في صالونها قبيل نشرها. وسرعان ما اعتاد على زيارة الأميرة تولستايا في أوقات نزهاتها ليتبادل معها آخر الأخبار. وعلى الرغم من بعض مشاعر الغيرة التي كانت تنتاب أمي، إلا أنها كانت توافق أن يقوم زوجها أحياناً بزيارة الأميرة، التي كانت قد تخطت آنذاك العمر الذي كان يجعل منها موضوعاً للإغراء. كانت الأميرة ترتدي دائماً ملابس سوداء وتضرب على رأسها خمار الأرامل، الذي كان يغطي شعرًا كساه اللون الأبيض؛ وقد صَفَّفته على نحو يتسم بالبساطة الشديدة، وكانت الأميرة تسعى لأن يُعجب الناس بعقلها الراجح ومعاملتها الودية. كانت قليلاً ما تغادر بيتها، وإن فعلت فلا تتجاوز دائماً الرابعة مساءً، وهو الوقت التي تكون مستعدة فيه لدعوة دستوفسكي على قنح من الشاي. كانت الأميرة امرأة مثقفة للغاية، تُكثر القراءة باللغات الأوروبية كلٌّ، وكثيراً ما لفتت انتباه أبي إلى مقالة ما على قدر من الأهمية من بين المقالات التي ظهرت في أوروبا. كان دستوفسكي ينفق وقتاً طويلاً في كتابة رواياته، وبطبيعة الحال لم يكن بمقدوره أن يقرأ كثيراً كما كان يحب (...). كانت الذبرة الودية المهذبة، التي كانت تسود صالون الأميرة، من الأمور المحببة، التي كانت تفتقر إليها الصالونات الأدبية الأخرى المبتذلة (...) كان أبي يفضل الرفاهية والراقي المحتشم الذي كان يميز صالون تولستايا.»

كبيرة من صورة العذراء في محال الصور المستنسخة في العاصمة دون جدوى. وبعد مرور أسبوعين/ ثلاث على هذا الحديث، وذات صباح، وكان فيودور ميخايلوفيتش ما يزال نائمًا، إذا بفلاديمير سولوفيوف يأتي لزيارتنا، وقد حمل معه صندوقًا ضخمًا من الورق المقوى، وإذا بداخل هذا الصندوق صورة فوتوغرافية رائعة لعذراء السيستينية بالحجم الطبيعي، ولكن دون الشخصيات التي تحيط بها.

وقد أخبرني فلاديمير سرجييفيتش، الذي كان صديقًا مقربًا من الكونتيسة تولستايا، أنها تبادلت بعض الرسائل مع معارفها في درزدن، وهؤلاء أرسلوا إليها هذه الصورة الفوتوغرافية، وقد طلبت الكونتيسة من فيودور ميخايلوفيتش أن يقبلها منها «لذكرى الطيبة». حدث ذلك في منتصف أكتوبر ١٨٧٩م، وقد وصلت إلى فكرة وضع إطار لها على الفور؛ لتدخل السرور على قلب فيودور ميخايلوفيتش يوم عيد ميلاده، في الثلاثين من أكتوبر. وقد أخبرت سولوفيوف بفكرتي، وقد استحسناها، وقد سارعت بعمل إطار لها حتى لا تتعرض للتلف. طلبت من فلاديمير سولوفيوف أن ينقل إلى الأميرة امتناني القلبي لفكرتها الرائعة، وفي الوقت نفسه نبهتها إلى أن فيودور ميخايلوفيتش لن يرى هديتها قبل موعد الاحتفال بعيد ميلاده، وهو ما حدث بالفعل؛ ففي عشية الثلاثين من أكتوبر، تسلمت الصورة في إطار من خشب البلوط الداكن المنقوش، ملفوفة في غلاف، ومعهما مسمار لتثبيتته في الحائط، فوق الأريكة (سرير فيودور ميخايلوفيتش) حيث ينعكس الضوء عليها هناك بشكل أفضل، فيبرز خصائص هذه الرائعة الفنية Chef-d'oeuvr.

وفي صباح يوم الاحتفال بعيدنا العائلي، عندما خرج فيودور ميخايلوفيتش ليشرب الشاي في غرفة المائدة، سارعت بوضع الصورة في مكانها. وبعد تبادل التهاني المرححة مع الأطفال، توجهنا معًا إلى غرفة المكتب، وكم كانت دهشة فيودور ميخايلوفيتش وابتهاجه، عندما التقت عيناه بالعذراء التي كان يحبها حبًا شديدًا! «أين استطعت العثور عليها، أنيا؟» سألني فيودور ميخايلوفيتش معتقدًا أنني اشتريتها، وعندما شرحت له أنها هدية من الكونتيسة تولستايا، شعرت أن هذه اللفتة مسّت شغاف قلبه. وفي اليوم نفسه ذهب ليعبر لها عن شكره وامتنانه. كم من مرة وجدته في العام الأخير من حياته واقفًا أمام هذه اللوحة الرائعة في حالة من الخشوع العميق، حتى إنه لم يكن ليلحظ دخولي. وحتى لا أقطع عليه نشوته الروحية، كنت أغادر الغرفة في هدوء. كان امتناني للكونتيسة تولستايا مفهومًا، فقد أعطت زوجي بهديتها إمكانية الإفصاح عن مشاعر البهجة والتأثر العميق أمام وجه العذراء! هذه الصورة تمثل كنزًا من كنوزنا العائلية، وهي محفوظة لدى ابني.

كان فيودور ميخايلوفيتش يحب زيارة الكونتيسة صوفيا تولستايا لأن لديها أيضًا عائلة لطيفة تحيطها، ابنة أختها، صوفيا بتروفنا خيتروفو، وهي امرأة شابة بشوشة، وأطفالها الثلاثة: ولدان وفتاة رائعة. كان هؤلاء الأطفال في سن أطفالنا، وقد قمنا بتعريفهم بعضهم ببعض، وقد تصادقا؛ الأمر الذي أسعد فيودور ميخايلوفيتش.

التقى فيودور ميخايلوفيتش لدى الكونتيسة صوفيا تولستايا بالعديد من سيدات المجتمع الراقى: الكونتيسة ألكسندرا أندرييفنا تولستايا^{٢٣} (وهي تمت بصلة قرابة للكونت ليف تولستوي)،^{٢٤} إليزافيتا ألكسييفنا ناريشكينا،^{٢٥} الكونتيسة أنا جوريفنا كوماروفسكايا،^{٢٦} يوليا فيودوروفنا أباطة،^{٢٧} الكونتيسة فولكونسكايا، يوليا فانيليارسكايا،^{٢٨} المغنية لأفروفسكايا، كونتيسة تسيرتيليفنا^{٢٩،٣٠} وغيرهن. كن جميعهن

^{٢٣} ألكسندرا أندرييفنا تولستايا (١٨١٧-١٩٠٤م): ابنة عمه الكاتب الكونت ليف تولستوي.

^{٢٤} يضم كتاب: «متحف تولستوي»، الجزء الأول، «مراسلات ليف تولستوي وألكسندرا تولستايا، ١٨٥٧-١٩٠٣م». سان بطرسبورج، ١٩١١م، مذكرات ألكسندرا تولستايا عن لقاءاتها بدستوفسكي، وكانت ألكسندرا تولستايا قد قامت بتعريف دستوفسكي قبيل وفاته بنظرات ورؤى ليف تولستوي الجديدة، وسمحت له أن يطلع على خطابه، وكانت ألكسندرا تولستايا قد اقتربت منه أكثر في هذه الفترة.

^{٢٥} إليزافيتا ألكسييفنا ناريشكينا (١٨٤٠م-بعد ١٩١٠م): كونتيسة، اشتهرت بأعمالها الخيرية.
^{٢٦} أنا جوريفنا كوماروفسكايا (١٨٣١-١٩٠٦م): وصيفة في بلاط الكونتيسة العظيمة ألكسندرا يوسيبوفنا، أرملة الأمير العظيم قنسنطين نيكولايفيتش.

^{٢٧} يوليا فيودوروفنا أباطة (١٨٣٠-١٩١٥م): كاتبة، مغنية، مؤلفة موسيقى، مديرة ملجأ أطفال السجناء. صاحبة صالون موسيقي تردد عليه تشايكوفسكي وروبنشتاين. زوجة وزير المالية أ. أباطة.

^{٢٨} يوليا فيودوروفنا فانيليارسكايا: كونتيسة، كاتبة، زوجة نيكولاي سافيتش، سيناتور وعضو مجلس الدولة ورئيس الإدارة العليا للبريد، كان رقيبًا على الإصدار الأخير «لمذكرة الكاتب».

^{٢٩} لم يول كُتاب سيرة دستوفسكي حتى الآن أي اهتمام لذكر اسم لافروفسكي ضمن أصدقائه من الكتاب في السنوات الأخيرة من حياته. بينما يدور الحديث عن المغنية الروسية البارزة إليزافيتا أندرييفنا لافروفسكايا، التي كانت تحظى بشهرة نادرة في دوائر المثقفين الروس المهتمين بالفن. وقد أثنى على موهبتها: إيفان تورجينيف وبيوتر تشايكوفسكي، الذي رأى في ليزافيتا لافروفسكايا واحدة من أعظم ممثلي مدرسة الغناء الروسي (انظر: بيوتر إيليتش تشايكوفسكي، مقالات وملاحظات موسيقية، موسكو، ١٨٩٨م)؛ وقد أهداها ست أغاني عاطفية (١٨٧٥م) ورباعية غنائية باسم «الليل» (١٨٩٣م)، وتحتفظ مكتبة لينين بخطاب لافروفسكايا إلى دستوفسكي، عبرت فيه عن امتنانها لصورته التي أهداها إياها ومعها خطابه عن بوشكين و«مذكرة الكاتب».

^{٣٠} إليزافيتا أندرييفنا لافروفسكايا (١٨٤٥-١٩١٩م): كونتيسة، مغنية روسية.

يتعاملن مع فيودور ميخايلوفيتش بإكبار ومودة كبيرة، وبعضهن كن من المعجبات بموهبته، ورغم أن فيودور ميخايلوفيتش كان ينفعل دائماً عند دخوله في جدل أدبي وسياسي في مجتمع الرجال، فقد كان يقدر دائماً التحفظ والرقّة التي تميز النساء في محاوراتهن.

ومن الشخصيات التي كان فيودور ميخايلوفيتش يميل إلى تبادل الحديث معهن، واللائي كان يزورهن أحياناً، أذكر هنا الكونتيسة يلزافيتا نيكولايفنا جايدن، ممثلة جمعية جيورجينسكي. كان ميخايلوفيتش يكتُّ لها احتراماً صادقاً على نشاطها الخيري الدؤوب وأفكارها السامية. كما كان يحب زيارة يوليا دينيسوفنا زاسيتسكايا^{٣١} (ابنة الفدائي دينيس دافيدوف)، وكان دائماً ما يدخل معها في جدل شديد، وإن كان ودياً، بشأن معتقداتها الدينية. نادراً ما كان فيودور ميخايلوفيتش يقوم بزيارة آناً بافلوفنا فيلوسوفوفا^{٣٢} وكان يقدر نشاطها الحيوي، وكان يقول إن لديها «قلباً ذكياً»^{٣٣}.

أقول، بالمناسبة، إن فيودور ميخايلوفيتش كان له كثير من الأصدقاء من النساء، اللائي كنَّ يأتمنَّه على أسرارهن وشكوكهن عن طيب خاطر، وكنَّ يطلبن منه النصح، ولم يكن ليرد لهن طلباً. على العكس، كان يولي اهتماماً ودياً خالصاً لاهتماماتهن، ويبدى آراءه بشأنها بكل صدق، مخاطراً أحياناً بإغضابهن بهذه الآراء. ولكنهن، وقد وضعت ثقتن فيه، كنَّ يدركن بحساسية فائقة، أن من النادر أن يجد الإنسان الذي يفهم أعماق المرأة ومعاناتها، على النحو الذي يتفهم، بل ويتنبأ به، فيودور ميخايلوفيتش.

^{٣١} يوليا دينيسوفنا زاسيتسكايا (١٨٨٢-٩م): كاتبة ومترجمة.

^{٣٢} آناً بافلوفنا فيلوسوفوفا (١٨٢٧-١٩١٢م): شخصية اجتماعية، مشاركة في الحركة النسائية.

^{٣٣} تمثل العلاقات الودية التي قامت بين أ. ب. فيلوسوفوفا باعتبارها شخصية اجتماعية بارزة وبين دستوفسكي، الذي كانت ترى فيه «معلمها الأخلاقي العزيز» أهمية مؤكدة (انظر مذكرات فيلوسوفوفا في كتاب: دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزء الثاني، ص ٣٢٢-٣٢٤). كانت فيلوسوفوفا في السبعينيات من المعارضين للنظام، وكانت تحتفظ في شقتها بمراجع محظورة، وهناك افترض أنها أوت فيراً زاسوليتش سرّاً في بيتها بعد محاكمتها. كتبت فيلوسوفوفا إلى زوجها، المدعي العسكري العام، تقول: «إنني أكره حكومتنا الحالية (...) إنها عصابة من المجرمين الذين يسوقون روسيا إلى الهلاك.» (في كتاب «ذكرات أ. ب. فيلوسوفوفا»، الجزء الأول، براج، ١٩١٥، ص ٣٢٦). كان دستوفسكي يكتُّ لفيلوسوفوفا احتراماً كبيراً، وقد كتب عن «قليلها الرائع الذكي» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٦٦-٦٧). واستناداً إلى رواية ابنتها، م. ف. كامينيتسكايا، فقد أصاب دستوفسكي الخوف والاضطراب، عندما علم بإمكانية اعتقال فيلوسوفوفا (انظر: دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزء الثاني، ص ٣٢٦).

السفر إلى موسكو للاشتراك في الاحتفال ببوشكين

في مارس عام ١٨٨٠م انتشرت الشائعات في الأوساط الأدبية بشأن الانتهاء من إقامة تمثال لبوشكين في موسكو، وأنه سيفتح في الربيع. وأن من المفترض أن يزاح الستار عن التمثال في احتفال مهيب. وقد أثار الحدث المنتظر اهتمام مثقفينا بشكل كبير، وأعد الكثير منهم عدته للسفر لحضور هذا الاحتفال. وقد تأسست في موسكو لجنة خاصة لافتتاح التمثال، وقد قررت جمعية محبي الأدب الروسي التابعة لجامعة موسكو الإمبراطورية الاحتفال بافتتاح التمثال بعقد اجتماعات جماهيرية. كان رئيس الجمعية هو س. يورييف،^{٣٤} وقد أرسل إلى الأدباء البارزين دعوات لحضور الاحتفال.^{٣٥} وقد تسلم فيودور ميخايلوفيتش، مثل باقي الأدباء، دعوة للحضور. وقد تضمنت الدعوة اقتراحاً له، ولغيره، أن يلقي خطاباً في افتتاح الاحتفال، إذا رغب في ذلك، يكون مكرساً لذكرى بوشكين. كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالقلق إزاء الآراء المتضاربة التي شاعت في

^{٣٤} سيرجي أندرييفيتش يورييف (١٨٢١-١٨٨٨م): ناقد أدبي ومترجم، محرر وناشر مجلتي «بسيديا» («المحاورة») (١٨٧١-١٨٧٢م)، «روسكايا ميسل» («الفكر الروسي») (١٨٨٠-١٨٨٥م)، رئيس جمعية محبي الأدب الروسي منذ عام ١٨٧٨م.

^{٣٥} من بين أكثر الكتاب شهرة، الذين أرسلت إليهم الدعوة لحضور احتفالات بوشكين في موسكو ولم حضروا: سالتيكوف شيدرين وإيفان جونتشاروف وليف تولستوي. وفي خطابه المؤرخ الثامن من مايو ١٨٨٠م إلى س. أ. يورييف شرح سالتيكوف شيدرين أسباب تخلفه عن الذهاب إلى موسكو متعللاً بالمرض، على أن تصريحاته المتأخرة عن الاحتفال ببوشكين تؤكد أن المرض لم يكن يمنعه من الذهاب والمشاركة في الاحتفال ببوشكين من قريب أو بعيد. الواقع أن سالتيكوف شيدرين لم يكن راضياً لأن القوى الديمقراطية لم تكن هي التي قامت على تنظيم الاحتفال. وفي الخامس والعشرين من يونيو ١٨٨٠م، كتب إلى أستروفسكي يقول: «لقد أثار الاحتفال ببوشكين لديّ قدرًا من سوء الفهم» يبدو أن تورجينيف الذكي ودستوفسكي المجنون استطاعا أن يسرقا احتفال بوشكين لصالحهما. م. ي. سالتيكوف شيدرين، الأعمال الكاملة، الجزء التاسع عشر، موسكو، ١٩٣٩م، ١٥٨. أما ليف تولستوي الذي لحق به تورجينيف خصوصاً إلى ياسنايا بوليانا، فقد رفض أيضاً المشاركة في احتفالات بوشكين. ووفقاً لما ذكره ك. م. ستانكوفيتش فإن «هذا الرفض أمر منطقي للغاية. لقد صرح الكونت تولستوي أكثر من مرة أن أدبنا ليس سوى تزجية لطيفة للوقت بالنسبة إلى القادرين، أما الشعب فالأمر سيان بالنسبة له، سواء وُجد بوشكين أم لم يُوجد» («ديلو»، ١٨٨٠م، العدد ٧، ص ١٠٧).

العاصمة، بشأن هذه الخطب سيلقيها ممثلو الحزبين الفكريين الموجودين آنذاك: أنصار النزعة السلافية، وأنصار النزعة الغربية. وقد أعلن أنه إذا لم يعوقه المرض، فإنه سيذهب حتمًا إلى موسكو ويلقي خطابه عن بوشكين، هذا الخطاب الذي ظل سنواتٍ عديدةً في عقله وقلبه. وفي هذا الصدد أعرب فيودور ميخايلوفيتش عن رغبته في أن أذهب بصحبته. بالطبع كنت سعيدة للغاية للذهاب إلى موسكو لأشاهد هذا الاحتفال الاستثنائي؛ فضلًا عن أن أكون إلى جوار فيودور ميخايلوفيتش في هذه الأيام، التي توقعت أن تنتابه فيها المخاوف.

كان أمرًا محزنًا بالنسبة إليّ، ومؤسفًا بالنسبة إلى فيودور ميخايلوفيتش، ألا تتحقق رحلتنا المشتركة. فعندما رحنا ندرس كيف سندبر أمر هذه الرحلة، وصلنا في النهاية إلى اقتناع بأنها رحلة صعبة المنال. فبعد وفاة ابننا أليوشا كان فيودور ميخايلوفيتش، الذي كان يعامل الأطفال بحب بالغ، أصبح أكثر وسوسةً فيما يخص حياة وصحة الأطفال؛ ومن ثم كان من المستحيل أن نفكر في الذهاب معًا ونترك أمر رعاية الأطفال للمربية. كان من المحتم عندئذٍ أن نصطحبهم معنا. على أنه لما كانت الرحلة والإقامة في موسكو لا يمكن أن تستغرق أقل من أسبوع، فإن إقامتنا مع الأطفال في فندق جيد (إضافة إلى نفقات السفر إلى موسكو والعودة) لا بد وأنها ستكلفنا ما لا يقل عن ثلاثمائة روبل. علاوة على ذلك، فإن مثل هذه الاحتفالات كانت تتطلب أن أظهر فيها بملابس زاهية، فإذا لم تكن ملابس فاخرة، فتكون محترمةً على أية حال، وهو ما سيزيد من تكلفة الرحلة. وزيادة في نكايتنا، فقد كان هناك سوء فهم ما بشأن حساباتنا مع «البشير الروسي»، وكان الحصول على نقود من هيئة التحرير تكتنفه بعض الصعوبات. باختصار، توصلنا أنا وزوجي، بعد تفكير طويل وتردد، أن عليّ أن أتنازل عن هذه الفكرة التي فتنّنتني بالسفر إلى موسكو لحضور الاحتفال. أود أن أقول إنني ظلت طوال عمري أرى أن عدم حضوري هذا الانتصار المدوي الذي حققه زوجي العزيز في عيد بوشكين؛ هو خسارة فادحة لا تعوّض.

وحتى يتمكن من أن تتاح له الفرصة في الهدوء والحرية في التفكير في كتابة خطابه في ذكرى بوشكين، أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يذهب مبكرًا إلى ستاريا روسا، وفي أوائل شهر مايو التأم شمل الأسرة بالفعل في الداتشا.

وفي أبريل من عام ١٨٨٠م، راح أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش يخبرونه أن مجلة «البشير الأوروبي» قد نشرت مقالًا لبافل أنينكوف تحت عنوان «عشر سنوات رائعة»،

تعرّض فيه الكاتب بالحديث عن دستوفسكي. اهتم فيودور ميخايلوفيتش اهتمامًا بالغًا بالمقال، وطلب مني أن أحصل من المكتبة على عدد أبريل من المجلة. وقد نجحت في الحصول عليه من معارفي قبيل سفرنا إلى روسيا مباشرة، وقد أخذنا العدد معنا إلى هناك. ما إن قرأ زوجي المقال حتى استشاط غضبًا؛ يتحدث أنينكوف في مذكراته عن أن دستوفسكي كان يقدر موهبته الأدبية على نحو مبالغ فيه، حتى إنه بدا كما لو كان يطلب أن يتم الاحتفاء بشكل خاص بروايته الأولى «الفقراء». وهذا الطلب كان مطبوعًا على هيئة «هامش» في جوانب الصفحات. استاء زوجي بشدة من هذه الفرية، وعلى الفور أسرع بالكتابة إلى سوفورين^{٣٦} طالبًا منه أن يعلن في «نوفوي فريميا» («العصر الحديث») على لسانه، أن شيئًا مما نشر في «البشير الأوروبي» في مقال أنينكوف عن مسألة «الهامش»؛ لم يحدث، ولا يمكن أن يحدث. كان العديد من أتراب فيودور ميخايلوفيتش (أبولون مايكوف على سبيل المثال)، الذين تذكروا تلك الفترة، يشعرون هم أيضًا بالاستياء الشديد من جرّاء هذا المقال الذي كتبه أنينكوف، وقد كتب سوفورين، بناءً على خطاب فيودور ميخايلوفيتش وشهادات معاصريه، ملاحظتين عبقريتين بخصوص «الهامش» (في الثاني والسادس عشر من مايو ١٨٨٠م) ونشرهما في «العصر الحديث».

وردًا على تكذيب فيودور ميخايلوفيتش، كتب أنينكوف في...^{٣٧} أن خطأ قد وقع، وأن طلب «الهامش» يخص عملاً آخر ليفودور ميخايلوفيتش يسمى «حكاية بليسميسلوف» (وهو عمل لم يكتب على الإطلاق). لقد أثارت الفرية التي أطلقها أنينكوف غضب زوجي، إلى حد أنه قرر أن يتجاهله، إذا ما حدث وقابله في عيد بوشكين، وأنه لن يمد يده لمصافحته إذا ما اقترب منه.^{٣٨}

^{٣٦} ألكسي سيرجييفيتش سوفورين (١٨٢٤-١٩١٢م): صحفي وناشر؛ بدأ في إصدار صحيفة «العصر الحديث» منذ عام ١٨٧٥م؛ تعرّف على دستوفسكي في عام ١٨٧٥م، ومنذ هذا التاريخ توطدت صداقتهما.
^{٣٧} فقرة مفقودة في المخطوطة.

^{٣٨} عن هذا المشهد تحدث إ.إ. باناياف في «المعاصر» دون أن يذكر اسم دستوفسكي (١٨٥٥م، العدد ١٢، ص ٢٣٥). وقد كتب ب.ف. أنينكوف مرة ثانية عن ذلك في عدد أبريل من «البشير الأوروبي» عام ١٨٨٠م. وقد اعترض عليه أ.س. سوفورين في «العصر الحديث» (١٨٨٠م، ٤ أبريل و٢ مايو) بعد أن أخبره أن «الفقراء» نشرت في «المنتخب البطرسبورجي» دون «حواش». وفي الرد الذي نشرته هيئة تحرير «البشير الأوروبي» على حجج «العصر الحديث» (لا على أنينكوف، كما كتبت أنا جريجوريفنا؛

تحدد يوم الخامس والعشرين من مايو موعدًا لافتتاح تمثال بوشكين، لكن فيودور ميخايلوفيتش قرر الذهاب قبل الموعد بثلاثة أيام؛ حتى لا يضطر للتعجل في الحصول على البطاقات اللازمة لحضوره في كافة الاجتماعات الاحتفالية؛ وفضلًا عن أنه كان زميلًا لرئيس الجمعية الخيرية السلافية، كان فيودور ميخايلوفيتش يُعد ممثلًا لهذه الجمعية في الاحتفال، وعليه أن يقوم بطلب أكاليل الزهور لوضعها على التمثال.

في الثاني والعشرين من مايو سافر فيودور ميخايلوفيتش، وقد ذهب بصحبة الأطفال لنودعه عند محطة القطار. أذكر بكل حنان صادق، كيف تحدث إليّ زوجي الغالي عند الوداع قائلاً: عزيزتي المسكينة أنيا، إذن لم يحالفك الحظ في السفر! يا للأسف! يا للحنن! لقد كنت أحلم أن تكوني معي!

أجبت وقد انفطر قلبي من الحزن للفراق، والأهم، كان قلقي الشديد على صحته ومعنوياته؛ إذن، ليس مقدراً لنا، ولكن عليك في المقابل أن تزيل مخاوفي؛ أن تكتب لي حتمًا كل يوم بكل التفاصيل؛ حتى أتمكن من معرفة كل شيء يحدث لك، وإلا سوف أعاني قلقًا لا نهاية له. هل تعدني أن تكتب؟

– أعدك، أعدك. قال فيودور ميخايلوفيتش، سأكتب لك كل يوم. ولأنه إنسان صادق الوعد، فقد أوفى بوعده وراح يكتب لي لا خطابًا واحدًا، وإنما أحيانًا خطابين في اليوم الواحد؛ حرصًا منه أن يجنبني شدة القلق عليه، وكذلك، وكعادته، أن يشركني في كل انطباعاته.

عندما افترقنا، كنت أظن أن غياب فيودور ميخايلوفيتش لن يستمر أكثر من أسبوع؛ ليلتا سفر إلى موسكو والعودة، وخمسة أيام للاحتفال، كان على فيودور ميخايلوفيتش

كان في الخارج) في عددها الصادر في مايو عام ١٨٨٠م، أجابت أن الحديث يدور لا على «الفقراء»، وإنما عن «قصة بليتميسليكوف» التي سيكتبها دستوفسكي لنشرها في المنتخب الذي فكر في إصداره بيلينسكي تحت عنوان «ليفيافان». وفي حقيقة الأمر لم تكن هناك أي قصة لدى دستوفسكي باسم «قصة بليتميسليكوف» كما أكدت ذلك «العصر الجديد» في مقالها المنشور في الخامس من مايو ١٨٨٠م، وإنما كانت هناك قصتان مخصصتان من أجل «ليفيافان» هما «الفودان الحليقان» و«قصة عن المكاتب المحطمة». وفي خطابه المؤرخ ٤ مايو ١٨٨٠م يكتب دستوفسكي إلى سوفورين مرة أخرى طلبًا بشأن «الحواشي» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٤٣). وفي الثامن عشر من مايو (وليس السادس عشر كما أشير في المذكرات) ١٨٨٠م، ظهر في «العصر الحديث» إعلان باسم دستوفسكي يقول: «بطلب ف. م. دستوفسكي، الموجود حاليًا في ستاريا روسا للعلاج، أن نعلن على لسانه أنه لا صحة لما نشره أنينكوف في «البشير الأوروبي» بشأن «الحواشي»، ولا يمكن أن يكون قد حدث أو يحدث مثل هذا الأمر ...»

أن يشارك بحضوره فيه. وقد وعدني زوجي أنه لن يتأخر في موسكو يومًا واحدًا. لكن الذي حدث أن فيودور ميخايلوفيتش عاد بعد اثنين وعشرين يومًا، بدلًا من أن يقضي هناك أسبوعًا واحدًا. وأستطيع أن أقول إن الأسابيع الثلاثة التي غابها كانت زمنًا للعذاب والقلق والخوف بالنسبة لي.

ينبغي أن أذكر هنا أنه في نهاية عام ١٨٧٩م، وبعد عودته من إمس، قام زوجي بزيارة لابن عمي، الطبيب ميخائيل نيكولايفيتش سنيتكين، وطلب منه أن يفحص صدره ليعرف إن كان العلاج في إمس قد أحرز نجاحًا ما، كان قريبي طبيبًا للأطفال، لكنه على الرغم من ذلك، كان خبيرًا أيضًا في الأمراض الصدرية، وكان فيودور ميخايلوفيتش يُؤليه ثقته بصفته طبيبًا، وكان يحبه بصفته إنسانًا طيبًا وذكياً. بالطبع فقد طمأن ابن عمي فيودور ميخايلوفيتش (كما يفعل كل طبيب)، وأكد له أن الشتاء سيمر عليه على نحو رائع، وأنه لا ينبغي عليه أن يخشى على صحته من أي شيء؛ بشرط أن يلزم الحِطة. على أن الطبيب اعترف لي، وهو يجيب على أسئلتني الملحة، أن المرض قد حقق نجاحًا منذرًا بالسوء، وأن الإمفيزيم (تمدد أوردة الرئة) في وضعها الحالي يمكن أن تمثل تهديدًا على حياته. وقد شرح لي أن الأوعية الدقيقة للرئة أصبحت من الرقة والهشاشة، بحيث أصبحت تنبئ بإمكانية انفجارها نتيجة لأي توتر بدني؛ ولهذا فقد نصحه بألا يقوم بأي حركة حادة، وألا ينقل أو يرفع أشياء ثقيلة، وعمومًا فقد نصحن بأن نجنب فيودور ميخايلوفيتش أي نوع من أنواع الأفعال، سواء السائر منها أو المحزن.

الحقيقة أن الطبيب قد طمأنني بقوله أن انفجار هذه الشرايين لا يؤدي دائمًا إلى الموت، حيث تتكون أحيانًا ما يعرف باسم «الانسداد»؛ وهو عبارة عن جلطة لا تسمح بفقدان الدم بشكل شديد. لا يمكن تصور على أي نحو كنت خائفة وكيف أصبحت أتابع باهتمام صحة زوجي.

ولكي لا أترك فيودور ميخايلوفيتش وحيدًا في زيارته لبعض العائلات، حيث كان من الممكن أن يلتقي هناك بأناس مزعجين أحيانًا، أو يدخل في نقاشات تفسد عليه مزاجه، رحت أشكو له ما أعانيه من ملل في البيت، وأعربت له عن رغبتني في الخروج إلى المجتمع. كان فيودور ميخايلوفيتش يشفق عليّ لقلّة زياراتي، وقد أسعده قرارني، ومن ثم بدأت في مرافقته في اجتماعاته مع معارفه وفي أمسياته الأدبية شتاء عام ١٨٧٩م وعام ١٨٨٠م كله؛ وقد أعددت لنفسني ثوبًا أنيقًا للخروج من الحرير الأسود، واقتنيت دبوسين ملونين أكد لي زوجي أنهما يناسباني تمامًا.

وفي الأمسيات والاجتماعات كنت اضطر للجوء إلى الحيلة لكي أجنب فيودور ميخايلوفيتش اللقاءات والمناقشات السمجة؛ فعلى سبيل المثال، كنت أطلب من ربة البيت أن تجلس فيودور ميخايلوفيتش على مقعد السهرة بعيداً عن شخص ما أو سيدة ما، مستخدمة حجة ما، أو أنادي على فيودور ميخايلوفيتش إذا رأيت أنه بدأ في الانفعال أو احتد في النقاش. باختصار، كنت منتبهة دائماً. ونتيجة لهذا الخروج إلى المجتمع، كان نصيبي من الاستمتاع قليلاً للغاية.

وهكذا، عندما كنت على هذا الحال من الاضطراب والقلق البالغين على صحة زوجي، إذا بنا نفترق بعضنا عن بعض ولدة اثنين وعشرين يوماً، لا لمدة أسبوع كما كنا نعتقد. يا إلهي! كم من الألم عانيته طوال هذه الفترة! وبخاصة وأنا أرى من خلال الخطابات، أن عودة فيودور ميخايلوفيتش تبتعد أكثر فأكثر. كنت على يقين أن هذا الكم من الاضطراب والقلق الذي راح يتزايد لديه، لا بد وأن ينتهي بنوبة صرع، إن لم تكن نوبتين، وبخاصة أن نوبات الصرع كانت قد توقفت منذ زمن بعيد، وكان من الممكن توقع حدوثها السريع. وهنا راحت أسوأ الهواجس الكثيرة تنتابني هاجساً وراء الآخر. كانت فكرة أن فيودور ميخايلوفيتش قد داهمته نوبة الصرع، وأنه، وقبل أن يسترد وعيه تماماً، راح يبحث عني في الفندق،^{٣٩} وأنهم سوف يعاملونه باعتباره مجنوناً ثم يشهرون به في موسكو، وأن أحداً لن يُوليه اهتماماً أو يهدئ من روعه بعد النوبة، وقد يثيرونه فيدفعونه لارتكاب عمل طائش، كل هذه الأفكار والهواجس راحت تعذبني بلا توقف، ولم أصل ولو مرة واحدة إلى اتخاذ قرار بالسفر إلى موسكو لأعيش إلى جواره، دون أن أظهر للناس، وإنما لرعاية فيودور ميخايلوفيتش. ولكنني لم أستطع أن اتخذ هذا القرار لعلمي أنه سيصاب بالذعر لتركي الأطفال في رعاية المربية. وقد طلبت من أصدقائي في موسكو، أن يُبرقوا إليَّ على الفور، في حالة إذا ما انتابت فيودور ميخايلوفيتش نوبة، وعندئذٍ سوف أسافر إليه في أول قطار. مرت أيام وأيام، وتأجل افتتاح التمثال، وازدادت الظروف السيئة التي أحاطت بفيودور ميخايلوفيتش (استناداً إلى خطابه)،^{٤٠} ومعها ازدادت معاناتي النفسية. والآن،

^{٣٩} كان فيودور ميخايلوفيتش يأتي إليَّ دائماً بعد نوبة الصرع، ولم يكن قد استرد وعيه تماماً؛ إذ كان يعاني في هذه اللحظات من فزع غامض. فكان وجود وجه قريب منه يهدئ من روعه (ملاحظة لأننا جريجورينا دستوفسكايا).

^{٤٠} انظر: الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٥٢-١٦٥. في خطابه المؤرخ الخامس والعشرين من مايو ١٨٨٠م، يكتب دستوفسكي إلى أنا جريجورينا دستوفسكايا، بعد أن قرر السفر إلى بطرسبورج في السابع

وبعد مرور زمن طويل على هذا الأمر، لا أستطيع أن أتذكر هذا الزمن دون إحساس بالمرارة.

هناك «مشهد» يعود إلى هذا الزمن، مشهد لم يكن يستحق التسجيل، لولا أن فيودور ميخايلوفيتش ذكره في خطابه، الذي كتبه مباشرة بعد عودته من الاجتماع، الذي استقبل فيه جمهور موسكو بحماس شديد فيودور ميخايلوفيتش في ذكرى بوشكين، وقَدَّرَوه تقديرًا رفيعًا. إنني أتحدث هنا عن شراء «مُهر».

كان ابننا الكبير، فيديا، يحب الخيل بشدة، وحيث إنه كان يقضي أشهر الصيف في ستاريا روسا، فقد كنا نخشى عليه دائماً أن تصدمه الخيول، فعندما كان يبلغ من العمر عامين أو ثلاثة، كان ينفلت أحياناً عن يدي مربيته، ويجري نحو أي حصان غريب ويحتضنه من ساقه. ولحسن الحظ، كانت الخيول في روسا خيولاً قروية، اعتادت أن يدور الأطفال حولها، ولهذا كانت الأمور تمر بسلام. وعندما اشتد عود الطفل، راح يطلب شراء حصان حقيقي. وقد وعده فيودور ميخايلوفيتش بأن يحقق طلبه، ولكن لم تسمح الظروف بذلك. في عام ١٨٨٠م اشتريت مُهرًا بمحض الصدفة، وقد ندمت على ذلك فيما بعدُ ندمًا شديدًا. حدث ذلك على النحو التالي:

ذات يوم ذهبت إلى سوق المدينة في الصباح المبكر ومعني الأطفال. وعندما كنا نسير على كورنيش نهر بيريريتيتسا، مرت بجوارها عربة مسرعة، جلس فيها فلاح مُنْتَشٍ بعض الشيء من أثر الخمر. وخلف العربة كان هناك مُهر يجري برشاقة لافتة، تارة يسبق الحصان، وتارة يتخلف عنه. رحنا نتأمل المُهر، وعندما قال لي ابني إن هذا هو المهر الذي يحب أن يقتنيه. عندما وصلنا إلى الميدان بعد ربع ساعة، وقد لاحظنا أن هناك جمعًا من الفلاحين يقفون بالقرب من الحصان والمهر، وقد راحوا يتجادلون حول أمرٍ ما، اقتربنا واستمعنا فعرفنا أن الفلاح المخبور يبيع المهر «دون سرج»، ويطلب مقابلته أربعة روبلات. ظهر مشترون بالفعل، ولكن نظرًا لرجاء ابني وشفقة مني على المهر أن يقتلوه، عرضت ستة روبلات ليصبح ملكي. لم أكن على دراية بالخيول أو بشئون الزراعة،

والعشرين من مايو قائلًا: «أجلس الآن وأنا في أشد حالات الضيق والارتباك؛ فمن ناحية، فإن سعبي وراء زيادة تأثري في بطرسبورج، فضلًا عن موسكو، يعني الكثير بالنسبة إليّ. ومن ناحية أخرى فراقى عنك؛ حيرتي بخصوص كارامازوف، ناهيك عن النفقات المالية وما إلى ذلك!» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٥١).

وما إن غادر صاحب المهر المكان مسرعاً «ليتناول شرباً منعشاً»، حتى بدأت في سؤال الفلاحين عما إذا كان المهر سيعيش عندي دون أمه. وقد تعددت الإجابات: البعض أكد أنه لن يعيش، والبعض الآخر نصحوني بأنواع الغذاء التي عليّ أن أقدمها له، وقالوا إنه سيكون لديّ حصان جيد لو أحسنت رعايته. على أي حال، لم يعد هناك مجال للتردد. وهكذا عدنا وراء العربة إلى البيت، وإلى جانبنا راح المهر يجري. أبلغت زوجي في نفس اليوم بقصة الشراء، وقد تصادف أن وصل خطابي إليه في نفس اليوم الذي ألقى فيه خطابه الشهير، الذي قوبل بحماس شديد من جانب كل الموجودين في الاجتماع! بعد أن قرأ فيودور ميخايلوفيتش خطابي، وبتأثير مشاعر الحماس التي أحاطته، ذلّل خطابه إليّ بكلمة «قُبلاتي إلى المهر».^{٤١} إلى هذا الحد كان يشعر بالحاجة إلى أن يغمر الجميع بمشاعره الفياضة، وأن يهبّ الذين أساءوا إليه إحساس المحبة والفرح!

مرت الأيام الأولى على خيرٍ ما يرام، كان المهر يشرب في اليوم خمس قصعات من اللبن، كان مرحاً وراح يجري مع الأطفال مثل كلب أليف، لكن الأمور ساءت بعد ذلك. وقد وجد فيودور ميخايلوفيتش، وكان على دراية بأحوال الخيل، أن المهر «مكتئب»، وأرسل في طلب البيطري، الذي أعطانا بعض النصائح، ولكنها جاءت متأخرة؛ لأن المهر لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ثلاثة أسابيع. أصيب الأطفال بالحزن، أما أنا فلم أستطع أن أسامح نفسي لشرائي مهرًا. صحيح أنه كان سيلقى نفس المصير لو أنه ذهب إلى مالك آخر، لكنني لم أشعر بالذنب آنذاك كما أشعر به الآن.

٤

عودة فيودور ميخايلوفيتش من موسكو

أخيرًا جاء اليوم السعيد، بعد أن انتهت عذباتي. في الثالث عشر من يونيو عاد فيودور ميخايلوفيتش إلى ستاريا روسا، في حال من السعادة والحيوية لم أعهده عليها من زمن طويل. لم تتع له في موسكو نوبة واحدة من نوبات الصرع، بل إنه كان يشعر بالنشاط طوال الوقت بفضل التوتر العصبي. لم يتوقف عن الحكي عن الأحداث التي شاهدها

^{٤١} انظر: خطاب دستوفسكي إلى أنا جريجوريفنا دستوفسكايا المؤرخ الثامن من يونيو ١٨٨٠م (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٧٢).

والتي شارك فيها في موسكو، كما لم أتوقف بدوري عن طرح كل أنواع الأسئلة. كم من أمور شيقة ذكرها لم أجد مثيلاً لها فيما بعدُ فيما ذكره الآخرون بشأن عيد بوشكين! لقد استطاع فيودور ميخايلوفيتش، على نحو شديد الخصوصية، أن يتذكر ما لاحظته في فترة قصيرة. حكى لي، بالمناسبة، من الاجتماع الثاني والأخير (الذي كان ختاماً لكل احتفالات بوشكين)، مرهقاً للغاية، سعيداً على نحو لا يوصف بمأدبة الوداع التي أقامها له جمهور موسكو.^{٤٢} جلس يلتقط أنفاسه منهك القوى، ثم غادر المكان في ساعة متأخرة من الليل، متوجهاً مرة أخرى إلى تمثال بوشكين. كان الليل دافئاً وقد خلت الشوارع تماماً من المارة. وفي ميدان ستراستنايا اقترب من التمثال ورفع إكليل الغار الذي وضعه في اجتماع الصباح، بعد أن ألقى خطابه، ليعيد وضعه أسفل تمثال «أستاذة العظيم»، ثم ليجثو أمامه على الأرض.

لقد تجمع كل شيء هنا ليَهَبَ فيودور ميخايلوفيتش «دقائق من السعادة العظمى»، على حد تعبيره: فرحه الصادق بفكرة أن روسيا أدركت وقدّرت، أخيراً، المغزى الرفيع لعبقرية بوشكين، وأقامت له تمثالاً في «قلب روسيا»، في موسكو؛ وعي الناس بأنه (دستوفسكي. المترجم) العاشق لشاعر الشعب العظيم منذ شبابه الأول، استطاع بخطابه أن يعيد للشاعر اعتباره. وفي النهاية، فرحته الطاغية بإعجاب الجمهور بموهبته الشخصية وتصفيقهم المدوي له. كان فيودور ميخايلوفيتش، وهو يقص عليّ انطباعاته عن تلك الأيام، يبدو كما لو كان يعيش هذه الأيام التي لا تُنسى مرة أخرى.^{٤٣}

^{٤٢} كان من المقرر في البداية أن يتم الاحتفال بذكرى بوشكين في يوم ذكرى ميلاده في السادس والعشرين من مايو ١٨٨٠م، لكن الموعد تأجل بسبب وفاة الإمبراطور. وقد قامت جمعية محبي الأدب الروسي بتنظيم الاحتفال الذي استمر أربعة أيام في الخامس من يونيو ١٨٨٠م، أقيم حفل استقبال للوفود أشرفت عليه اللجنة المنوط بها إقامة التمثال، وألقى فيه ي. ك. جروت تقريره. وفي السادس من يونيو جرت في موسكو في ميدان تفيرسكايا مراسم افتتاح التمثال، واختتم اليوم بقراءة الخطب، وفي الثامن من يونيو، عُقد الاجتماع الختامي الذي ألقى فيه دوستوفسكي خطابه عن بوشكين. عن احتفالات بوشكين انظر الكتاب الخاص الذي أشرف على إصداره ف. بولجاكوف تحت عنوان «باقة من الزهور عند تمثال بوشكين» (سان بطرسبورج، ١٨٨٠م).

^{٤٣} عن انطباعاته المباشرة عن خطاب بوشكين كتب دوستوفسكي إلى أنا جريجوريفنا دوستوفسكايا في الثامن من يونيو ١٨٨٠م، كما كتب إلى س. أ. تولستاي في الثالث عشر من يونيو (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٧١-١٧٢؛ ١٧٤-١٧٥). وقد تم حفظ وتوثيق العديد من ذكريات المعاصرين عن الخطاب الذي ألقاه

حكي لي فيودور ميخايلوفيتش أيضًا أن أفضل مصور فوتوغرافي في موسكو آنذاك؛ الفنان بانوف،^{٤٤} قد حضر إليه طالبًا منه أن يسمح له بتصويره. ولما كان زوجي متعجلًا في مغادرة موسكو، فقد ذهب مع بانوف على الفور لالتقاط الصورة كسبًا للوقت. لقد عكست الصورة التي أخذها له الفنان كلَّ الانطباعات التي تركتها على وجه زوجي أحداثُ الأمس المشهودة، وفي رأيي أن هذه الصورة التي نجح الفنان في التقاطها، هي واحدة من أنجح الصور التي أخذت لفيودور ميخايلوفيتش، من بين الصور المتنوعة التي التُقطت له (بفضل تغير المزاج فيها). في هذه الصورة تعرفت على هذا التعبير الذي رأيته مرارًا على وجه فيودور ميخايلوفيتش أثناء معاشته دقائق من السعادة والسُرور.^{٤٥}

ولكن، وبعد مرور عشرة أيام، إذا بالحالة النفسية لفيودور ميخايلوفيتش تتغير بحدة؛ وكان المسئول عن ذلك هو تلك التعليقات التي نشرتها الصحف، التي كان يطالعها

دستوفسكي عن بوشكين؛ على سبيل المثال: ن. ن. سترخوف، «مذكرات عن دستوفسكي»، السيرة، ٣٠٨-٣١٢؛ أ. بارسوكوف، «رسالة حول خطاب بوشكين لدستوفسكي»، في كتاب: زفينيا (الروابط)، الجزء الأول، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٢م؛ د. لوبيموف، «من المذكرات»؛ «قضايا الأدب»، ١٩٦١م، العدد ٧؛ أ. أمفيتاتروف، «ما زلت أسمع خطاب دستوفسكي حتى الآن». «ليتيراتورنيا روسيا»، ١٩٦٥م، الثاني من يونيو.

^{٤٤} ميخائيل ميخايلوفيتش بانوف (١٨٣٦-١٨٩٧م): مصور فوتوغرافي من موسكو صوّر دستوفسكي في التاسع من يونيو عام ١٨٨٠م، بعد خطابه عن بوشكين.

^{٤٥} عن الصورة الفوتوغرافية التي التقطها م. م. بانوف، والمحفوظة في بيت بوشكين (المتحف الأدبي)، كتب إ. ن. كرامسكوي: «في السنوات الأخيرة راح وجهه (دستوفسكي) يبدو أكثر أهمية وعمقًا وتراجيدية، وللأسف الشديد، لا توجد صورة له في الفترة الأخيرة من حياته يمكن أن تعادل في قيمتها الفنية الصورة التي رسمها له بيروف. ولحسن الحظ فقد تم إدراك هذا النقص، بمحض الصدفة، بفضل التصوير الفوتوغرافي. وقد التقط المصور بانوف من موسكو هذه الصورة تحديدًا. كان من الممكن أن تكون صورة بانوف غير ذات أهمية، من الناحية التقنية، غير ذات قيمة، فبانوف التقط من قبلُ صورًا أفضل بكثير، من هذه الناحية، من صورة دستوفسكي. لكن ما يميز هذه الصورة هو ما تحويه من قوة التعبير، ويمكن، استنادًا إليها، الحكمُ على مدى ما أضيف إلى وجه دستوفسكي من معانٍ وأفكار عميقة. على أية حال فإنه من النادر أن تعطي الصور الفوتوغرافية مجمل ما يحتوي عليه الوجه الإنساني، أما في صورة بانوف فهناك استثناء سعيد ونادر. يمكننا أن نخمن أنه في حالتنا هذه فقد تجلّت تلك اللحظة التي عاشها دستوفسكي، لحظة الاحتفال ببوشكين في موسكو (لتأتي دعمًا للصورة)، فقد التُقطت الصورة بعد خطابه الشهير عن قيمة بوشكين» (إ. ن. كرامسكوي؛ حياته، مراسلاته ومقالات فنية ونقدية، ١٨٣٧-١٨٨٧م، سان بطرسبورج، ١٨٨٨م، ص ٦٦٩).

يوميًا في مكتبة مينيرالني فودي. انهارت على فيودور ميخايلوفيتش جبال من اتهامات الصحف والمجلات ومن أكاذيبها وافتراءاتها وحتى شتائمها. هؤلاء الذين يمثلون الأوساط الأدبية، الذين أصاخوا، هم أنفسهم، السمع بفرح شديد إليه وهو يلقي خطابه عن بوشكين، وكانوا في حالة من الذهول إلى درجة أنهم اندفعوا يصفقون بحرارة، وراحوا يشدون على يديه بقوة. وفجأة، وكما لو أنهم ثابوا إلى رشدهم من أثر التنويم المغناطيسي، إذا بهم ينهالون على الخطاب بالشتائم وإهانة كاتبه. إن من يقرأ التعليقات التي كُتبت آنذاك على خطاب بوشكين، سوف يغضب من جرأ الوقاحة وعدم اللياقة التي عومل بها فيودور ميخايلوفيتش من جانب أولئك الذين كتبوها، ناسين أنهم كالوا الإهانات في مقالاتهم لشخص صاحب موهبة كبيرة، ظل يعمل على مدى ثلاثين عامًا في مجال اختاره لنفسه، شخص استحق احترام وحب عشرات الآلاف من القراء الروس.^{٤٦}

ينبغي القول إن هذه الهجمات غير اللائقة أحرزت فيودور ميخايلوفيتش وأشعرته بالإهانة، وقد أحس بسببهم بإحباط شديد، حتى إن نوبتي الصرع، اللتين تنبأت بهما، واللتين تأخر وقوعهما، ظلتا تحومان في رأسه لمدة أسبوعين كاملين. وفي خطابه إلى أوريسيت

^{٤٦} كان لخطاب دستوفسكي عن بوشكين بإجماع آراء المعاصرين أثرٌ لا يُمحى على المستمعين؛ الأمر الذي أسهمت فيه إلى حد كبير القراءة الرائعة لدستوفسكي نفسه ثم فكرته المفضلة التي تتلخص في أنه من أجل أن يصل الروسي الحائر المتردد إلى الهدوء والسكينة ينبغي أن تحقّق السعادة الإنسانية العالمية الشاملة. وقد كتب جليب أوسبينسكي في مقالته «عيد بوشكين»، يقول: «لقد أصاب الذهول الاهتمام العام، وقد أخذته الدهشة من الفكرة التي تم التعبير عنها برشاقة حول فطرة الإنسان الروسي المجبولة على الحزن من أجل آلام الآخرين» (ج. إ. أوسبينسكي، الأعمال الكاملة، الجزء السادس، موسكو، ١٩٥٣م، ص ٤٢٥). على أنه عندما تم نشر خطاب دستوفسكي في «وقائع موسكو» (١٨٨٠م، ١٣ يونيو)، وغيرها من الصحف والمجلات، تم بعد ذلك نشر الخطاب مع إيضاحات لصاحبه ورده على أ. د. جرادوفسكي في «مذكرة الكاتب»، توالى ردود الأفعال المتضاربة، فقد استنكر نقاد من المعسكر الليبرالي والديمقراطي انقطاع الصلة بين الأفكار المثالية لدستوفسكي والحياة الروسية المعاصرة؛ فضلاً عن الطابع المجرد لمبدأ «الإنسانية الشاملة» الذي أعلنه. وقد لقيت دعوة دستوفسكي للاستكانة والتمسك بالدين اعتراضاً خاصاً من جانب الكتاب والصحفيين التقدميين. ويضم الثبت البيبلوجرافي الذي أعده ف. إ. ميخوف (سان بطرسبورج، ١٨٨٥م)، كافة المقالات التي نُشرت بشأن افتتاح تمثال بوشكين في موسكو عام ١٨٨٠م بما فيها ردود الأفعال على خطاب دستوفسكي، وقد جُمعت هذه المقالات في كتاب زاموتين، ص ٢٨٧-٣٢١.

ميلر المؤرخ السادس والعشرين أغسطس^{٤٧} ١٨٨٠م، كتب فيودور ميخايلوفيتش قائلاً: «انظر ماذا حدث لي من كل صحافتنا تقريباً، بسبب كلمتي التي ألقيتها في موسكو! كأنني ارتكبت سرقة، أو مارست احتيلاً، أو اقتحمت بنكاً من البنوك! حتى يوخانتسيف^{٤٨} لم يكن ليتعرض لهذا التشهير الذي تعرضت له.»^{٤٩}

لقد كان على فيودور ميخايلوفيتش أن يتحمل الكثير والكثير من المصاعب من جانب الإخوة في الوسط الأدبي!

على أن فيودور ميخايلوفيتش لم يرَ في نفسه إنساناً مهزوماً، وحيث إنه لم يكن يملك القدرة على الرد على كل هذا الهجوم الكاسح، فقد قرر أن يرد على شخص يمكن اعتباره جديرًا بأن يكون نداءً له إذا دخل معه في جدال أدبي، وهو تحديداً ألكسندر جرادوفسكي،^{٥٠} البروفيسور بجامعة سان بطرسبورج، الذي كتب مقالاً بعنوان «الأحلام والواقع» (مجلة «جولوس» (الصوت)، ١٨٨٠م، العدد ١٧٤).^{٥١} نشر فيودور ميخايلوفيتش رده في العدد الوحيد من «مذكرة الكاتب»، الذي في عام ١٨٨٠م، ونشر فيه أيضاً خطابه عن بوشكين،

^{٤٧} «جورنال جورنالوف» («مجلة المجلات»)، ١٩١٥م، العدد الثاني (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٤٨} بطل إحدى قضايا البنوك (ملاحظة لأننا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٤٩} الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٩٧. ك. ن. يوخانتسيف، موظف مفوض من وزارة المالية، حُكم عليه في الفترة من ٢٣ إلى ٢٥ يناير ١٨٧٩م من قِبَل دائرة بطرسبورج القضائية بالسجن؛ لإهداره أموالاً طائلة تخص هيئة التسليف الزراعي (أ. ف. كوني، خطب قضائية، ١٨٦٨-١٨٨٨م، سان بطرسبورج، ١٩٠٥م، ص ٤٤٧-٤٦٥).

^{٥٠} ألكسندر ديمترييفيتش جرادوفسكي (١٨٤١-١٨٨٩م): أستاذ القانون العام بجامعة بطرسبورج، كاتب وناقد.

^{٥١} أشار البروفيسور ألكسندر ديمترييفيتش جرادوفسكي، البروفيسور الروسي الشهير في القانون الدولي بجامعة بطرسبورج، إلى «ملحوظتين» في خطاب دستوفسكي: تقييم بوشكين باعتباره شاعر الشعب، وفي الوقت نفسه تقديمه لتعريف موجز للإيمان من وجهة نظره الشخصية باعتباره «صاحب الخطاب». ويعترف الناقد بقدرة دستوفسكي على النفاذ بعمق في جوهر شعر بوشكين، لكنه يؤكد في الوقت نفسه على أن دستوفسكي «لم يقدم شرحاً وافياً لشخصيات بوشكين عندما تناولها بالتحليل؛ وذلك لأنه ربط هذه الشخصيات تحديداً، لا بالحركة الأدبية اللاحقة، وإنما ربطها بشكل استثنائي مع وجهة نظره، والتي كان يشوبها كثير من جوانب الضعف». لقد تعرض أ. د. جرادوفسكي «لأكثر النقاط أهمية» عندما تناول «اختلافه» مع دستوفسكي، فعندما يطلب (دستوفسكي) الاستسلام أمام حقيقة الشعب، أمام المثل العليا للشعب، فإنه يقبل هذه «الحقيقة»، وهذه المثل وكأنها شيء ما جاهز، شيء راسخ وأبدي.

الذي نُشر في البداية في «وقائع موسكو»، والذي طلب الجمهور بشدة إعادة نشره. ولكي أتمكن من نشر هذا العدد اضطررت للسفر إلى العاصمة لمدة ثلاثة أيام. وقد نال عدد «المذكرة» الذي نشرت فيه مقالة «بوشكين» والرد العنيف على جرادوفسكي نجاحًا هائلًا. وقد تمكنت من بيع ستة آلاف نسخة من العدد قبل نزولها للأسواق، ومن ثم كان عليّ أن أصدر طبعة ثانية منه نفدت كلها في الخريف.

وبعد أن رد فيودور ميخايلوفيتش على النقد، شعر بالهدوء بعض الشيء وشرع في الانتهاء من رواية «الإخوة كارامازوف». كان قد تبقي له الجزء الرابع من الرواية، ويبلغ حجمها حوالي عشرين ملزمة، وكان من الضروري الانتهاء منها قبل حلول شهر أكتوبر؛ حيث إننا كنا ننتوي إصدار الرواية في طبعة كاملة. وحتى يتسنى توفير مناخ مناسب للعمل، بقينا في ستاريا روسا حتى نهاية سبتمبر؛ الأمر الذي لم نندم عليه على أية حال؛ لأن الخريف كان رائعًا.

بعد عودتنا إلى بطرسبورج، تسنى لفيودور ميخايلوفيتش أن يشارك بالقراءة في عدد من الأمسيات الأدبية.^{٥٢} وقد أقنع فيكتور بافلوفيتش جايفسكي، الذي شغل منصب

ونحن نسمح لأنفسنا أن نقول له: الأمر ليس كذلك. إن المثل الاجتماعية لشعبنا ما تزال في طور التكوين والتطور. وعلى الشعب أن يعمل كثيرًا لكي يكون جديرًا بأن يكون شعبًا عظيمًا. فما يزال هناك الكثير (...) من بقايا أزمنة العبودية مغروسة فيه، لكي يستطيع أن يطلب لنفسه الفضيلة، وفوق ذلك، أن يدعي توجه أوروبا بأسرها نحو الطريق الحق، على النحو الذي تنبأ به دستوفسكي ... «ويعترض الناقد على دستوفسكي بقوله: إنه بدلًا من تعظيمه لرسالة الشعب الروسي إلى حدّ أن يلعب هذا الشعب دور الخالق «للانسجام النهائي»، فقد كان من الأفضل له أن يقول «للضالين» المعاصرين و«للشعب» نفسه سواء بسواء: اخضعوا لمطالب المواطنة الاجتماعية، التي حصلتم عليها، والحمد لله، بفضل إصلاحات بطرس (الأكبر، المترجم) ...» («الصوت»، ١٨٨٠م، العدد ١٧٤).

وفي رده على أ. د. جرادوفسكي في «مذكرة الكاتب» («الإصدار الوحيد الذي ظهر في عام ١٨٨٠م، أغسطس»)، اعترض دستوفسكي بشدة على هذا المنهج الليبرالي الذي اتخذه البروفيسور، بعد أن سخر من «رؤيته ذات النزعة الغربية للشعب، الذي هو في رأي دستوفسكي، استنار منذ زمن بعيد، عندما اعتنق جوهر المسيح وتعاليمه» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٣٩٢). وقد وقف النقد الديمقراطي في هذه المبادرة الجدلية من جانب دستوفسكي ضد جرادوفسكي موقفًا معاديًا للأفكار الأرثوذكسية التي نادى بها الكاتب (انظر: ن. ك. ميخايلوفسكي، ليتيراتورني زاميتكي «ملاحظات أدبية» ١٨٨٠م، «حوليات الوطن، ١٨٨٠م، العدد ٩).

^{٥٢} فيما بعد تعيد أنا جريجوريفنا دستوفسكايا جزئيًا ما ذكرته قبل ذلك في الفصل ٢، بداية العام ١٨٨٠م، الأمسيات الثقافية، زيارة المعارف.

رئيس الصندوق الأدبي آنذاك، والذي حضر الاحتفال ببوشكين واستمع في إحدى الأمسيات إلى قراءة فيودور ميخايلوفيتش لقصيدة «النبى» لبوشكين، أقنع زوجي بأن يعيد قراءتها في الأمسية الأدبية التي ستقام لصالح الصندوق، في العيد السنوي لمدرسة الليسيه، الموافق التاسع عشر من أكتوبر. كانت القراءة انتصاراً حقيقياً لفيودور ميخايلوفيتش، لقد بدا أن حوائط قاعة جمعية الائتمان راحت ترتج من التصفيق، بعد أن أنهى فيودور ميخايلوفيتش قراءة القصيدة. ينبغي الاعتراف بأنها كانت حقاً قراءةً فنية رفيعة المستوى، تركت في نفوس المستمعين انطباعاً لا يُمحى. وقد تسنى لي أن ألتقي بأناس من بين الجمهور الذي حضر الأمسية، بعد مرور عشرين عاماً، تذكروا جميعهم كيف نجح فيودور ميخايلوفيتش في قراءة هذه القصيدة العبقريّة على نحو مدهش. وفي كل أمسيات القراءة التالية تقريباً، على مدى عام ١٨٨٠م، كان الجمهور يطلب حتماً أن يقرأ عليه فيودور ميخايلوفيتش قصيدة «النبى». وقد دفع النجاح العظيم للقراءة الأدبية، التي جرت في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٨٨٠م، بفضل مشاركة فيودور ميخايلوفيتش في المقام الأول؛ دفع رئيس الصندوق الأدبي أن يقرر إعادة نفس القراءة بعد أسبوع، في السادس والعشرين من أكتوبر. وفي هذه المرة وصل التصفيق الذي حيّا به الجمهور فيودور ميخايلوفيتش ذروته، لقد راح الجمهور يستدعيه بالتصفيق صائحاً «برافو» طالباً منه أن يعيد قراءة قصيدة «النبى»، ثم انتظره على الدرج مصفّقاً له، وهو يودعه إلى مدخل البناية. كان الحماس في هذه المرة هائلاً، وقد تأثر فيودور ميخايلوفيتش من أعماقه بهذا الشكل من أشكال التعبير القوي عن الفرح من جمهور عادةً ما يبدو بارداً.

في الحادي والعشرين من نوفمبر^{٥٢} ١٨٨٠م، نظم الصندوق الأدبي أمسية أدبية شارك فيها فيودور ميخايلوفيتش أيضاً. ثم توالى القراءة لصالح طلاب جامعة بطرسبورج في الثلاثين من نوفمبر، ثم لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة بطرسبورج، في الرابع عشر من ديسمبر، وأخيراً لصالح ملجأ القديسة كسينيا في بيت الكونتيسة مينجرين، في الثاني والعشرين من ديسمبر. وفي هذه القراءة الأخيرة، تمت دعوة فيودور ميخايلوفيتش في الاستراحة إلى إحدى الغرف الداخلية، بناءً على رغبة الإمبراطورة ماريا فيودورفنا،^{٥٣،٥٤}

^{٥٣} قرأ فيها فيودور ميخايلوفيتش مقطّعاً من «الأنفس الميتة» (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٥٤} الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا: زوجة القيصر ألكسندر الثالث.

^{٥٥} زلة قلم؛ لم تكن ماريا فيودوروفنا في هذا الوقت هي الإمبراطورة، تصف لوبوف دستوفسكايا في كتابها (Dostojewski, geschildert von seiner tochter" (München, 1920. s. 263-264)، في

وقد عبرت عن شكرها لفيودور ميخايلوفيتش على مشاركته في القراءة، وبادلته أطراف الحديث لفترة طويلة.

كان الاشتراك في القراءات الأدبية أمرًا مشوقًا وهامًا للغاية بالنسبة إلى فيودور ميخايلوفيتش، وكان التصنيف المدوي المصاحب لقراءته عزيزًا على نفسه وسببًا من أسباب سعادته، ولكنها، للأسف، كانت تثير اضطرابه وتستنفد منه جهدًا كبيرًا لم يكن يملك منه إلا القليل.

في فصول الشتاء الأخيرة كان شبابنا العَطوف يولي فيودور ميخايلوفيتش بصفة خاصة محبةً شديدة، وكان يتلقى بشكل دائم بطاقات تكريم لحضور حفلات الموسيقى

الفصل المعنون «صالون الأميرة تولستايا»، اللقاء الأول بالإمبراطورة الروسية القادمة: «بعد أن أنهى دستوفسكي قراءته، توجهت ماريا فيودوروفنا إلى السيدات اللائي قُمن على تنظيم الأمسية وأخبرتني برغبتها في التحدث معه (دستوفسكي)، وعلى الفور أسرعن لتلبية طلبها. بداهة لم تكن النسوة على قدر كبير من الذكاء. كن يعلمن أن دستوفسكي رجل يميل بطبيعة إلى الحذر والريبة، ومن ثم خشين أن يرفض طلب الأميرة، فقررن أن يدفعن به للمقابلة بشيء من الدهاء؛ اقتربن من أبي وقلن له، وقد علا وجوههن تعبّر غامض، إن «شخصية على قدر كبير من الأهمية» تود لو تحدثت إليه عن قراءته..»
- «وما شأن هذه الشخصية الهامة؟» سألهن دستوفسكي مندهشًا.

- «سترى بنفسك... إنها جذابة للغاية... هيا معنا بسرعة!» هكذا أجابت النساء الشابات؛ وقد أحطن به ضاحكات ودفعن به معهن إلى صالون صغير. وبعد أن أدخلنه أغلقن الباب خلفه. كان دستوفسكي في دهشة من هذا السلوك الغامض. صالون صغير يلفه ضوء خافت صادر عن مصباح صغير، أسدلت الستائر على نوافذه، وإلى مائدة صغيرة جلست امرأة على نحو يفيض بالتواضع. لم يكن أبي في تلك الفترة من حياته يلتقي سوى بنساء تخطّين سن الشباب. ألقى بالتحية على المرأة المجهولة كما اعتاد أن يلقي بها على أيّ من السيدات اللائي كان يقابلهن في صالونات معارفه، وحيث إنه ظن أن فتاتين عابثتين سمحن لأنفسهن أن يضلّنه، فقد غادر الصالون من الباب المواجه. لا شك أن دستوفسكي كان على علم بوجود الأميرة في الأمسية، لكنه ظن أنها غادرت المكان، ولعله يكون قد نسي وجودها تمامًا بسبب شروده المعتاد. وبعد مرور ربع ساعة هُرعت إليه النساء الشابات، اللائي كن قد أوصلنّه إلى باب الصالون الصغير.

سألنه بفضول: «ماذا قالت لك؟ ماذا قالت لك؟»

- «من هي؟» سألهن في دهشة.

- «من هي؟ الأميرة! بالطبع!»

- «الأميرة؟ وأين هي؟ لم أرها...»

قام س. ف. بيلوف بنشر فصل «صالون الأميرة تولستايا» باللغة الروسية للمرة الأولى في الجزء الخاص من «التراث الأدبي» المكرس لدستوفسكي.

وبالباقي، التي كانت تقام في المؤسسات التعليمية العليا. كان فيودور ميخايلوفيتش محاطاً دائماً في هذه الحفلات بالناس. كان الشباب يسير خلفه في جماعات، ملقين عليه بالأسئلة، وكان يجيب عليها وكأنه يلقي بالخطب. وأحياناً ما كان يدخل معهم في جدل، فيستمعون إلى ردوده بحب استطلاع شديد. هذا التواصل الحي مع الشباب، الذي أحبه قدر موهبته، كان أمراً جذاباً لفيودور ميخايلوفيتش. وكان يعود بعد هذه المحاورات بحماس متجدد ليقص عليّ، رغم شعوره بالتعب الجسماني، تلك التفاصيل التي كانت تضيء على أحاديثه دائماً متعة فائقة.

في مطلع شهر ديسمبر من عام ١٨٨٠م صدرت رواية «الإخوة كارامازوف» في طبعة كاملة، بلغ عدد نسخها ألف نسخة. وقد أحرزت هذه الطبعة نجاحاً كبيراً على الفور. وخلال بضعة أيام اشترى القراء نصف الكمية. بالطبع، فقد تأكد فيودور ميخايلوفيتش من هذا الاهتمام الذي أثارته روايته الجديدة. كان من الممكن وصف هذا الأمر بالحدث السار الأخير في حياته المترعة بكل أنواع المصائب والنكبات.

الجزء الحادي عشر

الوفاة. الدفن

لم يكن فيودور ميخايلوفيتش، بطبيعته، شخصًا ميالًا للعمل إلا نادرًا. وأتصور أنه لو كان شخصًا ذا ثراء، غير مضطر للسعي وراء المال من أجل أن يعيش؛ لظل، ربما، بلا عمل، ولوجد دائمًا موضوعات للعمل الأدبي الدءوب.

بحلول مطلع عام ١٨٨١م، انتهينا من سداد ديوننا التي ظلت تعذبنا طويلاً، بل كان لدينا أيضًا رصيد مالي لدى مجلة «البشير الروسي» عن أعمال أديناها، بلغت قيمته حوالي خمسة آلاف روبل. بدا الأمر كما لو أننا لم نعد بحاجة ملحة للعمل، لكن فيودور ميخايلوفيتش لم يشأ أن يركن للراحة. لقد قرر أن يشرع من جديد في العمل على إصدار «مذكرة الكاتب»؛ إذ إنه بعد كل هذه السنوات العجاف، تراكمت لديه كثير من الأفكار المؤرقة عن الواقع السياسي لروسيا، وقد وجد أنه لن يستطيع أن يعبر عنها في حينه إلا في مجلته. وبالإضافة إلى ذلك، فإن النجاح المدوي للعدد الوحيد من «مذكرة الكاتب»، الذي عام ١٨٨٠م، أيقظ فينا الأمل في أن يجد الإصدار الجديد من المجلة جمهورًا واسعًا من القراء، وبطبيعة الحال كان فيودور ميخايلوفيتش يعتز اعتزازًا شديدًا بأفكاره الحميمة، وقد افترض أن يقوم بإصدار «مذكرة الكاتب» على مدى عامين، يبدأ بعدها في تحقيق حلمه بكتابة الجزء الثاني من «الإخوة كارامازوف»، حيث يعود أبطاله القدامى كلهم تقريبًا للظهور، ولكن بعد مرور عشرين عامًا، في العصر الحديث، حيث يصبح بإمكانهم، ربما، أن يقدموا الكثير، وأن يواجهوا الكثير أيضًا في حياتهم، تُظهر الخطة المستقبلية،

التي وضعها فيودور ميخايلوفيتش بناءً على قصصه وملاحظاته، أنها كانت خطة هامة وشيقة على نحو غير عادي، وللأسف الشديد لم يُكتب لهذه الرواية أن تظهر للوجود.^١ سارت الاشتراكات التي تم الإعلان عنها في «مذكرة الكاتب» على نحو جيد، وبحلول العشرين من يناير بلغ عدد المشتركين حوالي ٢٠٠... كان لدى فيودور ميخايلوفيتش عادة حميدة تتمثل في إحجامة عن اعتبار نقود الاشتراكات ملكاً خاصاً له، قبل أن يلبي طلبات المشتركين؛ ولذلك فتح حساباً في بنك الحكومة باسمي، كنت أضع فيه النقود التي نتسلمها من الاشتراكات، وبفضل ذلك كان لدي إمكانية إعادة الأموال للمشاركين على وجه السرعة إذا لزم الأمر. في النصف الأول من شهر يناير كان فيودور ميخايلوفيتش في صحة جيدة، كان يزور أصدقاءه، بل وافق أيضاً على الاشتراك في المسرحية المنزلية التي اقترح تنظيمها في بيت الكونتيسة صوفيا تولستايا في مطلع الشهر التالي. كان الحديث يدور حول عرض

^١ استناداً إلى مذكرات أ. س. سوفورين فإن دوستوفسكي كان يخطط لأن يدخل أحد أبطال روايته من آل كارامازوف «إلى الدير، ثم يجعل منه ثورياً، وقد يرتكب جريمة سياسية، وقد يتم إعدامه، ولعله كان يبحث عن الحقيقة، ومن الطبيعي، خلال هذا البحث، أن يصبح ثورياً». (أ. س. سوفورين، المذكرات، موسكو، براج، ١٩٢٣ م، ص ١٦)، كما يورد أ. م. سليفيتسكي، كاتب الأطفال، في مذكراته «أن رواية اسمها «الأطفال» كان من الممكن أن تكون، وفقاً لفكرة دوستوفسكي، تكملة لرواية «الإخوة كارامازوف»؛ حيث يمثل الأطفال فيها الأبطال الرئيسيين للرواية السابقة ...» (دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزء الثاني، ص ٣٥٥). وهناك بعض الأدلة الأخرى على تكملة لرواية «الإخوة كارامازوف»، ساقتها أيضاً في كتابها عن دوستوفسكي الباحثة الألمانية ن. هوفمان، التي جاءت إلى بطرسبورج لجمع عدد من المواد من أنا جريجوريفنا دوستوفسكايا نفسها. وقد سجلت الباحثة ما روته زوجة دوستوفسكي عن تطور الأحداث في تكملة الرواية المفترضة: «وفقاً لخطة الكاتب، كان من المفترض أن يعود أليوشا إلى العالم الدنيوي، بناءً على وصية الأب زوسيم، وأن يحمل على كاهله معاناة هذا العالم وما به من ذنوب. يتزوج من ليزا، ثم يتركها من أجل جروشنكا الخاطئة، التي توقظ في نفسه «طبيعة آل كارامازوف»، وبعد فترة عاصفة من الضلال والشكوك والرفض يعيش وحيداً. ثم يعود مرة أخرى ليدخل الدير، وهناك يحيط نفسه بالأطفال، يهب بطل دوستوفسكي حياته كلها من أجلهم، يحبهم بإخلاص فيعلمهم ويأخذ بهم إلى الطريق المستقيم. من منا لا يربط هنا بين هذا المشهد وبين حكاية الأمير ميشكين (في رواية «الأبله». المترجم) عن الأطفال؛ ومن منا لا يتذكر على الفور قصة البطل الصغير، إنها نفس السمات الطفولية المبهجة، التي لا تنكشف إلا بالحب». Hoffmann Th., Dostojewsky. Eine biographische Studie, Berlin, (1899, s. 427).

^٢ فقرة مفقودة في المخطوطة.

مشهدين أو ثلاثة من ثلاثة الأمير ألكسي تولستوي، وقد أخذ فيودور ميخايلوفيتش على عاتقه القيام بدور الراهب في مسرحية «موت إيفان الرهيب».

توقفت نوبات الصرع لمدة ثلاثة أشهر؛ الأمر الذي جعل من مظهره النشط وحيويته يحيي الأمل في نفوس الجميع أن شتاء هذا العام سيمر بسلام. وبدءاً من منتصف شهر يناير شرع فيودور ميخايلوفيتش في العمل في عدد يناير من «مذكرة الكاتب»، التي أراد أن يعبر فيها عن أفكاره وأمنيته بخصوص «المجلس المحلي». كان موضوع المقالة من هذا النوع الذي من المحتمل ألا تسمح الرقابة بتمريره،^٢ وهو ما كان يثير قلق فيودور ميخايلوفيتش. وقد بلغ نبأ هذا القلق نيكولاي سافيتش أباطة،^٣ وذلك من خلال الكونتيسة صوفيا تولستايا، وكان أباطة قد تم تعيينه للتو رئيساً للجنة الرقابة، فطلب من الكونتيسة إبلاغ فيودور ميخايلوفيتش ألا يخشى شيئاً؛ إذ إنه سوف يقوم بنفسه بالرقابة على مقالته. وفي الخامس من عشرين من يناير، كانت المقالة جاهزة وتم إرسالها للمطبعة لجمعها، ومن ثم لم يبقَ إلا مراجعتها المراجعة الأخيرة وتسليمها للرقيب، ثم طبعها لتصدر في عدد «المذكرة» في اليوم الأخير من الشهر.

^٢ الإصدار الأخير من «مذكرة الكاتب» (يناير، ١٨٨١م) «وصية» دستوفسكي. كتبها بشعور من القلق البالغ على التطور التاريخي القادم لروسيا ولشعبها: «ظهر بعد ذلك هذا السُّكْر الطائش، بحر من السُّكْر يغطي روسيا، وعلى الرغم من أنه ما يزال يجتاح روسيا حتى الآن، إلا أن الشعب لم يفقد إطلاقاً — حتى وهو غارق حتى أذنيه في هذا السُّكْر، حتى ولو ارتوى من الخمر — تعطشه إلى عالم جديد على أي حال، إلى الحقيقة الجديدة، الحقيقة الكاملة. الأمر الأهم هنا، هو أن شعبنا واحد، أي متحد بأسره، متحصن بقوته الباقية فقط، لا يؤيده أحد روحياً. هنا ... وحدة الأرض.» لكنها ليست سوى «البداية ...» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر، ص ٤٣٣-٤٣٤). في هذه الكلمات عبر دستوفسكي عن حلمه الطوباوي أيضاً بشأن وقد «السترات الرمادية»، الذين تمت دعوتهم لإعادة تشكيل المجلس المحلي بروح ديمقراطية ومن ثم إنقاذ روسيا. وفي الوقت نفسه فقد رسم دستوفسكي هذه الصورة الشاملة لانحلال المجتمع الروسي كله، الأمر الذي جعله يطلب بداهة، انطلاقاً من إحساسه بالخوف على مصير إصدار يناير من المذكرة، أن يقوم ن. س. أباطة، رئيس الإدارة العليا للصحافة، بتغيير الرقيب (الذي كان من المفترض أن يكون ن. ي. ليبيديف). وقد أخذ ن. س. أباطة على عاتقه مسئولية مراقبة إصدار يناير («بيتربورجسكي ليستوك»، وصحيفة بطرسبورج، ١٨٨١م، ٣ فبراير، العدد ٢٤).

^٤ نيكولاي سافيتش أباطة (١٨٣٧-١٩٠١م): سيناتور، عضو مجلس الدولة في ١٨٨٠-١٨٨١م. عمل رئيساً لإدارة البريد، قام برقابة الإصدار الأخير «لمذكرة الكاتب».

كان الخامس والعشرين من يناير موافقاً الأحد، وكان لدينا زوار كثيرون. جاء إلينا البروفيسور أوريسست وطلب من زوجي أن يقرأ في التاسع والعشرين من يناير، في ذكرى وفاة بوشكين، في الأمسية الأدبية، التي ستقام لصالح الطلاب. وحيث إن زوجي لم يكن يعلم بعدُ بمصير مقاله حول «المجلس المحلي»، وإذا ما كان عليه أن يستبدل بها غيرها، فقد رفض في البداية الاشتراك في الأمسية. ولكنه وافق فيما بعد. كان فيودور ميخايلوفيتش، كما لاحظ كل ضيوفنا، ممتلئاً بالصحة، مرحاً، ولم يكن هناك أي شيء ينبئ بما حدث له بعد بضع ساعات.

في صباح السادس والعشرين من يناير، استيقظ فيودور ميخايلوفيتش، كعادته، في الساعة الثانية، وعندما دخلت إلى غرفته، حكى لي أن حادثاً صغيراً قد وقع له في الليل؛ فقد سقطت حاملة ريشة الكتابة على الأرض وتدرجت تحت المكتبة (وكان شديد الاعتزاز بهذه الحاملة؛ لأنه كان يستخدمها، فضلاً عن الكتابة، لحشو سجائره)؛ وحتى يتمكن من استعادتها، فقد اضطر لتحريك المكتبة جانباً. كانت المكتبة، بداهة، ثقيلة؛ مما اضطره لأن يبذل جهداً كانت نتيجته أن اندفع الدم فجأة من الشريان الرئوي ليصعد إلى فمه، وحيث إن كمية الدم لم تكن كبيرة، فإن زوجي لم يول الأمر اهتماماً زائداً، حتى إنه لم يرغب أن يوقظني في الليل. انزعجت بشدة، ودون أن أخبره بشيء، أرسلت صبيناً الصغير بيوتر في طلب الطبيب ياكوف بوجدانوفيتش بريتسل، الذي كان يتولى علاج زوجي بشكل دائم، للحضور على عجل، وللأسف لم يستطع الطبيب الذهاب إلى مرضاه إلا بعد الخامسة.

كان فيودور ميخايلوفيتش هادئاً تماماً، وقد راح يتحدث ويمازح الأطفال، ثم أخذ لقراءة «العصر الحديث». وفي حوالي الساعة الثالثة حضر إلينا أحد الزوار، وكان شخصاً طيباً من الذين يودهم زوجي، إلا أن هذا السيد كانت له خصلة سيئة؛ إذ كان دائماً حاداً في جدله. وعندما راح يتحدث وزوجي بشأن المقالة المزمع نشرها في «المذكرة»، إذا به يبدأ في إثبات شيء ما، وقد اعترض عليه زوجي، الذي كان ما يزال تحت تأثير الخوف من النزيف الذي فاجأه بالليل، وسرعان ما حمي الجدل بينهما. ذهبت محاولاتي في تهدئة الجدل بينهما سدى، على الرغم من أنني أخبرت الضيف مرتين أن فيودور ميخايلوفيتش ليس على ما يرام، وأن كثرة الحديث والصياح أمور ضارة بصحته. وأخيراً، وفي حوالي الساعة الخامسة، انصرف الضيف، وتأهبنا للذهاب لتناول طعام الغداء، وإذا بفيودور ميخايلوفيتش يجلس فجأة على أريكته، ثم يصمت ساكناً لمدة ثلاث دقائق،

وفجأة، ويا لهول ما رأيت! تتخضب ذقن زوجي بالدم ويروح تيار رفيع من الدم ينساب على لحيته.^٥

صرخت بشدة، وعلى صرختي هُرعَت إليَّ الخادمة ومعها الأطفال. على أية حال لم يكن فيودور ميخايلوفيتش مرتاعاً، بل على العكس راح يحاول إقناعي أنا والأطفال بالتزام الهدوء؛ ثم اقتاد الأطفال إلى مكتبه، وراح يعرض عليهم العدد الأخير من مجلة «اليعسوب». الذي تلقاه لتوه، حيث كان هناك رسم كاريكاتوري لاثنتين من الصيادين تعثرًا في شبكتهما ليسقطا في المياه.^٦ لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه راح يقرأ على الأطفال أبياتاً منشورة من الشعر بصورة مضحكة، حتى إن الطفلين هدئا وكفّا عن البكاء. ساد الهدوء البيت لما يقرب من ساعة، وها هو الطبيب يصل، وكنت قد أرسلت في طلبه مرة أخرى. عندما بدأ الطبيب في الفحص ونقر المريض بإصبعه، إذا بالنزيف يعود

^٥ لا يمكن اعتبار هذه الرواية التي ذكرتها أ. ج. دستوفسكايا صحيحة على إطلاقها، وهناك رواية أخرى ذُكرت فيما بعد تصف الظروف التي أحاطت بمرض وفاة دستوفسكي. فأنّا جريجوريفنا لا تشير هنا إلى سبب آخر على قدر كبير من الأهمية هو الذي تسبب في الإسراع بوفاة الكاتب؛ ويتلخص في أن شجاراً عائلياً وقع بسبب الميراث الذي تركته كومانينا عمّة الكاتب، التي توفيت عام ١٨٧١م. ففي عام ١٨٨١م آلت إلى دستوفسكي قطعة أرض من الضيعة التي كانت تملكها عمته في ريازان؛ بشرط أن يسدد مبلغاً مالياً لأخواته اللاتي لم يدخلن في هذه القسمة. وقد ذهبت فيرا ميخايلوفنا إيفانوفنا، أخت دستوفسكي، إليه تطلب منه أن يتنازل عن نصيبه في ضيعة ريازان لأخواته. واستناداً إلى مذكرات ابنة الكاتب، نشب بين دستوفسكي وأخته نقاش حادّ حول ميراث كومانينا، انتهى باندفاع الدم من حلقه توفي بعده بيومين (انظر لوبوف دستوفسكايا، ص ٩٦-٩٧. والحقيقة أن ل. دستوفسكايا تنسب وقّع هذا الحديث خطأً إلى السادس والعشرين من يناير، والصواب هو الخامس والعشرين). ومما يؤكد ما جاء بمذكرات لوبوف دستوفسكايا عن الجدال الحاد الذي دار بين دستوفسكي وأخته فيرا إيفانوفنا، ما ذكرته أنّا جريجوريفنا دستوفسكايا عن وفاة زوجها في خطابها إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الحادي والعشرين من أكتوبر ١٨٨٣م. وقد نُشر هذا الخطاب: جروسمان، ص ٣٥٢.

^٦ يؤكد ل. ب. جروسمان أن أنّا جريجوريفنا أخطأت في اسم المجلة، عندما ذكرت أنها «اليعسوب». الصحيح أن دستوفسكي كان يعرض على طفليه عددًا من مجلة رسوم فكاهية من سلسلة «الرغبة أقوى من الإكراه» (صيادا السمك)، وقد رُسم على ظهر الغلاف إعلان للاشتراك في مجلة «أسكولكي» (الشظايا) عام ١٨٨١م. وقد كتبت أنّا جريجوريفنا على الإعلان بالقلم الرصاص (وهو محفوظ الآن في بيت بوشكين)، تقول: «شاهد فيودور ميخايلوفيتش هذا الرسم في يوم مرضه في السادس والعشرين من يناير ١٨٨١م» (جروسمان، ص ٣٢٠).

إليه مرةً أخرى وبقوة في هذه المرة، حتى إن فيودور ميخايلوفيتش فقد وعيه. وعندما أفاق كانت الكلمات الأولى التي قالها لي: أنيا، أرجوك، أرسلي بسرعة في طلب القس، أريد أن أعترف وأن أتناول القربان!

وعلى الرغم من أن الطبيب راح يؤكد أنه لا يوجد أي خطر، فإنني قمت على تنفيذ رغبة زوجي لأهدئه. كنا نسكن بالقرب من كنيسة فلاديميرسكايا، وقد وصل إلينا الأب ميچورسكي بعد نصف ساعة. استقبل فيودور ميخايلوفيتش القس بكل هدوء وانتشراح، واعترف اعترافاً طويلاً وتناول القربان. ما إن غادر القس البيت، حتى دخلت ومعني الأطفال إلى غرفة فيودور ميخايلوفيتش لأهنئه بتناول الأسرار المقدسة، وهنا باركني أنا والأطفال ودعا لهم بحياة آمنة وأن يحب بعضهم بعضاً، وأن يحبوني ويعتنوا بي. وبعد أن صرف فيودور ميخايلوفيتش الأطفال، شكرني على السعادة التي أعطيتها له، ورجاني أن أسامحه، إذا كان قد أغضبني لسبب ما. وقفت أمامه بين الحياة والموت، لا أملك من القوة لأقول له أي شيء. دخل الطبيب وأرقد المريض على الأريكة، ومنعه من إتيان أقل حركة أو الحديث، وطلب أن نبعث في طلب طبيبين، أحدهما من معارفه، أ. أ. بفيفر، والبروفيسور ديمتري كوشلاكوف، الذي كان زوجي يستشيرُه أحياناً في مرضه. وما إن أدرك كوشلاكوف من مذكرة الطبيب فون بريتل، أن حالة المريض سيئة، حتى حضر على الفور. وفي هذه المرة لم يعوداً مرةً أخرى لفحص المريض، وقرر كوشلاكوف أنه ما دام النزيف لم يكن حاداً نسبياً (ما يقرب من فنجانين أو ثلاثة)، فمن المحتمل أن يحدث «تخثر»، وأن تتحسن حالته. ظل الطبيب فون بريتل يراقب فيودور ميخايلوفيتش في فراشه طوال الليل، وكان زوجي يبدو أنه ينام في هدوء. أما أنا فقد أخذتني سنة من النوم عند انبلاج الصبح فقط.

مر السابع والعشرون من يناير هادئاً لا يعكر صفوه شيء، لم يتكرر النزيف، بدا فيودور ميخايلوفيتش هادئاً مرحاً، طلب رؤية الأطفال وتحدث إليهم همساً. وفي منتصف النهار أعرب عن عدم ارتياحه بشأن «المذكرة»، وقد حضر مُرتب الطباعة من مطبعة سوفورين وأحضر معه التصحيح النهائي. وقد اتضح أن هناك ضرورةً لحذف سبعة أسطر حتى تصبح المادة كلها من ملزمتين تامتين. انتاب زوجي القلق، لكنني اقترحت أن نختصر بضعة أسطر من الصفحات الأولى، وهو ما وافق زوجي عليه. وعلى الرغم من أنني احتجرت مُرتب الطباعة حوالي نصف ساعة، فإن فيودور ميخايلوفيتش رأى بعد تصحيحين قراءتهما عليه، أن الأمر أصبح على ما يرام. وقد عرفت من المُرتب أن بروفة

العدد قد أرسلت إلى نيكولاي سافيتش أباطة، وأنها أُجيزت، وقد أُلج ذلك صدر فيودور ميخايلوفيتش.

وفي هذه الأثناء انتشر خبر مرض فيودور ميخايلوفيتش في أنحاء المدينة، وبدءًا من الثانية ظهرًا وحتى وقت متأخر من المساء، ظل قرع الجرس مستمرًا، حتى اضطرت لربطه. جاء إلى البيت للطمئنان على صحة فيودور ميخايلوفيتش من يعرفهم ومن لا يعرفهم، جاءوا ومعهم خطابات يعبرون فيها عن تعاطفهم معه، وآخرون أرسلوا بركات. كانت زيارة المريض ممنوعة، وكنت أخرج للزائرين لمدة دقيقتين أو ثلاث لأخبرهم بحالة المريض. كان فيودور ميخايلوفيتش مسرورًا للغاية بهذا الاهتمام والتعاطف العام، وكان يسألني همسًا، ويملي عليّ أحيانًا بضع كلمات ردًا على خطابٍ ما مؤثر. وقد حضر البروفيسور كوشلاكوف ووجد أن الحالة الصحية أفضل كثيرًا، وطمأن المريض أنه خلال أسبوع سوف يتمكن من القيام من الفراش، وأنه سيشفى تمامًا في خلال أسبوعين. وأمره أن ينام أكثر قدر استطاعته؛ ولهذا فقد كان بيتنا بمن فيه يركن للهدوء والنوم مبكرًا للغاية. وحيث إنني قضيت البارحة جالسةً على الكرسي ولم يغمض لي جفن، فقد وضعت في الليلة التالية حشيةً على الأرض، إلى جوار الأريكة التي ينام عليها زوجي، حتى يسهل عليه استدعائي. ولما كنت مرهقة من جراء الأرق الذي عانيت في الليلة السابقة، فقد استغرقت في النوم في الحال. استيقظت بضع مرات، وعلى ضوء القنديل الخافت رأيت زوجي العزيز المريض نائمًا. استيقظت في حوالي الساعة صباحًا لأرى زوجي ناظرًا باتجاهي.

- حسنًا، كيف حالك يا عزيزي؟ سألته وقد التفت ناحيته.
- تعرفين يا أنيا - قال فيودور ميخايلوفيتش بصوت خفيض - لم أنم منذ ثلاث ساعات، كنت أفكر طوالها، والآن فقط أدركت بوضوح أنني سأموت اليوم.
- يا عزيزي، لماذا تفكر في ذلك؟ قلت له وأنا في حالة من القلق الشديد. إنك الآن أفضل؛ توقف النزيف، ومن البدهي أن «تخترًا» قد حدث، كما أخبرنا كوشلاكوف. بالله عليك، لا تعذب نفسك بالشكوك، ستعيش طويلًا، أوكد لك!
- كلا! أنا أعرف، يجب أن أموت اليوم. أشعلي شمعة يا أنيا، وأعطيني الإنجيل!
- كان هذا الإنجيل قد أُهدي لفيدور ميخايلوفيتش في توبولسك (عندما كان في طريقه إلى المعتقل) من زوجات الديسمبريين (براسكوفيا أنينكوف، وابنتها أولجا إيفانوف، ناتاليا

ديمترييفنا مورافيوفا، أبوستول،^٧ فون فيزينا). وهؤلاء رُحْن يتوسلن إلى حارس المعتقلين أن يسمح لهم بأن يلتقين بالمجرمين السياسيين القادمين من بعيد، وقد قضين معهن ساعة، و«باركُنَّا في طريقنا الجديد، ورسمُن علينا علامة الصليب، وأهدوا لكل واحد منا الإنجيل؛ الكتاب الوحيد المسموح به في المعتقل».^٨ لم يفترق فيودور ميخايلوفيتش عن هذا الكتاب المقدس طوال السنوات الأربع التي قضاها في الأعمال الشاقة.^٩ بعد ذلك ظل هذا الكتاب على مقربة دائماً من زوجي على مكتبه، وكثيراً ما كان يفتحه كيفما اتفق، عندما كان يفكر أو تنتابه الشكوك في أمر ما، فيقرأ أول ما تقع عليه عيناه في الصفحة (على اليسار). والآن كانت لدى فيودور ميخايلوفيتش الفرصة لأن يتأكد من شكوكه مستخدماً الإنجيل، قام بنفسه وفتح الكتاب وطلب مني أن أقرأ.

فُتِح أمامي إنجيل متى، الإصحاح الثالث، الصفحة الثانية: «ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر».^{١٠}

^٧ غير دقيق؛ كانت زوجة الديسمبري م. إ. مورفايوف أبوستول تدعى ماريا قنستانتينوفنا؛ على أن الحديث لم يكن يدور هنا بشأنها، وإنما عن جوزيفين آدموفنا مورافيوفا (براكمان قبل الزواج) زوجة الديسمبري أ. م. مورفايوف، التي كانت تعيش في هذه الفترة في توبولسك. انظر: م. د. فرانتسيف، «المذكرات». «البشير التاريخي»، العدد ٦. عن لقاء دستوفسكي في توبولسك بزوجات الديسمبريين، انظر أيضاً: مذكرات إ. ل. ياسترجيمسكي. السيرة، ١٢٧.

^٨ «المسنون»؛ «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٣م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكيا).

^٩ يذكر دستوفسكي هذا الحادث في «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣م في مقالته «المسنون» (دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الحادي عشر، ص ١٠).

^{١٠} في طبعة الإنجيل الصادرة في عشرينيات القرن الماضي (التاسع عشر. المترجم) توجد كلمة «اسمح». في الطبعات الحديثة استبدلت بكلمة «اتركني». هذا الموضع من الإنجيل تحديداً ورد في الطباعات التالية بالكلمات الآتية: «أمسك به يوحنا قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اتركني الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر».

كان لكلمات الإنجيل التي فُتحت أمام فيودور ميخايلوفيتش معنى ومغزى عميقان في حياتنا. لعله كان من الممكن أن يبرأ زوجي من مرضه بعد فترة من الوقت، لكن برأه لم يكن ليستمّر طويلاً؛ ومن المعروف أن العمل الإجرامي الذي وقع في أول مارس،* كان من شأنه دون شك أن يهز فيودور ميخايلوفيتش بقوة، وكان يحب القيصر؛ محرر الفلاحين؛ وربما انفجر آنذاك شريانه الرئوي الهش، ولو وافته المنية. بالطبع فقد كان من المتوقع أن تترك وفاته في هذا الوقت العصيب أثراً كبيراً، ولكنه لم يكن ليصبح ذا أثر

- هل تسمعين «اسمح الآن»؟ هذا يعني أنني سأموت. قال زوجي ذلك وأغلق الكتاب. لم أتمالك نفسي من البكاء، بينما راح فيودور ميخايلوفيتش يهدئ من روعي بكلمات حنونة رقيقة، شكرني على الحياة السعيدة التي عاشها معي، وأوصاني بالأطفال قائلاً إنه يثق فيّ، ويأمل أن أظل أحبهم دائماً، وأن أراهم. ثم قال لي كلمات ينذر بين الرجال من يستطيع أن يقولها لزوجته بعد أربعة عشر عاماً من الحياة الزوجية: تذكّري يا أنيا، لقد أحببتك دائماً حباً شديداً، ولم أحنك أبداً حتى في أفكاري!

كنت في حالة بالغة من التأثير بكلماته المخلصة، ولكنني كنت أيضاً مضطربة خشية أن يصيبه التأثير بأي ضرر. توسلت إليه ألا يفكر في الموت، وألا يكرنا بشكوكه، وطلبت منه أن يستريح وأن يخلد للنوم. أطاعني زوجي، توقف عن الحديث، لكن وجهه، وقد كسسته السكينة، كان يوحي بوضوح أن فكرة الموت لم تفارقه، وأن انتقاله إلى العالم الآخر أمر لا يخيفه.

وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً، استغرق فيودور ميخايلوفيتش في نوم هادئ وقد تشبث بيدي. جلست لا أحرك ساكناً خشية أن توقظه فجأة أي حركة. لكن زوجي استيقظ فجأة. نهض عن الوسادة نصف نهوض، وإذا بالنزيف يعود من جديد. كنت في حالة من الحزن الشديد، على الرغم من أنني حاولت أن أبدو نشيطة. أكدت لزوجي أنه نزع قليلاً من الدم، وسوف يتكون، على الأرجح، تخثر كما حدث قبل ذلك. اكتفى فيودور ميخايلوفيتش بأن هز رأسه في أسى رداً على كلماتي المطمئنة، وكان مقتنعاً تماماً بأن نبوءته عن موته اليوم ستتحقق.

هائل كالذي حدث له بعد وفاته بالفعل (في يناير. المترجم): كانت أفكار المجتمع كلها ستصبح مشغولة بالتفكير في هذا العمل الوحشي، وفي النتائج الوخيمة التي يمكن أن تنشأ في تلك اللحظة المأسوية من حياة الدولة. في يناير ١٨٨١م، عندما بدا أن كل شيء هادئ، تأتي وفاة زوجي باعتبارها «حدثاً اجتماعياً»؛ لقد بكاه أناس من مختلف الاتجاهات السياسية، أناس من كل طبقات المجتمع. وقد حظي بموكب جنازي استثنائي، ودُفن في احتفال مهيب اجتذب جمهوراً عريضاً من القراء والمعجبين، وحتى من بين الذين كانوا من غير المهتمين بالأدب الروسي.

وهكذا اكتسبت الأفكار السامية لزوجي انتشاراً أوسع وحظيت بتقدير رفيع يليق بموهبته. بعد وفاة القيصر، المحرر الرحيم، كان من الممكن ألا تحظى أسرتنا بالعطف السامي الإمبراطوري، الذي تحقّق بفضل حلم زوجي الدائم بأن ينال أطفالنا تعليماً جيداً، ليتمكّنوا في النهاية أن يصبحوا خدماً مفيدين للقيصر وللوطن (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* في الأول من مارس عام ١٨٨١م تم اغتيال ألكسندر الثاني على يد أحد أعضاء جماعة إرادة الشعب.

بحلول منتصف النهار بدأ الأقارب والمعارف والغرباء في التوافد، وتلقينا الكثير من الخطابات والبرقيات. وقد حضر أيضًا ربيب فيودور ميخايلوفيتش، وكنت قد أرسلت إليه خطابًا أخبره فيه بمرض زوجي. أصّر بافل ألكسندروفيتش على الدخول إلى المريض، لكن الطبيب لم يسمح له، وعندئذٍ راح ينظر إلى الغرفة من فتحة الباب. انتبه فيودور ميخايلوفيتش إليه وهو يختلس النظر، اضطرب وقال لي: «أنيا، لا تسمح لي بالمجيء إليّ، إنه يثيرني!»

في هذه الأثناء، ازداد بافل ألكسندروفيتش إيسايف توترًا وراح يحدث الجميع — الذين جاءوا ليتعرفوا على حالة فيودور ميخايلوفيتش، المعارف منهم والغرباء — أن «والده» لم يترك وصية، وأنه يجب إحضار كاتب العقود إلى البيت حتى يستطيع فيودور ميخايلوفيتش أن يوصي بنفسه بما يملكه. عندما علم البروفيسور كوشلاكوف، الذي جاء لمتابعة المريض من الربيب، نيته استدعاء كاتب العقود، اعترض على ذلك، وأعلن أن من الضروري الحفاظ على قوة المريض بكل وسيلة؛ لأن مثل هذا المشهد العملي، حيث يُطلب منه التوصية والشرح، لا يمكن إلا أن يدفع بفكرة موته السريع إلى الأمام، وأن أي انفعال يمكن أن يقتل المريض.

في حقيقة الأمر، لم تكن هناك حاجة إلى وصية، فالحقوق الأدبية لمؤلفات فيودور ميخايلوفيتش قد أهداها إليّ زوجي قبل ذلك في عام ١٨٧٣ م. وباستثناء خمسة آلاف روبل كانت لدى هيئة تحرير «البشير الروسي»، لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يملك أي شيء، أما وريثة هذا المبلغ الصغير فكانوا نحن؛ أي أنا والأطفال.

لم أبتعد دقيقة واحدة طوال اليوم عن زوجي، كان يمسك يدي بيده ويقول لي هامسًا: «مسكينة ... عزيزتي ... لمن تركتك؟ ... مسكينة ... كم ستكون حياتك صعبة! ...»

رحت أهدئ من روعه وأبعث بالأمل في الشفاء في نفسه، ولكن كان من الواضح أنه لا يملك ذرة واحدة من الأمل، وكانت فكرة أنه سيترك أسرته دون مورد تقريبًا تعذبه. فلم نكن نملك سوى أربعة أو خمسة آلاف روبل لدى هيئة تحرير «البشير الروسي».

همس لي عدة مرات قائلًا: «نادي على الأطفال.» ناديت ... مد زوجي شفاهه إليهم ... قبلوه، ثم خرجوا على الفور بأمر من الطبيب، أما فيودور ميخايلوفيتش فقد ودعهم بنظرة حزينة، وقبيل وفاته بساعتين، جاء الأطفال إليه بناءً على دعوته، فطلب إعطاء الإنجيل لابنه فيديا.

في أثناء اليوم حضر إلينا جمهور من شخصيات مختلفة، لم أخرج لمقابلتهم. جاء أبولون نيكولايفيتش مايكوف وتحدث بعض الوقت مع فيودور ميخايلوفيتش، الذي راح يرد تحيته همساً.

وفي حوالي الساعة تجمع لدينا العديد من الضيوف، جلسوا في غرفتي الاستقبال والمائدة ينتظرون كوشلاكوف، الذي اعتاد أن يأتي إلينا في هذا الوقت. وفجأة ودون أي مقدمات، أخذت فيودور ميخايلوفيتش رجفة، نهض على أثرها بالكاد من الأريكة، لينساب شريط أحمر من الدم مخضّباً وجهه. رحنا نناوله قطعاً من التلج، لكن النزيف لم يتوقف. في هذا الوقت تقريباً وصل مايكوف مرة أخرى ومعه زوجته أنا إيفانوفنا التي قررت الذهاب لإحضار الطبيب ن. ب. تشيريبينين. كان فيودور ميخايلوفيتش فاقداً للوعي، بينما جثوت أنا والأطفال عند رأسه نبكي، كنا نبذل قصارى جهدنا حتى لا نفجر في النحيب بصوت عالٍ، فقد حذرنا الطبيب من أن الحاسة الأخيرة التي تبارح الإنسان هي السمع، وأن كل خرق للهدوء قد يطيل أمد الاحتضار ويزيد من عذاب المحتضر. كنت أمسك يد زوجي بيدي، وأحس بنبضه يتلاشى أضعف فأضعف. وفي الساعة الثامنة وثمان وثلاثين دقيقة مساءً^{١١} انتقل فيودور ميخايلوفيتش إلى الخلود. لم يستطع الطبيب تشيريبينين أن يلحق، اللهم إلا بسماع دقات قلبه الأخيرة.^{١٢}

عندما حانت لحظة النهاية، أطلقت وأطفالي العنان لأحزاننا ... بكينا وانتحبنا وأطلقنا بعض الكلمات، قبلنا وجه الراحل الغالي ويديه التي كانت ما تزال دافئة. كان كل شيء يبدو لي مبهمًا، لكن شيئاً واحداً كنت أعيه بشكل واضح؛ هو أنه ومنذ هذه اللحظة انتهت حياتي الخاصة المليئة بالسعادة التي لا حدود لها، وأني أصبحت يتيمةً روحياً إلى الأبد، أنا التي أحببت زوجها حباً شديداً مخلصاً، والتي أفخر بحبٍ وصداقة واحترام هذا الإنسان النادر ذي الصفات الأخلاقية الرفيعة، والذي لا يعوّض فقدانَه أيُّ شيء. وفي هذه اللحظات الرهيبة حقاً للفراق يبدو لي أنني لن أتحمّل وفاة زوجي، وأن قلبي يكاد ينفطر (كم يخفق هذا القلب الآن بشدة بين جوانحي!) وأني سأفقد عقلي على الفور.^{١٣}

^{١١} أحد الحضور (لعله ماركيفيتش) سجل بدقة لحظة الوفاة (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{١٢} أخبرني نيكولاي بتروفيتش تشيريبينين منذ عدة سنوات مضت أنه ما يزال يحتفظ بالسماعة الطبية التي استخدمها باعتبارها أثراً هاماً (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{١٣} أشار ب. ماركيفيتش في مذكراته «بضع كلمات عن وفاة ف. م. دستوفسكي» («وقائع موسكو»، ١٨٨١م، الأول من فبراير، العدد ٣٢) إلى وقت الوفاة؛ الساعة الثامنة وست وثلاثون دقيقة. عن وفاة

بالطبع، فإن كل إنسان عانى في حياته، ولكن هؤلاء يعانون أحزانهم النفسية في هذه اللحظات التي لا تنسى، في معظم الأحوال، وهم بين ذويهم، بين أحبائهم وأقاربهم، عندها تكون لديهم إمكانية أن يعبروا عن مشاعرهم التي توترقهم قدر استطاعتهم، وعلى النحو الذي يريده، دونما خجل أو تحفظ. لم يكن من نصيبي أن أنال هذه السعادة الكبرى، لقد توفي زوجي الغالي في حضور جمع غفير من الناس، جزء منهم كانوا يكونون له الاحترام العميق، لكن جزءاً آخر كان لامبالياً تماماً تجاهه، وتجاه الحزن الذي لا يخبو أوارهُ في أسرتنا التي تيتمت. وكأن الظروف شاءت أن تزيد من وطأة أحزاني، إذا بي أجد بين الحضور الأديب بوليسلاف ماركيفيتش،^{١٤} الذي لم يزرنا مرة واحدة، يأتي الآن بناء على رغبة الكونتيسة صوفيا تولستايا ليعرف على أية حالة وجد الطبيب فيودور ميخايلوفيتش. ولمعرفتي بماركيفيتش فقد كنت على يقين أنه لن يتمالك نفسه عن وصف الدقائق الأخيرة من حياة زوجي، وقد كنت أشعر بالأسف أن وفاة شخص عزيز على قلبي لم تحدث في هدوء، على انفراد، بين أناس يخلصون له من أعماق قلوبهم. وقد تحققت مخاوفي؛ علمت بكل أسى في اليوم التالي، أن ماركيفيتش أرسل إلى مجلة «وقائع موسكو» وصفاً «فنياً» للحدث المؤسف الذي وقع. وبعد يومين أو ثلاثة قرأت المقالة نفسها («وقائع موسكو»، العدد ٣٢) ولم أتعرف على الكثير مما جاء بها. لم أتعرف على نفسي في تلك الأحاديث، التي بدت وكأنها وُضعت على لساني، فقد كانت بعيدة كل البعد عن شخصيتي وعن مزاجي النفسي في تلك الدقائق الحزينة الخالدة.^{١٥}

دستوفسكي، انظر أيضاً: مذكرات أ. س. سوفورين «عن المرحوم» (دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزء الثاني، ص ٤١٧-٤١٨)، نعي دستوفسكي، الذي كتبه أ. س. سزفورين («المجلة الفنية»، ١٨٨١م، العدد الثاني)، خطاب أنا جريجوريفنا إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الحادي والعشرين من أكتوبر ١٨٨٣م (في كتاب: جروسمان، ص ٣٥٢)، مذكرات ابنة الكاتب (ل. ف. دستوفسكايا، ص ٩٨-٩٩)، مذكرات ن. ن. ستراخوف (السيرة، ص ٣٢٣-٣٢٤).

^{١٤} يوليسلاف ميخايلوفيتش ماركيفيتش (١٨٢٢-١٨٨٤م): كاتب رجعي، كاتب روايات ظهرت في «البشير الروسي» هاجم فيها العدميين.

^{١٥} الأرجح أن النفور الذي كانت تكنه أنا جريجوريفنا لـ «ب. م. ماركيفيتش» يعود في الأساس إلى دستوفسكي نفسه. فقد دأب ماركيفيتش، المحرر الدائم في مجلتي «البشير الروسي» و«وقائع موسكو» اللتين كان يملكهما كاتكوف، على نشر الوشائات السياسية في مقالاته الهجائية ضد نشطاء حركة التحرير الروسية، وضد عدد من الكتّاب الروس، وعلى الأخص ضد سالتيكوف شيردين وإيفان تورجينيف. وقد

لكن الله الرحيم أنزل عليَّ السكينة: في هذا المساء الحزين، وفي حوالي الساعة العاشرة، وصل أخي العزيز إيفان جريجوريفيتش سنيتكين. كان قد جاء من الريف في بعض شئونه متجهاً إلى موسكو، وبعد أن عزم أمره على العودة إلى بيته، فكر دون سبب ظاهر، في الذهاب إلى بطرسبورج لمقابلتنا. صحيح أنه كان قد قرأ في إحدى الصحف عن مرض فيودور ميخايلوفيتش، لكنه لم يول هذا الخبر أهمية كبرى، مفترضاً أن زوجي كثيراً ما تقع له نوبة صرع مزدوجة. كان قطاره قد تأخر فقرر، بعد أن أقام في أحد الفنادق، أن يأتي لزيارتنا مساءً. وبعد أن وصل إلى مدخل بيتنا، لاحظ بدهشة أن جميع نوافذ شقتنا مضاة بشدة، وأن شخصين مثيرين للشبهة يرتديان ما يشبه القفطان يقفان عند المدخل. أحدهما أسرع خلف أخي على السلم وقال له بصوت خفيض: أيها السيد، من فضلك، اطلب منهم أن يكلفونا بالأمر.

– أي أمر؟ سأله أخي دون أن يدرك ما يحدث.

– إننا حانوتيان، جئنا بشأن الدفن.

– ومن الذي مات هنا؟ سألهما إيفان جريجوريفيتش دون تفكير.

– مؤلف ما، لا أتذكر اسمه. هكذا أخبرنا البواب.

أخبرني أخي أن قلبه قد تجمّد، هُرع إلى أعلى واندفع داخلاً عبر باب الشقة، الذي لم يكن مغلقاً، حيث وقف أمامه عدد من الأشخاص. وبعد أن ألقى بمعطفه، أسرع أخي نحو غرفة المكتب، حيث كان جثمان فيودور ميخايلوفيتش مُسجى على الأريكة.

كنت جاثيةً بالقرب من الأريكة، وما إن شاهدت أخي حتى أسرع نحو. تعانقنا بشدة، وسألته: «فانيا، من أخبرك أن فيودور ميخايلوفيتش قد توفي؟» كنت قد نسيت تمامًا أن أخي لا يسكن في بطرسبورج، وأنه يعيش في موسكو الآن، ولا يمكن أن يعرف

قام باتهام الأخير بوجود علاقة بينه وبين «العدميين الروس» والإرهابيين. وعلى الرغم من أنه لا توجد أية آراء سلبية منشورة لدستوفسكي بشأن نشاط ماركيفيتش المذكور، لكنه كان من الواضح في الوقت نفسه أن ماركيفيتش، شأنه في ذلك شأن أفسينكو وميشيرسكي، كان يمثل صحافة «الطبقة العليا»، التي كان دستوفسكي يضمّر لها كراهية شديدة. وقد دفع الغلو المتطرف لآراء ماركيفيتش الرجعية وما اتسمت به مقالاته من وقاحة بدستوفسكي للنفور منه. وعلى سبيل المثال فقد استمرت «وقائع موسكو» في نشر مقالات ماركيفيتش البذيئة ضد أ. ب. فيلوسوفوفا، الشخصية الاجتماعية البارزة، القريبة من الدوائر الديمقراطية الراديكالية، وكان دستوفسكي يكرّ لها دائماً مشاعر الاحترام الخالص. وقد كانت أنا جريجوريفنا على دراية، بطبيعة الحال، بمقالات ماركيفيتش الهجائية ضد فيلوسوفوفا.

ويصل إلى هنا بمثل هذه السرعة. بداهة، كنت مصدومة من الحزن، ومن الموت المفاجئ (فبالأمس فقط كان البروفيسور كوشلاكوف يؤكد لي الأمل في شفاء زوجي)، حتى إنني فقدت القدرة على تصور أي شيء بوضوح.

اعتبرت أن وصول أخي في هذا الوقت العصيب هبة حقيقية من الله، فضلاً عن أن وجود أخي الحبيب وصديقي المخلص، فيه بعض من العزاء، فإلى جوارحي الآن إنسان مخلص، أستطيع أن أسأله النصيح وأن أضع على كاهله كل همومي البسيطة، حتى وإن كانت معقدة فيما يخص دفن فيودور ميخايلوفيتش. وبفضل أخي استطعت أن أتغلب على كل الأمور العملية، وأن أتجنب العديد من الأمور الصعبة الكريهة في هذه الأيام الحزينة. مضى مساء الثامن والعشرين من يناير بطوله، وتلته أربعة أيام (٢٩ يناير-الأول من فبراير) ظلت في ذاكرتي كابوساً يعذب روحي. الكثير مما حدث بقي ماثلاً أمامي بوضوح تام، كما انمحت من ذاكرتي أحداث أخرى كثيرة، وقد عرفت الكثير أيضاً من خلال أشخاص آخرين. أتذكر، على سبيل المثال، أنه في الساعة الثانية عشرة من مساء نفس اليوم جاء لزيارتنا أ. س. سوفورين، وكان حزيناً للغاية بسبب وفاة زوجي، وكان يقدره تقديراً رفيعاً ويحبه. وقد وصف سوفورين زيارته المسائية في مجلة «العصر الحديث»^{١٦}.

بحلول الساعة الواحدة ليلاً كانت الاستعدادات الضرورية كلها قد اتُّخذت. وقد وُضع جثمان العزيز لدينا على منصة الدفن وسط غرفة المكتب. من جهة الرأس كانت المكتبة ذات الأرفف وعليها أيقونة وقنديل مُضاء. كان وجه المرحوم يغمره الهدوء وكأنه ما يزال حياً نائماً يبتسم في حلمه «بالبر» الذي يعرفه الآن.

بعد منتصف الليل تفرق كلُّ الغرباء. ذهبت لأضع في الفراش أطفال، الذين أعياهم الحزن على موت أبيهم وبكاؤهم المستمر عليه طوال المساء، بينما ذهبنا — ثلاثتنا (أمي وأخي وأنا) — لنهجع دون إزعاج بالقرب من الجثمان. أتذكر بامتنان بالغ التقدير هذه الليلة الأخيرة، عندما كان زوجي العزيز ما يزال ملكاً خالصاً لأسرته، وكان ما يزال بإمكاننا أن نطلق العنان للتعبير عن أحزاننا دون شهود، دون خجل ودون تحفظ. نبكي بغزارة، نصلي بحرارة ليرحم الله روح الميت ونطلب من الراحل أن يعفو عن الصغائر

^{١٦} انظر مقالة نيزناكوميثس (الاسم المستعار لـ أ. س. سوفورين وتعني «مجهول» (الترجم)) «عن المرحوم». «العصر الحديث»، ١٨٨١م، الأول من فبراير، العدد ١٧٧١.

التي لا مفر منها في الحياة العائلية، التي قد أكون قد ارتكبتها في حق زوجي الحبيب دون وعي أو دون فهم.

وقفت أنا وأخي ثم جلسنا عند نعيش الميت حتى الرابعة صباحًا، ثم أصر أخي أن أذهب للنوم، وأقنعني أخيرًا أن عليّ أن أستجمع قواي لما سوف أواجهه غدًا من اضطرابات لا مفر منها.

في التاسع والعشرين من يناير، في الساعة الحادية عشرة، جاء إليّ شخص مهيب من وزارة الداخلية آنذاك، الأمير لوريس ميليكوف. وبعد أن أعرب لي عن تعازيه بشأن مصابي، قال الموظف إن لديه مبلغًا يود أن يسلمه لي لنفقات دفن المتوفى. لم أكن أعرف مقدار هذا المبلغ، ولكنني لم أرغب في أخذه، كنت أعرف بالطبع أن لدى كل الوزارات تقليدًا يقضي بإعطاء الأسرة التي فقدت عائلها مساعدةً من أجل دفن المتوفى من أفرادها، وأن هذه المساعدة لا تعد عيبًا، لكنني كنت أشعر بالإهانة من هذا العرض. طلبت من الموظف أن يبلغ شكري العميق للأمير لوريس ميليكوف للمساعدة التي قدمها، لكنني أعلنت أنني لا أستطيع قبولها، لأنني أرى أن من واجبي الأخلاقي أن أدفن زوجي من أمواله التي اكتسبها. وعلاوة على ذلك، فقد أخبرني الموظف، نيابةً عن الأمير، أن أطفاله سوف يتلقون تعليمهم في المؤسسات العلمية التي أرغب في التحاقهم بها، وذلك على نفقة الحكومة. طلبت من الموظف أن يبلغ الأمير امتناني القلبي لعرضه الكريم، ولكنني قررت في نفسي أن أطفاله لا بد أن يتلقوا تعليمهم لا على نفقة الحكومة، وإنما من أعمال والدهم، ثم أعمال أمهم. ولسعادتني الكبرى، فقد نجحت في إنجاز التزامي، وقد تعلم أولادي فيما بعد من الأموال التي حصّلتها من إصدار الأعمال الكاملة لوالدهم. كنت على قناعة عميقة أنني برفض قبول المساعدة في الدفن وتعليم الأولاد، فقد تصرفت تمامًا كما كان سيتصرف زوجي خالد الذكر.

منذ الحادية عشرة صباحًا توافد المعارف والغرباء، بعد أن علموا من الصحف بموت فيودور ميخايلوفيتش، لحضور القدّاس على جثمانه، وقد كانوا من الكثرة بحيث امتلأت بهم سريعًا حجرات المنزل الخمس، وبحلول لحظة القداس كنت مضطرة، أنا والأطفال، أن نشق طريقنا بصعوبة لكي نقف إلى جوار النعش.

كنت قد دعوت القس الأب...^{١٧} لكي يقوم بمراسم القداس، وكان المنشدون قد جاءوا في اليوم الأول من كنيسة فلاديميرسكايا. وفي اليومين الأخيرين في القداسات الرئيسية

^{١٧} فقرة مفقودة في المخطوطة.

التي أعلن عنها (في الواحدة ظهرًا والثامنة مساءً) جاءت، بناءً على طلبي وبموافقة وكيل الكنيسة، جوقة كنيسة كاملة من كاتدرائية إيساكيفسكي يرؤسها ي. ف. بوجدانوفيتش. ولكن كان هناك وفود أخرى تأتي يوميًا من مختلف المؤسسات برئاسة قس من الكنيسة، ومعهم منشدون، كانوا يطلبون السماح لهم بإقامة القداس عند نعش الكاتب. أتذكر وفدًا جاء من الفيلق البحري قام القس الخاص به بإقامة قداس مهيب بمصاحبة غناء الجوقة البحرية الرائعة.

لن أستمّر في تعداد أسماء هذه الشخصيات التي حضرت القداس عند قبر زوجي. هنا وقف أبرز ممثلي أدبنا، الذين تعاطفوا مع فيودور ميخايلوفيتش وقدرّوا موهبته؛ وكذلك الذين ناصبوه العداء الصريح، والذين أدركوا، بعد وفاته، مدى الخسارة الفادحة التي لحقت بالأدب الروسي، والذين أرادوا أن يعبروا عن احترامهم لواحد من أنبل ممثلي هذا الأدب. وقد حضر إلى أحد القداسات التي أقيمت مساءً الأُمير العظيم، الذي كان في مقتبل العمر آنذاك، ديمتري قنستانتينوفيتش؛ الأمر الذي أثار دهشة الحضور.

وطوال اليوم، التاسع والعشرين من يناير، سألني كثير من الناس أين سيُدفن فيودور ميخايلوفيتش؟ تذكرت أن فيودور ميخايلوفيتش قد أعرب عن إعجابه بجبانة دير نوفوديفيتشي، أثناء دفن نكراسوف، وقد قررت أن يُدفن هناك. طلبت من صهري بافل جريجوريفيتش سفاتكوفسكي أن يقوم بالاتفاق بشأن المقبرة، وفوضت ابنتي ليليا في اختيار مكانها، وأرسلتها مع صهري إلى نوفوديفيتشي، وكان هدفي الرئيسي من ذلك أن تتمكن الفتاة من المرور عبر المدينة وتتنفس هواءً نقيًا. (يا لهم من أطفال مساكين! ثلاثة أيام على التوالي، قبيل الدفن، لم يغادروا البيت، جالسين في حجراتهم، المكتظة بالناس الذين جاءوا ليعضروا كل القداسات التي أقيمت.) وكانت ليليا توزع الزهور من الأكاليل، الموضوعة على المتوفى، على المعجبين بموهبة أبيها؛ للذكرى.

وفي أثناء الرحلة إلى نوفوديفيتشي وصل فيساريون فيساريونوفيتش كوماروف،^{١٨} المحرر في جريدة «وقائع سان بطرسبورج»، الذي أخبرني أنه جاء ممثلًا لكنيسة ألكسندر نيفسكي التي تعرض أي مكان في جبّانيتها ليجد فيه زوجي راحته الأبدية. «إن الكنيسة — يقول كوماروف — ترجو قبول المكان مجانًا، وسوف تعتبر أن دفن رفات الكاتب

^{١٨} فيساريون فيساريونوفيتش كوماروف (١٨٣٨-١٩٠٧م): صحفي وناشر.

دستويفسكي، الذي دافع بكل حماس عن العقيدة الأرثوذكسية، في الكنيسة شرفاً كبيراً. «إن العرض الذي قدمته كنيسة ألكسندر نيفسكي، كان أمراً مشرفاً، إلى حد أن رفضه سيكون أمراً مؤسفاً حقاً. وفي الوقت نفسه، فمن المحتمل أن يكون صهري سفانكوفيتش قد انتهى من شراء مقبرة في دير نوفوديفيتشي. لم أكن أعرف كيف أتخذ قراراً وكيف أجيب على كوماروف. ولحسن حظي، عاد صهري وأخبرني أن رئيس الدير أظهر بعض الصعوبات بشأن المكان الذي اختارته ابنتي، ومن ثم فقد تم تأجيل شراء المقبرة إلى الغد. كنت راضية تماماً. وحيث إن الكنيسة قد عرضت اختيار مقبرة في أي مكان من جبانته، فقد طلبت من كوماروف اختيار مكان في جبانة تيخفينسكي، بالقرب من مقبرتي كارامازين^{١٩} وجوكوفسكي،^{٢٠} اللذين كان فيودور ميخايلوفيتش يحب أعمالهما. ومن الصدف السعيدة أن يكون المكان الشاغر إلى جوار تمثال الشاعر جوكوفسكي، وقد اختير مكاناً للراحة الأبدية لزوجي خالد الذكر.

في الثلاثين من يناير، وأثناء القداس اليومي، حضر الهوفميستر^{٢١} نيكولاي أباطة، وسلّمني خطاباً من وزير المالية يفيد بأنه «تقديرًا للخدمات التي قدمها المرحوم زوجي للأدب الروسي» فقد خصص القيصر الإمبراطور لي ولأطفالي معاشاً سنوياً قدره ألفا روبل. بعد أن قرأت الخطاب توجهت بالشكر الحار لنيكولاي أباطة على هذا الخبر الطيب، ثم دخلت من فوري إلى مكتب زوجي، لأنقل إليه الخبر السار، وأخبره أن الأطفال منذ الآن سيكونون مؤمنين، وما إن دخلت إلى الغرفة، حيث يرقد جثمانه، حتى تذكرت أنه لم يعد بيننا، فأخذت في البكاء المرير. (أود أن أذكر، بالمناسبة، أن هذا النسيان غير المفهوم لي استمر، على أقل تقدير، حوالي شهرين بعد وفاة فيودور ميخايلوفيتش؛ فتارة أسرع إلى البيت، حتى لا يضطر لانتظار الغداء، وتارة أشتري له حلوى، وتارة أخرى أفكر، في نفسي، أن من الضروري أن أبلغه ببعض الأنباء التي سمعتها. بالطبع كنت أتذكر بعد دقيقة أنه قد توفي، وعندها أشعر بأسى لا يوصف.)

^{١٩} فاسيلي أندرييفيتش جوكوفسكي (١٧٨٣-١٨٥٢م): شاعر روسي.

^{٢٠} نيكولاي ميخايلوفيتش كارامازين (١٧٦٦-١٨٢٦م): كاتب روسي، مؤرخ، مؤسس المدرسة الروسية العاطفية. رئيس تحرير عدد من الصحف والمجلات الروسية. أشهر أعماله «تاريخ الدولة الروسية».

^{٢١} رئيس ديوان البلاط. (المترجم)

جدير بالذكر أنني دائماً ما أستعيد ذكرى هذين اليومين ونصف اليوم، التي ظل فيها جثمان زوجي خالد الذكر موجوداً في البيت، بشيء من الخوف. كان أكثر ما يعذبني آنذاك، أن شققتنا لم تكن تخلو ولو لساعة واحدة من الغرباء: تيار كثيف من الناس يمشي في خطوات استعراضية، وتيار آخر يأتي من المدخل الخلفي ليقطع الشقة كلها، ليتوقفوا جميعاً في غرفة المكتب، حتى لا يبقى هناك بمرور الوقت سوى قليل من الهواء، حتى إن القناديل والشموع الكبيرة المحيطة بالنعش كانت تنطفئ. لم تكن وجوه الغرباء موجودة لدينا في أثناء النهار فقط، وإنما في الليل أيضاً، كانت هناك أناس يريدون قضاء الليل بجوار نعش فيودور ميخايلوفيتش، وآخرون كانوا يريدون قراءة المزامير، وقد راحوا يقرءونها على مدى ساعات طويلة. أذكر أن الياور الأمير نيكولاي فيودوروفيتش جايدن، الذي كان يقدر بعمق موهبة فيودور ميخايلوفيتش، ظل يقرأ المزامير في الليلة الأخيرة إلى جوار النعش قبل إخراج الجثمان من البيت.

كل ذلك يدل، بطبيعة الحال، على الحزن الصادق لدى محبي موهبة فيودور ميخايلوفيتش، وعن الاحترام العميق لذكرى الراحل. وليس بمقدوري سوى أن أشعر وأن أعبر عن خالص امتناني لهؤلاء الذين تعاطفوا مع زوجي.

ولكن في سياق امتناني القلبي ذاته، كنت أشعر في نفسي بشيء من «الغصة»؛ لأن المجتمع قد انتزع مني زوجي العزيز، وأن الذين أحاطوه، وإن كانوا يكتفون له مشاعر الحب، فإنني، أقرب مخلوق إليه، لم أستطع أن أكون معه على انفراد، لم أستطع كذلك أن أقبل وجهه ويديه مرات ومرات؛ أن أضع رأسي فوق صدره كما فعلت في الليلة الأولى لوفاته. إن وجود الغرباء اضطرني لأن أتخلف في إبداء مشاعري؛ خوفاً من أن يقوم مندوب صحيفة نكرة في اليوم التالي بوصف حزني بتعبيرات سخيفة. لم يكن أمامي سوى تلك الغرفة الصغيرة، التي أستضيف فيها أمي، لأهرب إليها؛ حتى أتمكن من الاستسلام لحزني. كنت ألجأ إلى أمي عندما أشعر بضعفي؛ أختبئ؛ ألقى بنفسي فوق فراشها، وأحاول أن أفسر لنفسني قدر ما أستطيع ماذا حدث. لكن أحداً لا يريد أن يتركني في هدوء وفي عزلة: يطرقون الباب ويقولون إن وفداً قد وصل من مؤسسة كذا ويود أن يعبر بصفة شخصية عن تعازيه. كنت أخرج إليهم، فيقوم مندوب الوفد، الذي يكون قد أعد مسبقاً خطاباً بليغاً في الحديث عن الأهمية التي كان يشغلها زوجي المرحوم في الأدب الروسي، وكيف طرح تلك الأفكار السامية التي كان ينادي بها، ثم يروح يتحدث

عن «الخسارة الفادحة التي مُنيت بها روسيا من جراء موته»، كنت أستمع في صمت، ثم أشكره بحرارة وأصافحه، ثم أعود راجعة إلى أمي. وبعد برهة، وفد جديد، يرغب حتمًا في لقائي والتعبير عن تعازيه لي شخصيًا، فأخرج وأستمع إلى خطاب عن أهمية زوجي، وعن «الرجل الذي فقدته روسيا»، بقيت أستمع على مدى ثلاثة أيام إلى خطب العزاء، وفي النهاية وصلت إلى حال من القنوط، فقلت في نفسي: «ما لي الآن و«روسيا»! تذكروا يا ناس من الذي فقدته أنا! لقد فقدت أفضل إنسان في العالم، الإنسان الذي وهبني السرور والفخر والسعادة في حياتي، شمسي، إلهي! ارحموني، ارحموني أنا شخصيًا ولا تُحدّثوني عن خسارة روسيا في هذه اللحظة!»

عندما يأتي إليّ شخص واحد من أعضاء الوفود العديدة يريد أن يعبر عن أسفه من أجلي، لا من أجل روسيا، فهذا هو الذي سيترك حقًا أثرًا في نفسي، وسوف أمسك بيد هذا الغريب وأقبلها.

كنت مقتنعة تمامًا أن أفكاري في هذه الأيام مضطربة وغير طبيعية؛ الأمر الذي ساعد عليه أيضًا أنني كنت، بالمناسبة، أعاني من سوء حالتي الصحية: مرت خمسة أيام (٢٦-٣١ يناير) لم أغادر فيها الغرف الخائقة، ولم أكن أتغذى فيها إلا على الخبز والشاي. كان أقربائي الطيبون يأخذون الأطفال للنزهة، وإلى منازلهم، ليتناولوا طعام الغداء لديهم؛ لأن الزحام الذي كان يملأ شقتنا، ودخول الضيوف من بابها الخلفي، لم يكن ليتمكن الطاهية من إعداد الطعام، فكنا جميعًا نتناول طعامًا جافًا.

في اليوم الأخير (الثلاثين من يناير) راحت تنتابني حالات هysterية؛ وفي واحدة منها وقع لي حادث كان من الممكن أن يودي بحياتي: فبعد انتهاء أحد القداسات، أحسست بضيق عصبي في حلقي، فطلبت من أحد القريبين مني أن يُحضر لي نقطة من دواء الفاليريان. بدأ الواقفون بالقرب من غرفة الاستقبال يصيحون على الخادمة قائلين: «أحضروا فاليريان، فاليريان! أين فاليريان؟» ولما كان هناك اسم «فاليريان»، فقد خطرت على رأسي المضطرب فكرة مشوشة: أرملة تبكي والجميع ينادون على فاليريان ما ليساعدها. وبسبب هذه الفكرة السخيفة رحت أضحك بغیظ، وأصبح «فاليريان! فاليريان!» وحتى المحيطون دخلوا في هysteria شديدة. لسوء الحظ، لم تعثر الخادمة على قنينة الفاليريان القطّارة، فأرسلوها على الفور إلى الصيدلية، بعد أن طلبوا منها بالمرّة إحضار روح النشادر أيضًا، في حالة إذا ما دعت الحاجة له لإفاقتي. بعد عشر دقائق

تم إحضار الدواءين، وكنت ما أزال أوصل الضحك الهستيرى، وأخبط على أيدي النساء اللاتي كن يُحطنني. هنا قامت إحدى السيدات الفضليات، صوفيا فيكتوروفنا أفيركييفا — وهي سيدة تتميز بالحزم — بوضع ثلاثين نقطة، وربما أكثر، في إحدى الكئوس من سائلٍ ما، وعلى الرغم من مقاومتي، فقد أرغمتني على شربه. لكنني شعرت بلذعة حارقة في لساني، فأخرجت مندلي وبصقت فيه ما تجرعت. وقد تبين أن صوفيا فيكتوروفنا خلطت، من فرط تسرعها، بين قنينتي الدواء، فأعطتني ما يزيد على ثلاثين نقطة من روح النشادر، بدلاً من نقطة الفاليريان. راحت دموعي تنساب طوال الليل على جلدي، وكنت أشعر بالألم في فمي ولساني، وقد استمر الأمر لمدة أسبوع بعد ذلك، ولو أنني شربت ما في الكأس لحدث حرق في المريء والمعدة، وربما هدد ذلك حياتي، أو أصابني بمرض خطير.

نسيت أن أذكر، أن من بين العديد من الذين زارونا في اليوم التالي لوفاة زوجي، الفنان الشهير كرامسكوي،^{٢٢} وقد أعرب عن رغبته في رسم صورة لوجه المتوفي بالحجم الطبيعي، وقد أنجز عمله بموهبة فائقة. وفي هذه الصورة يبدو فيودور ميخايلوفيتش وكأنه لم يفارق الحياة، وإنما راح في نوم عميق، وقد علّت وجهه المضيء ابتسامته، كما لو كان قد عرّف سر الحياة الأخرى المكنون.^{٢٣}

وبالإضافة إلى كرامسكوي، حضر عدد آخر من الفنانين من الرسامين والمصورين الفوتوغرافيين، الذين رسموا والتقطوا الصور لاستخدامها في الكتب كصور توضيحية.

^{٢٢} إيفان نيكولايفيتش كرامسكوي (١٨٣٧-١٨٨٧م): رسام، صاحب أشهر الصور الشخصية لكتاب مثل تولستوي ونكراشوف. تعرف على دستوفسكي عام ١٨٨٠م في بيت سوفورين.

^{٢٣} نشرت مجلة «البشير التاريخي» (١٨٨١م، العدد الثالث، ص٤٨٧-٤٨٨) مقالة عن الصورة التي رسمها كرامسكوي لدستوفسكي، والموجودة في الوقت الحالي في بيت بوشكين (المتحف الأدبي)، ففي صباح اليوم التالي للوفاة أبلغ أحد رفاق الكاتب الرسام بالنبأ، وعلى الفور توجه إلى بيت المرحوم، وهناك نصب أدواته واستمر في رسم صورة المتوفي لعدة ساعات بالقلم الرصاص والحبر، لتجيء واحدة من أفضل أعماله، ولتُظهر التشابه بين الصورة وصاحبها على نحو مدهش. أما المصورون الفوتوغرافيون، الذين حاولوا التقاط صور للكاتب المسجّى في الغرفة الصغيرة في ضوء خافت، فضلاً عن اضطرابهم لأن تكون الصورة جانبية فقط، باءت محاولاتهم بالفشل. وقد طلب كرامسكوي من أرملة المرحوم أن تقبل منه هذه الصورة باعتبارها هدية متواضعة مقابل هذه الساعات من المتعة التي أعطتها له أعمال دستوفسكي.

كما زارنا أيضًا النحات المعاصر الشهير الآن ليوبولد برنشتام،^{٢٤} ولم يكن معروفًا آنذاك. وضع برنشتام قناعًا لزوجي، استطاع بفضلُه أن يصنع تمثالًا نصفياً مطابقاً له تمامًا.^{٢٥} وفي يوم السبت، الحادي والثلاثين من يناير، جرى نقل جثمان فيودور ميخايلوفيتش من شقتنا إلى دير ألكسندر نيفسكي. ليس بإمكانني أن أصف لكم موكب الدفن، فقد وصفه الكثيرون غيري.^{٢٦} فأنا لم أشاهد الموكب بأكمله أو رأيته في الصور، فقد سرت وراء النعش مباشرةً ولم أشاهد سوى من كانوا بالقرب مني. ووفقًا لشهود العيان، فقد كان مشهدًا رائعًا: طابور طويل من أكاليل الزهور المحمولة على قوائم ارتكاز. العديد من جوقات المنشدين من الشباب، ينشدون أناشيد الدفن، بينما يسير النعش مرتفعًا فوق الزحام، وجمهور هائل من البشر يبلغ عشرات الآلاف يسرون خلف الموكب، كان مشهدًا مؤثرًا للغاية. كان الأمر الأكثر مدعاةً للتقدير لهذا الموكب الحزين لجثمان فيودور ميخايلوفيتش؛ هو أنه لم يسبق الإعداد له من جانب أي طرف من الأطراف. وقد أصبحت مثل هذه الجنائز المهيبه تقليدًا عامًا فيما بعد. كان أمرًا شائعًا أن تكون مواكب الجنائز الاحتفالية في ذلك الزمن متواضعة نسبيًا (باستثناء جنازة الشاعر نكراسوف)، ولم يكن الوقت متاحًا للاجتماع لتنظيمها (يومان) كافيًا. وقد أخبرني أخي عشية خروج النعش، محاولاً إدخال السرور على نفسي، أن ثمانية مؤسسات تعرض إحضار باقات الزهور

^{٢٤} ليوبولد أدولفوفيتش برنشتام (١٨٥٩-١٩٣٩م): نحات وجوه، أقام تماثيل نصفية لكل من بوشكين ودستوفسكي وسالتيكوف، شيدرين وجونشاروف وفلوبير.

^{٢٥} كان ل. أ. برنشتام يعتزم القيام بنحت تمثال نصفي لدستوفسكي حتى إبان حياته، وفي خطابه المؤرخ السادس من نوفمبر ١٨٨٠م طلب د. ف. جريجورفيتش من دستوفسكي الموافقة على إقامة التمثال، كما أرسل خطابًا آخر في هذا الصدد إلى أنا جريجوريفنا في العشرين من يناير ١٨٨١م (انظر: «من أرشيف دستوفسكي» خطابات الكتاب الروس، براج، ١٩٢٣م، ص ٢٦-٢٧). عن قيام ل. أ. برنشتام بعمل قناع وتمثال نصفي لدستوفسكي، انظر: S. Bernstam. Léopold Bernstam. Sa Vie – son oeuvre. Paris, 1913, pp. 5-6.

^{٢٦} توجد قائمة كاملة من المطبوعات الدورية التي أفردت على صفحاتها وصفًا لجنازة دستوفسكي، انظر في كتاب أ. ج. دستوفسكايا: الدليل البيبلوجرافي للمؤلف والأعمال الفنية الخاصة بحياة وإبداع ف. م. دستوفسكي ... ١٨٤٦-١٩٠٣م (سان بطرسبورج)، أما مذكرات معاصري الكتاب فيضمها الدليل الذي وضعه س. ف. بيلوف، «ف. م. دستوفسكي في مذكرات معاصريه. الدليل البيبلوجرافي». «النشرات العلمية لمعهد ألكسندر جيرتسين للعلوم التربوية»، العدد ٣٢٠، ص ٢٧٤-٣١٦. للاطلاع على أكثر وصف اكتمالاً لجنازة دستوفسكي، انظر: مجلة «فسميرنايا إيلوستراتسيا»، ١٨٨١م، العدد ٦٣١.

لوضعها على قبر فيودور ميخايلوفيتش. وفي الصباح إذا بالباقيات والأكاليل يبلغ عددها أربعاً وسبعين، وربما أكثر. وقد تبين فيما بعد أن كل المؤسسات والمنظمات، كل بمبادرة خاصة منها، قد استعدت بإكليلها واختارت وفداً يمثلها. باختصار، فقد اتفقت كل الأحزاب من كل التيارات على التعبير عن حزنها على وفاة دستوفسكي، وعن رغبتها الحارة في تخليد ذكره بأقصى ما تستطيع.

خرج موكب الدفن من البيت في الساعة الحادية عشرة ليصل إلى دير ألكسندر نيفسكي بعد الثانية ظهرًا. كنت أسير بجوار ابني وابنتي، لا تفارقني الأفكار الحزينة؛ كيف سأقوم على تربية أطفال دون والدهم الذي كان يحبهم بشدة؟ يا لها من مسئولية جسيمة وقعت على كاهلي؛ بدءًا من هذه اللحظة أمام ذكرى زوجي! ترى هل أستطيع أن أقوم بجدارة بإنجاز واجباتي؟ أقسمت، وأنا أسير خلف نعش فيودور ميخايلوفيتش، أن أكرّس حياتي لأطفالنا، وقطعت عهدًا على نفسي أن أكرس ما تبقى لي من عمر في بذل كل ما لدي من قوة لإحياء ذكرى زوجي خالد الذكر، وعلى نشر أفكاره السامية. والآن، وأنا أقرب من نهاية حياتي، أضع يدي على قلبي، بعد أن حققت كل الوعود التي بذلتها في تلك الساعات الصعبة وأنا أودع جثمانه، بقدر جهدي وطاقتي.

في تلك الليلة، في الثلاثين من يناير، وفي كنيسة دوخوفسكي — الملحقة بدير ألكسندر نيفسكي، حيث وُضع نعش فيودور ميخايلوفيتش — أقيمت صلاة ليلية احتفالية. وصلت إلى الصلاة بصحبة أطفال. كانت الكنيسة تغص بالمصلين، وكان أغلبهم من الشباب والطلاب من شتى المؤسسات التعليمية العليا والمنتسبين والأكاديمية اللاهوتية. وقد قضى أكثرهم الليل بطوله في الكنيسة يتبادلون تلاوة المزامير عند نعش دستوفسكي. وقد أخبرني البعض بملحوظة لها مغزاها، وتتلخص تحديدًا في أنه عند حضور الحراس لتنظيف الكنيسة، لم يجدوا عقب سيجارة واحدًا؛ الأمر الذي أدهش القساوسة؛ فمن المعتاد، عندما تطول الصلاة، أن يقوم البعض سرًا بالتدخين في الكنيسة وإلقاء الأعقاب، أما هنا فلم يلجأ أي من الحضور إلى التدخين؛ احترامًا لذكرى المتوفى.

في اليوم الأول من فبراير ١٨٨١م أقيم في الكنيسة الملحقة بدير القديس ألكسندر نيفسكي قداسٌ جنازى. كان مظهر الكنيسة رائعًا: وُضع النعش في وسط المعبّد مغطًى بالعديد من باقات الزهور، أما باقي الأكاليل فقد صُفّت وهي مزدانة بالشرائط العريضة، وقد بدت عليها كتابات مفصّضة وأخرى مذهّبة، بامتداد حوائط المعبّد، مستندة على ركائز مرتفعة، وهو ما أضفى على المكان جمالاً خاصًا.

كان أخي قد اصطحب ابنتي إلى دير نيفسكي يوم القديس الجنائزي، بينما ذهبت أنا وابنتي في عربة يوليا دنيسوفنا زاسيتسكايا (ابنة الفدائي دافيدوف)، وكانت من أشد المعجبات بموهبة زوجي، بناءً على دعوتها لاصطحابنا إلى هناك. انطلقنا في الساعة العاشرة، وقبل أن نصل إلى الدير ببضعة أمّاتار، سارت عربتنا بمحاذاة عربة كان يستقلها أحد عقداة الجيش. حيّاها الرجل فأشارت له زاييتسكايا ردًا على تحيته. وفي الميدان كان هناك حشد هائل من بضعة آلاف من الناس، وكان الاقتراب من باب الكنيسة أمرًا بالغ الصعوبة. اضطررنا للوقوف وسط الميدان. نزلت ومعني ابنتي من العربة متوجهة إلى الباب، بينما وقفت زاييتسكايا في العربة في انتظار وصول العقيد، وأخبرتني أنه سيصطحبها إلى الدير. مررنا بصعوبة وسط الحشود، لكنهم أوقفونا طالبين منا بطاقات الدخول. بطبيعة الحال كنت قد نسيت، في غمرة الحزن والارتباك، أن أحضر معي البطاقات، متصورة أنهم سيسمحون لنا بالدخول بدونها. أجبت بأنني «أرملة المتوفى، وهذه ابنته».

– هنا العديد من أرامل دستويفسكي، سواء بمفردهم، أو مع أطفالهن. كان هذا هو الرد الذي تلقّيته.

– لكنك ترى أنني أرّدي ملابس حداد كاملة.

– هن أيضًا كن يضعن خُمُرًا. من فضلكِ أظهري بطاقة الدعوة.

بالطبع لم أكن أحمل حتى بطاقة الدعوة. حاولت أن ألح في طلب الدخول، ثم رحّت أتوسل أن ينادوا أحدًا من منظمي الدفن، وذكرت لهم أسماء جريجوريفيتش، ريكاتشيف،^{٢٧} أفيركييف، لكنهم أجابوا بقولهم: «أين سنبحث عنهم؟ وهل يمكن العثور عليهم فورًا وسط الآلاف من الناس؟»

غلبني اليأس، ناهيك عما يمكن أن يقوله الناس الذين لا يعرفونني جيدًا، إذا لم يروني في الصلاة الليلية على زوجي، علاوة على أنني كنت أرغب إلى حدٍّ لا يوصف أن أودعه في اللحظة الأخيرة، أصلي من أجله، أبكي عند قبره، لم أكن أعرف ما الذي ينبغي أن أفعله، كنت أظن أن زاييتسكايا قد نجحت بالفعل في الدخول ولن يكون بمقدورها أن تنتشلني من محنتي. ولحسن الحظ لم يحدث ذلك: استخدم مرافقها سلطته وأكد على

^{٢٧} ميخائيل ألكسندروفيتش ريكاتشيف (١٨٤٠-١٩١٩م): دكتور في الفيزياء، عضو عامل في أكاديمية العلوم.

شخصيتي، وعندها سمحوا لنا بالمرور، أسرعت أنا وابنتي نحو الكنيسة، ولحسن الحظ كانت الصلاة قد بدأت لتوها.

قام بمراسم القديس رئيس الأساقفة نيستور والأسقف فيبورجسكي، وبصحبتهم قساوسة وأرخبيندات، كما حضر القديس رئيس أكاديمية اللاهوت يوهان يانيشيف^{٢٨} والقائم بأعمال الدير الأرخبيندريت سيميون، الذي كان على معرفة جيدة بزوجي.^{٢٩} قام بالغناء على نحو مؤثر الجوقة الكاملة لدير ألكسندر نيفسكي، وكذلك جوقة كاتدرائية إيساكيفسكي، وقبيل إقامة الصلاة ألقى المطران يانيشيف خطاباً بليغاً، أظهر فيه بوضوح كل فضائل فيودور ميخايلوفيتش، الكاتب والمسيحي.^{٣٠}

امتلات جبانة تيخفينسكي بالجمهور. راح الناس يتسلقون التماثيل ويجلسون فوق الأشجار، وقد تراحم بعضهم خلف الأسوار. راح المركب يسير ببطء، وقد مالت نحوه من الجانبين أكاليل الزهور التي حملها مختلف الوفود. وبعد أن تم الدفن راحوا يلقون بالكلمات فوق القبر المفتوح. كان أول المتحدثين هو ألكسندر بالم،^{٣١} العضو السابق في جماعة بتراشيفسكي، ثم تبعه أوريسيت ميلر، البروفيسور قنسنطنطين بيستوجيف، ريومين، فلاديمير سولوفيوف، بافل ألكسندروفيتش جايديبوروف، وآخرون كثيرون. وعند

^{٢٨} يوهان ليونتييفيتش يانيشيف (١٨٢٦-١٩١٠م): كاتب لاهوتي، رئيس أكاديمية اللاهوت في بطرسبورج (١٨٦٦-١٨٨٣م). كان على علاقة ودية مع دستوفسكي.

^{٢٩} يذكر قنسنطنطين بوبيدونستيف في خطابه إلى ف. م. دستوفسكي، المؤرخ الرابع والعشرين من فبراير ١٨٧٩م: «حضر لزيارتي الأب الأرخبيندريت سيميون، وقد أحضر معه التفاصيل التي اقتبسها من كتاب دفن القساوسة لتسليمها لك، وكان قد نسي أن يخبرك بها عند لقاءك إياه» (التراث الأدبي، الجزء الخامس عشر، ص ١٣٥). من البدهي أن دستوفسكي استخدم هذه الاقتباسات في فصل «رائحة الجثة» («الإخوة كارامازوف»)، الجزء الثالث، الكتاب السابع، الفصل الأول.

^{٣٠} نشرت «البشير الكنسي»، ١٨٨٠م، العدد ٦، السابع من فبراير، خطاب إ. ل. يانيشيف، الذي ألقاه في أثناء مراسم القديس الجنائزي الذي أقيم لدستوفسكي. وكان دستوفسكي قد تعرف على يانيشيف في فيسبادن في عام ١٨٦٥م، وظل يحمل له منذ هذا التاريخ مشاعر الصداقة والإخلاص (انظر: المجلد الأول من «خطابات» دستوفسكي، حيث نشر به خطابا دستوفسكي إلى يوان ليونتييفيتش يانيشيف).

^{٣١} ألكسندر إيفانوفيتش بالم (١٨٢٢-١٨٨٥م): عضو في جماعة بتراشيفيتس، كان ينشر كتاباته تحت اسم مستعار هو «ب. ألينسكي»، كتب رواية بعنوان «ألكسي سلوبودين»، وصف فيها دستوفسكي وبتراشيفتس ودوروف بأسماء مختلفة.

القبر المفتوح أُلقيت أيضًا كثير من القصائد مكرسة لذكرى المتوفى.^{٣٢} لقد فرش الجمهور القبر بباقات الزهور التي أحضروها حتى وصلت إلى قمة الضريح تقريبًا. أما باقي الأكاليل فقد تم تقسيمها إلى أجزاء، وأخذ الحضور أوراقها وزهورها معهم؛ للذكرى. أُغلق القبر في حوالي الساعة الرابعة. وقد أصابني الضعف بسبب البكاء والجوع، أنا والأطفال، فعدت إلى المنزل، ولم يكن الزحام قد انفض بعد.

^{٣٢} انظر نشرة: «فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي، السيرة، مؤلفاته، الدقائق الأخيرة في حياته، حمل الجثمان، الدفن، الاحتفال الحماسي للمجتمع الروسي»، موسكو، ١٨٨١م.

ما بعد موت فيودور ميخايلوفيتش

١

حديث مع تولستوي

مرة واحدة في حياتي كان لي الشرف فيها أن أرى وأن أتحدث مع الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي، وحيث إن حديثنا قد دار تحديدًا حول فيودور ميخايلوفيتش، فقد رأيت أن من الممكن أن أضم هذا الحديث إلى مذكراتي.

تعرفت على الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا^١ في عام ١٨٨٥م، عندما جاءت إليّ في واحدة من زياراتها إلى بطرسبورج، ولم أكن قد تعرفت عليها من قبل، تطلب نصيحتي بشأن إصدار الكتب. وقد شرحت لي الكونتيسة أن صاليف^٢، بائع الكتب في موسكو ما يزال يتولى حتى الآن إصدار مؤلفات زوجها ذائع الصيت، وأنه يدفع مبلغًا متواضعًا نسبيًا مقابل حق النشر (خمسة وعشرون ألف روبل، إذا لم أكن مخطئة). كانت الكونتيسة قد قررت، بعد أن علمت من معارفها أنني أنشر مؤلفات زوجي بنجاح، أن تحاول بنفسها إصدار أعمال الكونت ليف نيكولايفيتش، ولهذا جاءت تستفسر مني عما إذا كان إصدار الكتب أمرًا تكتنفه كثير من المتاعب والصعوبات. لقد تركت الكونتيسة أثرًا طيبًا في نفسي، وقد قمت بإطلاعها على كل «أسرار» دار النشر التي أديرها، وأعطيتها نماذج من الكتب التي جرى الاشتراك لشرائها، وأطلعتها أيضًا على الإعلانات التي أرسلتها بنفسني، وحذرتها

^١ صوفيا أندرييفنا تولستايا (بيرس قبل الزواج) (١٨٤٤-١٩١٩م): زوجة ليف نيكولايفيتش تولستوي.

^٢ فيودور إيفانوفيتش صاليف (١٨٢٠-١٨٧٩م): ناشر في موسكو.

من الوقوع في بعض الأخطاء التي ارتكبتها وما إلى ذلك. وحيث إننا تعرضنا للحديث عن العديد من التفاصيل، فقد كان عليّ أن أقوم بزيارة الكونتيسة في بيت أختها تانيانا كوزمينسكايا،^٢ وقد زارتنى الكونتيسة، بدورها، في بيتي مرتين أو ثلاثاً، لكي تستوضح بعض الأمور التي بدت لها مبهمه.

أتاحت لنا الزيارات والأحاديث المتكررة مع الكونتيسة إمكانية أن نتعرف كلُّ منا على الأخرى، وأن يمتد بيننا حبل الصداقة والألفة، ومن ثم وصلت إلى اقتناع مفاده أن الكونتيسة صوفيا أندرييفنا كانت حقيقة ملاكاً حارساً لزوجها العبقري. كانت الكونتيسة تحرص على زيارتي عندما تكون في بطرسبورج، وعندما كنت أذهب إلى موسكو كنت أزورها حتماً، وقد أتحت لها ولأسرتها أن يشاهدوا من نوافذ بيتي «المتحف التذكاري لفيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي»، وكذلك نقل جثمان الإمبراطور ألكسندر الثالث في طريقه إلى كاتدرائية أرخانجلسكي.

كان معظم الوقت الذي أقضيه في موسكو (لزيارة «متحفي») إما في الربيع أو الخريف، وعندما كنت أعود من القرم وأذهب لزيارة الكونتيسة لم أكن ألتقي أبداً بالكونت ليف نيكولايفيتش؛ فإما يكون قد سافر في بداية الربيع إلى ياسنايا بوليانا،^٤ أو يقضي الخريف هناك. وفي يوم من أيام الشتاء، وكنت قد ذهبت لزيارة الكونتيسة مساءً، عرفت أن الكونت ليف نيكولايفيتش موجود في موسكو، لكنه مريض ولا يستقبل زوّاراً. كنت أتحدث مع الكونتيسة، ثم إذا بها تتركني أتحدث مع أفراد أسرتها لتذهب إلى زوجها. وما هي إلا دقائق عشر حتى عادت لتخبرني أن زوجها حين علم بحضوري أصر على رؤيتي ويطلب مقابلي. لكنها نبهتني إلى أن الكونت أصيب اليوم بنوبة من نوبات الكبد، وأنه يشعر بشيء من الضعف طوال اليوم، ولهذا فهي ترجوني ألا أطيل معه الحديث. ذهبنا أنا والكونتيسة لنعبر من بيت إلى بيت عبر ردهات على الطراز الموسكوفي الخالص،

^٢ تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا (١٨٤٦-١٩٢٥م): كاتبة مذكرات، أخت صوفيا أندرييفنا، صديقة مقربة من ليف تولستوي.

^٤ ياسنايا بوليانا: الضيعة التي وُلد بها ليف تولستوي وتبعد أربعة عشر كيلومتراً عن مدينة تولا. عاش فيها حوالي ستين عاماً، وكتب فيها رواياته «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا» والعديد من القصص والمقالات. (المترجم)

وكننت طوال السير أشعر بشيء من عدم الرضا لذهابي إليه. فعلى الرغم من رغبتى الشديدة فى لقاء الكاتب العبقرى، الذى طالما أعجبت برواياته الشعرية، فإن شعورًا ما بالخوف كان يكتنفنى لأن أمثلَ أمامه، وقد أحسست مقدّمًا أننى سوف أترك لديه انطباعًا سيئًا؛ الأمر الذى لم أكن أتمناه على الإطلاق.

دخلنا غرفة فسيحة، لكنها ذات سقف منخفض، حيث جلس الكونت ليف نيكولايفيتش على أريكة، وقد ارتدى قميصه الرمادى الشهير فى صورته الفوتوغرافية. وما هى إلا لحظة من الزمن حتى انقشع خوفى عندما صاح فى بشاشة وترحاب: يا له من أمر مدهش أن تبلغ زوجات كتابنا هذه الدرجة من الشبه بأزواجهن!

— وهل أشبه فيودور ميخايلوفيتش؟ سألته وقد غمرنى شعور بالسرور.

— للغاية! لقد تخيلت زوجة دستوفسكى على مثالك تحديدًا!

بالطبع لم يكن هناك شبه بينى وبين زوجى، على أنه لم يكن بإمكان تولستوى أن يمنحنى سعادةً أكبر، من تلك التى منحها إياى هذا الكلام البعيد تمامًا عن الحقيقة، حين قال إننى أشبه زوجى خالد الذكر. لقد أصبح الكونت منذ هذه اللحظة شخصًا قريبًا وعزيزًا على قلبى.

أجلسنى ليف نيكولايفيتش على كرسي وثير إلى جواره، وراح يشتكى من سوء صحته، مشيرًا إلى صدره الذى غطته بعض الوسائد الصغيرة (المحشوة بالشوفان والرماد الدافئ). مضت دقيقة سادها الصمت.

— لقد حلمت منذ زمن بعيد أن ألتقى بكم ليف نيكولايفيتش، قلت له، لكى أشكركم من قلبى على هذا الخطاب الرائع، الذى كتبتموه لستراخوف بشأن وفاة زوجى. لقد أعطانى ستراخوف هذا الخطاب، وأنا أحفظه باعتباره وثيقة ثمينة.

— لقد كتبت بإخلاص ما أحسست به — قال الكونت ليف نيكولايفيتش — إننى أشعر بالأسف دائمًا أننى لم أقابل زوجك أبدًا.

— وكم أسف لذلك هو أيضًا! رغم أن الفرصة للقاء قد أتت! حدث ذلك عندما كنتم موجودين فى محاضرة فلاديمير سولوڤيوف فى مدينة سوليانا. أذكر أن فيودور ميخايلوفيتش قد عاتب ستراخوف؛ لأنه لم يخبره بوجودكم فى المحاضرة، وقد قال حينها: «كنت أود لو شاهدته، ما دمت لم أستطع التحدث معه.»

– معقول؟ وكان زوجك موجوداً في المحاضرة؟ لماذا لم يخبرني نيكولاي نيكولايفيتش بذلك؟^٥ يا للأسف! لقد كان دستوفسكي إنساناً عزيزاً لديّ^٦ ولعله كان الوحيد الذي كان باستطاعتي أن أسأله عن عديد من الأمور، وهو الذي كان باستطاعته أن يجيب عن العديد منها!

دخلت الكونتيسة. تذكرت تحذيرها فوقفت متأهبة للخروج، لكن الكونت استبقاني قائلاً: لا، لا، ابقِ قليلاً. أخبريني أي إنسان كان زوجك؟ على أيّ نحو ظل في قلبك؛ في ذكرياتك؟

كنت متأثرة أشدّ التأثر من هذه النبذة الودودة التي تحدث بها عن فيودور ميخايلوفيتش.

– كان زوجي العزيز – قلت بفرح – مثلاً للإنسان! كانت تتجلى فيه الخصال الروحية الرفيعة، التي تزين الإنسان في أعلى درجاتها. لم يكن هناك أحد يضارعه في طبيعته ونقاء سيرته وعطفه وعدله ورقته ورأفته! وكم جلبت له الاستقامة والنزاهة الكثير من الأعداء! أروني شخصاً واحداً خرج من عنده دون أن يتلقى منه نصيحة أو ترضية أو مساعدة على نحو أو آخر؟ صحيح أن البعض قد يجده فظاً بعد نوبة من نوبات المرض، أو عندما يكون منهمكاً في عمل جاد، لكن هذه الفظاظة سرعان ما تتبدد ليحل مكانها طيبة بالغة، إذا ما رأى أن أمامه إنساناً بحاجة إلى المساعدة. وكم من رقة وحنان كان يديهما عندئذٍ ليكفر بهما عن حدّته أو قسوته. هل تعلم، ليف نيكولايفيتش،

^٥ ألقى فلاديمير سولوفيوف محاضراته في العاشر من مارس ١٨٧٨م، وحضرها كلٌّ من تولستوي ودستوفسكي. وقد ذكرت أنا جريجوريفنا من قبل أن سترخوف أخبرها أن تولستوي طلب منه ألا يقوم بتقديمه إلى أي من الحضور (انظر الباب الرابع من هذا الكتاب). ويمكن تفسير هذا التناقض بأن سترخوف بسبب شعوره بالغيرة لم يشأ، بمبادرة شخصية منه، أن يُعرّف تولستوي بالكتاب؛ إذ كان يشعر آنذاك بالكراهية تجاه «صديقه»؛ ومن ثم حاول في هذا الوقت أن يحافظ على علاقته الودية المخلصة مع دستوفسكي ظاهرياً، وقد انكشف هذا السلوك المزودج القبيح الذي قام به سترخوف على نحو نهائي في خطابه المشهور إلى تولستوي، والمؤرخ الثامن والعشرين من يناير ١٨٨٣م (انظر: الفصل المعنون «ردّي على سترخوف»).

^٦ «عندما مات (دستوفسكي) أحسست أنه كان إنساناً غاية في الأهمية بالنسبة إلي» (من مذكرات فالنتين سيرانسكي عن ليف نيكولايفيتش تولستوي. مجلة «ريتش»، (الحديث)، العدد ٣٠٧، السابع من نوفمبر ١٩١٥م) (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

أن طبيعة الإنسان لا تتجلى بوضوح في أي مكان، مثلما تتجلى في حياته العادية، وسط أفراد عائلته، وها أنا ذا أقول إنني، وبعد أربعة عشر عامًا عشتها معه، لا أستطيع إلا أن أشعر بالدهشة والحنان، وأنا أرى على أي نحو كانت تصرفاته، وأدرك إلى أي حد كانت هذه التصرفات غير عملية في بعض الأحيان، بل وضارة بنا شخصيًا، وهنا عليّ أن أعترف أن زوجي تصرف، على نحو محدود، كما ينبغي أن يتصرف إنسان نبيل وعادل!

— على هذا النحو كان ظني به دائمًا، هكذا تحدث الكونت ليف نيكولايفيتش، وقد استغرق في تفكير عميق وتأثر بالغ. لقد كان دستوفسكي يمثل لي دائمًا إنسانًا ذا عاطفة مسيحية حقيقية.^٧ مرة أخرى دلّفت الكونتيسة إلى الغرفة، عندها نهضت، صافحت بقوة يد كاتبني المحبوب الممدودة إليّ، غادرت المكان وقد غمرني إحساس بالافتتان، هذا الإحساس الذي نادرًا ما جربته.^٨ نعم هذا هو الإنسان الذي يستطيع أن يستولي على قلوب البشر!

في طريق عودتي إلى المنزل، وقد خلت شوارع موسكو تمامًا، رحت أختبر هذا الانطباع العميق الذي عشته، وعاهدت نفسي (وقد وفيت بالعهد) ألا أعود للقاء الكونت ليف نيكولايفيتش مرةً أخرى، على الرغم من أن الكونتيسة الطيبة قد دعّنتي عدة مرات للزيارة، بل واستضافتني في ياسنايا بوليانا. كنت أخشى أن أجد الكونت ليف نيكولايفيتش في لقائي التالي، مريضًا، ضَجْرًا، أو فاقدًا لإرادته، أي أن أجد إنسانًا آخر غير الذي التقيته، وعندئذٍ يختفي بداخلي للأبد هذا الافتتان الذي جربته، والذي أصبح عزيزًا على نفسي! ولماذا أفقد هذا الكنز الروحي، الذي نادرًا ما يهبه القدر لنا في طريق حياتنا؟

٢

رَدِّي على ستراخوف

والآن، وقد اقتربت ساعتني، أرى أن عليّ أن أدافع عن الذكرى الوضاعة لزوجي خالد الذكر ضد الافتراءات الشنيعة، التي رماه بها الإنسان الذي اعتبرناه، زوجي وأنا وكل أسرتنا،

^٧ المصدر السابق. هذا هو نفس ما ذكره ف. سبيرانسكي في مقالته: «من ذكرياتي عن ليف نيكولايفيتش تولستوي». مجلة «ريتش»، العدد ٣٠٧، المؤرخ السابع من نوفمبر ١٩١٥م (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٨ تم هذا اللقاء بين أنا جريجوريفنا دستوفسكايا وليف نيكولايفيتش تولستوي عام ١٩٠٢م.

صديقنا المخلص. إنني أتحدث هنا عن خطاب نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف إلى الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي (المؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٣م)، والذي نشر في عدد أكتوبر من مجلة «سوفريميني مير» (العالم الحديث)، الصادر عام ١٩١٣م.^٩ في نوفمبر من ذلك العام، وبعد أن عدت بعد صيف قضيته في بطرسبورج، التقيت فيه بأصدقائي ومعارفي، أثارت دهشتي بعض الشيء تلك الأسئلة التي كان يطرحها عليّ كلٌّ من قابلوني تقريبًا. كانوا يسألونني ما إذا كنت قد قرأت خطاب ستراخوف إلى الكونت تولستوي؟ وعندما كنت أسألهم بدوري عن المكان الذي نشر فيه الخطاب، كانوا يجيبونني بأنهم قرءوه في إحدى الصحف، ولكنهم لا يتذكرون في أي صحيفة تحديدًا. لم أكن ألتفت إلى نسيانهم أو أبدي اهتمامًا خاصًا بالخبر، لأن نيكولاي ستراخوف، على أية حال، لن يكتب عن زوجي (هكذا كنت أظن) إلا كل ما هو خير، وهو الذي طالما اعتبره كاتبًا بارزًا، وكان يثني على نشاطه ويقترح عليه موضوعات وأفكارًا لعمله. وقد خمنت فيما بعد فقط، أن أصدقائي ومعارفي، «شديدو النسيان»، تحاشوا إغصابي بشكل مميت، مثلما فعل صديقنا الزائف بخطابه. لم أقرأ هذا الخطاب المشؤم إلا في صيف ١٩١٤م، عندما رحت أرتب عددًا هائلًا من القصصات من الصحف والمجلات، وفرتها لي إحدى الوكالات لأزود بها «المتحف التذكاري لفيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي» في موسكو. «أكتب إليكم، ليف نيكولايفيتش العزيز، هذا الخطاب الموجز، على الرغم من أن الموضوع الذي أعرضه غاية في الثراء. ولكن، وبسبب مرضي، فقد كان عليّ أن أقضي وقتًا طويلاً من أجل تطويره. من المؤكد أنكم تسلمتم الآن كتاب «السيرة» الذي كتبته عن دستوفسكي،^{١٠} أرجو منكم أن تولوه اهتمامكم وأن تتفضلوا بإبلاغي برأيكم فيه. وبهذه المناسبة أيضًا، فإنني أود أن أعترف لكم بأنني كنت في صراع دائم طوال الكتابة. كنت أصارع شعوري بالنفور الذي راح يتصاعد بداخلي. وقد حاولت أن أكبح في نفسي هذا الشعور البغيض. وإنني لأرجوكم أن تساعدوني على أن أجد لديكم منه مخرجًا. إنني لا

^٩ نُشر خطاب ستراخوف إلى تولستوي والمؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣م أيضًا في كتاب: «مراسلات ل. ن. تولستوي ون. ن. ستراخوف»، الجزء الثاني، سان بطرسبورج، ١٩١٤م، ص ٣٠٧-٣١٠.

^{١٠} يدور الحديث هنا عن كتاب: ف. م. دستوفسكي، الأعمال الكاملة، الجزء الأول. السيرة، الخطابات وملاحظات من اليوميات، سان بطرسبورج، ١٨٨٣م. قام كلٌّ من أوريسست ميلر ونيكولاي ستراخوف بكتابة هذه «السيرة» بناءً على طلب أنا جريجوريفنا.

أستطيع أن أعتبر دستوفسكي إنساناً سيئاً، بائساً (وهي صفات تنطبق عليه في واقع الأمر). لقد كان شريراً، وحسوداً، وكريهاً، وقد قضى حياته كلها في اضطراب وتشوش جعلاً منه كائنًا بائساً، وربما مضحكاً، لولا أنه في هذا الأمر كان شريراً وذكياً إلى حد كبير. كان يرى نفسه مثل روسو، أفضل الناس وأكثرهم سعادة. وبمناسبة كتابة سيرته، فقد استعدت بوضوح شديد كل هذه السمات. فعندما كنا في سويسرا وجدته يعامل النادل بمنتهى التعسف؛ الأمر الذي دفع بالرجل لأن يصيح به قائلاً: «أنا أيضاً إنسان!» أذكر أن هذا القول قد أدهشني إذ يُوَجَّه إلى المبشر بالإنسانية، وأنهم هنا يتحدثون عن سويسرا الحرة وعن حقوق الإنسان.»

لقد تكررت هذه المشاهد كثيراً في حضوري، ولم يكن باستطاعته أن يتحكم إزاءها في شراسته. لقد التزمت الصمت مراراً أمام نزواته التي كان يرتكبها بأسلوب نسائي، أي على نحو مفاجئ وبصورة غير مباشرة، وقد تسنى لي أن أوجه له مرتين أو ثلاثاً كلاماً قاسياً، ولكنه كان، بطبيعة الحال، متفوقاً في سلاطة اللسان، على وجه العموم، على العاديين من الناس، والأسوأ من ذلك أنه كان يجد في ذلك لذة، حتى إنه لم يندم مرة واحدة على كل ما ارتكبه من دناءات. كان منجذباً نحو الدنءات، وكان يتباهى بارتكابها. وقد حكى لي فيسكوفانوف^{١١} كيف راح دستوفسكي يتفاخر بأنه ... في أحد الحمامات العامة مع فتاة صغيرة أحضرتها له إحدى المربيات، لاحظوا في ذلك، ليف نيكولايفيتش، أنه عندما كان يمارس هذه الشهوة الحيوانية، لم يكن لديه أي ذوق، وأي إحساس بالجمال الأنثوي أو بالبهجة، وهو ما يتضح جلياً في رواياته. إن بطل رواية «مذكرات من العالم السفلي»، وسفيدريجايلوف في «الجريمة والعقاب»، وستافروجين في «الشياطين»؛ هم جميعاً شخوص على شاكلته تماماً. لقد رفض كاتكوف نشر أحد المشاهد الخاصة بستافروجين (مشهد إطلاق الرصاص وغيره)،^{١٢} وقد راح دستوفسكي يقرأ هذا المشهد هنا وهناك أمام كثير من الناس.

^{١١} بافل ألكسندروفيتش فيسكوفانوف (١٨٤٢-١٩٠٥م): أستاذ الأدب الروسي، دكتوراه في الفلسفة.
^{١٢} المقصود هو الفصل المعنون «عند تيخون»، ويتضمن اعتراف ستافروجين وحديثه عن محاولته الفاشلة للتوبة النصوح والتطهر. وبناءً على الفكرة الأصلية لدستوفسكي، فقد كان من المفترض أن يأتي هذا الفصل بعد فصل الأمير إيفان. وتم جمع الرواية على هذا النحو، لكن م. كاتكوف رئيس تحرير «البشير الروسي» اعترض على نشره.

رجل هذا طبعه، كان ميالاً للعاطفة الشهوانية، إلى الأحلام السامية والخصال الإنسانية الرفيعة، وقد كانت الأحلام هي توجُّهه، هي إلهامه وطريقه. بالمناسبة، فإن رواياته كلها تمثل، في واقع الأمر، ذريعة لإثبات أن الرذائل على اختلافها يمكن أن تتعايش مع الخير داخل الإنسان.

من الصعب عليّ أن أنفصل عن هذه الأفكار، حتى إنني لا أجد نقاطاً للتصالح! فهل أنا شرير؟ هل أحسده؟ هل أتمنى له سوءاً؟ إطلاقاً، إنني لا أملك إلا البكاء؛ لأن هذه الذكريات، التي كان من الممكن أن تكون مشرقة، لا تفعل شيئاً سوى أن تعتصر قلبي! أتذكر كلماتكم التي تقول إن الناس الذين يعرفوننا جيداً، لا يحبوننا بطبيعة الحال. لكن الأمر يجري على نحو آخر أيضاً، فمن الممكن أن نعرف، في سياق اقترابنا الشديد من إنسانٍ ما، خصلةً تجعلنا نصفح عن كل أفعاله فيما بعد؛ شيء من الطيبة الحقيقية، شرارة الدفء الودي، بل إن دقيقة من إبداء التوبة النصوح يمكن أن تكفر عن كل شيء؛ ولو أنني تذكرت شيئاً من هذا لدى دستوفسكي، لسامحته ولسرّرت به، لكنه يدّعي أنه إنسان رائع، وأنه يقدم فقط أدباً إنسانياً تقدماً.

لقد كان حقاً رجلاً تعيساً وسيئاً. كان يتصور نفسه سعيداً، بطلاً، ولم يكن يحب سوى نفسه فقط. وحيث إنني أعلم عن نفسي أنني أستطيع أن أثير الاشمئزاز، وأنني قد تعلمت أن أفهم وأن أسامح هذا الشعور في الآخرين، فقد ظننت أنني سوف أجد مخرجاً في علاقتي بدستوفسكي. لكنني لم أجد ولن أجد.

وها هو تعليق صغير على السيرة التي كتبتها، قد كان بإمكانني أن أكتب وأن أقص أيضاً هذا الجانب من حياة دستوفسكي، وقد تراءت لي العديد من الأحداث على نحو أكثر حيويةً مما صورتها، وكان من الممكن أن يأتي القص عندئذٍ أكثر صدقاً، ولكن ليذهب هذا الصدق إلى الجحيم، ولنكتفي بالتباهي بالجانب الظاهري للحياة، كما نفعل في كل مكان، ومع كل شيء!

... لقد أرسلت إليكم مؤلّفين آخرين (نسخة ثانية)، أنا نفسي أحبهما، وكأنا في حوزتك من قبل، وكما لاحظت، فقد عبرتم عن إعجابكما بهما. الأول كتبه Pressensé،^{١٢}

^{١٢} إدmond بريسانسي (١٨٢٤-١٨٩١م): عالم لاهوت بروتستانتي وشخصية حكومية بارزة في فرنسا.

وهو كتاب رائع، ينم عن سعة اطلاع من طراز رفيع،^{١٤} أما كتاب Joly^{١٥} فهو بالطبع فهو بالطبع أفضل ترجمة لماركوس أوريليوس، أسعدتني حرفيتها الرفيعة.^{١٦} وإليكم رد الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي:

«قرأت كتاب بريسانسي أيضاً الذي أرسلته إليّ، لكن سعة الاطلاع التي وصفتها ضاعت بسبب ما به من صعوبات. هناك جياذ جميلة، جياذ قوية، يبلغ سعر الواحد منها ألف روبل، وفجأةً يصطدم الجواذ بكبوة، فيصبح سعر هذا الجواذ الجميل بضع قروش. كلما تقدمت في العمر، قدّرت الناس أكثر دون كبواتهم. قلت لي إنك تصالحت مع تورجينيف، وأنا أحبه جداً، ومن المضحك أنني أحبه؛ لأنه دون كبوة، وهو قادر على توصيلك، أما الآخر (بريسانسي) فهو جواذ خاب، لا يمكن أن يوصلك إلى أي مكان، هذا إذا لم يُلقِ بك في خندق أو مصرف. إن ذهب فكره وقلبه عبثاً، سيدوم تورجينيف أطول من دستوفسكي، لا بسبب ميزاته الفنية، وإنما لأنه بلا كبوة.»^{١٧}

وإليكم أيضاً رد ستراخوف المؤرخ ١٢ ديسمبر ١٨٨٣م:

«إذا كان الأمر كذلك، فاكتب لي، ليف نيكولايفيتش العزيز، عن تورجينيف. كم أنا متعطش لأقرأ شيئاً ما يتميز بالعمق، على النحو الذي تتميزون به! وإلا أصبح ما نكتبه مجرد هزل نتلهّى به، أو كوميديا نوّديها للآخرين. لقد اعتمدت كلية في كتابة المذكرات على الجانب الأدبي للقضية، لقد أردت أن

^{١٤} غير معروف على وجه الدقة عن أي كتاب لرجل الدين البروتستانتي بريسانسي يدور الحديث هنا. ومن المعروف أن تولستوي استفاد من كتابه: "Histoire des trios premiers siècles de L'Eglise" (1856-1859), u "Jésus Christ, son temps, sa vie" (1865). Chrétienne".

^{١٥} جولي: مترجم فرنسي، ترجم أعمال ماركوس أوريليوس. ^{١٦} المقصود هنا طبعة باريس من كتاب الفيلسوف الشهير ماركوس أوريليوس «على انفراد مع نفسي»:

"Pensées de L'empereur Marc-Aurèle. Trad du gres par. M de Joly", Paris, 1803 ^{١٧} خطاب تولستوي إلى ستراخوف المؤرخ الخامس من ديسمبر. ل. ن. تولستوي، الأعمال الكاملة، الجزء ٦٣، موسكو، ١٩٣٤م، ص ١٤٢. النص الصحيح للخطاب تم نشره للمرة الأولى في كتاب ن. ن. جوسيف «ليف نيكولايفيتش تولستوي»، مواد للسيرة، من ١٨٨١م إلى ١٨٨٥م، موسكو، ١٩٧٠م، ص ٢١.

أُسجل صفحة من تاريخ الأدب، ولكنني لم أستطع أن أتغلب على نحو تام على لامبالاتي. حاولت شخصياً أن أطرح فضائل دستوفسكي فحسب، لكنني لم أكن لأنسب إليه خصلاً لم يكن يمتلكها. إن ما حكيته عن القضايا الأدبية قد شغلك، على الأرجح، بعض الشيء. هلأ حدثتكم، مع ذلك، دون مواربة؟ إن تعريفكم لدستوفسكي على الرغم من أنه أضاء أمامي أموراً كثيرة، فإنه كان كلاماً دميماً بالنسبة إليه. كيف يمكن للإنسان أن يتغير، عندما يصبح من المستحيل أن تتغلغل في روحه خصلة معروفة؟ أقول لا شيء؛ بكل ما في الكلمة من معنى. هكذا أتصور روحه. أوه! يا لنا من مخلوقات تعيسة وبائسة! إنما يكمن خلاصنا في شيء واحد؛ أن ننفصل عن أرواحنا.^{١٨}

لقد أحببني خطاب نيكولاي سترخوف حتى أعماق روحي. هذا الإنسان الذي كان يزور أسرتنا على مدى عشرات السنين، والذي عامله زوجي بكل مودة، يتضح الآن أنه كاذب، يسمح لنفسه أن يلقي عليه بكل هذه الافتراءات البشعة! لقد كان أمراً مسيئاً له؛ لما أولينا إياه من ثقة؛ لكوننا، أنا وزوجي، قد خُدعنا في هذا الإنسان غير الجدير بالثقة. إن ما أدهشني في خطاب سترخوف أنه كان يحاول، «طوال فترة كتابته (للمذكرات) أن يصارع هذه البشاعة التي راحت تتصاعد بداخله.» إذن لماذا لم يتخلَّ عن هذا العمل الملقى على عاتقه، ما دام كان يشعر بكل هذه الكراهية، بداهة، نحو الإنسان الذي يكتب سيرته، كما كان سيفعل كلُّ إنسان يحترم نفسه لو كان في مكانه؟ أليس لأنه لم يرغب في أن يضعني — أنا الناشرة — في وضع صعب بخصوص البحث عن كاتب للسيرة؟ لكن ها هو أوريسست ميلر يتولى مسئولية كتابة السيرة، وكذلك فعل أدباء آخرون (أفيريكييف وسلوتشيفسكي)، اللذان كتبها لنشرها في طبعات لاحقة.^{١٩}

لقد كتب سترخوف في خطابه يقول إن دستوفسكي كان شريراً، وحتى يثبت ذلك، أورد الواقعة الغبية التي حدثت له مع النادل، الذي قد يكون زوجي قد «تعسف»

^{١٨} «مراسلات ل. ن. تولستوي ون. ن. سترخوف»، الجزء الثاني، سان بطرسبورج، ١٩١٤م، ص ٣١٠.

^{١٩} ف. ن. دستوفسكي، الأعمال الكاملة، الروايات والقصص. موجز حياة مسيرة الكتابة عند ف. م. دستوفسكي، المحرر: د. ف. أفيرييف، سان بطرسبورج، ١٨٨٥م؛ ف. م. دستوفسكي، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، الروايات والقصص، مقال عن حياة ونشاط دستوفسكي، المحرر ك. ك. سلوتشيفسكي، سان بطرسبورج، ١٨٨٨م.

معه. إن زوجي، بسبب مرضه، يكون أحياناً سريع الغضب، ومن المحتمل أنه صاح في الخادم، لتأخره في تقديم الطعام الذي طلبه (وما الذي يمكن أن يجعل النادل يعبر عن شعوره «بالعسف» غير ذلك؟) لكن هذا لم يكن يعني أنه شرير، وإنما كان يعكس نفاذ الصبر، وفي سويسرا يتميز البسطاء من الناس بخشونة الطبع، حتى إن الخادم لا يكتفي بالشكوى رداً على الإهانة، وإنما يستطيع، وقد يتجاسر على الرد بوقاحة متناهية، مطمئناً تماماً إلى أنه لن ينال أي عقاب.

لا أستطيع أن أفهم كيف جرؤ ستراخوف أن يكتب بيده أن فيودور ميخايلوفيتش كان «شريراً» و«أنه لم يحب سوى نفسه»؟ فستراخوف نفسه كان شاهداً على الوضع بالغ الصعوبة، الذي وضع فيه هو نفسه الأخوين دستويفسكي بسبب منع مجلتهما «الزمن»، والذي جاء نتيجة مقالة «القضية الحرجة»، التي كتبها ستراخوف بطريقة خرقاء،^{٢٠} فلو أن ستراخوف لم يكتب هذه المقالة الغامضة، لوصلت المجلة وجودها، ولحققت أيضاً أرباحاً، ولما وقع على كاهل زوجي بعد وفاة أخيه ميخائيل دستويفسكي كل ديون المجلة، ولما تكبد طوال عمره هذا العناء بسبب سداد مستحقات المجلة. والحقيقة أنه يمكن القول إن ستراخوف كان العبقريّة الشريرة لزوجي، ليس فقط إبان حياته، وإنما بعد وفاته كذلك، كما اتضح الآن. كان ستراخوف أيضاً شاهد عيان على أن فيودور ميخايلوفيتش ظل زمناً طويلاً يساعد عائلة أخيه المتوفى ميخائيل ميخايلوفيتش، وأخيه المريض نيكولاي ميخايلوفيتش، وربيبه بافل ألكسندروفيتش إيسايف، ولو أنه كان إنساناً سيئ القلب، لا يحب سوى نفسه، لما حمل على عاتقه هذه المسؤوليات المالية التي يصعب الوفاء بسدادها، ولما تحمل عبء الاهتمام بمصير أقاربه؛ ومن ثم فأن يقول ستراخوف عن فيودور ميخايلوفيتش — وهو الذي يعرف أدق تفاصيل حياته — إنه «شرير» لا يحب سوى نفسه، فهذا ينم عن منتهى سوء النية. ومن جانبي، فإنني أرى أن من واجبي أن أشهد أن زوجي، وقد عشت في كنفه أربعة عشر عاماً، كان إنساناً طيباً إلى

^{٢٠} توقفت مجلة «الزمن» في عام ١٨٦٣م بعد صدور عدد أبريل؛ وذلك بسبب التأثير الهائل الذي تسبب فيه صدور مقال «القضية الحرجة» الذي كتبه ن. ن. ستراخوف في المجلة. وقد تناول المقال القضية البولندية بروح رسمية وطنية. على أن المقال فهم على نحو معاكس، فقد رأى القراء فيه تعظيماً للحضارة البولندية على حساب القومية الروسية (انظر أ. دولينين «مدخل إلى تاريخ الرقابة» على مجلتي دستويفسكي. في كتاب: دستويفسكي، الجزء الثاني، ص ٤٢٣-٤٣٠).

أبعد الحدود، وقد أظهر هذه الطيبة ليس فقط تجاه القريبين منه، وإنما تجاه الجميع، الذين تسنى له أن يستمع إلى تعاستهم، أو فشلهم، أو مصائبهم. لم يكن بحاجة إلى أن يسأله الناس، وإنما كان يسارع بنفسه إلى تقديم العون لهم. كان له أصدقاء من ذوي النفوذ (قنسنطين بوبيدونستسيف، تيرتي فيليبوف، إيفان فيشنجرادسكي).^{٢١} كان زوجي يستخدم نفوذهم لكي يساعد الآخرين في مصائبهم. كم من العجائز، رجالاً ونساءً، أنزلهم في الملاجئ! كم من أطفال أرسلهم إلى دور الأيتام! كم من الفاشلين دلّهم على أماكن للعمل! وكم من مرة بات يقرأ ويصحح مخطوطات لأعمال مؤلفين آخرين! كم من مرة استمع إلى اعترافات صريحة وأعطى لأصحابها نصائح في أمور حميمة للغاية! لم يبخل بوقته أو جهده، إذا ما رأى أن باستطاعته أن يقدم لقريب أي مساعدة. كان يساعد بالمال، فإذا لم يجد مالاً، وقّع له على كمبيالات، وقد حدث أن قام هو نفسه بسدادها من ماله بعد ذلك.

كتب سترخوف أن دستوفسكي كان «حسوداً»، من ذا الذي حسده دستوفسكي؟! إن جميع المهتمين بالأدب الروسي يعلمون أن فيودور ميخايلوفيتش كان يقدر عبقرية بوشكين، وكانت أفضل مقالة أشادت بالشاعر العظيم هي خطابه عن بوشكين، الذي ألقاه في موسكو، عند افتتاح تمثاله هناك.

من الصعب أن نفترض أن فيودور ميخايلوفيتش كان يكنّ مشاعر الحسد تجاه الكونت ليف تولستوي، إذا ما تذكرنا ما قاله زوجي عنه في مقالاته المنشورة في «مذكرة الكاتب». على سبيل المثال «المذكرة» عن عام ١٨٧٧م؛ ففي عدد يناير عبّر فيودور ميخايلوفيتش، في معرض حديثه عن بطل «الطفولة والشباب»، أن هذا العمل هو «دراسة فنية شديدة الجدية عن روح الطفولة، كتبت على نحو رائع». ^{٢٢} وفي عدد فبراير وصف زوجي تولستوي بأنه «فنان من طراز رفيع». ^{٢٣} وفي «المذكرة» عن شهري يوليو-أغسطس،

^{٢١} إيفان الكسيسيفيتش فيشنجرادسكي (١٨٣١-١٨٩٥م): عالم وشخصية حكومية بارزة.

^{٢٢} «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧م، طبعة ١٨٣٣م، ص ٣٤ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* «مذكرة الكاتب» ١٨٧٧م، والتي تستشهد بها أنّ جريجوريفنا في هذا الفصل. انظر أيضاً: دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، الجزء الثاني عشر.

^{٢٣} المصدر السابق، ص ٥٥ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

قدّم فيودور ميخايلوفيتش «أنا كارنينا» باعتبارها «حقيقة ذات مغزى خاص، يمكن أن تمثل ردّنا على أوروبا، إنها تمثل أيضًا الحقيقة التي نستطيع أن نلفت انتباه أوروبا إليها»^{٢٤} ثم يقول بعد ذلك (في نفس العدد): «لقد رسمها بعبقريّة الشاعر في هذا المشهد العبقري في الرواية، مشهد المرض المميت للبطلة»^{٢٥} وفي ختام مقالته يقول زوجي: «هؤلاء الناس، من أمثال مؤلّف أنا كارنينا، هم جوهر مُعلم المجتمع، هم معلمونا، وما نحن سوى تلاميذ لديهم»^{٢٦}

كان فيودور ميخايلوفيتش يقدّر الروائي الشهير جونتشاروف، ويعتبره «عقلًا كبيرًا»^{٢٧} فضلًا عن أنه كان يضع موهبته في منزلة رفيعة، وقد أحبه بإخلاص واعتبره كاتبه المفضل^{٢٨، ٢٩}.

كانت علاقة زوجي بتورجينييف في مرحلة الشباب علاقة رائعة. وفي خطابه إلى أخيه، المؤرخ ١٦ فبراير ١٨٤٥م، كتب فيودور ميخايلوفيتش عن تورجينييف يقول: «يا له يا أخي من إنسان! أنا أيضًا أحبه. إنه شاعر، صاحب موهبة، أرستقراطي، بهي الطلعة، واسع الثراء، ذكي، مثقف، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، لا أعرف إن كانت الطبيعة حرّمته شيئًا ما! في النهاية فهو شخص مستقيم لأبعد الحدود، شخص رائع، تلقّى تعليمه في مدرسة جيدة»^{٣٠} فيما بعد اختلف فيودور ميخايلوفيتش مع تورجينييف في آرائهما ومعتقداتهما، لكن تورجينييف في خطابه المؤرخ ٨ مارس (٩ أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٧م، كتب يقول: «لقد حرّصت على كتابة هذا الخطاب إليكم، رغم

^{٢٤} المصدر السابق، ص ٢٣٠ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٥} المصدر السابق، ص ٢٣٤ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٦} المصدر السابق، ص ٢٥٨ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٧} السيرة الذاتية والخطابات، ص ٣١٨ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* من خطابات دستوفسكي إلى خ. د. ألتشيفسكي، المؤرّخ التاسع من أبريل ١٨٧٦م. الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٠٦.

^{٢٨} «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧م، طبعة ١٨٨٣م، ص ٢٢٩، ٢٣٠. (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٢٩} الخطابات، المجلد الأول، ص ٨٤.

^{٣٠} السيرة الذاتية، ص ٤٢ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* الخطابات، المجلد الأول، ص ٨٤.

ما نشب بيننا من سوء فهم؛ الأمر الذي ترتب عليه انقطاع علاقتنا. وإنني لعلّ يقين تام أن الشك لن يتطرق إليكم، في أن سوء الفهم بيننا لا يمكنه أن يؤثر قيد أنملة على رأيي في موهبتكم، التي أعدها موهبة من الطراز الرفيع، ولا على المكانة السامية التي تشغلونها عن جدارة في أدبنا.^{٣١} وفي عام ١٨٨٠م، وفي الاحتفال الذي جرى في موسكو، تحدث فيودور ميخايلوفيتش عن تاتيانا بطلة بوشكين بقوله: «إن هذا النموذج للجمال الإيجابي للمرأة الروسية، لم يتكرر تقريباً في أدبنا، اللهم إلا في نموذج ليزا في رواية «عش النبلاء» عند تورجينيف.^{٣٢} وهل لي أن أتحدث عن علاقة فيودور ميخايلوفيتش بالشاعر نكراسوف، الذي كان عزيزاً على قلب زوجي، كما ورد في مذكرات الشباب، وقد وصفه زوجي بأنه الشاعر العظيم، الذي ألّف قصيدة فلاس؟^{٣٣} وقد كتب فيودور ميخايلوفيتش في مقالته بخصوص وفاة نكراسوف يقول: «إن نكراسوف ينبغي أن يأخذ مكانه، وهو الشاعر (الذي جاء «بكلمة جديدة»)، بعد بوشكين وليرمنتوف مباشرة.»^{٣٤} وتعتبر هذه المقالة، باعتراف علماء الأدب الروسي، واحدة من أفضل المقالات التي كتبت بمناسبة وفاة الشاعر.

على هذا النحو كانت علاقات زوجي بمواهب وأعمال كتّابنا البارزين، أما كلمات ستراخوف حول أن دستوفسكي كان حسوداً، فهي كلمات تفيض ظلماً وقسوة تجاهه. على أن هناك ظلماً أشدّ مضاضةً في كلمات ستراخوف، عندما وصف زوجي بأنه كان «فاجراً»، وأنه «كان منجذباً إلى الدناءات، وأنه كان يفتخر بفعلها». ويسوق ستراخوف

^{٣١} المجلد الأول لخطابات إيفان سرجييفيتش تورجينيف، ١٨٨٥م، ص ٣١٥ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* لا يوجد، مع ذلك، في مخطوط هذا الاستشهاد، بحسب أنّ جريجوريفنا في «الجزء الأول من خطابات تورجينيف». (وإن كان قد أشير خطأً إلى عام الإصدار أنه ١٨٨٤م بدلاً من ١٨٨٥م). وانطلاقاً من مغزى الاستشهاد، فإنّنا جريجوريفنا لم تكمل كتابة هذا الاستشهاد تحديداً من خطاب تورجينيف الذي أرسله إلى دستوفسكي، والمؤرخ الثامن والعشرين من مارس (التاسع من أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٧م.

^{٣٢} السيرة الذاتية، المذكرات، ص ٣١٠ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا). *

* انظر: دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

^{٣٣} «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧م، طبعة ١٨٨٣م، ص ٣٩٠ (ملاحظة لأنّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

^{٣٤} المصدر السابق، ص ٣٨٧.

دليله على ذلك من أحد المشاهد من رواية «الشياطين»، الذي «رفض كاتكوف أن يطبعه، لكن دستوفسكي راح يقرؤه هنا وهناك أمام كثير من الناس». ومن أجل تقديم صورة فنية لنيكولاي ستافروجين، بطل روايته، كان على فيودور ميخايلوفيتش أن يضيف إلى بطله شيئاً ما ليفضح النزعة الإجرامية لديه، وقد رفض كاتكوف بالفعل نشر هذا الفصل، وطلب من المؤلف تعديله. وقد أحن هذا الرفض فيودور ميخايلوفيتش فراح يقرؤه على أصدقائه قنسطنطين بوبيدونوستسيف وأبولون مايكوف ونيكولاي ستراخوف وغيرهم، ليختبر بواسطتهم صحة انطباع كاتكوف، وليس بهدف التباهي، كما ذكر ستراخوف، وإنما ليطلب رأيهم وليحكموا بينه وبين الناشر. وعندما وجد الجميع أن المشهد «واقعي للغاية»، راح زوجي يفكر في شكل جديد لهذا الوصف الفني لستافروجين، لأنه كان يرى أنه أمر ضروري. كان هناك عدد من الخيارات الفنية أمام زوجي. من بينها المشهد الذي تجري أحداثه في أحد الحمامات العامة (وهي حادثة حقيقية حكاها أحدهم لزوجي).^{٣٥} وفي هذا المشهد تقوم «المربية» بالمشاركة في الجريمة؛ ونتيجة لذلك فقد أعرب الأشخاص، الذين قرأ عليهم زوجي هذا الخيار (ومن بينهم ستراخوف) طالباً منهم النصح، أعربوا عن رأيهم في أن هذا المشهد، على هذا النحو، يمكن أن يجلب باللائمة على فيودور ميخايلوفيتش من جانب القراء، كما لو كان يتهم هنا «المربية» بارتكاب هذا الجرم الشنيع، فيسير الأمر على هذا النحو باعتباره تشهيراً بـ «قضية المرأة»، تماماً كما حدث من قبل، عندما وجهوا اللوم لدستوفسكي عندما جعل من الطالب راسكولنيكوف قاتلاً، وكأنه بذلك يتهم جيلنا الشاب من الطلاب بارتكاب جرائم مشابهة.

وهكذا، فإن ستراخوف لم يتردد، في غمرة حقه، أن يلصق هذا المشهد من الرواية — هذا الدور المشين الذي قام به ستافروجين — بفيودور ميخايلوفيتش نفسه، ناسياً

^{٣٥} لا يمكن القول إن هذا المقطع كان من اختراع دستوفسكي نفسه لكي «يزعج» ويضلل تورجينيف. على أية حال فإن إ. إ. ياسينسكي يحكي في مذكراته بشكل محدد تماماً أن دستوفسكي قام ذات مرة بزيارة تورجينيف ليعبر له عن ندمه على الجريمة التي ارتكبها: «أواه يا إيفان سيرجيفيتش! لقد أتيت إليك لكي أعمق هُوةَ خِسْتي بسمو آرائك الأخلاقية!» وعندما غضب تورجينيف من هذه الحكاية، قال له دستوفسكي وهو يغادر المكان: «إن كل ما قلته لك يا إيفان سيرجيفيتش لم يكن سوى اختراع من بنات أفكاري، وإنما فعلت ذلك فقط من حبي لك ولتسلتك». واستناداً إلى ما أعلنه إ. إ. ياسينسكي فقد وافق تورجينيف، بعد خروج دستوفسكي، على أن هذه الحكاية كلها ليست سوى اختراع من عقل الكاتب (انظر: إ. إ. ياسينسكي، قصة حياتي، كتاب المذكرات، موسكو، ليننجراد، ١٩٢٦م، ص ١٦٨-١٦٩).

أن القيام بهذا الفعل الدنيء يتطلب نفقات باهظة لا تتوفر إلا لدى الأثرياء، وقد عاش زوجي طوال حياته في عسر مادي شديد. إن استشهاده ستراخوف بكلام قيل على لسان البروفيسور فيسكوفانوف أمرٌ مدهش تمامًا لي، فالبروفيسور لم يزرنا قط؛ بل إن معرفة فيودور ميخايلوفيتش به كانت سطحيةً للغاية، وهو ما يؤكد ما ورد في خطابه إلى أبولون مايكوف، حيث يذكر لقاءه في درزدن بأحد الروس،^{٣٦} من جانبي، فإنني أستطيع أن أشهد أن زوجي ظل طوال حياته بعيدًا عن «الفجور»، على الرغم من الوصف الواقعي للغاية للتصرفات الوضيعة لأبطال أعماله أحيانًا. ومن البدهي أن الفنان الكبير غير مضطر، بفضل موهبته، لأن يقوم بارتكاب الجرائم التي يرتكبها أبطاله، وإلا لكان علينا أن نعترف أن دستوفسكي قتل شخصًا ما، وقد نجح، على هذا النحو الفني المحكم، في وصف جريمة قتل امرأتين على يد راسكولنيكوف.

أتذكر بكل العرفان بالجميل حسنَ معاملة فيودور ميخايلوفيتش لي؛ حرصه الشديد ألا أقرأ الروايات الفاحشة، قلقه البالغ، عندما كنت أنقل له، في سنوات الشباب، مزحةً بذيئة سمعتها من أحدٍ ما. كان زوجي شديد التحفظ دائمًا في أحاديثه، ولم يكن يسمح باستخدام العبارات السوقية. والأرجح أن كل من يذكرونه سيوافقونني على ذلك. بعد أن انتهيت من قراءة خطاب ستراخوف الميء بالافتراءات، قررت أن أعبر عن احتجاجي عليه. ولكن، على أي نحو كان علي أن أفعل ذلك؟ كان زمنٌ طويل قد انقضى للاعتراض على الخطاب، فقد ظهر الخطاب في أكتوبر عام ١٩١٣م، ولم أعلم به إلا بعد عام تقريبًا. ثم ما الذي يعنيه اعتراض منشور في الصحف؟ سوف يضيع وسط الأنباء المتدفقة، سيُهمل، ثم كم من الناس سيقروونه؟ رحت ألتمس المشورة لدى أصدقائي ومعارفي، الذين كانوا على معرفة بزوجي الراحل. تفرقت آراؤهم؛ البعض ذكر أنه ينبغي التعامل مع هذه الافتراءات الدنيئة بكل الاحتقار الذي تستحقه. والبعض الآخر قال إن قيمة فيودور ميخايلوفيتش معروفة في الأدبين الروسي والعالمي بالسمو والرفعة، بحيث لن يكون لهذه الافتراءات أيُّ أثر على ذكره المضيئة؛ وأشاروا إلى أن ظهور الخطاب لم

^{٣٦} السيرة الذاتية، والخطابات، ص ١٧١ (ملاحظة لأنَّ جريجوريفنا دستوفسكايا).

* تقصد أنا جريجوريفنا خطاب دستوفسكي إلى أبولون مايكوف، المؤرخ السادس عشر من أغسطس ١٨٦٧م، الذي يحكي فيه عن لقاءه في ألمانيا بأحد الروس، الذي يعيش بصفة دائمة في الخارج، ويكره

يكن له أي رد فعل في الأدب الراهن، حتى إن أغلبية الكتّاب كانوا يعرفون جيدًا أن الأمر لا يعدو كونه وشاية، كما أنهم يدركون من هو الواشي. حلا بينما رأى البعض الأمر على نحو مخالف؛ إذ أكدوا ضرورة قيامي بالتعبير عن احتجاجي، مذكّرين إياي بالمثل الذي يقول: Calomniez, caomniez, il en reste toujours quelque chosel (العيار الي ما يصيبش يدوش)، وأضافوا، أنه نتيجة لهذا الظرف — وهو أنني المرأة التي كرست حياتها لخدمة زوجها وذكره — لم أجد ما أدحض به الوشاية، وعندئذٍ سيستنتجون أن بها ولو جزءًا يسيرًا من الحقيقة؛ وهنا يظهر صمتي كما لو كان تأكيدًا لها.

على أن عديدًا من الناس، الذين كدّرهم خطاب سترخوف، وجدوا أن دحض الوشاية أيضًا ليس كافيًا، وأن على الأصدقاء والشخصيات، الذين يذكرون فيودور ميخايلوفيتش بأحاسيس طيبة، عليهم أن يكتبوا احتجاجًا ضد هذا الافتراء الذي رماه به سترخوف. كما أن هناك أشخاصًا آخرين أرادوا أن يعبروا عن سخطهم بخطابات منفصلة، بينما رأى العديد من أصدقائي أنه قد يكون من الضروري، من أجل الرد على هذا الافتراء، إضافة مقالات الاحتجاج (إلى المذكرات)، والتي نُشرت على فترات مختلفة في المجلات، والتي تصور فيودور ميخايلوفيتش باعتباره إنسانًا محترمًا ومستقيمًا على نحو استثنائي. وقد استجبت لنصائح أصدقائي فأرفقت كلاً من الاحتجاج والمقالات بمذكراتي.

وفي معرض حديثي مع كثير من الأشخاص بشأن هذا الخطاب الشرير، الذي كدّر صفو سنواتي الأخيرة، سألتهم عن رأيهم في السبب الذي دفع سترخوف لأن يكتب هذا الخطاب؛ مالت الأغلبية للقول إن السبب يرجع إلى ما يُعرف بالغيرة المهنية *Jalousie de métier*، وهو أمر شائع في عالم الأدب، وأن فيودور ميخايلوفيتش يمكن أن يكون، على الأرجح، قد أغضب سترخوف (وهو ما ذكره الأخير)؛ إما بحسن نية، أو بسبب حدّته؛ ومن ثم جاءت رغبة سترخوف في الانتقام منه، حتى ولو لم يكن على قيد الحياة. لم يكن بوسع سترخوف أن يعبر عن رأيه كتابة؛ إذ كان يعلم أنه سوف يثير ضده عدداً كبيراً من المدافعين عن ذكرى دستوفسكي، ولم يكن من طبيعة سترخوف الدخول في معارك مباشرة مع الناس. وقد عبّر لي أحد الأشخاص، الذين عرفوا سترخوف عن

روسيا، ولا يذهب إليها إلا للحصول على دخله من ضيعته (انظر: الخطابات، المجلد الثاني، ص ٢٨). ولكن من غير المعروف لماذا اعتبرت أنّا جريجوريفنا أن الحديث يدور هنا عن ب. أ. فيسكوفانوف.

قرب، عن فكرة أن ستراخوف كان يسعى من وراء خطابه لأن «يشهر بدستوفسكي وأن يقلل من شأنه» في عيون تولستوي. وعندما أعربت عن شكوكي حول هذا الافتراض، راح محدثي يعبر عن رأيه في ستراخوف على نحو مبتكر تمامًا: «من هو ستراخوف في واقع الأمر؟ إنه نموذج «للنبيل الطفيلي»، وهو نموذج اختفى في الوقت الحالي، لكنه كان منتشرًا في الزمن القديم. تذكّرني أنه كان يحل ضيفًا لشهور طويلة على تولستوي وفَت ودانيلوفسكي، وكان يذهب في فصول الشتاء لتناول طعام الغداء في أيام بعينها لدى معارفه، ثم يروح ينقل الشائعات والفتن من بيت إلى بيت. لم يكن يحظى بأهمية خاصة باعتباره كاتبًا/فيلسوفًا، ولكنه كان ضيفًا مرغوبًا في كل مكان، إذ كان باستطاعته دائمًا أن يحكي شيئًا ما جديدًا عن تولستوي، الذي كان يعتبره صديقه. كان ستراخوف يُعلي من قيمة صداقته بتولستوي بشدة، وانطلاقًا من غروره، فقد يكون من الممكن أن يكون قد رأى في نفسه «سندًا» لتولستوي. أي إحباط إذن يمكن أن يكون قد أصاب ستراخوف، عندما وصف تولستوي دستوفسكي، بعد أن عرّف بموته، أنه كان يُعده «سنده»، وعبر عن أسفه الصادق أنه لم يلتق به أبدًا.^{٣٧} ومن الجائز أن تولستوي قد عبر في مناسبات كثيرة عن إعجابه بموهبة دستوفسكي، ولعله كان يتحدث عنه هنا وهناك، وهو ما كدّر ستراخوف، وحتى يضع حدًا لهذا الإعجاب، قرر أن ينال من دستوفسكي مُطلقًا هذه الافتراءات والوشايات؛ لكي يلطخ بها صورة دستوفسكي المتألقة في عيون تولستوي.

وربما كانت لدى ستراخوف فكرة أن ينتقم من دستوفسكي، الذي وجّه إليه يومًا ما إهانة؛ لذلك من خلال النّيل منه أمام الأجيال القادمة، وحيث إنه، وقد رأى أيّ تألق يتمتع به صديقه العبقري، فقد افترض أنه بعد خطابه هذا لتولستوي ومراسلاته الأخرى، سوف تُنشر جميعًا ولو بعد العديد العديد من السنوات، وعندها تتحقق فكرته الشريرة.

^{٣٧} يقول ل. ن. تولستوي في خطابه إلى ن. ن. ستراخوف، المؤرخ الأول من فبراير ١٨٨١م: «لم أشاهد هذا الرجل (دستوفسكي) إطلاقًا، ولم تكن لي به في أي وقت علاقة مباشرة، وفجأة، وعندما مات، أدركت أنه كان أقرب وأعزّ إنسان بالنسبة إليّ. لقد فقدت توازني على نحو ما، لقد شعرت بالإحباط. ثم أصبح من الواضح لي بعد ذلك، كم كان عزيزًا عليّ، وقد بكيت وما زلت أبكيه.» (ل. ن. تولستوي، الأعمال الكاملة، الجزء ٦٣، موسكو، ١٩٣٤م، ص ٤٣).

سوف أنهي هذا الحادث العرضي الصعب من حياتي، دون أن أتفق مع هذا الرأي الاستثنائي الذي ذكره لي محدثي، بكلمات وردت في خطاب ستراخوف تقول: «يمكن لكل الرذائل أن تتواءم مع النبَل في شخص واحد».^{٣٨}

^{٣٨} تعرّف دستوفسكي على ن. ن. ستراخوف الفيلسوف والناقد في ديسمبر عام ١٨٥٩م، بعد عودته مباشرة من المعتقل إلى بطرسبورج. وقد أصبح ستراخوف منذ عام ١٨٦١م واحداً من أقرب المحررين في مجلة «الزمن»، التي كان يصدرها الأخوان دستوفسكي، ثم في مجلة «العصر»، وكان ستراخوف شريكاً لدستوفسكي في آرائه الاجتماعية والسياسية، والتي كانت تسمى عادةً بنزعة «أنصار الأرض». ومن أشهر المؤلفات الفلسفية التي أصدرها ستراخوف، ونالت شهرةً كبيرة، والتي تشير إلى أنه كان من أتباع هيجل «العالم باعتباره كلاً واحداً» (الطبعة الثانية، ١٨٩٢م)، «مقالات فلسفية» (١٨٩٥م)، «عن المفاهيم النفسية والفسيولوجية الأساسية» (الطبعة الثانية، ١٨٩٤م). أما أهم الأعمال الأدبية النقدية لستراخوف فهي: «مقالات نقدية عن تورجينييف وتولستوي» (الطبعة الثانية، ١٨٩٥م) و«الصراع مع الغرب في أدبنا» (الطبعة الثالثة، ١٨٩٨م)، وكذلك أول سيرة كبرى لدستوفسكي في الجزء الأول من الأعمال الكاملة (١٨٨٣م). عن حياة وإبداع ستراخوف، انظر: كتاب: ب. نيكولسكي، ن. ن. ستراخوف، مقالات في نقد السيرة، بطرسبورج، ١٨٩٦م.

وعلى الرغم من التقارب الفكري بين دستوفسكي وستراخوف في انتمائهما لمعسكر «أنصار الأرض»، فإنهما لم يكونا صديقين على الإطلاق. وقد اتضح ذلك على وجه الخصوص في خطاب ستراخوف الشهير إلى ل. ن. تولستوي، المؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣م (انظر: «مراسلات ل. ن. تولستوي ون. ن. ستراخوف»، الجزء الثاني، سان بطرسبورج، ١٩١٤م، ص ٣٠٧-٣١٠)، والذي يعبر فيه عن ندمه لتولستوي؛ لأنه قد رسم صورة أحادية لشخصية دستوفسكي في «المذكرات» التي كتبها عنه (انظر: السيرة، ص ١٧٧-٣٢٩). وعلى الرغم من أن «مذكرات» ستراخوف عن دستوفسكي كانت تتجه نحو «فضح» دستوفسكي وإدانته (وإن حدث ذلك بحذر بالغ) قد تطور فيما بعد على نحو تام في خطابه إلى تولستوي؛ على أن دستوفسكي أيضاً لم يكن يضع ستراخوف إطلاقاً في موضع المثالي. خذ، على سبيل المثال، ما قاله في أحد خطابه: «إنه لاهوتي بغض لا أكثر، لقد انصرف عني فور انهيار «العصر»، ثم هُرع عائداً إلي فور نجاح «الجريمة» («الجريمة والعقاب». المترجم)» (الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٥٥). لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر، انظر: المقال الافتتاحي لهذه «المذكرات» (مذكرات زوجة دستوفسكي. المترجم). وعن العلاقة بين دستوفسكي وستراخوف، انظر: مقالة أ. س. دولينين في كتابه «روايات دستوفسكي الأخيرة» (موسكو، ليننجراد، ١٩٦٣م، ص ٣٠٧)، ومقالة ب. إ. بورسوف «عند قبر دستوفسكي» (مراسلات ل. ن. تولستوي ون. ن. ستراخوف) («النشرات العلمية لمعهد ألكسندر جيرتسين للعلوم التربوية»، العدد ٣٢٠، ليننجراد، ١٩٦٩م، ص ٢٥٤-٢٧٠). خطابات ستراخوف إلى دستوفسكي، انظر: كتاب «الستينييات»، موسكو، ليننجراد، ١٩٤٠م، ص ٢٥٥-٢٨٠.

خاتمة مذكراتي

كنت أتصور حياتي كلها بمثابة لغز من نوعٍ ما؛ فزوجي الطيب لم يكن يحبني ويحترمني فقط، كما يحب كثير من الأزواج زوجاتهم ويحترمونهن، إنما كان يعبدني، وكأنني كيان خاص خُلق من أجله تحديدًا. ولم يكن ذلك موجودًا في الفترة الأولى من زواجنا فحسب، وإنما ظل الأمر كما هو طوال السنوات التالية وحتى آخر يوم في حياته. وفي الواقع لم أكن أتميز بالجمال، أو أمتلك مواهب أو ميزات عقلية خاصة، وإنما تعليم متوسط (ثانوي). وها أنا، على الرغم من ذلك، استحققت من هذا الإنسان الذكي الموهوب احترامًا عميقًا، بل عبادة تقريبًا.^١

وقد تكشّف لي هذا اللغز بعض الشيء، عندما قرأت ملاحظة فاسيلي فاسيليفيتش روزانوف^٢ على خطاب نيكولاي ستراخوف، المؤرخ الخامس من يناير ١٨٩٠م في كتابه «أدباء منفيون». أسجل هذه الملاحظة هنا (ص ٢٠٨):

«ليس هناك أحد بإمكانه، حتى ولو كان «صديقًا»، أن يقوم مسارنا. لكن السعادة الكبرى أن تصادف إنسانًا له مزاج مختلف تمامًا؛ طابع آخر، رؤى مختلفة، إنسانًا يظل على سجيته دائمًا، لا يقلدنا ولو بقدر ضئيل، لا يتخذنا قدوة (كثيرًا ما يحدث ذلك!) لا يُقحم روحه (التي تفتقد عندئذٍ إلى الصدق!) في شئوننا النفسية، في تشوّشنا، في شئوننا

^١ الذين قرءوا خطابات زوجي خالد الذكر إليّ لن يروا في كلماتي أيّ قدر من التفاخر (ملاحظة لأنّنا جريجوريفنا دستوفسكايا).

^٢ فاسيلي فاسيليفيتش روزانوف (١٨٥٦-١٩١٩م): فيلسوف وكاتب وناقد؛ مؤلف كتاب «أسطورة المفتش الأعظم عند ف. م. دستوفسكي».

الخاصة، قد يمثل هذا الإنسان جدارًا متينًا، حاجزَ صدِّ «لحماقاتنا» و«جنوننا»، وهل يخلو امرؤ منهما؟

إنما تكمن الصداقة في الاختلاف، لا في الاتفاق. وفي الحقيقة، فقد كافأني الله باعتباري معلمًا، بسترخوف، وكانت صداقتي معه وعلاقتي به تشكلان دائمًا جدارًا متينًا. كنت أشعر أنني أستطيع دائمًا أن أعتمد عليه، أو بتعبير أدق، أن أستند إليه؛ فهو جدار لا يخذلك؛ فضلًا عن أنه يُشعرك بالدفع.»

في الواقع، كنت أنا وزوجي نعتبر أنفسنا أناسًا لهم مزاج مختلف تمامًا؛ لهم طابع آخر؛ رؤى مختلفة، لكننا بقينا على سجيّتنا دائمًا، لم يتدخل أحدنا في شئون الآخر، لم يقلده، لم يقتحم عالمه النفسي. وهكذا كنت وزوجي الطيب نشعر بحرية أرواحنا. كان فيودور ميخايلوفيتش يفكر كثيرًا وحده في الأسئلة العميقة للنفس البشرية. وكان يقدر لي عدم تدخلي في حياته النفسية والعقلية، ولهذا كان كثيرًا ما يقول لي: «أنتِ المرأة الوحيدة التي فهمتني!» (هذا ما كان يمثل أكثر الأشياء أهميةً بالنسبة إليه.) وكانت علاقته بي تمثل «جدارًا متينًا (وكان يشعر بذلك)، كان باستطاعته أن يعتمد عليه، أو بتعبير أدق، يستند إليه. وهو جدار لا يخذلك؛ فضلًا عن أنه يُشعرك بالدفع.»

وهذا هو ما يفسر، من وجهة نظري، هذه الثقة المدهشة التي كان زوجي يوليها لي ولكل تصرفاتي، على الرغم من أن كل ما فعلته لم يكن يتجاوز إطلاقًا حدودَ المألوف. إن هذه العلاقة، من طرفيها، أعطتنا إمكانيةً أن نواصل حياتنا الزوجية على مدى أربعة عشر عامًا في سعادة أرضية متاحة لمن أراد من الناس.

التعليقات

لم تصدر مذكرات أنا جريجوريفنا دستوفسكايا كاملة على الإطلاق. وقد قام ليونيد بتروفيتش جروسمان^١ بنشر أكثر الطبعات اكتمالاً في عام ١٩٢٥م. انظر: أ. ج. دستوفسكايا، جوسيزدات، موسكو، ليننجراد، ١٩٢٥م. ويتضمن هذا الكتاب كل ما يتعلق بحياة دستوفسكي، وكذلك مقطعين مستقلين «ردي على سترخوف» و«أصحاب المذكرات». وقبل ذلك بفترة، في عام ١٩٢٣م، نُشر لأنا جريجوريفنا عمل آخر بعنوان «اليوميات».

لقد شكلت المذكرات ويوميات عام ١٨٨٧م، اللتان نُشرتا في العشرينيات (من القرن العشرين) حدثاً أدبياً كبيراً. وقد تمت ترجمتهما إلى اللغات الأوروبية الأساسية، ومنذ ذلك الحين أصبحت محللاً لاهتمام الباحثين في إبداع دستوفسكي؛ سواء من الأجانب أو السوفيت، باعتبارهما مادة ذات أهمية قصوى لدراسة حياة وإبداع الكاتب. على أن نقصاً شاب الطبعة الأولى من المذكرات، ظهر في افتقارها إلى استخدام هيئة تقوم بالمراجعة العلمية، وإلى تعليقات تاريخية أدبية؛ إذ تمثل هذه التعليقات أهمية فائقة لكتب الذكريات.

لقد أصبحت ذكريات أنا جريجوريفنا عملاً ببليوجرافياً نادراً. وقد أعاد نشر مقاطع منها في كتاب «فيودور ميخايلوفيتش دستوفسكي في مذكرات معاصريه» (١٩٦٤م)، أعاد القارئ إلى صفحات مختارة من كتابي أنا جريجوريفنا دستوفسكايا، وأكد في الوقت نفسه على ضرورة إعادة إصدار الذكريات في أكثر صورها الممكنة اكتمالاً.

^١ ليونيد بتروفيتش جروسمان (١٨٨٨-١٩٥٦م): عالم سوفيتي متخصص في الدراسات الأدبية؛ له دراسات عن دستوفسكي وبوشكين وتراجم في قالب روائي. (الترجم)

في هذه الطبعة من «المذكرات»، وكما في الطبعة الأولى (١٩٢٥م)، يتم نشر الأبواب التي تتعلق مباشرة بحياة دستوفسكي (بدءاً من عام ١٨٦٦م وحتى عام ١٨٨١م). ويضم الكتاب أيضاً أكثر الأبواب أهمية، والتي تعود إلى ما قبل عام ١٨٨٦م (قبل لقاء أنا جريجوريفنا بدستوفسكي) وإلى ما بعد عام ١٨٨١م (أي بعد وفاة الكاتب). ففي المذكرات التي سبقت عام ١٨٦٦م، تحكي أنا جريجوريفنا بالتفصيل عن طفولتها وشبابها؛ عن والديها؛ وعن المحيط التي تعيش فيه؛ وعن أقاربها. كان هذا تسجيلاً لحياتها العائلية يتسم بالبساطة. ويتضمن هذا الكتاب، للمرة الأولى منذ تلك الفترة المبكرة، وحتى صدوره فصلين «مجيئي إلى الدنيا» و«التعليم»، ومن خلالهما نتعرف على الوضع الذي تشكلت من خلاله شخصية زوجة الكاتب الذكية القادمة على نحو بليغ.

وتتضمن الطبعة التي بين أيدينا، كما في الطبعة الأولى، مذكرات ما بعد عام ١٨٨١م، وذلك في الفصلين «آفة النسيان عند فيودور ميخايلوفيتش» (وهذا الفصل يتوافق زمنياً مع الفترة من ١٨٦٦م وحتى ١٨٨١م)؛ «ردّي على سترخوف»، وكذلك الفصل المعنون «حديث مع تولستوي» (وقد نُشر للمرة الأولى في المنتخب «كولتورا» (الثقافة)، المجلد الأول، أوديسا، ١٩٢٣م؛ دار نشر «إيسكوستفو» (الفن)، ١٩٢٣م، العدد الثاني).^٢

بدأت أنا جريجوريفنا دستوي دستوفسكايا كتابة مذكراتها منذ عام ١٩١١م وحتى عام ١٩١٦م، وقد أوشك العمر على الأفول، غاب العديد من الأحداث عن ذاكرتها، وبدأت حتى دفاتر الاختزال والسجلات غير كافية دائماً لترابط القصص على نحو متتابع. أحياناً ما نجد في المخطوطات تكراراً عفويّاً، فقرات مفقودة اضطرارياً. لم تنجح أنا جريجوريفنا في إعداد المخطوطة في شكلها النهائي لدفعها إلى المطبعة؛ فهي لم تقسمها إلى أجزاء كبيرة؛ الأمر الذي كان يشكل ضرورة ملحة، كما أنها لم تكن تعطي دائماً عناوين للعديد من الفصول.

من الجائز أن يكون السبب وراء هذا «النقصان» هو الحجم الكبير للأجزاء غير المتساوية التي تم تحريرها في الطبعة الأولى (١٩٢٥م)، والفقرات المفقودة والاختصارات

^٢ جزء من هذه الذكريات نُشر منه فصل «مقدمة إلى مذكراتي عن المتحف» («كراستي أرخيف» (الأرشيف الأحمر)، ١٩٢٣م، المجلد الثالث).

التي أُدخلت على جزء من النص، الذي طُبِع كاملاً، ومن ثم شَوَّه كثيراً فكرة المؤلف^٢ تنقسم «مذكرات» أنا جريجوريفنا دستوفسكايا إلى اثني عشر باباً، تقع في تتابع زمني يتفق مع أكثر مراحل حياة دستوفسكي أهمية. أما عناوين الأبواب فقد وضعتها هيئة التحرير. وينقسم كل باب بدروه إلى فصول؛ وذلك، في حقيقة الأمر، بناء على موافقة صاحبة المذكرات، كما ترجع إليها عناوين الفصول (فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة). وبالمقارنة بالمخطوطة، تم إدخال عدد من التعديلات الضرورية إلى الطبعة الحالية؛ وَفَقاً لمنطقية السرد وتتابع الفصول، وكذلك إدخال بعض المقاطع المستقلة إلى هذه الفصول.

تم نقل الفصل الأول من الباب الثاني «العام ١٨٦٧م» إلى الباب الثالث؛ تبعاً للفكرة. والفصل الثاني «١٨٧٤م. السفر إلى الخارج» إلى الباب السابع، وقد تكرر هذا الفصل في المخطوطة مرتين. ونقدم في هذه الطبعة النص الأكثر دقة. ولم نورد فيها الصفحة ٣٤٨؛ إذ إنها تكررت، وقد تم إدخالها في السياق الملائم في الفصل الخامس من الباب السابع. وفي الباب الثامن، الفصل السادس «العام ١٨٧٧م. شراء البيت. السفر إلى ميروبولي، نبوءة فيا»، قدمت أنا جريجوريفنا ملحوظة غير دقيقة؛ إذ كان من الضروري وَضْع الفصل الخامس السابق «العام ١٨٧٧م. ضياع الصالون» في منتصف هذا الفصل. وقد ظلت هذه الفصول في الطبعة الحالية دون تعديلات وبنفس التتابع الذي كانت عليه في المخطوطة. وفي الباب التاسع، الفصل الثالث «العام ١٨٧٨م. التعرف على الأميرين العظميين»، كتبت الملحوظة التالية على حواف المخطوطة بعيداً عن خطاب قنسطنطين قنسطنطينوفيتش». وحيث إن أنا جريجوريفنا لم تضع إشاراتٍ دقيقة تبين موضع هذا الخطاب، وحيث إن نقل الخطاب من موضعه يُخلُّ بالنص؛ فقد بقي في مكانه في الفصل الثالث من الباب التاسع، على النحو الذي كان عليه في المخطوطة. تم نقل الفصل الثامن، كما تمت الإشارة من قبل، وهو «آفة النسيان عند فيودور ميخايلوفيتش»، إلى الفصل التاسع من القسم الأخير لمخطوطة أنا جريجوريفنا دستوفسكايا؛ ومن ثم فقد وضع هذا الفصل، خلافاً للطبعة الأولى، في نهاية الباب لا في منتصفه. الفصل الثاني «بداية مطلع عام ١٨٨٠م. الأمسيات الثقافية. زيارة المعارف»، ويضم الباب العاشر فصلين مستقلين عن المخطوطة،

^٢ انظر: تعليق س. ليفين على هذه الطبعة في مقالة: المخطوط المشوَّه، مجلة ف. ليتيراتورنوم بوستو (في الموقع الأدبي)، ١٩٢٨م، العدد ٢٣، ص ٦٠-٦٣.

وحيث إن الفصلين يكرر بعضهما بعضًا جزئيًا، فقد تم دمجهما في هذه الطبعة في فصل واحد.

مخطوطة «مذكرات» أنا جريجوريفنا دستوفسكايا محفوظة بمكتبة الدولة بالاتحاد السوفيتي. التي تحمل اسم فلاديمير إيليتش لينين، وتتكون من سبعمائة واثنين وتسعين صفحة بخط صاحبة المذكرات.

المصادر والاختصارات^١

- السيرة، ف. م. دستوفسكي، الأعمال الكاملة، الجزء الأول. السيرة، الخطابات وملاحظات من المفكرة، سان بطرسبورج، ١٨٨٣م.
- فولوتسكوي، م. ف. فولوتسكوي، شجرة عائلة دستوفسكي (١٩٠٦-١٩٣٣م)، موسكو، ١٩٣٣م.
- م. د. إ. مكتبة الدولة بالاتحاد السوفيتي، التي تحمل اسم ف. إ. لينين.
- جروسمان، ل. ب. جروسمان، حياة وأعمال ف. م. دستوفسكي، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٥م.
- جروسمان، السمينارات، ل. ب. جروسمان، سمينارات دستوفسكي، موسكو، براج، ١٩٢٣م.
- مفكرة دستوفسكي، أ. ج. دستوفسكايا، المفكرة، ١٨٦٧م، موسكو، ١٩٢٣م.
- وثائق في تاريخ الأدب والمجتمع، الإصدار الأول، ف. م. دستوفسكي، موسكو، ١٩٢٢م.
- دستوفسكي، ١٩٢٦-١٩٣٠م، ف. م. دستوفسكي، الأعمال الكاملة، الروايات. المحرران: ب. توماشيفسكي وك. خالابيف، الأجزاء من ١-١٣. موسكو، ليننجراد، ١٩٢٦-١٩٣٠م.
- دستوفسكي، ١٩٥٦-١٩٥٨م، ف. م. دستوفسكي، الأعمال الكاملة في عشرة أجزاء، موسكو، ١٩٥٦-١٩٥٨م.

^١ المصادر والاختصارات التي استخدمتها اللجنة العلمية في الطبعة الحالية، ما عدا المقال الافتتاحي.

مذكرات زوجة دستوفسكي

- دستوفسكي، الجزء الأول، «دستوفسكي. مواد وأبحاث»، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الأول، براج، ١٩٢٢م.
- دستوفسكي، الجزء الثاني، «دستوفسكي. مواد وأبحاث»، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الثاني، ليننجراد، ١٩٢٤م.
- دستوفسكي في مذكرات معاصريه، الجزأين الأول والثاني، «ف. م. دستوفسكي في مذكرات معاصريه»، الجزأين الأول والثاني، المحرر: أ. س. دولينين، موسكو، ١٩٦٤م.
- زاموتين، إ. إ. زاموتين، ف. م. دستوفسكي في النقد الروسي، الجزء الأول، ١٨٤٦-١٨٨١م، وارسو، ١٩١٣م.
- ب. ت. «البشير التاريخي».
- ت. أ، الجزء ١٥، «التراث الأدبي»، الجزء ١٥، موسكو، ١٩٣٤م.
- ل. ف. دستوفسكايا، ل. ف. دستوفسكايا، دستوفسكي كما صورته بناته، المحرر: أ. ج. جورتسفيلد، موسكو، براج، ١٩٢٢م.
- ح. و. «حوليات الوطن».
- الخطابات، ف. م. دستوفسكي، الخطابات، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الأول، موسكو، ليننجراد، ١٩٢٨م؛ الجزء الثاني، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٠م؛ الجزء الثالث، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٤م؛ الجزء الرابع، موسكو، ١٩٥٩م.
- أ. ح. م. أ. ف. الأرشييف الحكومي المركزي للأدب والفن.

